ترجمة
أحمد الصمعي



مؤلف الرواية الأكثر مبيعاً
اسم الوردة

# مقبرة براغ

Il Cimitero Di Praga



أُمبَرْتو إيكو

UMBERTO ECO

الكتاب الجديد

أُمبَرْتو إيكو

# مقبرة براغ




ترجمة وتقديم

أحمد الصّمعي

دار الكتاب الجديد المتحدة

# مقبرة براغ

Original Title:
**IL CIMITERO DI PRAGA**
by **Umberto Eco**


نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإيطالية 2010



**الطبعة الأولى**
آذار/مارس 2014

**مقبرة براغ**
**ترجمة وتقديم** أحمد الصمعي
**موضوع الكتاب** رواية
**الحجم** 16 × 23 سم
**تصميم الغلاف** دار الكتاب الجديد المتحدة
**التجليد** برش مع ردّه

**ISBN** 978-9959-29-630-6
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
**رقم الإيداع المحلي** 2013/127

**دار الكتاب الجديد المتحدة**
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
**هاتف** 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
**ص.ب.** 14/6703 بيروت ـ لبنان
**بريد إلكتروني** szrekany@inco.com.lb
**الموقع الإلكتروني** www.oeabooks.com



**توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا** دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس
**هاتف** 04 03 75 1 961+/بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

**توزيع داخل ليبيا** شركة دار أويا لاستيراد الكتب والمراجع العلمية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ ليبيا
**هاتف وفاكس** 013 07 34 21 218 + نقّال 463 45 21 91 218 +
**بريد إلكتروني** oeabooks@yahoo.com

«نظراً لأن الوقائع تكتسي أهمية بدورها، ولأنها تشكل القسم الرئيس في قصة تاريخية، فلقد أدرجنا في هذه الأخيرة، تنفيذ القتل في مائة مواطن شُنِقوا في الساحة العامة، وحادثةَ راهبين أُحرِقا حيّيْن، وظهورَ نيزك في السماء، وكلّها توصيفات تُضاهي وصف مائة مباراة، والتي لها فضل شغل انتباه القارئ عن الحادثة الرئيسة».

(كارلو تينكا Carlo Tenca، *La ca' dei cani*)

# تقديم

هذه الرواية السادسة لإيكو ليست كسابقاتها، حتى وإن شابهتها من عدّة نواحٍ: فهي أيضاً من الوزن الثقيل (حوالى 500 صفحة)، وهي أيضاً متعدّدة المستويات، متاهيّة البنية، متشعّبة المسالك، تتطلّب من القارئ جهداً تأويليّاً خاصّاً ونُضجاً فكريّاً يمكّنه من رصد مقاصد المؤلف رصداً صحيحاً، دون السقوط في أحكام لا يقبلها العقل. ما يُميّزها عن الروايات السابقة شيئان أساسيان (إضافة إلى خُصوصيّات ذاتية لا بدّ منها). الشيء الأول هو السلبيّة المطلقة لبطل الرواية، النقيب سيمونيني. فلو بحثت له عن خِصلة من الخِصال أو عن ميزة من الميزات لما وجدت شيئاً، ما عدا مهارته الفائقة في تزوير الوثائق، واستعداده الدائم لاقتراف الجُرم إذا كان فيه ربح، وفقدانه لكلّ عاطفة حبّ أو صداقة أو أخوّة. فهو يكره كلّ الشعوب وكلّ المِلَل، لا يسلم من حقده لا الفرنسيّون ولا الإيطاليّون ولا الألمان، وفوق الكلّ يكره اليهود. يقول راشكوفسكي، رجل المخابرات الروسيّة "أوكرانا"، في إحدى صفحات الكتاب " الحال هو أن معنى الهويّة يقوم على الكره، كره من هو غير مُماثل. ينبغي تنمية الكره كعاطفة مدنيّة". وسيمونيني جعل من الكره عاطفته الأوليّة، فهو الذي يغذّي حقده ويجعل منه شخصيّة لا يُمكن للقارئ أن يتفاعل معها إيجابيّاً، كما لا نتصوّر أنّ إيكو يتوارى وراء بطله ويعبّر من خلال أقواله، كما هو الحال في الروايات السابقة، حتى وإن قال سيمونيني (ومن وراءه إيكو) " إنّ كبار الرواة يصفون أنفسهم دائماً من خلال شخصيّاتهم". ولكن لا يجب أن ينخدع القارئ، فالقولة جاءت على لسان سيمونيني، وسيمونيني أكبر مزوّر وأمكر خدّاع عرفه الأدب.

أما الميزة الثانية التي تتفرّد بها مقبرة براغ هي أنّ كلّ الشخصيّات الأخرى،

ما عدا سيمونيني، وكلّ الوقائع والأحداث والأقوال صحيحة تاريخيّاً، من حملة غاريبالدي إلى أحداث الكومونة في باريس، إلى قضية درايفوس، إلى نشأة بروتوكولات حكماء صهيون، وحلقة الوصل بينها كلها هو سيمونيني. يعود التاريخ من جديد ليمثل المحفر الذي يستمدّ منه إيكو مادّته الروائيّة، ولكنه في هذه الرواية ليس مشهداً خلفيّاً تدور أمامه أو حوله وقائع وشخصيات خياليّة مثلما في "اسم الوردة" أو في "بندول فوكو" أو في "جزيرة اليوم السابق". التاريخ والشخصيّات التي عاشته مثل غاريبالدي، نييفو، درايفوس، القسّ بولّان، ليو تاكسيل وغيرهم، هو القصّة (الحقيقيّة؟) الوحيدة، والتي يمكن لأيّ كان أن يتحقّق منها بواسطة مراجع ودراسات أخرى. ما يُزعج القارئ هو الشكّ الذي سيخامره بعد قراءة الكتاب في أنّ هذا التاريخ هو نتيجة زيف وتزوير وخدعة ومؤامرات. لذا لا تمكن روايته إلّا من خلال شخصّية جعلت من الزيف والخدعة فنّاً ومهارة لا يُضاهيه فيهما أحد.

هذا الطابع السلبي الذي يميّز بطل الرواية، سيمونيني، جعل البعض ينتقد سلبيّاً هذا العمل الروائي ويرى فيه استفزازاً من طرف إيكو، وتحريضاً (دون شكّ غير مقصود) على كره الآخر، وبالخصوص على مُعاداة الساميّة. إذ إنّ جزءاً هامّاً من الكتاب يتحدّث عن اليهود بأشنع النُّعوت (مع كل الأحكام المُسبقة حول نتانة اليهود، وجشعهم اللامحدود، وخبثهم المتأصّل وغير ذلك من الأفكار التي تتداولها العامّة) ويُبرز ضُلوعهم في المؤامرات من أجل توطيد هيمنتهم بهدف السيطرة على العالم. لم يُعجب الكِتاب بعض الأوساط القريبة من الفاتيكان لخوفها من أن يأخذ البعض أقوال سيمونيني مأخذ الجِدّ، وعوض أن يكون الكتاب سلاحاً لمقاومة التعصّب والعنصريّة وكره من هو مختلف في الدين أو في العرق، يُصبح على العكس أداة في أيدي البعض يبرّرون بواسطتها كرههم لليهود أو لأقوام أو لديانات أخرى. وهذا ما أراد قوله إيكو في تعقيبه على الكتاب حينما قال "إنّ الشخصيّة الوحيدة المُبتدَعة في هذه القصّة (أي سيمونيني) هي الأصدق، وهي تشبه كثيراً آخرين لا يزالوا يعيشون بيننا". فبينما انقرضت الشخصيّات التاريخية الأخرى، فإن أمثال سيمونيني كثيرون، وُجدوا دائماً في الماضي وسيوجدون دائماً في المستقبل.

كما عوّدنا إيكو دائماً، تستعيد هذه الرواية نظريّاتٍ وأفكاراً سبق أن تناولها المؤلف في روايات سابقة أو في دراسات نظريّة تمدّ جسراً بين فيلسوف اللغة والراوي. مثل ذلك، نظرية المؤامرة الكونية التي نجدها في "بندول فوكو"، والتي اختلقها كازوبون ورفاقه لمجرّد اللهو والتسلية الفكريّة، ولكنهم وجدوا أنفسهم سجناء المؤامرة التي ابتدعوها وفي نهاية الأمر أصبحوا ضحاياها، لأنه وُجد من صدّق وجود المؤامرة فعمل على تنفيذها. إلّا أننا في هذه الرواية إضافة إلى "المؤامرة الكونية" التي يدبّر لها اليهود، نجد مؤامرات عديدة أخرى اختُلِقت لبلوغ أغراض سياسيّة أو لتشويش الرأي العام. كما نجد ذِكراً للمحافل الماسونية في "بندول فوكو"، وهي تعود هنا إلى جانب الجمعيات اليسوعيّة والمخابرات في متاهة من التسميات والدرجات. كما تناول إيكو موضوع الزيف في رواية سابقة هي باودولينو حيث يكتب بطل رواية وثيقة وينسبها إلى الكاهن يوحنّا أو "جياني"، الذي صار في القرون الوسطى شخصيّة أسطورية ذات سلطان عظيم على رأس مملكة مليئة بالكنوز تعيش فيها أقوام وحيوانات عجيبة. ولكنه تناول أيضاً موضوع الزيف في إحدى دراساته الأخيرة، من الشجرة إلى المتاهة، وتحديدا في الباب الخامس حيث يقول في خاتمة الباب "نحن نجد أنفسنا (اليوم)، في الأوساط السياسية وفي وسائل الاتصال الاجتماعية، أمام نوع جديد من الزيف. ولا يتعلّق الأمر فقط بالخبر الزائف بل أيضاً بالوثيقة المُنتحلة، المُشاعة من طرف إحدى المخابرات، أو حكومة ما، أو من طرف قوّة صناعية، لخلق بلبلة اجتماعية أو حيرة في الرأي العام... فهي تصلح لزعزعة الاستقرار، لرمي الشبهة على من هو في السلطة أو في المعارضة، لإدخال الشكّ في المصادر، لخلق التشويش".

وهذا بالفعل ما نجده في هذا الكتاب: يمرّ سيمونيني من خدمة المخابرات البيمونتيّة أثناء حملة غاريبالدي، إلى خدمة المخابرات الفرنسية أيّام الكُومونة، فالمخابرات الألمانية وبعدها الروسيّة. وصنعته الأساسيّة، إلى جانب التخلص جسديّاً من معرقليه ومن أعدائه، هي تزييف الوثائق، بدءاً من تزييف الوصايا لفائدة ورثة غير شرعيّين، و"البوردورو" الذي أدان الضابط اليهودي درايفوس، وصولاً إلى البروتوكولات التي مهّدت لإعداد الحلّ النهائي. رواية مقبرة براغ،

مثل روايات إيكو الأخرى، تستعمل الماضي للحديث عن الوقت الحاضر. يتعجّب سيمونيني (ونتعجّب نحن لعجبه) قائلاً "يا إلهي، كيف يمكن أن نعيش في عالم من المُزيفين؟". ونحن اليوم مع انتشار الصحافة الحرّة وأجهزة الاتصال الجديدة، وشبكات التواصل الاجتماعية، نعيش بالفعل في عالم من المزيّفين، ولم نعد نعرف أين توجد الحقيقة وفيمن يجب أن نثق. هذه الرواية هي في الواقع درس مفيد ينبّهنا إلى عدم الانسياق للرأي الواحد المطلق، المُتعصّب والمُنغلق على ذاته، وإلى عدم الانسياق للعنف بدافع الكره، وبالخصوص إلى الاحتكام إلى العقل حتى في المسائل التي نعتبرها مقدّسة.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الصديق الأستاذ محمد البكري والذي قرأ العمل من أوله إلى آخره، وراجع النص كاملاً، وقدم ملاحظات هامة.

**أحمد الصمعي**

# 1

## إنّ المارّ في تلك الصبيحة الضبابيّة

إنّ المارّ في تلك الصبيحة الضبابيّة من مارس 1897 والذي يَعْبُر مجازفاً بنفسه وبماله ساحة موبير، أو لاموب، مثلما يسمّيها الأشرار (وسبق أن كانت في القرون الوسطى مركزاً للحياة الجامعيّة، عندما كانت تستقبل جموع الطلبة الذين يرتادون كليّة الفنون في الـ "الفيكوس سترامينيوس" Vicus Stramineus، أو شارع دي فوارّ، وصارت بعد ذلك مكان إعدام لرسُل الفكر الحرّ من أمثال إيتيان دوليه) سيجد نفسه في أحد تلك الأماكن القليلة التي نجت من تهديمات البارون هوسمان، وسط شبكة من الأزقّة النتنة، يقسمها إلى جزأين مجرى نهر البييفر، الذي كان آنذاك لا يزال يخرج من أحشاء المدينة التي حبسته زمناً، لكي يلقي بنفسه متلهّفاً، مزبداً ومتّسخاً في نهر السّين القريب. من ساحة موبير، التي فتحها مثل جرح بولفار سان جرمان، تنطلق شبكة عنكبوتية أخرى من النُّهُج الصغيرة مثل شارع ماتر ألبير، شارع سان سيفران، شارع غالوند، ري ديلا بوشيري، شارع سان جوليان لو بوفر، وصولاً إلى زقاق دي لاهوشيت، تنتشر فيها نُزُل قذرة يديرها في العادة أوفارنيّون، المعروفون بجشعهم الأُسطوريّ، يطلبون فرنكاً لليلة الأولى وأربعين سنتيماً للموالية (وعشرين فلساً إضافيّة إذا أراد أحدهم لحافاً).

وإذا دخل في ما سيصير من بعد شارع سوتون، وآنذاك شارع دومبواز، فإنّه سيجد بين ماخور متقنّع في مشرب جَعَة وحانة يُقدّم فيها، مع خمر رديئة، عشاءً يساوي فلسيْن (وهو ثمن بخس حتّى في ذلك الوقت ولكن هذا كلّ ما يقدر عليه طلبة السوربون)، وزنقة غير نافذة كانت تسمّى آنذاك "أمباس موبير"، ولكنّها

كانت معروفة قبل ذلك بكو دي ساك دومبواز، وقبل ذلك بسنوات كان يوجد فيها ما يسمّى بـ tapis-franc (في لغة الصعاليك هي حانة، أو مشرب من أدنى مستوى، يديرها في العادة شخص ذو سوابق عدليّة ويرتادها مساجين غادروا للتوّ الأشغال الشاقة)، وحافظ على شهرة قاتمة لأنّه في القرن الثامن عشر كان يوجد فيه مَخْبَر لثلاث مُسَمِّمات شهيرات، عُثر عليهنّ يوماً مختنقات بالأبخرة القاتلة المتصاعدة من المستحضرات التي كُنَّ بصدد طهوها على النار.

في منتصف ذلك النَّهْج توجد واجهة تكاد لا تُرى لبائع أشياء قديمة فوقها إعلان باهت اللون يشهرها باسم Brocantage de Qualité - واجهة أصبحت معتمة بسبب الغُبار السميك المتراكم على الزجاج، الذي كان في حدّ ذاته لا يكشف إلّا القليل من البضاعة المعروضة وتلك الموجودة بالداخل، لأنّه عبارة عن مربعات لا تتجاوز أضلاعها العشرين سنتيمتراً، تشدّها شبكة خشبية. وسيرى المارّ إلى جانب تلك الواجهة باباً، مغلقاً دائماً، وإلى جانب خيط الجرس لافتة تنبّه إلى أنّ صاحب الدكّان غائب وقتيّاً.

وإذا ما فُتح الباب، ونادراً ما يقع ذلك، فإنّ من يدخل سيرى تحت الضوء الشاحب الذي ينير ذلك الجُحْر، فوق بعض الرفوف القليلة المتهالكة وبعض الألواح التي لا تقلّ عنها ترجرجاً، خليطاً من الأشياء قد تبدو لأوّل وهلة جذّابة، ولكن عند التدقيق فيها بعناية تظهر أنّها غير ملائمة لأيّ تبادل تجاريّ نزيه، حتّى وإن كان العرض بأسعار حقيرة حقارة البضاعة نفسها. مثال ذلك أُثفيّتان لا تشرّفان أيّ مدفأة، ساعة حائطيّة ذات طلاء أزرق مقشّر، وسائد كانت ربّما في السابق مطرّزة بألوان زاهية، مزهريّات بتماثيل صغيرة من الخزف مهشّمة الأطراف، طاولات صغيرة غير ثابتة من نمط غير معروف، سلّة لوضع الأوراق من حديد متآكل بالصدأ، علب مختلفة مزيّنة بالدمغ الوشمي، مراوح بشعة من الصدف مزدانة برسوم صينيّة، قلادة تبدو من العنبر، حذاءان صغيران من الصوف الأبيض بخيوط مطعّمة بلآلئ إيرلنديّة صغيرة، تمثال نصفي مَثْلُوم لنابوليون، فراشات تحت زجاج مجرّح، غلال من الرخام متعدّد الألوان تحت قبّة كانت في السابق شفّافة، جوز الهند، ألبومات قديمة برسوم مائية متواضعة تمثل أزهاراً، بعض الصور الدائرية في أُطُرها (والتي لم تكن تبدو في تلك السنوات عتيقة قط)

- بحيث إنّه حتّى وإن تملّك أحدهم غَرَامٌ بامتلاك إحدى تلك البقايا المخجِلة من مبيعات أثاث بعض العائلات المُعْوِزة، ووجد أمامه صاحب المحلّ المثير للريبة، وسأله عن ثمنها، فإنّه سيُصدم بمبلغ يثني عزم كلّ مغرم بالتحف القديمة.

وأخيراً، إذا أمكن للزائر، بإذن خاص، أن يجتاز باباً ثانياً يفصل داخل الدكان عن الطوابق العُليا للمبنى، وصعد درجات أحد تلك السلالم الحلزونيّة المتقلقلة والتي تميّز تلك الدور الباريسيّة التي لا يزيد عَرْضُ واجهتها عن باب الدخول (هنالك حيث تتكدّس مائلة إحداها على الأخرى)، فإنّه سيجد نفسه في صالون فسيح لا يحوي ذلك الخليط من المتاع الموجود في الطابق الأرضي بل مجموعة من الأشياء ذات طبيعة جدّ مختلفة: طاولةً صغيرة من الطراز الإمبراطوري ذات ثلاث أرجل تزينها رؤوس نُسُور، منضدة يحملها سفْنِكس مجنَّح، خزانة من طراز القرن السابع عشر، رفوفاً من لوح الأكاجو صُفَّت فوقها حوالى مائة كتاب مجلّدة تجليداً جيّداً، طاولة مكتب من النوع المسمّى بالأميركي، يُغلق بدولاب وله أدراج عديدة مثل مكتب سكرتير. وإذا ما مرّ إلى الغرفة المحاذية، فإنّه سيجد فراشاً فاخراً بالقبّة، ورقّاً عتيقاً محمّلاً بتحف من خزف سيفر، ونارجيلة تركيّة، وكأساً كبيرة من المرمر، ومزهريّة من البلّور، وعلى الجدار الخلفي معلّقات برسوم تمثّل مشاهد أسطوريّة، ولوحتين كبيرتين تمثّلان ربّتَي التاريخ والكوميديا، وبرانيس عربيّة معلّقة هنا وهناك على الجُدْران، وأثواباً أخرى شرقيّة من الكشمير، وقربة حَجِيج قديمة؛ ثمّ حاملة حوض صغير مع صفيحة محمّلة بأدوات زينة من معادن نفيسة - بإيجاز، مجموعة عجيبة من الأشياء الغريبة والثمينة، قد لا تنمّ عن ذوق متناسق ورفيع، ولكنّها توحي دون شكّ برغبة في إظهار البذخ.

ولو رجع الزائر إلى صالون المدخل لانتبه إلى أن شخصاً متقدماً في السن، ملتحفاً في عباءة، يجلس إلى طاولة أمام النافذة الوحيدة التي ينفذ منها الضوء الشحيح الذي يضيء الزقاق المغلق، وإذا ما سرق الزائر النظر من فوق كتفيه فإنّه سيرى أنّه بصدد كتابة ما نستعدّ نحن لقراءته، والتي سيختصرها أحياناً الراوي، لكي لا يضجر القارئ كثيراً.

ولا ينتظرنَّ القارئ من الراوي أن يعبّر له عن عميق دهشته لتعرّفه في هذه الشخصية على شخص معروف الاسم، لأنه (بما أن هذه بداية القصة) لم يُسمَّ أحد بعدُ. والراوي نفسه لا يعرف من هو هذا الكاتب الغامض، ويعدُ نفسه باكتشاف ذلك (سويّة مع القارئ) خلال تتبّعهما - وهما يتسلّلان متطفّليْن - لما تخطّه ريشة الكاتب على تلك الأوراق.

# 2

## من أنـــــا؟

24 مارس 1897

أحسّ بشيء من الحَرَج وأنا أتهيّأ للكتابة، كما لو أنّني أكشف روحي عارية، بأمر - لا والله، لنقل بإيحاء- مِنْ يهودي ألماني (أو نمساوي، ولكنّه نفس الشيء). من أنا؟ لعلّ من الأجدى أن أتساءل عن أهوائي أكثر من أن أتساءل عن وقائع حياتي. من أحبّ؟ لا يخطر ببالي وجه أحببته. أعرف أنّني أعشق الطبخ الجيّد: يكفي النطق باسم "لاتور دارجون" لكي تسري في بدني كلّه رعشة. هل هذا هو الحبّ؟

من أكره؟ سأجيب دفعة واحدة: اليهود، ولكن بما أنّي أقبل، بخضوعِ العَبْد، إيعازات ذلك الدكتور النمساوي (أو الألماني)، فهذا يعني أنّه ليس لديّ شيء ضدّ اليهود الملاعين.

لا أعرف عن اليهود إلّا ما علّمني إيّاه جدّي: - إنّه الشعب الأكثر إلحاداً على الإطلاق، هكذا لقّنني. فكرتهم أنّ الخير يجب أن يتحقّق هنا، وليس بعد الموت. ولذا فإنّهم يعملون فقط للهيمنة على هذا العالم.

اكتأبت سنوات طفولتي بأشباحهم. كان جدّي يصف لي تلك العيون التي تتجسّس عليك، فيها من النفاق ما يُرِيعك، وتلك الابتسامات اللزجة، وتلك الشفاه المنسلخة على الأسنان مثل الضباع، وتلك النظرات الثقيلة، الكريهة والمقزّزة، وتلك التجاعيد بين الأنف والشفة دائماً قلقة، متحفّرة من الحقد، وذلك الأنف مثل منقار طائر جنوبي قبيح. . . والعين، آه، العين. . . إنّها تدور محمومة في الحدقة لون الخبز المحروق كاشفة أمراض كبد أفسدته مفرزات أنتجها حقد دام ثمانية عشر قرناً، وتنثني على تجاعيد رقيقة تتضخّم بفعل السنين،

وعندما يصل إلى العشرين يصبح اليهودي ذابلاً كما لو كان ابن ستين. وعندما يتبسّم، تنغلق أجفانه المنتفخة إلى حدّ أنّها لا تترك إلّا خطّاً يكاد لا يُرى، علامة على المكر، يقول البعض، علامة على الشبق، يدقّق جدّي... وحينما كبرتُ وصرت قادراً على الفهم، كان يذكّرني أنّ اليهودي، علاوة عن كونه متعجرفاً مثل إسبانيّ، وجاهلاً مثل كرواتي، وطمّاعاً مثل مشرقيّ، وكافراً بالنعمة مثل مالطيّ، ووقحاً مثل غجريّ، وقذراً مثل إنكليزيّ، ولزجاً مثل قلموقي، ومتسلّطاً مثل بروسي ونمّاماً مثل حِرَفيّ، هو زانٍ كضبع جامح، - وأقول من الختان الذي يحفزهم على كثرة النُّعُوظ، مع تفاوت هائل في الحجم بين قزميّة البدانة والضخامة الكهفيّة لتلك الزائدة المبتورة التي يملكونها.

لقد حلمتُ، أنا، باليهود كل ليلة، لسنوات وسنوات.

لحسن حظي أنّي لم ألتقِ أبداً أحدهم، ما عدا العاهرة الصغيرة في حارة اليهود بمدينة تورينو، عندما كنتُ طفلاً (ولكنّني لم أتبادل معها أكثر من كلمتيْن)، والطبيب النمساوي (أو الألماني، وهو نفس الشيء).

أمّا الألمان فقد عرفتهم، بل وعملتُ لفائدتهم: أحطّ درجة في الإنسانية يُمكن تصوّرها. الألماني يُنتج، في المعدَّل، ضعف كميّة بِراز الفرنسي. نشاط مُفْرِط لوظيفة الأمعاء على حساب وظيفة المُخّ، دليل على دونيّتهم الفيزيولوجيّة. في زمن الغارات الهمجيّة، كانت الجموع الألمانيّة تملأ طريقها بأكوام هائلة من المادّة البرازيّة. ومن ناحية أخرى كان المسافر الفرنسي، حتّى في القرون الماضية، يفهم على الفور أنه قد اجتاز الحدود الألزاسيّة من الضخامة غير العادية للبِراز المتروك على جانبي الطريق. ولا يكفي هذا: من خاصيّة الألمان الصُّنان، أي رائحة العرق المقزّزة، وقد ثبت أنّ بَوْل الألماني يحتوي على عشرين بالمائة من الأزوت بينما بَوْل الأقوام الأخرى لا يتجاوز خمسة عشر بالمائة.

يعيش الألماني في وضع دائم من الحرج الأمعائيّ نتيجةَ الإفراط في شرب الجَعة وأكل تلك المقانق من لحم الخنزير التي يملأ بها جوفه. لقد رأيتهم ليلةً، أثناء سفرتي الوحيدة إلى ميونيخ، في تلك الحانات الشبيهة بكاتدرائيّات نُزِعت



لقدْ حلمتُ، أنا، باليهود كلّ ليلة، لسنوات وسنوات (ص12)

عنها القداسة، مدخّنة مثل مرفأ إنكليزي، ينضح منهم الشحم والدهن، وحتّى اثنيْن اثنيْن، هو وهي، يشدّان بقوّة على تلك الأكواب من الجعة التي تكفي وحدها لإرواء قطيع كامل من الفيلة، والأنف يلامس الأنف في حوار عشق بهيمي، مثل كلبيْن يشمّ أحدهما الآخر، بضحكاتهما المدويّة والسمجة، وبدعارتهما الحنجريّة الدنيئة، يلمعان بذلك الدهن الدائم الذي ينضح من الوجهيْن ومن الأعضاء مثل الزيت فوق جلدة المصارعين في السيرك القديم.

يملأون أفواههم بذلك الـ Geist، الذي يعني الروح، ولكنه روح الجَعة، الذي يبلّد أذهانهم منذ الشباب، وهذا يفسّر لماذا لم يُخلق أبداً، في ما وراء نهر الرّاين، شيء ذو أهميّة في الفنّ، ما عدا بعض اللوحات التي تمثّل وجوهاً قبيحة، وأشعاراً مملّة إلى حدّ الموت. دون الحديث عن موسيقاهم: ولا أتحدّث عن ذلك المسمّى فاغنر وضجيجه الجنائزي الذي يكسر حتى دماغ الفرنسيّين ولكن، حسب القليل الذي بلغ سَمْعي، تأليفات صاحبهم باخ الفاقدة تماماً للانسجام، والباردة برودة ليالي الشتاء، وسمفونيّات ذلك المدعوّ بيتهوفن التي هي حفل من الدعارة.

ويجعلهم الإفراط في الجَعة عاجزين عن أيّ تصوّر لمدى سوقيّتهم، ولكن أقصى حدّ في السوقيّة هو أنّهم لا يستحون من كونهم ألماناً. لقد وثقوا براهب جشع وفاجر مثل لوثر (هل يُعقل أن يتزوّج أحد راهبة؟)، فقط لأنّه عاث فساداً في الكتاب المقدّس مترجماً إيّاه إلى لغتهم. مَن الذي قال إنّهم أساؤوا استخدام المخدِّريْن الاثنيْن العظيميْن الأوروبيّيْن، الكحول والمسيحيّة؟

يعتبرون أنفسهم عميقين لأنّ لغتهم غامضة، ليس لها وضوح اللغة الفرنسيّة، ولا تقول أبداً بدقّة ما ينبغي أن تقول، وهكذا فلا يعرف أيّ ألماني أبداً ماذا يريد أن يقول - ويأخذ هذا الغموض على أنّه عُمق. مع الألمان لا نصل أبداً إلى العُمق، تماماً مثلما مع النساء. لسوء الحظّ أنّ هذه اللغة غير المعبّرة، ذات الأفعال التي يجب عند القراءة أن تبحث عنها بعينيك بقلق، لأنّها لا توجد أبداً حيث يجب أن تكون، قد أرغمني جدّي على دراستها وأنا صغير - ولا غرابة في ذلك، وهو المتحمّس للنمساويّين. هكذا كرهت تلك اللغة، بقدر الكُرْه الذي أحسسته نحو ذلك اليسوعي الذي كان يلقنني إيّاها بالعصا على أصابعي.



لقد وثقوا براهب جشع وفاجر مثل لوثر (هل يُعقل أن يتزوّج أحد راهبة؟) فقط
لأنه أفسد الكتاب المقدّس مترجما إيّاه إلى لغتهم (ص14)

يبدو أنّه منذ أن كتب ذلك المسمّى غوبينو عن عدم تساوي الأعراق، إذا تحدّث أحدهم بسوء عن شعب آخر، فذلك لأنّه يعتبر شعبه هو الأسمى. ليست لديّ مثل هذه الأحكام المُسَبّقة. فمنذ أن صِرْتُ فرنسيّاً (وقد كنت نصف فرنسيّ من طرف أمّي) فهمت كم أنّ مواطنيَّ الجُدُد كسولون، غشاشون، حقودون، غيورون، متكبّرون إلى أقصى حدّ، بحيث يذهب الظنّ إلى أنّ غير الفرنسي همجيّ، عاجزون عن قبول أيّ لوم. إلّا أنّني فهمتُ أنّه لدفع الفرنسي إلى اعتراف بعيب يخصّ ناسه، يكفي أن تحدّثه بسوء عن شعب آخر، مثل قول "نحن البولونيّين عيبنا كذا وكذا"، وبما أنّهم لا يريدون أن يكونوا دون أيّ كان، حتى فيما هو سلبي، فها أنّهم يحتجّون فوراً "آه، كلّا، هنا في فرنسا نحن أسوأ" ويواصلون في سرد عيوب الفرنسيّين، إلى أن يتفطّنوا أنّك أسقطْتهم في الفخّ.

فهم لا يحبّون الغير، حتّى عندما يحصلون منهم على نفع. لا يغلب أحد في سوء الأدب خَمّاراً فرنسيّاً، يبدو عليه أنّه يكره الزّبون (وقد يكون هذا صحيحاً) ويحبّذ أن لا يكون موجوداً (وهذا غير صحيح، لأنّ الفرنسيّ طمّاع إلى أقصى حدّ). لا يكفّون أبداً عن التذمّر Ils grognent toujours. اسألهم عن أي شيء سيردّون لا علم لي sais pas moi، ويمطّون شفاههم وكأنهم يضرطون.

إنّهم أشرار. يقتلون لقتل الوقت. إنّه الشعب الوحيد الذي شغّل مواطنيه سنوات عديدة في قطع بعضهم رؤوس بعضهم الآخر، ولحسن الحظّ أن حوّل نابوليون سُعارهم نحو شعوب أخرى، مجنّداً إياهم لهدم أوروبا.

إنهم فخورون بأنّ لهم دولة يقولون عنها إنّها قويّة ولكنهم يقضون وقتهم في محاولة الإطاحة بها: لا يوجد أفضل من الفرنسي في إقامة الحواجز لسدّ الطريق لأيّ سبب ولأقلّ هبّة ريح، وغالباً دون معرفة السبب، مدفوعين إلى الخروج في الشوارع من طرف أقذر الصعاليك. الفرنسي لا يعرف جيّداً ما يريد، ولكنّه يعرف تماماً أنّه لا يريد ما لديه. ولاختصار القول لا يُجيد إلّا ترديد الأغاني.

يظنّون أنّ العالم كلّه يتكلّم الفرنسيّة. لقد حدث منذ بضع عشرات السنين مع ذلك المسمّى لوكا، رجل عبقريّ - ثلاثون ألفاً من الوثائق بخطّ اليد مزيّفة، مع سرقة للورق القديم بقصّه من الكتب القديمة بالمكتبة الوطنية، وبتقليد مختلف

الكتابات الخطيّة، حتّى وإن كان بغير الجودة التي أمتلكها. . . وباع منها عدداً لا يُحصى بأسعار باهضة إلى ذلك الغبيّ شازل (يدّعون أنه رياضي كبير، وعضو في أكاديمية العلوم، ولكنّه أبله كبير). وليس هو فقط بل والعديد من زملائه الأكاديميّين قبلوا فكرة أنّ كاليغولا، كليوباترا ويوليوس قيصر كتبوا رسائلهم بالفرنسيّة على أنّها صحيحة، وبالفرنسيّة تراسل باسكال ونيوتن وغاليليو، مع أنّه حتّى الأطفال يعرفون أنّ العلماء في تلك القرون كانوا يكتبون باللاتينيّة. العلماء الفرنسيّون لا يتصوّرون أنّ شعوباً أخرى تتكلّم بطريقة مختلفة عن الفرنسيّة. وإضافة إلى ذلك تقول الرسائل المزيّفة إنّ باسكال اكتشف الجاذبيّة الكونيّة قبل نيوتن بعشرين سنة، وهذا يكفي لإبهار أولئك السوربونيّين الممتلئين بعجرفة القوميّة.

ولعلّ الجهل هو نتيجة بُخْلهم - الرذيلة القوميّة التي يعتبرونها فضيلة، مسمّين إيّاها اقتصاداً. في هذا البلد فقط أمكن بناء مَلْهاة كاملة حول شخصيّة بخيل. دون الحديث عن الأب غراندي.

والبُخْل تراه في شققهم المغبرّة، وفي مُنَجَّداتهم العارية من الخيوط التي لا تتغيّر أبداً، وفي أحواض الاستحمام التي تعود إلى عهود الأجداد، وفي السلالم الحلزونية من الخشب المتقلقل لاستغلالهم الشحيح لأضيق فضاء. طَعِّمْ، مثلما يقع مع النبات، فرنسيّاً بيهوديّ (من أصل ألماني إن أمكن) وستحصل على ما هو عندنا اليوم، الجمهورية الثالثة. . .

إن أصبحتُ فرنسيّاً فلأنّي لم أعد أتحمّل أن أكون إيطاليّاً. وباعتباري بيمونتيّاً (من حيث الولادة)، فقد كنت أحسّ بنفسي صورة كاريكاتوريّة من الديك الغالي*، ولكن بأفكار أضيق. البيمونتيّون، أقلّ مستجدّ يشلّهم، واللامُنتظَر يخيفهم، لحملهم على الذهاب إلى مملكة الصقليّتيْن (ولكن قليلاً جداً من الغاريبالديّين كانوا بيمونتيّين) كان لا بدّ من تدخّل ليغوريّين، متحمّس مثل غاريبالدي وطالع نحس مثل مادزيني. ولا أتحدّث عمّا اكتشفته عندما أُرسلت إلى

(*) نسبة إلى بلاد الغال [المترجم].

باليرمو (متى كان ذلك؟ يجب أن أعيد تركيب الأحداث). ذلك المدّعي دُومَا [Dumas] فقط يحبّ هؤلاء الناس، ربما لأنّهم يمدحونه أكثر من الفرنسيّين، الذين كانوا يعتبرونه على كلّ حال من دم مختلط. كان يُعجِب النابوليتانيّين والصقليّين، هم أنفسهم هجناء لا لخطأ ارتكبته أمّ عاهرة بل لتاريخ أجيال، نشأوا من تزاوج بمشرقيّين منافقين، وعرب متعرّقين وقوط شرقيين منحلّين، وأخذوا أسوأ ما يوجد عند أجدادهم المُهَجنين، من السراسنةِ الخُمُول، ومن الصوابيّين الوحشيّةَ، ومن اليونانيّين التهافت وولعهم بالتَّيَهان في اللغط وفي البحث في الشقيقة والرقيقة. وفيما عدا ذلك يكفي أن ترى أطفال الشوارع في نابولي الذين يسحرون الأجانب وهم يختنقون بالسباغيتي التي يحشونها في حلوقهم حشواً بالأصابع، متّسخين بالطماطم الرديئة. لم أرهم، على ما أظن، ولكني أعرف ذلك.

الإيطالي منافق، كَذّاب، جبان، خائن، يفضّل الخنجر على السيف، والسمّ على الدواء، لَزِج في التفاوض، متماسك فقط في استبدال الراية عند كلّ تحوّل للريح - وقد رأيتُ ما حصل للجنرالات البوربونيّين بمجرّد أن لاح في الأفق مغامرو غاريبالدي والجنرالات البيمونتيّون.

ذلك أنّ الإيطاليّين تشكّلوا على طراز الكهنة، الحكومة الوحيدة الحقيقيّة التي كانت لهم أبداً، منذ أن ذهب ذلك الإمبراطور الروماني الأخير الفاجر ضحية لواط الهمجيّين، لأنّ المسيحيّة أضعفت همّة الجنس القديم.

الكهنة... كيف عرفتهم؟ في بيت جدّي، على ما أظنّ، بقيت لي منهم ذكرى غامضة لنظرات مختلسة، وأسنان مسَوَّسة، وأنفاس بَخِرة، وأيادٍ متعرِّقة تحاول أن تربّت على رقبتي. يا للقذارة. عاطلون، ينتمون إلى الفئات الخطيرة، مثل اللصوص والصعاليك. يصبح أحدهم كاهناً أو راهباً فقط ليعيش عيشة بطالة، والبطالة مضمونة لكثرة عددهم. فلو أنّ الكهنة كانوا، مثلاً، واحداً على ألف نسمة، فسيكون لديهم من العمل ما يشغلهم، ولن يُمكنهم أن يبقوا عاطلين يمضون وقتهم في أكل الفراخ. ومن بين أحطّ الكهنة تختار الحكومة أغباهم، وتسمّيهم أساقفة.

تجدهم يحومون حولك منذ الولادة عندما يعمّدونك، وتجدهم في

المدرسة، إذا كان والداك من التزمّت بحيث يعهدان بك إليهم، ثم تناول القربان، فالتعليم المسيحي، فالصوم؛ الكاهن حاضر يوم زواجك ليقول لك ماذا يجب أن تفعل في الغرفة، واليوم الموالي في سرّ الاعتراف ليسألك كم من مرّة فعلت ذلك ليلتذّ من وراء الحاجز المشبّك. يحدّثونك بفظاعة عن الجنس، ولكنّك تراهم كلّ يوم يخرجون من مضاجعة محرَّمة دون حتى أن يغسلوا أيديهم، ثم يذهبون فيأكلون لحم المسيح ويشربون دمه، وليبولوه بعد ذلك ويتغوّطوه.

يعيدون عليك أن مُلْكَهم ليس في هذه الدنيا، ويضعون أيديهم على كلّ ما يقدرون على نهبه. ولن تبلغ الحضارة كمالها ما لم تسقط الحجرة الأخيرة من الكنيسة الأخيرة على آخر الكهنة، عندئذ ستتحرّر الأرض من تلك المِلّة.

لقد روّج الشيوعيّون فكرة أنّ الدين أفيون الشعوب. هذا صحيح، لأنّه يصلح لكبح رغبات الرعيّة، ولو لم يُوجد الدين لكان هناك ضعف الناس على متاريس الثورة، بينما في أيام الكومونة لم يكونوا بالعدد الكافي، وأمكن القضاء عليهم دون طول انتظار. ولكن، بعدما سمعت ذلك الطبيب النمساوي يتحدّث عن المخدّرات الكولومبية، أقول إنّ الدين هو أيضاً كوكايين الشعوب، لأنّ الدين حرّض ويحرّض على الحروب، وعلى تقتيل الكافرين، وهذا صالح سواء بالنسبة إلى المسيحيّين، والمسلمين أو غيرهم من الوثنيين، وإذا كان سود إفريقيا يتقاتلون فيما بينهم، فإنّ المبشّرين نصّروهم وجعلوا منهم فيالق استعماريّة، مؤهّلة جداً للموت في الصفوف الأولى، ولاغتصاب نساء البيض عند دخولهم المدن. لا يفعل الإنسان الشرّ بكمال وحماس مثلما يفعله عندما يصدر عن قناعة دينيّة.

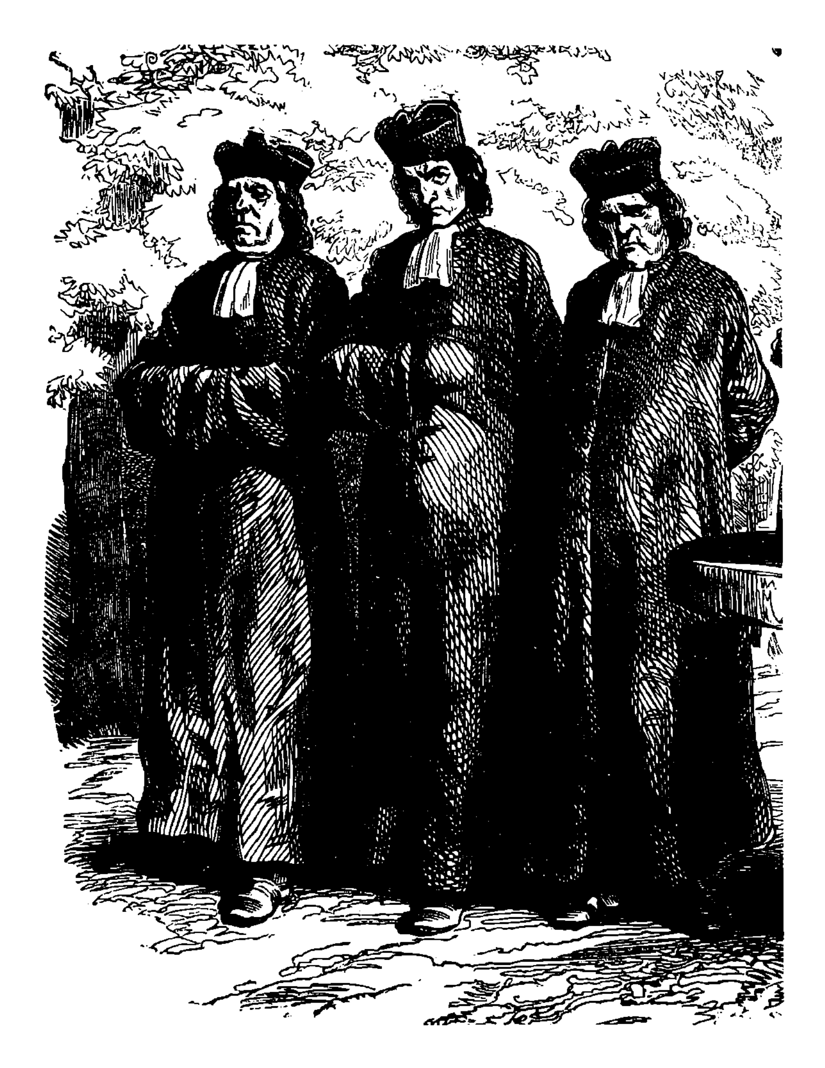
وأسوأهم جميعاً هم دون شكّ اليسوعيّون. لديّ إحساس غامض بأنّني ألحقتُ بهم بعض الإساءة، أم هم الذين ربما أساؤوا إليّ، لا أذكر جيّداً. أم أنَّهم إخوتهم في الدم، أي الماسونيّون: إنهم مثل اليسوعيّين، ولكن أكثر تشويشاً. هؤلاء على الأقلّ لديهم لاهوتيّتهم ويعرفون كيف يديرونها، أمّا الآخرون فلديهم لاهوتيّات عديدة يفقدون معها الرشد. كان جدّي يحدّثني عن الماسونيّين. قطعوا هم واليهود رأس الملك. وولّدوا الفحّامين، وهم أكثر غباء

من الماسونيّين لأنّهم تركوا الآخرين يُعدمونهم بالبندقيّة، في السابق، وبعد ذلك تركوهم يقطعون رؤوسهم لأنهم أخطأوا في صنع قنبلة، أو صاروا اشتراكيّين، وشيوعيّين وأتباع الكومونة. إلى جدار الإعدام جميعهم. حسنا فعلت، يا تيير.

ماسونيّون ويسوعيّون. اليسوعيّون ماسونيّون بزيّ النساء.

أكره النساء، باعتبار القليل الذي أعرفه عنهنّ. طيلة سنوات استحوذت عليّ "حانات الغواني" brasseries à femmes، حيث يجتمع الأشرار من كلّ شتلة. أفظع من المواخير. هذه على الأقلّ يصعب إحداثها لمعارضة الجيران لها، بينما حانات الجعة تُفتح في كلّ مكان لأنّها، كما يقولون، أماكن للشرب فحسب. ولكن الشرب في الطابق الأرضي بينما يُمارس البغاء في الطوابق العُليا. كلّ حانة لها موضوعها، ولباس الفتيات المتلائم معها، هنا تجد النادلات الألمانيّات، وهناك أمام قصر العدالة خادمات بزيّ المحاماة. ومن ناحية أخرى تكفي الأسماء، مثل "حانة تيركول" Brasserie du Tire-cul أو "حانة المغربيات الحسناوات" Brasserie des belles marocaines، أو "حانة العجيزات الأربع عشرة" Brasserie des quatorze fesses، غير بعيد عن السوربون. وجميعها تقريباً يسيّرها ألمان، وتكاد تكون دائماً في أيدي الألمان، وهي طريقة لتخريب الأخلاق الفرنسيّة. بين الدائرتيْن الخامسة والسادسة توجد منها على الأقلّ ستّون، ولكن في باريس كلّها يكاد عددها يناهز مائتيْن، وجميعها مفتوحة حتى لحديثي السنّ. الفتيان يدخلونها في البداية مدفوعين بالفضول، ثمّ بالرذيلة، وفي النهاية يصابون بالزهري - هذا في أفضل الأحوال. وإذا كانت الحانة قريبة من المدرسة، عند الخروج يذهب الأطفال للتجسّس على الفتيات من ثقب الباب. أنا كنت أذهب هناك للشرب. ولكي أتجسّس في الداخل من فرجة الباب على التلاميذ الذين يتجسّسون من ثقب الباب. وليس فقط على التلاميذ. نتعلّم أشياء كثيرة عن عادات ومخالطات الكبار، ويُمكن أن تعود يوماً بالفائدة.

الشيء الذي يسلّيني أكثر هو أن أحدّد من بين الجالسين إلى الطاولات طبيعة مختلف القوّادين الذين ينتظرون، والبعض منهم أزواج يتمعّشون من



اليسوعيّون ماسونيّون بزيّ النساء... (ص20)

محاسن زوجاتهم، وهؤلاء يجلسون بينهم، بثوب أنيق، يدخّنون ويلعبون الورق، وصاحب الحانة أو الفتيات يتحدّثون عنهم على أنهم طاولة المخدوعين؛ ولكن في الحي اللاتيني كثيرون منهم طلبة قدامى فاشلون، يعيشون دائماً على أعصابهم خوفاً من أن يفتكَ منهم أحدُ مَوْرِدَ رزقهم، وغالباً ما يُخرجون السكاكين. الأكثر هدوءاً هم اللصوص والمجرمون، الذين يَرُوحون ويجيئون لأنّهم مهتمّون بإعداد عمليّاتهم، ويعرفون أنّ الفتيات لن يخنّهم، وإلّا فإنهنّ في اليوم الموالي سيَطْفَيْن على سطح مياه البييفر.

يوجد من بينهم أيضاً المنحرفون، ومهمّتهم هي البحث عن داعرين وداعرات لأقذر الخدمات. يأخذون الزبائن من أمام "بالي رويال" أو في "الشانزيليزيه" ويجذبونهم بإشارات متعارف عليها. وغالباً ما يُداهِم الغرفة أحد المتواطئين معهم بلباس الشرطة، وَيُهدّد الزبون باعتقاله وهو في سروال قصير، فيأخذ في التوسّل إليه ويمده بحفنة من المال.

عندما أدخل إلى تلك المواخير، أفعل ذلك بحذر، لأنّني أعرف ماذا يُمكن أن يحدث لي. إذا بدا أنّ الزبون مليء الجيب، يقوم صاحب المحلّ بإشارة، فتقترب منه فتاة وشيئاً فشيئاً تقنعه بدعوة كلّ الفتيات الأخريات إلى مائدته، ويطلبن أغلى ما هو موجود (ولكنهنّ حتّى لا يسكرن، يشربن "الأنيسون الأرفع" *anisette superfine* أو "الكاسيس الناعم" *cassis fin* فقط، ماء ملوّن يشتريه الزبون بأغلى ثمن). ثم يدفعونك إلى لعب المَيْسِر، بطبيعة الحال يستعملن إشارات، فتخسر ويجب أن تدفع ثمن العشاء للجميع، وإلى صاحب الماخور وزوجته. وإذا أردت الكفّ عن المَيْسِر يعرضن عليك مواصلة اللعب دون نقود، وكلّ يد مربوحة تنزع إحدى الفتيات قطعة من لباسها... وعند سقوط كلّ قطعة من الدانتيلّا تظهر تلك الأجساد البيضاء المقزّزة، وتلك النهود المتورّمة، وتلك الآباط السمراء ذات الرائحة التي تنهك أعصابك...

لم أصعد أبداً إلى الطابق العلوي. يُقال إنّ النساء لَسْن إلّا تعويضاً لرذيلة الاستمناء، بشرط التوفّر على قدر عالٍ من الخيال. وهكذا أعود إلى البيت وأحلم بهنّ أثناء الليل، في نهاية الأمر لستُ من حَجَر، وبعد هذا كلّه فهنّ اللاتي استفززنني.

لقد قرأت الدكتور تيسّو، وأعرف أنّهن مصدر مَضَرّة حتى عن بُعْد. لا نعرف إن كانت الأرواح الحيوانيّة والسوائل التناسليّة نفس الشيء، ولكن من المؤكّد أنّه يوجد تماثل بين السائلين، وبعد تلوّثات ليليّة طويلة لا نفقد فقط القوّة، بل يهزل الجسم، ويشحب الوجه، وتتلاشى الذاكرة، ويتضبّب البصر، ويبحّ الصوت، ويتقطّع النوم بأحلام مُضطربة، ويحسّ المرء بأوجاع في العينيْن وتظهر بقع حمراء على الوجه، ويبصق البعض موادّ كلسيّة، ويحسّ بخفقات، واختناق، ودَوْخة، ويشتكي البعض من القَبْض، أو من بعث غازات دائماً أكثر نتَانة. وأخيراً فقدان البصر.

لعلّي أغالي، عندما كنتُ طفلاً كان وجهي متبثّراً، ولكن يبدو أنّ ذلك من مميّزات السنّ، أو لعلّ كلّ الشبّان يحصلون على تلك المتعة، البعض منهم بصفة مفرطة، بلمس أجسادهم ليلاً ونهاراً. الآن، بعد هذا كلّه، أعرف كيف أوازن نفسي، نومي يضطرب فقط عندما أعود من سهرة في حانة ولا يحدث لي، مثلما يحدث للكثيرين، أن ينتصب قضيبي بمجرّد رؤية فستان في الشارع. فالعمل يحفظني من انحلال الأخلاق.

ولكن لِمَ التفلسفُ عِوَضاً عن إعادة تركيب الأحداث؟ ربما لأنّي لا أحتاج فقط إلى معرفة ما فعلته قبل الأمس بل أنا محتاج أيضاً إلى معرفة كيف أنا في دخيلتي. هذا إذا قبلنا أنّ لديّ دخيلة. يقولون إنّ الروح هي فقط ما نفعله، ولكن إذا كرهتُ أحداً واعتنيتُ بذلك الكره، فالحمد للّه، هذا يعني أنّ لي دخيلة. ماذا قال ذلك الفيلسوف؟ أنا أكره فأنا موجود.

قبل الآن بقليل دقَّ أحدهم الباب في الطابق الأرضي، خفت أن يكون شخصاً على درجة من الغباء بحيث يريد شراء شيء، ولكن الطارق قال لي على الفور إنّ تيسّو هو الذي أرسله - لماذا اخترت كلمة السرّ هذه؟ كان يريد وصيّة بخطّ المُوصي، بإمضاء شخص يُدعى بونفوا لصالح المدعوّ غويّيو (دون شكّ كان هو). كان يحمل معه ورق كتابة يستعمله أو كان يستعمله ذلك المسمّى بونفوا، ونموذجاً من خطّه. صعد غويّيو إلى مكتبي، واخترت ريشة وحبراً ملائماً ودون

حتى القيام بتجربة صنعت له الوثيقة. ممتازة. وكأنّ غويّيو كان يعرف السعر، مدّ لي مقابلاً متناسباً مع الميراث.

إذن هذه هي مهنتي؟ جميل أن يصنع أحد من لا شيء وثيقة عدليّة، أن ينحت رسالة تبدو حقيقيّة، أن يركّب اعترافات مشبوهة، أن يخلق وثيقة تجرّ أحداً إلى الهلاك. سُلطة الفنّ... ومكافأتي زيارة إلى المقهى الإنكليزي.

أظنّ أنّ ذاكرتي في أنفي، ولكن يبدو لي أنّني لم أشتمّ منذ قرون روائح هذه الأطباق نفيخة ملكية، هَبْرُ سمك موسى على طريقة البندقية، شرائح سمك التُّرس بالقُطاحة، إلية الخروف بالعصيدة البروطانية: *soufflé à la reine, filets de sole à la Vénitienne, escalope de turbot au gratin, selle de mouton purée bretonne...*، وكمقبلات: دجاج بالطريقة البرتغالية *poulet à la portugaise* أو عجين ساخن من السمّان *pâté chaud de cailles* أو سرطان على الطريقة الباريسية *homard à la parisienne* أو جميعها، وكطبق أساسيّ، لست أدري، فراخ بطّ روانيّة *canetons à la rouennaise* أو بلابل على خبز مأدوم *ortolans sur canapés* وكمُحلّيات: باذنجان على الطريقة الإسبانية، هليون مغصّن، مقبّلات أميرية *aubergines à l'espagnole, asperges en branches, cassolettes princesse...* بالنسبة للخمر، لست أدري، ربما "شاتو مارغو" *Château-Margaux* أو "شاتو لاتور" *Château-Latour*، أو "شاتو لافيت" *Château-Lafite*، يتوقّف ذلك على السنة. وفي الختام، *bombe glacée*.

الطبخ شيء أرضاني دائماً أكثر من الجنس - لعلّها بصمة تركها فيّ الكهنة.

أحسّ دائماً مثل غمامة، في ذهني، تمنعني من النظر إلى الخلف. لماذا عادت إلى ذاكرتي فجأة زياراتي الخاطفة إلى الـ Bicerin بأثواب الأب برغماسكي؟ لقد نسيت تماماً الأب برغماسكي. من يكون؟ يعجبني أن أترك القلم يسري حيث توجّهه الغريزة. حسب رأي ذلك الطبيب النمساوي يجب أن أصل إلى لحظة حقيقة موجعة بالنسبة إلى ذاكرتي، من المفروض أن تفسّر لي لماذا محوت فجأة أشياء عديدة.

بالأمس، أظنّه الثلاثاء 22 مارس، استيقظت وكأني أعرف جيّداً من أنا: الكابيتان سيمونيني، في السابعة والستين من العمر كاملة ولكن في حال حسنة (بَدِينٌ بقدر كافٍ لكي أعتبَر ما يسمّى بِرَجُل جميل)، واتّخذت في فرنسا ذلك اللقب تخليداً لذكرى جدّي، مبرّراً ذلك بسوابق عسكريّة غامضة في صفوف الألف الغاريبالديّين، وهو شيء في هذا البلد، الذي يجلّ غاريبالدي أكثر من إيطاليا، يضفي عليك نوعاً من الفخر. سيموني سيمونيني، مولود في تورينو، من أب تورينيّ ومن أمّ فرنسية (أو سافويّة، ولكن بعد سنوات قليلة من ميلادها كانت المملكة السردينية قد تخلّت عن إقليم سافويا لصالح فرنسا).

بقيت في الفراش، سارحاً بخيالي... بعد المشاكل التي حصلت لي مع الرّوس (الرّوس؟) يكون من الأفضل أن لا أظهر في مطاعمي المفضلة. بإمكاني أن أطبخ شيئاً بنفسي. العمل لبضع ساعات في إعداد أكلة شهيّة يخفّف عنّي. مثلاً ضلع عجل على طريقة فويو *côtes de veau Foyot*: لحم سميك على الأقلّ بأربعة سنتيمترات، قطعة تكفي لاثنيْن بطبيعة الحال، بَصَلتان من الحجم المتوسّط، خمسون غراماً من لُبّ الخبز، خمسة وسبعون من جبن غروييير مبشور، خمسون من الزبدة؛ اقشط لُبّ الخبز إلى أن تحصل على خبز مبشور واخلطه بالغروييير، ثمّ قشّر وقطّع البصل قطعاً رقيقة، ذوّب أربعين غراماً من الزبدة في قدر صغيرة بينما في قِدْر أخرى ذوِّب على نار هادئة البصل في بقيّة الزبدة، غطِّ قاع الطبق بنصف البصل، فوّح اللحم بالملح والبهار، وضَعْه في الطبق وزيّن جانبه بما تبقى من البصل، غطِّ الكلّ بطبقة أولى من اللباب بالجبن ملصقاً بعناية اللحمَ بقاع الطبق، وصبّ عليه الزبدة الذائبة واهرس بضربات خفيفة باليد، ثم ضع طبقة ثانية من اللُّبّ إلى أن تتكوّن شبه قبّة مع إضافة الزبدة المذوّبة، وبلّ الكلّ بالخمر الأبيض والمَرَق، دون تجاوز نصف سمك اللحم. ضع الكلّ في الفرن لمدّة نصف ساعة تقريباً، مع بَلِّه من حين لآخر بالخمر والمرق. صَاحِبْهُ بالقنّبيط المقلي.

يتطلّب بعض الوقت، ولكن متعة الطبخ تبدأ قبل متعة الحَلْق والتحضير يعني التذوّق مسبقاً، مثلما كنت أفعل، وأنا أتكاسل في الفراش. الأغبياء يحسّون بالحاجة إلى وجود إمرأة تحت الغطاء، أو غلام، لكي لا يشعروا بالوحدة. إنّهم لا يعرفون أن تحلّب الريق أفضل من النُّعُوظ.

كان لدي في البيت كلّ شيء، ما عدا الغروبير واللحم. بالنسبة إلى اللحم، في يوم غير هذا اليوم هناك قصّاب ساحة موبير، ولكن لا أعرف لماذا يغلق يوم الثلاثاء. أعرف قصّاباً آخر على بعد مائتيْ متر عن شارع سان جرمان، وقليل من التفسّح لن يضرّني. ارتديتُ أثوابي، وقبل الخروج، ركّبت أمام المرآة التي تعلو الحوض، الشاربَيْن الأسودَيْن المعتادَيْن ولحيتي الجميلة. ثمّ لبست الشعر المستعار، ومشّطته بمفرق في الوسط، بعد أن بلّلت المشط بقليل من الماء. ثمّ لبست الرودنغوت، ووضعت في جيب السترة الصغير الساعة الفضيّة تاركاً سلسلتها ظاهرة للعيان. لكي أظهر بمظهر كابيتان متقاعد كان يعجبني، وأنا أتبادل الحديث، أن أتلاعب شبه ساهٍ بعلبة صغيرة مصنوعة من قشرة السلحفاة، مليئة بقطع من عرق السوس، وعلى قفا الغطاء صورة امرأة دميمة ولكن أنيقة، دون شكّ عزيزة متوفّاة. من حين لآخر أضع في فمي قطعة من عرق السوس وأحوّلها من جهة إلى أخرى من اللسان، ممّا يسمح لي بالكلام بتمهّل - والمستمع يتتبّع حركة شفتيك ولا ينتبه كثيراً إلى ما تقوله. المسألة هي أن تظهر بمظهر شخص ذكاؤه دون المتوسّط.

نزلت إلى الشارع، ودُرْتُ مع العطفة، متلافياً التوقف أمام الحانة، التي كانت تصلني من داخلها، منذ أوّل الصباح الأصوات القبيحة التي تبعثها أُناثها الضالّات.

لم تعد ساحة موبير سوقَ لُصوص كما عرفتها عندما جئت إلى هنا منذ خمس وثلاثين سنة مضت، تكتظُّ ببائعي التبغ المُعاد تدويره، ذلك الخشن المتأتي من بقايا السجائر الكبيرة وفضلات الغليون والتبغ الرقيق من أعقاب السجائر، الخشن بفرنك وعشرين سنتيماً، والرقيق من فرنك وخمسين إلى فرنك وستين لِلِّيبرة الواحدة (حتى وإن كانت تلك الصنعة غير مربحة، ولا تربح كثيراً، إذ إنّ لا أحد من أولئك الحاذقين الذين يعيدون التدوير، يعرف بعد أن يكون قد شرب معظم أرباحه في بعض الحانات، أين سيقضي ليلته)، وبالقَوّادين الذين يقضون، بعد التكاسل في الفراش إلى الساعة الثانية بعد الزَّوَال، بقية اليوم في التدخين مستندين إلى الجدران مثل متقاعدين شرفاء، ويبدؤون نشاطهم عند هبوط الليل مثل كلاب الصيد، وبلصوص قضى عليهم المصير بسرقة بعضهم البعض،

لأنّه لا يغامر أيّ بورجوازي (اللهمّ إلّا بعض العاطلين القادمين من الريف) باجتياز تلك الساحة، وسأكون أنا فريسة سهلة لولا أنّي أمشي بخطوة عسكريّة، ملوّحاً بعصاي -وبعد هذا كلّه فإنّ نشّالي المكان يعرفونني، والبعض منهم يحيّيني بل ويدعوني بالكابيتان، يظنّون أنّني بصفة ما أنتمي إلى غابهم، والكلب لا يعضّ الكلب- وبعاهرات ذَبُلَت محاسنهنّ، لأنّه لو بقي عندهنّ شيء يعجب، لاشتغلن في "حانات الغواني" *brasseries à femmes*، لذا يمنحن أنفسهنّ فقط إلى بائعي الأشياء البالية، والمحتالين وبائعي التبغ النَّتِنِين -ولكن عندما يشاهدن سيّداً متأنّقاً، بقبّعة نظيفة، قد يلامسنه، أو حتى يمسكنه من ذراعه، ويقتربن منه إلى حدّ أن يشتمّ الرائحة المقزّزة لتلك العطور البخسة المختلطة بعرق أجسادهنّ- وستكون هذه تجربة غير محبّذة بالمرّة (لا أريد أن يُراوِدْن أحلامي في الليل) وإذن، عندما أرى إحداهنّ تقترب مني، أدير عصاي بسرعة حولي، كمن يشكّل حوله مساحة محمية لا يُمكن ولوجها، وهنّ يفهمن سريعاً ذلك، لأنّهن اعتدن على الامتثال للأوامر، ويحترمن العصا.

وأخيراً يحوم بين تلك الجُمُوع جواسيسُ الشرطة، الذين يستقطبون ويجنّدون من ذلك المكان وُشاتهم *les mouchards* أو مُخْبِريهم، أو يجمعون على الطائر معلومات نفيسة جداً حول عمليّات إجراميّة يُعدّ لها، والتي يتحدّث بشأنها شخص مع شخص آخر هامساً إليه بصوت مرتفع أكثر من اللزوم، ظانّاً أنّه في كلّ تلك الضجّة سيضيع صوته. ولكنّك تتعرّف عليهم من أوّل وهلة لمظهرهم المشنقيّ المفرط. لا يشبه أيُّ محتال حقيقي محتالاً آخر. إلّا هم.

الآن في تلك الساحة يمرّ حتى الترامواي، ولم يعد المرء يحسّ بنفسه أنه في بيته، ومع ذلك، إذا عرفت كيف تتعامل معهم، فإنّك تجد دائماً الأشخاص الذين يستطيعون خدمتك، مستندين إلى زاوية، على عتبة مقهى ميتر ألبير، أو في إحدى تلك الأزقّة المحاذية. وباختصار، فإن باريس لم تعد كما كانت في الماضي، منذ أن صارت تظهر عند كلّ ركن من بعيد تلك المِبْراة التي يسمّونها برج إيفل.

كفى. لست عاطفيّاً، وهناك أماكن أخرى أصيد فيها دائماً ما يصلح لي. صباح الأمس كان يلزمني اللحم والجبن، وساحة موبير تكفيني وزيادة.

مررت، بعد شراء الجبن، أمام القصّاب المعتاد ووجدت دكانه مفتوحاً.

- ماذا جرى حتّى فتحت يوم الثلاثاء؟

فأجابني ضاحكاً: ولكن اليوم هو الأربعاء، يا كابيتان. فارتبكتُ واعتذرت قائلا إنّي هَرِمْتُ وضعفت ذاكرتي، فقال لي إنّي دائماً شابّ ويحدث للجميع أن يسهوا عندما يستفيقون باكراً. اخترت قطعة اللحم ودفعت الثمن دون أدنى طلب تخفيض - وهي الطريقة الوحيدة لجلب احترام التُّجّار.

صعدت من جديد إلى شقتي وأنا أتساءل أيّ يوم نحن فيه. فكّرت في أن أخلع عني الشاربيْن واللحية، مثلما أفعل عندما أكون وحدي، ودخلت إلى غرفة النوم. وعند ذلك فقط لفت انتباهي شيء بدا في غير مكانه: من معلاق موجود قرب صندوق كبير كان يتدلى ثوب، عباءة دون شكّ كهنوتية. وعندما اقتربت رأيت فوق الصندوق شعراً مستعاراً كستنائيّاً، يكاد يكون أشقر.

كنت أتساءل أيّ صعلوك استضَفْتُ عندي في الأيام الماضية، عندما تبادر إلى ذهني أنّني أنا أيضاً متنكّر، بما أنّ الشاربيْن واللحية التي أضعها ليست لي. هل كنت إذن شخصاً يتنكّر مرّة في زيّ شريف ثريّ ومرّة في زيّ رجل كنيسة؟ ولكن كيف حدث أنّي محوت كلّ ذكرى عن حالتي الثانية؟ ومع ذلك، فلسبب ما (ربما للفرار من أمر بالاعتقال) أتنكّر بشاربَيْن ولحية، ولكن في الآن نفسه أستضيف في بيتي شخصاً يتنكّر في زيّ قسّ؟ وإذا كان ذلك القسّ المستعار (لأنّ قسّاً حقيقيّاً لن يستعمل شعراً مستعاراً) يقيم معي، فأين ينام، بما أنّه يوجد فراش واحد؟ أو أنّه لا يُقيم عندي، والتجأ إليّ في اليوم السابق، لسبب ما، متحرّراً بعد ذلك من التنكّر للذهاب يعلم اللّه إلى أين ولفعل يعلم اللّه ماذا؟

أحسّ بفراغ في رأسي، كما لو أنّي أرى شيئاً كان ينبغي أن أتذكّره ولكني لا أتذكّره، أي كما لو كان شيئاً ينتمي إلى ذاكرة شخص آخر. أظنّ أن الحديث عن ذاكرة شخص آخر هو العبارة الصحيحة. في تلك اللحظة انتابني إحساس بأنّني شخص آخر يراقب نفسه من الخارج. هناك أحد يراقب سيمونيني وهذا الأخير ينتابه فجأة إحساس بأنّه لا يعرف بالضبط من هو.

لنهدأ ولنفكّر، قلت لنفسي. كشخص يمارس، وراء واجهة دكان لبيع الأثاث القديم وسقط المتاع *bric-à-brac*، مهنة تزوير الوثائق، واختار أن يقيم في أحد الأحياء الباريسيّة الأكثر شُبْهة، لن يكون من الغريب أن أوفّر ملجأ إلى أحد المتورّطين في دسائس قذرة. ولكن ما يبدو لي غير عادي بالمرّة هو أن أنسى إلى من أوفّر هذا الملجأ.

كنت أحسّ بالحاجة إلى مراقبة قفاي، وفجأة بدا لي بيتي نفسه مكاناً غريباً قد يخفي أسراراً أخرى. بدأت أكتشفه كما لو كان بيت شخص آخر. عند الخروج من المطبخ، على اليمين توجد غرفة النوم، على اليسار قاعة الجلوس بأثاثها المعتاد. فتحتُ أدراج المكتب، التي تحتوي على أدوات مهنتي، من أقلام، وقوارير بمختلف أنواع الحبر، وأوراق لا تزال بيضاء (أو صفراء) من مختلف الأحقاب والأحجام؛ على الرفوف، إضافة إلى الكتب، توجد العلبُ التي تحتوي على وثائقي، وصندوق من خشب الجوز القديم. كنت أحاول أن أتذكّر لماذا كان يصلح، عندما سمعت رنين الجرس من أسفل. نزلت لطرد أيّ زائر غير مرغوب فيه، فرأيت إمرأة بدا لي أنّي أعرفها. قالت لي من خلال الزجاج : - أرسلني تيسّو، ولم أرَ بُدّاً من قبولها. ترى لماذا اخترت كلمة السرّ تلك؟

دخلت المرأة وفتحت لفّة من القماش كانت تشدّها بقوّة إلى صدرها، وأرتني قرابة عشرين قرصاً من الخبز المقدَّس.

- قال لي القسّ دلّا بيكّولا إنّها تهمّك.

فوجئت بنفسي وأنا أجيب "أكيد"، وسألتها كم تريد ثمناً لها. فقالت العجوز عَشَرة فرنكات للقطعة الواحدة.

- إنك مجنونة، قلت لها مدفوعاً بغريزة التاجر.

- أنت المجنون الذي تستعملها للسحر الأسود. هل تظنّ أنّه من اليسير الذهاب في ثلاثة أيام إلى عشرين كنيسة، وتناول القرص بعد محاولة ترك الفم جافّاً، والركوع باليدين فوق الوجه ومحاولة إخراج القرص دون أن يتبلّل، ووضعه في حقيبة صغيرة أحملها في حضني، بطريقة لا يتفطّن بها لا الكاهن ولا

الجيران؟ دون الحديث عن التدنيس وعن الجحيم الذي ينتظرني. وإذن، إن أعجبك ذلك فهاتِ مائتي فرنك، وإلّا فسأذهب إلى القسّ بولّان.

- القسّ بولّان مات، من الظاهر أنك لا تذهبين منذ مدّة للبحث عن أقراص الخبز المقدّس.

أجبتها بصفة تكاد تكون آلية. ثمّ قرّرت أنّه من الأفضل، نظراً للتشويش الذي أصاب رأسي، أن أتبع الغريزة دون الإطالة في التفكير.

- لا يهمّ، سآخذها.

دفعت الثمن وفهمتُ أنّه ينبغي وضعها في الصندوق الذي في مكتبي، في انتظار بعض الزبائن المخلصين. إنّها مهنة مثل غيرها من المهن.

باختصار، كان كلّ شيء يبدو لي يوميّاً، معتاداً. ومع ذلك فقد كنت أحسّ من حولي مثل رائحة شيء رهيب، لا أعرف كُنْهه.

صعدت من جديد إلى مكتبي ولاحظت أنّه يوجد في الجدار الخلفي، وراء الستار، باب. فتحته وأنا أعرف أنّني سأدخل في رواق هو من الظلمة بحيث يجب قطعه بسراج. والرواق يشبه مخزناً لِلَوازم المسرح، أو دكاناً خلفيّاً لبائع السقط بالهيكل. على الجدران كانت تتدلى الأثواب الأكثر اختلافاً، ثوب فلّاح، وفحّام، وساعٍ، وصعلوك، وبزّة مع سراويل جنديّ، وإلى جانب الأثواب الشعر المستعار الذي يتماشى مع كلّ منها. قرابة الاثنتي عشر من الرؤوس الحاملة للشعر المستعار مصفوفة في ترتيب جميل على أحد الرفوف. وفي آخر الرواق منضدة الزينة شبيهة بتلك الموجودة في مقصورة الممثلين، تغطيها أوعية من الإسبيداج وأحمر الشفاه، وأقلام رصاص سوداء وفيروزية، وأرجل أرنب، وريش، وأقلام وأمشاط.

عند نقطةٍ ما ينعرج الرواق بزاوية قائمة، وفي نهايته يوجد باب آخر يؤدي إلى غرفة أكثر ضياء من غرفي، لأنّها تتلقى النور من شارع غير زقاق موبير الضيّق. وبالفعل، عندما نظرت من إحدى النوافذ، رأيت أنّها تنفتح على شارع ميتر ألبير.

يتفرّع من القاعة سُلَّم صغير يؤدي إلى الشارع، وهذا كلّ شيء. كان إذن

فضاءً واحداً، شيئاً بين ستوديو وغرفة نوم، مع أثاث بسيط داكن اللون، طاولة، ومركع، وفراش. قرب باب الخروج يوجد مطبخ صغير، وعلى السُّلَّم مرحاض chiotte مع مغسل.

كان بكلّ وضوح مأوى، أو موقع قدم pied-à-terre لرجل كنيسة، يبدو أني أعيش معه علاقة حميمة، بما أنّ شقّتينا متّصلتان. ولكن، مع أن كلّ شيء كان يبدو أنّه يذكرني بشيء ما، في الواقع كان يظهر لي أنّي أزور تلك الغرفة لأوّل مرّة.

اقتربت من الطاولة ورأيت مجموعة من الرسائل بظروفها، جميعها موجهة إلى الشخص نفسه: إلى المحترم، أو إلى الموقّر سيادة القسّ دلّا بيكّولا. إلى جانب الرسائل رأيت بعض الأوراق مكتوبة بخطّ نحيف ورقيق، يكاد يكون خطّ امرأة، مختلف كثيراً عن خطي. مسودّات لرسائل ليست لها أيّة أهميّة خصوصيّة، شُكْر بخصوص هِبة، تأكيدات لبعض المواعيد. ولكن الورقة التي كانت فوقها جميعا كانت مكتوبة بطريقة مضطربة، كما لو أنّ محرّرها سجّل بعض الملاحظات لتحديد بعض النقاط قصد التفكير فيها. قرأت، بشيء من الصعوبة:

يبدو كل شيء غير واقعي. كما لو كنت شخصاً آخر يُراقبني. سجِّل كلّ شيء كتابيّاً للتأكّد أنّه حقيقيّ.

اليوم هو 22 مارس.

أين هي جبّتي وشعري المستعار؟

ماذا فعلت مساء الأمس؟ أحسّ وكأن غمامة في رأسي.

لم أكن أتذكّر حتّى أين يؤدي الباب الذي في آخر الغرفة.

اكتشفت رواقاً (لم يسبق لي أن رأيته؟) مليئاً بالأثواب، والشعر المستعار، والمساحيق والألوان مثل التي يستعملها الممثلون.

من المِشْجَب تتدلّى جبّة كاهن جيّدة، وعلى سطح صندوق لم أجد فقط شعراً مستعاراً جيّداً بل حاجبَيْن مستعاريْن أيضاً. بمسحوق بشرة أصفر اللون وخدّيْن متورّديْن قليلاً رجعتُ الشخصَ الذي أتصوّر أني هو، أنتظر شاحب الوجه بحمّى

خفيفة. زاهداً. هو أنا. أنا من؟

أعرف أني القسّ دلاّ بيكّولا. أو بالأحرى، الشخص الذي يعرفه العالم على أنّه القسّ دلاّ بيكّولا. ولكن من الواضح أنّني لست هو، بما أنّني، للتظاهر بذلك، يجب عليّ أن أتنكّر.

إلى أين يؤدي هذا الرواق؟ عندي خوف من الذهاب إلى قاعه.

إعادة قراءة هذه الملاحظات. إذا كان ما هو مكتوب مكتوباً، فذلك يعني أنّه حدث لي فعلاً. إيلاء الثقة بالوثائق المكتوبة.

هل أعطاني أحدهم شراباً سحريّاً؟ القسّ بولاّن؟ هو قادر جداً على ذلك. أو اليسوعيّون؟ أو الماسونيّون؟ ما شأني أنا بهؤلاء؟

اليهود. لا يُمكن أن يكونوا إلاّ هم.

هنا لا أحسّ بنفسي في أمان. يُمكن أن يكون أحدهم قد دخل أثناء الليل، وسرق أثوابي، والأسوأ من هذا كلّه أن يكون اطّلع على أوراقي. لعلّ أحدهم يتجوّل اليوم في باريس موهماً الجميع بأنّه القسّ دلاّ بيكّولا.

يجب أن أختبئ في أوتوِي. لعلّ ديانا تعرف. من هي ديانا؟

تنتهي ملاحظات القسّ دلّا بيكّولا عند هذا الحدّ، ومن الغريب أنّه لم يأخذ معه وثيقة بهذه السريّة، وهي علامة على الاضطراب الذي كان دون شكّ فريسة له. وهنا ينتهي كل ما أمكن لي معرفته عنه.

رجعتُ إلى شقة زنقة موبير وجلست إلى مكتبي. بأيّ طريقة تتشابك حياة القسّ دلّا بيكّولا مع حياتي؟

بطبيعة الحال، خطرت ببالي الفرضيّة الأكثر بديهيّة. أنا والقسّ دلّا بيكّولا نفس الشخص وإذا كان الأمر هكذا فكلّ شيء يجد تفسيراً، الشقتان المشتركتان بل وحتى كوني دخلت بلباس دلّا بيكّولا إلى شقة سيمونيني، وهنالك خلعت جبّتي وشعري المستعار ثم غرقت في النوم. إلّا أنّ هناك نقطة صغيرة محيّرة: إذا كان سيمونيني هو دلّا بيكّولا لماذا أنا أجهل كلّ شيء عن دلّا بيكّولا ولا أحسّ بنفسي دلّا بيكّولا يجهل كل شيء عن سيمونيني - بل ولمعرفة أفكار وعواطف

دلّا بيكّولا كان عليّ أن أقرأ ملحوظاته؟ وإذا كنت دلّا بيكّولا كان ينبغي أن أكون في أوتوي، في ذلك المنزل الذي يبدو أنّه يعرف عنه كلّ شيء وأنا (سيمونيني) لا أعرف عنه شيئاً. ومن هي ديانا؟

إلّا إذا كنت أحياناً سيمونيني، الذي قد نسي أنه دلّا بيكّولا، وأحياناً دلّا بيكّولا الذي قد نسي أنه سيمونيني. لن يكون بالشيء الجديد. من الذي حدّثني عن حالات من ازدواج الشخصيّة؟ ألا يحدث هذا لديانا؟ ولكن من هي ديانا؟

قرّرت بيني وبين نفسي أن أعمل بصفة منهجيّة. كنت أعرف أنّني أملك كُرّاساً أسجّل فيه مهامّي، ووجدت فيه الملحوظات التالية:

21 مارس، قُدّاس

22 مارس، تاكسيل

23 مارس، غوييّو لوصية بونفوا

24 مارس، عند درومون؟

كيف حدث أن أذهب يوم 21 إلى القُدّاس، لست أدري، لا أظن أنّني مؤمن. إذا كان المرء مؤمناً فهو يؤمن بشيء. هل أؤمن بشيء؟ لا أظنّ. وإذن فأنا كافر. هذا هو المنطق. ولكن لا علينا. أحيانا يذهب المرء إلى القُدّاس لأسباب عديدة، لا دخل فيها للإيمان.

الأثبت هو أنّ ذلك اليوم، الذي كنت أظنه الثلاثاء، هو يوم الأربعاء 23 مارس، وبالفعل فقد جاء ذلك المدعوّ غوييّو لأكتب له وصيّة بونفوا. كان يوم 23 وكنت أظنه 22. ماذا حدث يوم 22؟ من هو أو ماذا يكون تاكسيل؟

ثمّ، أن أقابل يوم الخميس ذلك المدعوّ درومون فلا مجال الآن للقيام به. كيف يُمكن أن أقابل أحداً وأنا لا أعرف حتّى من أكون؟ يجب أن أختبئ حتّى تتوضّح أفكاري. درومون. . . كنت أقول لنفسي إنّني أعرف جيّداً من هو، ولكن عندما أحاول التفكير فيه فكأنّ عقلي ضبّبه الخمر.

لنقم ببعض الافتراضات، هكذا قلت لنفسي. أوّلاً: دلّا بيكّولا شخص آخر، لأسباب خَفِيّة يتردّد كثيراً على شقتي التي يصلها بشقته رواق سريّ نوعاً ما. مساء 21 مارس دخل إلى شقتي في "زنقة موبير"، ووضع جُبَّته (لماذا؟)، ثمّ ذهب للنوم في شقته، حيث استفاق فاقداً للذاكرة في الصباح. وهكذا، أفقت أنا أيضاً فاقد الذاكرة بعد ذلك بصباحيْن. ولكن في هذه الحالة، ماذا فعلت يوم الثلاثاء 22، إذا استفقت فاقد الذاكرة صباح 23؟ ولماذا يخلع دلّا بيكّولا أثوابه عندي ليذهب من بعد إلى بيته دون جُبّته - وفي أيّ ساعة؟ روّعتني فكرة أنّه قد يكون قضى أوّل الليل في فراشي... يا إلٰهي، صحيح أنّي أشمئزّ من النساء، ولكن مع قسّ يكون الأمر أتعس. إنّي عفيف ولكني لست منحرفاً...

أو إنّني أنا ودلّا بيكّولا نفس الشخص. بما أنّني وجدت الجُبّة في غرفتي، بعد يوم القُدّاس (يوم 21) بإمكاني أن أكون دخلت إلى شقتي بزنقة «موبير»، متنكّراً في زيّ دلّا بيكّولا (إذا كان عليّ أن أذهب إلى القُدّاس فالأجدر بالتصديق أن أذهب هناك كقسّ)، لأخلع هناك جُبّتي وشعري المستعار، وأذهب بعد ذلك لأنام في شقّة القسّ (ناسياً أني تركت جبّتي عند سيمونيني). وفي الصباح الموالي، الثلاثاء 22 مارس، استفقت وأنا دلّا بيكّولا، ولا يكفي أنّني وجدت نفسي فاقد الذاكرة، بل ولم أجد حتّى الجُبّة عند أسفل الفراش. وبصفتي دلّا بيكّولا، دون ذاكرة، أكون وجدت جُبّة أخرى في الرواق ووجدت الوقت الكافي للفرار في اليوم نفسه إلى «أوتوي»، إلّا أنّني أكون ربما قد غيّرت رأيي في آخر اليوم، فاستعدت شجاعتي ورجعتُ إلى باريس في ساعة متأخرة من المساء إلى شقة زنقة «موبير»، وعلّقت الجُبّة إلى مشجب غرفة النوم، وباستفاقتي، فاقد الذاكرة من جديد، ولكن بصفتي سيمونيني، يوم الأربعاء، ظننت أنّه لا يزال يوم الثلاثاء. إذن، كنت أقول في نفسي، دلّا بيكّولا فقدَ الذاكرة يوم 22 مارس وبقي فاقد الذاكرة يوماً كاملاً ليجد نفسه يوم 23 بصفته سيمونيني فاقد الذاكرة. لا شيء خارقاً للعادة بعد الذي علمته من ... ما اسم ذلك الدكتور في مصحّة «فانسان»؟

ما عدا مشكلاً واحداً. أعدت قراءة ملاحظاتي: إذا كانت الأمور قد سارت

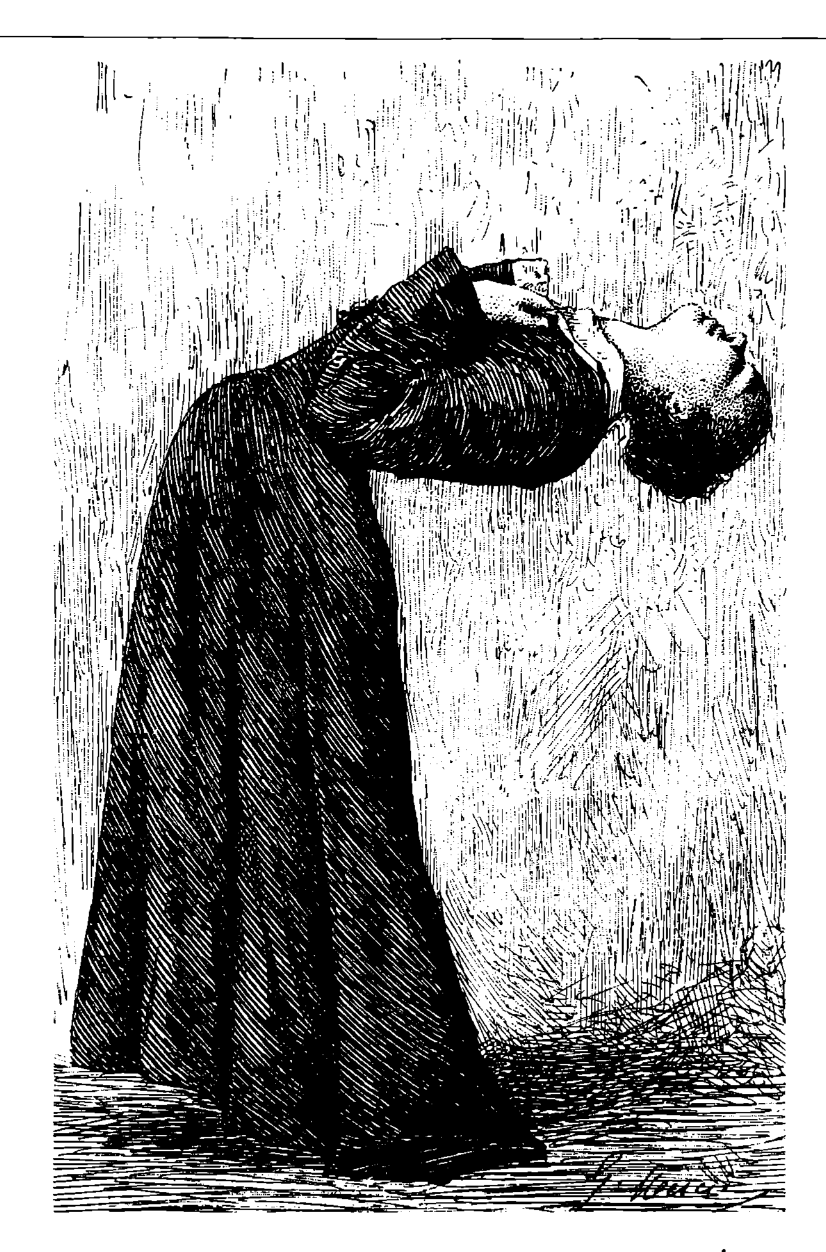
على هذا النحو، فإنّ سيمونيني كان ينبغي أن يجد في غرفة نومه، يوم 23 صباحاً، جُبَّتَيْن وليس جبّة واحدة، تلك التي تركها ليلة 21 وتلك التي تركها ليلة 22. على عكس ذلك كانت توجد جُبّة واحدة.

كلّا، يا لي من غبيّ. عاد دلّا بيكّولا من أوتوي مساء 22، إلى شقته بنهج "ميتر ألبير"، وهناك وضع جُبّته، ثمّ مرّ إلى شقّة زنقة "موبير" وذهب إلى الفراش، ليستفيق في الصباح الموالي (يوم 23) بصفته سيمونيني، وليجد على المِغْلاق جُبّة واحدة. صحيح أنّه لو أنّ الأمور سارت على هذا النحو، كان عليّ أن أجد في غرفته عند دخولي صباح يوم 23 إلى شقة دلّا بيكّولا الجُبّة التي تركها مساء يوم 22. ولكن كان بإمكانه أن يعيد تعليقها في الرواق حيث وجدها. يكفي أن أتثبّت.

قطعت الرواق بسراج مُضيء، يُساورني بعض الخوف، ونفسي تحدثني: إن كان دلّا بيكّولا شخصاً غيري، فلعلّه سيعترضني في آخر هذا الرواق، ربّما حاملاً هو أيضاً سراجاً مضيئاً أمامه... لحسن الحظ أنّ ذلك لم يحدث. وفي آخر الرواق وجدت الجبّة مُعلّقة.

ومع ذلك... ومع ذلك... لو أنّ دلّا بيكّولا عاد من أوتوي، وبعد أن وضع الجُبّة، قطع الرواق كلّه إلى أن وصل إلى شقتي، واضطجع دون تردّد في فراشي، فلأنّه في تلك اللحظة تذكّرني، وكان يعرف أنّ بإمكانه أن ينام، كما لو كان إلى جانب نفسه، بما أنّنا نفس الشخص. وبالتالي فإنّ دلّا بيكّولا ذهب إلى الفراش وهو يعرف أنّه سيمونيني بينما في الصباح الموالي استفاق سيمونيني دون أن يعرف أنّه دلّا بيكّولا. بعبارة أخرى يفقد، أوّلاً، دلّا بيكّولا الذاكرة، ثم يستعيدها، وينام نوم العافية ثم ينتقل فقدان الذاكرة إلى سيمونيني.

فقدان الذاكرة... هذه العبارة، التي تعني عدم التذكّر، فتحت لي مثل فُرْجة في ضباب الزمن الذي نسيته. كنت أتحدّث عن فاقدي الذاكرة عند مانيي، قبل الآن بأكثر من عشر سنوات. هنالك كنت أتحدّث في هذا مع بورّو و بيرو، مع دي موريي ومع الدكتور النمساوي.



كانت تُعتبر في الماضي، ظاهرة مقصورة على النساء، تعود إلى اضطرابات في الوظيفة الرحميّة. . . (ص39)

# 3

## عند مانيي

25 مارس1897، عند الفجر

عند مانيي... أعرف أنّني من هواة الطبخ الجيّد، وحسب ما أتذكّر في ذلك المطعم الواقع بنهج ديلاكونترسكارب - دوفين، لا تلزم أكثر من عشرة فرنكات للشخص الواحد، والجودة تتناسب مع السّعر. ولكن لا يُمكن الذهاب كلّ يوم إلى فويّو. الكثيرون كانوا يذهبون، في السنوات الماضية، عند مانيي ليشاهدوا من بعيد بافتنان كُتّاباً شهيرين مثل غوتيي أو فلوبير، وقبلهم ذلك العازف على البيانو البولوني المسلول الذي تنفق عليه منحلّة ترتدي سراويل. لقد ألقيت نظرة ذات مساء على المكان وخرجت في الحال. الفنّانون لا يُطاقون، حتى من بعيد، فهم ينظرون حواليهم ليروا إن نحن تعرّفنا عليهم.

ثم ترك أولئك "المشاهير" مانيي، وهاجروا إلى بريبون-فاشات، في شارع ديلا بواسّونيير، حيث الطعام أفضل والسعر أرفع، ولكن من الواضح أنّ *carmina dant panem* الشّعْر **يطعم حقّاً** خبزاً. وعندما تطهّر مانيي، إن جاز القول، شرعت في الذهاب إليه من حين لآخر، منذ بداية السنوات 1880.

سبق أن لاحظت أنّ رجالَ عِلْم كانوا يرتادونه، كيميائيّون شهيرون مثل بارتولو والعديد من أطبّاء سلبيتريير. لم يكن المستشفى قريباً جداً، ولكن لعلّ أولئك الأطبّاء كانوا يحبّذون القيام بنزهة قصيرة في الحي اللاتيني عوض الإفطار في تلك الحوانيت أو المطاعم الحقيرة *gargottes* المقزّزة حيث يذهب أقارب المرضى. أحاديث الأطبّاء جذّابة لأنّها تتناول دائماً أوجاع شخص آخر، وعند مانيي يتحدّث الجميع بصوت مرتفع، للتغلب على الضوضاء، بحيث إنّ أذناً متمرّنة تستطيع أن تلتقط دائماً شيئاً مهمّاً. والمراقبة لا تعني محاولة معرفة شيء

بذاته. يُمكن لكلّ شيء، حتّى التافه، أن يصلح يوماً ما. المهمّ هو معرفة ما لا يعرف الآخرون أنّك تعرفه.

إذا كان الأدباء والفنانون يجلسون إلى موائد مشتركة، فإنّ رجال العلم يتعشّون بمفردهم، مثلي. ولكن، بعد مدة جوار قصيرة يبدأ التعارف. والأوّل الذي تعرّفت عليه هو الدكتور دي موريي، وهو شخص كريه جداً، إلى حدّ أنّك تتساءل كيف يُمكن لطبيب أمراض نفسيّة (تلك صفته) أن يوحي بالثقة لمرضاه وهو يتلقّاهم بذلك الوجه المنفر. وجه حاقد وشاحب، وجه من يعتبر نفسه دائماً ثانياً. وبالفعل، كان يدير مصحّة صغيرة للأعصاب في "فانسان"، ولكنه كان يعرف جيّداً أنّ مؤسّسته الصحيّة لن تبلغ أبداً لا شهرة ولا مداخيل مصحّة المشهور أكثر الدكتور بلانش - حتى وإن كان دي موريي يتهامس بتهكّم أنّه منذ ثلاثين سنة أقام فيها أحد يُدعى نيرفال (حسب رأيه شاعر على شيء من القيمة) أدّت به علاجات مصحّة بلانش إلى الانتحار.

وهناك مُؤاكِلان آخران أقمتُ معهما علاقات طيّبة هما الدكتوران بورّو وبيرو، وهما شخصان غريبا الأطوار يبدوان أخويْن توأميْن، يلبسان دائماً الأسود بنفس القياس تقريباً، وبنفس الشارب الأسود والذقن الأمرد، مع ياقة متّسخة بعض الشيء، حتماً، لأنّهما مسافران في باريس، إذ يعملان في مدرسة الطب بروشفور ويأتيان إلى العاصمة فقط بضعة أيام كلّ شهر، لمتابعة تجارب شاركو.

- كيف، لا يوجد كرّاث اليوم؟ سأل بورّو يوماً بغيظ. وردّ بيرو، مستنكراً:

- أليس هناك كرّاث؟

وبينما كان النادل يعتذر، تدخلت من المائدة المجاورة: - ولكن عندهم لحية تيس رائعة. إني أفضّلها على الكُرّاث. ثمّ تغنّيت مبتسماً :

"كانت كلّ الخضر تسلّى - تحت ضوء القمر - والمارّة ينظرون - والخيار المخلّل يرقص رقصة الدائرة - ولُحَى التيس ترقص بلا صخب".

- Tous les légumes, - au clair de lune - étaient en train de s'amuser - et les passants les regardaient. - Les cornichons -dansaient en rond, - les salsifis - dansaient sans bruit...[1]

اقتنعا، واختارا لحية التيس. ومنذ ذلك الحين بدأت عادة أليفة، يومين في الشهر.

- انظر يا سيّد سيمونيني، كان يفسّر لي بورّو، الدكتور شاركو بصدد إنجاز دراسة معمّقة للهستيريا، وهي شكل من العُصاب يظهر من خلال تفاعلات حركيّة- نفسيّة، حواسيّة وعصبيّة. في الماضي كانت تُعتبر ظاهرة مقصورة على النساء، تعود إلى اضطرابات في الوظيفة الرحميّة، ولكن شاركو حدس أنّ المظاهر الهستيريّة منتشرة لدي الجنسين على حدّ سواء، ويُمكن أن تشمل الشلل، والصرع، وفقدان البصر أو فقدان السمع، وصعوبة في التنفس، أو في الكلام، أو في الابتلاع.

تَدَخَّل بيرو قائلاً: - إنّ زميلي لم يقل لك بعد إنّ شاركو يزعم أنّه توصل إلى علاج يشفي من تلك الأعراض.

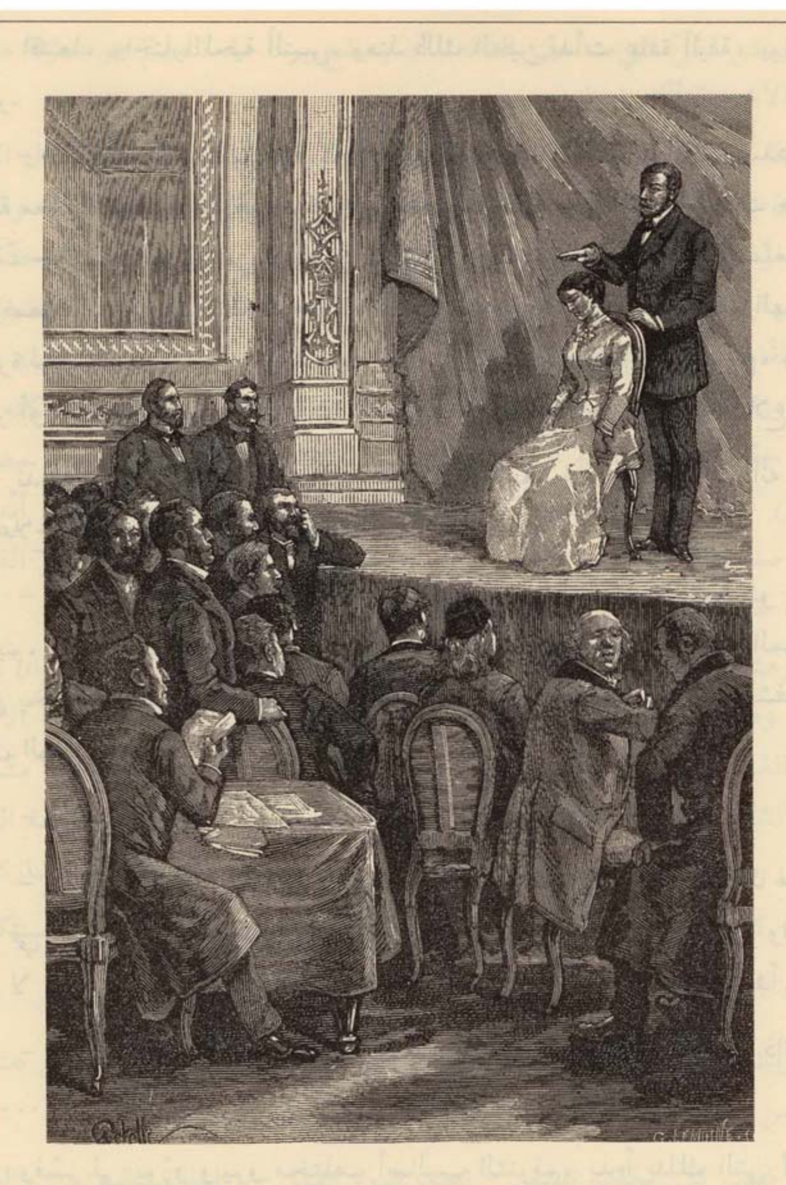
- كنت سأصل إلى ذلك، أجاب بورّو مغتاظاً. اختار شاركو طريقة التنويم، التي كانت إلى ماضٍ قريب خاصة بالمشعوذين مثل ميسمير. المرضى، الذين يخضعون للتنويم، يتذكّرون أحداثاً صادمة هي أصل الهستيريا، ويشفون من خلال الوعي بها.

- ويشفون؟

- هذه هي نقطة الخلاف، يا سيد سيمونيني، قال بورّو. بالنسبة إلينا ما يدور غالباً في "سَلبيتريير" أكثر شبهاً بالمسرح منه بالمصحّة النفسيّة. ليكن الأمر واضحاً، نحن لا نضع موضع الشكّ قدرات أستاذنا التشخيصيّة التي لا تخطىء أبداً...

- ليس لوضعها موضع الشكّ، أيّده بيرو. إنّ تقنية التنويم في حدّ ذاتها هي التي...

وفسّر لي بورّو وبيرو مختلف أساليب التنويم، بدءاً بتلك التي لا تزال غارقة في الشعوذة مثل التي يستعملها القسّ فاريا (وتنبّهت أذناي لذلك الاسم الدوماسيانيّ، ولكنّنا نعرف أن دُومَا Dumas كان يغرف من وقائع حقيقيّة) إلى تلك التي صارت علميّة للدكتور برايد، وهو ريادي حقيقيّ.



اختار شاركو طريقة التنويم، التي كانت إلى ماضٍ قريب خاصة بالمشعوذين مثل ميسمير. . . (ص39)

- الآن، قال بيرو، يستعمل المنوِّمون المغناطيسيّون الماهرون مناهج أكثر بساطة.

- وأكثر نجاعة، أضاف بورّو مدقّقاً. أمام المريض تُؤرجح ميدالية أو مِفتاح، ويُطلب منه أن يحدق فيها: في غضون دقيقة أو ثلاث تصبح لحدقتي المريض حركة تأرجحيّة، وينخفض نبضه، ويغلق عينيه، ويعبّر وجهه عن إحساس بالاسترخاء، ويُمكن أن يدوم النوم حتّى عشرين دقيقة.

- ينبغي القول، أضاف بيرو مصوّباً، إنّ ذلك يتوقّف على الشخص، لأنّ المغنطة لا تتوقّف على إرسال تيّارات خفيّة (مثلما يريد ذلك البهلوان ميسمير) بل على ظواهر الإيحاء الذاتي. والعرّافون الهنود يحصلون على نفس النتيجة بتركيز النظر على طرف الأنف أو رُهبان جبل آتوس بتركيز النظر على الصرّة.

- نحن لا نؤمن كثيراً بهذه الأشكال من الإيحاء الذاتي، أضاف بيرو، حتى وإن لم نفعل أكثر من تطبيق ما حدس به شاركو، قبل أن يشرع في إيلاء ثقة كبيرة بالتنويم. نحن بصدد الاهتمام بحالات تغيّر الشخصيّة، أي بمرضى يظنّون يوما أنّهم شخص ويوماً آخر أنهم شخص آخر، والشخصيّتان تجهل إحداهما وجود الأخرى. في العام الماضي دخل مستشفانا واحد يدعى لويس.

- حالة جديرة بالاهتمام، حدّد بورّو، كان يشكو من شلل، وخُدار، وتصلُّب، وتشنُّج عضلي، وفرط الحساسيّة، وبُكْم، والتهاب الجلدة، ونزيف دموي، وسُعال، وقَيء، وصَرَع، وإغماء تخشُّبي، ورَوْبَصة، ورقصة سان فيتو، وسوء التركيب اللغوي...

- أحياناً يظن نفسه كلباً، كان يضيف بيرو، أو قاطرة بخاريّة. ثم كان يشكو أيضاً من هلواس الاضطهاد، وضيق المجال البصري، وهلوسة المذاق والشمّ والرؤية، واحتقان الرئة موهم بالسلّ، وصُداع، وأوجاع المَعِدة، وقبض، وقَمَه، وضور وفُتُور نُوَام، وهَوَس السرقة...

- بإيجاز، ختم بورّو، هي حالة عادية. الآن نحن، عوض أن نلجأ إلى التنويم، وضعنا صفيحة من الحديد على الذراع الأيمن للمريض وها أنّه ظهرت

لنا فجأة شخصيّة جديدة. الشلل وفقدان الحسّ اختفيا من الجانب الأيمن وتحوّلا إلى الأيسر.

- كنّا أمام شخص آخر، دقّق بيرو، لا يتذكّر شيئاً ممّا كان عليه قبل ذلك بلحظة. في إحدى حالتيه كان لويس لا يشرب الخمر وفي حالته الأخرى يكاد يميل إلى الإدمان.

- تصوّر، قال بورّو، أنّ القوّة المغناطيسيّة لمادّة ما تؤثر حتى عن بُعد. على سبيل المثال، دون أن يعلم المريض، توضع تحت مقعده قارورة تحتوي على مادّة كحولية. في هذه الحالة من الرَّوْبصة يُظهر الشخص كلّ أعراض الإدمان.

- أنت تدرك كيف أنّ ممارساتنا تحترم السلامة النفسية للمريض، خَتَم بيرو. فالتنويم يُفقد الشخص إدراكه، بينما مع المغناطيسيّة لا يوجد تأثير عنيف على عضوٍ ما بل انفعال تدريجي للضفائر العصبيّة.

استنتجتُ من تلك المحادثة أنّ بورّو وبيرو كانا غبيّيْن يعذّبان المجانين المساكين بموادّ مهيّجة، وتأكّد لي ذلك عندما شاهدت الدكتور دي موريي، الذي كان يتابع الحوار من المائدة المجاورة، يهزّ رأسه مرّات عديدة.

- أيّها الصديق العزيز، قال لي بعد يومَيْن من ذلك، سواء شاركو أو هذان الاثنان من "روشفور"، عوضاً عن تحليل ما عاشه المرضى في السابق، والتساؤل عن كُنْه توفّر المرء على شخصيتين، فإنهم يجهدون أنفسهم بالبحث فيما إذا كان يُمكن التأثير عليهم بالتنويم أو بقضبان الحديد. المسألة هي أنّه عند العديد يقع المرور من شخصيّة إلى أخرى بصفة عفويّة، بطرق وفي أوقات غير متوقعّة. يُمكن الحديث عن مغناطيسيّة ذاتيّة. حسب رأيي شاركو وتلاميذه لم يفكّروا بالقدر الكافي في تجارب الدكتور أزام والمريض فيليدا. نحن لا نعرف بعد هذه الظواهر معرفة جيّدة، فاضطراب الذاكرة يُمكن أن يكون مَرَدُّه نَقْصَ واردِ الدم إلى جزء غير معروف من الدماغ، والتقلُّص الوقتيّ للعروق يُمكن أن يكون راجعاً لحالة الهستيريا. ولكن أين ينقص الوارد الدمويّ في فقدان الذاكرة؟

- أين ينقص؟

- هذه هي المسألة. أنت تعرف أنّ دماغنا متكوّن من شقّيْن. يُمكن أن يوجد أشخاص يفكّرون أحياناً بشقّ كامل وأحياناً بشقّ غير كامل حيث تنقص مَلَكة الذاكرة. عندي في المصحّة حالة شبيهة جداً بحالة فيليدا. فتاة في العشرين أو أكثر بقليل؛ تُدعى ديانا.

وهنا توقف دي موريي لحظة، كما لو أنّه خشي الكشف عن شيء سريّ.

- عهدت بها إليّ إحدى قريباتها لمعالجتها منذ سنتين ثمّ تُوفّيتْ، متوقفةً بطبيعة الحال عن دفع المصاريف، ولكن ما العمل، هل أُلقي بالمريضة في الشارع؟ أعرف القليل عن ماضيها. يبدو، من روايتها، أنّها بدأت منذ سنّ المراهقة تحسّ كلّ خمسة أو ستّة أيام، تهيُّجاً، ووجعاً في الصدغيْن، ثمّ تغيب وكأنها في نوم. ما تسمّيه نوماً هو في الواقع أزمات هستيريا: عندما تستفيق، أو تهدأ، تصبح مختلفة جداً عمّا كانت عليه من قبل، أي تدخل في تلك التي يسميها الدكتور أزام **"حالة ثانية"**. في الحالة التي نعرّفها بالعادية تتصرّف ديانا كما لو كانت من أتباع طائفة ماسونية... لا تفهم خطأً، أنا أيضاً أنتمي إلى "الشرق الأكبر"، أي إلى ماسونيّة الناس المحترمين، ولكن لعلّك تعرف أنّه توجد "طوائف" مختلفة ذات تقاليد هيكليّة، مع ميولات غريبة إلى علوم السحر، والبعض منها (وهم بطبيعة الحال أقليّة، لحسن الحظ) يُمارس طقوساً شيطانيّة. في الحالة التي نعرّفها للأسف **"بالعادية"**، ديانا تعتبر نفسها من أتباع إبليس أو شيئاً من هذا القبيل، تقول أشياء داعرة، وتقصّ وقائع خليعة، وتحاول إغواء الممرّضين بل وحتى أنا، يؤسفني أن أقول مثل هذه الأشياء المحرجة، خصوصاً وأنّ ديانا تُعتبر إمرأة فاتنة. أظنّ أنّها في هذه الحالة تعاني من صدمات تلقّتها في سنّ المراهقة، وتحاول الهروب من تلك الذكريات بالدخول من حين لآخر في الحالة الثانية. في هذه الحالة تبدو ديانا مخلوقاً وديعاً، كلّها براءة، مسيحيّة طيّبة، تطلب دائماً كتاب صلواتها، وتريد الخروج للذهاب إلى القُدّاس. ولكن الظاهرة الغريبة، والتي كانت تحدث أيضاً مع فيليدا، هي أنّ ديانا عندما تدخل في الحالة الثانية، ديانا الفاضلة، تتذكّر جيّداً كيف تصرَّفتْ في الحالة العادية، وتغتمّ، وتتساءل كيف أمكن أن تكون شريرة بتلك الصفة، وتعاقب نفسها بارتداء قميص من الشعر، إلى حدّ أنّها تسمّي الحالة الثانية **"حالة العقل"**، وتذكر حالتها العادية

على أنّها فترة سقطتْ فيها فريسة للهلوسة. على عكس ذلك، لا تتذكر ديانا، عندما تكون في حالتها العادية، شيئاً ممّا فعلته في الحالة الثانية. تتناوب الحالتان على مسافات زمنيّة لا يُمكن توقعها، وتبقى أحياناً في هذه الحالة أو في الأخرى أياماً عديدة. أتفق مع الدكتور أزام في قوله إنها **"رَوْبصة كاملة"**. وبالفعل ليس المُرَوْبِصون فقط هم الذين يفعلون أشياء لا يتذكرونها عندما يستفيقون، بل حتى أولئك الذين يتناولون المخدرات والحشيش وستّ الحسن والأفيون، أو أولئك الذين يُفْرِطون في شرب الكحول.

لست أدري لماذا أثار مرض ديانا اهتمامي بذلك الشكل، ولكني أتذكر أنّي قلت لـ دي موريي: - سأتحدث في هذا مع أحد معارفي الذي يهتمّ بالحالات البئيسة مثل هذه ويعرف أين يؤوي فتاة يتيمة. سأرسل إليك القسّ دلّا بيكّولا، رجل كنيسة ذو نفوذ كبير في أوساط المؤسّسات الخيريّة.

إذن عندما كنت أتحدّث مع دي موريي كنت أعرف، على الأقلّ، اسم دلّا بيكّولا. ولكن لماذا أبديت كلّ ذلك الاهتمام بتلك المسمّاة ديانا؟

إنني أكتب دون انقطاع منذ ساعات، إبهامي يؤلمني، واكتفيت بالأكل شيء دائماً على مكتبي، طالياً شرائح الخبز باللحم المفروم والزبدة، مع أكواب من شاتو لاتور، لإذكاء الذاكرة.

كان بودّي أن أكافئ نفسي بزيارة إلى مطعم بريبان- فاشات، ولكن ما دُمْت لا أعرف من أنا لا أستطيع الظهور خارج البيت. ومع ذلك، عليّ أن أجازف إن آجلاً أم عاجلاً، بالذهاب إلى ساحة موبير، لاقتناء ما يلزم للأكل في البيت.

لنترك هذا الأمر إلى ما بَعْد، ولنعد إلى الكتابة.

تعرّفت في تلك السنوات (أظنّها سنة 1885 أو 1886) عند مانيي على الشخص الذي لا أزال أتذكره على أنّه الدكتور النمساوي (أو الألماني). الآن عاد إلى ذاكرتي اسمه، كان يُدعى Froïde (أظنّ أنّه يُكْتَب هكذا)، وهو طبيب

في الثلاثين من عمره، كان دون شك يأتي عند مانيي فقط لأنّه لا يقدر على مطعم أفضل، وكان يقوم بفترة تربُّص عند شاركو. كان يجلس عادة إلى المائدة المجاورة، وفي البداية كنا نقتصر على تبادل إشارة تحيّة مؤدّبة. بدا لي ذا طبيعة سوداويّة، تائهاً شيئاً ما، مع رغبة خجولة في أن يستمع أحد لأسراره ليتخفّف قليلاً من همومه. حاول في مناسبتين أو ثلاث إيجاد بعض الأعذار لتبادل الحديث، ولكنّني لازمت دائماً الحذر.

حتى وإن كان اسم فرويد لا يرنّ في أُذُني مثل شتاينر أو روزنبيرغ، فقد كنت أعرف أنّ كلّ اليهود الذين يعيشون ويثرون في باريس لهم أسماء ألمانية، وبما أنّ الأنف المعقوف أثار فيّ الشكّ، سألت يوماً دي موريي، الذي قام بحركة غامضة، مضيفاً "إنّي لا أعرفه جيّداً وعلى كلّ حال فأنا لا أقربه، يهودي وألماني مزيج لا يعجبني".

- أليس نمساويّاً؟ سألته.

- هو الشيء نفسه، أليس كذلك؟ نفس اللغة، نفس طريقة التفكير. لم أنس النمساويّين وهم يسيرون في موكب في الشانزيليزيه.

- يقولون إنّ مهنة الطبّ هي من أكثر المهن التي يمارسها اليهود، بمثل القدر الذي يمارسون به الإقراض بالرّبا. من الأفضل دون شكّ أن لا يحتاج أحد أبداً للمال وأن لا يُصاب بمرض.

- ولكن هناك أيضاً الأطبّاء المسيحيّون، قال دي موريي بابتسامة فاترة.

كانت زلّة منيّ.

يوجد من بين المثقفين الباريسيّين من يقرّ، قبل التعبير عن نفوره من اليهود، بأنّ البعض من بين أعزّ أصدقائه هم يهود. نفاق. ليس لي أصدقاء يهود (حفظني اللّه منهم)، لقد تفاديت دائماً في حياتي اليهود. ولعلّي تفاديتهم بالغريزة، لأنّ اليهودي (يا للصدفة، مثل الألماني) تتعرّف عليه من النّتانة (مثلما عَبَّر فيكتور هوغو، *fetor giudaica*)، التي تعينهم على التعرّف بعضهم على البعض الآخر، بهذه العلامة

وبعلامات أخرى، مثلما يحدث مع اللوطيّين. كان جدّي يقول لي إنّ رائحتهم الكريهة متأتية من الإفراط في أكل الثوم والبصل، وربما لحم الخروف والإوزّ أيضاً، مثقلة بسكّريّات لزجة تجعلها سوداويّة. وقد يكون السبب هو أيضاً جِنْسُهم، ودمهم المتعفِّن، وصُلبهم المتفكّك. كلهم شيوعيّون، انظر ماركس ولاسّال، في هذا على الأقلّ كان مُعَلِّميّ اليسوعيّون على حقّ.

إنّني تحاشيت دائماً اليهود وذلك لأنّني أنتبه للألقاب. اليهود النمساويّون، ما إن يصبحوا أثرياء حتى يشتروا ألقاباً رشيقة، أسماءَ زهور، أو أحجاراً كريمة أو معادن نبيلة، من ذلك سيلبرمان أو غولدشتاين. وأكثرهم فقراً يتخذون أسماء مثل غرونسبان (زِنْجار). في فرنسا كما في إيطاليا يتستّرون وراء أسماء مدن أو أماكن، مثل رافينّا، مودينا، بيكار، فلامان، وأحياناً استوحوا أسماءهم من الروزنامة الثوريّة (فرومون، أفوان، لوريي) - شيء طبيعي، بما أنّ آباءهم كانوا الفاعلين السريّين في قتل الملك. ولكن يجب أيضاً التيقظ بخصوص الأسماء الشخصيّة التي تغطّي أحياناً أسماء عبريّة، فموريس جاء من موسى، وإيزيدور من إسحاق، وإدوار من هارون، وجاك من يعقوب، وألفونس من آدم...

هل سيغموند اسم يهودي؟ كنت قد قرّرت بالغريزة أن لا أثق بذلك الطبيب الحقير، ولكن ذات يوم، بينما كان فرويد يتناول وعاء الملح إذ قَلَبه. وبين جيران مائدة يجب احترام بعض قواعد اللياقة فقدّمت له وعائي، ملاحظاً أنّ قلب الملح في بعض البلدان يُعتبر طالع نحس، فأجاب ضاحكاً إنّه ليس متطيّراً. منذ ذلك اليوم بدأنا نتبادل بعض الكلمات. كان يعتذر لفرنسيّته، التي طالما قال عنها إنّها ضعيفة جداً، ولكن ما يقوله كان مفهوماً جداً. إنّهم رُحّل لنزعة متأصلة فيهم ويجب عليهم أن يتكيّفوا مع كلّ اللغات. قلت بلطف: - يكفي فقط أن تعوّد أُذُنَك أكثر. فتبسّم لي بامتنان. لزج.

كان فرويد كذّاباً حتى بصفته يهوديّاً. لقد سمعت دائماً أنّ أهل جنسه يأكلون أطعمة خاصة، مطهية بطريقة خاصة، ولذا يعيشون دائماً في حاراتهم، بينما كان فرويد يأكل عن طيب خاطر كلّ ما يقدمونه له عند مانيي، ولا يرفض كوباً من الجَعة مع الأكل.

إلّا أنّه ذات مساء بدا وكأنه يريد إطلاق العِنان لنفسه. كان قد طلب كوبين من الجعة ومع التحلية، بينما كان يدخّن بعصبيّة، طلب جعة ثالثة. عند حدّ ما، بينما كان يتحدّث محرّكاً يديه، قلب الملح للمرّة الثانية.

- لا يعني هذا أنّي أخرق، قال معتذراً، ولكنني مضطرب. لقد مرّت ثلاثة أيّام دون أن أتلقى رسالة من خطيبتي. لا أطالب بأن تراسلني كلّ يوم تقريباً مثلما أفعل أنا، ولكن هذا الصمت يقلقني. فهي ضعيفة الصحّة، وأنا أتألّم كثيراً لعدم وجودي بجانبها. ثمّ أنا أحتاج لموافقتها في أيّ شيء أفعله. أريدها أن تكاتبني لتقول لي رأيها في الدعوة إلى العشاء عند شاركو. لأنّه، يجب أن تعرف يا سيّد سيمونيني، أنّني دُعيت إلى العشاء عند هذا الرجل العظيم بضعَ ليالٍ خَلَت. شيءٌ لا يحدث لطبيب شاب زائر، ولأجنبيّ علاوة على ذلك.

هو ذا، قلت لنفسي، المُتسلّق الساميّ الصغير، الذي يتسلّل داخل العائلات الكبيرة ليصنع لنفسه مكانة. ثمّ كلّ ذلك الشوق للخطيبة، أليس دليلاً على طبيعة اليهودي الشهوانية والشبقية، المهتمّ دائماً بالجنس؟ تفكّر فيها ليلاً، أليس كذلك؟ وربّما تمسّ جسمك متخيّلاً إياها، أنت أيضاً بحاجة إلى قراءة تيسّو. ولكنني تركته يقصّ عليّ حكايته.

- كان هناك مدعوّون ممتازون، ابن دودي، الدكتور ستروس، مساعد باستور، الأستاذ باك من المعهد وإيميليو توفانو، الرسام الكبير الإيطالي. سهرة كلّفتني أربعة عشر فرنكاً، وربطة عنق سوداء جميلة من هامبورغ، وقفازّين أبيضيْن، وقميصاً جديداً، والفراك، لأوّل مرّة في حياتي. ولأوّل مرّة في حياتي أنقصت من طول لحيتي، على الطريقة الفرنسية. وللتغلّب على الخجل، قليلاً من الكوكايين لإطلاق اللسان.

- كوكايين؟ أليس سُمّاً؟

- كلّ شيء سُمّ، إذا استُعمل بإفراط، حتى الخمر. ولكنني منذ سنتين بصدد درس هذه المادة العجيبة. انظر، الكوكايين هي مادّة قلويدية تُفصل من نبتة كان سكّان أميركا يمضغونها لتحمّل العيش فوق المرتفعات الأوندية. خلافاً للأفيون وللكحول تحدث حالات ذهنيّة متهيّجة دون أن تكون لها مع ذلك

انعكاسات سلبيّة. وهي نافعة جداً كمسكّن للأوجاع، لا سيما في أمراض العيون أو لمداواة الرَّبْو، وهي نافعة في معالجة الإدمان على الكحول وتعاطي المُخَدِّرات، ممتازة ضدّ دُوار البحر، ثمينة في علاج السكّري، لها مفعول سحري في إبعاد الجوع، والنوم، والتعب، وهي معوّض جيّد للتبغ، وتشفي من التخمة، وانتفاخ البطن، والإسهال، وأوجاع المعدة، والسويداء، والانفعال النخاعي، وحمّى القَش، وهي مُقوٍّ نفيس ضدّ السلّ وتعالج وجع الرأس، وفي حالة تسوّس حادّ يوضع في ثقب السنّ قليل من القطن متشرّب بمحلول بنسبة أربعة بالمائة فتهدأ الأوجاع في الحال. وهي بالخصوص مدهشة في إعادة الثقة للمكتئب، وفي انتعاش الروح، وتجعلك ناشطاً ومتفائلاً.

كان الدكتور قد وصل الآن إلى كوبه الرابع ومن الواضح أنّ سكرته سوداويّة. كان يميل نحوي كما لو أنّه يريد الاعتراف.

- الكوكايين جيّدة جداً بالنسبة لشخص مثلي لا يعتبر نفسه، مثلما قلت دائماً لحبيبتي مارتا، جَذّاباً جداً، والذي لم يكن في شبابه أبداً شابّاً، والآن وقد بلغ الثلاثين لا يستطيع أن يصبح ناضجاً. مرّ زمان كنت فيه كُلّي طموح ورغبة في التعلّم، ويوماً بعد يوم بدأتُ أشعر بالإحباط، لأنّ الطبيعة في إحدى لحظات الجود لم تمنَّ عليّ بطابع العبقريّة الذي تمنحه من حين لآخر لشخص ما.

ثمّ توقّف فجأة بهيئة من تفطّن إلى أنه كشف نفسه عارياً. يا لليهودي المسكين الباكي، قلت في نفسي. وقرّرت أن أحرجه.

- ألا يقولون إنّ الكوكايين مثيرة للشهوة الجنسيّة؟

فاحمرّ وجه فرويد: - لها أيضاً هذه الميزة، على الأقلّ حسب ما أعتقد. . . ليست لي تجارب مباشرة في الخصوص. كرجل لست حسّاساً لمثل هذه الرغبات. وكطبيب فإنّ الجنس ليس موضوعاً يهمّني جداً. حتى وإن بدأ الحديث كثيراً عن الجنس حتى في سلبيتريير. اكتشف شاركو أنّ إحدى مريضاته، تدعى أوغستين، في مرحلة متقدّمة من أزمتها الهستيريّة كشفت أنّ صدمتها الأولية تمثلت في تعرّضها لعنف جنسيّ عندما كانت طفلة صغيرة. بطبيعة الحال لا أنفي أنّ من بين الصدمات التي تُحدِث الهستيريا يُمكن أن توجد أيضاً ظواهر متعلِّقة




في حالة تسوّس حادّ يوضع في ثقب السنّ قليل من القطن متشرّب بمحلول بنسبة أربعة بالمائة فتهدأ الأوجاع في الحال... (ص48)

بالجنس، لا غرابة في ذلك. بكلّ بساطة يبدو لي من قبيل المُغالاة أن نُرجع كلّ شيء إلى الجنس. ولكن لعلّه احتشامي البورجوازي هو ما يجعلني أبقى بعيداً عن هذه المشاكل.

كلّا، قلتُ في نفسي، ليس هذا احتشاماً منك، بل إنّك مثل كلّ المختونين من جنسك يستحوذ عليك الجنس ولكنك تحاول نسيان ذلك. أريد أن أراك عندما ستضع يديك المتسختيْن على تلك المُسَمّاة مارتا إن لم تجعلها تضع لك زمرة من صغار اليهود وإن لم تُسِلَّها من فرط الإنهاك...

في تلك الأثناء واصل فرويد: - مشكلتي هي بالأحرى أنّني استنفدتُ مخزوني من الكوكايين وأنّني بصدد الاستسلام للسُّوَيداء، سيقول الأطباء القدامى أنّني ضحيّة إفراز مِرّة سوداء. في السابق كنت أجد مستحضرات ميرك وغهِه، ولكنهما أُجبرا على تعليق إنتاجهما لأنّهما لا يحصلان إلّا على مادّة أولى رديئة.الأوراق الطازجة لا يُمكن تحضيرها إلّا في أميركا، والمنتوج الأفضل هو منتوج بارك ودايفيز من ديترويت، نوعيّة أكثر قابليّة للانحلال في الماء، ذات لون أبيض ناصع وريحة فائحة. كانت لدي منها كميّة احتياطية ولكن هنا في باريس لا أدري إلى من أتوجّه.

إنّها موسيقى في أُذُنَي واحد مثلي مُطّلع على كلّ أسرار ساحة موبير وضواحيها. كنت أعرف أشخاصاً يكفي أن أذكر لهم، ليس فقط اسم كوكايين، بل حتى حجر الماس، أو أسداً مقشّشاً أو برميلاً من الزاج، وفي اليوم التالي يأتونك به، طالما أنَّك لا تسألهم من أين أخذوه. الكوكايين بالنسبة إليّ هي سُمّ، قلت في نفسي، والمساهمة في تسميم يهودي شيء يروق لي. وهكذا قلت للدكتور فرويد إنّني في غضون بضعة أيام سأحصل له على كميّة كافية من القلويده. بطبيعة الحال لم يكن فرويد يشكّ في أنّ الطرق التي أسلكها أقل ما يقال فيها أنّها جديرة باللوم- . أنت تعلم، قلت له، إنّنا نحن تُجّار الأثاث القديم نعرف أنواعاً مختلفة من البشر.

كلّ هذا لا دخل له البتة بمشكلتي، ولكن لأقول كيف إنّنا في نهاية الأمر ربطتنا علاقة حميمة وتحدثنا في شتى الأمور. كان فرويد فصيحاً ظريفاً، لعلّي أخطأت عندما قلت إنّه يهودي. الحال هو أنّ الحوار معه كان أفضل من التحادث مع بورّو و بيرو، وكان أن وصل بنا الحديث إلى تجارب العامين الأخيرين، وهنا أشرت إلى مريضة الدكتور دي موربي، فسألته:

- هل تظنّ أنّ مريضة من هذا النوع يُمكن أن تشفى بمغناطيس بورّو وبيرو؟

- يا صديقي العزيز، أجاب فرويد، في العديد من الحالات التي ندرسها نُولي أهميّة كبرى للمظهر الجسدي، متناسين أنّ الداء يُمكن أن ينتج حسب كلّ احتمال عن أسباب نفسانية. وإذا كانت الأسباب نفسانية فالنفس هي التي ينبغي مُداواتها، وليس الجسد. إن الصدمة النفسانية الأصلية هي السبب الحقيقي للمرضى، حينما يتعلق الأمر باضطراب ناجم عن صدمة ما، وليس الضرر الذي قد يكون في حد ذاته تافهاً. ألا يحدث أن يفقد الإنسان وعيه من فرط الانفعال؟ إذن، من يهتمّ بالأمراض العصبيّة، فالمسألة ليست كيف يفقد الإنسان وعيه، بل طبيعة الانفعال الذي جعلنا نفقده.

- ولكن كيف العمل لمعرفة ما هو ذلك التأثُّر؟

- انظر، أيها الصديق العزيز، عندما تكون الأعراض بكل وضوح هيستيريّة، مثلما في حالة مريضة دي موربي، عندئذٍ يُمكن أن يحدث التنويم الاصطناعي تلك الأعراض نفسها ويُمكن بالفعل الرجوع إلى الصدمة الأوليّة. إلّا أنّ هناك مرضى آخرين مرّوا بتجربة لا تُطاق حتى إنهم حاولوا محوها، كما لو أنهم نَفَوْها في مكان قَصِيّ من نفوسهم، هو من العمق بحيث لا يُمكن بلوغه حتى تحت التنويم. ومن ناحية أخرى، لماذا تكون لنا تحت التنويم قدرات ذهنيّة أكثر حيويّة ممّا هي عليه في حالة الاستفاقة؟

- وإذن لن نعرف أبداً. . .

- لا تطلب مني جواباً قاطعاً ونهائيّاً، لأنني بصدد الكشف لك عن أفكار

لم تتخذ بعد شكلاً متكاملاً. أميل أحياناً إلى التفكير في أنّه لا يُمكن بلوغ تلك المنطقة العميقة إلّا أثناء الحلم. حتى القدامى كانوا يعرفون أنّ الأحلام يُمكن أن تكشف أشياء. أظنّ أنّه لو أمكن لمريض أن يتكلّم، وأن يتكلّم طويلاً، طيلة أيام، مع شخص يعرف كيف يستمع إليه، وربما أن يقصّ عليه ماذا عاش في حلمه، فبالإمكان أن تطفو الصدمة الأوليّة على السطح، وتصبح جليّة. يسمّون ذلك بالإنكليزية *talking cures*. لعلّك انتبهت إلى أنّه عندما تقصّ أحداثاً بعيدة على أحد، خلال الرواية تستعيد تفاصيل كنت قد نسيتها، أو بالأحرى كنت تظنّ أنّك نسيتها، ولكن على العكس حفظتها الذاكرة في بعض طيّاتها السريّة. إنّي أظنّ أنّه بقدر ما تكون إعادة التركيب دقيقة، بقدر ما يتكشّف حدث، ماذا أقول، بل وحتى حدث تافه، جُزَيْئة كان لها تأثير اختلالي لا يُتحمّل بحيث تحدث... كيف أقول، الـ *Abtrennung*، الـ *Beseitigung*، لا أجد العبارة الملائمة. بالإنكليزيّة أقول *removal*، بالفرنسيّة كيف نقول عندما نبتر عضواً... *une ablation*؟ هو ذا، لعلّ العبارة الصحيحة بالألمانية هي *Entfernung*.

ها إنّ اليهودي ينكشف، قلتُ في نفسي. أظنّ أنّني في تلك الفترة كنت قد اهتممت بمختلف المؤامرات اليهوديّة وبمشروع تلك الملّة لجعل أبنائهم أطباء وصيادلة للتحكّم سواء في أجساد المسيحيّين أو في عقولهم. لو أنّني كنت مريضاً فهل ستريدني أن أسلّم لك نفسي وأقصّ عليك كلّ ما يخصّني، حتى ما لا أعرف، لتصبح سيّداً على نفسي؟ ذلك أسوأ من المعرِّف اليسوعي، فمعه على الأقلّ أتكلّم محميّاً وراء شبّاك، ولن أفشي له بما أفكّر فيه بل بما يفعله الجميع، حتى إنّنا نستعمل مصطلحات تكاد تكون تقنية متساوية عند الجميع: سرقتُ، زنيتُ، لم أُكرم الأب والأمّ. كلامك نفسه يخونك، تتحدّث عن البتر كما لو كنت تريد أن تختن عقلي...

ولكن فرويد في الأثناء انفجر ضاحكاً وطلب جعة أخرى.

- لا تأخذ كلامي على أنّه إنجيل. إنها خيالات شخص ضعيف الإرادة. عند عودتي إلى النمسا سأتزوّج، وللإنفاق على عائلتي يجب أن أفتح عيادة. وعندئذٍ سأكون عاقلاً وسأستعمل التنويم مثلما علّمني شاركو، ولن أذهب للتطفُّل

على أحلام مرضاي. لست كاهناً. أتساءل إن لم يكن صالحاً لمريضة دي موريي أن تتناول قليلاً من الكوكايين.

هكذا انتهت تلك المحادثة التي تركت آثاراً باهتة في ذاكرتي. ولكنها الآن عادت إلى ذهني كاملة لأنّني قد أجد نفسي، إن لم أقل في وضعيّة ديانا، فعلى الأقل في وضعية شخص شبه عاديّ فقد جزءاً من ذاكرته. وفرويد تُراه أين يكون الآن، لن أذهب أبداً ولو دفعوا لي ذهب الدنيا لأقصّ سيرة حياتي، لا أقول إلى يهودي، بل وحتى إلى مسيحيّ طيّب. يجب عليّ، نظراً للحرفة التي أمتهِنُها (أيّ حرفة؟) أن أقصّ شؤون الآخرين، مقابل أجر، وأن أتفادى مهما كلفني الثمن أن أقصّ شؤوني الخاصة. ولكن بإمكاني أن أقصّ شؤوني الخاصة على نفسي. تذكرت أنّ بُورُّو (أو بيرو) قال لي إنّه يوجد عرّافون ينوّمون أنفسهم بالتحديق في صرّتهم.

هكذا قرّرت أن أحرّر هذه اليوميّة، وإن كان بالعودة إلى الوراء، قاصّاً على نفسي ماضيَّ شيئاً فشيئاً حسب ما يعود إلى ذهني، حتى الأشياء الأكثر تفاهة، إلى أن يبرز العنصر (كيف يقولون) الصادم. وحدي. وأريد أن أشفي وحدي، دون أن أضع نفسي بين أيدي أطبّاء المجانين.

قبل أن أبدأ (ولكنّني كنت قد بدأت، يوم أمس بالذات)، كان سيعجبني، لكي أهيِّئ نفسي إلى ذلك التنويم الذاتي، أن أذهب إلى نَهْج مونتْرُغاي، "عند فيليب" Chez Philippe. سأجلس بكلّ هدوء، وسأدرس بكلّ عناية قائمة المأكولات، تلك التي تُقدّم من السادسة مساء إلى منتصف الليل، وسأطلب حساء على طريقة كريسي، وسمك الترس بصلصة الكبّار، وفتيلة ثور ولسان عجل بالعصير، وفي الختام مثلّجة بالمَرَاسكينو وحلويات مختلفة، الكلّ مسقيّ بقارورتيْن منِ نبيذ بُرْغندي المعتَّق.

يكون آنذاك قد انقضى منتصف الليل، وأكون قد أخذتُ بعين الاعتبار الوجبة الليليّة: سأمتّع نفسي بحساء سلحفاة (خطر ببالي حساء مثل هذا، لذيذ جداً، عند دُومَا - هل إنّي عرفت دُومَا؟)، وسلمون بالبصلات الصغيرة

والخرشوف بالفلفل الجاوي، لأنتهي بشراب روم مثلّج وحلويات إنكليزية بالبهارات. في آخر الليل سأستمتع بوجبة الصباح، حساء بالبصل، مثلما يأكل في تلك الساعة حمّالو أسواق الهالّ، سعيداً باختلاطي بهم. وبعد ذلك، لكي أبدأ صبحيّة نشيطة، قهوة قويّة جداً و"خمرة ما بعد القهوة" *pousse-café* مزيج من كونياك وكيرش.

سأحسّ بنفسي، الحقَّ أقول، ثقيلاً بعض الشيء، ولكن النَّفْس ستكون مرتاحة.

للأسف، لا أستطيع أن أمتّع نفسي بهذه الراحة الحلوة. إنّني دون ذاكرة، قلت لنفسي، إذا التقاك شخص في المطعم يعرفك فمن الممكن أن لا تتعرّف عليه. كيف ستتصرّف؟

تساءلت أيضاً كيف سيكون سلوكي تجاه شخص جاء يبحث عني في الدكّان. مع ذلك الذي جاءني بخصوص وصيّة بونفوا ومع العجوز التي تبيع أقراص الخبز المقدّس سارت الأمور كما ينبغي، ولكن كان يُمكن أن تؤول إلى مآل سيء. وضعت لافتة على الباب كُتب عليها: "يتغيّب صاحب المحلّ طيلة شهر"، ولا يجب أن يُفهم متى يبدأ الشهر ومتى ينتهي. وطالما لم أفهم الوضعية فهماً أفضل، سيتعيّن عليّ أن أقبع في بيتي، وأن أخرج فقط بين حين وآخر لاقتناء بعض الغذاء. لعلّ الصوم سينفعني، من يدري لعلّ ما يحدث لي حصَلَ نتيجة إفراط في الأكل في بعض المحافل... متى؟ سهرة 21 الشهيرة؟

ومن ناحية أخرى، إذا كان عليّ أن أبدأ مراجعة ماضيّ يجب عليّ أن أحملق في صرّتي، مثلما كان يقول بُورُّو (أو بيرو؟)، وبطن ملآن، إضافة إلى السُّمْنة التي تليق بسنّي، سأضطرّ إلى الشروع في التذكّر وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة.

ولكني بدأتُ، بالأمس، جالساً إلى هذا المكتب، أكتب دون توقف، دون تسلية، مقتصراً على أكل بعض الشيء من حين لآخر والشرب، هذا صحيح، دون تقصير. أفضل ما في هذا البيت هو قبو الخمر.

# 4

## أزمنة جدّي

26 مارس 1897

طفولتي. تورينو. . . هضبة في ما وراء نهر بُو، أنا على الشُّرفة مع أمّي. ثمّ ماتت أمّي، وأبي يبكي جالساً على البلكون، أمام الهضبة، عند الغروب، وجدّي يقول إنّها إرادة الربّ.

مع أمّي، كنت أتكلّم الفرنسيّة، مثل كلّ بيمونتيّ من أصل عريق (هنا في باريس عندما أتكلّمها يبدو أني تعلّمتها في غرونوبل، حيث الفرنسيّة أنقى، وليست مثل بابليّة الباريسيّين). منذ الطفولة شعرتُ بنفسي فرنسيّاً أكثر من كوني إيطاليّاً، مثلما يحدث لكلّ بيمونتي. لهذا السبب لا أتحمّل الفرنسيّين.

* * *

كانت طفولتي هي جدّي، أكثر من أبي وأمّي. كرهت أمّي لأنّها تركتني دون سابق تنبيه، وأبي لأنّه عجز عن فعل أيّ شيء لمنعها من ذلك، والربّ لأنّه أراد ذلك الشيء وجدّي لأنّه كان يعتبر عاديّاً أن يريد الرَّبّ مثل تلك الأشياء. كان أبي دائماً في تجوال هنا وهناك - ليبني إيطاليا، كان يقول. وبعد ذلك هَدَمَتْه إيطاليا.

جدّي. جيوفاني باتيستا سيمونيني، ضابط سابق في جيش آل سافويا، يبدو لي أنّه تركه زمن الاجتياحات النابوليونيّة، ليدخل في خدمة بوربونيّ فيرانسي ثمّ عاد إلى تورينو، لمّا تحوّلت توسكانا تحت حكم واحدة من آل بونابرت، نقيباً متقاعداً، يجترّ المرارة.

كان أنفه ضخماً ومتثألّلاً، عندما يجلسني بجانبه كنت لا أرى إلّا أنفه.

وأحسّ على وجهي رَذاذ لعابه المتطاير. كان ما يسمّيه الفرنسيّون *ci-devant*، يحنّ لنظام الحكم فيها قبل الثورة Ancien Régime، ولا يقبل ما قامت به الثورة من أفعال شنيعة. لم يقلع عن لبس السراويل أو culottes كان لا يزال ذا ربلتيْن جميلتيْن - مغلقة تحت الركبة بحلقة من ذهب؛ ومن ذهب كانت أيضاً حلقات نعليه المطليّتيْن بالبرنيق. الصدريّة والثوب وربطة العنق جميعها سوداء وكانت تضفي عليه هيئة كهنوتية. ومع أنّ قواعد الأناقة في ذلك الزمن كانت تُملي حمل شعر مستعار مَذْرُور بالمسحوق الأبيض، فقد استغنى عنه لأنّه، حسب قوله، تأنّق به أيضاً أعداء المسيحيّة، مثل ذلك المسمّى روبيسبيير.

لم أفهم أبداً إن كان ثريّاً، ولكنه لم يكن يَحْرِم نفسه من لذيذ الطعام. من جدّي ومن طفولتي أذكر بالخصوص وجبة الـ"بانيا كاوْدا" *bagna cabagna cqaöda*: في وعاء من الخزف يغلي فوق كانون يَتَّقد بالجمر، حيث يتقلّى الزيت المشبع بالأنشوفة والثوم والزبدة، يُغمس الحرشف البرّي (بعد تركه قليلاً في الماء البارد وعصير الليمون -وبالنسبة للبعض، ولكن لا بالنسبة لجدّي، في الحليب)، والفلفل النيء أو المشوي، والأوراق البيضاء للكرنب، والقلقاس، والقنبيط الطريّ جداً- أو (ولكن، مثلما يقول جدّي، هي أكل الفقراء) خضر مسلوقة، بصل، شمندر، بطاطا أو جزر. كنتُ أحبّ الأكل، وكان جدّي سعيداً برؤيتي أسمن (كما كان يقول بحنوّ) مثل خنزير صغير.

كان جدّي، وهو يرشّني بلعابه، يعرض عليّ نظريّاته: - إنّ الثورة، يا ابني العزيز، جعلتنا عبيد حكومة كافرة، غير متساوين أكثر من ذي قَبْل وإخوة أعداء، كلّ منّا قابيل أخيه. ليس من الحَسَن أن نتمتّع بحريّة أكبر، وليس حتّى من الحَسَن أن نتوفّر على كلّ ما هو ضروري. كان أجدادنا أكثر فقراً وأكثر سعادة، لأنهم حافظوا على اتّصالهم بالطبيعة. لقد أعطانا العالم الحديث القطار البخاري، الذي يسمّم الحقول، والمناسج الميكانيكية، التي تسبّبت في بطالة كثير من المساكين، والتي لا تنتج أقمشة جيّدة مثلما في السابق. والإنسان، المتروك لحاله، من كثرة شرّه ليس حرّاً. ذلك القليل من الحريّة التي يحتاجها يجب أن يضمنها عاهل.

ولكن موضوعه المفضل هو القسّ باررّويل. أتخيّلني طفلاً وأكاد أرى القسّ

بارّويل، الذي كان يبدو أنّه يعيش في بيتنا، حتى وإن كان قد مات منذ زمن بعيد.

- انظر يا بنيّ، كنت أسمع جدّي يقول، بعد أن أهاج جنونُ الثورة كلَّ أمم أوروبا، سُمع صوت كشف كيف أنّ الثورة لم تكن غير الفصل الأخير والحديث العهد من مؤامرة كونيّة دبّرها فرسان الهيكل ضدّ العرش والمذبح، أي ضدّ الملوك وخصوصاً ضدّ ملك فرنسا وضدّ أمّنا الكنيسة المقدّسة... كان صوت القسّ بارّويل، الذي كتب في أواخر القرن الماضي مذكّراته "مذكرات لفائدة تاريخ اليعاقبة" *Mémoires pour servir à l'histoire du jacobinisme...*

- ولكن، يا جدّي المبجّل، ما دخل فرسان الهيكل؟ كنت آنذاك أسأله وأنا أعرف جيّداً تلك الحكاية عن ظهر قلب، ولكنني كنت أريد أن أفسح في المجال لجدّي ليعيد على سمعي موضوعه المفضّل.

- يا ابني، كان فرسان الهيكل يمثّلون نظاماً قويّا جداً من الفُرسان دمّره الملك للاستحواذ على أملاكهم، محرقاً عدداً كبيراً منهم. ولكن الذين بقوا على قيد الحياة كَوَّنوا نظاماً سريّاً للانتقام من ملوك فرنسا. وبالفعل عندما قطعت المقصلة رأس الملك لويس، صعد شخص مجهول على المنصة، ورفع ذلك الرأس المسكين، صائحاً: "جاك دي مولي، أخذنا بثأرك". وقد كان مولي المعلّم الأكبر لفرسان الهيكل، الذي أحرقه الملك في الطرف الأقصى من "جزيرة الحاضرة" l'Ile de la Cité بباريس.

- ولكن متى أحرق هذا المدعوّ مولي؟

- سنة 1314.

- اتركني أحسب قليلاً يا جدّي المبجّل، ولكني أظنّها قبل الثورة بحوالى خمسمائة عام. ماذا فعل فرسان الهيكل طيلة خمسمائة عام ليبقوا مختفين؟

- لقد تغلغلوا في جماعات البنّائين القدامى للكاتدرائيّات، ومن تلك الجماعات نشأت الماسونية الإنكليزية، وتسمى هكذا لأنّ أعضاءها يعتبرون أنفسهم بَنّائيين أحراراً *free masons*.



أكاد أرى القسّ بارّويل، الذي كان يبدو أنّه يعيش في بيتنا، حتى وإن كان قد مات منذ زمن بعيد (ص56-57)

- ولماذا يريد البنّاؤون القيام بثورة؟

- لقد فهم بارّويل أنّ فرسان الهيكل الأصليّين والبنّائين الأحرار سقطوا ضحيّة هيمنة وفساد تنويريّي بافاريا. وهذه كانت طائفة رهيبة، أسّسها واحد يُدعى وايشوبت، حيث لا يعرف كلّ عضو إلّا رئيسه المباشر ويجهل كلّ شيء عن القادة الموجودين في مستوى أعلى وعن نواياهم، وكان هدفها ليس تدمير العرش والمذبح فقط، بل وأيضاً خلق مجتمع دون قوانين ودون أخلاق، حيث يشترك الجميع في الأملاك وحتى في النساء، وليغفر لي اللّه هذا القول أمام طفل صغير، ولكن ينبغي مع ذلك التعرّف على المؤامرات الشيطانية. وكان يوجد أيضاً في ارتباط متين مع تنويريّي بافاريا، أولئك المتنكّرون لكلّ عقيدة، الذين أنشأوا "الموسوعة" *Encyclopédie* الملعونة، أعني بذلك فولتير ودالومبير وديدرو، وكلّ تلك المِلّة التي تقلّد التنويريّين وتتحدّث عن قرن التنوير، وفي ألمانيا عن التوضيح أو التفسير، والذين اتّحدوا أخيراً للتآمر على إسقاط الملوك مكوّنين النادي المسمّى بنادي اليعقوبيّين، من اسم جياكومو أو يعقوب دي مولي. هؤلاء هم الذين تآمروا لتفجير الثورة في فرنسا.

- بارّويل هذا فهم كلّ شيء...

- لم يفهم كيف يُمكن أن تنشأ من نواة فرسان مسيحيّين طائفةٌ عدوّة للمسيح. تعرف، إنّه مثل الخميرة في العجين، إذا انعدمت لا يكبر العجين، ولا ينتفخ، ولا يصنع الخبز. ماذا كانت الخميرة التي وضعها أحدهم، الحظّ أوالشيطان، في الجسم السليم لطوائف الهيكليّين والبنّائين الأحرار لينمّي فيه الطائفة الأكثر شيطانيّة على الإطلاق؟

هنا، كان جدّي يتوقّف مهلة، ويجمع يديه كأنّه يريد التركيز أكثر، مبتسماً بمكر، ويكشف بتواضع متعمّد وظافر: - من تشجّع وكان الأوّل الذي أعلن ذلك هو جدّك، أيها الطفل العزيز. عندما أمكن لي أن أقرأ كتاب بارّويل، لم أتردّد لحظة وراسلته. اذهب يا بنيّ إلى قاع الغرفة وهاتِ الصندوق الموجود هناك.

نفّذت أوامره، فتح جدّي الصندوق الصغير بمفتاح مذهّب معلّق في رقبته،

ثمّ أخرج منه ورقة اصفرّت من فعل أربعين سنة. - هذا أصل الرسالة التي نسختها بخطّ جميل لإرسالها إلى بارّويل.

وأشاهد من جديد جدّي وهو يقرأ الرسالة، متوقّفاً بين الحين والآخر بصفة مسرحيّة.

"تَلَقّوا، ياسيّدي، من طرف عسكريّ جاهل مثلي، أصدق عبارات التقدير لعملكم، الذي يحقّ اعتباره العمل الأكثر تميُّزاً في القرن الأخير. أوه، لكم أحسنتم عندما كشفتم تلك الطوائف الشريرة التي تهيّئ السبل للمسيح الدجال، ولهي العدوّ اللدود لا فقط للديانة المسيحيّة، بل لكلّ ديانة، ولكلّ مجتمع، ولكلّ نظام. إلّا أنّه توجد طائفة لم تتعرّضوا لها إلّا لِماماً. ولعلّكم فعلتم ذلك عمداً، لأنّها المعروفة أكثر، وبالتالي يُخشى منها أقلّ. ولكن، حسب رأيي، هي اليوم أعظم قوّة، إذا أخذنا بعين الاعتبار ثرواتها العظيمة والحماية التي تتمتّع بها تقريباً في كلّ البلدان الأوروبيّة. أنتم فهمتم جيّداً يا سيّدي أنّني أشير إلى الطائفة اليهوديّة. إنّها تبدو منفصلة تماماً عن الطوائف الأخرى وعدوّة لها؛ ولكنّها في الواقع ليست كذلك. وبالفعل، يكفي أن تعلن طائفة أنّها عدوّة المسيحيّة لكي تساندها وتموّلها وتحميها. ألم نرها ولا نزال نراها وهي توفّر ذهبها وفضّتها لمساندة وتوجيه السفسطائيين الحديثين، والماسونيّين واليعقوبيّين والتنويريّين؟ اليهود، إذن، مع كلّ الطوائف الأخرى لا يمثّلون إلّا مِلّة واحدة، تريد إن أمكنها ذلك تدمير الكيان المسيحي. ولا تظنّوا، يا سيّدي، أنّ كلّ هذا لا يعدو أن يكون مُغالاة من طرفي. إنّني لا أعرض عليكم أيّ شيء إلّا ما بلغني من اليهود أنفسهم..."

- وكيف بلغتك هذه الأشياء من اليهود؟

- كنتُ شابّا في العشرين أو أكثر بقليل ضابطاً في جيش سافوي، عندما اجتاح نابوليون مملكة سردينيا، وهُزمنا في ملّيزيمو، وتمّ ضمّ البيمونتي إلى فرنسا. كان انتصار البونبارتيّين الكُفّار، الذين كانوا يطاردون ضبّاط الملك مثلي لشنقهم. وكان يُقال إنّه من الأفضل عدم الظهور بالزيّ العسكري، ماذا أقول؟ بل وعدم الظهور خارج البيت بالمرّة. كان أبي يعمل في التجارة، وكان على اتصال

بيهودي يقرض بالرِّبا، كان مديناً لأبي ببعض الجميل، وهكذا تمكّنتُ، بفضل مساعدته ولبضعة أسابيع إلى أن هدأ الجوّ، من الخروج من المدينة والالتحاق ببعض أقاربي بفيرانسي، خصّص لي -مقابل ثمن باهظ، بطبيعة الحال- غرفة صغيرة في حارة اليهود التي كانت توجد آنذاك وراء بيتنا هذا بالذات، بين طريق سان فيليبو وطريق روزيني. لم أكن سعيداً جداً بالإقامة بين أولئك الناس، ولكنّه كان المكان الوحيد الذي لا يخطر ببال أحد أن يضع فيه قدمه، كان اليهود لا يخرجون منه وكان الناس الطيّبون لا يقتربون منه.

كان جدّي آنذاك يضع كَفَّيه على عينيه كما لو أراد أن يُبعد رؤية لا تُحتمل: - وهكذا عِشْتُ، في انتظار أن تمرّ العاصفة، داخل تلك الجُحُور القذرة، حيث كان يسكن أحياناً ثمانية أشخاص في غرفة واحدة، ومطبخ، وفراش، ومرحاض، يضنيهم فقر الدم، جلدتهم مثل الشمع، تكاد تكون زرقاء مثل خزف سيفْر، يبحثون دائماً عن الأركان الأكثر عُزْلة، يستضيئون فقط بنور شمعة. ليس لهم قطرة دم، الجلدة مصفرّة، والشعر في لون الصمغ، واللحية ذات حُمْرة يتعذّر وصفها، وعندما تكون سوداء، تبدو مثل عباءة حَالَ لونُها... لم أكن أتحمّل نتانة مسكني فكنت أتجوّل عبر الساحات الخمس، أذكرها جيّداً، الساحة الكبرى، ساحة الكهنة، ساحة الكُرُوم، ساحة الحانة وساحة الرصيف، والتي كانت تربط بينها أروقة مريعة مُغَطّاة، الأروقة المظلمة. الآن تجد اليهود حتى في ساحة كارلينا، بل تجدهم في كلّ مكان لأنّ آل سافويا فقدوا عزيمتهم، ولكنهم آنذاك كانوا يعيشون مكدّسين بعضهم فوق بعض في تلك الأزقة التي لا ترى الشمس، ووسط تلك الجموع القذرة والخسيسة (لو لم يكن لخوفي من البونبارتيّين) ما كانت نفسي تتحمّل...

كان جدّي يتوقّف قليلاً، مبلّلاً شفتيه بمنديل، كما لو كان يريد أن ينزع من فمه مذاقاً لا يُحتمَل: -بفضلهم كانت نجاتي، يا للخزي. ولكن، إذا كنّا نحن المسيحيّين نحتقرهم، فهم أيضاً كانوا لا يكنّون لنا المحبّة، بل كانوا يمقتوننا، وحتى اليوم فهم يكرهوننا. وهكذا كنت أقصّ عليهم أنّني وُلدت في ليفورنو من عائلة يهودية، وعندما كنت طفلاً تربّيت عند أقارب عمّدوني لسوء الحظ، ولكنني

في قرارة نفسي بقيت دائماً يهودياً. لم يَبْدُ أنّ هذه الاعترافات أثارت اهتمامهم كثيرا لأنّه – مثلما قالوا لي - يوجد الكثيرون منهم في وضعيّتي، حتى إنّهم لم يعودوا يولون اهتماماً كبيراً بذلك. ولكن كلامي جلب لي ثقة شيخ كان يعيش في ساحة الرصيف قرب الفرن لِخَبْز الخُبْز بلا خميرة.

وهنا كان جدّي يتحمّس وهو يقصّ ذلك اللقاء، وبتدوير عينيه وبحركات يديه كان يقلّد بكلامه الشيخ الذي كان يتحدّث عنه. يبدو إذن أنّ موردخاي هذا كان من أصل سوري، وفي دمشق تورّط في قضيّة تعيسة. كان قد اختفى في المدينة طفل عربي وفي البداية لم يُشتبه باليهود، لأنّه من المعروف أنّ اليهود للقيام بطقوسهم يقتلون فقط أطفالاً مسيحيّين. ولكن بعد ذلك وجدوا في حفرة بقايا جُثّة صغيرة، كان يبدو أنّها قطعت إرْباً إرْباً ثم هُرست في مِدَقّ. كانت طريقة الجريمة تُشبه إلى حدّ كبير الجرائم المنسوبة عادة إلى اليهود ممّا جعل أعوان الشرطة يخمّنون أنّه مع اقتراب عيد الفصح، ومع حاجتهم إلى دم مسيحي لعجن الخبز بدون خميرة، وبما أنّهم عجزوا عن اختطاف طفل مسيحي، أخذ اليهود الطفل العربي وعمّدوه ثم قتلوه.

وعلّق جدي قائلاً: – أنت تعرف أنّ التعميد صالح دائماً، مهما كان من قام به، يكفي أنّ من يُعمّد يفعل ذلك حسب ما تريده الكنيسة المقدّسة الرومانية الأمّ، وهو شيء كان اليهود الماكرون يعرفونه حقّ المعرفة ولا يشعرون بأيّ حرج في قول: "إنّي أعمّدك مثلما يفعل مسيحيّ، مع أني لا أؤمن بوثنيّته، ولكنّه هو يتبعها ويؤمن بها إيماناً كاملاً". وهكذا فإنّ ذلك الشهيد الصغير المسكين كان له الحظّ في الذهاب إلى الفردوس، حتى وإن حصَل بفضل الشيطان.

ووقعت الشُّبهة فوراً على موردخاي. ولإجباره على الاعتراف ربطوا معصميه وراء ظهره، وأضافوا أثقالاً إلى قدميه، ولاثنتي عشرة مرّة علّقوه ببَكَرة إلى الهواء وتركوه يسقط على الأرض. ثمّ وضعوا الكبريت تحت أنفه، ثم غطسوه في الماء المثلج وعندما يرفع رأسه كانوا يدفعونه تحت الماء، إلى أن أقرّ. أو بالأحرى، يقال إن الشقيّ قد ذكر -لكي يضع حدّاً لذلك العذاب- أسماء خمسة من رفاقه في الدين لا دخل لهم البتّة في ذلك وهؤلاء أُعدموا، بينما أُطلق

سراحه وأعضاؤه مهشّمة، ولكنه كان قد فقد الصواب، فأشفق عليه بعضهم وأركبوه على سفينة تجارية حملته إلى جَنَوة، وإلّا كان اليهود الآخرون قد قتلوه رجماً. بل يقول البعض إنّه تعرّف في السفينة على راهب برنابيّ أقنعه بالدخول في المسيحيّة وهو، لكي يجد عوناً عند نزوله في الممالك السردينية، قَبِلَ ذلك ولكنه بقي في قرارة نفسه محافظاً على دين أجداده. وصار إذن ما كان يسمّيه المسيحيّون "مَرّانو"، إلّا أنّه عند وصوله إلى تورينو طلب اللجوء إلى الحارة، ونفى أنّه اعتنق المسيحيّة، وكثيرون ظنّوه يهوديّاً زائفاً يحافظ في صميم قلبه على ديانته المسيحيّة الجديدة - وإذن، فهو "مَرّانو" مرّتيْن. ولكن بما أن لا أحد كان بإمكانه إقامة الدليل على الأقوال الآتية من وراء البحر، وبدافع الشفقة عن مجنون تركوه يعيش من صدقة الغير، المحدودة جداً، منزوياً في كوخ حقير لا يجرؤ حتى ساكن الحارة على الإقامة فيه.

كان جدي مقتنعاً أنّ الشيخ، مهما كان الفعل الذي فعله في دمشق، ليس مجنوناً بالمرّة. كان يُحرّكه بكلّ بساطة حقد لا حدّ له تجاه المسيحيّين وفي ذلك المسكن الحقير الخالي من النوافذ، مُمْسِكاً بيد مُرْتعشة معصمه ومحدقاً فيه بعينيْن تلمعان في الظلمة، كان يقول له إنّه منذ ذلك اليوم كرّس حياته للانتقام. كان يقصّ عليه كيف أنّ التلمود ينصّ على مَقْت الملّة المسيحيّة وكيف أنّه، هم اليهود، لإفساد المسيحيّين ابتدعوا الماسونيّة، والذي صار هو واحداً من رؤسائها المجهولين، يدير الجمعيّات من نابولي إلى لندن، إلّا أنّه يجب أن يبقى سريّاً، خفيّاً ومختفياً، لكي لا يقتله اليسوعيّون، الذين كانوا يطاردونه في كلّ مكان.

كان يتحدّث وهو ينظر حواليه كما لو أنّه من بعض الأركان المظلمة سيبرز يسوعيّ مسلّح بخنجر، ثمّ ينفخ بضجّة أنفه، باكياً تارةً على مصيره التعيس، ومبتسماً تارةً أخرى بابتسامة ارتسم فيها المكر والرغبة في الانتقام متذوّقاً فكرة أنّ العالم كلّه يجهل نفوذه الرهيب، متحسّساً بتملّق يد سيمونيني، ومواصلاً خيالاته. وكان يقول له إنّه، لو أراد سيمونيني ذلك، فإنّ طائفتهم ستكون سعيدة بتلقّيه، وإنّه هو سيدخله في الجمعيّة الأكثر سريّة.

وكشف له أنّ كلاً من ماني، نبيّ الطائفة المانويّة، والشرّير شيخ الجبل

الذي كان يُسْكِر بالمخدّرات حشّاشيه ليرسلهم بعد ذلك لقتل الأمراء المسيحيّين، كانا من مِلّة يهوديّة. وأنّ الماسونيّين والتنويريّين تأسّسوا على يدي يهوديّين، وأنّه من اليهود تفرّعت كلّ الطوائف المعادية للمسيحيّة، وأنّه حاليّاً تكاثر عددهم في العالم حتى بلغوا الملايين من الأشخاص من الجنسين، ومن كل وضعية، وفئة وبيئة، ومن بينهم العديد من رجال الكنيسة وحتى بعض الكرادلة، وعن قريب يأملون في أن يكون لهم بابا من حزبهم (وكان جدّي يعلّق في السنوات الموالية، عندما اعتلى كرسي بطرس مخلوق مشتبه فيه مثل بيو التاسع، أنّ الأمر لا يبدو له بعيداً عن الواقع)، وأنه لخداع المسيحيّين كانوا هم أيضاً يتظاهرون في الغالب بأنّهم مسيحيون، مسافرون ومتنقلون من بلد إلى آخر بشهادات تعميد زائفة تحصّلوا عليها من كهنة فاسدين، وأنّهم يأملون بقوة المال والتحيّل في الحصول من كلّ الحكومات على حالة مدنيّة، مثلما كانوا يحصلون عليها الآن في العديد من البلدان، وأنّهم عندما سيتحصلون على حقوق الجنسية مثل كلّ المواطنين الآخرين، سيشرعون في شراء دور وأراضٍ، وأنهم بواسطة الرِّبا سيسلبون المسيحيّين أملاكهم العقارية وكنوزهم، وأنهم وعدوا أنفسهم بأن يصبحوا في أقل من قرن أسياد العالم، وأن يدمّروا كلّ الطوائف الأخرى لتحكم طائفتهم وحدها، وأنهم سيجعلون من كلّ الكنائس المسيحيّة معابد يهودية، وسيجعلون ما تبقى من المسيحيّين عبيداً.

- كان جدي يختم حديثه بالقول: هذا ما كشفته للقسّ باروّيل. لعلّي غاليت قليلاً، قائلاً له إنّي علمت من الكثيرين ما قاله لي في الواقع واحد فقط، ولكنني كنت مقتنعاً ولا أزال مقتنعاً أنّ العجوز كان يقول الحقيقة. وهذا ما كتبتُ، إن تركتني أُتِمّ القراءة.

ويواصل جدي القراءة:

"هي ذي، يا سيّدي، المخطّطات الشريرة للأمّة اليهودية، والتي سمعتها بأذنيّ... يكون إذن من المحبّذ كثيراً أن يُعنى قلم حازم وراقٍ مثل قلمكم، بفتح عيون الحكومات المذكورة آنفاً، ويعلّمها كيف ترجع هذا الشعب إلى الدناءة التي يستحقّها، والتي عرف آباؤنا الأكثر سياسة والأكثر حكمة كيف يُلزمونه دائماً بها.

ولذا، يا سيّدي، فأنا أدعوكم باسمي الخاص، راجياً أن تغفروا لهذا الإيطالي، ولهذا الجنديّ، الأخطاء من كلّ نوع التي ستجدونها في هذه الرسالة. إني أرجو لكم من يد الرب أكبر ثواب للكتابات النيّرة التي أثريتم بها كنيسته، وأن يُلْهَم من يقرأها كلّ التقدير لشخصكم مثلما أُلْهِم عبدكم الحقير المطيع جيوفاني باتيستا سيموني".

عند هذا الحدّ كان جدّي يعيد، في كلّ مرّة، الرسالة إلى الصندوق بينما اسأله: - وماذا أجاب القسّ باروّيل؟

- لم يشرّفني بجواب. ولكن، بما أنّ لي معارف في البلاط البابوي، فقد علمت أنّ ذلك الخوّاف خشي أن يؤدي نشر تلك الحقائق إلى مجزرة لليهود، كان لا يقبل أن يتسبّب، لأنّه اعتبر أنّه يُمكن أن يكون من بينهم أبرياء. ومن ناحية أخرى أثّرت أيضاً في ذلك تحرّكات اليهود الفرنسيّين في تلك الفترة، عندما قرّر نابوليون التقاء ممثلي المجمع الكبير للحصول على مساندتهم لتحقيق طموحاته - ويُمكن أن يكون أحدهم نصح القسّ بأنّه ليس من الصالح تعكير المياه. ولكن القسّ في الآن نفسه كان لا يستطيع الصمت، وهكذا فقد أرسل أصل رسالتي إلى الحَبْر الأعظم بيّو السابع - ونُسَخاً أخرى إلى عدّة أساقفة. ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، لأنّه بَلَّغ الرسالة أيضاً إلى الكاردينال فاش، الذي كان آنذاك يرأس كنيسة بلاد الغال، ليبلّغها بدوره إلى نابوليون. وفعل نفس الشيء مع رئيس شرطة باريس. والشرطة الباريسيّة، حسب ما قالوا لي، قامت بتحقيق لدى البلاط البابوي لمعرفة مَا إنْ كنت شاهداً جديراً بالثقة - يا للشيطان، أكيد أني جدير بالثقة، ولا يُمكن للكرادلة أن ينفوا ذلك. باختصار، كان باروّيل يلقي الحجارة ويخفي يده وراء ظهره، لأنّه كان لا يريد أن يثير عاصفة أكبر من العاصفة التي كان كتابه قد أثارها، ولكن مع التظاهر بالصمت كان يُبلغ كشوفاتي إلى نصف الكون. يجب أن تعرف أنّ باروّيل تربّى على أيدي اليسوعيّين وذلك إلى أن طرد لويس الخامس عشر اليسوعيّين من فرنسا، ودخل في الكهنوتية الدنيويّة، ليعود إلى اليسوعيّة عندما أعاد بيّو السابع كامل الشرعيّة إلى النظام. الآن، أنت تعرف أنّني كاثوليكي وَرِع وأُكنّ التقدير لكلّ من يلبس جبّة كهنوتية،




وكأنني أسمع على درجات السلّم الخشبيّة خطوات العجوز الرهيب وهو آت لاختطافي ولجرّي إلى جحره الجهنّمي، ليطعمني الخبز بدون خميرة والمعجون بدماء الأطفال الأبرياء... (ص67)

ولكن لا يوجد شكّ في أنّ اليسوعي يبقى دائماً يسوعيّاً، يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر، ويفعل شيئاً ويقول شيئاً آخر، وبارّويل لم يتصرّف بطريقة مختلفة...

وينفجر جدّي بعد ذلك ضاحكاً، يتطاير اللُّعاب من بين أسنانه القليلة المتبقيّة، متسلّياً من وقاحته الشيطانيّة. - هو ذا يا عزيزي سيمونيني، أنا الآن شيخ، وليست لي القدرة لرفع صوتي كمن يصيح في الصحراء، وإذا لم يريدوا الاستماع لأقوالي فسيجيبون عن ذلك أمام الربّ، ولكن إليكم أنتم الشباب أعهد بمشعل الشهادة، الآن وقد صار اليهود الملاعين أقوى من أي وقت مضى، ومَلِكُنا الجبان كارلو ألبرتو يُبدي التسامح أكثر فأكثر معهم. ولكنه سيذهب ضحيّة دسائسهم...

- هل يتآمرون حتى هنا في تورينو؟

تطلَّع جَدّي حواليه كما لو كان هناك أحد يتنصّت إلى ما يقوله، بينما كانت ظلمات المساء تغمر الغرفة، وأجاب: - هنا وفي كلّ مكان. إنّهم مِلّة ملعونة، وتَلْمُودهم يقول، مثلما يؤكّد من يعرف قراءته، إنّه يجب على اليهود أن يلعنوا المسيحيّين ثلاث مرّات في اليوم، وأن يطلبوا من الربّ أن يمحقهم ويدمّرهم، وأنّه إذا وجد واحد منهم مسيحيّاً على حافة هاوية فليدفعه فيها. أنت تعرف لماذا تدعى سيمونينو؟ لقد أردت أن يعمّدك أبواك بهذا الاسم تكريماً لروح القديس سيمونينو، طفل شهيد اختطفه اليهود في القرن الخامس عشر بجهة ترانتو وقتلوه ثمّ قطعوه إرْباً إرْباً، دائماً لاستعمال دمه في طقوسهم.

* * *

"إذا لم تكن طيّباً ولم تذهب فوراً إلى فراشك فإنّ موردخاي الرهيب سيأتي لزيارتك". هكذا كان يخوّفني جدّي. وكان يصعب عليّ أن أستسلم للنوم، في حُجْرتي تحت السقف، بينما أرهف سمعي إلى طقطقة البيت العتيق، وكأنّني أسمع على درجات السُّلَّم الخشبيّة خطوات العجوز الرهيب وهو آتٍ لاختطافي ولجرّي إلى جُحْره الجهنّمي، ليطعمني الخبز بدون خميرة والمعجون بدماء الأطفال الأبرياء. وأنا أخلط خيالاتي تلك بقصص أخرى سمعتها من ماما تيريزا، الخادم العجوز

التي كانت قد أرضعت أبي والتي لا تزال تجرّ نعليها عبر المنزل - أسمع موردخاي يغمغم ولُعابه يسيل بشبق: "Ucci ucci, sento odor di cristianucci"*.

* * *

أكاد أبلغ الآن سنّ الرابعة عشرة، وفي عديد المرّات كانت تشدّني الرغبة في الدخول إلى حارة اليهود، التي فاضت الآن عن حدودها، بما أنّ العديد من قوانين الحجر كانت بصدد الإلغاء في البيمونتي. ولعلّي، أثناء تجوالي على حدود ذلك العالم الممنوع، سألاقي بعض اليهود، ولكني سمعت أنّ الكثيرين منهم تركوا أثوابهم القديمة. إنّهم يتنكّرون، كان يقول جدي، يتنكّرون، ويمرّون بجانبك دون أن تتفطّن لهم. وبينما كنتُ أتجوّل في أطراف الحارة، كانت تعترضني فتاة سوداء الشعر تَعبُر كلّ صباح ساحة كارلينا لتحمل شيئاً، لا أدري كُنْهَه، في سلّة مغطّاة إلى دكّان قريب. نظرات ملتهبة، عينان من المخمل، بشرة سمراء... مستحيل أن تكون يهوديّة، أو أن يُنجب آباءٌ، مثل الذين وصفهم لي جدّي، ذوو وجوه جوارح كاسرة وأعين مسمومة، إناثاً من ذلك الجنس. ومع ذلك فهي لا يُمكن أن تكون قادمة إلّا من الغيتو.

إنّها المرّة الأولى التي أنظر فيها إلى امرأة غير ماما تيريزا. أمُرّ وأمُرّ من جديد كلّ صباح وما إن أراها من بعيد حتى يخفق قلبي. والصُّبْحيّات التي لا أراها فيها كنت أحوم عبر الساحة كما لو كنتُ أبحث عن مسالك للهروب، وعندما أجدها أرفضها كلّها لأبقى هناك، بينما كان جدّي ينتظرني جالساً إلى المائدة وهو يمضغ بغضب لبّ الخبز.

ذات صباح تجرّأت وأوقفت الفتاة، طالباً منها بعينين منخفضتين إن كانت بحاجة إلى أن أساعدها في حمل سلّتها. وإذا بها تجيبني بِخُيَلاء، وباللهجة، أنّها قادرة تماماً على حملها بمفردها. ولكنها لا تدعوني بـ *monssü*، بل بـ *gagnu*،

---

(*) جملة ينطق بها الغول في حكايات الأطفال عندما يشتمّ رائحة دم الصغار [المترجم].

أي طفل صغير. ومنذ ذلك الحين لم أبحث عنها أبداً، ولم أرَها منذئذٍ. لقد أخزتني ابنة صهيون. ربّما لأنّني كنت سميناً؟ الحال هو أنّه منذ تلك الحادثة بدأت حربي مع بنات حوّاء.

* * *

رفض جدّي طيلة كامل طفولتي إرسالي إلى مدارس المملكة، لأنّه حسب قوله يدرّس فيها فَحّامون وجُمْهوريّون فقط. عشت كلّ تلك السنوات في البيت، وحدي، أنظر بغيظ، طيلة ساعات، إلى الأطفال الآخرين الذين كانوا يلعبون على ضفتَي النهر، كما لو افتكّوا منّي شيئاً هو ملكي؛ وفيما عدا ذلك كنت سجيناً في غرفة أدرس صحبة أب يسوعيّ، يختاره جدّي دائماً حسب سنّي، من بين الغُربان السّود الذين كانوا يحيطون به. كنت أمقت المعلّم في كلّ مرّة، لا فقط لأنّه كان يعلّمني بالضرب على أصابعي، بل لأنّ أبي (في المناسبات النادرة التي كان يُحادثني فيها) رسّخ فيّ الكُرْه نحو الكَهَنة.

- ولكنّ معلميّ ليسوا كَهَنة، إنّهم آباء يسوعيّون، كنت أقول له.

- وهو أتعس، أجابني أبي. لا تثق أبداً بيسوعيّ. هل تعرف ماذا كتب كاهن مُقدّس (انتبه، قلت كاهناً، لا ماسونيّاً، أو فحّاماً، أو تنويريّاً شيطانيّاً، مثلما يقولون عنّي، بل كاهناً ذا طيبة ملائكيّة، القسّ جيوبارتي)؟ اليسوعيّة هي التي تضرّ وتتلف وتفتري وتعذّب وتضطهد وتهلك أهل الفكر الحرّ، اليسوعيّة هي التي تطرد من الوظائف العموميّة الجادّين والأكفاء لتعوّضهم بالتعساء والأنذال، اليسوعيّة هي التي تبطئ وتعطّل وتؤذي وتشوّش وتضعف وتفسد بألف طريقة التعليم العمومي والخاصّ، وتزرع الأحقاد والشكوك والعداوة والكُرْه والخصومات والأحقاد الظاهرة والخفية بين الأفراد، والعائلات، والفئات، والدول، والحكومات والشعوب، واليسوعيّة هي التي تضعف العقول، وتهيمن على القلوب وعلى الإرادة بالتخويف، وهي التي تضعف عزيمة الشباب بليونة السلوك، وتفسد سنّ الرشد بأخلاقيّة الرضوخ والنفاق، وهي تكافح وتوهن وتطفئ الصداقة، والعواطف العائليّة، والرحمة بالأبناء، والحبّ المقدّس للوطن عند أغلب المواطنين.. لا

توجد طائفة في العالم فاقدة للحسّ (هكذا قال)، قاسية وعديمة الشفقة عندما يتعلّق الأمر بمصالحها مثل جماعة يسوع. يُخفي اليسوعي وراء ذلك الوجه الوديع والمتملّق، وتلك الكلمات الحلوة والمعسولة، وذلك التمظهر اللطيف والوديع، الامتثال المتفاني لضوابط الطائفة وأوامر رؤسائه، والروح القاسية التي لا تنفذ إليها الأحاسيس الأكثر قداسة والعواطف الأكثر نُبْلاً. فهو يُطبّق بصرامة مبدأ مكيافيلّي، حيث إنّه عندما يخصّ الأمر سلامة الوطن، لا يجب إيلاء أيّ اعتبار بما هو عادل أو غير عادل، بما هو رحيم أو قاسٍ. ولذا فاليسوعيّون يتربَّوْن منذ الصغر في المدارس على عدم العناية بعواطف المحبّة العائليّة، وأن لا يكون لهم صديق، مستعدّين دائماً لكشف أقلّ تهاون إلى رؤساهم حتى بأعزّ رفيق، وللتحكّم في كلّ أهواء القلب وللاستعداد للطاعة المطلقة، *perinde ac cadaver**. كان جيوبارتي يقول إنّه بينما يقدّم فاسِنغارِيُّو الهند، أي الخانقون، جثث أعدائهم قُرباناً إلى أربابهم، بعد قتلهم خنقاً بالحبل أو ذبحاً بالسكين، فإنّ يسوعيّي إيطاليا يقتلون الروح باللسان، مثل الزواحف، أو بالقلم.

وكان أبي يختم حديثه قائلاً: - حتى وإن سلّاني دائماً أنّ البعض من تلك الأفكار أخذها جيوبارتي من رواية، نشرت قبل ذلك بسنة، هي **اليهودي التائه**، لأوجان سو.

* * *

أبي. العنصر الفاسد في العائلة. حسب قول جدي، فهو تورّط مع الفحّامين. كان أبي عندما يشير إلى أفكار جدّي يقول لي فقط، بصوت خافت، أن لا أستمع إلى هذيانه ولكن، لست أدري إن كان من قبيل الحياء، أو التقدير لأفكار أبيه أو اللامبالاة تجاهي، كان يتفادى أن يُطْلعني على أفكاره. كان يكفيني أن أصغي خِفْية إلى بعض أحاديث جدّي مع آبائه اليسوعيّين، أو أن أستمع إلى ثرثرة ماما تيريزا مع البوّاب، لأفهم أنّ أبي ينتمي إلى أولئك الذين

(*) عبارة يسوعية تعبّر عن الطاعة العمياء، تعني حرفياً "مثل جُثّة" [المترجم].

كانوا لا يساندون الثورة ونابوليون فقط، بل ويتحدّثون أيضاً عن بلاد اسمها "إيطاليا"، تنفض عنها الإمبراطوريّة النمساويّة، والبوربونيّين والبابا، وتصبح (بكلمة لا يجب نطقها أمام جدّي) أمّة.

* * *

تلقّيتُ مبادئ المعرفة الأولى من الأب بيرتوزو، صاحب وجه النِّمْس. كان الأب بيرتوزو أوّل من علّمني التاريخ المعاصر (بينما كان جدّي يعلّمني التاريخ القديم).

بدأت بعد ذلك بمدّة تسري الأخبار الأولى عن الحركات الفحاميّة -والتي كنت ألتقط عنها بعض الأخبار من المجلّات التي كانت تصل إلى المنزل موجّهة إلى أبي الغائب، والتي كنت أستحوذ عليها قبل أن يُتْلِفها جدّي- وأذكر أنّه كان عليّ أن أتابع دروس اللاتينيّة والألمانية، التي كان يلقنّني إيّاها الأب برغماسكي، الذي كان مقرّباً إلى جدّي حتّى إنّه خُصّصت له في القصر غرفة غير بعيدة عن غرفتي. الأب برغماسكي... كان، خلافاً للأب بيرتوزو، شابّاً، جميل الهيئة، بشعره المتموّج، ووجهه الوسيم، وبلاغته السّاحرة، وكان، على الأقلّ في البيت، يلبس بعناية جبّة لائقة. أذكر يديه البيضاويْن المُستطيلتَي الأصابع ذات أظافر طويلة قليلاً، أكثر ممّا ينبغي أن تكون لرجل كنيسة.

عندما كان يراني منكبّاً على الدراسة، غالباً ما يقف ورائي، ممسّحاً على رأسي، ومحذّراً إيّاي من الأخطار العديدة التي تترصّد شابّاً بريئاً، ويفسّر لي كيف أنّ الفحّاميّة ليست إلّا قناعاً يختفي وراءه الوباء الأكبر، الذي هو الشيوعيّة.

- الشيوعيّون، كان يقول لي، لم يكونوا إلى وقت قريب مُثيرين للخوف، ولكن الآن بعد بيان ذلك المسمّى مارش (يبدو لي أنّه كان ينطقه هكذا) يجب أن نكشف دسائسهم. أنت لا تعرف شيئاً عن بابيت دينترلاكن. حفيدة شرّفت جدّها ڤايسهاوبت، تلك التي لقّبوها بالعذراء الكبرى للشيوعيّة السويسرية.

من يدري لماذا يبدو الأب برغماسكي وكأنّه تستحوذ عليه المواجهات الدينيّة التي وقعت في سويسرا بين الكاثوليكيّين والبروتستانتيّين، أكثر ممّا تستحوذ عليه ثورات ميلانو أو فيينّا التي كانوا يتحدّثون عنها في تلك الأيام.

- وُلِدَتْ بابيت من علاقة غير شرعيّة وترعرعت وسط الصعاليك، والسرقة والنهب والدم؛ لم تعرف اسم الربّ يوماً إلا وهو يُدَنَّسُ ويُشتَمُ دائماً، وعند بابيت كان الراديكاليون، خلال الاشتباكات تحت أسوار بوشارنا، يقتلعون قلوب بعض الكاثوليك الذين قتلوهم من الكانتونات البدائية ويفقؤون أعينهم لديها. كانت بابيت تخفي، مثل عاهرة بابل بشعرها الأشقر تتلاعب به الرياح، تحت قناع مفاتنها جمالها كونها بشير الجمعيّات السريّة، والشيطان الذي يوحي بكلّ دسائس وحِيَل تلك المجموعات الخفيّة؛ كانت تظهر فجأة وتختفي في لمح البرق كالجنّ، وكانت تعرف أسراراً لا ينفذ إليها أحد، وتفتح رسائل ديبلوماسيّة دون أن تمسّ الخواتم، وتنساب مثل الحيّة داخل مكاتب فيينّا وبرلين الأكثر سريّة، وحتى في بطرسبورغ، وتزيّف الكمبيالات، وتغيّر شفرات الجوازات، وكانت وهي لا تزال طفلة تعرف فنون التسميم؛ وتعرف كيف تستعملها بأوامر من الطائفة. كانت تبدو وكأن الشيطان يسكنها لفرط حيويّتها المحمومة وللسحر الذي يلمع في عينيها.

وكنت أنا أحملق بعينيّ، وأحاول أن لا أستمع، ولكن في الليل كنت أحلم ببابيت دنترلاكن. وبينما كنت أحاول بَيْن صَحْو ونَوْم أحاول أن أمحو صورة ذلك الشيطان الأشقر ذي الشعر المتموّج على الكتفيْن، العاريتيْن دون شكّ، ذلك الجنيّ الشيطانيّ والمعطّر، ذي النهديْن الممتلئيْن شهوانيّة مثل حيوان أشقر كافر وآثم، كنت أتخيّلها أنموذجاً أحتذي به - أي، مع إحساسي بالنفور لمجرّد فكرة لمسها بأصابعي، كنت أحسّ بالرغبة في أن أكون مثلها، عوناً سريّاً ذا قوّة مطلقة يغيّر شفرات الجوازات، ويجرّ إلى التهلكة ضحاياه من الجنس الآخر.

* * *

كان معلّماي يُحبّان الأكل الجيّد، ولعلّ هذه النزوة لازمتني حتى في سنّ

الرشد. أذكر موائد، يغلب عليها التأمّل أكثر من البهجة، حيث يتبادل الآباء الطيّبون الآراء حول لحوم مختلفة مسلوقة كان جَديّ قد أمر بإعدادها.

يلزم على الأقلّ نصف كيلوغرام من عضلة ثور، وذيل، وورك، ومقانق، ولسان عجل، ورأس صغير، وسجق، ودجاجة، وبصلة، وجزرتان، وضلعان من الكرفس، وحفنة من البقدونس. ويُطهى الكلّ طيلة أوقات مختلفة بحسب نوع اللحم. ولكن، مثلما كان يقول جدي، ويؤيّده في ذلك الأب برغماسكي بحركات قويّة من رأسه، ما إن توضع اللحوم المسلوقة على طبق لوضعه على المائدة حتى يجب رشّها بحفنة من الملح الخشن وتُصبّ عليها بضع ملاعق من المرق الحار جداً، لكي يفوح طعمها. التقليل من الخضر، ما عدا بعض الحبات من البطاطا، ولكن الصلصة بمختلف أنواعها أساسيّة، حسب الذوق، صلصة عنب، صلصة فجل، صلصة خردل بالفاكهة، وبالخصوص (وهنا لا يتنازل جدّي) الصلصة الخضراء: حفنة من البقدونس، أربع شرائح أنشوفة، لبّ خبز، ملعقة من الكبّار، سنّ من الثوم، مُحّ بيضة مسلوقة. الكلّ مفروم جيّداً، مع زيت زيتون وخلّ.

كانت هذه، حسب ما أذكر، لذّات طفولتي ومراهقتي. ماذا يريد المرء أكثر من هذا؟

* * *

الظهيرة حرّ خانق. أنا أدرس. الأب برغماسكي يجلس صامتاً ورائي، يده تضغط على رقبتي ويهمس قائلاً إنّ بإمكانه أن يوفّر لطفل مثلي يتّصف بهذا الوَرَع، وبهذه النيّات الصادقة، ويريد تجنّب إغراءات الجنس العدوّ، ليس الصداقة الأبويّة فقط وإنما أيضاً دفء عاطفة رجل ناضج.

منذ ذلك الحين لا أترك كاهناً يلمسني. هل أتنكّر الآن في زيّ القسّ دَلّا بيكولا لألمس الآخرين.

* * *



وكنت أنا أحملق بعينيّ، وأحاول أن لا أستمع، ولكن في الليل كنت أحلم ببابيت دنترلاكن... (ص72)

لكن جدّي اضطرّ، وأنا أناهز الثامنة عشرة من العمر -جدّي الذي كان يريدني أن أصبح محامياً- (في البيمونتي كان يُسند لقب محامي لكلّ من درس الحقوق)، إلى إخراجي من البيت وإرسالي إلى الجامعة. كنت أجرّب لأوّل مرّة العلاقة مع أندادي في السنّ، ولكن فات الأوان، وكنت أعيشها بكثير من الريبة. كنت لا أفهم ضحكاتهم المكتومة ونظراتهم المتواطئة عندما يتحدّثون عن الإناث، ويتبادلون كتباً فرنسيّة برسوم مقزّزة. كنت أفضّل البقاء وحدي والقراءة. كان أبي يتسلّم من باريس عن طريق الاشتراك 'صحيفة الدستوري' *Le Constitutionnel* حيث كان يُنشر في حلقات **اليهودي التائه**، لأُوجَان سُو، وبطبيعة الحال التهمتُ تلك الصفحات التهاماً. ومنها عرفت كيف أنّ جمعيّة يسوع الدنيئة كانت تعرف كيف تَحْبك أشنع الجرائم للاستيلاء على وراثة، بدوس حقوق البؤساء والطيّبين. وإلى جانب ارتيابي من اليسوعيّين أدخلتني تلك القراءة إلى ملذّات الروايات المتسلسلة *feuilleton*: وجدت في سقيفة البيت صندوقاً من الكتب كان أبي قد أنقذها بكلّ وضوح من مراقبة جدّي وأنا (محاولاً أيضاً إخفاء نزوة الوحدة هذه عن جدي) كنت أقضي عشيّات بأكملها، إلى أن تتلف عيناي، على صفحات "أسرار باريس" و"الفرسان الثلاثة" و"كونت مونيكريستو" *Les mystères de Paris*، و *Les trois mousquetaires*، و *Le comte de Montecristo*...

وحلّت تلك السنة الرائعة، سنة 1848. كان كلّ الطلبة مبتهجين لاعتلاء الكردينال مستاي فيرّيتي كرسيّ البابويّة باسم بيّو التاسع، والذي منح قبل ذلك بسنتيْن العفو العامّ بالنسبة للجنايات السياسية. بدأت السنة بالتحرّكات الأولى المعادية للنمسا بميلانو، حيث أقلع الأهالي عن التدخين للإضرار بخزينة الحكومة الملكيّة التابعة للإمبراطورية (وكان أولئك الرفاق الميلانيّون الذين يصمدون بصلابة أمام الجنود وموظفي الشرطة -حين يستفزّونهم بنفخ دخان السجائر الفائحة في وجوههم- يَبْدون لرفاقي البيمونتيّين أبطالاً). في ذات الشهر اندلعت حركات ثوريّة في مملكة الصقليّتيْن ووعد فرديناندو الثاني بالدستور. بينما أدَّت الثورة الشعبية في فرنسا إلى خلع لويس فيليب وإعلان الجمهورية (من جديد وأخيراً) ـ وإلغاء عقوبة الإعدام بالنسبة للجنايات السياسيّة وإلغاء العبودية، وإقرار الانتخاب العامّ ـ في شهر مارس لم يقتصر البابا على منح الدستور فحسب بل

وتعدّاه إلى منح حريّة الصحافة، وحرّر اليهود من الغيتو ومن عديد الممارسات المُذِلّة والمستعبدة. وفي الوقت نفسه منح دوق توسكانا أيضاً الدستور، بينما صادق كارلو ألبيرتو على دستور الممالك السردينية. وأخيراً الحركات الثوريّة في فيينّا، وبوهيميا، والمجر، وأدّت تلك الأيّام الخمسة من تمرّد ميلانو إلى طرد النمساويّين، مع الجيش البيمونتيّ الذي أعلن الحرب وضمّ ميلانو المتحرّرة إلى مملكة البيمونتي. كان رفاقي يتهامسون أيضاً بخصوص ظهور بيان للشيوعيّين، بحيث أنّ البهجة لم تغمر الطلبة فقط بل وغمرت أيضاً الشغّالين والمنتمين إلى الفئات الضعيفة، كلهم مقتنعين بأنّه سيُشنق عمّا قريب آخر كاهن بمصارين آخر ملك.

ولا يعني هذا أنّ الأخبار كلها تتالتْ جيّدة، لأنّ كارلو ألبيرتو كان يتكبّد الهزائم وكان يُعتبر خائناً من قِبل الميلانيّين ومن قبل كلّ وطنيّ بصفة عامّة؛ وبيّو التاسع، المذعور من قَتْل أحد وزرائه، لجأ إلى غاييتا عند ملك الصقليّتيْن وبعد أن رمى الحجارة أخفى يده، وظهر أقلّ ليبراليّة ممّا كان يبدو في البداية، وسحب العديد من الدساتير التي مَنَحها سابقاً.. ولكن وصل في تلك الأثناء إلى روما غاريبالدي والوطنيّون المادزينيّون وفي بداية العام الموالي أُعلِنت الجمهورية الرومانية.

كان أبي قد اختفى من البيت نهائيّاً في شهر مارس وكانت ماما تيريزا تقول إنها مقتنعة بأنّه انضمَّ إلى ثوّار ميلانو؛ ولكن حوالى شهر ديسمبر تلقىّ أحد يسوعيّي منزلنا خبراً بأنّه انضمّ إلى المادزينيّين الذين هرعوا لحماية الجمهورية الرومانية. وجدّي، الذي حطّمه اليأس، كان يغمرني بتنبّؤاته التي تحوّل **العام الرائع*** إلى **عام فظيع***. ولا أدلّ على ذلك من أنّه في تلك الأشهر نفسها ألغت الحكومة البيمونتيّة نظام اليسوعيّين وصادرت أملاكهم، وألغت الأنظمة شبه اليسوعيّة أيضاً، مثل أُوبلاطيّ سان كارلو ومريم القديسة، والمخلِّصين، لتحرق الأرض حواليهم.

(*) رواية باللاتينية في النص الأصلي annus mirabilis... annus horibilis.

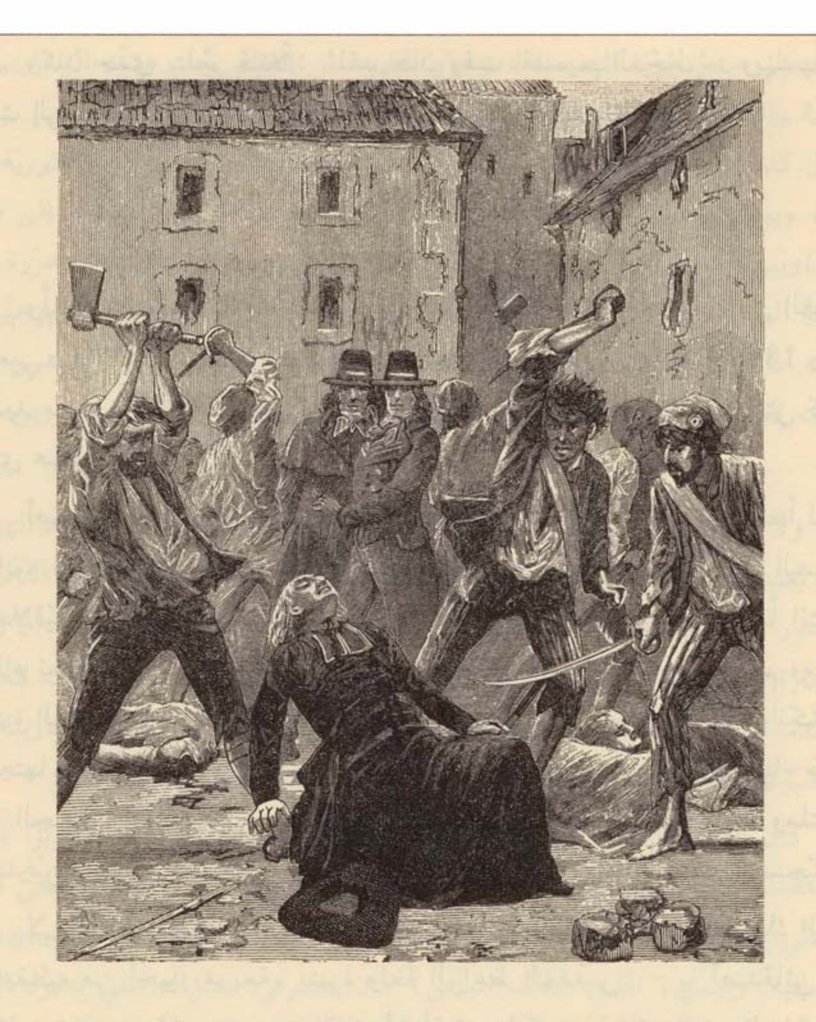
وكان جدّي يتذمّر قائلاً: "لقد حان وقت المسيح الدجّال"، وينسب كلّ حدث إلى دسائس اليهود، وهو يرى أتعس تنبؤات موردخاي تتحقّق.

* * *

وفّر جدّي ملجأ للآباء اليسوعيّين الذين كانوا يحاولون النجاة من الغضب الشعبي، في انتظار اللحاق بالكهنوت العلماني، وفي بداية سنة 1849 وصل العديد منهم فارّين خِفْية من روما، وهم يقصّون الأحداث الفظيعة التي كانت تجري هناك.

أصبحت أرى الأب باكّي، بعد قراءة **اليهودي التائه** لـ سُو، تجسُّداً للأب رودان، اليسوعي الشرّير الذي كان يعمل في الخفاء مُضَحِّياً بكل المبادئ الأخلاقيّة من أجل نُصْرة الجمعية، ربّما لأنّه كان مثله، يخفي دائماً انتماءه للنظام تحت لباس مدنيّ، أي بارتداء معطف بالٍ برقبة ملبّدة بعرق قديم ومغطّاة بقشرة الرأس، وحبل يعوّض رقبة العنق، وصدريّة من الكتان الأسود انكشفت أنسجتها، ونعليْن كبيرين ملطّخين دائماً بالطين كان يدوس بهما دون حياء سَجّادَ بيتنا الجميلَ. كان وجهه نحيفاً، هزيلاً وشاحباً، وشعره رمادياً مزيّتاً وملتصقاً بالصدغيْن، وعيناه مثل عيني سلحفاة، وشفتاه نحيفتيْن تكادان تكونان بنفسجيّتيْن.

لا يكفيه أن يُوحي مُجَرَّد جلوسه إلى المائدة بالتقزّز، بل كان يُفقدك الشهيّة بما يقصّه من أخبار مريعة، بنبرة ولغة الواعظ المقدّس: - يا أصدقائي، إنّ صوتي يرتجف، ولكن يجب مع ذلك أن أقصّ عليكم هذا. لقد انتشر الوباء قادماً من باريس، لأنّ لويس فيليب ليس بدون شكّ من طينة القديسين، ولكنه كان سدّاً مانعاً لانتشار الفوضى. إنّي رأيت في هذه الأيام شعب روما! هل هو حقيقة شعب روما؟ ليس هناك سوى وجوه بائسة متمرّدة، أنذال لفظتهم السجون، مستعدّون لنيذ الفردوس من أجل كأس من الخمر. ليس شعباً بل حُثالة، انصهرت في روما مع أنذل ما جادت به المدن الإيطالية والأجنبيّة، من غاريبالديّين ومادزينيّين، أداة عمياء لكلّ شرّ. أنتم لا تعرفون مدى قذارة الأفعال التي يرتكبها الجمهوريّون. إنّهم يدخلون إلى الكنائس ويكسرون مَذَاخَر القدّيسين، ويذرون



ولمّا تلفّظ كاهن بشيء ضدّ الجمهوريّة جرّوه إلى سقيفة، وأثخنوا جسمه بالخناجر، ثمّ أخرجوا عينيه من رأسه وقطعوا لسانه. . . (ص79)

رُفاتَهم إلى الرياح، ويجعلون بعد ذلك من المذخرة مَبْولة. وينزعون الحجارة المقدسة من المذبح ويلطّخونها بالبِراز، ويجرّحون بالخناجر تماثيل العذراء، ويفقؤون عيون الصور المقدسة، ويكتبون بالفحم كلمات جديرة بماخور. ولمّا تلفّظ كاهن بشيء ضدّ الجمهوريّة جرّوه إلى سقيفة، وأثخنوا جسمه بالخناجر، ثمّ أخرجوا عينيه من رأسه وقطعوا لسانه، وبعد فتح بطنه لفّوا أمعاءه حول رقبته وخنقوه. ولا تظنُّوا أن المادزينيّين سينهزمون، حتّى وإن تحرّرت روما (يقولون إنّ الإعانات قادمة من فرنسا). لقد تقيّأتهم كلّ مقاطعات إيطاليا، إنهم جريئون وماكرون، متصنّعون وخدّاعون، مستعدّون وذَوُو عزيمة، صبورون ومداومون. سيواصلون اجتماعاتهم في أوكار خَفِيّة في المدينة، والتصنّع والنفاق سيجعلهم ينفذون إلى أسرار المكاتب، ويدخلون في السياسة، وفي الجيوش، وفي الأساطيل وفي القلاع.

- وابني مع هؤلاء، كان جدّي يتذمّر باكياً، محطّم الجسم والروح.

ثمّ يتقبّل على المائدة مرقة بقر بالبارولو من النوع الجيّد، قائلاً: إنّ ابني لن يعرف أبداً روعةَ لحم العجل هذا بالبصل، والجزر، والكرفس، والقويصة، والإكليل، والرند، وعود القرنفل، والقرفة، والعرعر، والملح، والفلفل، والزبدة، وزيت الزيتون وبطبيعة الحال قارورة من خمر البارولو، تصحبها عصيدة ذُرة أو عصيدة بطاطا. قوموا، قوموا بالثورة... لقد افتقد طعم الحياة. تريدون طرد البابا لتأكلوا حساء السمك *bouillabaisse* على طريقة نيس، مثلما سيجبرنا على ذلك غاريبالدي البحّار... لقد عمّ الكفر.

* * *

غالبا ما كان الأب برغماسكي يرتدي الثوب المدني ويخرج قائلاً إنّه سيتغيّب بضعة أيّام - وما كان يقول كيف ولماذا. كنت عندئذٍ أدخل إلى غرفته، وأستحوذ على جبّته، فأرتديها، وأذهب بعد ذلك لأتفرّج على نفسي في مرآة، ملوّحا بحركات راقصة. كما لو كنت، ليغفر لي اللّه لي ذلك، إمرأة؛ أو كما لو

كان هو كذلك بما أني أقلّده. لو اتّضح أنّ دلّا بيكّولا هو أنا، فإني سأكون قد فسّرت المصادر البعيدة لأذواقي المسرحيّة.

وجدت في جيوب الجُبّة بعض النقود (كان الأب بطبيعة الحال قد نَسِيَها) وقرّرت أن أمتّع نفسي ببعض الملذات وأن أكتشف بعض أماكن المدينة التي سمعت عنها أحاديث كثيرة.

ومتنكّراً بذلك الزيّ - ودون التفطّن إلى أن ذلك يُعتبر من تلك الأزمنة استفزازاً - توغّلت في أزقّة "بالوون"، ذلك الحي في بورتا بلاتسو الذي كان يأوي آنذاك حُثالة سكّان تورينو، حيث يُنتدب أشرّ اللصوص الذين كانوا يعيثون فساداً في المدينة. ولكن سوق بورتا بلاتسو كان، بمناسبة الاحتفالات، يعجّ بحيويّة خارقة للعادة، فكانت الجُمُوع تتدافع وتتراصّ حول البضائع المعروضة، وتدخل الخادمات جماعات إلى دكاكين اللحوم، ويقف الأطفال منخطفين أمام صانع الحلوى، ويشتري النَهِمون الفِراخ، والطرائد والخنزيريّات، ولا تجد في المطاعم طاولة خالية، وكنت أنا ألامس بجُبّتي الفساتين الأنثويّة المتطايرة، وألحظ بطرف العين، التي كنت أخفضها، كما يجدر برجل كنيسة، على يديّ المجمّعتيْن، رؤوس نسوة تَعْتَمِر قبّعة أو رأسيّة أو حجاباً أو منديلاً، وكنت أحسّ بدوار من حركة الغدوّ والرواح للمركبات والعربات، ومن الصياح والجلبة والفوضى.

هيّجني ذلك الغليان، الذي كان جدي وأبي، وإن اختلفت الأسباب يحفظانني بعيداً عنه، فوجدت نفسي أتوغّل إلى أحد تلك الأماكن الأسطورية التي تميّزت بها تورينو آنذاك. بلباسي اليسوعي، وبمتعة خبيثة في نفسي للمفاجأة التي كنت أحدثها، كنت أدخل إلى مقهى البيتشرين، قريباً من كونسولاتا، لأترشف ذلك الكأس المحميّ بالمعدن وذي المقبض المعدني، الفائح بالحليب والكاكاو والقهوة ونكهات أخرى. لم أكن أعرف بعد أنّه سيكتب عن البتشرين *bicerin* حتى ألكسندر دُومَا ، أحد أبطالي، بعد ذلك ببضع سنوات، ولكن أثناء زيارتيْن أو ثلاث إلى ذلك المكان السحري عرفتُ كلّ شيء عن ذلك الرحيق، المتأتي من البڤاريزا *bavareisa*، ولو أنّه في البڤاريزا يُمزج الحليب مع القهوة

والشكولاتة، بينما في البتشرين تبقى منفصلة في ثلاث طبقات (يُحتفظ بها ساخنة)، بحيث يُمكن طلب *bicerin pur e fiur*، مصنوع من قهوة وحليب، أو *pur e barba*، قهوة وشكولاتة، أو *'n poc 'd tut*، أي من كلّ شيء قليلاً.

ومتعة هذا المكان بإطاره الخارجي من الحديد، ولوحاته الإعلانية على الجانبيْن، وأعمدته الصغيرة وتيجانه من الحديد المصبوب، وألواحه الداخلية من الخشب المزخرف بالمرايا والطاولات من المرمر، وطاولة الشرب التي تصطفّ وراءها البواقيل، بعطر اللوز، ذات الأربعين نوعاً من الحلوى المختلفة... كان يعجبني الوقوف مترصّداً لا سيما يوم الأحد، لأنّ ذلك المشروب هو رحيق من يخرج، بعد الصوم، استعداداً لتقبّل القربان، من كنيسة كونسولاتا - والبيتشرين محبّذ في وقت الصوم، لأن الشكولاتة الساخنة لا تُعتبر طعاماً. يا للمنافقين.

ولكن ما كان يعجبني، بقطع النظر عن متعة القهوة والشكولاتة، هو أن أظهر بمظهر شخص آخر: وكون الآخرين لا يعرفون حقيقة من أنا كان يكسبني شعوراً بالتفوّق. كنت أملك سرّاً.

* * *

ثم وجَبَ عليّ أن أحدّ من مغامراتي وأخيراً أن أكفّ عنها، لأنني كنت أخشى أن يعترضني أحد رفاقي، الذين لم يكونوا دون شكّ يعرفونني باعتباري متزمّتاً وكانوا يعتبرونني متوقّداً بنفس حماسهم الفحّامي.

كنت ألتقي مع هؤلاء الحالمين بالوطن المفدّى عادة في مطعم الجمبري الذهبي Gamber Gambero في زُقاق ضيّق ومظلم، فوق مدخل أكثر ظلاماً، ثبّتت لوحة رسم عليها جمبري ذهبي كُتِب عليها "All'Osteria del Gambero d'Oro, buon vino e buon ristoro" مطعم الجمبري الذهبي، نبيذ طيّب وطعام طيّب. في الداخل يُفتح رُواق يصلح مطبخاً ومخزناً للقوارير. كنا نشرب وسط روائح الخنزيريّات والبصل، نلعب أحياناً قمار الأصابع، وفي أغلب الأحيان،



... ولكن ما كان يعجبني، بقطع النظر عن متعة القهوة والشكولاتة، هو أن أظهر بمظهر شخص آخر... (ص81)

كنا نقضي مثل متآمرين دون مؤامرة، الليل ونحن نتخيّل ثورات وشيكة. كان الطبخ عند جدّي قد عوّدني على تذوّق الأكلات الراقية، بينما في مطعم الجمبري الذهبي بإمكانك على الأكثر (إذا قبلتْ نفسُك الأكل) أن تسدّ الرمق. ولكن كان من اللازم أن أعيش حياة اجتماعية، وأن أهرب من يسوعيّي المنزل، ولذا فإنّ قاذورات الجمبري، مع بعض الرفاق المرحين، أفضل من مآدب البيت الكئيبة.

مع الفجر كنّا نخرج وأنفاسنا تنضح ثوماً وقلوبنا تتوقّد حماساً وطنيّاً، فنتيه داخل معطف ليّن من الضّباب، أفضل شيئ للاختفاء عن أنظار جواسيس الشرطة. وكنا نصعد أحياناً إلى ما وراء نهر "بُو"، ونشاهد من المرتفع السطوح وأبراج الأجراس التي تطفو فوق ذلك الضباب الذي يغمر السهل، بينما من بعيد كانت كاتدرائيّة سوبارغا المضاءة بأشعّة الشمس تبدو منارة وسط البحر.

ولكنّنا -نحن الطلبة- لم نكن نتحدّث عن الوطن الآتي فقط. كنّا نتحدّث، كما يحدث غالباً في تلك السنّ، عن النساء. كان كلّ واحد يذكر بعيون متوقّدة ابتسامة خطفها خلال نظرة إلى الشُّرْفة، أو يداً لمسها وهو نازل درجات السلم، أو زهرة ذابلة سقطت من بين ورقات كتاب القُدّاس والتقطها (كما يقول الراوي الفخور) بينما لا تزال تعبق بعطر اليد التي وضعتها بين تلك الصفحات المقدسة. أما أنا فقد كنت أنسحب عابساً، وهكذا عُرفت بكوني مادزينيّاً ذا سلوك نزيه وصارم.

إلّا أنّه ذات مساء كشف لنا أحد الرفاق الأكثر دعارة أنّه عثر في سقيفة السطح، على بعض تلك الكتب التي كانت تُنعت آنذاك في تورينو (بالفرنسيّة) بـ "القذرة" cochons، وكانت مَخْفية جيّداً في صندوق من طرف أبيه الداعر والنذل، ولم يجرؤ على بسطها على مائدة "الجمبري" الملطخة بالدهون، فقرّر أن يُعيرها إلى كلّ واحد منّا، بحيث إنّه عندما جاء دوري لم يكن باستطاعتي الرفض.

وهكذا تصفّحت في أواخر الليل تلك الكتب، التي كانت تبدو نفيسة وباهظة الثمن، بما أنّها مغطّاة بالجلد الأحمر، معرّقة في الظهر مع دبوس أحمر، وبعنوان مُذَهَّب، وزهرات سوسن مذهّبة على الغلافين، والبعض منها بشعارات

النَّبالة. كانت عناوينها "سهرة عذراء" *Une veillée de jeune fille* أو "آه! يا سيدي، لو أن توماس رآنا" *Ah! monseigneur, si Thomas nous voyait!*، وكنت أرتعد وأنا أُوَرِّق تلك الصفحات وأجد فيها رسوماً كانت تجعلني أسيل عرقاً من شعري إلى صدغيّ وإلى رقبتي: إناث حديثات السنّ يرفعن أثوابهنّ ويظهرن عجيزات ناصعة البياض، معروضة لأنظار ذكور شهوانيّين - ولم أكن أدري إن كانت تثيرني تلك الأشكال المستديرة العديمة الحياء أكثر أم ابتسامة الفتاة التي تكاد تكون عُذْرية، وهي تدير بدون خجل وجهها نحو مدنّسها، بعينين خبيثتيْن وابتسامة بريئة تنير ذلك الوجه المحاط بضفيرتين شديدتَي السّواد؛ أو تلك الصورة الأشنع بكثير، لثلاث إناث على أريكة يفتحن أفخاذهنّ ويظهرن تلك التي ينبغي أن تكون الحماية الطبيعيّة لفرجهنّ العذريّ، وقد سلّمته الأولى لعبث اليد اليمنى لرجل مشعثّ الشعر، كان في الوقت نفسه يجامع ويقبّل جارتها الداعرة، أمّا الثالثة فقد أهمل فرجها ليفتح بيده اليمنى صدريّتها كاشفا عن نهدها. ثمّ وجدت رسماً كاريكاتوريّاً غريباً لقسّ مثلّل الوجه، ولكن بالتفرّس فيه كان يبدو مؤلّفاً من أجساد إناث وذكور متجامعة بصفة متنوّعة، وَلَجَتْها أعضاء ذكوريّة ضخمة، تتساقط العديد منها في مجموعات على الرقبة لكي تشكّل بخُصلها شعراً غزيرا ينتهي بخصلات مزيّنة.

لا أذكر كيف انتهت تلك الليلة الجهنّميّة، عندما ظهر لي قضيبي في أفظع مظاهره (بالمعنى المقدّس للعبارة، مثلما يوحي دويّ الرعد إلى جانب الإحساس بالأُلوهيّة، بالخوف من الشيطاني والمدنّس). أذكر فقط أني خرجت من تلك التجربة المثيرة وأنا أُعيد على نفسي بصوت خافت، مثل تعويذة، جملة لست أدري لأيّ كاتب من كتّاب النصوص المقدّسة كان الأب بيرتوزو لقّنني إيّاها عن ظهر قلب قبل ذلك ببضع سنوات: "إن جمال الجسم كلّه في الجلدة. وبالفعل، فلو رأى البشر ما يوجد تحت الجلدة، فإنّ رؤية المرأة وحدها سيثير فيهم الاشمئزاز: ليس ذلك الجمال الأنثويّ إلّا غائطاً ودماً وأخلاطاً ومِرّة. فكّر فيما يخفيه المِنْخَران، والحَلْق، والبَطْن... ونحن، الذين لا نجرؤ على لمس القيء أو الزُّبل بطرف الإصبع، كيف نرغب في احتضان كيس من البِراز؟".

ولعلّي كنتُ في تلك السنّ لا أزال أؤمن بالعدالة الإلٰهية، ونسبتُ إلى انتقامها لتلك الليلة الجهنميّة ما حدث في اليوم المُوالي. فقد وجدتُ جدّي مستلقياً على ظهره في أريكته، بحشرجة في التنفس ويده ممسكة بورقة مكمّشة. استدعينا له الطبيب، والتقطت الورقة فقرأت فيها أنّ أبي قُتل برصاصة فرنسيّة أثناء الدفاع عن الجمهورية الرومانية، في شهر حزيران/يونيو بالذات من سنة 1849 التي هُرِع فيها الجنرال هودينو، بأمر من لويس نابوليون، لتحرير الكرسي البابوي من المادزينيّين والغاريبالديّين.

لم يَمُت جدّي، مع أنّه تجاوز الثمانين سنة، ولكنه بقي أياماً منغلقاً على نفسه في صمت ناقم، ولا أدري إن كان لحقده على الفرنسيّين أم على البابويّين الذين قتلوا ابنه، أم على ابنه الذي تجرّأ بتهوّر على تحدّيهم، أم على جميع الوطنيّين الذين أفسدوه. وأحياناً كانت تندّ عنه همسات أليمة، كان يلمّح بها إلى أنّ ما يقع هو من فعل اليهود الذين كانوا يزعزعون إيطاليا مثلما قلبوا أوضاع فرنسا قبل ذلك بخمسين سنة.

* * *

ولعلّي كنت أقضّي، لأتذكّر أبي، ساعات طويلة في سقيفة السطح أطالع الروايات التي تركها، وأمكنني أن أحتجز بعد وصوله بالبريد -الآن- ولم يعد باستطاعته هو قراءته. كتاب دُومَا "جوزيف بالسمو" *Giuseppe Balsamo*.

هذا الكتاب الرائع يقصّ، مثلما يعرف الجميع، مغامرات كاليوسترو والكيفية التي دبّر بها قضيّة قلادة الملكة، محطّماً بدفعة واحدة ماليّاً ومعنويّاً الكاردينال دي روهان، مشوّهاً سُمْعة الملكة ومعرّضاً البلاط كلّه لسخرية الساخرين، حتّى إنّ الكثيرين اعتبروا أنّ الفضيحة الكاليوستريّة ساهمت إلى حدّ بعيد في نخر هيبة المؤسّسة الملكيّة ومهّدت لذلك الجوّ من عدم الثقة الذي أدّى إلى ثورة 1789.

ولكن دُومَا يفعل أكثر من هذا، ويرى في كاليوسترو، أي جوزيف بالسمو، شخصاً دبّر تدبيراً محكماً مؤامرة سياسيّة في ظلّ الماسونيّة الكونيّة، وليس احتيالاً فقط.

كانت تسحرني الافتتاحيّة. هذا هو المشهد: جبل الرعد، على الضفة اليساريّة من نهر الرَّاين، على بضعة أميال من وورمز، تبدأ سلسلة من الجبال المقفرة، "كرسيّ الملك"، "صخرة الصقور"، "عُرْف الثُّعْبان"، والأعلى من جميعها، "جبل الرعد". في 6 آيار/مايو 1770 (تقريباً قبل عشرين عاماً من اندلاع الثورة المحتومة)، بينما كانت الشمس تغرب وراء مسلّة كاتدرائيّة ستراسبورغ، وتكاد تشقّها إلى نصفَيْ كرة من النار، كان مجهول قادماً من ماغونسا يتسلّق مرتفعات ذلك الجبل، إلى حدّ أن تخلّى حتى على جواده في مرتفع ما. وفجأة اختطفته مجموعة من الأشخاص المقنَّعين الذين حملوه، بعد أن عصبوا عينيه، إلى ما وراء الغابة في رَحْبة كان ينتظره فيها ثلاثمائة شبح مُلْتَفِّين في أكفان ومسلّحين بالسيوف، بدأوا يستنطقونه استنطاقاً صارماً وحادّاً.

ماذا تريد أنت؟ رؤية النور. هل أنت مستعدّ للقَسَم؟ وها هي مجموعة من الامتحانات، مثل شرب دم خائن قتل لوقته، وإطلاق النار بمسدّس على رأسه ليبرهن على طاعته، وسخافات من هذا النوع، التي تذكّر بأحطّ الطقوس الماسونيّة، المعروفة أيضاً عند قرّاء دُومَا، إلى أن قرّر المسافر قطع الطقس والتوجّه بكبرياء إلى تلك المجموعة قائلاً لهم بوضوح إنّه يعرف كلّ تلك الطقوس والحِيَل، وأن يكفّوا عن تلك المسرحيّة معه، لأنّه أرفع منهم كلّهم: إنه الرئيس، بحق إلهي، لهاته الطائفة الماسونية الكونية.

ودعا للعمل بأمره أعضاء الغرف الماسونية لـ ستوكهولم، ولندن، ونيويورك، وزيوريخ، ومدريد، ووارسو، وبلدان آسيوية مختلفة، وكلهم كانوا بطبيعة الحال قد هُرِعوا إلى جبل الرعد.

لماذا تجمّع كلّ ماسونيِّي العالم في ذلك المكان؟ ها إنّ المجهول يفسّر الآن ذلك: طلب يد الحديد، وسيف النار وميزان الماس لطرد النّجِس من الأرض، أي لإذلال وتحطيم العدويّن اللدودين للإنسانية، العرش والمذبح (وقد

كان جدي قد قال لي أيضاً إنّ قولة ڤولتير اللئيم كانت "اسحقوا الدنيء" écrasez l'infame). كان المجهول يذكّر إذن أنّه يعيش، مثل كلّ عرّاف في تلك الفترة، منذ آلاف الأجيال، قبل موسى وربما قبل أشوربانيبال، وقد جاء من الشرق ليبشّر بأنّ الساعة قد حانت. الشعوب كتيبة عظيمة تسير بدون توقّف نحو النور، وتمثّل فرنسا طليعة تلك الكتيبة. فليوضع بين يديها مشعل المسيرة الحقيقي ولتغمر العالم بنور جديد. في فرنسا يحكم ملك عجوز وفاسد، لم يبقَ له إلّا القليل من السنين. وحتّى إن حاول أحد المجتمعين - الذي كان لاڤاتير، ذلك العالم المتميّز في الفراسة - الاعتراض ملاحظاً إنّ وجهَيْ خليفتيه الشابين (الملك القادم لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت) يُوحيان بطبع وديع ورحيم، فإنّ المجهول (الذي ربما يكون القارئ قد تكهّن بأنّه ذلك المدعوّ جوزيف بالسمو والذي لم يُذكر بعد اسمه في كتاب دُومَا) ذكّر بأنّه لا يجب الاستسلام لأي شفقة إنسانيّة عندما يتعلّق الأمر بالمُضِيّ قُدُماً في طريق التقدّم. في ظرف عشرين سنة ينبغي أن تُمحى الملكيّة الفرنسيّة من فوق الأرض.

حينئذٍ تقدّم كلّ ممثّل عن كلّ جمعيّة من كلّ بلد مُوفِّراً رجالاً وأموالاً لنصرة قضيّة الجمهوريّة والماسونيّة تحت شعار lilia pedibus destrue، دُسْ وحطّم زنابق فرنسا.

لم أتساءل إن لم يكن من المُغالاة أن تشارك خمس قارات في تغيير الوضع الدستوري لفرنسا. في نهاية الأمر، كان بيمونتيّ من ذلك الوقت يعتبر أن العالم بأسره لا توجد فيه إلّا فرنسا، ودون شكّ النمسا، وربما بعيداً بعيداً بلاد "الكوكسنسينّا"، ولا غيرها من البلدان الجديرة بالذكر، ما عدا بطبيعة الحال الدولة البابويّة. أمام المشهد الذي صنعه دُومَا (وكنت أنا أُجِلُّ ذلك المؤلف العظيم) كنت أتساءل إن لم يكتشف الشاعر، وهو يروي قصّة مؤامرة واحدة فقط، الشكلَ الكونيّ لكلّ مؤامرة محتملة.

لننسَ جبل الرعد، والضفة اليسرى لنهر الراين، والحقبة - كنت أقول لنفسي - ولنفكّر في متآمرين جاؤوا من كلّ جهة في العالم ليمثلوا أصابع أخطبوط

طائفتهم الممتدّة في كلّ بلد، ولنجمعهم في مُنْبَسَط في غابة أو في مغارة أو في قلعة أو في مقبرة أو في قبو كنيسة، يكفي أن يكون مُظْلماً بالقدر الكافي، ولنجعل أحدهم يُلقي خطاباً يكشف فيه مخطّطاتهم، وإرادتهم في غزو العالم. . . لقد عرفت دائماً أشخاصاً يخافون مؤامرة يدبّرها عدوّ سريّ، اليهود بالنسبة إلى جدّي، الماسّونيّون بالنسبة إلى اليسوعيّين، اليسوعيّون بالنسبة إلى أبي الغاريبالديّ، الفحّامون بالنسبة إلى نصف ملوك أوروبا، الملك الذي يسخّره الكهنة، بالنسبة إلى رفاقي المادزينيّين، تنويريّو بافاريا بالنسبة إلى شرطة نصف العالم، إلى آخره، ترى كم يوجد من أشخاص في هذه الدنيا يحسّون أنّ مؤامرة تتهدّدهم. إنّه قالب يُمكن لكلّ أحد أن يملأه بما يريد، لكلّ امرئ مؤامرته.

لقد كان دُومَا بحقّ عارفاً كبيراً بالنفس الإنسانية. فِيْمَ يأمل كلّ واحد، خاصة إذا كان شقيّاً وسيّء الحظ؟ في المال، والحصول عليه دون عناء، وفي السلطة (يا للمتعة عندما تأمر غيرك، وتذلّه) وفي الانتقام من كلّ ضرر لحقه (وكل شخص تكبّد في حياته على الأقلّ ضرراً، مهما كان ضئيلاً). وها أن دُومَا في مونتيكريستو يريك كيف يُمكن الحصول على ثروة هائلة، تمكّنك من سلطة عظيمة، وتتيح لك الانتقام من كلّ عدوّ أساء إليك. ولكن، يتساءل كلّ منّا، لماذا -على العكس- لم يسعفني أنا الحظ (أو على الأقلّ لم يُتح لي بالقدر الذي أريده)، لماذا حُرمت من امتيازات مُنحت على العكس إلى آخرين أقلّ استحقاقاً منّي؟ وبما أنّ لا أحد يفكّر في كوْن سوء حظّه يُمكن أن يعود إلى قلّة إدراكه، فها هو يبحث عن مذنب. يقدّم دُومَا إلى من يشعر بالكبت (إلى الأفراد وإلى الشعوب) تفسير إحباطهم. لقد كان شخصاً آخر، مجتمعاً في جبل الرعد، هو الذي خطّط لهلاكك. . .

وإذا ما فكّرنا جيّداً، فإنّ دُومَا لم يأتِ بجديد: لقد أعطى فقط شكلاً سردياً لما كشفه، حسب جدّي، القسّ بارّويل. وقد أوحى لي هذا بأنّني لو أردت بطريقة ما بيع الكشف عن مؤامرة، فلن يلزمني أن أقدّم للمشتري أيّ شيء جديد، وسأقتصر فقط وخاصة على ما سبق أن عرفه أو ما يُمكن أن يعرفه بسهولة عبر طرق أخرى. فالناس يصدّقون ما يعرفون من قبل فحسب، هنا تكمن روعة الشكل الكوني للمؤامرة.

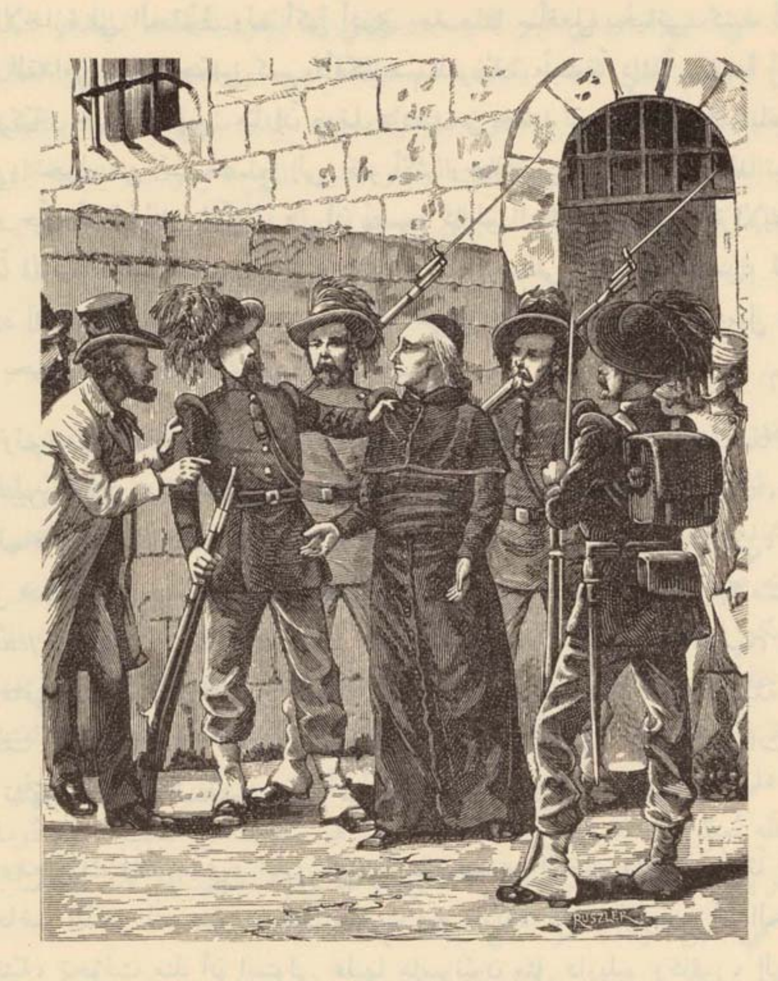
* * *

كان ذلك سنة 1855، وكنت في الخامسة والعشرين من عمري، وتحصّلت على الإجازة في الحقوق ولم أكن أدري بعد ماذا سأفعل بحياتي. كنت أخالط رفاقي القدامى دون تحمّس كبير لأفكارهم الثوريّة، مستبقاً دائماً ببضعة أشهر، وبشكوكيّة، خيبة آمالهم: ها إنّ روما عادت من جديد تحت سلطة البابا، وبيّو التاسع، تحوّل من حَبْر مُصْلح إلى حَبْر أكثر رجعيّة من سابقيه، وها قد تبخّرت -لسوء حظّه أو لجُبْنِه- الآمال في أن يُصبح كارلو ألبرتو بشير الوحدة الإيطالية، وها إنّ الإمبراطورية تَعُود، بعد الثورات الاشتراكية التي هيّجت النفوس، لتحكم فرنسا، إنّ الحكومة الجديدة البيمونتيّة، عوض أن تحرّر إيطاليا، ترسل جنوداً للقيام بحرب عديمة الجدوى في القِرم...

ولم يعد بإمكاني حتّى أن أقرأ تلك الروايات التي كوّنتني أكثر ممّا أمكن لليسوعيّين تكويني، إذ صادق في فرنسا مجلس أعلى للجامعة يجلس فيه، واللّهُ أعلم لماذا، ثلاثةُ رؤساء أساقفة وأسقف، على ما عُرف بتعديل ريانسي، الذي يفرض ضريبة بخمسة سنتيمات على كلّ عدد من جريدة تنشر رواية مسلسلة *feuilleton* في حلقات. قد يبدو الخبر لمن يجهل عالم النشر دون أهميّة، ولكن أنا ورفاقي انتبهنا على الفور لتبعاته: كانت الضريبة بمثابة عقوبة ثقيلة تُجْبِر الصحف الفرنسيّة على العدول على نشر روايات: وهكذا فإنّ الأصوات التي كانت تشهّر بأمراض المجتمع، مثل سُو و دُومَا، اضطرّت إلى الصمت.

ومع ذلك فإنّ جدّي، الذي كان أحياناً يعتريه الخَبَل ولكنه أحياناً أخرى كان حاضر الذهن لتسجيل ما كان يحدث من حوله، كان يتذمّر من أنّ الحكومة البيمونتيّة، تحوّلت منذ أن استولى عليها ماسونيّون مثل دازيليو وكافور، إلى بِيعة للشيطان.

- هل تدرك يا ولدي، كان يقول لي، أنّ قوانين ذلك المدعوّ سيكّاردي ألغت ما يسمّى بامتيازات رجال الكنيسة. لِمَ إلغاء حق اللجوء في الأماكن المقدّسة؟ هل تملك الكنيسة حقوقاً أقل من ثكنة عساكر؟ لِمَ إلغاء المحكمة الكنسيّة لرجال الدين المتّهمين بجنايات عامّة؟ ألا تملك الكنيسة الحقّ في الحكم على المنتمين إليها؟ لِمَ إلغاء المراقبة الدينية الوقائيّة على المنشورات؟ هل صار




وعندما دعا رئيس أساقفتنا فرانسوني إكليروس تورينو لعصيان هذه الإجراءات، تمّ إيقافه كأنه مجرم وحُكم عليه بشهر سَجْناً... (ص91)

Twitter: @ketab_n

لكلّ أحد الحقّ في أن يقول ما يعجبه، دون قيد ودون احترام للعقيدة وللأخلاق؟ وعندما دعا رئيس أساقفتنا فرانسوني إكليروس تورينو لعصيان هذه الإجراءات، تمّ إيقافه كأنه مجرم وحُكم عليه بشهر سجناً. والآن وصلنا إلى إلغاء رهبانيّات المتسوّلين والمتأمّلين، يكاد عددهم يناهز ستّة آلاف رجل دين. والدولة تصادر أملاكها، وتقول إنّها ستصلح لصرف رواتب الكهنة، ولكنك لو جمعت كلّ أملاك هذه الرهبانيّات لحصلت على مبلغ يساوي عشر مرّات، بل مائة مرّة رواتب كلّ كهنة المملكة، والحكومة ستصرف هذه المبالغ في المدرسة العمومية حيث سيتعلّم الفقراء ما لا يصلح لهم، أو ستستعملها لتبليط حارات اليهود. وكلّ هذا تحت شعار "كنيسة حرّة في دولة حرّة"، حيث الوحيد الحرّ في الخروج على القانون هو الدولة. الحرّية الحقيقية هي حقّ المرء في اتّباع دين الربّ، ليستحقّ الجنّة أو الجحيم. الآن على العكس تُفهم الحريّة على أنّها إمكانية اختيار المُعتقدات والآراء التي تعجبنا، وكلّها سواء - وسواء بالنسبة للدولة أن تكون ماسونيّاً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً أو من أتباع سلطان الأتراك. بهذه الطريقة تصبح الحقيقة غير ذات بال.

- هكذا يا بُنَيّ، قال جدّي ذات مساء، باكياً، وهو في خبله لا يميّزني عن ابنه ويتكلّم وهو يتنفس بصعوبة ويئنّ، لم يعد هناك كهنة لاتيرانسيّون، كهنة نظام القديس إيجيديو، كارميليتانيّون حُفاة ومتنعّلون، شارتوزينيّون، بنيدكتيّون كاسينيّون، شيسترشانسيّون، أوليفيتانيّون، مينيميّون، فرنشسكانيّون دَيْريّون، فرنشسكانيّون محافظون، فرنشسكانيّون مصلحون، فرنشسكانيّون كابوتشيّون، أوبلاطيّو القديسة مريم، باسيونيّون، دومينيكيّون، مرسيداريّون، خدم مريم، آباء الخورس، إضافة إلى الراهبات الكلاريسيّات، والمصلوبات، والسيلاستينيّات أو الفيروزيّات، والباتيستينيّات.

وكان يتلو هذه القائمة مثلما يتلو الصلوات، بطريقة تزداد دائماً اضطراباً وكأنّه في النهاية نسي أن يتنفّس، وأمر أن يُقدَّم له على المائدة *civet* أرنب بالشمنزيرة والزبدة والحنطة والبقدونس ونصف لتر من خمر باربيرة، وأرنباً بريّاً مفصّلاً إلى قطع كبيرة كالبيضات، بما فيها القلب والكبد، وبُصَيْلات، وملح وفلفل وبهارات وسكّر.

كاد أن يتأسّى، ولكنه في لحظة معينة تسمّرت حدقتاه ولفظ نفسه الأخير، بتجشّؤ خفيف.

دقّ البندول منتصف الليل ونبّهني إلى أنّني أكتب منذ وقت طويل بدون انقطاع. الآن، ومهما أجهدت نفسي، لا أقدر على تذكّر أيّ شيء ممّا حصل في السنوات التي تلت وفاة جدّي.

أحسّ بدُوَار.

# 5

## سيموﻧﻴﻨﻲ الفحّام

ليلة 27 مارس 1897

أرجو المعذرة، كابيتان سيموﻧﻴﻨﻲ، إن أنا تدخّلت في مذكّراتك التي لم أَرَ بُدّاً من قراءتها. ولكن ليس بإرادتي إن أنا استفقت هذا الصباح في فراشك. لعلّك فهمت أنّني (أو على الأقلّ هذا ما أعتقده) القسّ دَلاّ بيكولا.

استفقت في فراش ليس بفراشي، في شقّة لا أعرفها، دون أثر لجُبّتي الكهنوتيّة ولشعري المصطنع. فقط لحية مصطنعة بجانب الفراش. لحية مصطنعة؟

سبق أن حدث لي قبل الآن بأيّام أن أستفقتُ وأنا لا أعرف من أكون، ما عدا أنّ ذلك كان يحدث في بيتي، بينما هذا الصباح وقع في بيت شخص آخر. كنت أحسّ بعينيّ دامعتَيْن ولساني يؤلمني، كما لو أنّني عضضته.

عندما نظرت من النافذة تفطّنتُ إلى أنّ الشقّة تطلّ على زنقة موبير المسدودة، في الزاوية بالذات مع شارع ميتر ألبير حيث أسكن.

بدأت أفتّش في كلّ الشقّة، التي كانت تبدو شقّة رجل علماني، يحمل بكلّ وضوح لحية مصطنعة، وهذا يعني (أَعْذُر صراحتي) أنّه شخص مشكوك في أخلاقه. ثمّ مررتُ إلى مكتب مؤثّث ببعض التبجّح؛ في قاع الغرفة، وراء ستار، وجدت باباً صغيراً ولجت منه إلى رُواق. كان يبدو خلفية مسرح، مليئاً بأزياء التنكّر وبأمشاط مختلفة من الشعر المصطنع يشبه بالذات المكان الذي عثرت فيه منذ بضعة أيام مضت على جُبّة. وعندئذٍ أدركت أنّ الرُّواق الذي قطعته في ذلك اليوم وفي الاتجاه المعاكس يُفضي إلى مسكني.

وجدت على طاولتي مجموعة من الملحوظات من المحتمل أنني حرّرتها، حسب إعادة التركيب التي قمت بها، يوم 22 مارس، حيث استفقت، مثل هذا الصباح، فاقد

الذاكرة. ثمّ تساءلت، ماذا تعني الملحوظة الأخيرة التي سجلتها ذلك اليوم بخصوص أوتوي وديانا. ومن هي ديانا؟

إنّه لشيء غريب. أنت تظنّ أنّنا، نحن الاثنين، شخص واحد. ولكنك تتذكّر أشياء كثيرة بخصوص حياتك وأنا أتذكّر القليل جداً من حياتي. في المقابل، مثلما تشهد بذلك مذكّراتك، أنت لا تعرف عني شيئاً، بينما أتفطّن أنا إلى أنّني أتذكّر أشياء أخرى، غير قليلة، حدثت لك –ولغرابة الصدف– هي تلك التي يبدو أنّك لا تتذكّرها. أريد أن أقول إنّه، إذا كان بإمكاني أن أتذكّر كلّ هذه الأشياء عنك، فهل أكون أنا أنت؟

أو ربما لا. نحن شخصان مختلفان، ونعيش لسبب ما غامض نوعاً من الحياة المشتركة، فأنا في نهاية الأمر رجل كنيسة وقد أعرف عنك ما رويته لي في سرّ الاعتراف. أو أنّني الشخص الذي أخذ مكان الدكتور فرويد، وبدون أن تتذكّر ذلك استخرج من أعماق نفسك ما كنت تحاول تركه دفيناً؟

مهما كان الأمر، فمن واجبي الكهنوتي أن أذكّرك بما حدث بعد وفاة السيّد جدّك، ليشمله الربّ بعفوه. أمّا أنت، لو لفظت أنفاسك الآن، فمن المؤكّد أن الربّ لن يقبلك في جنّته، لأنّه يبدو لي أنّك لم تتصرّف مع أمثالك تصرّفاً لائقاً، ولعلّه لهذا السبب ترفض ذاكرتك استرجاع ذكريات لا تشرّفك.

* * *

**في الواقع لا يروي دَلّا بيكولا لسيمونيني إلا سلسلة فقيرة من الأحداث، مكتوبة بخطّ نحيف مختلف جداً عن خطّه؛ ولكن تلك التلميحات الشحيحة بالذات هي التي استعملها سيمونيني كما لو كانت معاليق ألبسها كمّاً هائلاً من الصور ومن الكلمات عادت فجأة إلى ذاكرته. مادّة حاول الراوي تَلخيصها، أو بالأحرى الإسهاب اللازم بصددها، لِيُدخل تماسكاً في تلك اللعبة من التحريضات والإجابات، ولكي لا يفرض على القارئ تلك النبرة المغالية بنفاق في الفضيلة والتي كان القسّ يوحي بها، مع مراقبة يشوبها الكثير من المراء، ماضي الأنا الآخر.**

**يبدو أنّه لم يؤثّر كثيراً في سيمونيني لا إلغاء نظام الكَرْمَليين الحُفاة، ولا**

حتى موت جدّه. لعلّه كان متعلّقاً بجدّه، ولكن بعد طفولة ومراهقة قضّاهما سجيناً في بيت كان يبدو مدروساً لاضطهاده، حيث كان جدّه ومربّوه المرتدين العباءات السود، يثيرون فيه دائماً الريبة، والحقد والضغينة تجاه العالم، أصبح سيمونينو عاجزاً عن الإحساس بمشاعر غير مشاعر حبّ نفس كئيب، اتّسمت شيئاً فشيئاً بالهدوء المطمئنّ الذي يتّسم به الرأي الفلسفي.

التقى، بعد أن اهتمّ بالجنازة التي حضر فيها رجال كنيسة رفيعو المستوى وأسمى النبالة البيمونتيّة الموالية للعهد القديم، بالموثّق العجوز القائم بأعمال العائلة، شخص يدعى ريبودانغو، الذي قرأ عليه الوصيّة التي أورثه بها جدّه كلّ أملاكه. ما عدا، أخبره الموثّق (وكان يبدو مسروراً في فعله هذا)، أنه بسبب الرهونات المتعدّدة التي أمضاها الشيخ، والاستثمارات الخاطئة التي قام بها، لم يبقَ شيء من تلك الأملاك، وحتى ذلك البيت وجميع الأثاث الذي يحويه ينبغي أن يعود في أقرب وقت بكل ما فيه إلى الدائنين - الذين لم يتقدّموا بالطلب لرجل كانوا يعتبرونه رجلاً نبيلاً محترماً، ولكنهم الآن لن يتراجعوا أمام حفيده.

- أنْظُرْ، ياحضرة المحامي - قال له الموثّق لعلّها توجّهات الأزمنة الحديثة التي لم تعد ما كانت عليه في الماضي، ولكن حتى أبناء العائلات النبيلة مُضطرّون أحيانا للعمل. وإذا توجّهتَ نحو هذا الاختيار، المذلّ في الواقع، فبإمكاني أن أعرض عليك العمل في مكتبي، حيث أحتاج إلى شابّ مثلك لديه بعض المعرفة بالمادة القانونية، وليكن واضحاً أنّه لن يُمكنني أن أكافئك بالقدر الذي يستحقّه حذقك، ولكن بما يكفي لتجد لنفسك منزلاً آخر وللعيش بكرامة.

وقد داخَلَ سيمونيني على الفور الشكّ في أنّ الموثّق قد استولى على قدر وافر من الأموال التي كان جدّه يعتقد أنّه خسرها في اكتتابات متهوّرة، ولكنه لم يكن يملك حُجُجاً على ذلك، وكان عليه أن يسدّ رمقه. وقال في نفسه إنّه بالاشتغال جنباً إلى جنب مع الموثّق، سيتمكّن يوماً ما من مُعاملته بالمثل، مسترجعاً منه ما كان دون شكّ قد أخذه بالخدعة. وهكذا ارتضى العيش في غرفتيْن بشارع بربارو وقلّل من زياراته إلى مختلف الحانات التي كان رفاقه يجتمعون فيها، وبدأ العمل مع ريبودانغو، الذي كان رجلاً بخيلاً، متجبّراً ومرتاباً - وقد كفَّ على الفور عن

دعوته بحضرة المحامي وسيادتك، وصار يتوجّه له باسم سيموניني وكفى، وذلك ليشعره بأنّه هو السيِّد. ولكن في ظرف بضع سنوات من العمل ككاتب عدل (مثلما كانوا يسمّونه) تحصّل على الاعتراف القانوني وقد أدرك، باكتسابه ثقة سيّده الحذرة، أنّ العمل الرئيسي لم يكن يتألَّف كثيراً مِمّا كان كتّاب العدول يعملونه، كضمان التَّرِكات والهِبات والبيع والشراء والعقود الأخرى، بل في الشهادة بِهِبات وعمليات بيع وشراء ووصايا وعقود لم تقع أبداً. بعبارة أخرى كان المُوَثِّق ربيودانغو، يصنع مقابل مبالغ معقولة، وثائق مزيّفة، مقلّدا عند الضرورة خطّ الآخرين منتدباً الشهود من الحانات المجاورة.

- ليكن واضحاً ياعزيزي سيموني -شرحَ له مستعملاً صيغة الندّ للندّ- أنا لا أصنع وثائق مزيّفة، بل نسخاً جديدة من وثيقة أصلية ضاعت أو، لحادث ما، لم تُكتب أبداً، ولكن كان بالإمكان بل ومن الواجب أن تُكتب. الزيف هو عندما أكتب شهادة ولادة يتبيّن منها، لا سمح اللّه، أنّك ابن عاهرة أصيلة أودالنغو بيكولو (وكان يضحك سعيداً بتلك الفرضيّة المُهِينة). لن أجرؤ أبداً على ارتكاب مثل هذا الجُرْم لأنّني رجل ذو شرف. ولكن لو أراد أحد أعدائك، مثلاً، أن يستولي على ميراثك، وأنت تعرف أنّه لا يوجد شكّ في كونه ليس ابن أبيك أو ابن أمّك، بل ابن عاهرة من أودالنغو بيكولو أخفى شهادة تعميده بِنِيّة الاستحواذ على ثروتك، وجئت أنت تطلب مني أن أصنع الوثيقة الضائعة لإرباك ذلك الشرير، فإنّني سأعمل، إن جاز القول، في صالح الحقيقة، وسأثبت ما نعرف أنّه الحقيقة، ولن أحسّ بالذنب.

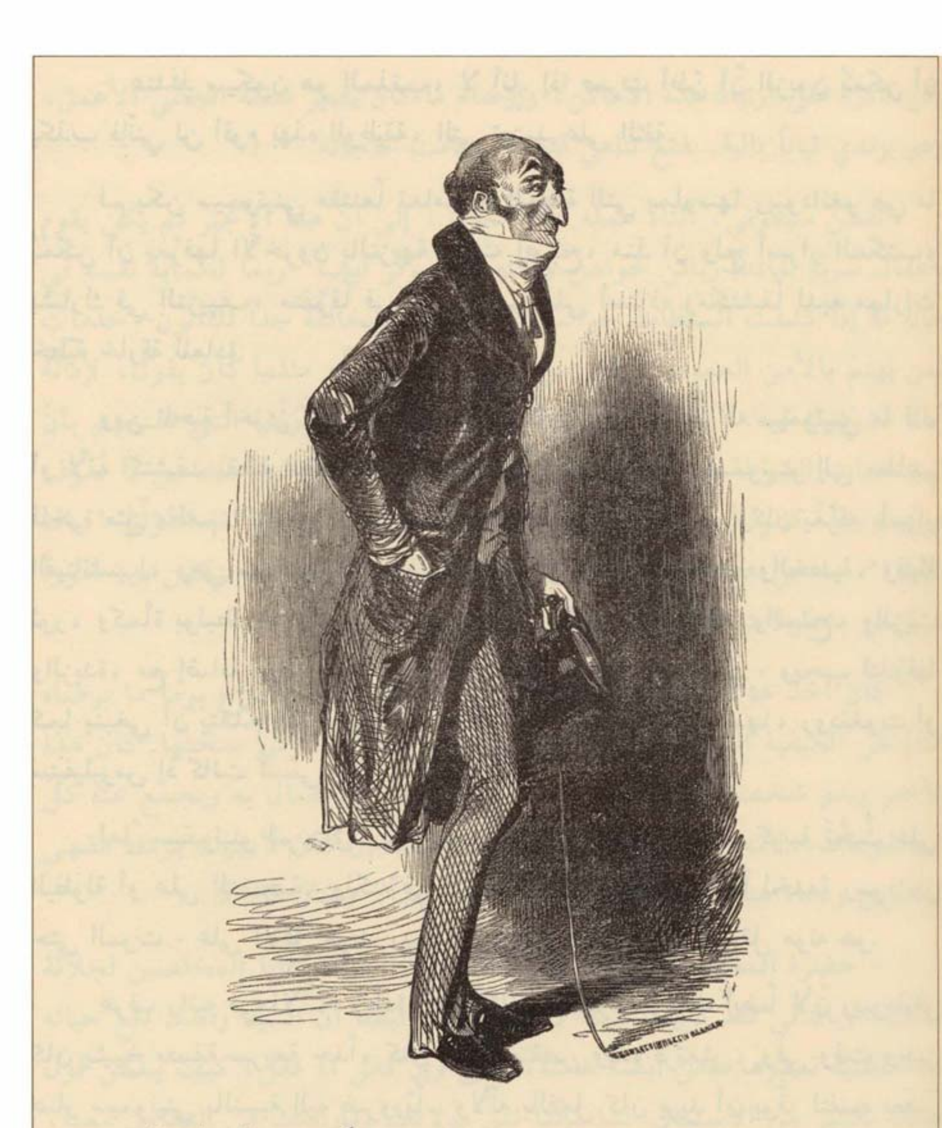
- صحيح، ولكن كيف ستفعل لمعرفة الحقيقة عن ولادة ذلك الشخص؟

- ولكنك ستقول لي أنت ذلك. أنت الذي تعرفه جيّداً.

- وأنت ستثق بي؟

- إنّني أثق دائماً بزبائني، لأنني أخدم فقط أناساً شرفاء.

- ولكن لو حدث أنّ الزبون كذب؟



- ليكن واضحا يا عزيزي سيموني - شرَح له مستعملاً صيغة الندّ للندّ - أنا لا أصنع وثائق مزيّفة، بل نسخاً جديدة من وثيقة أصلية ضاعت أو، لحادث ما، لم تُكتب أبداً، ولكن كان بالإمكان بل ومن الواجب أن تُكتب.. (ص96)

- عندئذٍ سيكون هو المذنب، لا أنا. إذا صرت أظنّ أنّ الزبون يُمكن أن يكذب فإنّني لن أقوم بهذه الوظيفة، التي تعتمد على الثقة.

لم يكن سيمونيني مقتنعاً تماماً أن المهنة التي يمارسها ريبودانغو هي ما يُمكن أن يعرّفها الآخرون بالنزيهة ولكنّه أصبح، منذ أن ولج أسرار المكتب، يشارك في التزييف، متفوّقاً في زمن وجيز على أستاذه ومكتشفاً لديه مهارات خطيّة خارقة للعادة.

ومن ناحية أخرى كان المُوَثّق، وكأنّه كان يريد أن يغفر له سيمونيني ما قال أو لأنه اكتشف نقطة الضعف في مساعده، يدعو أحياناً سيمونينو إلى مطاعم فاخرة مثل مطعم "كامبيو" (كان يرتاده حتى كافور Cavour)، وكان يعرّفه بأسرار الفينانتسيرا، وهي سمفونيا من عُرْف الديك ولوزة العِجْل والمخّ والخصية، وفتيلة ثور، وكمأة بوليطس، ونصف كأس من المَرْسالا، والحنطة، والملح، والزيت والزبدة، مع إضافة بعض الحموضة على الكلّ بخليط من الخلّ - ويجب لتذوّقها كما ينبغي أن يتقدّم المرء مرتدياً، مثلما يدلّ على ذلك اسمها، رودنغوت أو ستيفيليوس إذ كانت تُسمّى بهذا الاسم أيضاً.

لعلّ سيمونينو لم يتلقَّ، بالرغم من التحريضات الأبويّة، تربية تَحُثُّ على البطولة أو على التضحية، ولكنه في تلك الأمسيات كان مستعدّاً لخدمة ريبودانغو حتى الموت - على الأقلّ موت ريبودانغو، كما سنرى، إن لم نقل موته هو.

عرف راتبه في الأثناء زيادة، وإن كانت حقيرة، وذلك أيضاً لأنّ ريبودانغو كان يشيخ بصفة سريعة جداً، كان بصره ينقص ويده ترتعش، وفي وقت وجيز صار سيمونيني بالنسبة إليه ضروريّاً. ولأنّه بالفعل كان يريد أن يوفّر لنفسه بعض الترف ولا يقدر على الامتناع عن ارتياد المطاعم الأكثر شهرة في تورينو (آه، يا للذّة الآنيولوتّي على الطريقة البيمونتيّة، بالنسبة للحشو مشويّ من اللحوم البيضاء، مشوي (محمَّص) من اللحوم الحمراء، لحم ثور مسلوق، دجاجة مسلوقة منزوعة العظم، كرنب مطبوخ مع اللحم المشوي، أربع بيضات كاملة، جبن برميجيانو ريجيانو، جوزة الطِّيب، ملح وفلفل، وبالنسبة إلى الصلصة مرق المشويّات، زبدة، فصّ ثوم، قليل من إكليل الجبل)، فإن الشاب سيمونيني لم

يكن قادراً على ارتياد هذه الأماكن، وإرضاء ما كان يصير شغفه الحِسّي الأعمق، وهو يرتدي ثياباً بالية. فمع تنامي قدراته، تنامت حاجاته.

تفطّن سيموني، أثناء عمله عند المُوَثّق، إلى أنّ هذا الأخير لم يكن يقوم بأعمال سريّة لفائدة زبائن خواص ولكنه كان يوفّر أيضاً -ربما لحماية نفسه في حالة ما إذا كشفت السلطات جوانب من أنشطته المُخالفة جداً للقانون- خدمات لمن يَهتمّ بالأمن العمومي، لأنّ من الضروري أحياناً، مثلما كان يقول، لإدانة أحد مشكوك فيه، أن تُقدّم للقُضاة بعض البراهين المُوَثَّقة التي تقنعهم بأنّ استنتاجات الشرطة في محلّها. وهكذا دخل في اتّصال مع أشخاص لا تُعرف هويّتهم جيّداً كانوا أحيانا يأتون إلى المكتب، والذين كانوا في لغة المُوَثِّق "سادة الإدارة". ما هي هذه الإدارة، وماذا تمثّل، ليس من الصعب التكهّن به: أموراً سريّة من مشمولات الحكومة.

كان أحد هؤلاء السادة يدعى الفارس بيانكو، الذي صرّح يوماً ما برضاه التامّ عن الكيفية التي أنتج بها سيمونيني وثيقة لا يُشك في صحّتها. كان هذا الأخير يبدو شخصاً يتثبّت جيّداً من الشخص قبل الاتّصال به ويجمع عنه كلّ المعلومات، لأنّه حادثه يوماً على حدة وسأله إن كان لا يزال يرتاد مقهى البيتشرين ودعاه هناك لما سمّاه اتصالاً أوّلياً خاصّاً. وهناك قال له:

- حضرة المحامي، نعرف جيّداً أنّك حفيد أحد الرعايا المخلصين لجلالة الملك، وبالتالي فقد تربّيت تربية لائقة. ونعرف أيضاً أن السيّد والدك دفع حياته ثمنا لقضيّة نعتبرها نحن أيضاً عادلة، حتى وإن فعل ما فعل، كيف يُمكن قول ذلك، بكثير من الاستباق. لذا فإنّنا نثق بولائك وبإرادتك في التعامل معنا، واعتباراً، أيضاً، لأننا تعاملنا تجاهك بكثير من التسامح، في حين كان بإمكاننا منذ وقت طويل إدانة المُوَثّق ريبودانغو وإدانتك أيضاً بتهمة القيام بأعمال مُنافية للقانون. نحن نعرف أنّك تخالط صِحاباً وأصدقاء ورفاق فكر، كيف يُمكن القول، مادزينيّين، غاريبالديّين وفحّاميّن. هذا طبيعي، يبدو أنّها مُيُول الأجيال من الشباب. ولكن هذه هي مشكلتنا: لا نريد أن يقوم أولئك الشبّان ببعض الأفعال المتهوّرة، أو على الأقلّ ليس قبل أن يكون من المفيد ومن المعقول فعلها. لقد

قلقت حكومتُنا شديد القلق بسبب العمليّة الجنونيّة التي قام بها ذلك المدعوّ بيزاكاني الذي ركب البحر بضعة أشهر مضت مع مجموعة من أربعة وعشرين متمرّداً، ونزل في بونتسا رافعاً الراية الثلاثية الألوان، وأخرج من السجون ثلاثمائة سجيناً ثمّ توجّه إلى سابري، معتقداً أنّ الأهالي المحليّين ينتظرونه حاملين السلاح. وأكثر الناس حِلماً يقولون إنّ بيزاكاني شهم، وأكثرهم شكّاً يقولون إنّه غبيّ، الحقيقة هي أنّه يعيش على الأوهام. أولئك الفلاحون الذين كان يريد تحريرهم قتلوه هو وجميع أصحابه، أنت ترى إذن إلى أين يُمكن أن تقود النوايا الحسنة، عندما لا تأخذ بعين الاعتبار واقع الأشياء.

- فهمتُ، أجابه سيمونيني، ولكن ماذا تريد مني؟

- هو ذا، إذن. إذا أردنا أن نمنع أولئك الشبّان من ارتكاب أخطاء، أفضل طريقة هي وضعهم في السجن بعض الوقت، بتهمة التآمر على المؤسسات، وتحريرهم من بعد، عند الحاجة إلى قلوب سخيّة. لذا ينبغي مُفاجئتهم وهم في حالة تآمر واضحة. أنت تعرف دون شكّ القادة الذين يُسَيِّرونهم. يكفي أن تصلهم رسالة من أحد أولئك القادة، يدعوهم فيها إلى مكان معيّن، مدجّجين بالسلاح، معهم الشعارات والرايات وكلّ التفاهات الأخرى، التي تُعَرِّفهم على أنّهم فحّامّون مسلّحون. عندئذٍ تصل الشرطة، وتوقفهم، وينتهي كلّ شيء.

- ولكن إذا كنت أنا بينهم في تلك الآونة فسيقع القبض عليّ أنا أيضاً، وإذا لم أكن معهم فسيفهمون أنّني أنا الذي خُنْتُهم.

- آه، كلّا يا سيّدي، لسنا من الغباء بحيث لم نتدبّر هذا الأمر.

كما سنرى، تدبّر بيانكو الأمرَ جيّداً. ولكن صاحبنا سيموني أظهر هو الآخر، مواهب ممتازة في فنّ التدبير، إذ إنّه تصوّر، بعد أن استمع إلى الخطّة التي اقتُرحت عليه، تصوّر شكلاً من المكافأة خارقاً للعادة، وأفصح لبيانكو عمّا ينتظره من السَّخاء الملكي.

- أنْظُر ياحضرة الفارس، لقد قام المُوَثِّق ريبودانغو بالعديد من العمليّات المخالفة للقانون قبل أن أبدأ في العمل معه، يكفي أن أنتقي عمليّتيْن أو ثلاثاً

تتوفّر على وثائق كافية، لا تورّط أحداً ذا أهميّة، وإنَّما تُورّط شخصاً توفي في فترة ما، وأن أبلّغ بإرسالية من مجهول، مستعملاً وساطتكم المحترمة، كلّ مادّة الاتهام إلى القضاء العامّ. سيكون لديكم ما يكفي لتوجيه التهمة إلى المُوَثِّق بالتزييف وإعادة التزييف في الوثائق العمومية، وإيداعه السجن لعدد معقول من السنين، ما يكفي لتفعل الطبيعة فعلها، دون شكّ لوقت غير طويل جداً، نظراً للحالة التي يوجد فيها الرجل العجوز.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، عندما يودع المُوَثِّق السجن، أستظهر بعقد، مؤرّخ بالذات قبل بضعة أيّام من إيقافه، يتبيّن منه أنّني اشتريت منه المكتب نهائيّاً، بعد دفع مجموعة من الأقساط، وأصبحت بالتالي المالك له. أما بخصوص المال الذي أزعم أنّني دفعته له، فسيظنّ الجميع أنّني ورثته عن جدّي، والوحيد الذي يعرف الحقيقة هو ريبودانغو.

- إنّها قصّة مشوّقة، قال بيانكو، ولكن سيتساءل القاضي أين المال الذي دفعته له.

- إنّ ريبودانغو لا يثق بالبنوك ويحتفظ بكلّ شيء في خزنة المكتب، التي أعرف بطبيعة الحال كيف أفتحها، لأنّه كان يكفيه أن يدير لي ظهره، وبما أنّه لا يراني، فقد كان مقتنعاً أنني لا أرى ما يفعل. الآن، سيفتح دون شكّ رجال القانون الخزنة بطريقة من الطرق وسيجدونها فارغة. بإمكاني الشهادة بأنّ العرض الذي اقترحه عليّ ريبودانغو كان مفاجئاً، وأنا نفسي كنت متعجّباً من ضآلة المبلغ الذي طلبه، حتى إنه داخلني الشكّ في أنّه كان لسبب ما يريد التخلّي عن أعماله. وبالفعل سيجدون، إضافة إلى الخزنة الفارغة، رماد بعض الوثائق في المدفأة، وفي أدراج مكتبه رسالة قادمة من فندق بنابولي يؤكد فيها أنه كان قد حجز غرفة فيه. عند ذلك الحدّ سيتّضح جليّاً أنّ ريبودانغو كان يشعر أنّ السلطات اكتشفت أمره وأراد الاختفاء، متمتّعاً بثروته في مملكة البوربونيّين، حيث سبق أن أرسل أمواله.

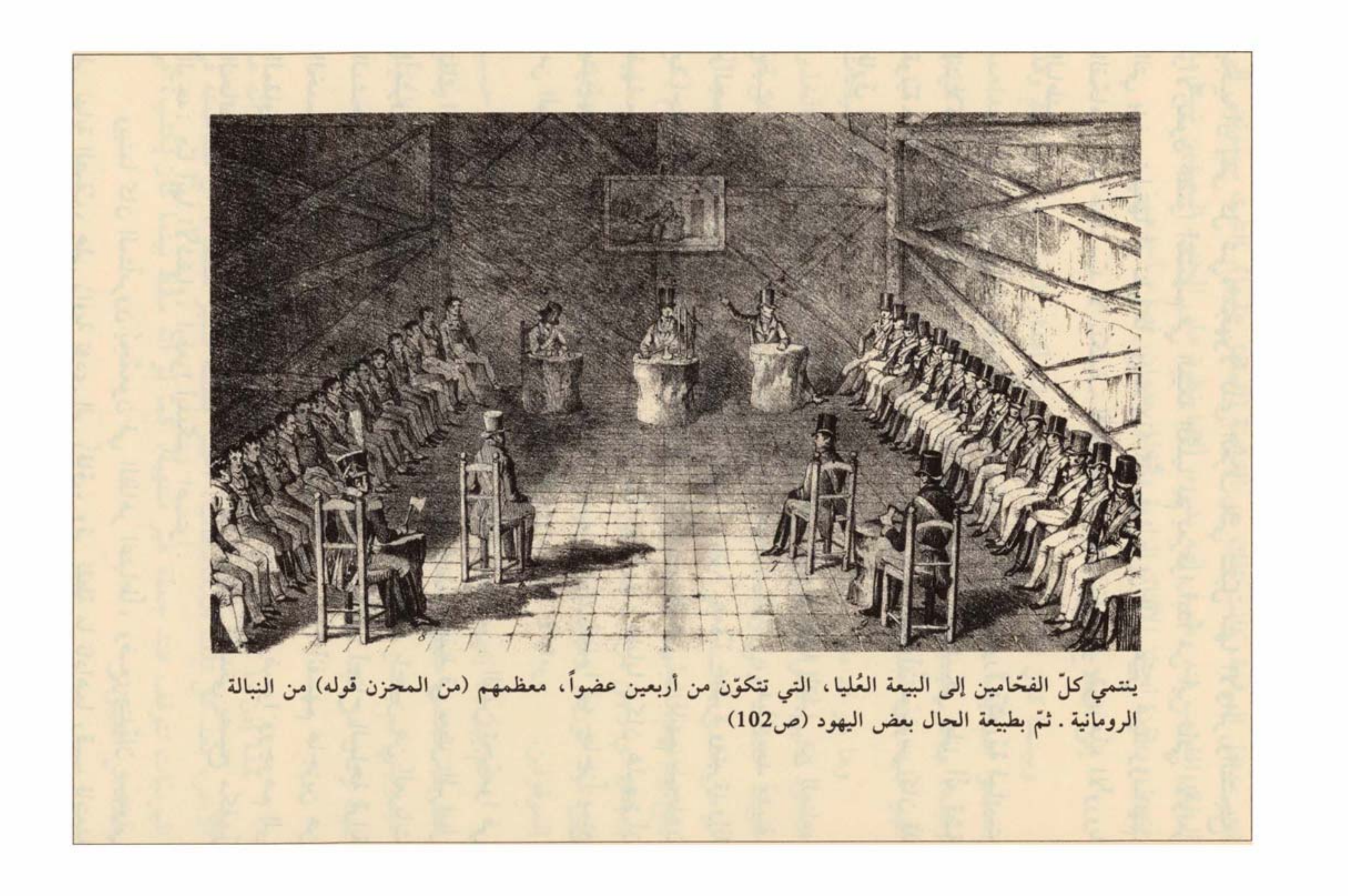
- ولكنّه، عندما سيعلم بقصّة العقد، سينفي ذلك أمام القاضي. . .

- عليه أن ينفي أشياء عديدة، ولن يصدّقه القاضي.

- خطّة مُحْكَمة. إنني مُعْجَب بك، يا حضرة المحامي. أنت أكثر يقظة من ربيودانغو، أكثر حماساً، وأكثر إرادة، و، كيف يُمكن القول، أكثر انتقائيّة. حسناً، سلّم لنا تلك المجموعة من الفحّامين، ثمّ سنهتمّ بربيودانغو.

بدَا إيقاف الفحّامين مثل لعبة أطفال، وذلك باعتبار أنّ أولئك المتحمّسين كانوا بالفعل مثل الأطفال، وكانوا فحّامين فقط في أحلامهم المتوقّدة. منذ زمن، كان سيمونيني يروي -وفي البداية بدافع الزهو بما أنّه كان يعرف أنّ كلّ سرّ يفشيه سيسنده الآخرون إلى أخبار تلقّاها من أبيه البطل-، عن الفحاميّة بعض الخُرافات التي كان يقصّها عليه الأب برغماسكي. كان اليسوعي يحذّره دائماً من مكائد الفحّامين والماسونيّين والمادزينيّين والجمهوريّين واليهود المتنكّرين في شكل وطنيّين كانوا يتظاهرون بكونهم تُجّارَ فحم، للاختفاء عن أعين شرطة العالم كله، ويجتمعون في أماكن سريّة بتعلّة قضاء شؤونهم التجاريّة.

- ينتمي كلّ الفحّامين إلى البِيعة العُليا، التي تتكوّن من أربعين عضواً، مُعظمهم (من المحزن قوله) من النبالة الرومانية - ثمّ بطبيعة الحال بعض اليهود. كان زعيمهم يُدعى نوبيوس، وكان سيّداً عظيماً، فاسداً مثل قوم من المساجين، ولكنه صنع لنفسه في روما بفضل اسمه وثروته مقاماً لا تمسّه الظنون. من باريس كان بوناروتّي والجنرال لافاييت أو سان سيمون يستشيرونه كما لو كان عرّاف دلفي. من ميونيخ ومن دريسدن، من برلين ومن فيينا أو من بطرسبرغ، كان زعماء البيعات الرئيسة، تشارنر، هايمن، يعقوبي، تشودسكو، ليافن، مورافييف، شتراوس، بلّافيتشيني، دريستن، بام، باتياني، أوبنهايم، كلاوس وكارولوس، يسألونه عن الطريق الذي يجب اتّباعه. وقد قاد نوبيوس البِيعة السامية إلى حدود سنة 1844، إلى أن سقاه أحدهم ماء مسموماً. لا يذهب بك الظنّ أنّ الذين سمّموه هم نحن اليسوعيون. يبدو أنّ الذي قتله هو مادزيني، الذي كان يأمل ولا يزال في أن يصبح زعيم الفحّامية كلّها، بمساعدة اليهود. خليفة نوبيوس هو الآن "النمر الصغير"، يهودي، وهو مثل نوبيوس لا يكفّ عن التحرّك في كلّ الجهات لخلق أعداء للمسيحيّة. ولكن تركيبة البِيعة العُليا ومكانها بقيا سريّيْن.



ينتمي كلّ الفحّامين إلى البيعة العُليا، التي تتكوّن من أربعين عضواً، معظمهم (من المحزن قوله) من النبالة الرومانية. ثمّ بطبيعة الحال بعض اليهود (ص102)

يجب أن يبقى كل شيء مجهولاً لدى الغُرَف التي تتقبّل منها الأوامر والتشجيع. والأربعون عضواً أنفسهم في البيعة العُليا لم يعرفوا أبداً من أين تأتي الأوامر التي ينبغي تبليغها أو تنفيذها. وبعد هذا كلّه يقولون إنّ اليسوعيّين عبيد رؤسائهم. الفحّامون هم عبيد سيّد لا ينكشف لأنظارهم، لعلّه شيخ كبير يقود هذه الأوروبا الباطنية.

جعل سيموني من نوبيوس بطله، كما لو كان صورة ذكوريّة لبابيت إنترلاكن. ومحوّلاً إلى ملحمة فروسيّة ما رواه له الأب برغماسكي على أنّه قصّة قوتيّة، كان يسحر رفاقه، مُخْفِياً جُزَئيّة غير ذات بالٍ، وهي أنّ نوبيوس كان قد فارق الحياة.

إلى أن جاء يوم كشف لهم فيه عن رسالة، كلّفه صنعها القليل من العناء، حيث يعلن نوبيوس عن ثورة وشيكة في كلّ جهة البيمونتي، مدينة بعد مدينة. والجماعة التي ينتمي إليها سيموني كان عليها أن تقوم بعمليّة خطيرة ومثيرة. وإذا ما اجتمعوا صبيحة يوم ما في ساحة "مطعم الجمبري الذهبي"، فإنهم سيجدون فيها سيوفاً وبنادق، وأربع عربات محمّلة بأثاث قديم وحَشايا، كان عليهم أن يتوجّهوا مسلّحين بهذا كلّه إلى مدخل شارع بربارو وأن يقيموا فيه حاجزاً يمنع من الوصول إلى ساحة كاستيلّو. وهناك سينتظرون وصول الأوامر.

كان ذلك كافياً ليتوقّد حماس أولئك الطَّلَبة العشرين، الذين تجمّعوا في تلك الصبيحة المحتومة في ساحة الخمّار ووجدوا فيها، مخفية في بعض البراميل المتروكة، الأسلحة الموعودة. وبينما كانوا ينظرون حواليهم باحثين عن العربات المشحونة بالأثاث، دون أن يفكّروا حتى في تلقيم بنادقهم، اجتاح الساحة قرابة الخمسين من الجنود شاهرين السلاح. والطلبة الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن المقاومة استسلموا، ونُزعت منهم أسلحتهم، ثمّ أخرجوا ووضعوا ووجوهم إلى الحائط على جانبي باب الدخول. وكان موظف بالزي المدني يصيح مكفهرّ الوجه: هيّا أيّها الأشقياء، ارفعوا أيديكم، اصمتوا.

وبينما كان المتآمرون يُجمَّعون في الظاهر اعتباطاً، وضع جنديّان سيموني في نهاية الصفّ، على زاوية تؤدي إلى زُقاق، وفي نقطة ما ناداهما رقيب فابتعدا

نحو مدخل الساحة. كانت تلك هي الفرصة (المتفق عليها). التفت سيمونيني إلى الرفيق القريب منه وهمس إليه بشيء. ألقيا نظرة على الجنود البعيدين شيئاً ما عنهما، وبقفزة اجتاز الاثنان الزاوية وأخذا يعدوان. فصاح أحدهم:

- إلى السلاح، إنّهم يفرّون،

وبينما كان الاثنان يعدوان، سمعا وقع أقدام الجنود وصيحاتهم وقد انعطفوا هم أيضاً مع الزاوية. سمع سيمونيني طلقتيْن ناريّتيْن: أصابت إحداهما رفيقه، ولكن سيموني لم يهتمّ بمعرفة إن كانت قاتلة أم لا. كان يكفيه، مثلما اتُّفِق عليه، أنّ الطلقة الثانية في الهواء.

وها هو قد دار مع شارع آخر، ثم آخر، بينما كان يسمع من بعيد صيحات الجنود الذين كانوا يلاحقونه، وسلكوا -تبعاً للأوامر- ومتّبعين الأوامر، اتّخذوا طريقاً خاطئاً. وفي وقت قصير اجتاز ساحة كاستيلّو وعاد إلى البيت مثل أيّ مواطن عادي. بالنسبة إلى رفاقه، الذين جُرّوا بعيداً، سيمونيني هرب، وبما أنّه وقع إيقافهم بالجملة ووضعهم ووجوهم إلى الحائط، من الواضح أنّه لم يكن بإمكان أي رجل من رجال الأمن تذكّر ملامحه. من الطبيعي إذن أنّه ليس بحاجة إلى ترك تورينو وبإمكانه أن يواصل عمله، بل وذهب لتعزية عائلات رفاقه الموقوفين.

لم يبقَ إلّا إنهاء المسألة المتعلّقة بالمُوَثِّق ريبودانغو، والتي تمّت حسب الطريقة المتفق عليها. بعد سنة توفي الشيخ بسكتة قلبيّة، في السجن، ولكن سيمونيني لم يحسّ بنفسه مسؤولاً عن ذلك: لقد تسوّت الوضعية، علّمه المُوَثِّق مهنة وكان هو عبداً له لبضع سنوات، أفلس المُوَثِّق جدَّه وسيمونيني أفلسه.

هذا إذن ما كشفه القَسّ دَلّا بيكولا إلى سيمونيني. وما يدلّ على أنّه هو الآخر، بعد كلّ تلك المكاشفات، أحسّ بنفسه كسير النفس، أنّ مساهمته في اليوميّات تتوقف عند جملة غير مُنتهية، كما لو أنّه سقط بينما كان يكتب، في حالة من الغيبوبة.

# 6

## في خدمة المخابرات

28 آذار/مارس 1897

حضرة القَسّ،

من الغريب أنّ ما يجب أن يكون مذكّرات (لا يقرأها إلّا محرّرها) تحوّلت إلى تبادل رسائل. ولكن ها أني بصدد كتابة رسالة لك، وكأني متأكّد أنّك لو مررت يوماً من هنا ستقرأها.

أنت تعرف الكثير عنّي. إنّك شاهد غير مُسْتَحَبّ بالمرّة. وصارم بصفة مُفْرِطة.

صحيح، وأعترف بأني لم أتصرّف مع رفاقي الذين كانوا يريدون أن يصبحوا فحّامين، ومع ريبودانغو، حسب العُرْف الذي تَعِظُ به. ولكن لنقل الحقيقة: كان ريبودانغو مُحتالاً، وإذا ما فكّرت في كلّ ما فعلته بعد ذلك يبدو لي أنّني لم أكن مُحتالاً إلّا مع المُحتالين. أمّا أولئك الشبّان، فقد كانوا متحمّسين، والمتحمّسون هم حُثالة الدنيا لأنّه بعملهم، وبالمبادئ الغامضة التي يتحمّسون لها، تندلع الحروب والثورات. وبما أنّني فهمت الآن أنّه في هذا العالم لا يُمكن أبداً الحدّ من عدد المتحمّسين، فلِمَ لا أستغلّ حماسهم لفائدتي.

أعود إلى "مذكّراتي"، لو سمحت. أرى نفسي من جديد على رأس مكتب ريبودانغو، أما أنني كنت أضع مع ريبودانغو وثائق عدلية مُزوّرة فذلك مِمّا لا أستغربه، ما دمتُ أزاول العملَ نفسه، اليوم هنا بباريس.

الآن أتذكّر كذلك جيّداً الكفاليري بيانكو. قال لي ذات يوم: - ٱنْظُر يا حضرة

المحامي، لقد طُرِد اليسوعيّون من الممالك الساردينيّة، ولكن الجميع يعرف أنّهم يواصلون العمل ويكوّنون الأتباع تحت غطاء مُزَيّف. وهذا يحدث في جميع البلدان التي طُرِدوا منها، لقد أَرَوْني رَسْماً كاريكاتوريّا مُسلّياً في صحيفة أجنبيّة: يمثّل بعض اليسوعيّين الذين يتظاهرون كلّ سنة بمحاولة الدخول إلى بلدهم الأصلي (وبطبيعة الحال يقع إيقافهم على الحدود)، وذلك لكي لا يتفطّن أحد إلى أن رفاقهم موجودون في ذلك البلد، أحراراً وفي ثوب نظام آخر. إنّهم إذن لا يزالون موجودين في كلّ مكان، وينبغي علينا معرفة أين يختفون. الآن، نحن نعرف أنّه منذ زمن الجمهوريّة الرومانية، كان البعض منهم يرتادون بيت السيّد جدّك. يبدو لنا إذن من الصعب أن لا تكون قد حافظت على علاقات مع البعض منهم، ونطلب منك إذن أن تسبر غورهم ومقاصدهم، لأنّه يبدو أنّ النظام عاد من جديد قويّاً في فرنسا وما يحدث في فرنسا فكما لو أنه يحدث أيضاً في تورينو.

لم يكن صحيحاً أنّني حافظت على علاقات بأولئك الآباء الطيّبين، ولكنّني كنت أتعلّم أشياء كثيرة عن اليسوعيّين، ومن مصدر موثوق. في تلك السنوات نشر أوجَان سُو عمله الأخير الشهير، **أسرار الشعب**، وكان قد أكمله قبل أن يموت، في المنفى، في أنّيسي بسافويا، لأنّه ارتبط منذ زمن بالاشتراكيّين وناهض بحماس الاستيلاء على الحكم وإعلان الإمبراطوريّة من طرف لويس نابوليون. وبما أنّه لم تعد تنشر على الصحف سلسلات روائيّة، تطبيقاً لقانون ريانسي، فقد ظهر هذا العمل الأخير في كتيّبات، وكلّ كتيّب وقع تحت طائل العديد من المُراقبات الصارمة، بما فيها المُراقبة البيمونتيّة، بحيث بات من العسير الحصول عليها كلّها. أذكر أنّني أحسست بالكثير من الضجر وأنا أتتبّع القصّة الموحلة لعائلتيْن، واحدة من الغاليّين والأخرى من الفرنكيّين، من فترة ما قبل التاريخ إلى عهد نابوليون الثالث، ويبدو الغاليّون جميعهم اشتراكيين منذ زمن فرسينجيتوريكس، ولكن سُو صار فريسة هوس واحد، مثل كلّ المِثاليّين.

من الواضح أنّه كتب الأجزاء الأخيرة من عمله في المنفى، بالتوازي مع تمادي نابوليون في الاستحواذ على السلطة وفي إقامة الإمبراطورية. لكي يجعل خُططه مَقِيتة خطرت على سُو فكرة عبقريّة: بما أن اليسوعيين كانوا، منذ زمن الثورة، هم العدو اللدود الآخر لفرنسا الجمهورية، لم يبقَ إلّا أن يبيّن كيف أنّ

استيلاء نابليون على السلطة كان مستوحى ومسيّراً من طرف اليسوعيّين. صحيح أنّ اليسوعيّين كانوا قد طُرِدوا أيضاً من فرنسا منذ ثورة 1830، ولكنهم في الواقع بقوا يعيشون فيها متستّرين، وبالخصوص منذ أن شرع نابوليون في الاستحواذ على السلطة، غاضّاً الطرف عنهم حفاظاً على العلاقات الطيبة مع البابا.

وهكذا توجد في الكتاب رسالة طويلة جداً من الأب رودان (كانت قد ظهرت في كتاب **اليهودي التائه**) إلى رئيس اليسوعيّين العامّ، الأب روتهان، احتوت على وصف دقيق للمؤامرة. في الرواية تقع الأحداث الأقرب تاريخيّاً أثناء المقاومة الاشتراكية والجمهورية الأخيرة ضدّ الانقلاب وتبدو الرسالة مكتوبة بطريقة يظهر بها ما سيفعله نابوليون بعد ذلك على أرض الواقع في شكل خطّة. بحيث إنّه، عندما يطلّع القرّاء على القصّة، يكون كلّ شيء قد تحقّق، ويبدو التكهّن به أكثر إثارة.

بطبيعة الحال عادت إلى ذهني بداية كتاب "**جوزيف بالسمو**" لـ دُومَا: يكفي أن أعوّض "جبل الرعد" بمكان ملائم أكثر للبيئة الكهنوتية، مثل قبو دير قديم، وهناك عِوَضَ الماسونيّين يُجمّع أبناء لويولا وقد قدموا من كلّ أنحاء العالم، يكفي أن يتكلّم رودان عوضاً عن بالسمو، وها أنّ رسمه القديم للمؤامرة الكونية يتكيّف مع الوقت الحاضر.

من هنا خطرت على بالي أنّه بإمكاني أن أبيع لبيانكو، ليس فقط بعض الأقاويل التي سمعتها هنا وهناك، بل وثيقة كاملة اختلستها من اليسوعيّين. ينبغي دون شكّ أن أغيّر بعض الأشياء، وأن أحذف ذلك الأب رودان الذي قد يتذكّر بعضهم أنّه شخصيّة روائيّة، وتعويضه بالأب برغماسكي، الذي لا يعرف أحد أين يوجد، ولكن هناك دون شكّ في تورينو مَنْ سَمِعَ به. من جهة أُخرى، عندما كان سُو يكتب عملِه كان لا يزال الأب روتهان الرئيس العامّ للنظام، بينما الآن يقولون إنّه عُوّض بشخص يُدعى الأب باكس.

كان ينبغي أن تظهر الوثيقة على أنّها استنساخ يكاد يكون حرفيّاً لما بلّغه مخبِر موثوق به، ولا يجب أن يظهر المخبر على أنه واشٍ (لأنّه من المعروف أنّ

اليسوعيّين لا يخونون أبداً جمعيّتهم) إنما ينبغي أن يظهر كصديق قديم لجدّي أسرّ له بتلك الأشياء كدليل على عظمة نظامه ومناعته.

كنت أودّ أن أُقحم اليهود أيضاً في القصّة، تقديراً منّي لذاكرة جدّي، ولكن سُو لا يتحدّث عنهم، ولم أجد الطريقة لوضعهم مع اليسوعيّين -إضافة إلى أنّه لم يكن أحد يهتمّ باليهود خلال تلك السنوات في بيمونتي. لا ينبغي حشو دماغ أعوان الحكومة بالكثير من المعلومات، فهم يريدون فقط أفكاراً واضحة وبسيطة، أسود وأبيض، طيّبين وأشراراً، والشرّير يجب أن يكون واحداً.

ولكنّني كنت لا أريد العدول عن اليهود، وَاسْتَعملتهم لخلق البيئة. كانت على كلّ حال طريقة أوحي من خلالها لـ بيانكو ببعض الشكوك عن اليهود.

قلت لنفسي إنّ حدثاً يقع في بيئة باريسيّة أو في تورينو، يُمكن التثبّت منه. كان عليّ أن أجمع يسوعيّيَّ في مكان يصعب الوصول إليه حتى بالنسبة إلى المخابرات البيمونتيّة، الذين ستكون لديهم عنه فقط أخبار أسطوريّة. بينما اليسوعيّون كانوا في كل مكان، أخطبوط الربّ، تمتدّ أياديهم المعقوفة حتى إلى البلدان البروتستانيّة.

يجب على مَنْ يتعيّن عليه تزييف الوثائق أن يبحث دائماً عن المعلومات، لذا كنت أرتاد المكتبات. المكتبات أماكن ساحرة: أحياناً يبدو أنك تجد نفسك تحت مظلّة محطّة الأرتال، وعند قراءة كتب عن بلدان بعيدة، يبدو لك أنّك تسافر نحو أقطار نائية. وهكذا حدث أن شاهدت في كتاب بعض النقوش الجميلة تمثل مقبرة براغ اليهوديّة. كانت قد هُجِرَت، كانت توجد فيها قرابة اثْنَي عَشَرَ ألفاً من الشواهد المنقوشة في فضاء ضيّق جداً، ولكن القبور كانت دون شكّ أكبر عدداً بكثير لأنّه، على مرّ القرون، تراكمت طبقات عديدة من التراب مُتَراصّة الواحدة فوق الأخرى. بعد ترك المقبرة رفع بعضهم القبور التي كانت مدفونة، بشواهدها، بحيث تكوّن رُكامٌ غير منظّم للشواهد الحجريّة المنحنية في كلّ الاتّجاهات (أو ربما كان اليهود أنفسهم هم الذين ثبّتوها هكذا دون أيّ اعتبار، لافتقارهم المعروف لكلّ حسّ بالجمال وبالنظام).

ذلك المكان الذي صار مهجوراً كان يصلح لي، حتى لغير لياقته: أيّ فكرة

ماكرة جعلت اليسوعيّين يقرّرون اجتماعهم في مكان كان مقدّساً عند اليهود؟ وما هي الرقابة التي يُمارسونها على ذلك المكان المنسيّ من طرف الجميع والذي يستحيل ربما بلوغه؟ كلّها أسئلة بدون جواب، ستضفي مصداقية على القصّة، لأنّني أعتبر أن بيانكو يعتقد دون مجال للشكّ أنّه، عندما تبدو كلّ الأشياء قابلة للتفسير ومحتملة، فالرواية هي إذن غير صحيحة.

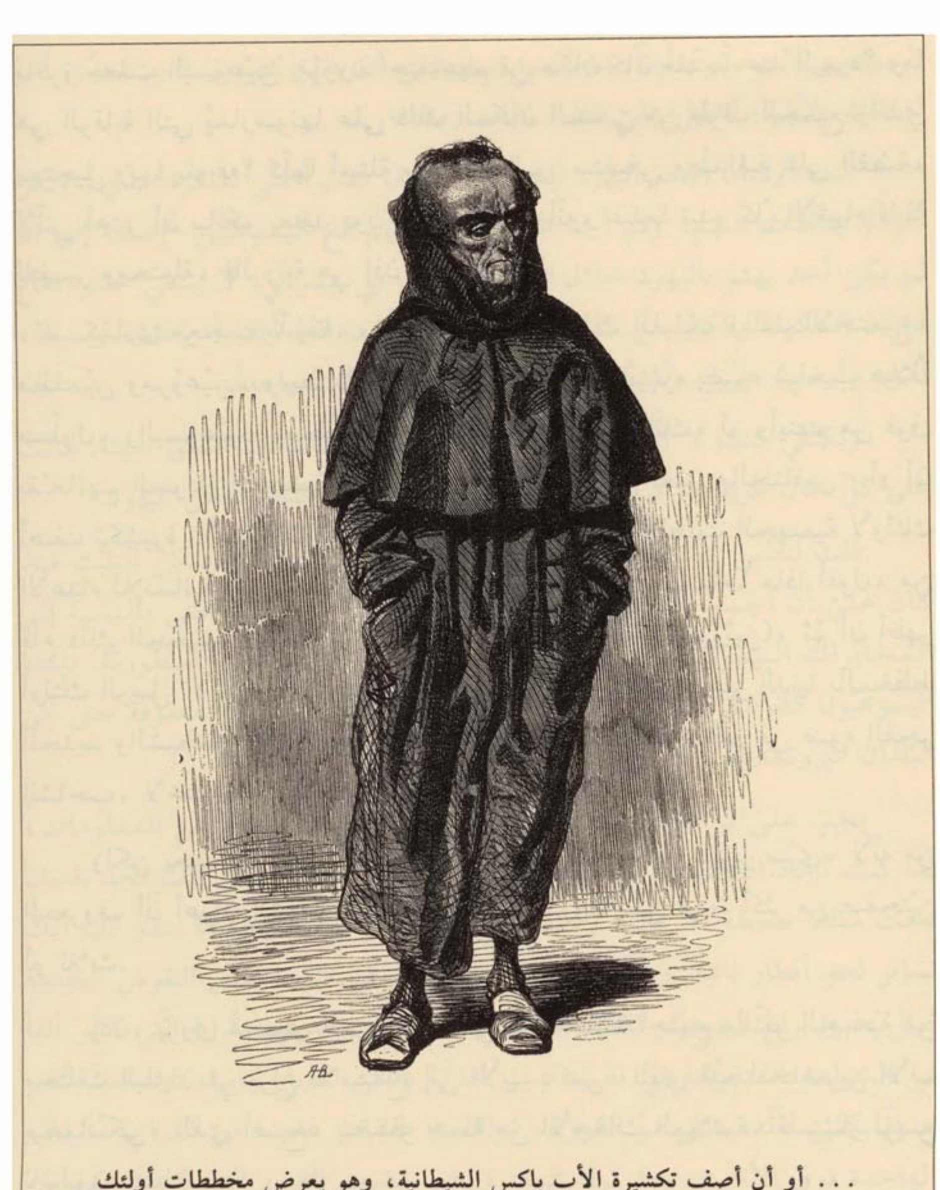
كقارئ معجب بدُومَا، راقَ لي أن تكون تلك الليلة، وذلك الاجتماع، مظلميْن ومروّعيْن، وسط ذلك الحقل الجنائزي، يُنِيره بضوء شاحب هلالٌ مسلُول، واليسوعيّون مصطفّون في نصف دائرة بحيث إنّك، لو رأيتهم من فوق بقبّعاتهم السوداء العريضة الجوانب، لظننت الأرض تغلي بالخنافس - أو أن أصف تكشيرة الأب باكس الشيطانيّة وهو يعرض المخطّطات الجهنمية لأولئك الأعداء للإنسانية (سيغتبط لها شبح أبي من عليائه في السماء، ماذا أقول، من قاع ذلك الجحيم الذي يحشر فيه الربّ المادزينيّين والجمهوريّين)، ثمّ أن أظهر أولئك الرسل الأشرار وهم يتفرّقون لتبشير ديارهم المنتشرة عبر الدنيا بالمخطّط الجديد والشيطاني لغزو العالم، مثل طيور نحس قاتمة ترتفع في ضوء الفجر الشاحب، لاختتام تلك الليلة الجهنميّة.

ولكن يجب أن أكون مُقتضِباً وجوهريّاً، مثلما يجدر بتقرير سرّي، لأنّه من المعروف أنّ أعوان الشرطة ليسوا أدباء ولا يقدرون على قراءة أكثر من صفحتيْن أو ثلاث.

إذن، يروي مُخْبِرِي المزعوم أنّه في تلك الليلة اجتمع ممثّلو الجمعيّة من مختلف البلدان في براغ للاستماع إلى الأب باكس، الذي قدّم للحاضرين الأب برغماسكي، الذي أصبح، بتضافر جملة من الأحداث الملائمة، مستشار لويس نابوليون.

وأعلن الأب برغماسكي أنّ لويس نابوليون قدّم الدلائل على خضوعه لأوامر الجمعيّة قائلاً:

- يجب أن نُثني على الذكاء الذي خدع به بونابرت الثوريّين متظاهراً بتقبّل أطروحاتهم، والدهاء الذي تآمر به ضدّ لويس فيليب، ميسّراً سقوط حكومة



. . . أو أن أصف تكشيرة الأب باكس الشيطانية، وهو يعرض مخططات أولئك المعادين للإنسانية (سيغتبط لها شبح أبي من عليائه في السّماء، ماذا أقول، من قاع ذلك الجحيم الذي يحشر فيه الربّ المادزينيّين والجمهوريّين). . .

(ص111)

أولئك الملحدين، والاستجابة لنصائحنا، عندما تقدّم سنة 1848 إلى الناخبين كجمهوريّ مخلص، بحيث أمكن انتخابه رئيساً للجمهوريّة. ولا ننسَ الطريقة التي ساهم بها في إسقاط جمهورية مادزيني الرومانية وفي إعادة العرش إلى قداسة البابا.

فقد عرض نابوليون (هكذا واصل برغماسكي) مخطّطه للقضاء نهائيّاً على الاشتراكيّين، والثوريّين، والفلاسفة، والملحدين، وكلّ الوطنيّين الأشرار الذين يُنادون بسيادة الوطن، وحريّة الاختيار، والحريّة الدينيّة، والسياسيّة والاجتماعيّة - ولحلّ المجلس التشريعي، وإيقاف ممثلي الشعب بتهمة التآمر، وإعلان حالة الطوارئ في باريس، وإعدام من يُعثر عليه حاملاً للسلاح دون محاكمة، وإرسال العناصر الأكثر خطورة إلى جزر كايان، وإلغاء حريّة الصحافة والتجمّع، وتجميع الجيوش في القلاع ومن هنالك قصف العاصمة، وتحويلها إلى رماد، وتدميرها حجرة بعد حجرة، وتحقيق نُصْرة الكنيسة الكاثوليكية، الرسولية والرومانية على أنقاض بابل الحديثة. ثم سيدعو الشعب إلى الانتخاب العام لتمديد سلطته الرئاسيّة بعشر سنوات وبعد ذلك يحوّل الجمهوريّة إلى إمبراطوريّة متجدّدة - الانتخاب العامّ هو الدواء الوحيد ضدّ الديمقراطية، لأنّه يشمل شعب الأرياف، الذي لا يزال وفيّاً لصوت كهنته.

والأشياء الأكثر أهميّة هي التي يذكرها برغماسكي في خاتمة حديثه، حول السياسة تجاه البيمونتي. هنا أجعل برغماسكي يعلن تلك الخطط المستقبلية التي رسمتها الجمعيّة والتي كانت عند تحرير تقريره، قد تحقّقت بالكامل.

- ذلك الملك الغبيّ، فيتّوريو إيمانويلي، يحلم بالمملكة الإيطالية، ووزيره كافور يُذْكي مطامحه، والاثنان يريدان لا فقط طرد النمسا من شبه الجزيرة، بل وأيضاً هدم السلطة الزمنيّة لقداسة البابا. وهذان سيبحثان عن المساعدة في فرنسا، وسيكون إذن من السهل جرّهما إلى حرب ضدّ روسيا، مع وعدهما بالمساعدة ضدّ النمسا، ولكن مع المطالبة في المقابل بإقليمَيْ سافويا ونيس. ثمّ سيتظاهر الإمبراطور بالوقوف إلى جانب البيمونتيّين ولكن سيتفاوض -بعد بعض الانتصارات المحليّة التافهة- لإبرام السلام مع النمساويّين دون استشارتهما،

وسيحثّ على تكوين كونفدراليّة إيطاليّة تحت رئاسة البابا، تشمل ضمنها النمسا التي ستحافظ على أقاليمها في إيطاليا. وهكذا سيبقى البيمونتي، الحكومة الليبراليّة الوحيدة في شبه الجزيرة، تابعاً سواء لفرنسا أو لروما وسيكون مراقباً من طرف الجيوش الفرنسيّة التي تحتلّ روما وتلك الموجودة في سافويا.

هذه هي الوثيقة. لم أكن أعرف إلى أيّ حدّ ستثمّن الحكومة البيمونتيّة إدانة نابوليون الثالث باعتباره عدوّ الممالك السردينيّة، ولكنني كنت قد حدستُ ما ستثبته لي بعد ذلك التجربة، وهو أنّ رجال المخابرات يثمّنون دائماً، حتى دون استعمالها فوراً، وثيقة يُمكن بواسطتها تهديد رجال الحكومة، أو نشر الحيرة، أو قلب الأوضاع.

وبالفعل، فقد قرأ بيانكو التقرير باهتمام، ثمّ رفع عينيه عن الأوراق، وحدّق فيّ، ثمّ قال إنّها مادّة بحقّ على غاية من الأهميّة. وهكذا أكّد لي مرّة أخرى أنّه عندما يبيع جاسوس شيئاً جديداً ليس عليه أن يفعل سوى رواية شيء يُمكن العثور عليه في أيّ سوق للكتب المستعملة.

ولكن بيانكو، حتى وإن كان قليل المعرفة بالأدب، كان يعرفني جيّداً، لأنه أضاف بهيئة ماكرة: - بطبيعة الحال كلّ هذا من اختلاقك.

فعارضته محتجّاً: - أرجوك يا سيّدي. ولكنّه أوقفني رافعاً يده: - لا بأس يا حضرة المحامي. حتى وإن كانت هذه الوثيقة من صنع يديك، فإنّها صالحة لي ولرؤسائي لنقدّمها على أنّها أصليّة. إنّك تعرف دون شكّ، لأنّ ذلك معروف لدى الجميع، أنّ وزيرنا كافور مقتنع بأنّه يتحكّم في نابوليون، لأنّه أرسل وراءه الكونتيسّة كاستيليوني، وهي امرأة حسناء، لا يُمكن نفي ذلك، والفرنسي لم ينتظر طويلاً للاستمتاع بمحاسنها. ولكن أدرك الجميع أنّ نابوليون لا يفعل كلّ ما يريد كافور، والكونتيسّة كاستيليوني أهدرت كلّ تلك المحاسن دون جدوى، لعلّها التذّت بذلك، ولكنّنا لا نستطيع أن نرهن أمور الدولة بشهوات سيّدة غير حميدة السيرة. من الهامّ جداً أن لا يثق جلالة ملكنا ببونابرت. بعد مدّة قصيرة،

وقد صار الآن متوقّعاً، غاريبالدي أو مادزيني أو الاثنان معا سينظّمان حملة في مملكة نابولي. وإذا حصل أن نجحت، فإنّ البيمونتي سيضطرّ للتدخّل حتى لا يترك تلك الأراضي بين أيدي جمهوريّين مجانين، وللقيام بذلك سيمرّ عبر شبه الجزيرة بأكملها عبر أقاليم البابا. لذا فإن تهيئة نفس ملكنا لعدم الثقة وللضغينة تجاه البابا، وللاستهانة بتوصيات نابوليون الثالث، سيكون شرطاً لازماً لبلوغ الهدف. كما يُمكن أن تكون فهمت، ياحضرة المحامي، فإنّ السياسة يقرّرها غالباً خدم الدولة المتواضعون مثلنا، أكثر ممّا يقرّرها أولئك الذين يظهرون في أعين الشعب على أنّهم الحاكمون...

كان ذلك التقرير أوّل أعمالي الجديّة، حيث لم أقتصر على كتابة وصيّة لفائدة أحد الخواصّ، بل أصنع نصّاً معقّداً سياسيّاً أساهم به ربما في سياسة مملكة سردينيا. أذكر أنّني كنت حقيقة فخوراً بذلك.

كنا في تلك الأثناء قد وصلنا إلى سنة 1860 المحتومة. محتومة بالنسبة إلى البلاد، لا بالنسبة إليّ على الأقلّ حتى ذلك الحين، حيث كنت أتتبّع الأحداث بتجرّد، مستمعاً إلى أقوال العاطلين في المقاهي. كان تخميني هو أنّه يجب عليّ أن أهتمّ دائماً أكثر بالأمور السياسيّة، وكنت أعتبر انّ الأخبار الأكثر تشويقاً التي يتعيّن عليّ صنعها هي تلك التي كان العامّة يتوقّعونها، وكنت أشكّ في تلك التي كان ينشرها الصحفيّون على أنّها مؤكّدة.

وهكذا علمت أنّ أهالي الدوقة الكبرى لتوسكانا، ودوقية مودينا، ودوقية بارما طردوا أمراءهم؛ وأنّ ما يسمّى بالقصادات الرسوليّة لإيميليا ولرومانيا خرجت عن طاعة البابا؛ وجميعهم يطالبون بالانضمام إلى مملكة سردينيا؛ في نيسان/أبريل 1860 اندلعت في بالرمو حركات تمرّديّة؛ وكتب مادزيني إلى زعماء الثورة أنّ غاريبالدي سيأتي لنجدتهم؛ ويتهامس الجميع بأنّ غاريبالدي يبحث عن الرجال، والسلاح والأموال للقيام بحملته وأن البحريّة البوربونيّة تجول في المياه الصقليّة تصدّيا لأيّة حملة عدوّة.

- ولكن، هل تعرف أن كافور يستعمل رجلاً من ثقاته، لافارينا، لمراقبة غاريبالدي؟

- ماذا تقول؟ لقد صادق الوزير على اكتتاب لشراء اثني عشر ألف بندقيّة، لغاريبالدي بالذات.

- على كلّ حال وقع تجميد التوزيع، ومن طرف من؟ من طرف الشرطة الملكيّة.

- مهلاً، يا هذا مهلاً. كافور يَسَّر التوزيع، لم يجمّده.

- صحيح. إلّا أنّه لم يوزّع البنادق الجميلة "إينفيلد" التي كان غاريبالدي ينتظرها، بل بنادق قديمة سيستعملها البطل على الأكثر لصيد القبّرات.

- إنّني أعلم من أناس القصر الملكي، لا تطلب مني أسماء، أنّ لافارينا أعطى غاريبالدي ثمانية آلاف ليرة وألف بندقيّة.

- صحيح، ولكن كان ينبغي أن تكون ثلاثة آلاف، وألفان احتفظ بهما لنفسه والي جَنَوة.

- لماذا جَنَوة؟

- لا تريد أن يذهب غاريبالدي إلى صقلية على ظهر بغل. لقد أمضى عقداً لشراء سفينتيْن، ستنطلقان من جَنَوة، أو من أحوازها. هل تعرف من ضمن له القرض؟ الماسونيّة، وبالتدقيق غرفة جَنَوة.

- عن أيّ غرفة تحكي، الماسونية من ابتداع اليسوعيّين.

- اسْكُت أنت. إنك ماسوني والجميع يعلم ذلك.

- لا علينا. إنّني أعرف من مصدر مؤكّد أن إمضاء العقد حضره (وهنا ينخفض صوت المتكلّم ليصبح همساً) المحامي ريكاردو والجنرال نيغري دي سان فرون...

- ومن يكونا هذان الشخصان؟

- أَلَا تعرف؟ (وينخفض الصوت جداً) إنّهما رئيسا إدارة الشؤون السريّة، أو بالأحرى إدارة المُراقبة السياسية العُليا، التي هي في الواقع مصلحة المعلومات لدى رئيس المجلس. .. إنّهما قوّة يُحْسَبُ لها حساب أكثر من الوزير الأول، هذه وظيفتهما، لا تحدثني عن الماسونية.

- أهذا رأيك؟ يُمكن الانتماء إلى الشؤون السريّة وإلى الماسونيّة، بل في ذلك نفع.

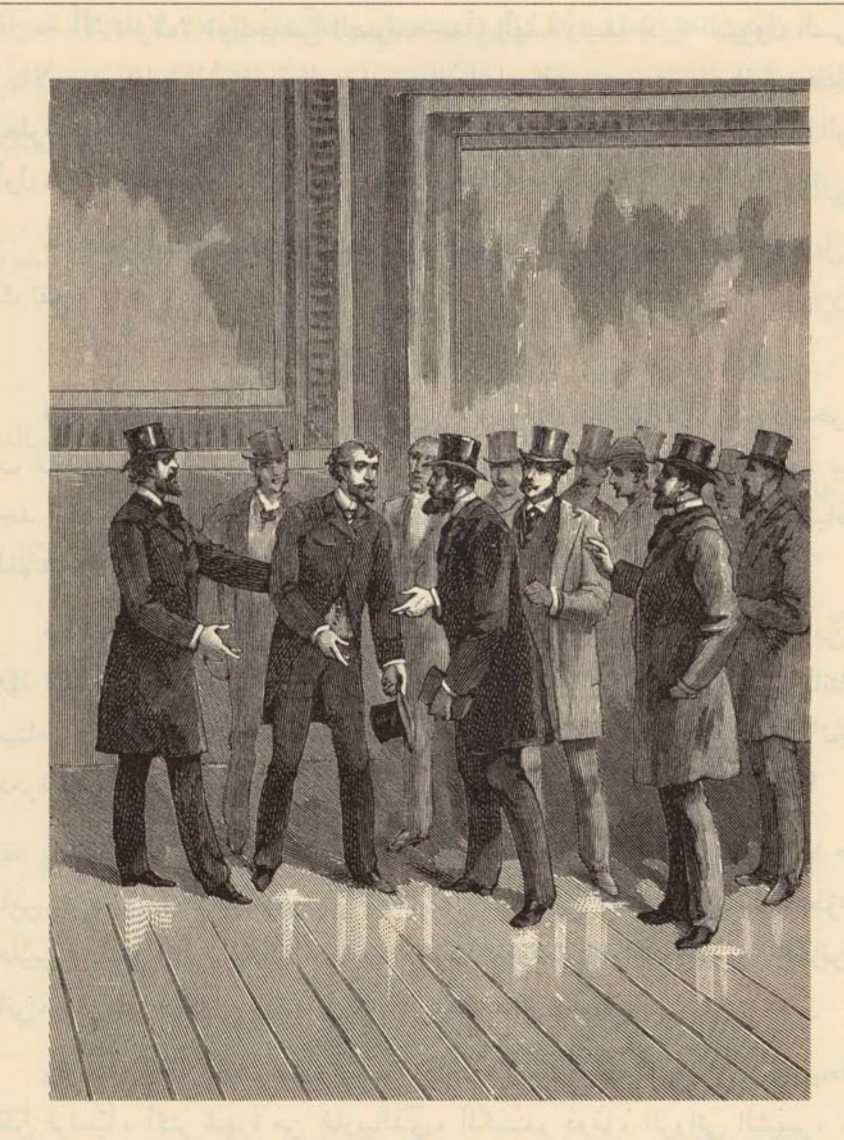
في الخامس من أيار/مايو شاع بين العموم أنّ غاريبالدي ركب البحر مع ألف متطوّع في اتجاه صقليّة. ولا يوجد بينهم أكثر من عشرة بيمونتيّين، بينما يوجد أيضاً بعض الأجانب، وعدد كبير من المحامين، والأطباء، والصيادلة، والمهندسون ومُلاك الأراضي، وعدد قليل من أبناء الشعب.

في الحادي عشر من أيار/مايو رَسَت مراكب غاريبالدي في مَارسالا. ومن أي وجهة كانت تنظر البحريّة البوربونيّة؟ يبدو أنّها خافت من سفينتيْن بريطانيّتيْن كانتا في الميناء، رسميّاً لحماية أملاك مواطنيهما، الذين كانت لهم في مَارسالا تجارة مزدهرة في الخمور الجيّدة، أم أنّ الإنكليز كانوا هناك لمساعدة غاريبالدي؟

باختصار، في ظرف بضعة أيّام شتّت الألف الغاريبالديّون (هكذا صار الناس يسمّونهم) البوربونيّين في كلاتافيمي، وتنامى عددهم بوصول متطوّعين محلّيّين، بينما أعلن غاريبالدي نفسه ديكتاتور صقليّة باسم فيتّوريو إيمانويلي الثاني، وفي نهاية شهر أيار/مايو تمّ الاستيلاء على بالرمو.

وفرنسا، ماذا كانت تقول فرنسا؟ كان يبدو أنّ فرنسا تتابع كلّ شيء بحذر، ولكنَّ فرنسيّاً، أكثر شهرة من غاريبالدي، ألكسندر دُومَا، الروائي الشهير، هُرِعَ بسفينته الخاصّة "إيمّا" [Emma] للانضمام إلى المحرِّرين، وهو الآخر محمّل بالسلاح والأموال.

وفي نابولي، سارع ملك الصقليّتيْن المسكين، فرانشسكو الثاني، من خشيته أن يكون الغاريبالديّون قد انتصروا في عديد الأماكن، بمنح العفو للمعتقلين



عن أيّ غرفة تحكي؟ الماسونيّة من ابتداع اليسوعيين.
- اسكت أنت. إنك ماسونيّ والجميع يعلم ذلك. (ص116)

السياسيّين وبالرجوع إلى دستور 1848 الذي كان قد ألغاه، ولكن فات الأوان وكانت الثورات الشعبيّة قد اندلعت حتى في عاصمته.

في الأيام الأولى من شهر حزيران/يونيو بالذات وصلتني رسالة من الكفاليري بيانكو يأمرني فيها أن أنتظر عند مُنتصف الليل من ذلك اليوم عربةً ستأخذني من أمام باب مكتبي. موعد غريب، ولكنني خمّنت أن الأمر هامّ وفي منتصف الليل، كنت أنتظر أمام مكتبي والعرق يسيل مني لشدّة الحرّ الذي كان في تلك الأيام يُعذّب تورينو. وهناك وصلت عربة مُغلقة والستائر مُسدلة وراء نوافذها، وفيها شخص لا أعرفه حملني إلى مكان ما - غير بعيد جداً عن وسط المدينة، حسب ما بدا لي، بل ساورني الظنّ أنّ العربة مرّت مرّتين أو ثلاثاً عبر نفس الشوارع.

توقفت العربة في ساحة مخرّبة لبناية قديمة شعبيّة، كلّها مخاطر بقضبانها الحديديّة المتآكلة. وهنا أدخلوني من باب صغير وبعد أن قطعت رواقاً طويلاً وصلت إلى باب صغير آخر يفتح على ممشى قصر من نوع مختلف تماماً، حيث يوجد سُلّم كبير فسيح. ولكن حتى هنالك لم نصعد بل صعدنا من سُلّم صغير في أقصى المَمْشَى، وبعد ذلك دخلنا قاعة جلوس جدرانها مغطّاة بالقماش الدِّمَقْسي، وصورة كبيرة للملك معلّقة على الحائط الخلفي، وطاولة فوقها بساط أخضر جلس حولها أربعة أشخاص، كان أحدهم الفارس بيانكو، الذي قدّمني إلى الآخرين. لم يمدّ أحد يده بل اكتفوا بإشارة من الرأس.

- تفضّل ياحضرة المحامي. السيّد الذي على يمينك هو الجنرال نيغري دي سان فرون، وهذا الذي على يسارك هو المحامي ريكّاردي والسيّد الذي يواجهك هو الأستاذ بوجيو، النائب لدائرة فالنسابو.

فهمتُ ممّا سمعته من أحاديث المقاهي أنّ الأوَّلَيْن هما رئيسا المراقبة السياسية العُليا اللذين (حسب ما يُقال) ساعدا الغاريبالديّين على شراء السفينتيْن الشهيرتيْن. أمّا الشخص الثالث، فقد كنتُ أعرف اسمه: كان صحفيّاً، وفي الثلاثين من عمره كان أستاذ حقوق، ونائباً، قريباً دائماً من كافور. كان وجهه

مستديراً جَمَّلَه شاربان نحيفان، يحمل نظارة أُحاديّة المنظار، غليظة مثل قاع كأس، وكان يبدو أَوْدَعَ كائنات الدُّنيا. ولكن الإجلال الذي كان الثلاثة الآخرون يعاملونه به يشهد بعظيم سلطته لدى الحكومة.

استهلّ نيغري دي سان فرون قائلاً: - حضرة المحامي، نحن نعرف مهارتك في جمع الأخبار، إضافة إلى حذرك وتستّرك في إدارتها، لذا نريد أن نعهد إليك بمهمّة على غاية من الدِّقّة في الأقاليم التي استولى عليها مؤخراً غاريبالدي. لا تنزعج، لا ننوي تكليفك بقيادة القمصان الحمر إلى الهجوم. ما نريده هو أن تجمع لنا أخباراً. ولكن لمعرفة ما هي المعلومات التي تهمّ الحكومة، من اللازم أن نطلعك على معلومات لا أتردّد في تعريفها بأنّها أسرار الدولة، لذا أنت تفهم مدى الحذر الذي ينبغي لك ملازمته، منذ هذا المساء إلى نهاية مهمّتك، وحتى بعد ذلك. وهذا أيضاً، كيف يُمكن القول، حفاظاً على سلامتك الشخصيّة، التي تهمّنا كثيراً بطبيعة الحال.

لا يُمكن أن يكون أكثر ديبلوماسيّة. سان فرون حريص جداً على سلامتي، ولذا يحذرني أنّه لو أذعت شيئاً ممّا سأسمع فإنّني سأضع سلامتي في خطر كبير. ولكن المقدّمة جعلتني أخمّن أنّ ما سأجنيه سيتناسب مع خطورة المهمّة. لذا، بإشارة تأييد مُجِلّة، شجّعت سان فرون لكي يتابع حديثه.

- لا أحد بإمكانه أن يفسّر لك الوضع أفضل من النائب بوجيو، وذلك أيضاً لأنّه يستقي معلوماته ورغباته من المصدر الأكثر سُمُوّاً، والذي هو قريب منه جداً. تفضل يا أستاذ...

- انظر يا حضرة المحامي، بدأ بوجيو قائلاً، لا يوجد أحد في البيمونتي معجب مثلي بذلك الرجل النزيه والسخيّ الجنرال غاريبالدي. ما فعله في صقليّة، مع حُفْنة من الشُّجعان، ضدّ أحد الجيوش الأفضل تسليحاً في أوروبا، لهو من قبيل الإعجاز.

كان يكفي ذلك التمهيد ليجعلني أُخمِّن أنّ بوجيو ألدّ أعداء غاريبالدي، ولكنني عقدت العزم على الاستماع في صمت.

- ومع ذلك، تابع بوجيو، حتى إذا كان صحيحاً أنّ غاريبالدي تولّى حكم

الأراضي التي استولى عليها باسم ملكنا فيتّوريو إيمانويلي الثاني، فإنّ تابعيه الأقربين لا يوافقونه تماماً على هذا القرار. فمادزيني يضغط عليه لكي تؤدي الثورة الكبرى في الجنوب إلى قيام الجمهورية. ونحن نعرف قوّة إقناع مادزيني هذا، الذي أقنع من إقامته الآمنة في بلد أجنبيّ، العديد من المتهوّرين بالذهاب لملاقاة الموت. ومن بين المساعدين الأكثر قُرْباً من الجنرال يوجد كريسبي ونيكوتيرا، وهما جمهوريّان في الدم، ويؤثّران سلبيّاً على رجل مثل الجنرال، غير قادر على إدراك مدى خبث الآخرين. حسناً، لنقل الأشياء بوضوح: بعد وقت قصير سيصل غاريبالدي إلى مضيق مسّينا ليمرّ من بعد إلى كلابريا. فالرجل استراتيجي متيقّظ، ومتطوّعوه مفعمون حماسةً، والعديد من أهالي الجزيرة انضمّوا إليهم، ولا نعرف إن كان بدافع الحسّ الوطني أم بوازع انتهازي، والعديد من الجنرالات البوربونيّين أظهروا عدم كفاءة في القيادة تجعلنا نخمّن أنّ مكافآت سريّة أضعفت خصالهم العسكريّة. ليس من شأننا أن نقول لك من هو مُمَوِّل تلك المكافآت. ليست دون شكّ حكومتنا. لقد صارت صقليّة الآن تحت سلطة غاريبالدي، وإذا سقطت أيضاً جهات كلابريا ونابولي، فإنّ الجنرال سيتوفّر، بدعم من الجمهوريّين المادزينيّين، على موارد تسعة ملايين من الأهالي، وبما أنّه يحظى بهيبة شعبيّة عارمة، فإنّه سيصبح أقوى من مَلِكِنا. لتفادي هذه الكارثة لا يملك عاهلنا إلّا حلّاً واحداً: أن ينزل بجيشنا نحو الجنوب، ويمرّ في طريق، دون شكّ غير خالية من المخاطر، عبر الولايات البابوية، والوصول إلى نابولي قبل أن يصل إليها غاريبالدي. واضح؟

- واضح. ولكنني لا أرى كيف...

- مهلاً. إنّ الحملة الغاريبالديّة مُستلهمة من عاطفة حبّ الوطن، ولكن للتدخّل بقصد تنظيمها، أو بالأحرى، إخمادها، يجب أن نظهر من خلال إشاعات واسعة الانتشار ومقالات في الصحف، أنّ شخصيّات غامضة وفاسدة قد لوّثتها، ممّا يجعل التدخل البيمونتي ضرورياً.

- باختصار، قال المحامي ريكّاردي الذي لازم الصمت إلى حدّ الآن، لا يجب هدم الثقة في الحملة الغاريبالدية، بل إضعاف الثقة في الإدارة الثوريّة التي

تبعتها. الكونت دي كافور سيرسل إلى صقليّة لافارينا، وهو وطنيّ صقليّ عظيم عانى من المنفى، ولذا فهو يحظى بثقة غاريبالدي، ولكنه في الوقت نفسه ومنذ بضع سنوات شريك لحكومتنا موثوق به. وقد أسّس جمعيّة قوميّة إيطالية تؤيّد انضمام مملكة الصقليّتيْن إلى إيطاليا موحّدة. مهمّة لافارينا هي التثبّت من حقيقة بعض الإشاعات المثيرة للانشغال والتي قد بلغتنا. يبدو أن غاريبالدي أرسى، عن حسن نية وعدم كفاءة، هنالك حكومة هي بمثابة نفي أيّ حكومة. بطبيعة الحال لا يقدر الجنرال على مُراقبة كلّ شيء، ونزاهته ليست محلّ نقاش، ولكن في أيدي مَنْ يترك الشأن العمومي؟ ينتظر كافور من لافارينا تقريراً كاملاً عن كلّ عمليّة اختلاس محتملة، ولكن المادزينيّين سيفعلون ما في وسعهم لإبقائه معزولاً عن الشعب، أي عن تلك الطبقات الشعبيّة التي يتيسّر فيها أكثر من سواها جمع أخبار حيّة عن الفضائح.

وتدخّل بوجيو قائلاً: - وعلى كلّ حال فإنّ إدارتنا تثق إلى حدّ ما بلافارينا. ولا أقول هذا بدافع النقد، ولكن هو أيضاً صقليّ، وهم أيضاً أناس طيّبون، ولكنهم مختلفون عنّا، أليس كذلك؟ ستكون لديك رسالة تقديم إلى لافارينا، وتستطيع أن تعوّل عليه، ولكنّك ستتحرّك بحريّة أكثر، ولا يجب عليك أن تجمّع فقط معطيات موثوقة، بل (وكما سبق أن فعلت مرّات أخرى) وحتى أن تصنعها إن أعوزتنا.

- وبأي شكل وتحت أيّ ثوب سأذهب هناك؟

- كما هو معتاد، فكّرنا في كلّ شيء، قال بيانكو مبتسماً. فالسيّد دُومَا، الذي تعرفه دون شكّ باعتباره روائيّا ذائع الصيت، بصدد التوجّه نحو بالرمو للالتحاق بغاريبالدي على متن سفينة من مِلكه الخاص، اسمها "إيمّا" Emma. لم نفهم جيّداً ماذا سيفعل هناك، لعلّه يريد فقط سرد وقائع الحملة الغاريبالدية بطريقة روائيّة، أو ربّما هو مزهوّ يريد إظهار صداقته للبطل. مهما كان الأمر، فإنّنا نعرف أنّه في غضون يوميْن تقريباً سيتوقّف في سردينيا، في خليج أرزاكينا، أي في ديارنا. سترحل أنت بعد غد صباحاً عند الفجر إلى جَنَوة وستركب إحدى سفننا التي ستحملك إلى سردينيا، حيث ستلتحق بدُوما، ومعك رسالة اعتماد

ممضاة من طرف شخص يدين له دُومَا بالكثير ويثق به. ستتقدّم باعتبارك مراسل الصحيفة التي يديرها الأستاذ بوجيو، وَقَعَ إرسالُك إلى صقليّة لتوقيف عمليّة دُوما وكذلك حملة غاريبالدي. وبهذه الطريقة ستدخل ضمن مخالطي هذا الروائي وستنزل معه في بالرمو. والوصول إلى بالرمو صحبة دُومَا سيضفي عليك هيبة وسيجعلك أبعد ما يكون عن الشُّبْهة لن تتوفّر عليهما لو وصلت وحدك. وهناك بمقدورك أن تختلط بالمتطوّعين وفي الآن نفسه ستكون على اتّصال بالسكان المحلّيين. ورسالة أخرى تقدّمك على أنّك شخصيّة معروفة ومحلّ تقدير ستعتمدك لدى ضابط غاريبالديّ شابّ، الكابيتان نييفو، الذي يبدو أنّ غاريبالدي عيّنه نائب المقتصد العام. تصوّر أنّه منذ انطلاق السفينتيْن لومباردو و بيمونتي، اللتيْن حملتا غاريبالدي إلى مَارسالا، عهدوا إليه بأربعة عشر ألفاً من جُملة تسعين ألف ليرة التي تمثّل خزينة الحملة. لا نعرف جيّداً لماذا كلّفوا نييفو بالذات بشؤون إداريّة، وهو الذي، حسب ما يقال، رجل أدب، ولكن يبدو أنّه ذائع الصيت باعتباره شخصاً على درجة عالية من النَّزاهة. سيكون سعيداً بالتحادث مع أحد يكتب في الصحف ويقدّم نفسه على أنه صديق لدُومَا الشهير.

ومرّت بقيّة السهرة في تنظيم النّقاط التقنية للعمليّة، والأَجْر. في اليوم الموالي أغلقتُ الدكان لفترة غير محدّدة، ثمّ جمعتُ بعض الأشياء الضروريّة، وبنوع من الإلهام، أخذت معي الجُبّة التي تركها الأب برغماسكي في بيت جدّي والتي أنقذتها قبل أن يستولى الدائنون على كلّ شيء.

# 7
## مع الأَلْف

29 آذار/مارس 1897

لا أعرف إن كنت سأقدر على تذكّر كلّ الأحداث، وخصوصاً جميع الأحاسيس التي عشتها في رحلتي الصقليّة بين يونيو 1860 ومارس 1861، لو أنني، ليلة أمس، بينما كنت أفتّش بين أوراق قديمة في قاع صندوق بالدُّكان، لم أعثر على حزمة من الأوراق الملوية، كتبت فيها عن تلك الأحداث مسوّدة، ربما لأجعل منها، بعد ذلك، تقريراً مفصّلاً أرفعه إلى وُكلائي التورينيّين. إنها جملة من الملاحظات المنقوصة، وسجّلت بطبيعة الحال فقط ما كنت أعتبره هامّاً، أو ما كنت أريده أن يكون هامّاً. ماذا تركت مغلّفاً بالصمت، لست أدري.

* * *

منذ السادس من حزيران/يونيو وأنا على متن "إيمّا". تلقّاني دُومَا بكثير من الترحاب. كان يلبس معطفاً من القماش الخفيف بُنِّيَّ اللون، وبدا على حقيقته هجيناً أصيلاً. البشرة زيتونيّة، والشفتان بارزتان، لحيمتان، شهوانيّتان، وكَوْمة من الشعر المجعّد مثل هَمَجي إفريقي. فيما عدا ذلك، كانت نظرته حيّة وساخرة، وابتسامته وديعة، وكانت استدارة سُمْنته تنمّ عن عاشق للحياة.. تذكّرت إحدى الأساطير التي تَحُوم حوله: ذات يوم، في باريس، لمّح أحدهم في حضرته بخُبث إلى تلك النظريّات الحديثة جداً التي ترى ارتباطاً بين الإنسان البدائي والأجناس السفليّة، فأجابه: "نعم ياسيّدي، أنا أتحدر من القرد. ولكنك أنت يا سيدي، تصعد إليه".

قدّمني إلى القبطان بوغرون، وإلى مساعده بريمون، والنُّوتي بوديماتاس (وهو شخص مغطّى بشعر كثيف كأنه خنزير، قد غزا الشعر واللحية كلّ نقطة من وجهه، بحيث يبدو وكأنه لا يحلق إلّا بياض عينيه) ولا سيما الطبّاخ جون بوابي، يبدو أنّ الطبّاخ من وجهة نظر دُومَا أهمّ شخصيّة من بين المجموعة. كان دُومَا يسافر مع حاشية، مثل كبار أسياد الزمن الغابر.

كان بوديماتاس يُعلمني، وهو يصاحبني إلى مقصورتي، أنّ طبق بوابي الخصوصي هو الهليون بالجلبّان *asperges aux petits pois*، وهو طبق غريب لأنّ الجلبّان في تلك الأكلة غير موجود.

اجتزنا جزيرة كابريرا، حيث كان غاريبالدي يختفي عندما لا يقاتل.

- ستقابل عن قريب الجنرال، قال لي دُومَا، وبمجرد ذكر اسمه كان وجهه يتألّق من الإعجاب. - بلحيته الشقراء وعينيه الزرقاوين يبدو كأنه عيسى المسيح في لوحة "العشاء الأخير" التي رسمها ليوناردو. حركاته كلّها أناقة؛ وصوته ذو رقّة لامتناهية. يبدو رجلاً هادئاً، ولكن يكفي أن تنطق أمامه بكلمتي "**إيطاليا**" و"**استقلال**" وستراه يثور مثل بركان، ينفث ناراً ويسيل حِمَماً. في القتال لا تراه أبداً مسلّحاً؛ في الوقت المناسب يستلّ أوّل سيف في متناول يده، يُلقي بالعباءة وينقضّ على العدوّ. عيبه الوحيد: يظنّ نفسه بطلاً في لُعبة الكرة الحديدية.

بعد ذلك بقليل، حدثت جلبة كبيرة على متن السفينة. كان البحّارة بصدد صيد سُلَحْفاة بحريّة عظيمة، كتلك الموجودة عادة في بحار كورسيكا. كان دُومَا مبتهجاً.

- تستوجب عملاً كثيراً. قبل كلّ شيء يجب قلبها على الظهر، وهي ستمدّ، بسذاجة، عنقها فيستغلّون الفرصة لقطع رأسها بضربة واحدة؛ ثم يعلّقونها من ذيلها ويتركون دمها يسيل طيلة اثنتي عشرة ساعة. ثم يقلبونها من جديد على ظهرها، ويدخلون سكيناً حادّاً بين حراشف البطن وحراشف الظهر، مع الحذر ألّا يثقب المرارة وإلّا أصبحت غير صالحة للأكل، ثمّ تُستخرج منها الأمعاء ولا يُحتفظ إلّا بالكبد، الكتلة الشفّافة التي تحتويها لا تصلح لشيء ولكن توجد قطعتان من اللحم تبدوان لحمتيْ عِجْل سواء للونهما الأبيض أو لطعمهما. وأخيراً تُنزع الأغلفة، والرقبة والزعانف، وتقطع إلى قطع من اللحم في حجم جوزة،



... ستقابل عن قريب الجنرال، قال لي دُومَا، ومجرد ذكر اسمه كان وجهه يتألّق من الإعجاب - بلحيته الشقراء وعينيه الزرقاويْن يبدو كأنه المسيح في لوحة "العشاء الأخير" التي رسمها ليوناردو... (ص126)

وتُنقع، ثم تُطبخ في حساء جيّد بالفلفل، وعود القرنفل والجزر والسعتر والرُّند، ويُطبخ الكلّ طيلة ثلاث أو أربع ساعات على نار هادئة. وتُهيّأ أثناءها شرائحُ من الدجاج مفوّحة بالبقدونس والثوم المعمّر والأنشوفة، وتُطبخ في مَرَقٍ يغلي، ثمّ تُخْرَج من المَرَق ويُصبّ فوقها حساء السلحفاة، بعد أن تُضَافَ إليه ثلاث أو أربع كؤوس من الماديرا. وإذا لم يكن هناك ماديرا بالإمكان تعويضه بالمَارسالا مع كأس صغيرة من العرق أو من الروم. ولكن إذا لم يكن هناك من سبيل. سنتذوّق حساءنا مساء غد.

شعرت بالودّ تجاه رجل مثله يعشق الطبخ الجيّد، حتى وإن كان من أصل مشكوك فيه.

* * *

(13 حزيران/يونيو) منذ أوّل الأمس رَسَت "إيمّا" في بالرمو. كانت المدينة تغلي بالقمصان الحُمْر يغدون ويروحون، شبيهة بحقل من شقائق النُّعْمان. ومع ذلك فقد كان العديد من المتطوّعين الغاريبالديّين لابسين ومسلّحين كما صادف، البعض منهم كانوا يحملون فقط قبّعة بالية عليها ريشة فوق أثوابهم المدنيّة. الحال هو أنّه لم يعد يوجد من القُماش الأحمر إلّا القليل، وقميص بذلك اللون كان باهظ الثمن، ربما فقط في متناول الكثيرين من أبناء الأرستقراطية المحليّة، الذين لم ينضمّوا إلى الغاريبالديّين إلّا بعد المعارك الأولى والأشدّ دمويّة، أكثر من كونها في متناول المتطوّعين الذين خرجوا من جَنَوة.

كان الفارس بيانكو قد أعطاني ما يكفي من المال للعيش قدر الإمكان في صقليّة واقتنيتُ لنفسي زِيّاً مستعملاً ما يكفي لكي لا أظهر مثل غندور وصل لحينه هناك، مع القميص الذي صار لونه ورديّاً من كثرة غسله، والبنطلون في حالة رثّة؛ ولكن القميص وحده كلّفني خمسة عشر فرنكاً، وبالمبلغ نفسه كان بإمكاني في تورينو أن أقتني أربعة.

هنا كلّ شيء يُباع بأسعار فاحشة، البيضة تساوي أربعة فلوس، ورطل الخبز ستة فلوس، ورطل اللحم ثلاثين فلساً. لا أدري إن كان السبب في ذلك

أنّ الجزيرة فقيرة، والمحتلّون لها بصدد التهام جميع مواردها القليلة، أو لأنّ البلارميّين قرّروا أنّ الغاريبالديّين نِعْمة سقطت عليهم من السماء، وهم بصدد نهشهم كما ينبغي.

كان اللقاء بين الرجلين العظيميْن، في قصر مجلس الشيوخ ("مثل بلديّة باريس في 1830"، ردَّد دوماً قائلاً بحماس)، مسرحيّاً للغاية. ولست أدري مَنْ كان منهما متكلِّفاً أكثر.

- عزيزي دُومَا، كم اشتقت إليك! صاح الجنرال بينما كان دُومَا يقدّم له التهاني: - لا، ليس لي، بل لأولئك الرجال. لقد كانوا عمالقة. ثمّ التفت إلى أتباعه: - وفّروا للسيّد دُومَا أجمل جناح من القصر. لا شيء يكفي لمكافأة رجل وصلتني منه رسائل تخبر بوصول ألفين وخمسمائة رجل، عشرة آلاف بندقيّة وسفينتيْن.

كنت أنظر إلى البطل بالرَّيْبة التي، كنت أشعر بها بعد موت والدي، نحو الأبطال. كان دُومَا قد وصفه لي كأنّه أبولّو، بينما كان يبدو لي ذا قامة متواضعة، ليس أشقر بل شبه أشقر، ساقاه قصيرتان ومُعْوَجّتان، وحسب مشيته يبدو أنّه يعاني من الرثية. شاهدته يمتطي جواده بشيء من الصعوبة، يعينه في ذلك رجاله.

في آخر العَشِيّة اجتمع أمام القصر الملكي حَشْدٌ من الناس يهتفون "يحيا دُومَا، تحيا إيطاليا". كان الكاتب يبدو بوضوح مزهوّاً بذلك ولكن بدا لي أنّ كلّ شيء نظمه غاريبالدي مسبقاً، فقد كان يعرف غرور صاحبه وكان في حاجة إلى البنادق الموعودة. اختلطت بالجموع وحاولت فهم ما يقولون في لهجتهم غير المفهومة التي تشبه لغة الأفارقة، ولكن لم يفتني حوار قصير: كان واحد يسأل الآخر من يكون ذلك المسمّى دُومَا الذين كانوا يهتفون بحياته، فأجابه الآخر بأنه أمير شركسي يعوم في الذهب جاء ليضع أمواله في خدمة غاريبالدي.

وقدّم لي دُومَا البعض من رجال الجنرال، وسحرتني النظرة النسريّة لقائمقام

غاريبالدي، نينو بيكسيو الرهيب، ومن شدة الارتباك الذي أحدثته فيّ ابتعدت. وَجَبَ عليّ أن أبحث عن فندق يمكّنني من التحرّك دون أن ألفت الانتباه.

الآن صرت في نظر الصقليّين واحداً من الغاريبالديّين، وفي نظر جيش الحملة مخبراً صحفيّاً حرّاً.

* * *

رأيت من جديد نينو بيكسيو مارّاً على جواده عبر المدينة. يُقال إنّه هو الرئيس العسكري الحقيقي للحملة. غاريبالدي شارد الذهن أحياناً، يفكّر دائماً فيما سيفعل في اليوم التالي، رائع في الهجمات ويجرّ وراءه من يتبعه، ولكن بيكسيو يفكّر في الحاضر ويصفّف الفيالق. بينما كان مارّاً سمعت غاريبالديّاً قريباً مني يقول لزميله: - لاحظ نظرته، إنّها تصعق كلّ شيء حوله. وانظر خطّ وجهه الجانبي إنّه يقطع كحدّ السيف. بيكسيو. الاسم نفسه يوحي بومضة برق.

من الواضح أنّ غاريبالدي وضباطه سحروا هؤلاء المتطوّعين. ليس حسناً. الرؤساء الذين لهم سحر هائل ينبغي قطع رؤوسهم في الحال، ضماناً لخير ولأمن الممالك. رؤسائي في تورينو على صواب: لا ينبغي لأسطورة غاريبالدي أن تنتشر حتى في الشمال، وإلّا ستلبس كلّ الممالك الصغيرة هناك الأقمصة الحمراء، وستكون الجمهوريّة.

* * *

(15 حزيران/يونيو) يصعب الحديث مع الأهالي المحلّيّين. الشيء الوحيد الواضح هو أنّهم يحاولون استغلال كلّ من يبدو أنه بيمونتي، كما يقولون، حتى وإن كان البيمونتيّون من بين المتطوّعين أقليّة. وجدت حانة يُمكنني أن أتعشّى فيها بثمن بَخْس وأن أتذوّق البعض من الأكلات ذات الأسماء المستحيلة النطق. اختنقت بالخبز المحشوّ بالطحال، ولكن مع خمر تلك الجهات الجيّد يُمكن ابتلاع أكثر من قطعة. أثناء العشاء تعرّفت على متطوّعَيْن، واحد يُدعى أبّا، من

ليغوريا ابن عشرين أو يزيد بقليل، والآخر يُدعى باندي، وهو صحفيّ ليفورنيّ تقريباً من سنّي. ومن خلال روايتيهما أعدت تركيب وصول الغاريبالديّين، ومعاركهم الأولى.

- آه، لو تعرف، يا عزيزي سيمونيني، كان يقول لي أبّا. كان النزول في مَارسالا مثل سيرك. إذن. أمامنا سترومبولي و كابري ، السفينتان البوربونيّتان، وإذا بسفينتنا لومباردو تصطدم بصخرة فقال نينو بيكسيو من الأفضل أن يستولوا عليها بثقب في بطنها على أن تبقى صحيحة سالمة، بل علينا أن نُغْرِق أيضاً السفينة الأخرى بيمونتي. يا للتبذير، قلت أنا، ولكن بيكسيو كان على صواب، لا يجب إهداء سفينتَيْن إلى البوربونيّين وبعد هذا كلّه هكذا يفعل القادة العظام. بعد الرسوّ، أحرق المراكب وإلى الأمام، لا رجوع إلى الوراء. بدأ البيمونتي في الإنزال، وسترومبولي بدأ القصف، ولكن الطلقة أخطأت المرمى. وقائد سفينة إنكليزيّة راسية في الميناء صعد على متن سترومبولي وقال للقبطان إنّه يوجد رعايا إنكليز على اليابسة وسيعتبره مسؤولاً عن كلّ حادث دولي. أنت تعرف أنّ الإنكليز في مَارسالا يملكون مصالح اقتصادية كبيرة في قطاع الخمور. فأجاب القائد البوربوني بأنّ الحوادث الدولية لا تهمّه وأمر بالقصف، ولكن المدفع أخطأ مرّة أخرى الهدف. وعندما تمكّنت أخيراً السفينتان البوبونيّتان من ضرب بعض المواقع لم تُحْدِثا أيّ ضرر ما عدا قطع كلب إلى شطريْن.

- إذن، الإنكليز ساعدوكم؟

- لنقل إنّهم وضعوا أنفسهم ببساطة في الوسط بطريقة أحرجت البوربونيّين.

- ولكن أيّ علاقة كانت للجنرال مع الإنكليز؟

قام أبّا بحركة من يقول إنّ الجنود مثله يطيعون الأوامر ولا يُلقون أسئلة. - اسمع بالأحرى هذا، لأنّه شيء رائع. عند وصوله إلى المدينة، أمر الجنرال بالاستيلاء على مركز التلغراف وبقطع خطوطه. فأرسلوا مُلازماً أوّل مع بعض الرجال، وعندما رآهم المسؤول عن التلغراف قادمَيْن ولّى هارباً. دخل الملازم إلى مكتب التلغراف فوجد نسخة من إرسالية بُعثت لحينها إلى القائد العسكري

بتراباني: "باخرتان تحملان الراية السردينيّة وصلتا إلى الميناء وأنزلتا رجالاً". وفي تلك اللحظة بالذات جاء الجواب. وأحد المتطوّعين، الذي كان موظفاً في التلغراف بجَنَوة، ترجمه: "كم رجلاً، ولماذا نزلوا؟" فأمره الملازم بالردّ الموالي: "أرجو المعذرة، لقد أخطأت، إنهما سفينتان تجاريّتان قادمتان من جيرجنتي بحمولة من الكبريت". فكان ردّ تراباني: "إنّك مغفّل". قَبِلَ الضابط السُبّة بجذل وأمر بقطع الخطوط ثم غادر المكان.

- لنقل الحقيقة، قاطعه باردي، لم يكن الإنزال كلّه سيركاً مثلما قال أبّا، عندما اقتربنا من السفن البوربونيّة بدأت أخيراً تصلنا القنابل الأولى ورصاص الرشاشة. كنّا نتسلّى، هذا صحيح. وسط الطلقات ظهر راهب شيخ بدين، وبقبّعته في يده رحَّبَ بقدومنا. فصاح أحدهم: "ماذا تفعل. كيف بدا لك أن تضايقنا، أيها الراهب؟" ولكن غاريبالدي رفع يده وسأله: "أيها الراهب، عَمَّ تبحث؟ ألا تسمع صفير الطلقات؟" فأجاب الراهب: "الرصاص لا يخيفني؛ إنّني خادم القديس فرانشسكو الفقير، وابن إيطاليا". فسأله الجنرال: "أنت إذن مع الشعب؟" فأجاب الراهب "مع الشعب، مع الشعب". عندئذٍ أدركنا أنّ مَارسالا في حوزتنا. وأرسل الجنرال كريسبي إلى مجمّع الضرائب باسم فيتّوريو إيمانويلي ملك إيطاليا لتسلّم كلّ ما هو موجود في الخزينة وتسليمه إلى الأمين أتشاربي، مقابل وصل بالدفع. لم تكن المملكة الإيطالية موجودة بعد، ولكن الوصل الذي أمضاه كريسبي لمجمّع الضرائب هو الوثيقة الأولى التي يُدعى فيها فيتّوريو إيمانويلي ملك إيطاليا.

فاغتنمت الفرصة وسألته: - أليس الأمين هو النقيب نييفو؟

فدقّق أبّا: - نييفو هو مساعد الأمين. لا يزال شابّاً وهو مع ذلك كاتب عظيم. شاعر حقيقي. تشعّ العبقريّة من جبينه. يسير دائماً وحيداً، ينظر بعيداً، كما لو أراد بنظرته أن يوسّع الأفق. أظن أن غاريبالدي على وشك أن يسمّيه كولونيلاً.

وأضاف باندي متحمّساً: - في كلاتافيمي بقي في الخلف يوزّع الخبز عندما دعاه بودزيتي إلى المعركة، وإذا به يرمي بنفسه في المعمعة طائراً نحو

العدوّ مثل نسر أسود كبير، فاتحاً لِفْقَيْ عباءته، التي خرقتها على الفور رصاصة.

هذا كافٍ جداً ليجعل نيفو هذا في نظري شخصاً ثقيلاً. قد يكون تِرْبي في العمر وها هو يظنّ نفسه شخصيّة شهيرة. الشاعر المقاتل. من الطبيعي أن تخترق الرصاصة عباءتك عندما تفتحها أمامهم، طريقة جميلة للتباهي بثقب ليس في صدرك...

حينذاك بدأ أبّا وباندي يتحادثان عن معركة كلاتافيمي، انتصار من قبيل الإعجاز، ألف متطوّع من جهة وخمسة وعشرون ألفَ بوربونيّ مدجّجون بالسلاح من جهة أخرى.

- غاريبالدي على رأسهم، كان يقول أبّا، فوق جواد أدهم يليق بالوزير الكبير، بِسَرْج جميل وركابَيْن محفورَيْن، والقميص الأحمر وقبّعة ذات زخرفة مجريّة. في ساليمي التحق بنا المتطوّعون المحليّون. جاؤوا من كلّ مكان، على الخيول، على الأقدام، بالمئات، جحافل الشيطان، سكّان الجبال مدجّجون بالسلاح، وجوه مجرمين تقشعرّ لها الأبدان، بنظرات ثاقبة تبدو كفوّهات المسدّسات. ولكن يقودهم نبلاء، ملّاكون في هذه الجهات. ساليمي مدينة متّسخة، شوارعها تشبه مَصَبّات مياه قذرة، ولكن الرُّهْبان يملكون أديرة جميلة أقمنا فيها. وصلتنا في تلك الأيام أخبار متضاربة عن العدوّ: أربعةُ آلاف، كلا، عشرة آلاف، بل عشرون ألفاً، بالخيول والمدافع، تحصّنوا هنا، لا، هناك، يكرّون، يفرّون... وفجأة، ظهر العدوّ. قد يكونون خمسة آلاف، ماذا تقول، يعارض البعض، إنّهم عشرة آلاف. بيننا وبينهم سهل غير مزروع. الصيّادون النابوليتانيّون ينزلون من المرتفعات. بهدوء، وبثقة، من الواضح أنّهم متدرّبون تدريباً جيّداً، ليسوا مبتدئين مثلنا. وأبواقهم، يا لأصواتها الكئيبة. الطلقة الأولى لم تأتِ قبل الواحدة والنصف بعد الزوال. أطلقها الصيّادون النابوليتانيّون الذين نزلوا وسط صفوف الصبّارة. - لا تردّوا، لا تردّوا على الطلقة، صاح بنا قادتنا؛ ولكن رصاص الصيّادين كان يتطاير فوق رؤوسنا بغزارة لا يُمكن معها أن نبقى جامدين. طلقة أُولى، ثمّ أُخرى، ثمّ أطلق بوق الجنرال صفير النوبة، وخطوة الجري. كان الرصاص يتساقط مثل البَرَد، وتغطى الجبلُ كلُّه بدخان من المدافع

التي كانت تقصفنا، اجتزنا السهل واخترقنا الخطّ الأوّل من صفوف العدوّ، التفتُّ ورأيت غاريبالدي على قمّة الهضبة، راجلاً والسيف في غمده على كتفه اليمنى، يتابع بنظراته كلّ العمليّة. هرع إليه بيكسيو راكضاً ليحميه بجواده، وصاح به: "جنرال، هكذا تريد أن تموت؟" فأجابه: "وهل توجد طريقة أفضل للموت من أجل بلادي؟" وتقدّم دون أن يبالي بالرصاص المُتساقط كالمطر. في تلك اللحظة خشيت أن يكون الجنرال فقد الأمل في الانتصار وحاول أن يموت. ولكن دوّى على الفور صوت أحد مدافعنا من الطريق. وبدا لنا أن ألف يد تمتدّ لمساعدتنا. إلى الأمام، إلى الأمام، إلى الأمام. لم نَعُدْ نسمع إلّا صوت النَّفِير، الذي لم ينقطع عن الأمر بالركض. اجتزنا بالحِراب السطح الأوّل ثم الثاني ثم الثالث من المرتفع، والفيالق البوربونيّة تتراجع دائماً نحو الأعلى، تتجمَّع وتبدو أكثر قوّة. كان يبدو من المستحيل مواجهتهم، تجمعُوا كلهم فوق القمّة، ونحن حول الحافة، متعبين، مقهورين. ثمّ حدثت لحظة توقّف، هم في الأعلى ونحن جميعاً على الأرض. بعض الطلقات هنا وهناك، والبوربونيّون يدحرجون الصخور ويرموننا بالحجارة. يُقال إن إحداها أصابت الجنرال. رأيت بين الصبّارة شابّاً جميل المُحَيّا، قد جُرِحَ جرحاً قاتلاً، يسانده اثنين من رفاقه. كان يرجو رفاقه أن يكونوا رحيمين بالنابوليتانيّين، لأنّهم هم أيضاً إيطاليّون. المُنْحَدَر كلّه مليء بالقتلى، ولكنك لا تسمع أيّ شكوى. من القمّة كان النابوليتانيّون يهتفون من حين لآخر "يحيا الملك". في تلك الأثناء وصلتنا تعزيزات. أذكر أنّه في اللحظة ذاتها وصلتَ أنت يا باندي، مثخناً بالجروح وبالخصوص رصاصة دخلت فوق الحلمة اليسرى، وظننتُ أنّك ستموت في ظرف نصف ساعة. وعلى عكس ذلك، عندما دوَّى بوق الهجوم الأخير، ها إنّك أمام الجميع، كم روحاً لديك؟

- تفاهات، قال باندي، كانت خُدُوشاً.

- والفرانشسكانيّون الذين كانوا يقاتلون معنا؟ كان هناك واحد، هزيل وقذر، كان يشحن البوق بالقذائف والحجارة، ثمّ يتسلّق المرتفع ويفرغها كالرشاش. ورأيت آخر، مجروحاً في فخذه، ينتزع الرصاصة من لحمه ويعود إلى القتال.

ثم شرع أبّا يسرد وقائع معركة جسر الأميرال: - وحقّ الربّ، سيمونيني،




... في جسر الأميرال، على الطريق، على الأقواس، تحت الجسر وفي الحقول، مجزرة بالحراب... (ص134)

كان يوماً مشهوداً جديراً بقصيد هوميروس. وصل لمساعدتنا- ونحن على أبواب بالرمو- فريق من المتمرّدين المحليّين. وصاح أحدهم: "ربّاه"، ثمّ دار على نفسه، وخَطَى ثلاث أو أربع خطوات مترنّحاً كالسكران، ثم سقط في الخندق، تحت شجرتَيْ حَوْر قريباً من صيّاد نابوليتانيّ مقتول؛ لعلّه الخفير الأوّل الذي فاجأه رجالنا. ثمّ سمعت مرّة أخرى ذلك الجنوي، حيث كان الرصاص يتساقط مثل البَرَد، وهو يصيح باللهجة: "بيلاندي، ماذا يحدث هنا؟" وإذا برصاصة تصيبه في الجبين ويسقط مُنْفَلِق الدماغ. في جسر الأميرال، على الطريق، على الأقواس، تحت الجسر وفي الحقول، مجزرة بالحِراب. عند الفجر استولينا على الجسر ولكن أَوْقَفَنا طلق ناري كثيف قادمٌ من فيلق من المُشاة مختفين وراء حائط، بينما مجموعة صغيرة من الخيّالة تهجم علينا من اليسار، ولكننا دحضناها نحو الحقول. اجتزنا الجسر، وتوغّلنا في ملتقى طرق بورتا تارميني، ولكنّنا وجدنا أنفسنا تحت وابل من القصف المدفعي مصدرُه سفينةٌ راسيةٌ في الميناء، وتحت رصاص حاجز أقيم أمامنا. لا يهمّ. جرس الكنيسة يدقّ دون انقطاع. توغّلنا في شوارع المدينة وفجأة، يا لها من رؤيا. ثلاث فتيات بأثواب ناصعة، على غاية من الجمال، كنّ متشبّثات بحديد النافذة بأيادي مثل الزنابق، وينظرن إلينا في صمت. كنّ يبدينَ كالملائكة التي نشاهدها على الرسوم الحائطية في الكنائس. من أنتم، سألنَنَا، وأجبنا نحن إيطاليّون، وسألناهنّ من أنتنّ فأجبننا أنّهنَّ راهبات مُبتدئات. يا للمسكينات، قُلنا، سنكون سعيدين لو حرَّرناهنّ من ذلك السجن وأدخلنا عليهنّ الفرحة، فصِحْنَ "تحيا القديسة روزاليا" فأجبناهنّ "تحيا إيطاليا" وإذا بهنّ أيضاً يَصِحْنَ "تحيا إيطاليا"، بتلك الأصوات العذبة التي يُنشدن بها المزامير، ويتمنّيْن لنا النصر. قاتلنا خمسة أيام أخرى في بالرمو قبل الهدنة، ولكن لا أثر للراهبات المُبتدئات، وكان علينا أن نكتفي بالعاهرات.

إلى أيّ حدّ يجب عليّ أن أثق بهذين المتحمِّسَيْن؟ إنّهما شابّان، كانت هذه معاركهما الحربيّة الأولى، كانا قبل كلّ شيء مُعجبَيْن بقائدهما الجنرال، وبطريقتيْهما كانا روائيّيْن مثل دُومَا، يجمّلان ذكرياتهما، وإذا بالدجاجة تصير نَسْراً. لا شكّ في أنّهما تصرّفا كالأبطال في تلك المناوشات، ولكن أليس من قبيل الصدفة أن يتجوّل غاريبالدي بكلّ طمأنينة وسط الطلق الناري (والعدوّ كان

دون شكّ يراه من بعيد) دون أن تصيبه أبداً رصاصة؟ ألا يكون أولئك الأعداء، بأمر فوقيّ، يرمون بالرصاص دون همّة؟

جالت هذه الأفكار بخاطري بعد بعض التلميحات التي التقطتها من صاحب الفندق، الذي كان قد جاب دون شكّ جِهات أُخرى من شبه الجزيرة، ويتكلّم لغة تكاد تكون مفهومة. وهو الذي أوحى لي بتبادل كلمتيْن مع دُن فورتوناتو موزوميتشي، كاتب عدل يبدو أنّه يعرف كلّ شيء عن كلّ الناس، عبّر في بعض المناسبات عن تحفّظه نحو الزائرين الجُدُد.

لا يُمكنني دون شكّ أن أقربه مرتدياً القميص الأحمر، وجاءتني فكرة ارتداء جبّة الأب برغماسكي التي أحملها معي. ضربة بالمشط، صوت ليّن، وعينان خفيضتان، وها إني أتسلّل من الفندق دون أن يعرفني أحد. كانت مجازفة كبيرة لأنّ الخبر راج بأنهم يطردون اليسوعيّين من الجزيرة. ولكن، مرّ كلّ شيء بسلام. وبعد هذا كلّه، يُمكن أن أحظى كضحيّة مَظلمة وشيكة بثقة الأوساط المعادية للغاريبالديّين.

بدأت أتحادث مع دُون فورتوناتو عندما فاجأته جالساً في مشرب يحتسي بتأنٍّ قهوته بعد قُدّاس الصباح. كان المكان مركزيّا، يكاد يكون أنيقاً، وكان دُون فورتوناتو مرتخياً ووجهه ممتدّ نحو الشمس، وعيناه نصف مغمضتيْن، ولحية مهملة منذ بضعة أيام، كان يرتدي الأسود مع ربطة عنق حتى في تلك الأيام الخانقة، وبين أصابعه المُصفرّة من النيكوتين سيجار يكاد يكون منطفئاً. لاحظت أنّهم في هذه الجهات يضعون في القهوة قشرة ليمون. أرجو أن لا يضعوها أيضاً في القهوة بالحليب.

جلست في طاولة قريبة وكفاني أن تشكّيت من الحرّ ليبدأ حوارنا. قدّمتُ نفسي على أنّي مبعوث الكنيسة الرومانية أرسلت لتفهّم حقيقة الوضع في هذه الأنحاء، ممّا سمح لموزوميتشي للتحدّث بحريّة.

- يا أبتي الجليل، هل تظنّ أنّ ألف شخص جُمّعوا اعتباطاً وسُلّحوا بما أمكن يصلون إلى مَارسالا وينزلون إلى اليابسة دون أن يفقدوا شخصاً واحداً؟ ما

الذي جعل السفن البوربونيّة، وهي البحريّة الثانية في أوروبا بعد البحريّة الإنكليزية، تقصف بصفة عشوائيّة دون أن تصيب أحداً؟ وبعد ذلك، في كلاتافيمي، كيف حدث أنّ أولئك الألف أنفسهم من المتطوّعين مع بضع مئات من الشبان دفع بهم ملّاكو الآراضي حفاظاً على مصالحهم مع المحتلّين، وجدوا أنفسهم أمام أحد الجيوش الأفضل تدريباً في العالم (ولا أدري إن كنت تعرف ما هي الأكاديمية البوربونية)، ألف وما يزيد عنها بقليل من المتطوّعين - أقول - أجبروا على الفِرار خمسةً وعشرين ألف رجل، حتى وإن لم يُشاهد منهم إلّا بضعة آلاف والآخرون لا يزالون في الثكنات؟ سالت أموال يا سيّدي، أموال طائلة لمكافأة ضبّاط السفن في مَارسالا، والجنرال لاندي في كلاتافيمي، الذي كان لا يزال يتوفّر بعد يوم دون نتيجة حاسمة على جنود لم يقاتلوا بعدُ، بعدد يكفي للقضاء على أولئك المتطوّعين، والذي تراجع على عكس ذلك إلى بالرمو. يتحدّثون بشأنه عن رشوة بأربع عشرة ألف دوقية، هل تعرف ذلك؟ ورؤساؤه؟ لأقلّ من ذلك بكثير، منذ حوالى اثنتي عشرة سنة، أعدم البيمونتيّون رمياً بالرصاص الجنرال رامورينو؛ ولا أقول إنّ البيمونتيّين أقرب إلى قلبي، ولكنهم في الأمور العسكريّة يعرفون ما يفعلون. بينما، بكلّ بساطة، وقع تعويض لاندي بلانتسا، الذي كان حسب رأيي قد تَمَّ هو أيضاً شراؤه. وبالفعل، انظر إلى غزوة بالرمو الممَجَّدة. . لقد عزّر غاريبالدي صفوفه بثلاث آلاف وخمسمائة من قطّاع الطرق جمعهم من أوساط الإجرام الصِّقِلّي، ولكن لانتسا كان يتوفّر على ستّة عشر ألفاً من الجنود، أقول ستة عشر ألفاً؛ وعوض أن يرسلهم مجمّعين، بعثهم لانتسا لمواجهة المتمرّدين في مجموعات صغيرة، فمن الطبيعي أن يُهزموا دائماً، وذلك أيضاً لأنّ بعض الخَوَنة البلارميتانيّين كانوا يطلقون، مقابل أجر، الرصاص من السطوح. في الميناء، تحت أعين السفن البوربونيّة، كانت مراكب بيمونتيّة تنزل بنادق للمتطوّعين، وتركوا غاريبالدي بعد نزوله اليابسة يذهب إلى سجن فيكاريا وإلى سجن المعتقلين حيث حرّر ألفاً آخرين من المجرمين العامّين، مدمجاً إياهم في جماعته. ولا أقول لك ماذا يحدث الآن في نابولي، ملكنا المسكين مُحاط بتعساء قبضوا رشاويهم وهم بصدد حفر الأرض تحت قدميه. . .

- ولكن من أين جاءت كلّ تلك الأموال؟

- أبتي الجليل، أعجب أنّكم في روما لا تعرفون إلّا القليل عن هذه الأشياء. إنّها الماسونيّة الإنكليزيّة. هل اتضحت لك العلاقة؟ غاريبالدي ماسوني، مادزيني ماسوني، مادزيني لاجئ في لندن باتّصال مع الماسونيّين الإنكليز، كافور ماسوني يتسلّم الأوامر من الغرف الإنكليزيّة، وكلّ الذين يحومون حول غاريبالدي ماسونيّون. إنّها ليست خطة لهدم مملكة الصقليّتيْن بقدر ما هي خطة لتسديد ضربة قاتلة لقداسة البابا، إذ من الواضح أنّه بعد الصقليّتيْن، سيريد فيتّوريو إيمانويلي أيضاً روما. أنت تصدّق خُرافة المتطوعين الذين خرجوا من جَنَوة بتسعين ألف ليرة في الخزينة، لا تكفي حتى لإطعام كلّ أولئك الجوعى والجشعين أثناء الرحلة، يكفي أن تشاهد كيف يلتهمون آخر ما تبقى من موارد بالرمو، وينهبون الحقول المجاورة؟ ذلك أن الماسونيّين الإنكليز دفعوا إلى غاريبالدي ثلاثة ملايين من الفرنكات الفرنسيّة، في شكل قروش ذهبية تركية يُمكن صرفها في كامل البحر المتوسط.

- ومن يحتفظ بهذا الذهب؟

- الماسوني صاحب ثقة الجنرال، ذلك النقيب نييڤو. شاب أَمْرَد لم يبلغ الثلاثين ليس له من شغل إلّا أن يكون الضابط المكلّف بالدفوعات. ولكن هؤلاء الشياطين يدفعون الأموال للجنرالات، وإلى الأميرالات وكلّ من تريد، ويجوّعون الفلاحين. هؤلاء الأخيرون ينتظرون أن يوزّع غاريبالدي بينهم أراضي أسيادهم بينما غاريبالدي على العكس ينبغي له بطبيعة الحال أن يتحالف مع من يملك الأرض والأموال. سترى أنّ أولئك الذين ذهبوا لمواجهة الموت في كلاتافيمي، عندما سيتفطّنون إلى أن أي شيء لم يتغير هنا، سيشرعون في رمي المتطوّعين بالرصاص، وبتلك البنادق بالذات التي سرقوها من الذين سقطوا.

بعد أن نزعتُ الأثواب الكهنوتية قمت بجولة في المدينة مرتدياً القميص الأحمر وتبادلت الحديث على سُلَّم إحدى الكنائس مع راهب، الأب كارميلو. قال إنّ له من السنين سبعة وعشرين ولكنه يظهر ابن أربعين. وأَسَرَّ لي أنّه يريد

الانضمام إلينا، ولكن شيئاً ما يمنعه من ذلك. سألته ماذا، بما أنّه في كلاتافيمي كان هناك أيضاً رُهبان.

- بودّي أن أكون معكم، قال لي، لو تأكّد لي أنّكم ستفعلون حقيقة شيئاً عظيماً. فالشيء الوحيد الذي تعلنونه هو أنكم تريدون توحيد إيطاليا لتجعلوا منها شعباً واحداً. ولكن الشعب، سواء كان مقسّماً أو موحّداً، إذا كان يتألّم فهو يتألم؛ وأنا لست أدري إن كنتم ستنجحون في إنقاذه من آلامه.

- ولكن سيتمتع الشعب بالحرية والمدارس.

- الحرية ليست خبزاً، وكذلك المدارس. قد تكفي هذه الأشياء بالنسبة إليكم أنتم البيمونتيّين ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلينا.

- ولكن ماذا يلزم لكم؟

- ليس الحرب ضدّ البوربونيّين بل حرب الفقراء ضدّ من يجوّعهم، الذين لا يوجدون فقط في البلاط، بل في كلّ مكان.

- إذن ضدّكم أنتم الرُّهْبان أيضاً، بما أنكم تملكون أديرة وأراضيَ في كل مكان؟

- ضدّنا نحن أيضاً؛ بل ضدّنا قبل أن يكون ضدّ أحد غيرنا. ولكن بالإنجيل في أيدينا وبالصليب. عندئذٍ سآتي معكم. أمّا هكذا فهو شيء قليل.

حسب ما فهمت في الجامعة من البيان الشيوعي الشهير، هذا الراهب واحد منهم. حقيقة لا أفهم من صقليّة هذه إلّا القليل والقليل جداً.

* * *

ولعلّي أجرّ دائماً ذلك الهوس منذ زمن جدّي، ولكن السؤال تبادر تلقائيّاً إلى ذهني، وهو إن لم يلعب اليهود أيضاً دوراً في المؤامرة لمساندة غاريبالدي. في العادة لهم دائماً دور. وسألت في ذلك من جديد موزوميتشي.

- وكيف لا؟ قال لي. قبل كلّ شيء، إذا لم يكن كلّ الماسونيّين يهوداً، فإنّ كلّ اليهود ماسونيّون. وماذا بشأن الغاريبالديّين؟ لقد تسلّيت بعض الوقت بتصفّح قائمة متطوّعي مَارسالا، التي نُشرت "تقديراً للأبطال"، ووجدت فيها أسماء من قبيل أوجينيو رافا، جيوزيبي أوزيال، إزاكو دانكونا، ساموِيلي ماركيزي، أبرامو إزاكو ألبرون، مويزي مالداتشيا، وواحد اسمه كولومبو دوناتو، ولكنه كان قبل ذلك أبرامو. قل لي، بأسماء مثل هذه هل يُمكن أن يكونوا مسيحيّين طيبين؟

* * *

(16 حزيران/يونيو) اتّصلت بهذا النقيب نييڤو، ومعي رسالة الاعتماد. كان شابّاً بشاربين دقيقين مرسومَيْن بعناية، وله عَنْفَقة تحت الشفة، ويتصرّف مثل حالم. كلّه تمثيل، لأنّه بينما كنا نتحادث دخل متطوّع ليكلّمه في عدد من الأغطية جاء لاستلامها، وهو مثل متصرّف صارم، ذكّره بأنّ فريقه كان قد تسلّم في الأسبوع المنقضي عشرة أغطية - هل تأكلونها؟ سأله. ثمّ: - إذا كنت تريد أكل أغطية أخرى، سأرسلك إلى زنزانة تهضم فيها. فأدّى المتطوّع التحيّة وانصرف.

- أترى ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ لعلّهم قالوا لك إني رجل أدب. ومع ذلك فيجب عليّ أن أزوّد الجنود بالرواتب والألبسة، وأن أطلب عشرين ألف بزّة جديدة، لأنّه يصل كلّ يوم من جَنَوة و لاسبيتسيا وليفورنو متطوّعون جُدُد. ثمّ هناك المطالب، كونتات ودُوقات يريدون مائتيْ دوقية أجراً في الشهر ويظنون أن غاريبالدي ملاك السماء. هنا ينتظر الجميع أن يأتي كلّ شيء من فوق، ليس مثلما عندنا نحن حيث عندما يريد أحد شيئاً يعمل للحصول عليه. لقد عَهِدوا لي بالخزينة، ربما لأنّني حصلت على إجازتَيْن في الحقوق، أو لأنهم يعرفون أنّني لا أسرق، وعدم السرقة فضيلة عظمى في هذه الجزيرة، حيث الأمير والمحتال نفس الشيء.

بطبيعة الحال يتصرّف مثل شاعر شارد الذهن. عندما سألته إن كان قد سُمّي

كولونيلاً أم لا؟ أجابني أنّه لا يعرف ذلك، قال لي: أتعرف؟ الوضع هنا غير واضح. بيكسيو يحاول أن يفرض نظاماً عسكريّاً من نوع بيمونتيّ، كما لو كنّا في بينيرولو، ولكننا مجموعة من اللانظاميّين. ولكن إذا كان عليك أن ترسل مقالات إلى تورينو، اتْرُك جانباً هذه المسائل الحقيرة. حاول أن تبلّغ الحماس الحقيقي، والنخوة التي تُسكر الجميع. هنا يوجد أشخاص يضحّون بحياتهم من أجل شيء يؤمنون به. والباقي اعتبره مغامرة في أراضي مستعمرة. بالرمو مُسلّية لمن يريد العيش فيها، تشبه بغوغائها البندقية. الجميع معجب بنا ويعتبرنا أبطالاً، وذراعان من قميص أحمر وسيف طوله سبعين سنتميتراً يجعلاننا محلّ رغبة في أعين عديد من السيدات الحسناوات، اللواتي يتمتعن بعفة ظاهرة فقط. ليست هناك سهرة لا نحصل فيها على مقاعد في المسرح وعلى مثلّجات لذيذة.

- قلت لي إنّك مطالب بالكثير من المصاريف. ولكن كيف يُمكنك ذلك بالمال القليل الذي خرجتم به من جَنَوة؟ هل تستعملون الأموال المصادرة في مَارسالا؟

- تلك الأموال شيء قليل. بالأحرى، ما إن وصل الجنرال إلى بالرمو حتى أرسل الجنرال كريسبي لسحب المال الموجود في بنك الصقليّتيْن.

- سمعت بذلك، يقولون إنّها خمسة ملايين دوقية...

عندئذٍ، عاد الشاعر ليصبح من جديد رجل ثقة الجنرال. حدّق في السّماء:
- آه، أنت تعرف، تُقال العديد من الأشياء. ثمّ يجب اعتبار هِبات الوطنيّين التي جاءت من كلّ إيطاليا، وأريد أن أقول من كلّ أوروبا - وهذا بإمكانك أن ترسله إلى صحيفتك في تورينو، لتعطي الفكرة إلى السّاهين. بإيجاز، أصعب شيء هو تسجيل كلّ شيء بنظام في الدفاتر، لأنّه عندما ستصبح هذه البلاد رسميّاً مملكة إيطاليا ينبغي عليّ أن أسلّم كلّ شيء إلى حكومة جلالته، دون أن ينقص سنتيم، هذا ما دَخَل وهذا ما صُرِف.

كيف ستتعامل مع الملايين التي أعطتها الماسونية الإنكليزيّة؟ كنت أتساءل. أم أنكم جميعا متفقون، أنت، غاريبالدي وكافور، الأموال وصلت ولكن لا يجب الحديث عنها. أم إنّ الأموال موجودة، ولكنك أنت لا تعرف ولن تعرف عنها

شيئاً، أنت اسم يستعملونه، النزيه الصغير الذي يستعملونه (ولكن من؟) كغطاء، وأنت تظنّ أنّ انتصاركم في المعارك كان بفضل الإله فقط؟ لم يكن الرجل يبدو لي شَفّافاً. الشيء الوحيد الصادق الذي أستشفّه من كلامه هو الحسرة المُرّة لكون المتطوّعين في تلك الأسابيع كانوا يتقدّمون نحو السواحل الشرقية، ويستعدّون، وهم يحرزون نصراً بعد نصر، لاجتياز المضيق وللدخول إلى كلابريا، ثم إلى نابولي، بينما أُمِر هو بالبقاء في بالرمو للعناية بالحسابات الاقتصادية في المؤخرة، وكان على الجمر. هناك أناس خلقت هكذا، عِوَضَ الابتهاج للحظّ الذي أتاح له مثلّجات لذيذة وحسناوات، يتحسّر لأنّ رصاصات أُخرى لم تثقب عباءته.

سمعتُ أنّه يعيش على الأرض أكثر من مليار نسمة. لست أدري كيف أمكنهم أن يحصوهم، ولكن يكفي أن تتجوّل في بالرمو لتدرك أنّنا أصبحنا أكثر ممّا ينبغي وأنّنا ندوس أقدام بعضنا البعض. ورائحة أكثرهم نَتِنة. لقد صار القُوت قليلاً، فما بالك لو زاد عددُنا. لذا يجب فصد السكان. أكيد أنّه توجد الأوبئة، والانتحارات، وعقوبات الإعدام، وأولئك الذين يتبارزون، أو أولئك الذين يركضون على خيولهم عبر الغابات والسهول بسرعة تدقّ أعناقهم، وسمعت بنبلاء إنكليز يذهبون للسباحة في البحر، وبطبيعة الحال يغرقون... ولكن لا يكفي. الحروب هي المَنْفَذ الأكثر طبيعيّة ونجاعة لكبح تكاثر العنصر البشري. وبالفعل، ألم يكونوا يقولون في الأزمنة الغابرة عند الذهاب للقتال: إنّ الربّ أراد ذلك؟ ولكن ينبغي أن يوجد أشخاص يرغبون في المُحاربة. فإذا اختبأ الجميع لن يموت أحد في الحرب. وإذن لِمَ القيام بالحروب؟ لذا يجب أن يوجد أشخاص مثل نييڤو، أو أبّا أو باندي، يرغبون في إلقاء أنفسهم تحت الرصاص. وهذا لكي يُمكن لأشخاص مثلي أن يعيشوا دون أن يحسّوا بالبشريّة تخنق أنفاسهم.

باختصار، حتى وإن كانوا لا يعجبونني، فنحن بحاجة إلى قلوب نبيلة.

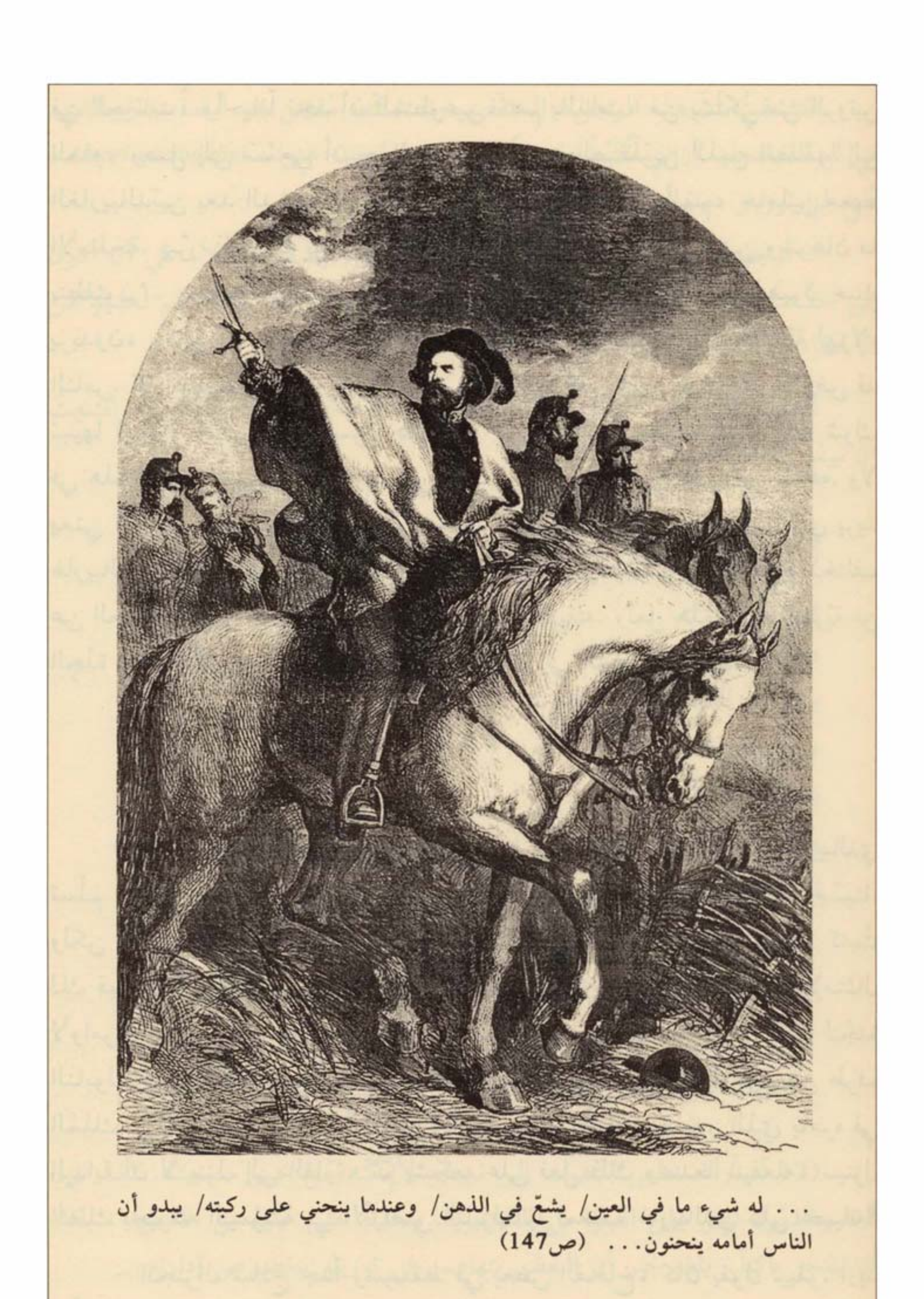
* * *

تقدّمت إلى لافرينا برسالة اعتمادي.

- إذا كنت تنتظر مني بعض الأخبار الهامّة لتبليغها إلى تورينو، قال لي، فَأَنْسَ ذلك. هنا لا توجد حكومة. غاريبالدي وبيكسيو يظنّان أنهما يعطيان الأوامر إلى جَنَوِيَّيْن مثلهما، لا إلى صقليّين مثلي. في بلد لا يعرف الخدمة العسكريّة الإجباريّة، فكّرا جديّاً في مُناداة ثلاثين ألفاً للخدمة، وفي عدّة بلديّات وقعت ثورات بأتمّ معنى الكلمة. قرّرا أنّه يجب طرد الموظفين الملكيين القدامى من المجالس المدنية، بينما هم الوحيدون الذين يعرفون القراءة والكتابة. ذات يوم اقترح بعض المُعادين للكنيسة إحراق المكتبة العمومية لأنّها من تأسيس اليسوعيين. سُمّي والياً على بالرمو شابٌ من مارتشيليبري لا يعرفه أحد. داخل الجزيرة تتتابع الجرائم من كلّ نوع وغالبا ما يكون المجرمون هم أنفسهم أولئك المكلّفون بحفظ الأمن، لأنّه وقع أيضاً إلحاق مُنحرفين حقيقيّين بفرق المتطوّعين. غاريبالدي رجل نزيه، ولكنه غير قادر على إدراك حقيقة ما يجري حوله: اختفى مئتا جواد من رَسْلة واحدة من الخيول المُصادَرة في مقاطعة بالرمو. تُعطى الموافقة لإحداث فيلق لكلّ من يطلب ذلك، وهكذا توجد فيالق عندها فرقة موسيقيّة ومجموعة ضباط كاملة لأربعين أو لخمسين جندياً على الأكثر. وتُعطى الوظيفة نفسها إلى ثلاثة أو أربعة اشخاص. تُركت صقليّة دون محاكم لا مدنية، ولا جنائيّة، ولا اقتصاديّة، لأنهم أَعْفَوْا جميع القُضاة من مهامّهم، وأُحدِثت لجان عسكريّة لتحكم في كلّ شيء، كما في عهد الهون. كريسبي وجماعته يقولون إنّ غاريبالدي لا يريد محاكم مدنيّة، لأنّ القُضاة والمحامين محتالون؛ وإنّه لا يريد مجالس لأنّ النواب أهل قلم وليسوا أهل سيف؛ وإنّه لا يريد أيّ قوّة أمن عمومي، لأنّ المواطنين يجب أن يتسلّحوا وأن يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم. لست أدري إن كان هذا صحيحاً، ولكنى الآن صرت لا أقدر حتى على التحادث مع الجنرال.

في السابع من تموز/يوليو علمت أنّ لافارينا قد أوقِف وأُرسِل من جديد إلى تورينو. بأمر من غاريبالدي، بطبيعة الحال إثر تحريض من طرف كريسبي. لم يعد لكافور مُخْبِر. وسيتوقّف إذن كلّ شيء على التقرير الذي سأرفعه.

لم تعد هناك حاجة إلى التقنّع في زيّ كاهن لجمع الأقاويل: يتقوّل الجميع



... له شيء ما في العين/ يشعّ في الذهن/ وعندما ينحني على ركبته/ يبدو أن الناس أمامه ينحنون. . . (ص147)

في الحانات، وأحياناً نجد أن المتطوعين، هم بالذات، من يشتكي من الروتين العام، وصل إلى سَمْعِي أن حوالى خمسين من الصقلّيّين الذين انضمّوا إلى الغاريبالديّين بعد الدخول إلى بالرمو، ذهبوا في سبيل حالهم، حاملين معهم الأسلحة. يبرّر ذلك أَبّا بقوله: "إنّهم فلّاحون يشتعلون مثل التبن وسرعان ما ينطفئون" . يحكم عليهم المجلس الحربي بالإعدام، ثمّ يتركهم يذهبون حيث يريدون، يكفي أن يبتعدوا. أحاول أن أفهم ما هي العواطف الحقيقيّة لهؤلاء الناس. كلّ الهيجان الذي يغمر كامل صقلّيّة يتوقّف على كون هذه الأرض قد نَسِيَها الربّ، وأحرقتها الشمس، دون ماء غير ماء البحر وفاكهة قليلة كلّها شوك. في هذه الأرض التي لا يقع فيها شيء منذ قرون، جاء غاريبالدي مع أتباعه. ولا يعني أنّ أهل هذه البقاع مُوَالُونَ له، ولا أنهم متمسّكون بالمَلِك الذي يريد غاريبالدي خلعه. إنهم بكلّ بساطة مثل سُكَارى ثَمِلوا بسبب وقوع شيء مختلف عن العادة. وكلّ واحد يؤوّل الاختلاف حسب طريقته. ولعلّ هذه الريح القويّة من الجِدّة ليست إلّا ريحاً شُرُوقية ستهدهدهم كلّهم إلى النوم من جديد.

* * *

(30 تموز/يوليو) نييڤو، الذي صارت لي معه أُلْفَة، أَسَرَّ لي أنّ غاريبالدي تسلّم رسالة رسميّة من فيتوريو إيمانويلي يأمره فيها بأن لا يَعبر مضيق مِسّينا. ولكن الأمر كان مرفقاً بورقة سريّة من المَلِك نفسه، يقول له فيها تقريباً: كتبتُ لك قبل هذا باعتباري ملكاً، الآن أنصحك بأن تجيبني بأنّك تودّ الامتثال لأوامري ولكن واجباتك نحو إيطاليا لا تسمح لك بالتعهّد بأنّك لن تهب لنجْدة النابوليتانيّين عندما سيطلب منك هؤلاء أن تحرّرهم. سلوك مُزْدَوج من طرف المَلِك، ولكن ضدّ من؟ ضدّ كافور؟ أم ضدّ غاريبالدي نفسه، الذي يأمره في البداية أن لا ينزل إلى القارّة، ثمّ يشجّعه على فعل ذلك وعندما سيفعله، سينزل الملك بجيوشه البيمونتية في الأراضي النابوليتانية لمعاقبة غاريبالدي على عصيانه؟

- الجنرال ساذج جداً وسيسقط في بعض الفخاخ، كان يقول نييڤو. أريد أن أرافقه، ولكن واجبي يحتّم عليّ أن أبقى هنا.

اكتشفتُ أنّ هذا الرجل، المثقّف دون شكّ، مُفتتن هو أيضاً بغاريبالدي. في لحظة ضعف أراني كُتَيِّباً صغيراً وصله منذ قريب عنوانه *Amori garibaldini*، طُبع في تورينو دون أن يتمكّن هو من مُراجعة النصّ.

- أرجو ممّن سيقرأني أن يعتبر أنَّ لي الحق، بصفتي بطلاً، في أن أكون إلى حدٍّ ما حماراً، وقد فعلوا ما في وسعهم لإظهار ذلك بإغفالهم لعديدٍ من الأخطاء المطبعيّة المخجلة.

ألقيتُ نظرة على البعض من أشعاره، المكرّسة فعلاً لغاريبالدي، واقتنعتُ أنّ نييڤو بالفعل حمار:

له شيء ما في العين لا أدري كنهه
يشعّ في الذهن
وعندما ينحني على ركبته
يبدو أنّ الناس أمامه ينحنون.
وحتى في الساحات المكتظّة،
يتجوّل ودوداً، إنسانيّاً،
ورأيته يمدّ يده
تحيّةً للفتيات.

الجميع، هنا، جُنُّوا بهذا الرجل القصير ذي الساقيْن المُعْوَجَّتيْن.

* * *

(12 آب/أغسطس) ذهبت إلى نييڤو لأتأكّد من خبر سمعته: لقد نزل الغاريبالديّون للتوّ على السواحل الكلابريّة. وجدته على غاية من الاستياء، يكاد أن ينفجر باكياً. بلغه خبر أن البعض يتهامس في تورينو بخصوص إدارته.

- ولكنّني سجّلتُ كلّ شيء هنا، وضرب بجمع يده على سِجلّاته المجلَّدة

بكتّان أحمر. هذا ما تسلّمته وهذا ما صرفته. وإذا سرق أحد شيئاً، فسيظهر في حساباتي. عندما أُسلِّم هذه الدفاتر إلى من يهمّه الأمر، ستسقط بعض الرؤوس. ولكن ليس رأسي أنا.

* * *

(26 آب/أغسطس) بدا لي - وحتى دون أن أكون استراتيجيّاً - من خلال الأخبار التي كانت تصلني، أن الأمور أصبحت واضحة. سواء كان ذهب الماسونيّين أو التحالف مع السافويّين، فإن بعض الوزراء كانوا بصدد التآمر ضدّ الملك فرانشسكو. ستندلع ثورة في نابولي، وسيطلب المتمرّدون النجدة من الحكومة البيمونتيّة، وسينزل ڤيتّوريو إيمانويلي إلى الجنوب. يبدو أن غاريبالدي لا يتفطّن إلى شيء أو أنّه تفطّن إلى كلّ شيء وسارع في تحرّكاته. يريد أن يصل إلى نابولي قبل ڤيتّوريو إيمانويلي.

* * *

وجدتُ نييڤو ساخطاً وهو يُلَوِّح برسالة فبادرني بالقول: - صديقك دُومَا، قال لي، يتسلّى بِلعب دور كريزوس وبعد ذلك يظنّ أنّه عليّ أنا أن أكون كريزوس. انظر ماذا كتب إلي، ثم يتجرَّأ بعدئذٍ على قول إنّه يفعل ذلك باسم الجنرال. حول نابولي، يحدس المرتزقة السويسريون والبافاريون المُستأجَرون من طرف البوربونيّين بالهزيمة، ويقترحون ترك الخدمة العسكريّة مقابل أربع دوقيات لكلّ واحد منهم. وبما أنّ عددهم يبلغ خمسة آلاف، فالمسألة مسألة عشرين ألف دوقية، أي تسعين ألف فرنك. ودُومَا، الذي كان يتظاهر وكأنه البطل الكونت دي مونتيكريستو، لا يملكها، وكسيّد كبير يضع على ذمّتنا مبلغاً حقيراً بألف فرنك. يقول إنَّ الوطنيين النابوليتانيين سيجمعون ثلاثة آلاف فرنك ويسألني إن كان باستطاعتي أن أوفِّر الباقي. ولكن من أين يظنّ أنّني أستطيع أن أحصل على هذا المبلغ؟

دعاني لأشرب معه كأساً: - انظر يا سيمونيني، الآن كلهم مهتاجون بسبب نزول المراكب إلى القارّة، ولم يتفطّن أحد للكارثة التي ستصيب -بكلّ ثقلها وبصفة مخجلة- تاريخ حملتنا. لقد حدث ذلك في برونتي، بالقرب من كتانيا. لا يزال يرزح عشرة آلاف ساكن، أغلبهم من الفلّاحين والرُّعاة، تحت نظام يذكّر بالإقطاعية القروسطية. كلّ الإقليم أُهدي إلى لورد نيلسون، بلقب دوق برونتي، وفيما عدا ذلك بقي دائماً في أيدي أقليّة من الأثرياء، أو "Galantuomini" مثلما يسمّونهم هناك. وهؤلاء يستغلون الناس ويُعاملونهم مثل الحيوانات، ويمنعونهم من الذهاب إلى غابات المُلّاك لجمع الأعشاب التي يتقوّتون منها، وينبغي عليهم أن يدفعوا حقّ المرور للدخول إلى الحقول. عندما وصل غاريبالدي ظنّ هؤلاء الناس أنّ الوقت حان لإقامة العدل وأن الأراضي ستعود إليهم، وتكوّنت لجان تسمّى بالليبراليّة، وأشهر رجالها محام يُدعى لومباردو. ولكن برونتي مِلك إنكليزي، والإنكليز أعانوا غاريبالدي في مَارسالا، فإلى أي شق سينحازون؟ عند ذلك الحدّ كَفّ هؤلاء الناس عن الاستماع للمحامي لومباردو ولِلِيبيراليّين آخرين وفقدوا كل سيطرة على أنفسهم، وقاموا بثورة شعبيّة عنيفة، بمجزرة، وقاتلوا أولئك "الشُّرفاء". لقد أساؤوا الفعل، بطبيعة الحال، وانضمّ إلى الثائرين أيضاً بعض المجرمين، كما هو معلوم، مع الاضطراب الذي عمّ الجزيرة، عاد إلى الحريّة العديد من الأشرار، الذين كان من الأفضل أن يبقوا في السجون... ولكن حدث كلّ هذا لأنّنا جئنا إلى هنا. أرسل غاريبالدي تحت ضغط الإنكليز بيكسيو إلى برونتي، وهو رجل لا يتوقّف عند التفاصيل: أعلن حالة الطوارئ، وبدأ عمليّة قمع صارمة ضدّ الأهالي. اعتمد على وشايات "الشُّرفاء" واستقرّ لديه أنّ زعيم الثورة هو المحامي لومباردو، زَعْمٌ غير صحيح، ولكن لا يهمّ، كان يجب أن يُعْطِيَ درساً، وأُعدم لومباردو مع أربعة آخرين رمياً بالرصاص، من بينهم مسكين مَخْبُول كان حتى قبل تلك المجازر يجوب الشوارع ويقذف الشرفاء بالشتائم، دون أن يُخيف أحداً. علاوة عن الحزن لهذه المأساة، فالأمر يحزّ في نفسي بصفة خاصّة. هل تفهم هذا، ياسيمونيني؟ وصلتْ إلى تورينو، من ناحية، أخبار عن هذه العمليّات، التي نظهر فيها نحن بمظهر المتآمر مع المَلّاكين القدامى، ومن ناحية أخرى الأقاويل التي حدّثتك عنها، حول الأموال المصروفة

في غير محلّها، وهذا يكفي للخروج بالاستنتاجات المنطقية، وهي أنّ الملّاكين يدفعون لنا المال لإعدام أولئك المساكين، ونحن نعيش بتلك الأموال في أرغد عيش. وأنت ترى على العكس أنّنا هنا نموت، مجاناً. إنّها لَأشياء تجعل دمك يفور.

* * *

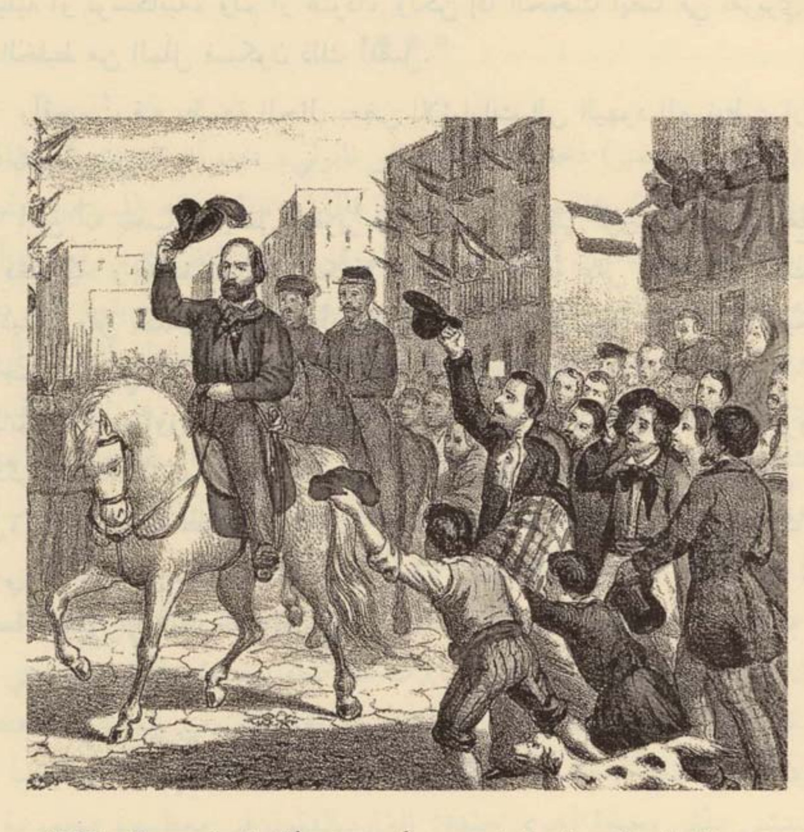
(8 أيلول/سبتمبر) دخل غاريبالدي إلى نابولي، دون أن تعترضه أيّة مقاومة. من الواضح أنّه يحسّ بنفسه أشدّ قوّة، فقد قال لي نييڤو: إنه طلب من فيتّوريو إيمانويلي أن يُقيل كافور. الآن، سيحتاجون في تورينو لتقريري، وفهمتُ أنّهم يريدونه أن يكون مُعادياً أكثر ما يُمكن لغاريبالدي. ينبغي أن ألحّ بقوة على ذَهَب الماسونيّين، وأن أرسم غاريبالدي كشخص عديم المسؤوليّة، وأن ألحّ كثيراً على مجزرة برونتي، وأن أتحدّث عن الجرائم الأخرى، وعن السرقات، والاختلاسات، والفساد والتبذير العامّ. سألحّ على سلوك المتطوّعين بالاعتماد على روايات موزوميتشي، ووصف عربدتهم في الأديرة واغتصابهم العذارى (وربما أيضاً الراهبات، لا بأس من المُغالاة).

سأختلق أيضاً بعض الأوامر بمصادرة أملاك خاصة. وسأنتحل رسالة لمخبر مجهول الاسم يروي لي فيها عن اتصالات متواصلة بين غاريبالدي ومادزيني عن طريق كريسبي، وعن خططهم لإرساء الجمهوريّة، حتى في بيمونتي. باختصار سيكون تقريراً قويّاً وحاسماً يمكّن من توريط غاريبالدي. وذلك أيضاً لأنّ موزوميتشي مدّني بحجّة أخرى جيّدة: الغاريبالديّون في معظمهم مجموعة من المرتزقة الأجانب. من بين هؤلاء الألف يوجد مُغامرون فرنسيّون، أمريكيّون، إنكليز، مجريّون وحتى أفارقة، حُثالة جاءت من كلّ الأمم، العديد منهم كانوا فيما مضى قراصنة مع غاريبالدي نفسه في الأقاليم الأمريكية. يكفي سماع أسماء ضباطه، تورّ، إيبر، توكّوري، تيلوكي، ماغيارودي، كزودافذي، فريجياسّي (كان موزوميتشي يتلفّظ هذه الأسماء بكل ما يستطيع من التقزّز، وفيما عدا تورّ وإيبر لم أسمع شيئاً عن الباقين). ثمّ يوجد أيضاً بولونيّون، أتراك، بافاريّون وألمانيّ يُدعى وولف، يقود الألمان والسويسريّين والخِدمة في الجيش البوربوني. ويُقال

إنّ الحكومة الإنكليزيّة ستضع تحت إمرة غاريبالدي فيالق من الجزائريّين والهنود. أين هم الوطنيّون الإيطاليّون؟ لا يمثّل الإيطاليّون من الألف إلّا النصف. موزوميتشي يُغالي، لأنّني لا أسمع من حولي إلّا لهجات بندقية ولومبارديّة وإيميليّة أو توسكانيّة، ولم أَرَ هنوداً، ولكن إذا ألححتُ أيضاً في تقريري على هذا الخليط من المِلَل فسيكون ذلك أفضل.

وأقحمتُ فيه بطبيعة الحال بعض الإشارات إلى اليهود المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالماسونيّين.

أظنّ أنّه يجب أن يصل التقرير في أقرب وقت إلى تورينو، وأن لا يقع بين أيادٍ فضوليّة. وجدت سفينة عسكريّة بيمونتيّة راجعة على الفور إلى الممالك السردينيّة، ولن يكلّفني كثيراً أن أصطنع لنفسي وثيقة رسميّة تأمر القبطان بحملي إلى جَنَوة. إقامتي في صقليّة تنتهي هنا، ويُؤسفني قليلاً أن لا أشاهد ماذا سيقع في نابولي وما جاوزها، ولكنّني لست هنا لأتسلّى، ولا لأكتب ملحمة فروسيّة. لا أذكر بسعادة في نهاية كلّ هذه الرحلة إلّا بيض الأسماك، والبابالوتشي بيكي باكي، وهي طريقة لطبخ الحَلَزُوْن، والكانولي، آه الكانولي... نييڤو كان قد وعدني أن يُذيقني سمكاً اسمه سيف مطبوخاً *a'sammurigghu*، ولكن لم تسنح الفرصة، وبقي لي فقط طعم الاسم.



... دخل غاريبالدي إلى نابولي، دون أن تعترضه أيّة مقاومة... (ص150)

# 8

## هرقـــل

من يوميّات 30 و 31 آذار/ مارس و1 نيسان/ أبريل 1897

يحسب السارد بضيقٍ ما وقد وجب عليه أن يُسجل هذه الأنشودة الحوارية بين سيمونيني وتطفلات صاحبه القس، ولكن يبدو بالفعل أن سيمونيني قد أعاد، في 30 آذار/ مارس، تركيب الأحداث الأخيرة بصقليّة بصفة غير كاملة، ويتعقّد نصّه بسطور كثيرة ممحوّة، وأخرى مُلغاة بشطبة في شكل ×، ولكنّها ممكنة القراءة – ومثيرة للقلق. في 31 مارس يتدخّل القسّ دلّا بيكّولا في اليوميات، كأنّما ليفتح أبواباً مُحْكَمة الغَلْق في ذاكرة سيمونيني، وليكشف له ما كان يرفض بشدّة تذكّره. وفي 1 نيسان/ أبريل، بعد ليلة مضطربة يتذكّر أنّه تقيّأ فيها، يتدخل سيمونيني من جديد، ساخطاً، وكأنه يريد تصويب ما يعتبره مُغالاة واستنكاراً أخلاقيّاً من طرف القسّ. وباختصار، يسمح الراوي لنفسه، لأنّه لا يعرف في النهاية من المُصيب منهما، بقصّ تلك الأحداث وفق ما يعتبر أنه الأحسن في إعادة تركيبها – ويتحمّل بطبيعة الحال مسؤوليّة إعادة تركيبها.

ما إن وصل سيمونيني إلى تورينو حتى سلّم تقريره إلى الفارس بيانكو؛ وبعد يوم وصلته رسالة تدعوه من جديد إلى لقاء في ساعة مسائيّة متأخرة في مكان انتظرَتْه فيه عربة حملته إلى حيث التقى في المرّة الأولى بيانكو، ريكّاردي ونيغري دي سان فرون.

– حضرة المحامي سيمونيني، استهلّ بيانكو قائلاً، لست أدري إن كانت الصداقة التي أصبحت تربطنا تسمح لي بالتعبير دون تحفظ عن عواطفي، ولكن يجب أن أقول لك إنّك غبيّ.

- حضرة الفارس، كيف تسمح لك نفسك بهذا القول؟

- تسمح له، تسمح له، تدخل ريكّاردي، ويتكلّم أيضاً باسمنا نحن. وأنا أضيف أنّك غبيّ خَطِر، حتى إنّني أتساءل إن كان من الحكمة أن نتركك تتجوّل عبر تورينو وفي رأسك مثل تلك الأفكار.

- أرجو المعذرة، يُمكن أن أكون أخطأت في شيء، ولكنني لا أفهم...

- لقد أخطأت، لقد أخطأت، كلّ شيء طولاً وعرضاً. هل تدرك أنّه في غضون بضعة أيّام (الآن حتى النساء الجاهلات يعرفن ذلك) سيدخل الجنرال تشالديني بجيوشنا في الأراضي البابويّة؟ ومن المحتمل أنّه في غضون شهر سيصل جيشنا إلى أبواب نابولي. وحينذاك نكون قد نظّمنا استفتاءً شعبيّاً يكرّس رسميّاً ضمّ مملكة الصقليّتيْن وأراضيها إلى مملكة إيطاليا. وإذا كان غاريبالدي ذلك الشخص النزيه والواقعي الذي نظنّه، فإنّه سيعرف كيف يفرض رأيه على ذلك المتهوّر مادزيني وسيقبل، أَحَبَّ أم كَرِهَ، حقيقةَ الوضع وسيسلّم الأراضي التي استولى عليها إلى الملك وسيقدّم لنا صورة وطنيّ رائعة. عند ذلك يجب أن نحلّ الجيش الغاريبالدي، الذي صار يعدّ الآن ستين ألف رجل، ولا يحسن أن نتركهم يتجوّلون دون رادع في البلاد، وأن نقبل المتطوّعين في الجيش السافوي، تاركين الآخرين يعودون إلى بيوتهم مع مكافأة لائقة. كلهم أبناء طيّبون، كلّهم أبطال. وأنت تريدنا أن نقول، لو سلّمنا تقريرك التعيس إلى الصحافة وإلى الرأي العامّ، إنّ هؤلاء الغاريبالديّين، الذين سيصبحون غداً جنودنا وضبّاطنا، كانوا مجموعة من حثالة الصعاليك، أغلبهم أجانب، نهبوا صقليّة؟ وإنّ غاريبالدي ليس ذلك البطل الشريف الذي ستعترف له كلّ إيطاليا بالجميل، بل مغامر تغلّب على عدوّ وهميّ باشترائه؟ وإنّه تآمر إلى آخر لحظة مع مادزيني لجعل إيطاليا جمهوريّة؟ وإنّ نينو بيكسيو يجوب الجزيرة مقتّلاً الليبيراليّين ومنكّلاً بالفلاحين والرُّعاة؟ أنت مجنون.

- ولكن حضراتكم كلّفتموني بأن...

- لم نكلّفك بأن تثلب غاريبالدي والإيطاليّن الطيبين الذين حاربوا معه، بل بالعثور على وثائق تثبت كيف أنّ "حاشية" البطل الجمهوريّة تدير بصفة سيّئة الأراضي المحتلّة، بطريقة تبرّر تدخّل الجيش البيمونتي.

- ولكنّ حضراتكم تعرفون جيّداً أنّ السيد لافارينا...

- لافارينا كتب رسائل خاصّة للكونت دي كافور، الذي لم يُذِعْها دون شكّ على الملأ. ثمّ لافارينا هو لافارينا، كان شخصا يحقد بصفة خاصّة على كريسبي. وأخيراً، ما هي تلك التُّرّهات بخصوص ذهب الماسونيّين الإنكليز؟

- الجميع يتحدث عن ذلك.

- الجميع؟ لا علم لنا بذلك. ثمّ من هم هؤلاء الماسونيّون؟ هل أنت ماسونيّ؟

- أنا، كلّا، ولكن...

- إذن لا تهتمّ بأشياء لا تعنيك. اتْرُك الماسونيّين وشأنهم.

من الواضح أنّ سيمونيني لم يفهم أنّهم في الحكومة السافويّة كلهم ماسونيون (ما عدا ربما كافور)، وكان عليه أن يدرك ذلك وهو الذي أحاط به اليسوعيّون منذ الطفولة. ولكن ريكاردي كان قد زاد الطين بلّة مشيراً إلى اليهود، سائلاً إيّاه ما الذي دعاه إلى حشر اليهود في تقريره.

تلعثم سيمونيني: - اليهود في كلّ مكان، ولا يجب أن تعتقد أنّ...

- لا يهمّ ما نعتقد وما لا نعتقد، قاطعه سان فرون، الحال هو أنّنا في إيطاليا موحّدة سنحتاج أيضاً إلى مُساندة المجموعات اليهودية من جِهة، ومن جِهة أخرى لا لزوم لتذكير الكاثوليكيّين الإيطاليّين الطيّبين أن يهوداً كانوا ضمن الأبطال الغاريبالديّين الأقحاح. باختصار، رغم كلّ الهفوات التي ارتكبتها هناك ما يكفي لإرسالك بضع عشرات من السنين إلى إحدى قلاعنا في جبال الألب لتتنفّس بعض الهواء النقيّ. للأسف، ما زلنا نحتاج إليك. حسب ما يبدو لا يزال هناك ذلك النقيب أو العقيد نييفو، مع كلّ دفاتره، ولا نعرف، في محلّ أوّل، إن كان مصيباً في تحريرها، وفي محلّ ثانٍ إن كان من الصالح سياسيّاً إفشاء حساباته. أنت تقول لنا إنّ نييفو ينوي تسليم هذه الدفاتر إلينا نحن، وهذا حسن، ولكن قد يُطْلِع آخرين عليها قبل أن تصل إلينا، وهذا غير حسن. ولذا ارجع إلى

صقليّة، باعتبارك دائماً مبعوث النائب بوجيو لتسجيل الأحداث الجديدة والرائعة، لازم نييفو كما لو كنت ظلّه وافعل ما في وسعك لكي تختفي تلك الدفاتر، وتتبخَّر في الهواء، وتصبح دخاناً، وألّا يسمع بها أحد بعد. أمّا كيفيّة التوصّل إلى ذلك فهو أمر يخصّك، وأنت حرّ في استعمال كلّ الوسائل، بطبيعة الحال دائماً في إطار القانون، ولا تنتظر منّا أمراً آخر. سيوفّر لك الفارس بيانكو حساباً في بنك صقليّة يمدّك بالمال اللازم.

هنا، حتّى ما يكشف عنه دلّا بيكّولا يبقى غامضاً شيئاً ما ومنقوصاً ومتقطّعاً، كما لو أنّه عانَى هو الآخر مِن مشقة تذكّر ما كانت شخصيّته المقابلة تحاول جاهدة نسيانه.

يبدو على كلّ حال أنّ سيمونيني، بعد رجوعه إلى صقليّة في أواخر أيلول/ سبتمبر، بقي هناك إلى آذار/مارس من العام التالي، محاولاً دائماً ودون جدوى الاستيلاء على دفاتر نييفو، متقبّلاً كلّ نصف شهر رسالة من الفارس بيانكو يسأله فيها بشيء من الغضب إلى أين وصلت جهوده.

الحال هو أنّ نييفو كان في تلك الآونة متفرّغاً بجسمه وبروحه إلى تلك الحسابات الملعونة، تحثّه دائماً في ذلك الوشايات الشريرة، مهتمّاً دائماً أكثر بالتحقيق، والتثبّت، ودرس الآلاف من الوصولات لكي يتأكد، الآن وقد صار لديه نفوذ كبير وذلك أيضاً لأنّ غاريبالدي كان حريصاً بنفسه على أن لا تحدث فضائح أو إشاعات، ووضع تحت تصرّفه مكتباً فيه أربعة مساعدين وحارسان سواء على الباب الكبير أو على طول السُّلّم، بحيث لا يُمكن مثلا الدخول ليلاً إلى غرفه والبحث عن دفاتره.

بل إنّ نييفو كان يلمّح إلى أنّه يخمّن أنّ حساباته قد لا تعجب بعض الناس، ولذا فهو يخشى أن يسرقها أحد أو أن يدلّسها، وفعل ما في وسعه لكي يستحيل العثور عليها. ولم يبقَ لسيمونيني إلّا أن يبذل كل ما في وسعه لتقوية أواصر صداقته مع الشاعر، ليفهم على الأقلّ ماذا ينوي أن يفعل بتلك الوثائق الملعونة.

كانا يقضيان معاً العديد من الأمسيات، في هذه البالرمو الخريفيّة التي لا تزال خاملة بفعل موجات حَرٍّ، لا تلطّفُها الرياح البحرية، وهما يرشفان أحياناً أكواب الماء الممزوج بشراب الأنيسون تاركَيْن الكحول ينحلّ شيئاً فشيئاً في الماء مثل سحابة من دخان. كان نييفو يتخلّى شيئاً فشيئاً عن تحفّظه وأسلوبه العسكري، ويُسرّ بمكنون عواطفه؛ ربما بسبب المودّة التي يحسّ بها نحو سيمونيني أو لأنه يحبس بنفسه سجيناً في المدينة ويشعر بالحاجة إلى التحادث مع صديق. كان يتحدّث عن حبيبة تركها في ميلانو، حبيبة مستحيلة المنال لأنّها زوجة ابن عمّه وأفضل أصدقائه. ولكن لا فائدة، حتى علاقاته الغرامية الأخرى حملته دائماً إلى وسواس المرض.

- هذا مصيري، وأنا مضطرّ لتحمّله. سأكون دائماً عجيباً، قاتماً، كئيباً، مغتمّاً. أبلغ من العمر ثلاثين سنة وأحارب دائماً، لأهرب من عالم أكرهه. وهكذا تركت في البيت رواية عظيمة لا تزال مخطوطة. أودّ رؤيتها منشورة، ولا أستطيع الاهتمام بذلك لأنّني مشغول بهذه الحسابات القذرة. ليتني كنت طموحاً، ليتني كنت متعطشاً للرغبات... ليتني كنت على الأقل شريراً... على الأقلّ مثل بيكسيو. لا شيء من كلّ هذا. بقيتُ طفلاً، أعيش يوماً بيوم، أحبّ الحركة لأتحرّك، والهواء لأتنفّس. سأموت لكي أموت... وسينتهي كلّ شيء.

لم يكن سيمونيني يحاول مُواساته. كان يعتبره غير قابل للشفاء.

في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر بدأت معركة فولتورنو، حيث صدّ غاريبالدي الهجمة الأخيرة للجيش البوربوني. ولكن في الأيام نفسها هَزَم الجنرال تشالديني الجيش البابوي في كستالفيداردو واجتاح جِهتَيْ أبروتسو وموليزي، اللتين كانتا تحت الحكم البوربوني. في بالرمو كان نييفو على أحرّ من الجمر. بلغ إلى علمه أنّ من بين متّهميه في البيمونتي يوجد المُوَالون لـ لافارينا، ممّا يدلّ على أنّ لافارينا كان يَنفث سمّه على كلّ من يلبس القميص الأحمر.

- أودّ لو تخليْتُ عن كلّ شيء، كان نييفو يقول يائساً، ولكن في هذه الأوقات بالذات لا يجب ترك الدفّة.

في 26 تشرين الأول/أكتوبر تحقّق الحدث العظيم. التقى غاريبالدي بفيتّوريو إيمانويلي في تيانو. وسلّم له فعلياً إيطاليا الجنوبية. كان يستحقّ على الأقلّ أن يسمّيه سيناتوراً للمملكة، كان يقول نييڤو، وعلى عكس ذلك، في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر، عرض غاريبالدي في كازرتا أربعة عشر ألفاً من المُشَاة وثلاثمائة فارس يُنتظَر أن يؤدّوا التحية للملك، ولكن الملك لم يحضر.

في 7 تشرين الثاني/نوفمبر دخل الملك ظافراً إلى نابولي؛ وانسحب غاريبالدي، كأنه شيشيناتي حديث، إلى جزيرة كابريرا. - يا له من رجل، كان يقول نييڤو، ويبكي، مثلما يحدث للشعراء (الأمر الذي كان يُغْضِب سيمونيني كثيراً).

بعد أيام قلائل تمّ حلّ الجيش الغاريبالدي، وضمّ/ عشرين ألفاً من المتطوّعين إلى الجيش البيمونتي، ولكن أُقحم فيه أيضاً ثلاثة آلاف ضابط بوربونيّ.

- هذا شيء عادل، كان يقول نييڤو، هم أيضاً إيطاليّون، ولكنها خاتمة كئيبة لملحمتنا هذه. أنا لن أَمتهن الجنديّة، سآخذ راتباً لستّة أشهر خدمة، ثم الوداع. ستّة أشهر لإتمام مهمّتي، أرجو أن تكفيني.

كان دون شكّ عملاً شاقّاً، لأنّه في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر كان قد أتمّ الحسابات فقط إلى نهاية شهر تموز/يوليو. تَلْزمه حسب التقريب ثلاثة أشهر أُخرى وربما أكثر.

عندما وصل فيتّوريو إيمانويلي في كانون الأول/ديسمبر إلى بالرمو كان نييڤو يقول لسيمونيني: - إنّني القميص الأحمر الوحيد في هذه البقاع وكلّهم ينظرون إليّ وكأنّني همجيّ. وينبغي أن أردّ على افتراءات أولئك اللافارينيّين الأغبياء. يا للّه، لو تصوَّرتُ أن الأمور ستؤول إلى مثل هذه الحال، لألقيت بنفسي في البحر عِوض أن أركبه من جَنوَة للمجيء إلى هذا الجحيم.

لم يستطع سيمونيني حتى هذا الحين أن يجد وسيلة للاستحواذ على تلك الدفاتر الملعونة. وفجأة عند منتصف كانون الأول/ديسمبر أعلن له نييڤو أنّه سيعود لفترة وجيزة إلى ميلانو. أتاركاً الدفاتر في بالرمو؟ أَحاملاً إيّاها معه؟ لا أحد يعرف.

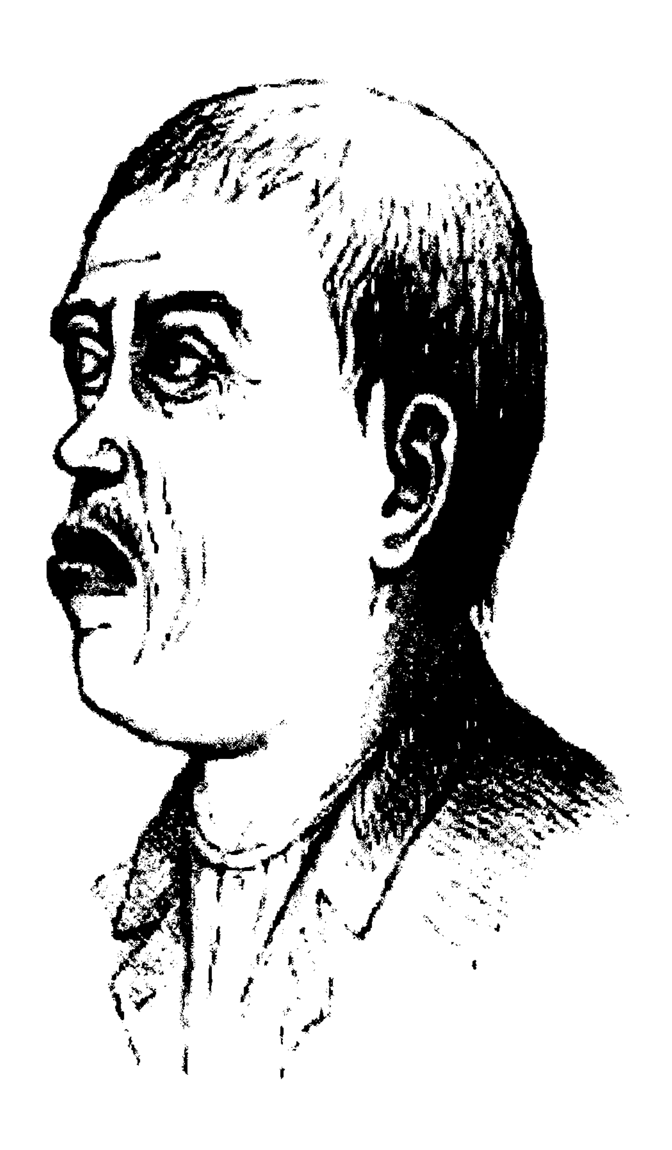
ظَلَّ نيفو غائباً قرابة الشهريْن وحاول سيمونيني أن يقضي تلك الفترة الكئيبة (لستُ عاطفيّا، كان يقول لنفسه، ولكن أيّ عيد ميلاد هذا في صحراء دون ثلوج ووسط الصبّارة؟) مكتشفاً أحواز بالرمو. اشترى بغلة، ولبس من جديد جبّة الأب برغماسكي، وأخذ يجوب القرى، مجمّعاً من ناحية أقاويل الكَهَنة والفلاحين، ولكن في الأكثر مكتشفاً أسرار الطبخ الصقلّي.

كان يجد في بعض المطاعم المُنعزلة خارج الأبواب أكلات شهيّة ريفية وبثمن زهيد (ولكن ذات مذاق رائع) مثل الماء المطبوخ: يكفي أن تضع شرائح خبز في وعاء مع زيت زيتون كثير وفلفل مطحون لوقته؛ وتُغلى في ثلاثة أرباع ليتر من الماء المملّح بصلات مقطّعة، قطع من الطماطم والنعنع البرّي، وبعد عشرين دقيقة يُصبّ الكلّ فوق الخبز، ويُترك ليتشرّب مدّة دقيقتيْن، ثمّ يُقدّم ساخناً.

اكتشف عند باب باغيريّا حانة فيها بضع طاولات في رُواق مُعْتِم، ولكن في ذلك الظلّ الرائق، المُرَحِّب حتى في الأشهر الشتويّة، يُعِدّ صاحب الحانة، وهو في الظاهر (وربما في الجوهر) قذرٌ شيئاً ما، أطباقاً رائعة أساسها الأحشاء، مثل القلب المحشوّ، وجيلاتين الخنزير، وبنكرياس العجل وكلّ أنواع الأحشاء.

هنالك تعرّف على شخصَيْن، مختلفَيْن أحدهما عن الآخر، ووَحدَها عبقَريّته استطاعت أن تجمعهما، بعد ذلك، في مُخطّط واحد. ولكن لا نستبقنَّ الأحداث.

الأوّل يبدو معتوهاً مسكيناً. كان صاحب الحانة يقول إنّه يُطعمه ويأويه شفقة به، حتى وإن كان في الواقع قادراً على القيام بخدمات عديدة مفيدة. كلّهم يدعونه بلقب برونتي، ويظهر حقاً أنه أحد الناجين من مجزرة برونتي. كانت دائماً تهيجه ذكريات الثورة، وبعد بعض الأكواب من الخمر، كان يضرب الطاولة بِجُمْع يده صائحاً: "Cappelli guaddativi, l'ura du giudizziu s'avvicina, populu non mancari all'appellu"، ما معناه "أيّها الملّاكون احذروا لأنّ ساعة الحساب قريبة، أيّها الشعب لَبِّ النداء". وهو الشعار الذي كان يصيح به قبل الثورة صاحبه نونتسيو تشيرالدو فرايونكو، أحد الأربعة الذين أعدمهم بيكسيو.



. . . كلّهم يدعونه بلقب برونتي، ويظهر حقاً أنه أحد الناجين من مجزرة برونتي. . . (ص159)

لم تكن حياته الثقافية مُكَثَّفة، ولكن كانت لديه على الأقلّ فكرة، تستحوذ عليه: يريد أن يقتل نينو بيكسيو.

كان برونتي بالنسبة إلى سيمونيني شخصاً غريباً فقط، يسلّيه قليلاً في السهرات الشتوية المُضجرة. وفوراً بدا له الشخص الثاني جديراً أكثر بالاهتمام، مع أنّه في البداية كان نَفُوراً وشَرِس الطّباع، ولكن بعد أن سمعه يوماً يسأل صاحب الحانة عن مُكوِّنات بعض الأطباق، تدخَّل في الحديث كاشفاً عن نفس تهوى الأكل الطيّب تماماً مثل سيمونيني. فكان هذا الأخير يقصّ عليه كيف تُحضّر معكرونة أنيولوتي البيمونتيّة، وهو يكشف له جميع أسرار الكابوناتا، وبينما كان سيمونيني يحدّثه عن اللحم النَّيِّئ على طريقة ألبا، ما يكفي لإثارة شهيّته، ها هو يسهب في وصف أنواع حلوى اللوز.

كان نينوتسو هذا يكاد يتكلّم الإيطالية، ويُفهم من كلامه أنّه سافر حتى إلى بلدان أجنبيّة. إلى أن أفضى له -بعد أن أعلن أنّه يقدّس مريم العذراء في مختلف كنائس تلك الجهات وأنّه يحترم ثوب سيمونيني الكَنَسي- بوضعيّته الغريبة: كان حرّاقاً في الجيش البوربوني، ولكن ليس كجنديّ، بل كحِرَفّي خبير مكلّف بحراسة وبإدارة مستودع متفجّرات غير بعيد من هناك. طَرَدَ الغاريبالديّون منه الجنود البوربونيّين واحتجزوا الذخيرة والمتفجرات، ولكن حتى لا يفقدوا تماماً المخزن، احتفظوا بنينوتسو في الخدمة كحارس للمكان، مؤجَّراً من طرف المعتمدية العسكرية. وهناك عاش، في ضجر، ينتظر الأوامر، كلّه ضغينة إزاء المُحتلّين القادمين من الشمال، كلّه حنين نحو مَلِكه، متخيّلاً ثورات وحركات تمرّد.

- بإمكاني أن أفجّر نصف بالرمو لو أردت، قال هامساً لسيمونيني، بعد أن أدرك أنّه هو الآخر لا ينتمي إلى شقّ البيمونتيّين. وروى له، أمام بالغ اندهاشه أنّ الغاصبين لم يتفطّنوا إلى وجود قبو تحت مخزن المتفجّرات، لا يزال مليئاً ببراميل من البارود، وقنابل يدويّة، وآلات حربيّة أخرى. وينبغي الحفاظ عليها، ليوم الانتفاضة الوشيك، بما أنّ مجموعات من المقاومين بصدد تنظيم أنفسها فوق الجبال، لجعل حياة الغُزاة البيمونتيّين جحيماً.

وما إن يبدأ في الحديث عن المتفجّرات حتّى يشعّ وجهه ويكاد يصبح

خياله القبيح وعيناه المُظلمتان جميلتيْن. إلى أن حدث ذات يوم وذَهَبَ بسيمونيني إلى مستودعه وبعد أن خرج من رحلة استكشافية في القبو، مدّ له في كفّه حبّات صغيرة يميل لونها إلى السواد.

- آه، يا أبتِ الجليل، كان يقول، لا يوجد شيء أجمل من بارود عالي الجودة. تأمّل في لونها، رماديّ أردواز، والحبّات لا تتفتّت تحت ضغط الأصابع. لو كانت عندك قطعة ورق لوضعتُها فوقها، وألهبتُ فيها النّار، وستشتعل دون أن تمسّ الورق. في السابق كانوا يصنعونها بخمسة وسبعين جزءاً من ملح البارود، اثني عشر جزءاً من الفحم واثني عشر من الكبريت، ثمّ مرّوا إلى ما يعرف بالخلطة الإنكليزيّة، وهي خمسة عشر جزءاً من الفحم وعشرة من الكبريت، وهكذا تخسر الحروب لأنّ قنابلك اليدويّة لا تنفجر. الآن، نحن أهل المهنة (ولكن للأسف، أو بحمد اللّه، عددنا قليل) عِوَض ملح البارود نستعمل نيترات الشيلي، وهو مختلف تماماً.

- هل هو أفضل؟

- الأفضل إطلاقاً. انظر أيها الأبُ الجليل، يخترعون من المتفجّرات كلّ يوم نوعاً جديداً، وكلّ واحد أسوأ من الآخر. كان هناك ضابط مَلَكي (أعني المَلِك الشرعي) يتظاهر بكونه عالماً كبيراً وينصحني بالمادّة الجديدة جداً، البيروغليسيرين. لم يكن يعرف أنّها تعمل فقط بالقَدْح، وبالتالي يصعب تفجيرها لأنّه يجب أن تكون هناك لِدَقّها بمطرقة وستتفجّرُ أنت الأول معها. اسمع نصيحتي، إن أردت حقيقة أن تدمّر شخصاً آخر لا شيء أفضل من صديقنا القديم البارود. ومعه سيكون المشهد رائعاً.

كان السيد نينوتسو يبدو سعيداً، كما لو أنّه لا يوجد شيء أجمل من ذلك في الدنيا. في البداية لم يُولِ سيمونيني اهتماماً كبيراً لهذيانه. ولكن سيأخذه بعين الاعتبار بعد ذلك، في شهر كانون الثاني/يناير.

وبالفعل، قال لنفسه أثناء دراسته لبعض الطُّرُق التي تُمكّنه من الاستحواذ على حسابات الحملة: إمّا أنّ الحسابات موجودة هنا في بالرمو، وإمّا أنّها

ستعود إلى بالرمو من جديد عندما يرجع نييڤو من الشمال. بعد ذلك، سيضطرّ نييڤو إلى حملها إلى تورينو عن طريق البحر. لذا لا جدوى من اقتفاء خطاه ليلاً نهاراً، فلن أصل أبداً إلى الخزنة السريّة، وحتى إن وصلت إليها فلن أتمكّن من فتحها. وإن وصلت إليها وفتحتها، فستخرج منها فضيحة، سيعلن نييڤو عن اختفاء الدفاتر، وقد يُتّهم بذلك مُكَلَّفِيَّ التورينيّون. ولا يُمكن أن تمرّ الحادثة دون ضجّة لو أنّي فاجأت نييڤو والدفاتر بين يديه ورشقت خنجري في ظهره. فجثّة مثل جثّة نييڤو ستتسبَّبُ دائماً في حَرجٍ بالغ. يجب أن تتحوّل الدفاتر إلى دُخان، هكذا قالوا لي في تورينو. ولكن لا بدّ أن يتحوّل معها نييڤو أيضاً إلى دُخان، بحيث إنّه أمام اختفائه (الذي يلزم أن يبدو عَرَضيّاً وطبيعيّاً)، يصبح اختفاء الدفاتر شيئاً ثانويّاً. الحلّ، إذن، هو إحراق أو تفجير مبنى المعتمدية العسكرية؟ كلّا، سيُحدث ذلك ضجة كبيرة. لم يَبْقَ إلّا حلّ، اختفاء نييڤو، والدفاتر، وكلّ ما معه، أثناء رحلته في البحر من بالرمو إلى تورينو. في مأساة غرق بحريّة يموت فيها خمسون أو ستّون شخصاً لن يخطر ببال أحد أنّ كلّ ذلك دُبّر لإتلاف بعض الأوراق.

فكرة لا تخلو دون شكّ من جُرأة وخيال، ولكن يبدو أنّ سيمونيني نضج سنّاً ومعرفة؛ ولم يعد ذلك الذي كان يتسلّى بألاعيب عديمة الأهميّة مع بعض رفاق الجامعة. شاهد الحرب، وتعوّد على الموت، ولحسن الحظ على موت الآخرين، وكان حريصاً على أن لا ينتهي به المطاف سجيناً في إحدى تلك القلاع التي حدّثه عنها نيغري دي سان فرون.

فكّر سيمونيني بطبيعة الحال طويلاً في هذه الخطّة، وذلك أيضاً لأنه لم يكن لديه من عمل آخر. ولذا كان يتشاور مع نينوتسو، بعد أن يدعوه لتناول بعض الأكلات الشهيّة.

- يا معلّم نينوتسو، أنت تتساءل لِمَ وجودي في هذا المكان، وسأقول لك إنّني هنا بأمر من قداسة البابا، بقصد إعادة ملكنا على عرش الصقليّتيْن.

- أيّها الأب المبجّل، أنا تحت أمرك.

- في تاريخ لم يتحدّد بعد، ستغادرُ السفينة ميناء بالرمو في اتّجاه القارّة.

ستحمل هذه السفينة خزنة توجد فيها أوامرُ وخططٌ الغاية منها تهديم سُلطة البابا المقدّس بصفة نهائيّة وتلويث سُمعة ملكنا. يجب أن تغرق السفينة قبل وصولها إلى تورينو، وأن لا ينجو منها لا المتاع ولا العباد.

- لا شيء أيسر من هذا، يا أبتِ. نستعمل اكتشافاً حديثاً جداً، يبدو أنّ الأمريكيّين بصدد وضع لمساته الأخيرة: "نسيفة بالفحم". يتمّ إخفاء النسيفة وسط كوم الفحم المعدّ لتشغيل السفينة، وعندما يوضع في المِرْجَل، تسخن النسيفة جيّداً وتحدث انفجاراً.

- فكرة طيّبة. ولكن يجب إلقاء قطعة الفحم في المِرْجَل في الوقت المناسب. لا ينبغي أن تتفجّر السفينة لا قبل الأوان ولا بعد الأوان، أي ليس بعد قليل من إبحارها أو قبل وصولها بقليل، لأنّهم سيتفطّنون لذلك. يجب أن تتفجّر في منتصف رحلتها، بعيدا عن الأنظار المتطفّلة.

- لقد صار الأمر أكثر صعوبة. بما أنّه لا يُمكن رشوة عامل المِرْجَل لأنّه سيكون الضحية الأولى، ينبغي التكهّن باللحظة المضبوطة التي تُلقى فيها النسيفة في المرجل، وهذا لا تقدر عليه حتى أكبر الساحرات...

- إذن؟

- إذن يا أبتِ العزيز، الحل الوحيد، الذي ينجح دائماً، هو البرميل التقليدي المُعَبّأ بالبارود مع فتيلة جيدة.

- ولكن من سيقبل إشعال الفتيلة على متن السفينة وهو يعلم أنّه سيذهب ضحيّة الانفجار؟

- لا أحد، إلّا إذا كان خبيراً، والحمد للّه أو للأسف أنه قد بقي منهم قلّة. باستطاعة الخبير أن يقدّر طول الفتيلة. في السابق كانت الفتائل مصنوعة من قصبة تبن محشوة بالبارود الأسود، أو من خيط مُكَبْرَت، أو من حبال مشرّبة بملح البارود ومُقَطْرنة. ولا يُمكن أبداً التكهُّن بالمدّة التي تستغرقها لبلوغ الغاية. ولكن بفضل اللّه توجد منذ ثلاثين سنة الفتيلة ذات الاشتعال البطيء، وأنا بكلّ تواضع أحتفظ منها ببعض الأمتار في القبو.

- وبهذه الفتيلة؟

- بهذه الفتيلة يُمكنك أن تُحدّد مقدار ما يلزم من وقت بين إشعال الفتيلة ووصول النار إلى البارود، ويُمكن تحديد الزمن حسب طول الفتيلة. وبالتالي، إذا كان الحرّاق يعرف أن بإمكانه بعد إشعال الفتيلة أن يلتحق بزورق نجاة، بحيث أنّ السفينة تتفجّر عندما يكون قد ابتعد عنها بالقدر الكافي، فسيمُرُّ كلّ شيء على أحسن ما يرام، ماذا أقول، سيكون خارقاً للعادة.

- يا معلّم نينوتسو، يوجد إشكال. . . لنفترض أنّ البحر في تلك الليلة هاج واستحال إنزال قارب النجاة. هل يستطيع حرّاق مثلك الإقدامَ على مجازفة من هذا النوع؟

- بصراحة لا، يا أبتِ.

ليس بالإمكان أن يطلب من المعلّم نينوتسو المجازفة بموت محقّق. ولكن ربما يُمكن طلب ذلك من شخص أقلّ فِطْنة منه.

في أواخر كانون الثاني/يناير عاد نييفو من ميلانو إلى نابولي حيث قضى قُرابة نصف شهر، ربما لجمع بعض الوثائق هناك. ثم جاءه أمر بالعودة إلى بالرمو، وبجمع كلّ دفاتره (دليل على أنّها بقيت هناك) وحملها إلى تورينو.

كان اللقاء مع سيمونيني حارّاً ومُفْعَماً بالمودّة. أطلق نييفو العِنان لتأمّلاته العاطفية، وهو يتحدث عن رحلته إلى الشمال، وعن حبّه المستحيل الذي تأجّج -لتعاسته أو لسعادته- من جديد أثناء تلك الزيارة القصيرة. . . وكان سيمونيني يستمع بعينيْن تكادان تكونان مُغْرَوْرِقَتَيْن بالدموع إلى حكايات صديقه الرثائيّة، بينما كان في الواقع مشتاقاً فقط لمعرفة أي السّفن ستحمل الدفاتر إلى تورينو.

وأخيراً صارحه نييفو. في أوائل آذار/مارس سيغادرّ بالرمو في اتجاه نابولي على متن السفينة هرقل، ومن نابولي سيواصل نحو جَنَوة. هرقل سفينة معتبرة تسير بالبخار من صنع إنكليزي، تعمل بعجلتيْن جانبيّتيْن، وحوالى خمسة عشر نُوتيّاً، قادرة على حمل العشرات من المسافرين. لها تاريخ طويل، ولكنّها

لا تزال في حالة جيّدة وتقوم بمهمّتها كما ينبغي. منذ تلك اللحظة اهتمّ سيمونيني بجمع كلّ المعلومات الممكنة، وهكذا عرف في أيّ فندق يقيم القبطان، ميكيلي مانتشينو، ومن خلال أحاديثه مع البحّارة كَوَّنَ فكرةً عن الترتيب الداخلي للمركب.

عندئذٍ لبس من جديد الثوب الكهنوتي، ومتسلّحاً بما يلزم من وقار عاد إلى باغيريا واختلَى بِبرونتي جانباً.

- برونتي، هناك سفينة ستقلع قريباً من بالرمو وستحمل نينو بيكسيو إلى نابولي. لقد حان الوقت لكي نثأر، نحن آخرَ المُدافعين عن العرش، لما فعله في قريتك. وسيكون لك شرف تنفيذ ذلك.

- قل لي ماذا يجب أن أفعل.

- هذه فتيلة، قد حُدّدت مُدّتها من طرف شخص يعرف أكثر مني ومنك. لُفَّها حول حزامك. أحد رجالنا، الكابيتان سيمونيني، ضابط غاريبالديّ ولكنّه مخلص سريّاً لملكنا، سيحمل على متن السفينة صندوقاً محاطاً بالسرّ العسكري، مع التأكيد أن يُوجَد دائماً إلى جانبه في قعر السفينة رجل من ثِقاته، أي أنت. بطبيعة الحال سيكون الصندوق مليئاً بالبارود. سيركب سيمونيني معك على متن السفينة وعند مستوى جزيرة سترومبولي سيعمل على تبليغك أمراً بنزع الفتيلة من حزامك، وإعدادها وإشعالها. في الأثناء نفسها سينزل قارب نجاة إلى البحر. سيكون طول الفتيلة وكثافتها مدروسيْن لِيُمَكّناك من الصعود من القَعْر والالتحاق بمقدّمة السفينة، حيث سينتظرك سيمونيني. سيُتاحُ لكما الوقت الكافي للابتعاد عن السفينة قبل أن تنفجر، ومعها بيكسيو الملعون. ولكنك أنت لن تنظر إلى سيمونيني هذا، ولن تقترب منه حتى وإن رأيته. عند وصولك إلى السفينة على العربة التي سيقودها نينوتسو، ستجد بحّاراً اسمه ألمالو. سيقودك إلى قعر السفينة وستبقى هادئاً هناك إلى أن يأتيك ألمالو ليقول لك أن تفعل ما جِئْتَ من أجله.

كانت عينا برونتي تشعّان بوميض، ولكنّه لم يكن غبيّاً تماماً، لأنّه سأله: - وإذا كان البحر مضطرباً؟

- إذا أحسست وأنت في القعر أنّ السفينة ترقص شيئاً ما فلا تَخَفْ،

فقارب النجاة متّسع ومتين، له صارٍ وشراع، ولن تكون اليابسة بعيدة. وبعد هذا كلّه، لو ارتأى سيمونيني أنّ الأمواج عالية فلن يجازف بحياته. لن يصلك أيّ أمر، وبيكسيو سيلقى حتفه بطريقة أخرى. ولكن إذا بلغك الأمر فلأنّ أحدهم يعرف البحر أكثر منك قد قرَّر أنكما ستصلان سالمَيْن مُعافَيَيْن إلى سترومبولي.

أَبْدَى برونتي حماسة وموافقة تامّة. مُحادثات طويلة مع المعلّم نينوتسو لإعداد الآلة الجهنميّة. في اللحظة المناسبة، تقدّم سيمونيني مُرتدياً أثواباً تكاد تكون جنائزية كما يجدر بالجواسيس، إلى القبطان مانتشينو حاملاً جوازاً كلّه طوابع وأختام، يتضّح منه أنّه ينبغي بأمر من جلالة الملك فيتّوريو إيمانويلي الثاني حمل صندوق كبير فيه وثائق على غاية من السريّة إلى نابولي. يجب وضع الصندوق في قعر السفينة لكي يختلط بالبضائع الأخرى ولا يلفت الأنظار، ولكن لا بد أن يظل بجانبه ليلاً نهاراً رجلٌ يحظى بثقة سيمونيني. سيتقبّله البحّار ألمالو الذي سبق أن قام بخدمات سريّة للجيش، وفي ما عدا ذلك لا ينبغي أن يهتم القبطان بأيّ شيء. في نابولي سيتسلّم ضابط من المُشاة الصندوق.

كانت الخطّة، إذن، بسيطة جداً ولن تلفت العمليّة انتباه أحد، وبالخصوص انتباه نييفو الذي سيكون منشغلاً بالأحرى بحراسة صندوقه ودفاتره.

كان من المتوقّع أن تُبْحِر هرقل حوالى الواحدة بعد الزَّوَال، وستدوم الرحلة إلى نابولي خمس أو ستّ عشرة ساعة؛ يكون من المستحسن تفجير السفينة عندما تقترب من جزيرة سترومبولي الذي كان بُركانها الثائر دائماً ثوراناً متواصلاً وهادئاً يُلقي أَلْسِنة من لهب في ظلام الليل، بحيث لن يلفت الانفجار انتباه أحد، حتى في أنوار الفجر الأولى.

اتصل سيمونيني، بطبيعة الحال، منذ مدّة بألمالو، الذي بدا له الأكثر خساسة من بين النوتيّة، ورشاه بسخاء ثمّ أعطاه التعليمات الأساسيّة: سينتظر برونتي على الرصيف وسيؤويه في قعر السفينة مع الصندوق. فيما عدا ذلك، قال له: في المساء عندما تظهر في الأفق نيران سترومبولي، ومهما كانت حالة البحر، انزل إلى قعر السفينة، واذهب إلى ذلك الرجل، وقل له: "القبطان يقول

لك إنّ الساعة قد حانت". لا تهتمّ بما فعل أو سيفعل، ولكن حتى لا تشدّك الرغبة في التطفُّل، يكفيك أن تعرف أنّ عليه أن يبحث في الصندوق عن قارورة فيها رسالة وأن يلقيها من النافذة. سيكون بالقرب من هناك شخص على قارب لالتقاط القارورة وحملها إلى سترومبولي. أما أنت فَعُدْ إلى مرقدك وانسَ كلّ شيء. إذن، أَعِدْ عليّ ما يجب أن تقول له.

- القبطان يعلمك أن الساعة قد حانت.

- برافو.

وقفَ سيمونيني ساعة إبحار السفينة على الرصيف ليودّع نييڤو. كان الوداع مؤثّراً: - صديقي العزيز، قال له نييڤو، لقد كنتَ بجانبي زمناً طويلاً، وفتحتُ لك قلبي. من المحتمل أن لا نلتقي بعد الآن. بعد إيداع حساباتي في تورينو، سأعود إلى ميلانو وهناك... سنرى. سأشتغل على كتابي. الوداع، عانقني، ولتحيا إيطاليا.

- الوداع يا صديقي إيبوليتو، سأتذكّرك دائماً، خاطبه سيموني، بل وتوفق في اعتصار بعض الدمعات لفرط تماهيه مع دوره.

أنزل نييڤو من عربته صندوقاً ثقيلاً، وتابع مساعديه وراقبهم بدقة، وهم يحمّلونه فوق السفينة. قبل أن يصعد بقليل سُلَّم السفينة، جاء صديقان له، كان سيموني لا يعرفهما، لتوديعه ولحثّه على العدول عن السفر على متن هرقل، التي كانا يعتبرانها غير آمنة تماماً، بينما في الصباح الموالي ستقلع السفينة إليتريكو، التي تبدو أكثر أماناً. شعر سيموني لحظة ببعض القلق، ولكن نييڤو هزّ كتفَيْه وقال إنّه من الأفضل أن تصل وثائقه في أقرب وقت إلى مستحقيها. بعد ذلك بقليل غادرت هرقل مياه المرفأ.

لا يُمكن الادعاء أن سيموني قضى الساعات التالية في حُبُور إلّا إذا بالغْنا في الزعم بأن دمه بارد جداً. بل إنّه قضى كامل اليوم والمساء في انتظار ذلك الحدث الذي لن يشاهده، حتى ولو صعد على قمّة بونتا رايسي التي ترتفع خارج



... باحتساب الوقت، قال لنفسه، حوالى التاسعة مساء: لا شك أن كل شيء قد انتهى... (ص170)

بالرمو. باحتساب الوقت، قال لنفسه، حوالى التاسعة مساء: لا شك أن كل شيء قد انتهى. لم يكن واثقاً من أنّ برونتي أنجز العمليّة كما ينبغي، ولكنه كان يتخيّل البحّار في عُرْض سواحل سترومبولي وهو يأتيه ليعطيه الأوامر، وذلك المسكين وهو ينحني لإقحام الفتيلة في الصندوق ولإشعالها، ثم وهو يجري سريعاً إلى مقدّمة السفينة حيث لن يجد أحداً في انتظاره. لعلّه تفطّن إلى الخدعة، وهرع كالمجنون (وماذا يُمكن أن يكون غير ذلك؟) نحو القعر لإطفاء الفتيلة، ولكن سيكون الأوان قد فات وسيفاجئه الانفجار في طريق العودة.

كان سيمونيني يحسّ بالرضى عن المهمّة التي أنجزها إلى حدّ أنّه ارتدى من جديد اللباس الكهنوتي وذهب إلى حانة باغيريا ليمتّع نفسه بعشاء لذيذ قوامه معكرونة بالسردينة وبيشيستوكو غيوتّا (سمك مجفّف يُترك يوميْن في الماء البارد لِيَلِين ثم يُقطع إلى شرائح، بصلة، عُرْف من الكَرَفْس، جزر، كوب من الزيت، لبّ الطماطم، زيتون أسود بدون نواة، بندق، عنب سلطاني وإجّاص، كبّار غير مالح، ملح وفلفل).

ثمّ أخذ يفكّر في المعلّم نينوتسو... لا ينبغي أن يترك شاهداً بهذه الخطورة حرّاً طليقاً. امتطى من جديد بغلته وذهب إلى مستودع البارود. هناك وجد المعلّم نينوتسو جالساً إلى الباب يدخّن غليونه وتلقّاه بابتسامة عريضة: - هل تظنّ أن العمليّة نجحت يا أبتِ؟

- أظنّها نجحت، يجب أن تكون فخوراً يا معلّم نينوتسو. واحتضنه قائلاً "يحيا الملك"، كما جرت العادة في تلك البقاع. وعند احتضانه غرس في بطنه خنجره.

بما أنّه لا يكاد يمرّ أحد من هناك، من يدري متى سيعثرون على جثته. وفي الحالة النادرة حقاً أن تهتمّ الشرطة أو من يعمل لصالحها بالأمر وتصل إلى حانة باغيريا، فسيعلمون أنّ نينوتسو في الأشهر الأخيرة قضى أمسيات كثيرة صحبة رجل كنيسة أكول. ولكن حتى ذلك الكنسي سيختفي ولن يُعثر عليه، لأنّ سيمونيني سيسافر إلى القارة. أمّا برونتي فلن يهتمّ أحد باختفائه.

رجع سيمونيني إلى تورينو في أواسط شهر آذار/مارس، منتظراً أن يلتقي بموكّليه؛ لأنّ الوقت قد حان لصرف أجره. وذات عشيّة دخل بيانكو مكتبه، فجلس أمام طاولة العمل وقال له:

- سيمونيني، أنت تخطئ دائماً الهدف.

- كيف؟ احتجّ سيمونيني، أما كنتم تريدون حرق الدفاتر وإنّي أتحدّى أيّاً كان في العثور عليها.

- صحيح، ولكن احترق أيضاً العقيد نييفو، وهذا فاق ما كنّا نطمح له. لقد كَثُرَ الحديث عن غرق تلك السفينة، ولست أدري هل سأتمكّن من فرض السكوت على القضية. سيكون من العسير على المصالح السريّة أن تبقى خارج هذه القصّة. ولكنّنا في نهاية الأمر سننجح في ذلك، إلّا أنّ الحلقة الضعيفة الوحيدة في السلسلة هي أنت. سيظهر إن آجلاً أم عاجلاً شاهد يقول إنّك كنت صديقاً حميماً لنييفو في بالرمو، ويا للصدفة، كنت تعمل هناك لحساب بوجيو. بوجيو، كافور، الحكومة. . . يا إلٰهي، لا أجرؤ على تصوّر الأقاويل التي ستنجرّ عن كلّ ذلك. لذا يجب أن تختفي.

- القلعة؟ سأله سيمونيني.

- حتى عن شخص مسجون في قلعة تسري إشاعات. لا نريد أن تعاد مسخرة القناع الحديدي. فكّرنا في حلّ أقلّ مسرحيّة. أَغلقْ هنا الدكان والنشاط واختفِ في الخارج. اذهب إلى باريس، يكفي للمصاريف الأوليّة نصف الأجر الذي اتفقنا عليه. في نهاية الأمر أردت أن تفعل أكثر ممّا هو مطلوب منك، وهو كما لو أنّك قمت بنصف المهمّة. وبما أنّنا لا نزعم أنك ستقدر، عند وصولك إلى باريس، على البقاء طويلاً دون أن تحدث بعض الكوارث، سنربط لك على الفور الاتصال بزملائنا هناك، وبإمكانهم أن يكلفوك ببعض المهام السريّة. لنقل إنّك تحوَّلت لخدمة إدارة أخرى.

# 9

## باريــــــس

2 نيسان/أبريل 1897، ساعة متأخرة

لم أذهب إلى مطعم، منذ أن بدأتُ كتابة هذه اليوميّات. وجب عليّ في هذا المساء أن أعتني قليلاً بنفسي لذلك قرّرت الذهاب إلى مكان حيث مهما كان الشخص الذي سيلاقيني فيه، سيكون مخموراً إلى حدّ أنّه حتى وإن لم أتعرّف عليه أنا، فهو لن يتعرّف عليّ. أعني حانة الأب لونيت، قريباً من هنا، في شارع الإنكليز، وتسمّى هكذا لأنّه فوق مدخلها يوجد زوج ضخم من النظّارات "*à pince-nez*"(*)، لا يدري أحد منذ متى ولماذا وُضعت هناك.

يُمكن للمرء، لا أقول تناول الطعام فيها، بل على الأكثر أن يقضم بضعة قطع من الجبن يوفّرها صاحب الحانة مقابل شيء تافه، لأنها تؤجّج عطش الزبون. فيما عدا ذلك شرب وغناء - أو بالأحرى يغني "فنّانو" الحانة، فيفي الأفسنتينيّة، أرمان الزّعّاق و غاستون ثلاث قوائم. القاعة الأولى رُواق، نصفه محتلّ على طوله بطاولة الشُّرب من الزّنك مع الخمّار، وزوجته مع طفل صغير نائم وسط تجديف وقهقهة الزبائن. أمام طاولة الشرب، على طول الجدار، توجد طاولة قديمة يجلس إليها الزبائن الذين أخذوا كؤوسهم. وعلى رفّ وراء طاولة الشُّرب رُصفت أجمل مجموعة من المشروبات المحرقة للأمعاء التي يُمكن العثور عليها في باريس. ولكن الزبائن الحقيقيّين يجلسون في القاعة الداخليّة، طاولتان يجلس حولهما سُكارى نائمون أحدهم على كتف الآخر. كلّ الجدران تحمل كتابات ورسوماً تركها الزبائن، وهي في الغالب رسوم فاحشة.

---

(*) أي تُشدّ على الأنف. [المترجم].

جلستُ هذا المساء بجانب امرأة غارقة في ترشُّف كأس الأفسينت للمرّة الألف. بَدا لي أنّي أعرفها، كانت رسّامة لصُحف مصوّرة ثمّ هوت شيئاً فشيئاً، ربما لأنّها كانت تعرف أنّها مريضة بالسلّ ولم يبقَ لها وقت طويل تعيشه. الآن تُعرض على الزبائن أن ترسم لهم بورتريهاً مقابل كأس من الشراب، ولكن يدها صارت الآن ترتعش. إن حالفها الحظ فلن يقتلها السلّ، وإنما ستسقط ذات ليلة قبل ذلك في نهر بييڤر.

تبادلتُ معها أطراف الحديث (منذ عشرة أيّام وأنا أعيش منعزلاً، صِرتُ أجد بعض العَزاء حتى في التحادث مع امرأة) ومع كل كأس صغيرة من الأفسينت أقدّمها لها كنت أشرب كأساً معها.

وها إنّي أكتبُ الآن ونظري، وكذلك رأسي، مُعْتِم: وهي ظروف مثالية للتذكّر قليلا وبصفة غامضة.

لا أعرف شيئاً سوى أنني كنت مهموماً، عند وصولي إلى باريس، وهو أمر طبيعي (في نهاية الأمر، كنت منفيّاً)، ولكن المدينة استهوتني وقرّرت أن أعيش باقي حياتي فيها.

لم أكن أعرف كم من الوقت كان يجب عليّ أن أقتصد المال الذي حملته معي، واستأجرتُ غرفة في فندق في جهة بييڤر. تمكّنت لحُسْن الحظ من الحصول على غرفة لي وحدي، لأنَّ كلّ غرفة في تلك المآوي غالباً ما تحتوي على خمسة عشر فراشاً، أحياناً دون نوافذ. كان الأثاث متركّباً من بقايا بعض المخلّفات، وكانت الملاحف قذرة مليئة بالحشرات، فيها حوض من الزِّنك للاغتسال وسطل صغير للبول، ولا يوجد فيها ولو كرسيّ ولا أتحدّث عن الصابون أو عن المناشف. على الجدار كتابة تأمر بترك المفتاح في القفل من الخارج، بطبيعة الحال لكي لا يُضَيِّع أعوانُ الشرطة الوقت عندما يُداهمون الغُرَف، وغالباً ما يحدث ذلك، ويجذبون النائم من شعره ويتبيّنون وجهه على ضوء مصباح، تاركين من لا يهمّهم وقاذفين عبر السُّلّم من جاؤوا للبحث عنه، بعد ضربه ضرباً مبرِّحاً إذا ما أبدى مقاومة.

أمّا عن الأكل، فقد عثرتُ في شارع "بوتي بون" على حانة يُستهلك فيها بعض القُوت بثمن بَخْس: كلّ اللحوم الفاسدة التي كان قصّابو "لي هالّ" يلقون بها في الفضلات - مُخْضَرّة في أجزاء الشحم وسوداء في أجزاء اللحم - يقع التقاطها عند الفجر وبعد تنظيفها على عَجَل يرمون فوقها حفنات من الملح والفلفل، ويتركونها في الخلّ ويعلّقونها ثماني وأربعين ساعة في الهواء الطلق في قاع الفناء، ثم تصبح، بعد ذلك، جاهزة للزبون. الإسهال مضمون والسعر في المتناول.

بعد الحياة التي اعتدتُ عليها في تورينو، والأكلات الوافرة في بالرمو، كنت سأموت جوعاً في ظرف بضعة أسابيع لو لم تصلني الدّفعات الأولى من الأشخاص الذين أرسلني إليهم الفارس بيانكو. حينئذٍ صار بإمكاني ارتياد نوبلو، في "زقاق دي لاهوشيت". المطعم قاعة فسيحة تنفتح على ساحة عتيقة ويجب على الزبون أن يأتي مصحوباً بالخبز. تنتصب قرب المدخل طاولة عليها صندوق الدفع، تديره صاحبة المحلّ وبناتها الثلاث: يقمن بمراقبة الأطباق المرتفعة الثمن -لحم العجل المشوي، والجبن، والمربّى أو إجاصة مطبوخة مع جوزتيْن. يُقْبَل وراء طاولة الصندوق الزبائنُ الذين يطلبون على الأقلّ نصف ليتر من الخمر، حِرَفيّون، فنّانون خوالي الجيوب، نسّاخون.

تصل بعد تجاوز الصندوق إلى المطبخ، حيث يُطهى فوق أفران عظيمة مَرَق الخروف، أو الأرنب أو العجل، هريسة الجُلْبان أو العَدَس. لا يوفّر المحلّ أيّ خدمة: على الزبون أن يأخذ طبقه ومِلْعَقته وشوكته وسكينه، ويأخذ مكانه في الصفّ أمام الطبّاخ. وهكذا، يتدافع الزبائن ماسكين بأطباقهم إلى أن يجدوا مكانهم حول المائدة الضخمة "table d'hôte". فَلْسان للحَساء، أربعة للعجل، عشرة سنتيمات للخبز الذي يُحمل من الخارج، وإذا بك تتعشى بأربعين سنتيماً. كان كلّ شيء يبدو لي شهيّاً، ومن ناحية أخرى تفطّنتُ إلى أنّه كان يقصد المكان حتى أشخاص أثرياء، فقط بدافع عيش حياة الصعاليك.

ومن جهة أخرى، لم أندم أبداً، حتى قبل الذهاب إلى نوبلو، على تلك الأسابيع الأولى من الجحيم: أقمتُ علاقات نافعة وتعوّدتُ على بيئة كان ينبغي

عليّ أن أسبح فيها لاحقاً مثل سمكة في الماء. وبالاستماع إلى الأحاديث المتبادلة في تلك الأزقة اكتشفتُ شوارع أخرى، في نقاط أخرى من باريس، مثل "ري دي لاپ"، المخصّصة كليّاً للحِدادة، سواء منها تلك الحِرَفيّة أو المخصّصة للخدمة العائليّة أو تلك المكرّسة لعمليّات غير مسموح بها مثل آلات الخلع أو مفاتيح مزيّفة، وحتى الخناجر ذات النصل القلوص يُمكن إخفاؤه في كمّ السترة.

كنت أحاول البقاء في غرفتي أقلّ ما يُمكن من الوقت، وأَهَبُ لنفسي تلك المتع الوحيدة التي يقدر عليها باريسي خاوي الجيب: التجوّل عبر الشوارع. لم أدرك إلى حدّ ذلك الوقت كم أنّ باريس كانت أكبر من تورينو. كنتُ معجباً بمشهد الناس من كلّ فئة يمرّون بجانبي، والقليل منهم لقضاء حاجة، وأكثرهم ليتفرّج بعضهم على بعض. والباريسيات الميسورات يلبسن بذوق رفيع، وما يجذبني فيهنّ، أكثر من جمالهنّ، هو تصفيفة شعرهن وقبّعاتهن. للأسف يتمشّى أيضاً على تلك الأرصفة الباريسيات، من وضعيّة دُنيا، واللاتي يتفنّن أكثر في أزيائهنّ للفت انتباه المنتمين إلى جِنْسنا.

هنّ أيضاً بَغايا، حتى وإن كُنّ أقلّ دعارة من اللاتي عرفتهنّ في "حانات النساء"، خصّصن أنفسهنّ لذوي الأصل الشريف الميسورين، ويتجلّى ذلك في تفنّنهنّ الشيطاني لاصطياد ضحاياهنّ. فيما بعد، فسّر لي أحد مُخْبريَّ كيف أنك في الماضي كنت ترى على البولفار فقط الـ "grisettes"، وهنّ شابّات غبيّات نوعاً ما، لم يكنّ عفيفات ولكنهنّ مُترفّعات، لا يطلبن من العاشق أثواباً أو جواهر، وذلك لأنّه أفقر منهنّ. ثمّ اختفيْنَ، مثل المِلّة الكارلينيّة. بعد ذلك ظهرت الـ *lorette* أو *biche* أو *cocotte*، ليست أكثر ذكاء وثقافة من الـ *grisette*، ولكنّها تحبّ الكشمير والفالبالا. عند وصولي إلى باريس، عوّضت المحظيّة الـ *lorette*: عشاق أثرياء، جواهر وعربات. سيّدات الكاميليا *dames aux camélias* هؤلاء اخترنَ كمبدإ أخلاقي أن يكنّ دون قلب ودون إحساس ودون اعتراف بالجميل، وأنّه ينبغي استغلال الضعفاء الذين يدفعون المال فقط ليتباهوا بهنّ في مسرح الأوبرا. يا له من جنس مقزّز.



... كنت معجباً بمشهد الناس من كلّ فئة يمرّون بجانبي... (ص176)

اتّصلت، خلال تلك الفترة، بكليمون فابر دي لاغرونج. بعثني التورينيّون إلى مكتب في مبنى صغير مظهره مُتواضع، في شارع ينصحني الحذر الذي تعلّمته في مهنتي أن لا أعرّف به أكثر، حتى وإن كان فوق ورقة لن يقرأها أحد أبداً. أظن أنّ لاغرونج يعمل بالقِسْم السياسي للإدارة العامّة للأمن العمومي، ولكنّني لم أفهم أبداً إن كان في القمّة من ذلك الهرم أو في القاعدة. يبدو أنّه لا يجب الاتصال بأحد غيره، وحتى لو عذّبوني لما استطعت أن أقول شيئاً عن تلك الآلة من المخابرات السياسيّة. وفي الواقع لم أكن أعرف حتّى إن كان للاغرونج مكتب في ذلك المبنى: كتبتُ إلى ذلك العنوان لأقول له إنّني أحمل رسالة تقديم من الفارس بيانكو، وبعد ذلك بيومَيْن وصلتني دعوة أمام رَحْبة نوتردام. سأتعرّف عليه من خلال زهرة قَرَنْفُل أحمر مرشوقة في سترته. ومنذئذٍ صرت ألتقي بلاغرونج دائماً في الأماكن الأكثر غرابة، في كاباريه، أو كنيسة، أو حديقة، ليس مرّتيْن في نفس المكان.

احتاج لاغرونج في تلك الأيام إلى وثيقة. صنعتها له بكامل الإتقان وكان حكمه عليّ إيجابيّاً. منذ ذلك اليوم بدأت أشتغل لصالحه بصفتي مُخْبِراً، أو *indicateur* مثلما يقولون عادة هناك، وأتقاضى في كلّ شهر ثلاثمائة فرنك إضافة إلى مائة وثلاثين للمصاريف (مع بعض الهِبات في حالات استثنائيّة، وعند إنتاج وثائق أخرى). كانت الإمبراطوريّة تدفع كثيراً لمُخْبريها، دون شكّ أكثر من مملكة سردينيا، وسمعت أنها تخصّص مليونين للمخابرات السياسية من مجموع ميزانية الشرطة المقدَّرة بسبعة ملايين فرنك سنويّاً. ولكن يقول آخرون إنّ الميزانيّة تبلغ سبعة ملايين، ولكن كانت تُؤخذ منها المصاريف للهُتافات عند مرور الإمبراطور، وللفرق الكورسيكيّة التي تُراقب المادزينيّين، والمستفزّين والجواسيس الحقيقيّين.

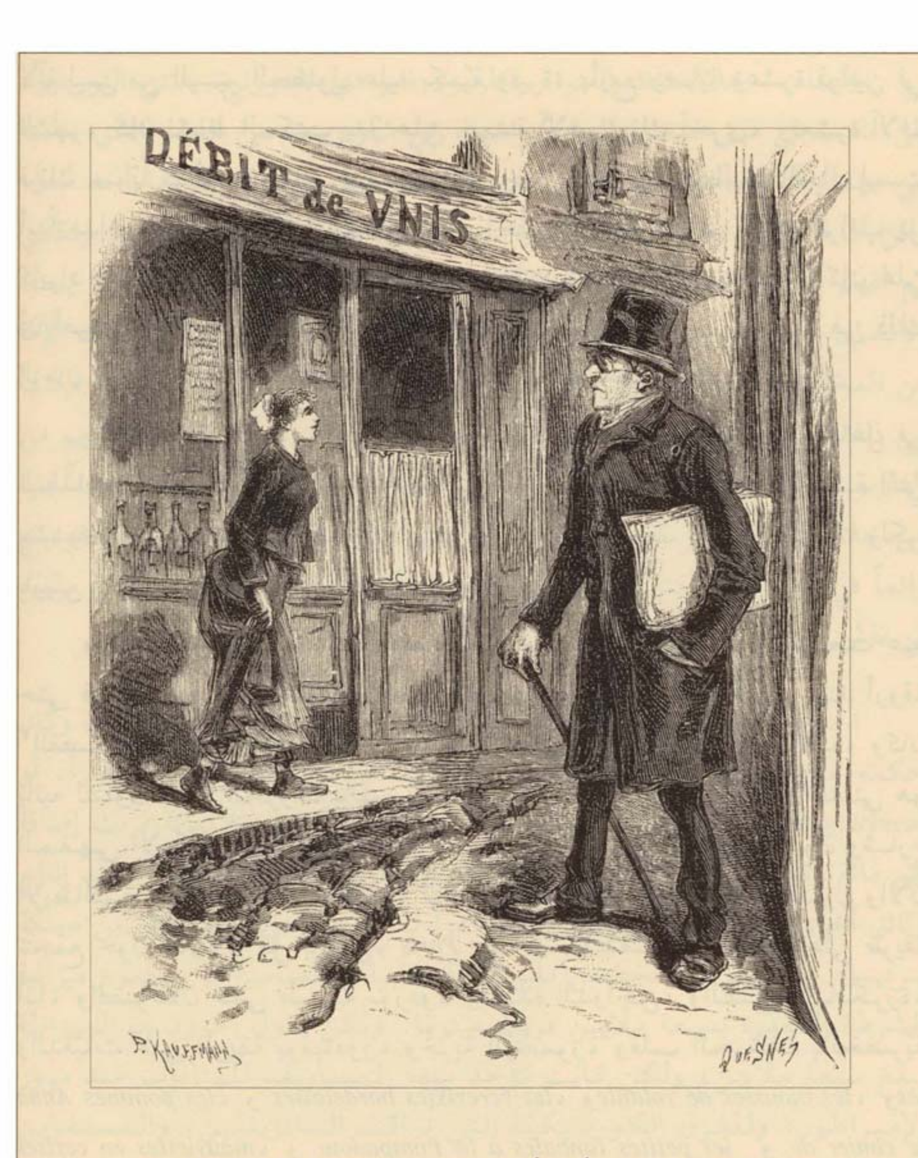
كنتُ أربح مع لاغرونج على الأقلّ خمسة آلاف فرنك في العام، ولكن تعرّفتُ بواسطته على زبائن من الخواص، وهكذا تمكّنت سريعاً من إحداث مكتبي هذا (أو بالأحرى الـ *brocantage* الذي يصلح تغطية). وباحتساب أنّ وصيّة مزوّرة تصل حتّى ألف فرنك، وأنّ القُرْبان المقدّس أبيعه بمائة فرنك للواحد،

لأنّه ليس من اليسير الحصول عليه بكميّة وفيرة، بأربع وصايا وعشرة قرابين في الشهر، كان نشاط المكتب يدرّ عليّ خمسة آلاف فرنك أخرى، وبعشرة آلاف فرنك سنويّاً كنتُ ما يُسمّى في باريس بورجوازيّاً ميسوراً. بطبيعة الحال ليست أبداً مداخيل مضمونة، وكان حلمي أن أحقّق لا عشرة آلاف فرنك كراتب بل كإيراد مدى الحياة، وبثلاثة بالمائة من سندات الدولة (الأكثر ضماناً) كان عليّ أن أضمن رأسمالاً بثلاثمائة فرنك. وهو مبلغ في متناول مومس، في ذلك الزمان، ولكن ليس في متناول كاتب عدل لا يزال مجهولاً لدى الأكثريّة.

بإمكاني، في انتظار فرصة حظ، حينئذٍ أن أتحوّل من مُشاهد إلى فاعل في الملذّات الباريسيّة. لم أهتمّ أبداً بالمسرح، وبتلك التراجيديات البغيضة التي ينشدون فيها بالبحور الإسكندريّة، والصالونات والمتاحف تثير فيّ الكآبة. ولكن باريس كانت توفّر لي ما هو أفضل: المطاعم.

والأوّل الذي أردت التنعّم به -حتى وإن كان باهظاً جداً- سمعتُ عنه حتى في تورينو. كان يُسمى "غران فيغور" Grand Véfour القائم عند أروقة "القصر الملكي" Polais Royal؛ يبدو أنّ فيكتور هيغو نفسه كان يرتاده، وكان يأتيه لتناول صدر الخروف باللوبية الخضراء. والمطعم الثاني الذي جذبني هو المقهى الإنكليزي Café Anglais، في الزاوية بين شارع غرامون وشارع الإيطاليّين. كان قبل ذلك مطعماً لحوذيّي العربات ولعاملات المنازل والآن تتجمّع حول طاولاته كلّ باريس، *le tout Paris*. اكتشفتُ فيه البطاطا على طريقة أنّا، والسرطان على طريقة بوردو، وقشدة الدواجن، والقبّرات بالكَرَزة، والدفيّات على طريقة بومبادور، وخُرْبة اليَحْمور، وقلب الخرشف بالخضريّة *les pommes Anna*، و *les écrevisses bordelaises*، و*les mousses de volaille*، و*les mauviettes en cerises*، و *les petites timbales à la Pompadour* و *le cimier de chevreuil*، و *les fonds d'artichauts à la jardinière*، والمثلّجات بالشمبانيا. ويكفي ذكر هذه الأسماء لأحسّ أنّ الحياة جديرة بأن تُحيا.

وعلاوة عن المطاعم كانت تسحرني الأروقة أو *passages*. كنتُ أعشق




... في ذلك الرواق لم أكن أنظر إلى العاملات بل إلى المطاردين. . .
(ص181)

بسّاج جوفروا، ربما لأنّه كان يأوي ثلاثة من أفضل مطاعم باريس، *Dîner de Paris*، و *Dîner du Rocher* و *Dîner Jouffroy*. يبدو، حتى الآن، خاصّة يوم السبت، يبدو أنّ كلّ باريس تتواعد في ذلك الرواق الزُّجاجي، حيث يتدافع نُبلاء أضناهم الضجر بسيّدات بالَغْنَ في العطورات حسب ذوقي.

ربّما كان رواق دي بانوراما يثير فضولي أكثر من غيره. كنتَ ترى فيها طُغْمة أكثر شعبيّة، وبورجوازيّين وقرويّين يلتهمون بأنظارهم تُحَفاً قديمة لن يتمكّنوا أبداً من اقتنائها، ولكن تتجوّل فيه أيضاً عاملات شابّات خرجن لوقتهنّ من المعمل. وإذا كان من اللازم حقّاً أن نختلس النظر إلى الفساتين، فالأفضل هنّ إناث رواق جوفروا، لمن يحبّ ذلك، ولكن لمشاهدة العاملات فإنّ مطاردي النساء أو *suiveurs*، وهم في العادة رجال في مُنتصف العمر بنظارات لونها أخضر مُدَخَّن، يجوبون ذلك الرواق ذهاباً وإياباً. أشكّ في أنّ كلّ تلك العاملات هنّ حقيقة عاملات: فكونهنّ يلبسن ثوباً بسيطاً، وغطاءَ رأس من التول، وقميصاً لا يعني شيئاً. يجب أن تُلاحظ أطراف الأصابع، إن لم تكن مُجَرّحة أو تحمل آثار خَدْش أو حروق فذلك يعني أنّ الفتيات يعشن حياة رخاء، وفعلاً بفضل المطاردين الذين يسحرنَهم.

في ذلك الرواق لم أكن أنظر إلى العاملات بل إلى المطارِدين (ومن ناحية أخرى من قال إنّ الفيلسوف هو الذي لا ينظر في الـ *Café chantant**، إلى المشهد بل إلى المشاهدين؟). هؤلاء يُمكن أن يصبحوا يوماً زبائني، أو أدواتي. أتبعُ البعض منهم حتى عندما يعودون إلى البيت، ربما لمعانقة زوجة ترهّلت بالشحم وطُغْمة من الصبيان. أسجّل العنوان. لعلّ وعسى. بإمكاني أن أهلكهم برسالة مجهولة الاسم. يوماً ما، إذا كان ذلك ضروريّاً.

---

* مقهى فيه عروض غناء ورقص. [المترجم].

لا أكاد أذكر شيئاً من المهامّ المختلفة التي كلّفني بها لاغرونج في البداية بقي في ذاكرتي اسم فقط، القسّ بولّان، ولكن كان ربما لأمر حدث من بعد، قبل الحرب أو بعدها بقليل (أذكر أنّه اندلعت خلال تلك المدّة حرب، ألقت بباريس في خضمّ الفوضى).

لقد بدأ مفعول الأفسنت يفعل فعله ولو أنّي نفخت على الشمعة لاندلع من ذبالتها لهيب.

# 10

## دلّا بيكّولا في حيرة

3 نيسان/ أبريل 1897

حضرة النقيب سيمونيني،

استفقتُ هذا الصباح ورأسي ثقيل ومذاق غريب في فمي. ليغفر لي الربّ، كان مذاق الأفسنت. أؤكد لك أنّي لم أقرأ بعد مذكراتك في الليلة الماضية. كيف يُمكن أن أعرف أنّك شربت الأفسنت لو لم أشربها أنا؟ وكيف يُمكن لرجل كنيسة أن يتعرّف على مذاق شراب ممنوع وإذن مجهول؟ وإلا فهو العكس، رأسي في فوضى، أكتب بصدد المذاق الذي شعرتُ به في فمي عند استفاقتي ولكني أكتبه بعد أن قرأتك، وما كتبته أنت أثّر عليّ. وبالفعل، إن لم أشرب أبداً الأفسنت، كيف عرفت أنّ ما أحسّ به في فمي هو أفسنت؟ إنّه مذاق شيء آخر، جعلتني يوميّاتك أعتبره أفسنت.

آه، يا إلهي، الحال هو أنّني استفقت في فراشي، وكان كلّ شيء يبدو عاديّاً، كما لو أنّني لم أفعل شيئاً آخر طيلة الشهر الماضي. ما عدا أني كنت أعرف أني سآتي إلى شقتك. هناك، أو بالأحرى هنا، قرأت صفحات يوميّتك التي كنت أجهلها. وجدتُ إشارتك إلى بولاّن، فَطَفَتْ على سطح ذاكرتي أشياء، ولكن بصفة غامضة ومشوّشة.

أعدت ذلك الاسم على نفسي بصوت عالٍ، مرّات عديدة، فأحدث في مُخّي رَجَّة، كما لو أنّ صاحبيك الدكتورين بورّو وبيرو وضعا على جزء من بدني معدناً مغناطيسيّاً، أو كما لو أنّ الدكتور شاركو حرّك أمام عينيّ إصبعاً، أو مفتاحاً، أو يداً مفتوحة وأدخلني في حالة من التنويم الواعي.

رأيتُ مثل صورة كاهن يبصق في فم امرأة تملّكها الشيطان.

# 11
## جولي

من يوميات 3 نيسان/ أبريل 1897، آخر الليل

تنتهي صفحة يوميّات دلّا بيكّولا بشكل مفاجئ. لعلّه سمع ضجّة، أو باباً يُفتح في الطابق السفلي، فتسلّل هارباً. أعترف أن الراوي كان أيضاً حائراً. الحال هو أنّ القسّ دلّا بيكّولا يبدو أنّه لا يستفيق إلى عندما يحتاج سيمونيني إلى صوت ضمير ينبّهه إلى اختلاقاته الهذيانيّة ويدعوه للرجوع إلى واقع الأحداث، وفيما عدا ذلك يبدو على الأكثر عديم الذاكرة بخصوص نفسه. وبصراحة، لولا أنّ هذه الصفحات تُورد أشياء حقيقيّة إطلاقاً، لبدا أنّ فنّ الراوي هو الذي نظّم هذا التناوب بين النشوة النسيانيّة والتذكّر المكتئب.

في ربيع 1865، دعا لاغرونج ذات صباح سيمونيني للقاء على مقعد في حديقة اللكسمبورغ، وأراه كتاباً بالياً مُصفرّ الغلاف، يبدو أنّه نُشر في أكتوبر 1864 في بروكسيل، دون اسم المؤلف، عنوانه: "حوار في الجحيم بين مكيافيلّي ومونتسكيو أو السياسة المكيافيلية في القرن التاسع عشر" من تأليف معاصر (*Dialogue aux enfers entre Machiavel et Montesquieu ou la politique de Machiavel au XIXe siècle, par un contemporain*)؛ وخاطبه:

- هذا، قال له، هو كتابُ شخصٍ يُدعى موريس جولي. الآن نعرف من هو، ولكن ذلك كلّفنا الكثير من التعب عندما اكتشفناه وهو يُدخل إلى فرنسا نُسَخاً من هذا الكتاب المنشور في الخارج ويوزّعها خفية. أو بالأحرى كان ذلك مُعقّداً ولكن غير عسير، لأنّ العديد من المُهربين لمواد سياسيّة هم أعواننا. يجب أن تعرف أنّ أفضل طريقة لمُراقبة طائفة مُخرّبة هي أن تقودها، أو على الأقلّ أن

تَثبُت في دفتر الرواتب أسماء زُعمائها الرئيسيّين. لا تُكتشف خُطط أعداء الدولة بوحي إلهي. يُقال، ربما بشيء من المُغالاة، إنّ ثلاثة من بين عشرة منتسبين لجمعيّة سريّة، هم جواسيسنا، أو *mouchards*، اعْذُر استعمالي لهذه العبارة ولكن هكذا يسمّيهم العامّة من الناس، ستّة هم أغبياء متشبّعون إيماناً وواحد هو خطير. ولكن لا نتيهنَّ في الكلام. الآن جولي في السجن، في سانت بيلاجي، وسنحتفظ به هناك أكثر ما يُمكن من الوقت. ولكننا نريد أن نعرف من أين استقى معلوماته.

- عَمَّ يتحدّث الكتاب؟

- أعترف أنّي لم أقرأه، فيه أكثر من خمسمائة صفحة - وهو اختيار خاطئ لأنّ مقال هجاء يجب أن يُقرأ في نصف ساعة. لقد أمدَّنا أحد أعواننا المختصّين في هذه الأشياء، شخصٌ يُدعى لاكروا، بتلخيص للكتاب. ولكنني أهدي لك النسخة الوحيدة الأخرى المتبقية. سترى كيف أن المؤلف يتصوّر في هذه الصفحات حواراً بين مكيافيلّي ومونتيسكيو في عالم الأموات، وإنّ مكيافيلّي هو المُنَظِّر لرؤية صِلفة للسلطة، يُؤيّد من خلالها شرعية جملة من العمليّات غايتها قمع حريّة الصحافة والتعبير، والمجلس التشريعي وكلّ تلك الأشياء التي يتحدّث عنها دائماً الجمهوريّون. ويقول ذلك بطريقة فيها من التفاصيل ومن الإشارات إلى زمننا الحاضر، حتى إنّ القارئ الأكثر سذاجة يدرك أنّ المقال موجّه للقدح في إمبراطورنا مُسْنِداً إليه نيّة إلغاء سلطة المجلس، ونيّته في طلب الشعب التمديد بعشر سنوات في ولاية الرئيس، وفي تحويل الجمهورية إلى إمبراطوريّة...

- اعذرني يا سيّد لاغرونج، ولكنّنا نتحدّث فيما بيننا وأنت تعرف ولائي للحكومة... لا يُمكنني أن لا ألاحظ، من خلال ما قلته، أنّ جولي هذا يلمّح إلى أشياء قام بها الإمبراطور فعليّاً ولا أرى لماذا نتساءل من أين استمدّ أخباره...

- ولكن جولي في كتابه لا يسخر فقط ممّا فعلت الحكومة بل يلمّح أيضاً إلى ما تنوي فعله، كما لو أنّ جولي لا يرى الأشياء من الخارج بل من الداخل. يجب أن تعرف أنّه في كلّ وزارة، في كلّ مبنى للحكومة يوجد دائماً جاسوس، أو حِنْش، يُخرج الأخبار. في العادة يتركونه يعيش ليُفْشُوا بواسطته أخباراً مزيّفة

يهمّ الوزارة أن تنتشر، ولكنّه يُصبح أحياناً خطراً. يجب أن نعرف من أخبر، أو بالأحرى من سَيَّر جولي.

فكّر سيمونيني أنّ كلّ الحكومات الاستبدادية تتبّع نفس المنطق، وتكفي قراءة مكيافيلّي الحقيقي لمعرفة ماذا سيفعل نابوليون؛ إلّا أنّ هذه الفكرة حملته إلى إعطاء شكل لإحساس لازمه أثناء سماعه التلخيص الذي قام به لاغرونج: جولي هذا جعل شخصيّته مكيافيلّي- نابوليون يقول تقريباً نفس الكلمات التي وضعها هو على فم اليسوعيّين في الوثيقة التي صنعها للمخابرات البيمونتيّة. لذا من الواضح أنّ جولي استوحى من المصدر نفسه الذي استوحى هو منه، أي من رسالة الأب رودان إلى الأب روتهان في كتاب "أسرار الشعب" الذي ألفه سو.

- لذا، واصل لاغرونج، سندخلك إلى سانت بيلاجي باعتبارك لاجئاً مادزينياً متّهَماً بربط علاقات بالأوساط الجمهوريّة الفرنسيّة. يوجد هناك سجين إيطالي، يُدعى غافيالي، متورّط في اغتيال أورسيني. من الطبيعي أن تحاول الاتصال به، أنت الغاريبالدي والفحّامي وغير ذلك. وبواسطة غافيالي ستتعرّف على جولي. تنشأ صداقة بين سجناء سياسيّين، معزولين وسط مجرمين من كلّ نوع. اجْعَلْه يتحدّث، المرء في السجن يشكو من السَأَم.

- وكم سأبقى في ذلك السجن؟ سأله سيمونيني وقد بدأ ينشغل بخصوص الأكل.

- يتوقّف ذلك عليك. ما إن تحصل على الأخبار حتى يتمّ إخراجك. سيعرف الآخرون أنّ قاضي التحقيق برّأك من كلّ تهمة بفضل مهارة محاميك.

لم يسبق لسيمونيني أن عاش تجربة السجن. لم تَرُق له، بسبب روائح العرق والبول، والحساء الذي يستحيل ابتلاعه. لحسن الحظ أنّ سيمونيني مثل سجناء آخرين في وضعية اقتصادية حسنة، كان بمقدوره أن يحصل كلّ يوم على سلّة من المؤونة المقبولة.

من الفناء يلج الداخل إلى قاعة كبيرة تتوسّطها مدفأة، ومقاعد على طول

الجُدران. هناك في العادة كان السجناء يتناولون وجباتهم التي يحصلون عليها من الخارج. منهم من يأكل منكبّاً على سلّته حامياً بيديه سلّته من أنظار الآخرين، ومنهم من يظهرون السخاء سواء مع الأصدقاء أو مع جيران ألقت بهم الصدفة. فَهِمَ سيمونيني أنّ الأكثر سخاءً كانوا، من جانبٍ، المجرمين القُساة، تضامناً فيما بينهم، ومن جانبٍ آخر، المساجين السياسيّين.

تكوّنت لدى سيمونيني من السنوات التي قضاها في تورينو، إلى التجربة في صقليّة والسنوات الأُولى في أتعس الأماكن الباريسيّة، تجربة كافية للتعرف على المجرم الأصيل. لم يكن يشاطر الأفكار التي بدأت تنتشر في زمنه، والتي تقول إنّ المجرمين ينشأون كُسْحاناً أو مُحْدَودبين، أو أعْلَمِينَ أو مصابين بالسُّلّ الغُدِّي أو، كما قال فيدوك الشهير، الذي كان يعرف جيّداً المجرمين (لا لشيء إلّا لأنّه كان واحداً منهم)، كلّهم بسيقان مُعْوَجَّة؛ ولكنهم كانوا دون شكّ يظهرون العديد من الخاصيات المميّزة للأجناس الزنجية، مثل قلّة الشعر، وضيق الجمجمة، والجبهة المنخفضة، والثديْن الأماميّيْن المتضخّميْن جداً، والتضخم الكبير للفكّين والوجنتيْن، والدفق، وانحراف المحجر، والبشرة السوداء والشعر الكثيف والمجعّد، والأذنيْن العظيمتيْن، والأسنان غير المتساوية، ثمّ العواطف الخامدة، والتهافت على الملذات الجنسية والخمر، وقلّة الإحساس بالوجع، وغياب الحسّ الأخلاقي، والكَسَل، والعصبية، وعدم التبصُّر، والغرور الكبير، وحبّ اللعب، والتطيُّر.

هذا دون الحديث عن أشخاص مثل ذلك الذي يجلس يوميّاً وراءه، كما لو كان يريد اختطاف لقمة من سلّة مَؤُونته، كان وجهه مجرَّحاً في كلّ الاتّجاهات بندوب شاحبة عميقة؛ وشفتاه مدملة من آثار الزّاج المحرقة؛ وغضروف الأنف مقصوص، وقد صار المِنْخَران ثقبيْن عديمَي الشكل، والذراعان طويلان، واليدان قصيرتان، غليظتان ومشعرّتان حتى فوق الأصابع... إلى أن وجد سيمونيني نفسه مضطرّاً لمراجعة أفكاره حول علامات المجرم، لأنّ ذلك الشخص المسمّى أوراستي، اتّضح فيما بعد أنه رجل وديع جداً، وبعد أن أهداه سيمونيني في نهاية الأمر جزءاً من قُوْته، تعلّق به وأبدى نحوه ولاء الكلب لسيّده.

قصّته غير معقدة: خنق بكلّ بساطة فتاة لم تقبل عروضه الغرامية وكان في انتظار الحُكْم. لا أدري لماذا كانت شريرة معي، كان يقول، في نهاية الأمر طلبتُ منها أن تتزوّجني. ولكنها ضحكت. كما لو كنتُ وحشاً. إنّي آسف كثيراً لموتها، ولكن ماذا كان يجب أن يَفْعل حينذاك رجلٌ يحترم نفسه؟ ثمّ، لو أمكنني أن أتفادى المقصلة، فإنّ السجن المؤبّد ليس بالشيء الرديء. يقولون إنّ الطعام وفير.

ذات يوم، أشار إلى شخص وقال لي: ذلك الشخص، على العكس، رجل شرّير. لقد حاول اغتيال الإمبراطور.

بهذه الطريقة اكتشف سيمونيني من هو غافيالي، واقترب منه.

- لقد استوليتم على صقليّة بفضل تضحياتنا، قال له غافيالي. ثمّ شرح له:
- ليس تضحيتي أنا. لم يتمكّنوا من إثبات أيّ شيء، ما عدا أنّه كانت لي بعض العلاقات مع أورسيني. وهكذا اعتلى أورسيني و بييري مَصْطَبة المقصلة، دي روديو في سجن كيّان، أمّا أنا إذا سار كلّ شيء على ما يرام فسأخرج قريباً.

كان الجميع يعرفون قصّة أورسيني. وطنيّ إيطاليّ، ذهب إلى إنكلترا وهناك صنعوا له ستّ قنابل مشحونة بفُلْمِينات الزئبق. مساء 14 كانون الثاني/يناير 1858، بينما كان نابوليون ذاهباً إلى المسرح، رمى أورسيني واثنان من رفاقه ثلاث قنابل على عربة الإمبراطور، ولكن بنتائج هزيلة: جرحوا مائة وسبعة وخمسين شخصاً، مات ثمانية منهم لاحقاً، ولكن الإمبراطور وزوجته بقيا سالمَيْن.

كتب أورسيني إلى الإمبراطور قبل الصعود على مصطبة المقصلة، رسالة تتفتّت لها القلوب، داعياً إيّاه إلى الدفاع عن وحدة إيطاليا، ويقول الكثيرون إنّ تلك الرسالة أثّرت نوعاً ما في قرارات نابوليون الثالث اللاحقة.

- كان من المفروض في البداية أن أصنع أنا القنابل، قال غافيالي، مع بعض أصدقائي الذين يُعتبرون بكلّ تواضع سحرة في مجال المتفجّرات. ولكن أورسيني لم يثق بنا. كما تعلم، الأجانب هم دائماً أفضل منّا، وتحمّس



... بهذه الطريقة اكتشف سيمونيني من هو غافيالي، واقترب منه...
(ص189)

لإنكليزي، وهذا الأخير تحمّس لفُلْمينات الزئبق. في لندن، بإمكانك أن تقتني فُلْمينات الزئبق من الصيدليّة ويُستعمل في التصوير الدَّغري (على ألواح فضِّيّة)، وهنا في فرنسا يستعملونه ليشرّبوا به ورق "الحلوى الصينية"، وعندما تحلّ الغلاف، بام، انفجار جميل - يا للتسلية. الحال هو أنّ قنبلة بمتفجّر متفرقع لا تُعطي نتيجة كبيرة إذا لم تُصب الهدف. تحدث القنبلة بالبارود الأسود شظايا معدنيّة كبيرة تصيب على بعد عشرة أمتار، بينما قنبلة الفُلْمينات تتفتّت على الفور وتقتلك أنت فقط، إذا كنت في المكان الذي سقطت فيه. وإذن، من الأفضل استعمال رصاصة مسدّس، على الأقلّ حيثما وَصلت تصيب.

- بالإمكان دائماً إعادة المحاولة، أوحى سيمونيني. ثمّ أضاف: - أعرف أشخاصاً تهمّهم خدمات حَرّاقين ماهرين.

لا يعرف الراوي لماذا ألقى سيمونيني بذلك الطُّعْم. هل كان يفكّر في شيء بعينه أم كان يلقي الطُّعْم لغريزة فيه، أو لنزوة، أو تحسُّباً، من يدري؟ على كلّ حال كان ردّ فعل غافيالي إيجابيّاً: - لنتحدّث في الأمر، كان جوابه. قلت لي إنّك ستخرج عن قريب، وكذلك الأمر بالنسبة لي. إيتِ لزيارتي عند الأب لوريت Père Lorette، في زقاق دي لاهوشيت. نلتقي هناك كلّ مساء مع الأصدقاء، وهو مكان حتى الشرطة عَدَلَت عن المجيء إليه، أوّلاً لأنّه ينبغي عليهم أن يوقفوا كلّ الزبائن، وسيكون عملاً شاقاً، وثانياً لأنّه مكان يدخل إليه شرطيّ، ولكن لا يعرف إن كان سيخرج منه.

- مكان جميل، قال سيمونيني ضاحكاً، سأزوره. ولكن قل لي، علمت أنّه يوجد هنا واحد يُدعى جولي، كتب أشياء خبيثة عن الإمبراطور.

- إنّه يعيش على الأوهام، قال غافيالي، الكلمات لا تقتل. ولكنه يبدو لي شخصاً طيّباً. سأقدّمه لك.

كان جولي يلبس أثواباً لا تزال نظيفة، كان يجد بطبيعة الحال طريقة

للمحافظة على نظافته، وكان في العادة يخرج من قاعة المدفأة، حيث ينعزل، عندما يدخل المحظوظون بسلّات الأطعمة، لكي لا يتألم بمشهد الحظ الذي يعيشه الآخرون. كان يبدو من نفس سنّ سيمونيني، له نظرات الحالم، تغشوها مع ذلك مسحة كآبة، يظهر بمظهر الرجل ذي التناقضات العديدة.

- اجلس معي، قال له سيمونيني، تفضّل خُذْ شيئاً من هذه السلّة، فيها ما يكفي وزيادة. لقد فهمتُ على الفور أنّك لا تنتمي إلى هذه المجموعة من الأوباش.

شكره جولي بابتسامة، وقَبِلَ منه عن طِيب خاطر شريحة من اللحم وقطعة من الخبز، ولكنه بقي حذراً. قال سيمونيني: - لحسن الحظ أن أختي لم تنسَني. ليست ثريّة ولكنها تعتني بي.

- أنت محظوظ، قال جولي، أنا ليس عندي أحد.

سقط جدار الصمت. تحادثا عن الملحمة الغاريبالدية، وقد تتبَّعها الفرنسيّون بحماس. وأشار سيمونيني إلى بعض المشاكل التي تعرّض لها أوّلاً مع الحكومة البيمونتيّة ثمّ مع الحكومة الفرنسيّة، وها إنّه في انتظار الحكم بتهمة التآمر ضدّ الدولة. وقال له جولي إنّه في السجن، لا بسبب مؤامرة، بل فقط بسبب إشاعات.

- أن نتصوّر أنفسنا عنصراً ضروريّاً في نظام الكون يساوي، بالنسبة إلينا نحن أهل الثقافة، ما تُمثّله الخُرافة بالنسبة إلى الأميّين. لا يتغيّر العالم بالأفكار. الأشخاص الذين عندهم أفكار قليلة هم أقلّ عُرْضة للخطأ، يتبعون ما يفعله الآخرون ولا يُقْلقون أحداً، وينجحون، ويُثْرُون، ويبلغون مراكز سامية، إنهم نوّاب، حاملو أوسمة، أدباء ذائعو الصيت، أكاديميّون، صحفيّون. هل إنّ من ينجح على هذا المنوال غبيّ؟ الغبيّ هو أنا، أنا الذي أردتُ مكافحة طواحين الريح.

في الفطور الثالث كان جولي لا يزال بعيداً عن الغاية فحاصره سيمونيني من قريب سائلاً إيّاه عن مكنون ذلك الكتاب الخطير الذي ألّفه. فأسهب جولي في الحديث عن حواره في الجحيم، وكلّما تقدّم في تلخيصه كان يعبّر عن استنكاره للأفعال الشريرة التي كشفها، ويفسّرها، ويحلّلها أكثر ممّا فعل في كتابه.

- أفهمت؟ ينجح في تحقيق الاستبداد بفضل الانتخاب العام. لقد أنجز هذا التعيس انقلاباً مستبدّاً مستنجداً بالشعب الحمار. إنّه يعلّمنا كيف ستكون ديمقراطيّة الغد.

صحيح، كان يفكّر سيمونيني، نابوليون هذا رجل زمننا الحاضر، وفهم كيف يُمكن كبح جماح شعب، هَيَّجته قبل ذلك بسبعين سَنَة فكرة أنّ بإمكانه أن يقطع رأس ملكه. بإمكان لاغرونج أن يظن دائماً أنّ جولي اعتمد على ملهمين أوعزوا له بتلك الأفكار، ولكن من الواضح أنّه اكتفى بتحليل أحداث حصلت تحت أنظار الجميع، بحيث يُمكنه التكهن بتحركات الديكتاتور. كان يريد بالأحرى أن يعرف من هو أُنموذجه الحقيقي.

وهكذا لمّح سيمونيني من بعيد إلى سو وإلى رسالة الأب رودان، فابتسم جولي على الفور، واحمرّ وجهه قليلاً، وقال نعم، إنّ فكرته في رسم مخطّطات نابوليون النَّجِسة مستوحاة من الطريقة التي وصفها بها سو، ما عدا أنّه بدا له أكثر فائدة أن يُرجع الاستلهام اليسوعي إلى المكيافيلّيّة الكلاسيكيّة.

- عندما قرأت تلك الصفحات التي كتبها سو قلت لنفسي إنّي وجدت المفتاح لتأليف كتاب سترتجّ له هذه البلاد. يا للجنون، الكتب تُحتجز، وتُحرق، وتجد نفسك وكأنك لم تفعل شيئاً. ولم أفكّر أنّ سو أُجبر على المنفى لمجرَّد أنه قال أقلّ من ذلك بكثير.

أحسّ سيمونيني بنفسه مسلوياً من حاجة هي مُلْكه. صحيح أنّه هو أيضاً استنسخ خطاب اليسوعيّين من سُو، ولكن لا أحد اطّلع على الأمر، واحتفظ لنفسه بالحق في استعمال رسم المؤامرة لأغراض أخرى. وها إنّ جولي يختلسه منه ويجعله، إن جاز القول، مِلْكاً عامّاً.

ثم هدأ. كتاب جولي وقع احتجازه وهو يملك إحدى النسخ القليلة التي كانت لا تزال رائجة، سيبقى جولي بضع سنوات في السجن، وحتى لو نسخ سيمونيني بالكامل نصّه مُسْنِداً المؤامرة، مثلاً، إلى كافور، أو إلى الحكومة النمساوية، فلن يتفطّن أحد لذلك، بما فيهم لاغرونج، الذي سيرى على الأكثر

في الوثيقة الجديدة شيئاً قابلاً للتصديق. فرجال المخابرات في كلّ بلد يصدقون فقط ما سمعوا عنه في أماكن أخرى، ويرفضون، باعتباره أمراً غير قابل للتصديق، كلُّ خبر جديد من نوعه. يجب التحلّي بالهدوء، إذن. إنّه يجد نفسه في وضعية آمنة، وضعيّة من يعرف ما قاله جولي، دون أن يطّلع أحد على جليّة الأمر. ما عدا ذلك المدعوّ لاكروا الذي ذكره لاغرونج، الوحيد الذي تشجّع وقرأ كلّ الحوار. لذا يكفي تصفية لاكروا، والسلام.

بناءً عليه، حان وقت الخروج من سانت بيلاجي. ودّع جولي بمودّة أخويّة، فتأثر هذا الأخير، وأضاف: - بإمكانك ربّما أن تؤدي لي خدمة. لي صديق، يُدعى غيدون، لعلّه لا يعرف حتى إني موجود هنا، ولكن بإمكانه أن يرسل لي من حين لآخر سلّة فيها طعام صالح للبشر. هذا الحساء الرديء الذي يعطونه يسبّب لي حُرْقة في المعدة وإسهالاً.

وقال له إنّه سيجد غيدون هذا في مكتبة بنهج دي بون، مكتبة مدموازيل بيك، حيث يجتمع الفوريرون. حسب ما يعرفه سيمونيني، كان الفوريرون نوعاً من الاشتراكيّين، يؤمنون بإصلاح شامل للجنس البشري، ولكنهم لا يتحدثون عن ثورة، ولذا فقد كانوا مُحْتَقَرِين سواء من طرف الشيوعيّين أو من طرف المحافظين. ولكن يبدو أنّ مكتبة مدموازيل بيك أصبحت مرفأ حرّاً لجميع الجمهوريّين المناهضين للإمبراطورية، وكانوا يجتمعون هناك دون خوف، لأنّ الشرطة لا تظنّ أنّ بإمكان الفوريرين إيذاء أحد.

ما أن غادر سيمونيني السجن حتى هرع لتقديم تقريره إلى لاغرونج. لم يَرَ من الصالح أن يغرق جولي، في نهاية الأمر كان ذلك الدون كيشوت يثير فيه الشفقة. قال:

- يا سيّد لاغرونج، صاحبنا لا يعدو أن يكون ساذجاً أمّل في لحظة شهرة، فعادت عليه بالوبال. بدا لي أنّه ما كان حتى ليكتب مقاله لو لم يحرّضه أحد من بيئتكم. ويُؤسفني قول إنّه ذلك لاكروا بالذات، فهو من قرأ، حسب قولك، الكتاب لتلخيصه لكم، ومن المحتمل أن يكون قرأه قبل أن يُكتب، إن جاز القول. ولعلّه هو نفسه اهتمّ بطبعه في بروكسيل. ولا تسألني لماذا.

- بأمر من بعض مصالح المخابرات الأجنبيّة، ربما النمساويّة، لبثّ الفوضى في فرنسا. لا أستغرب ذلك.

- أجاسوس نمساوي في مكتب مثل مكتبك؟ يبدو لي غير معقول.

- تسلّم ستايبر، رئيس المخابرات النمساوية، تسعة ملايين تاليرة لتغطية كامل التراب الفرنسي بالجواسيس. يقولون إنّه أرسل إلى فرنسا خمسة آلاف فلاح نمساويّ وتسعة آلاف عاملة منزلية ليعملوا مخبرين في المقاهي والمطاعم والعائلات المعروفة، في كلّ الأنحاء. كذب. الجواسيس في جزء ضئيل منهم نمساويّون، وليسوا حتى ألزاسيّين، على الأقلّ نتعرّف عليهم من لهجتهم، بل هم فرنسيّون أقحاح يقومون بالعمل لأجل المال.

- ألم تتمكّنوا من التعرّف على أولئك الخونة وإيقافهم؟

- ليس في صالحنا، وإلّا سيوقفون هم أيضاً جواسيسنا. لا نتخلّص من الجواسيس بقتلهم، بل بإعطائهم أخباراً مزيفة. وللقيام بهذا يجب أن يلعب الجاسوس على واجهتَيْن. على كلّ، ما قلته لي عن لاكروا هذا يبدو لي شيئاً جديداً. يا إلٰهي، في أيّ عالم نعيش، لا يُمكن أن نثق بأحد... يجب التخلص منه حالاً.

- ولكن لو قدمته للمحاكمة، لما أقرّ بشيء لا هو ولا جولي.

- لا يجب أبداً أن يمثل شخص عمل لصالحنا أمام المحكمة وهذا، اعذرني إن كنت أذكر مبدأً عامّاً، يصلح أيضاً بالنسبة إليك. سيذهب لاكروا ضحيّة حادث. وستتحصّل أرملته على جراية عادلة.

لم يذكر سيمونيني غيدون ومكتبة نهج دي بون. كان ينتظر أن يعرف ماذا سيجني من تلك العلاقة. وبعد هذا كلّه فإنّ الأيام القليلة التي قضاها في سانت بيلاجي أرهقته.

حملته عربة على جناح السرعة إلى مطعم لابيروز، على رصيف غران

أوغستان، لا ليجلس في الطابق السفلي، حيث يقدّمون المحار والأضلاع *entrecôtes* على الطريقة العتيقة، ولكن ليجلس في الطابق الأوّل، في إحدى تلك المقصورات الخاصة *cabinets particuliers* حيث يقدمون اللّحِيّة بالمرق الهولندي *barbue sauce hollandaise*، وطبق الأرز على الطريقة التولوزيّة *casserole de riz à la Toulouse*، وهلاميّة شرائح الخرانق بالحارّ البارد *aspics de filets de laperaux en chaud-froid*، والكمأة بالشمبانيا *truffes au champagne*، والبودنغ بالبرقوق البندقي *pudding d'abricots à la Vénitienne*، وسلّة الفاكهة الطريّة *corbeille de fruits frais*، وطبيخ الخوخ والأناناس *compotes de pêches et d'ananas*.

وتبّاً للمساجين، سواء كانوا مثاليين أو مجرمين أو كيفما كانوا، وتبّاً لحسائهم. السجون جُعِلت لكي يتمكّن الشرفاء من الذهاب إلى المطعم دون خطر.

تتشوّش هنا، كما يحصل في حالات مماثلة، ذكريات سيمونيني، وتظهر في يومياته فقرات غير متماسكة. ولا يسع الراوي إلّا أن يستغلّ ملاحظات القسّ دلّا بيكّولا. لقد صار الاثنان يعملان بصفة متكاملة ومنسجمة. . .

باختصار، أحسّ سيمونيني أنّه لكي يُظْهِر كفاءته للمخابرات الإمبراطورية يجب أن يمدّ لاغرونج بمعلومة أخرى. ما الذي يجعل من مُخْبِر شرطة شخصاً جديراً بالثقة؟ اكتشاف وجود مؤامرة. ينبغي عليه إذن أن يدبّر مؤامرة للتبليغ عنها فيما بعد.

استلهم الفكرة من غافيالي. استخبر في سانت بيلاجي وعرف موعد خروجه. وتذكّر أين سيجده، في زقاق دي لاهوشيت، في كاباريه الأب لوريت.

في طرف الشارع تقريباً، يدخل القادم إلى منزل بابه -عبارة عن شقّ- وهو مع ذلك ليس أكثر ضيقاً من باب زقاق دي شاكي بيس، الذي ينفتح على آفاق دي لاهوشيت نفسه، وهو في الحقيقة من الضيق بحيث لا يفهم المرء لماذا فتحوه، بما أنّ الزائر يدخل منه جانبيّاً. بعد السُّلَّم يقطع الداخل أروقة تغطيها حجارة تسيل دموعاً من الدهن، أبوابها واطئة جداً بحيث تتساءل كيف يُمكن

الدخول إلى الغرف. يوجد في الطابق الثاني باب أيسر الاستعمال، يفضي إلى فضاء رحْب، ربّما حصل عليه بهدم ثلاث أو أربع شقق قديمة، وذلك هو الصالون أو الصالة أو كاباريه الأب لوريت، الذي لا يعرف أحد من هو لأنّه ربما مات منذ سنوات.

هنا وهناك طاولات يزدحم حولها مُدخّنو الغليون ولاعبو الورق، وفتيات تجعّدت وجوههنّ قبل الأوان، شاحبات كما لو كنّ دمى لأطفال فقراء، كنّ يبحثن عن أولئك الزبائن الذين لم يفرغوا كؤوسهم للحصول على رشفة.

صادفَ ليلةَ دخول سيمونيني إليه، أن كان الجوّ مكهرباً: إذ إن أحدهم في الحيّ طعن بسكينه شخصاً آخر، وبدا أنّ رائحة الدم هيّجت نفوس الجميع. وعند نقطة ما جرح مجنون بشفرة إحدى الفتيات، ثمّ ألقى أرضاً بصاحبة المحلّ التي تدخّلت، وأخذ يضرب عشوائيّاً كلّ من حاول صدّه، إلى أن أطاحه النادل أرضاً بضربة قارورة على رقبته. بعد ذلك عاد كلّ واحد إلى ما كان يفعل قبل ذلك، وكأنّ شيئاً لم يكن.

هنالك وجد سيمونيني غافيالي، جالساً إلى طاولة تجمّعت حولها مجموعة من الرفاق، يبدو أنّهم يشاركونه أفكاره الداعية إلى قتل الملك، يكادون يكونون كلّهم لاجئين إيطاليّين، وخبراء في المتفجرات، أو على الأقلّ يستحوذ عليهم هذا الموضوع. عندما بلغت الطاولة درجة كحولية معقولة بدأ النقاش يدور حول أخطاء كبار مُخطّطي الاغتيالات السابقين: الآلة الجهنمية التي حاول بواسطتها كادودال اغتيال نابوليون حينما كان آنذاك القنصل الأوّل، والتي كانت مزيجاً من ملح البارود وشظايا، ربما ناجعة في الأزقّة الضَّيِّقة للعاصمة القديمة، ولكنها في زمننا الحاضر صارت عديمة الجدوى تماماً (وبصراحة كانت عديمة الجدوى حتى في الماضي). وصنع فياسكي، لاغتيال لويس فيليب، آلة تتكوَّن من ثماني عشرة قصبة تطلق الرصاص بصفة متزامنة، وقتل ثمانية عشر شخصاً، ولكنه لم يقتل الملك.

– المشكلة، قال غافيالي، تكْمن في تركيبة المتفجرات. انظر مثلاً كلورات البوتاسيوم: فكّر أحدهم في خلطه بالكبريت والفحم للحصول على البارود،

ولكن النتيجة الوحيدة هي أنّ المعمل الذي أعدّوه لإنتاجه تفجّر. وفكروا في استعماله على الأقلّ لإنتاج أعواد ثقاب، ولكن كان ينبغي أن يُبلّل طرف الكلورات والكبريت في الحامض الكبريتي. شيء سهل حقّاً. إلى أن اخترع الألمان، منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة، أعواد ثقاب بالفوسفور، والتي تشتعل بالاحتكاك.

- وهذا، قال شخص آخر، دون الحديث عن حامض البِكْرِيك. تفطّنوا إلى أنّه يتفجّر بتسخينه مع كلورات البوتاسيوم وأنتجوا مجموعة من أنواع البارود كل واحد منها أشدّ فَرقَعة من الآخر. مات بعض المجرّبين وتمَّ العُدُول عن الفكرة. سيكون أفضل باستعمال السليلوز المُنَتْرَت.

- تصوّر النتيجة.

- يجب الرجوع إلى الخيميائيّين القدامى. لقد اكتشفوا أنّ مزيجاً من حامض النيتريك وزيت التربنتين، يشتعل بعد قليل تلقائيّاً. ومنذ مائة عام اكتشفوا أن إضافة الحامض الكبريتي، الذي يمتصّ الماء، إلى حامض النتريك يجعل الاشتعال شبه مؤكد.

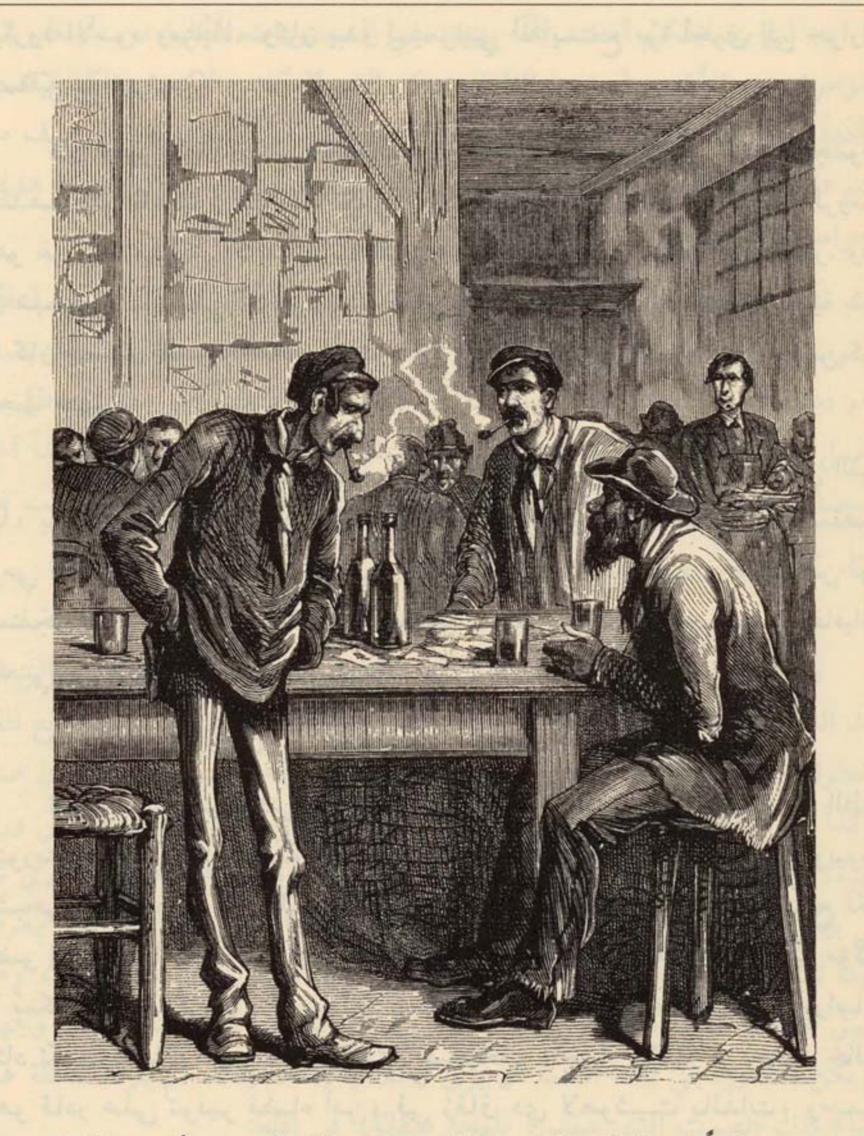
- إني أثق أكثر بالزيليدين. امزج حامض النتريك بالنشاء أو ليفة الخشب. . .

- يبدو أنّك قرأت لحينك رواية لذلك المدعوّ فيرن، الذي يستعمل الزيليدين لإطلاق آلة طائرة نحو القمر. اليوم يتحدثون بالأحرى عن نيترات البنزين وعن نيترات النفتالين. أو، إذا عالجت الورق والكرتون بحامض النتريك فإنك تحصل على النيتراميدين، وهي قريبة من الزيليدين.

- كلّها موادّ غير مستقرّة. اليوم يثقون عند الاقتضاء بالقطن الصاعق، فهو مع التساوي في الوزن يملك قوّة تفجيريّة أكبر بستّ مرّات من البارود الأسود.

- ولكن فاعليّته غير ثابتة.

وهكذا كانوا يواصلون حديثهم طيلة ساعات، عائدين دائماً إلى فضيلة



. . . جالساً إلى طاولة تجمّعت حولها مجموعة من الرفاق، يبدو أنهم يشاركونه أفكاره الداعية إلى قتل الملك، يكادون يكونون كلهم لاجئين إيطاليّين، وخبراء في المتفجّرات. . . (ص197)

البارود الأسود ومزاياه، وكان يبدو لسيمونيني أنّه يستمع مرّة أخرى إلى حواراته الصقليّة مع نينوتسو.

كان يسيراً، بعد بعض الأكواب من الخمر، أن يؤجّج في تلك المجموعة حقدهم على نابوليون الثالث، الذي كان ربما معارضاً لغزو السابوديّين لروما، وهو غزو بدا وشيكاً. كانت قضيّة الوحدة الإيطالية تقتضي موت الديكتاتور. ومع أنّ سيمونيني كان يظنّ أنّ هؤلاء المخمورين لم تكن تهمّهم الوحدة الإيطالية بقدر ما كان يهمّهم تفجير القنابل، فقد كانوا ذلك النوع من الموسوسين الذين كان يبحث عنهم.

- لم تفشل مؤامرة أورسيني، كان يفسّر سيمونيني، بسبب عجزه على القيام بها، بل لأنّ القنابل لم تكن جيّدة. الآن لدينا من هو مستعدّ للمجازفة بالمقصلة لرمي القنبلة في الوقت المناسب، ولكن ليست لدينا فكرة واضحة عن نوع المتفجّر الذي ينبغي استعماله، والمحادثات التي كانت لي مع الصديق غافيالي أقنعتني بأن فريقكم يُمكن أن يساعدنا.

فسأله أحد الوطنيّين : - ولكن إلى من تشير عندما تقول "نحن"؟

تظاهر سيمونيني بالتردّد، ثمّ استعمل كلّ الأساليب التي أكسبته ثقة الطلبة التورينيّين: إنّه يمثّل البَيْعة الكُبْرى Alta Vendita، وهو أحد ملازمي نوبيوس الشبحي، ولا يجب أن يطلبوا منه أكثر لأنّ بنية المنظمة الفحّامية لا تسمح لكلّ عضو إلّا بمعرفة رئيسه المباشر. المشكلة هي أنّ قنابل جديدة ذات فعاليّة مؤكّدة لا يُمكن إنتاجها في يوم أو يومَيْن، تحتاج إلى تجارب وراء تجارب، ودراسات تكاد تكون كيميائيّة، بمزج المكوّنات الصحيحة، واختبار القنبلة في حقول خالية. وهو قادر على توفير فضاء آمن، في زقاق دي لاهوشيت بالذات، وجميع الأموال اللازمة للمصاريف. تنتهي مهمّة الفريق عندما تصبح القنابل جاهزة وليس عليهم أن يهتمّوا بالمؤامرة، ولكنهم سيحفظون في ذلك المكان مسبقاً المناشير التي تنبئ بموت الإمبراطور وتفسّر غايات المتآمرين. بعد موت نابوليون، على الفريق أن يوزّع تلك المناشير في أماكن مختلفة من المدينة، وأن يَدَع بعضها عند أبواب دُوْر الصحافة الكبرى.

- لن يضايقكم أحد، لأنّه يوجد في المستويات العُليا من سينظر إلى المؤامرة بعين الرِّضى. أحد رجالنا في مركز الشرطة يُدعى لاكروا. ولكنني لست متأكّداً من ولائه العامّ، لذا لا يجب أن يكون لكم أيّ اتّصال به، لو عرف من أنتم فلربّما يشي بكم، فقط للحصول على ترقية. أنتم تعرفون طبيعة هؤلاء الجواسيس المزدوجين.

قَبِلَ الجميع كلّ الميثاق بحماس، وكانت عينا غافيالي تشعّان ببريق. أعطاه سيمونيني مفاتيح المحلّ ومبلغاً لا بأس به من المال للمقتنيات الأُولى. بعد بضعة أيام ذهب لزيارة المتآمرين، وبدا له أنّ التجارب وصلت إلى مستوى طيّب، وحمل معه بضع مئات من المناشير طبعها لدى ناشر متغاضٍ، ترك مبلغاً آخر للمصاريف، وهتف: "تحيا إيطاليا موحّدة. إمّا روما أو الموت"، وذهب في سبيل حاله.

ولكنّه في ذلك المساء، وبينما كان يمشي في شارع سان سيفران، الخالي في تلك الساعة، أحسّ بوقع خطوات تتبعه، وما أن يتوقف حتى يتوقف أيضاً وقع تلك الخطوات. حثَّ خُطاه، ولكن وقع الخطوات اقترب منه أكثر فأكثر، إلى أن صار مؤكداً أن أحداً، لا يتبع خُطاه، بل يُلاحقه. وبالفعل أحسّ فجأة بأنفاس وراء ظهره، ثم أمسكه شخص بقوّة ودفعه في زقاق سالمبريير (وهو أضيق من ري شا كي بيس) الذي ينفتح في تلك النقطة بالذات، كما لو أنّ ملاحقه كان يعرف جيّداً تلك الأماكن، واختار اللحظة والركن الملائمَيْن. كان سيمونيني، وهو لصيق الحائط غصباً عنه، لا يرى إلّا بريق شفرة الموسى التي تكاد تلمس وجهه. لم يكن بمقدوره في تلك العتمة أن يرى وجه مهاجمه، ولكنه لم يتردّد لحظة عند سماع ذلك الصوت الذي همَس، بلهجة صقليّة، في أذنه:

- قضّيتُ ستّ سنوات في البحث عنك، أيها الأب الجليل، وها إني نجحتُ في ذلك.

إنّه صوت المعلّم نينوتسو، الذي كان سيمونيني مقتنعاً بأنّه تركه وطعنة خنجر عميقة تخترق بطنه داخل مستودع البارود بباغيريّا.

- حيّ أنا، لأنّ روحاً مفعمة كرماً مرّت من هناك بعد ذهابك، أنجدتني. بقيت ثلاثة أشهر بين الحياة والموت وعلى البطن بقيت لي ندبة تمتدّ من ورك إلى آخر.. ولكن ما إن نهضتُ من الفراش حتى بدأت أبحاثي. من رأى رجل دين شكله كذا وكذا.. باختصار رآه واحد في بالرمو يتحادث في المقهى مع كاتب عدل الإشهاد موزوميتشي وبدا له أنّه يشبه كثيراً غاريبالديّاً بيمونتيّاً كان صديق العقيد نييفو... وعرفت من بعد أنّ ذلك المسمّى نييفو لَقِيَ حتفه في البحر كما لو أن سفينته تبخّرت، وأنا كنت أعرف جيّداً كيف ولماذا تبخّرت، وعلى يد مَن. كان من السهل الصعود إلى الجيش البيمونتي ومن هناك إلى تورينو، وفي تلك المدينة المثلجة قضيت سنة وأنا أسأل الناس. وأخيراً عرفت أنّ ذلك الغاريبالدي كان يُسمّى سيمونيني، وكان له مكتب للتوثيق، ولكنه باعَهُ، وزلّ لسانه فأعلن لمشتري المحلّ أنّه ذاهب إلى باريس. فارغَ الجيب، ولا تسألني كيف فعلتُ، جئتُ إلى باريس، إلّا أنني لم أكن أتصوّر أن المدينة بهذه العظمة. كان عليّ أن أتجوّل كثيراً للعثور عليك. وتعيّشتُ من ارتياد أزقة مثل هذه راشقاً سكيني في حلق بعض الأسياد الميسورين الذين تاهوا عن الطريق. واحد في اليوم، كان يكفيني للبقاء على قيد الحياة. كنتُ أتجوّل دائماً في هذه الأنحاء. كنت أتصوّر أنّ واحداً مثلك يرتاد الـ *tapissi franchi*، مثلما يسمّونها هنا أكثر من ارتياده منازل الناس الشرفاء. كان عليك أن تُسبِل لحية طويلة سوداء إن أردت أن لا يعرفك أحد بسهولة...

وكان أن اتّخذ سيمونيني، منذ ذلك اليوم، هيئة البورجوازي الملتحي، ولكنه في ذلك الظرف كان يعترف لنفسه أنّه فعل القليل لإخفاء آثاره.

- باختصار، خَتم نينوتسو حديثه، ليس عليّ أن أقصّ عليك كلّ حكايتي، يكفيني أن أُحدث في بطنك جرحاً مثل الجرح الذي سبَّبَته لي، ولكني سأعمل بمهنيّة أكثر. هنا في الليل لا يمرّ أحد، مثلما يحدث في مستودع بارود باغيريّة.

طلع القمر قليلاً ورأى سيمونيني الآن أنف نينوتسو الأفطس وعينيه اللتين كانتا تشعّان حقداً.

- نينوتسو، قال سيمونيني ببديهة سريعة الحضور، ألا تعرف أني فعلت ما

فعلت إطاعة للأوامر، أوامر صادرة عن سُلطة عُليا جداً، سلطة هي من القداسة بحيث كان عليّ أن أعمل دون التفكير في عواطفي الشخصيّة. ودائماً لإطاعة تلك الأوامر أجد نفسي هنا، للإعداد لعمليّات أخرى لفائدة العرش والمذبح.

كان سيمونيني يلهث وهو يتحدث، ولكنه كان يرى أن طرف الموسى يبتعد بصفة لامحسوسة عن وجهه وواصل حديثه: أنت كرّست حياتك لملكك، وتَفْهَم أنّه توجد مهامّ ... مقدّسة، دعني أقول ذلك... مهامّ يُمكن أن تبرّر ارتكاب أفعال ستكون من دونها مُشينة. هل تفهم؟

لم يكن المعلّم نينوتسو يفهم جيداً، ولكنه كان يُظهر أن الانتقام لم يعد غايته الوحيدة: - لقد قاسيت الجوع كثيراً في السنوات الأخيرة، ورؤيتك ميّتاً لن تُشبعني. إني كرهت العيش في الظلمات. منذ أن عثرت عليك رأيتك تذهب أيضاً إلى مطاعم الأسياد. لنقل إني سأتركك على قيد الحياة مقابل مبلغ شهري يكفيني لآكل ولأنام مثلك، وأحسن.

- يا معلّم نينوتسو، إني أعدك بأكثر من مبلغ صغير كلّ شهر. إنّني بصدد إعداد مؤامرة لاغتيال الإمبراطور الفرنسي، وتذكّر أنّ ملكك خسر عرشه لأنّ نابوليون أعان خِفْيَة غاريبالدي. وأنت الذي تعرف كلّ شيء عن المتفجّرات، عليك أن تلتقي بمجموعة من الأبطال يجتمعون في زقاق دي لاهوشيت لتحضير ما يسمّى حقيقة بآلة جهنميّة. وإذا انضممت إليهم فلن تشارك فقط في عمليّة سيخلّدها التاريخ، وتعطي دليلاً على مهارتك الخارقة للعادة كحرّاق، ولكن -بما أنّ هذه المؤامرة تُساندها شخصيّات سامية جداً - ستحصل على نصيبك من مكافأة تجعلك ثريّاً مدى الحياة.

ما إن سمع عبارة المتفجرات حتى انطفأ في نينوتسو كلّ ما كنَّهُ من حقدٍ منذ تلك الليلة في باغيريّة، وأحسّ سيموننيني أنّه صار الآن في قبضته عندما قال له الآخر: - إذن، ماذا يجب أن أفعل؟

- بسيطة. بعد يومَيْن حوالى السادسة اذهب إلى هذا العنوان، اطرق الباب، وستدخل إلى مخزن، قُلْ إنّ لاكروا هو الذي أرسلك. سيكون الأصدقاء

على علم. ولكن يجب لكي يتعرّفوا عليك أن تحمل زهرة قرنفل مرشوقة في عُرْوَة سترتك هذه. حوالى الساعة السابعة سأصل أنا أيضاً. ومعي المال.

- سأذهب، قال نينوتسو، ولكن إذا كانت حيلة فإنّني أعرف الآن أين تسكن.

في الصباح التالي رجع سيمونيني إلى غافيالي ونبّهه إلى أنّ الوقت صار ضيّقاً. ليجتمعوا كلّهم يوم الغد في السادسة مساء. في البداية سيأتي حرّاق صقليّ مُرسل من طرفه، للتثبّت من تقدّم الأشغال، ثمّ سيأتي هو، وبعده السيد لاكروا، ليعطي كلّ الضمانات للعمليّة.

بعد ذلك ذهب إلى لاغرونج وأخبره أنّه على علم بمؤامرة تُدبّر لاغتيال الإمبراطور. ويعرف أنّ المتآمرين سيجتمعون على الساعة السادسة من يوم الغد في زقاق دي لاهوشيت، لتسليم المتفجّرات لمكلّفيهم.

- ولكن حذارِ، قال سيمونيني، لقد قلت لي مرّة إنّه من بين عشرة أعضاء جمعيّة سريّة، ثلاثة هم جواسيسنا، ستّة هم أغبياء وواحد هو رجل خطير. حسناً، هناك من الجواسيس لن تجدوا إلّا واحداً هو أنا، ثمانية هم أغبياء، ولكن الرجل الذي هو حقيقة خطير سيحمل زهرة قرنفل مرشوقة في سترته. وبما أنّه خطير حتى بالنسبة إليّ، أريد أن تحدث مشادّة صغيرة وأن لا يقع إيقافه بل قتله في عين المكان. صدّقني، إنّها الطريقة المُثْلى لكي لا تحدث ضجة. وَيْحٌ لنا لو تكلّم، حتى مع واحد فقط من رجالك.

- إني أصدقك يا سيمونيني، قال السيد دي لاغرونج. سنتخلّص من الرجل.

جاء نينوتسو في الساعة السادسة إلى زقاق دي لاهوشيت بقرنفلته الجميلة، وأظهر له غافيالي والآخرون باعتزاز قنابلهم، ووصل سيمونيني بعده بنصف ساعة مُخبراً إيّاهم بقدوم لاكروا، في السادسة وخمس وأربعين دقيقة داهمتهم القوّة العامّة، فشهر سيمونيني مسدّسه صائحاً الخيانة ووجّهها نحو الشرطة، ولكنه أطلق النار في الهواء، فردّ أعوان الشرطة وأصابوا نينوتسو في الصدر، وبما أنّه يجب القيام بالعمليّة كما ينبغي قتلوا متآمراً آخر. كان نينوتسو يتلوى على الأرض وهو

يتلفظ بلعنات صقليّة جداً وسيمونيني، الذي كان يتظاهر دائماً بإطلاق النار على العساكر، أجهز عليه بطلقة من مسدّسه.

فاجأ رجال لاغرونج غافيالي وأصحابه وأيديهم في الكيس، أي مع القنابل الأولى التي صنعوها ومجموعة من المناشير تفسّر لماذا كانوا يصنعونها. أثناء الاستنطاقات ذكر غافيالي ورفاقه اسم لاكروا الغامض الذي كانوا يعتبرون أنه خانهم. وهو باعث إضافي لكي يقرّر لاغرونج التخلّص منه. في محاضر الشرطة يُذكر أنّه ساهم في إيقاف المتآمرين وأنه لقي حتفه بطلقة من أولئك التعساء. مع مذكرة تقدير لتضحيته.

أمّا بخصوص المتآمرين فلم تكن هناك فائدة في تقديمهم لمحاكمة ستحدث ضجّة. وشرح لاغرونج لسيمونيني كيف أن الإشاعات كانت تسري دائماً في تلك السنوات حول مؤامرات لاغتيال الإمبراطور، وكانوا يفترضون أنّ العديد منها ليست أساطير نشأت تلقائيّاً بل هي من تدبير ناشطين جمهوريّين لحثّ المتحمّسين على الاقتداء بها. لا فائدة من إذاعة فكرة أنّ اغتيال نابوليون الثالث صارت موضة. وهكذا وقع إرسال المتآمرين إلى جزر كايّان، حيث سيهلكون بحمّى المستنقعات.

مَثَّل إنقاذ حياة الامبراطور دخلاً ماليّاً هامّاً. إذا كان العمل حول جولي قد درّ عليه عشرة آلاف فرنك، فإنّ اكتشاف المؤامرة درّ عليه ثلاثين ألفاً. مع احتساب المصاريف لكراء المحلّ ولشراء معدّات صنع القنابل والتي كلفته خمسة آلاف فرنك، فإنه يبقى له خمسة وثلاثون ألف فرنك صافية، أكثر من عُشْر رأس المال البالغ ثلاثمائة ألف الذي كان يصبو إليه.

إذا كان قد أحسّ بالرضا لما حصل لنينوتسو فهو قد تأسّف بعض الأسف لما حصل لغافيالي، فقد كان في نهاية الأمر رجلاً طيّباً وثق به. ولكن من يريد القيام بمؤامرةٍ يعرف أنّه يجازف، وأنّه لا يجب أن يثق بأحد.

وأحسّ بالأسف لمصير لاكروا، الذي لم يفعل له في نهاية الأمر شيئاً أبداً. ولكن أرملته ستتقاضى جراية معقولة.

# 12

## ليلة في براغ

4 نيسان/أبريل 1897

لم يبقَ لي إلّا أن أقترب من ذلك المسمّى غيدون الذي حدّثني عنه جولي. كانت تُدير مكتبة شارع دي بون عانس عجوز مجعّدة، ترتدي دائماً فستاناً فضفاضاً من القطن الأسود وغطاءً على الرأس كأنها القلنسوّة الحمراء يحجب نصف وجهها - لحسن الحظ.

هنالك وجدت على الفور غيدون، وهو شكوكيّ ينظر بسخرية إلى العالم المحيط به. أحب فاقدي الإيمان. تجاوب غيدون على الفور إيجابيّاً مع طلب جولي: سيرسل إليه بعض الأكل وشيئاً من المال أيضاً. ثم بدأ يتحدّث ساخراً عن الصديق الذي سيصرف عليه. لماذا يؤلف كتاباً مجازفاً بالسجن، بينما الذين يقرأون الكتب هم جمهوريّون طبعاً، وأولئك الذين يساندون الديكتاتور فلاحون أميّون قُبلوا في الانتخاب العامّ بنعمة من الربّ؟

الفوريوريّون؟ أُناس طيّبون، ولكن كيف يُحمَل محمل الجدّ نبيٌّ ينبئ بأنّ البرتقال سينبت بـ فرصوفيا في عالم خُلِقَ من جديد، وأنّ المحيطات ستكون من عصير الليمون، وأنّ البشر سيكون لهم أذناب، وأنّ ارتكاب المحارم والجنسية المثلية سيُعترف بهما على أنهما نزعات طبيعيّة لدى الكائن البشري؟

فسألته : - ولماذا تُخالطهم إذن ؟

فأجاب : - ولكن لأنهم الأشخاص الوحيدون النُّزهاء الذين لا يزالوا يُعارضون استبداد بونابرت اللئيم. - انظر إلى تلك السيّدة الجميلة. إنّها جولييت لامسّين، إحدى النساء الأكثر تأثيراً في صالون الكونتسّة داغولت، وتحاول بأموال زوجها أن تُنشئ صالوناً خاصًّا بها في شارع دي ريفولي. إنّها ساحرة،

وذكيّة، وكاتبة موهوبة حقّاً، من سيُدعى لارتياد صالونها سيعتبر نفسه محظوظاً.

أشار غيدون أيضاً إلى شخص آخر، طويل القامة، جميل المُحيّا، كلّه سحر: - إنّه توسّونيل، المؤلف الشهير لكتاب *L'Esprit des bêtes*. وهو اشتراكي، وجمهوريّ لا يلين، ومُغرم غراماً جنونيّاً بجولييت، ولكنها لا تجود عليه ولو بنظرة. إنّه ألمع فكر في هذا المكان.

كان توسّونيل يحدّثني عن الرأسماليّة، التي كانت تُسمّم المجتمع الحديث.

- ومن هم الرأسماليّون؟ إنهم اليهود، ملوك زمننا. قطعت ثورة القرن الماضي رأس كابيتو، يجب أن تقطع ثورة هذا القرن رأس موسى. سأؤلّف كتاباً في الغرض. من هم اليهود؟ كلّ أولئك الذين يمتصّون دماء الضعفاء، دم الشعب. إنهم البروتستانتيّون، والماسونيّون. وبطبيعة الحال اليهود.

- فأجبتُ معترضاً: ولكن البروتستانتيّين ليسوا يهوداً.

- من يقول يهوديّاً يقول بروتستانتيّاً، مثل الميتوديّين الإنكليز، والتقويّين الألمان، والسويسريّين والهولنديّين الذين يتعلّمون قراءة الإرادة الإلٰهية في نفس كتاب اليهود، الكتاب المقدس، وهي قصّة ارتكاب محارم ومجازر وحروب وحشيّة، وحيث لا ينتصر أحد إلا من خلال الخيانة والخدعة، وحيث الملوك يقتلون الأزواج للاستحواذ على زوجاتهم، وحيث النساء اللاتي يعتبرن أنفسهنّ قديسات يدخلن غرفة عرس الزعماء الأعداء لقطع رؤوسهم. كرومويل قطع رأس ملكه وهو يذكر الكتاب المقدس، مالتوس الذي نفى حق أبناء الفقراء في الحياة كان متشبعاً بالكتاب المقدس. إنّها ملّة تقضي الوقت في تذكّر عبوديّتها، ومستعدّة دائماً للرضوخ لعبادة العجل الذهبي بالرغم من علامات الغضب الإلٰهي. يجب أن تكون المعركة ضدّ اليهود الغاية الرئيسة لكلّ اشتراكيّ جدير بهذا الاسم. لا أتحدّث عن الشيوعيّين لأنّ مؤسّسهم يهوديّ، ولكن المسألة هي إدانة مؤامرة المال. لماذا تساوي تفاحة في مطعم بباريس مائة مرّة ثمنها في نورماندِيا؟ هناك شعوب مفترسة تعيش من لحم الآخرين، شعوب من تُجّار، مثلما كان الفينيقيّون والقرطاجيّون في السابق والإنكليز واليهود اليوم.

- لذا بالنسبة إليك لا فرق بين الإنكليز واليهود؟

- تقريباً. من أصبح وزيراً أوّل في إنكلترا ؟ لورد بيكونسفيلد، الذي يغطي لقبُه النبيل اسمَه الحقيقي، دزرائيلي. ولدزرائيلي هذا، وهو يهوديّ سفرديّ اعتنق المسيحيّة، كان من الوقاحة بحيث كتب أنّ اليهود يستعدّون للهيمنة على العالم. بطبيعة الحال، لا يقول ذلك في خطاباته البرلمانية، بل في رواياته.

في اليوم الموالي جاءني بكتاب لدزرائيلي هذا، حيث سطّر على فقرات كاملة: "هل سبق أن رأيتم أبداً حركة ذات أهميّة تقوم في أوروبا دون أن يتمتّع فيها اليهود بدورٍ وحضورٍ متميّزيْن؟... اليسوعيّون الأوائل كانوا يهوداً. هذه الديبلوماسيّة الروسيّة السريّة، التي تضمحلّ أمامها كلّ أوروبا الغربيّة، من يديرها؟ اليهود. والثورة التي يُدبَّر لها في ألمانيا، من يرعاها؟ اليهود، انظر ذلك المسمّى كارل ماركس وشيوعيّيه. من احتكر في ألمانيا، بصفة تكاد كليّة، الكراسي الأكاديميّة؟"

- ولاحظ أنّ دزرائيلي ليس واشياً *mouchard* أو خائناً يُدين شعبه. وإنما على العكس، يحاول إبراز خصاله. يكتب دون خجل أنّ وزير المالية الروسي، الكونت كونكران، هو ابن يهودي من ليتوانيا، كما أنّ الوزير الإسباني مانديزابال ابن مُهتدٍ من الأراغون. وفي باريس ماريشال الإمبراطورية ابن يهودي فرنسي، سولت، وماسّينا كان يهوديّاً، ويقال له بالعبريّة مَنَتَّ..

لم أكن واثقاً أنّ توسّونيل كان مصيباً، ولكن خُطَبه، التي كانت تُعطيني صورة واضحة من الأفكار الرائجة في الأوساط الأكثر ثوريّة، كانت توحي لي ببعض الأفكار.. يظلّ الشكّ قائماً بعدد المشترين المفترضين للوثائق المضادّة لليسوعيّين. ربما إلى الماسونيّين، ولكن لم أكن قد ربطتُ بعد اتصالات بتلك الأوساط. قد تهمّ وثائق معادية للماسونية اليسوعيّين، ولكنني لم أكن أحسّ بنفسي مستعداً لإنتاجها. ضدّ نابوليون؟ دون شكّ لا لبيعها للحكومة، أمّا للجمهوريّين، الذين يمثلون دون شكّ سوقاً محتملة، فبعد سُو وجولي بقي القليل الذي يُمكن قوله. ضدّ الجمهوريّين؟ هنا أيضاً، يبدو أنّ الحكومة تملك كلّ ما

تحتاجه، ولو عرضت على لاغرونج معلومات عن الفوريوريّين، فإنّه سيضحك مني، لأنّ العديد من مخبريه يعرفون بالتأكيد مكتبة شارع دي بون.

منْ بقي؟ اليهود، وحقّ الربّ. خمّنت في نهاية الأمر أنهم كانوا هوساً يتملّك أفكار جَدّي فقط، ولكن بعد استماعي لتوسّونيل أدركت أن سوقاً معادية لليهود تنفتح، ليس من جهة كلّ أحفاد القسّ باروّيل المحتملين (وليسوا قليلي العدد) فقط، بل ومن جهة الثوريّين، والجمهوريّين، والاشتراكيين أيضاً. كان اليهود أعداء الكنيسة، ولكنهم كانوا أيضاً أعداء العامّة، حيث كانوا يمتصّون دمها، وحسب الحكومات، كانوا أيضاً أعداء العرش. ينبغي أن أشتغل على موضوع اليهود.

أدركتُ أنّ المهمّة ليست يسيرة: قد لا تزال بعض الأوساط الكنسيّة منبهرة بإعادة تدوير ما قاله باروّيل، مع فكرة أنّ اليهود متواطئون مع الماسّونيّين والهيكليّين لإشعال الثورة الفرنسيّة، ولكن اشتراكيّاً مثل توسّونيل لن يهمّه هذا أبداً، ويجب أن آتيه بشيء أدقّ حول العلاقة بين اليهود، وتجميع رؤوس الأموال، والمؤامرة البريطانيّة.

بدأت أتحسّر لكوني لم أُرد أبداً لقاء يهودي في حياتي. اكتشفت أنّني أُعاني من نقص كبير في معرفتي بموضوع اشمئزازي - الذي كان يزداد تشبّعاً أكثر فأكثر بالحسرة.

كنتُ فريسة لكلّ هذه الأفكار عندما فتح لي لاغرونج بالذات نافذة. سبق أن رأينا أنّه يحدّد دائماً مواعيده في الأماكن الأكثر غرابة، وتلك المرّة كان الموعد في مقبرة پير-لاشيز. في نهاية الأمر كان صائباً، لأن من يرانا يظننا قريبيْن يبحثان عن عزيز متوفّى، أو زائريْن رومنطيقيّيْن يسائلان الماضي - وفي تلك الحالة كنّا نتجوّل محزونيْن حول قبر أبيلارد و هيلويز، قبلة الفنانين، والفلاسفة والنفوس المتيّمة، أشباح وسط أشباح.

- إذن، سيمونيني، أريد أن ألاقيك بالعقيد ديميتري، الاسم الوحيد الذي نعرفه به في أوساطنا. يعمل لصالح القسم الثالث للقنصليّة الإمبراطوريّة الروسيّة. لو ذهبت إلى سانت بطرسبرغ وسألت عن هذا القسم الثالث فمن البديهي أن

الجميع سيستغرب، لأنّه رسمياً غير موجود. هم أعوان مكلّفون بمراقبة تشكّل المجموعات الثوريّة، والمشكلة عندهم، هناك، أخطر بكثير ممّا هي عندنا. يجب أن يحتاطوا من الديسمبريين، ومن الفوضويّين، والآن أيضاً من غضب ما يُسمّى بالفلاحين المحرّرين. ألغى القيصر ألكسندر منذ بضعة سنوات قِنانة الفلاحة، ولكن الآن يجب أن يدفع حوالى عشرين مليوناً من الفلاحين المعتقين إلى أسيادهم القدامى ثمن استغلال أراضٍ لا تكفي حتى لسدّ رمقهم، والعديد منهم اجتاحوا المدن بحثاً عن عمل. . .

- وماذا ينتظر مني هذا العقيد ديميتري؟

- إنّه يجمّع وثائق، كيف يُمكن القول. . . مثيرة للشبهة، حول المسألة اليهوديّة. اليهود في روسيا أكبر عدداً بكثير من ممّا يوجد لدينا ويمثلون في القرى تهديداً بالنسبة إلى الفلاحين الروس، لأنّهم يعرفون القراءة والكتابة وبالخصوص الحساب. دون الحديث عن المدن، حيث يُفترض أنّ العديد منهم ينتمون إلى طوائف معادية للنظام. يواجه زملائي الروس مشكلة مزدوجة: من ناحية الحذر من اليهود، عندما وحيثما يمثلون خطراً حقيقيّاً، ومن ناحية أخرى توجيه غضب الفلاحين نحوهم. ولكن سيفسّر لك ديميتري كل هذا. نحن لسنا معنيّين بهذا الأمر. لحكومتنا علاقات طيّبة بالمجموعات الماليّة اليهودية الفرنسية وليس من صالحها أن تثير استياء تلك الأوساط. نحن نريد فقط أداء خدمة للرّوس. ففي مهنتنا كلّ يد تغسل الأخرى، وعن طيب خاطر نقرضك أنت يا سيمونيني للعقيد ديميتري، أنت الذي ليست لك علاقة رسميّة بنا. آه نسيت شيئاً. قبل وصول ديميتري أنصحك بجمع معلومات جيّدة عن الرابطة الإسرائيلية العالمية Alliance Israélite Universelle، التي تأسّست منذ حوالى ستّة أعوام هنا في باريس. إنها تضمّ أطبّاء وصحفيّين ورجال قانون، ورجال أعمال. . . أي خيرة المجتمع اليهودي الباريسي. جميعهم ذوو اتّجاه، إن جاز القول، ليبرالي، أكثر ميلاً للجمهورية منه للبونابرتية. تريد الجمعية في الظاهر مساعدة المضطهدين من كلّ ديانة ومن كل بلد باسم حقوق الإنسان. وإلى ثبوت حُجّة مخالفة فهم مواطنون على غاية من النزاهة، ولكن يصعب اختراق الجمعية من طرف مخبرينا لأنهم

يتعرّفون على بعضهم البعض بشمّ مؤخّراتهم مثلما تفعل الكلاب. ولكنني سأربط لك اتصالاً بشخص تمكّن من حيازة ثقة أعضاء الجمعيّة. يُدعى جاكوب برافمان، وهو يهودي اعتنق الديانة الأورثوذكسيّة، ثم صار أستاذ العبريّة في المدرسة اللاهوتية بمينسك. يزور باريس لمدّة قصيرة، بتكليف من العقيد ديميتري بالذات ومن قسمه الثالث، وكان من اليسير بالنسبة إليه أن ينفذ إلى الرابطة الإسرائيلية لأنّه معروف عند البعض منهم على أنّه شريكهم في الديانة. بإمكانه أن يمدّك بمعلومات عن تلك الجمعية.

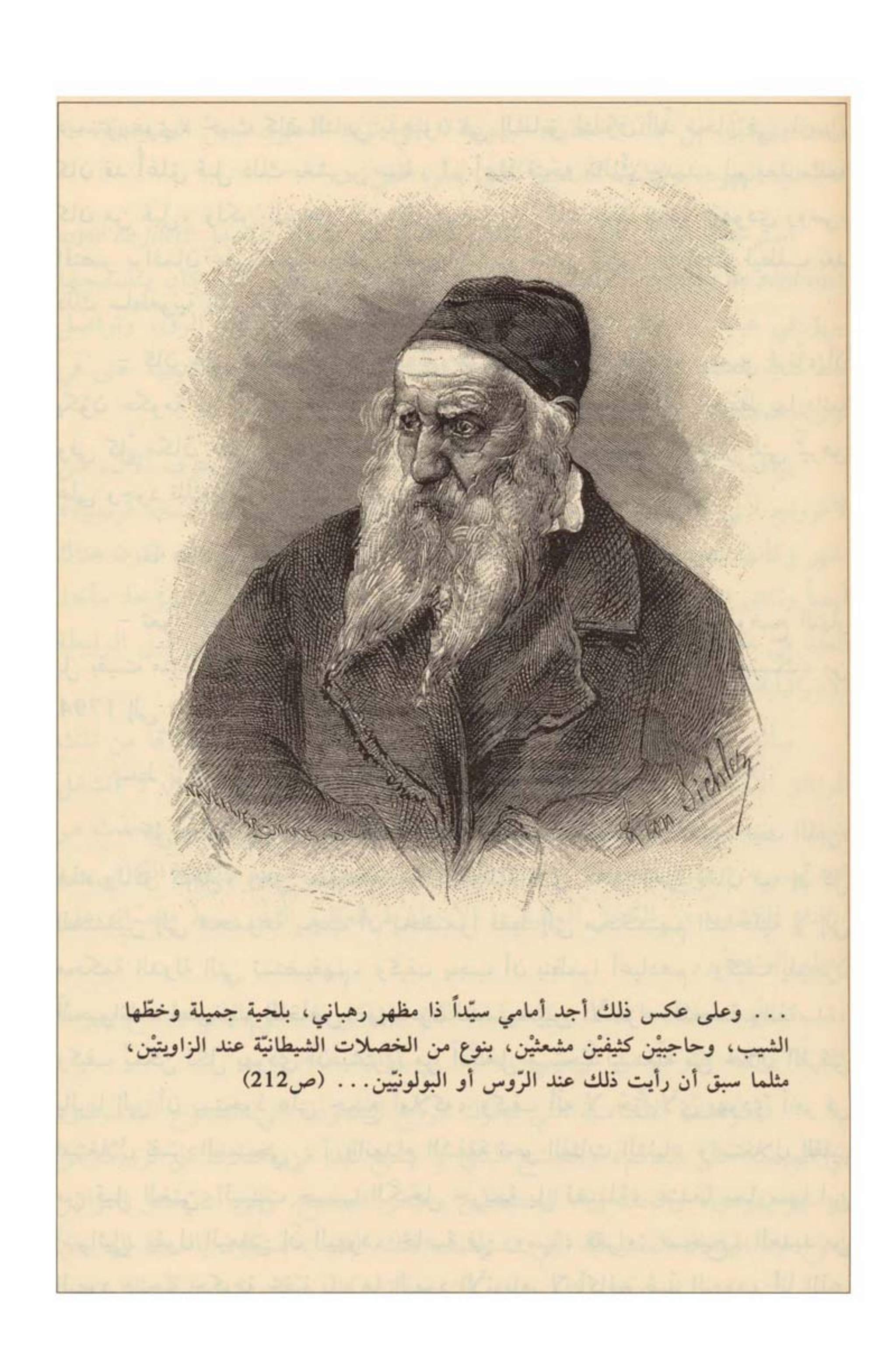
- اعذرني، يا سيد لاغرونج. ولكن إذا كان برافمان هذا مُخْبِر العقيد ديميتري، فإنّ كلّ ما سيقوله لي سبق لديميتري أن عرفهُ، ولن يكون هناك معنى لأن أعيد ذلك عليه من جديد.

- لا تكن ساذجاً، يا سيمونيني. له معنى، له معنى. لو قصصتَ على ديميتري نفس الأخبار التي عرفها من برافمان، فإنك ستظهر في عينيه بمظهر من يملك أخباراً صحيحة، تؤكّد ما سبق أن علمه من قبل.

برافمان. كنت أتوقّعُ وفق حكايات جَدِّي، ملاقاة شخص يشبه وجهه وجه العقاب، شفتاه لحيمتان، والشفة السفلي ممتدّة كثيراً إلى الأمام، مثلما هو الحال لدى الزنوج، وعينان غارقتان وفي العادة عائمتان، وشقّ الجفنيْن أقلّ انفتاحاً ممّا هو عليه عند الأجناس الأخرى، وشعر متموّج أو مجعّد، وأذنان كأنهما مروحتان. . . وعلى عكس ذلك أجد أمامي سيّداً ذا مظهر رهباني، بلحية جميلة وَخَطها الشيب، وحاجبيْن كثيفيْن ومشعثيْن، بنوع من الخصلات الشيطانيّة عند الزاويتين، مثلما سبق أن رأيت ذلك عند الروس أو البولونيّين.

تلك حجّة على أنّ اعتناق ديانة أُخرى يغيّر أيضاً من سِمات الوجه علاوة على سِمات الروح.

كان للرجل ميل خاصّ نحو الأكل الجيّد، حتى وإن أظهر نَهَمَ الريفي الذي يريد تذوّق كلّ شيء ولا يعرف كيف يركّب قائمة أطباق كما ينبغي. تناولنا الإفطار في مطعم "روشي دي كنكال" *Rocher de Cancale* في شارع




. . . وعلى عكس ذلك أجد أمامي سيّداً ذا مظهر رهباني، بلحية جميلة وخطّها الشيب، وحاجبيْن كثيفيْن مشعثيْن، بنوع من الخصلات الشيطانيّة عند الزاويتيْن، مثلما سبق أن رأيت ذلك عند الرّوس أو البولونيّين. . . (ص212)

ديمنتورغوي، حيث كان الناس يذهبون في السابق لتذوّق ألذّ محار في باريس. كان قد أُغلق قبل ذلك بعشرين سنة، ثم أعادَ فتحَه مالكٌ جديد، لم يعد مثلما كان من قبل، ولكن المحار لا يزال موجوداً، وكان ذلك كافياً ليهودي روسي. اقتصر برافمان على التهام بعض الدزينات من محار البلون *belons*، ليطلب بعد ذلك سلطعونية السرطان *bisque d'écrevisses*.

- كان على شعب بهذه الحيويّة، للبقاء على قيد الحياة أربعين قرناً، أن يكوّن حكومة موحّدة في كلّ بلد يعيش فيه، دولة داخل الدولة، احتفظَ بها دائماً وفي كلّ مكان حتى في فترات شتاته الألفيّة. تصوّر، وجدتُ الوثائق التي تبرهن على وجود تلك الدولة، وتلك الشريعة، الكَحَل.

- ما هو؟

- تعود المؤسّسة إلى زمن موسى، وبعد الشتات لم تعمل في وضح النهار بل بقيت منزوية في عتمة الكنائس. أنا وجدت وثائق كَحَل، كَحَل مينسك، من 1794 إلى 1830. كلّ شيء مكتوب، كلّ مرسوم مسجّل.

بسط نوعاً من الرقوق مرقومة بعلامات لم أفهمها.

- كل جالية يهوديّة يحكمها كَحَل، وتخضع لمحكمة مستقلة، بيت الدين. هذه وثائق كَحَل، وهي بطبيعة الحال مماثلة لأيّ كَحَل آخر. يُقال فيه إنّ كلّ المنتمين إلى مجموعة يجب أن يخضعوا فقط إلى محكمتهم الداخلية لا إلى محكمة الدولة التي تستضيفهم، وكيف يجب أن ينظموا أعيادهم، وكيف يذبحون الحيوانات لطبخهم الخاص، ويبيعون للمسيحيّين الأجزاء النجسة والفاسدة، وكيف يُمكن لكلّ يهودي أن يشتري من الكَحَل مسيحياً ليستغلّه من خلال القرض بالربا إلى أن يستحوذ على جميع أملاكه، وكيف أنّه لا حَقَّ لأيّ يهوديّ آخر في استغلال نفس المسيحي. . . وانعدام الشفقة نحو الفئات الدنيا، واستغلال الفقير من قِبل الغنيّ، ليست حسب الكَحَل جريمة بل فضيلة، عندما يمارسها ابن إسرائيل. يقول البعض إنّ اليهود، خاصة في روسيا، فقراء: صحيح، العديد من اليهود ضحيّة حكومة خفيّة يديرها اليهود الأثرياء. لا أكافح ضدّ اليهود، أنا الذي

وُلدت يهوديّاً، بل ضدّ "النظرية اليهودية" التي تريد الحلول محلّ المسيحيّة. . . أنا أحبّ اليهود، وليَشهَد المسيح الذي قتلوه عليَّ. . .

استرجع برافمان أنفاسه، وطلب هُلَامية هَبْر صغار الحجل *aspic de filets mignons de perdreaux*. ولكنه عاد على الفور إلى أوراقه، التي كان يتصفحها ببريق في عينيه: - وكلّ شيء أصلي، أرأيت؟ يدلّ على ذلك قِدَم الرِّق، وتواصل نمط كتابة العدل الذي حرّر الوثائق، والإمضاءات التي تتماثل هي نفسها حتى في تواريخ مختلفة.

برافمان الذي ترجم الوثائق إلى الفرنسية وإلى الألمانية، عرف الآن، من لاغرونج أنّني قادر على صنع وثائق أصليّة، وسألني أن أصنع له نسخة فرنسيّة، تظهر وكأنها تعود إلى نفس حقبة الوثائق الأصلية. كان من المهمّ أن تكون هناك أيضاً وثائق في لغات أخرى ليتبيّن للرّوس أنّ أنموذج الكَحَل كان يُؤخذ مأخذ الجدّ في مختلف البلدان الأوروبيّة، وأنّه محبّذ بصفة خاصة من قِبل الرابطة الإسرائيلية الباريسية.

سألته كيف يُمكن إثبات الحجّة على وجود كَحَل عالمي انطلاقاً من تلك الوثائق الآتية من جالية نائية في أوروبا الشرقية. أجابني برافمان بأن لا أنشغل بذلك، ستصلح تلك الوثائق فقط كوثائق مساندة، كدليل على أنّ ما يتحدّث هو عنه ليس من صنع الخيال - وفيما عدا ذلك سيتحلّى كتابه بالقدر الكافي من الإقناع للكشف عن الكَحَل الحقيقي، الأخطبوط العظيم الذي يبسط مجسّاته على العالم المتحضّر.

تصلّبت ملامحه آنذاك وكاد يتّخذ ذلك الشكل العُقابي الذي يفضح يهوديّاً كان لا يزال، بالرغم من كل شيء، قابعاً في قرارة نفسه.

- العواطف الأساسيّة التي تحرّك الروح التلموديّة هي الطموح اللامحدود في الهيمنة على العالم، والجشع الذي لا يشبع أبداً في امتلاك كلّ ثروات مَنْ هو غير يهودي، والحقد إزاء المسيحيّين وعيسى المسيح. وإلى أن يعتنق إسرائيل يسوع فإنّ البلدان المسيحيّة التي تستضيف ذلك الشعب ستكون بالنسبة إليه مثل بحيرة مفتوحة حيث يُمكن لكلّ يهودي أن يصطاد بكلّ حريّة، كما يقول التلمود.

وبعد أن أنهكه حماسه الاتهامي، طلب برافمان شرائح الفراخ المخصية بالهليون *escalopes de poularde au velouté*، ولكن الأكلة لم تَنَل رضاه وغيّرها بـ هبر الفراخ المخصية بالكمأة *filets de poularde piqués aux truffes*. ثمّ أخرج من صدريّته ساعة فضيّة وقال: - أوه، الوقت متأخر. الأكل الفرنسي رائع ولكن الخدمة بطيئة. لديّ شغل عاجل ويجب أن أذهب. أعلمني يا كابيتان سيمونيني إذا تيسّر لك الحصول على نوع الورق والحبر الملائم.

تذوّق برافمان في الختام نفيخة بالفانيليا، وكنت أنتظر من يهودي، وإن اعتنق المسيحيّة، أن يترك لي دفع الحساب. على عكس ذلك، وبحركة تنمّ عن كرم الأسياد، أراد برافمان أن يدفع هو حساب تلك الوجبة الخفيفة "التصبيرة" كما سمّاها بلامبالاة. لعلّ المخابرات الروسيّة تُتيح له استرجاع مصاريف أميريّة.

عدت إلى شقتي وقد انتابني بعض القلق. وثيقة حُرّرت في مينسك قبل الآن بخمسين سنة تحمل وصايا دقيقة من نوع من يجب أن تدعو ومن يجب أن لا تدعو إلى حفل، لا تبيّن البتّة أنّ تلك القواعد تحكم أيضاً عمل كبار المَصْرِفيين في باريس أو في برلين. وأخيراً: لا يجب أبداً، وأبداً ودائماً أبداً، الاشتغال على وثائق أصليّة أو نصف أصليّة. إذا كانت موجودة في مكان ما، يُمكن لأحد أن يُخرجها ويُثبت أنّ شيئاً ما وقع نسخه بطريقة غير صحيحة.. لكي تكون الوثيقة مقنعة يجب صنعها "من جديد" ex novo، وإن أمكن لا يجب أن تُظهر منها الأصل، بل أن تتحدّث عنه على أساس ما قيل، وأن لا يُمكن الرجوع إلى أيّ مصدر موجود، مثلما حدث مع الملوك المجوس، الذين تحدّث عنهم فقط متّى في إصحاحَيْن، ولم يقل لا كيف يُدعون، ولا كم عددهم، ولا أنهم ملوك، وكل ما تبقى فهي روايات تقليدية. ومع ذلك فإنهم بالنسبة إلى الناس حقيقيّون بقدر ما مريم ويوسف حقيقيّان، وأعرف أن هناك في بعض الأنحاء من يعبد رُفاتهم. يجب أن تكون الكشوفات خارقة للعادة، مثيرة، ورومانسيّة. هكذا فقط تصبح قابلة للتصديق وتثير السخط. ما يهمّ مزارع كروم من شمبانيا من أنّ اليهود

يفرضون على أمثالهم هذه الطريقة أو تلك في الاحتفال بتزويج بناتهم؟ هل هذا دليل على أنّهم يريدون سلبه أمواله؟

عند ذلك تفطّنت إلى أنّني أملك تلك الوثيقة الدامغة، أو بالأحرى أملك منها الإطار المقنع - أفضل من فاوست غونو، الذي كان قد أفقد الفرنسيّين صوابهم، منذ بضعة أعوام - ويكفي أن أجد المحتويات الملائمة. فكَّرتُ بطبيعة الحال في اجتماع الماسونيّين على جبل الرعد، وفي مخطّط جوزيف بالسمو، وفي ليلة اليسوعيّين في مقبرة براغ.

من أين يجب أن ينطلق المخطّط اليهودي لغزو العالم؟ طبعاً، من امتلاك الذهب، مثلما أوحى لي توسّونيل. غزو العالم، لخلق حالة ذعر لدى الملوك والحكومات، وامتلاك الذهب، لإرضاء الاشتراكيّين والفوضويّين والثوريّين، هدم المبادئ الصحيحة التي يقوم عليها العالم المسيحيّ، لتشويش بَالِ البابا والأساقفة والكهنة. مع إقحام شيء من ذلك الصلف البونابرتي الذي تحدَّث عنه جولي، وذلك النفاق اليسوعي الذي استقاه جولي -مثلما استقيتُه أنا- من سُو.

عدتُ إلى المكتبة، وهذه المرّة في باريس، حيث نجد أشياء أكثر بكثير ممّا يوجد في تورينو، وهناك عثرت على صورٍ أخرى لمقبرة براغ. كانت موجودة منذ القرون الوسطى، وعلى مرّ القرون، بما أنّه لا يُمكن أن تمتدّ خارج الفضاء المحدّد لها، تراكمت القبور بعضها فوق البعض، محتوية ربما مائة ألف جثمان، وتعدّدت الشواهد، تكاد تكون الواحدة فوق الأخرى، نشرت فوقها فروع البيلسان وهي خالية من أيّ صورة تلطّف من وحشتها، لأنّ اليهود ينفرون من الصور. ولعلّ النَّقّاشين غلب عليهم سحر المكان وغالوا في خلق تلك الفقاعيّة من الأحجار كما لو كانت شجيرات خلنج عوّجت أغصانها الرياح، فبدا ذلك الفضاء مثل فم فاغر لساحرة عجوز فقدت أسنانها. ولكن، بفضل بعض النَّقّاشين الأكثر خيالاً الذين صوَّروها تحت ضوء القمر، بدا لي واضحاً على الفور ما يُمكن أن أجنيه من ذلك المشهد السَّبْتي الشيطاني، لو تراءى - بين ما يشبه شواهد القبور وبلاطات الرصيف المائلة في كلّ الاتجاهات بسبب هزّة زلزال- أحبارٌ يهود يقفون منحنين، ملتفِّين في عباءاتهم ومبرنسين بلحاهم الرمادية كأنها

لِحي ماعز، وهم يدبّرون مؤامرتهم، مائلين مثل الشواهد التي يتّكئون عليها، ليشكّلوا في الليل غابة من الأشباح المنكمشة. وفي الوسط قبر الحاخام لاو، الذي خَلقَ في القرن السابع عشر الغوليم -ذلك المخلوق الوحشي المرعب المنذور لكي يثأر بواسطته كلّ الإسرائيليّين.

هذا أفضل من دُومَا، وأفضل من اليسوعيّين.

ما تُورده وثيقتي يجب أن يظهر، بطبيعة الحال، كشهادة شفويّة لشخص حضر تلك الليلة، شاهد مضطرّ لإخفاء اسمه، وإلّا سيكون الموتُ جزاءَه. ينبغي أن يدخل أثناء الليل إلى المقبرة، قبل بداية الاجتماع، متنكراً في زيّ حاخام، يختفي بالقرب من كومة الأحجار التي كانت في السابق قبر الحاخام لاو. عند منتصف الليل بالضبط - كما لو أنّ جرس كنيسة مسيحيّة دقّ من بعيد مجدّفاً ليُعلن الاجتماع اليهودي - يصل اثنا عشر نفراً ملتفين في عباءات قاتمة ويرتفع صوت، كما لو أنّه يخرج من قاع قبر، ليحيّي القادمين باعتبارهم الاثني عشر روشي- باثي- آبوث، زعماء القبائل الإسرائيليّة الاثنتي عشرة، وسيجيب كلّ واحد منهم قائلاً: "نحيّيك، يابن الهالك".

هذا هو المشهد. مثلما حدث في جبل الرعد، سيسأل الصوت الذي جمعهم: "لقد مرّت مائة سنة منذ اجتماعنا الأخير. من أين جئتم ومن تمثّلون؟" والأصوات تجيب الواحد تلو الآخر: "رَبِّي جودا من أمستردام، رَبِّي بنيامين من طليطلة، رَبِّي ليفي من فورمس، ربّي منسّا من بيست، ربّي غاد من كراكوف، ربّي سيميون من روما، ربّي سيبولون من لشبونة، ربّي روبن من باريس، ربّي دان من القسطنطينية، ربّي آسر من لندن، ربّي عيساشر من برلين، ربّي نفتالي من براغ". عندئذٍ يطلب الصوت، أي المدعوّ الثالث عشر، من كلّ واحد أن يعدّد الثروات التي تملكها مجموعته، ويحصي الثروات التي يملكها روتشيلد والمصرفيّون اليهود الآخرون المهيمنون على العالم. والنتيجة هي ستمائة فرنك لكلّ نفر من الثلاثة ملايين وخمسمائة يهودي الذين يعيشون في أوروبا، أي مليارين من الفرنكات. يقول الصوت الثالث عشر: لا تزال غير كافية، لتدمير مئتيْن وخمسة وستين مليون مسيحيّ، ولكنها كافية لكي نبدأ.

يجب عليّ أن أفكّر فيما يلزم أن يقوله الآخرون، ولكنّني كنت قد رسمتُ الخاتمة. دعا الصوت الثالث عشر روح ربّي لاو، فانبثق نور أزرق من القبر ليصبح بنفسجيّاً وساطعاً، ورمى كلّ من المدعويّن الاثني عشر حجارة على القبر فانطفأ النور تدريجيّاً. ثم اختفى الاثنا عشر، كلّ في جهة مختلفة، كما لو ابتلعتهم (كما يقال) العتمة، وعادت المقبرة إلى كآبتها الشبحيّة الفاقدة للحياة.

إذن، دُومَا، سو، جولي، توسّونيل. تنقصني، إضافة إلى تعليم القسّ بارّويل، دليلي الروحي في إعادة التركيب هذه، وجهةُ نظر كاثوليكيّ متحمّس. في تلك الأيام بالذات، حدثني لاغرونج، الذي كان يحثّني لأسارع في ربط علاقتي مع الرابطة الإسرائيلية، حدّثني عن غوجنو دي موسّو. كنت أعرف بعض الشيء عنه، كان صحفيّاً كاثوليكيّاً مَلَكيّاً، اهتمّ إلى حدّ الآن بالسحر، وبالممارسات الشيطانية، بالجمعيّات السريّة وبالماسونية.

قال لاغرونج: - إنه، حسب ما بلغنا، بصدد إتمام كتاب حول اليهود وتهويد الشعوب المسيحيّة، هل تفهم ماذا أعني؟ من الصالح بالنسبة إليك أن تقابله لجمع معلومات كافية لإرضاء أصدقائنا الروس. وبالنسبة إلينا من المفيد أن نحصل على معلومات دقيقة حول ما يفعله، لأنّنا لا نريد أن تتعكّر العلاقات الجيّدة بين حكومتنا والكنيسة والأوساط المالية اليهودية. بإمكانك أن تتقدّم إليه قائلا إنك باحث في الشؤون اليهودية وإنك معجب بأعماله. هناك شخص بإمكانه أن يقدّمك إليه، القسّ دلّا بيكّولا الذي سبق أن قدّم لنا بعض الخدمات.

- ولكنني لا أعرف العبريّة، قلت له.

- ومن قال لك إنّ غوجنو يعرفها؟ لكي تكنّ الكره لشخص ما ليس من الضروري أن تتكلّم مثله.

الآن (فجأة) أذكر لقائي الأوّل مع القسّ دلّا بيكّولا. أراه كما لو كان أمامي. وعند رؤيته أفهم أنّه ليس نسخة مني أو، بعبارة أفضل، ليس شبيهي، لأنّه

يظهر على الأقلّ في الستين من العمر، يكاد يكون مُحْدَوْدِباً، أحول وبارز الأسنان. إنه القسّ كوازيمودو، قلت لنفسي عندما رأيته آنذاك. إضافة إلى ذلك كانت له نبرة ألمانيّة. أذكر أن دلّا بيكّولا همس لي أنّه لا يتعين مراقبة اليهود فقط وإنما مراقبة الماسونييّن أيضاً، لأنها في نهاية الأمر هي دائماً نفس المؤامرة. كان رأيي أنّه لا يجب فتح أكثر من جبهة واحدة في كلّ مرّة، وأنهيت النقاش في ذلك إلى حين، ولكنّني فهمتُ من خلال بعض تلميحات القسّ أنّ الأخبار حول الطوائف الماسونية تهمّ اليسوعيّين، لأن الكنيسة كانت تعدّ لهجمة قويّة ضدّ الجُذام الماسوني.

- على كلّ حال، قال دلّا بيكّولا، اليوم الذي تريد أن تتصل فيه بتلك الأوساط أعلمني. إنّني أخ في إحدى الغرف الباريسية ولديّ عدّة معارف جيّدة في ذلك الوسط.

- أنت، القسّ؟ قلت له، فابتسم دلّا بيكّولا: - لو تعلم كم من القساوسة هم ماسونيّون...

حصلت في تلك الأثناء على مقابلة مع الفارس غوجنو دي موسّو. كان رجلاً في السبعين ضَعُف عقله، مقتنعاً بالأفكار القليلة التي كان يملكها، وكان مهتمّاً بالبرهنة على وجود الشيطان والسحرة، والعرّافين، والروحيين، والمنومين، واليهود، والكهنة الوثنيّين وحتى بالـ"كهربائيّين" الذين يؤكّدون وجود نوع من المبدأ الحيويّ.

كان حديثه مثل الفيض، وبدأ من الأصول. كنتُ أستمع مُسَلِّماً أمري للّه إلى أفكار الشيخ حول موسى، والفريسيّين، والمجمع اليهودي الكبير، والتلمود، ولكن غوجنو قدّم لي خلال ذلك كونياكاً جَيّداً جداً، تاركاً، عن سهو، الزجاجة على طاولة صغيرة أمامه، وكنتُ أتحمّل صابراً.

قال لي: إنّ نسبة البغايا كانت أعلى لدى اليهود منها عند المسيحيّين (ألم يكن ذلك معروفاً، كنتُ أقول في نفسي، من الأناجيل حيث إنّ عيسى ما خطا

خطوة إلّا واعترضته مذنبة؟)، ثمّ أخذ يبيّن لي كيف أنه في الأخلاق التلمودية لا يوجد القريب، ولا أي ذكر للواجبات التي علينا إزاءه، وهذا يفسّر ويبرّر بصفة خاصة قساوة اليهود في إهلاك عائلات، وانتهاك أعراض فتيات، وتشريد أرامل ومسنّين بعد أن مصّوا دماءهم بالربا. وكما هو الحال بالنسبة إلى البغايا، فحتى عدد الأشرار أكثر عند اليهود منه عند المسيحيّين: - هل تعرف أنّه على اثنتي عشرة حالة سرقة حكمت فيها محكمة لايبزيغ إحدى عشرة منها اقترفها يهود؟ هتف غوجنو مضيفاً بابتسامة لئيمة: - وبالفعل على جبل الجلجلة كان هناك لصّان مقابل عادل واحد. وفي العادة، قال مضيفاً، الجرائم التي يقترفها اليهود هي الأشنع، مثل الاحتيال، والتزوير، والربا، والإفلاس الاحتيالي، والتهريب، وتزييف العملة، والفساد، والاحتيال التجاري، وهلمّ جرّاً.

ها إنّه -بعد حوالى ساعة من التفاصيل بخصوص الربا- جاء دور الأشياء الأكثر إثارة، حول قتل الأطفال وأكل لحوم البشر، وأخيراً، وكأنما ليقابل هذه الممارسات الغامضة بسلوك واضح وجليّ في وضح النهار، ها إنه يذكر الاحتيالات العمومية للمالية اليهودية، وضعف الحكّام الفرنسيّين في التصدي لها ومعاقبتها.

والأشياء الأهمّ، ولكن استعمالها غير ذي فائدة كبيرة، جاءت عندما ذكّر دي موسّو، وكأنّه كان هو الآخر يهوديّاً، بالتفوّق الثقافي لليهود على المسيحيّين، معتمداً بالفعل على تصريحات ديزرائيلي التي رواها لي توسّونيل - حيث نرى أنّ الاشتراكيّين الفوريوريّين والكاثوليكيّين الملكيّين كانت تجمعهم على الأقلّ الآراء نفسها حول اليهوديّة - ويبدو معارضاً للفكرة الشائعة من أنّ اليهودي واهن وكثير المرض: صحيح أنّه لعدم عنايتهم برياضة الجسم ولا بالفنون العسكريّة (لنتذكّر القيمة التي كان اليونانيّون يُولونها، على العكس منهم، للمباريات الرياضية) فإنّ اليهوديّ ضعيف البنية رخص العود، ولكنه يعمّر أكثر، وهو ذو قوّة تناسليّة عظيمة -راجعة أيضاً إلى شهوته الجنسيّة اللامحدودة- ومحصّن ضدّ أمراض عديدة تصيب باقي البشريّة - ولذا فاليهود أخطر كغزاة للعالم.

- فسّر لي، تابع غوجنو، لماذا نجا اليهود دائماً تقريباً من أوبئة الكوليرا،

حتى وإن عاشوا في الأحياء المدنية الأقلّ ملاءمة للصحة. قال مؤرّخ عاش في زمن طاعون سنة 1346 خلال حديثه عنه، إنّه لأسباب غامضة لم يصب الوباء اليهود في أيّ بلد، ويقول لنا فراسكتور أنّ اليهود، وحدهم، نجوا من الحمّى الصفراء سنة 1505، ويبيّن لنا دينيير كيف أن اليهود وحدهم بقوا على قيد الحياة بعد الوباء الزُّحاري الذي ضرب نيميغا سنة 1736، وبرهن واوروش كيف أنّ الدودة الشريطية لا تظهر عند الأهالي اليهود في ألمانيا. ماذا تقول عن هذا؟ كيف يُمكن هذا، إذا اعتبرنا أنّه أقذر شعب في العالم وأنّهم يتزاوجون فيما بينهم؟ هذا ضدّ كلّ نواميس الطبيعة. ربما يعود ذلك إلى طريقتهم في الأكل والتي تبقى قواعدها غامضة علينا، أو إلى الختان؟ ما هو السرّ الذي يجعلهم أقوى منّا حتى عندما يبدون أضعف؟ إنّ عدوّا بهذا المكر وبهذه القوّة يجب إبادته بأيّة وسيلة كانت، هذا ما أقول. تصوّر أنّه عند دخولهم إلى الأرض الموعودة، كان عددهم لا يفوق ستمائة ألف رجل، وبحساب أربعة أشخاص لكلّ بالغ ذكر، نحصل على عدد جُمْلي بمليونين ونصف؟ ولكنهم زمن سليمان كانوا مليوناً وثلاثمائة ألف محارب، وإذن خمسة ملايين نسمة، وها إنّنا وصلنا إلى ضعف العدد. واليوم؟ من الصعب إحصاء عددهم، مشتّتين كعادتهم عبر القارات الخمس، ولكن الإحصائيّات الأكثر حذراً تتحدّث عن عشرة ملايين. وإنهم يتكاثرون، يتكاثرون...

كان يبدو منهكاً من فرط حقده، حتى أنّي قدّمت إليه كأساً من كونياكه. ولكنه سرعان ما تماسك، بحيث أنّه عندما وصل به الحديث إلى المسيح المنتظر وإلى القبالة (وإذن كان مستعداً لتلخيص كتبه حول السحر والشيطانيّة)، كنتُ أنا قد بلغتُ حالة من الانتشاء المذهل بحيث نهضت بأعجوبة، وشكرته ثمّ ذهبت.

قلت لنفسي: هذا فضل كبير أكثر مما يلزم، لو سلّمت مثل هذه الأخبار في وثيقة موجّهة إلى أشخاص مثل لاغرونج لألقتني مصالح المخابرات في زنزانة، ولربّما حتّى في شاتو ديف، مثلما يجدر بمُخْلِص لدُوما. لعلّي لم أعطِ لكتاب دي موسّو ما يستحقه من الاعتبار، لأنّني الآن وأنا أكتب أتذكّر أنّ كتاب



. . . كان يبدو منهكا من فرط حقده، حتّى أنّي قدّمت إليه كأساً من كونياكه. . .
(ص222)

"اليـهـودي والـيـهـودية وتـهـويـد الـشـعـوب الـمـسـيـحـيـة" *Le juif, le judaisme et la judaisation des peuples chrétiens* كان قد نشر سنة 1869 في ستمائة صفحة تقريباً وبحرف من حجم صغير، حصل على بركة البابا بيو التاسع ولاقى نجاحاً كبيراً لدى القرّاء. ولكن كان بالفعل ذلك الشعور الذي كنت أحسّ به، وهو أنّه في كلّ مكان كانت تُنشر نصوص كثيرة وكتب ضخمة معادية لليهود، هو الذي كان ينصحني بأن أكون منتقياً.

يجب أن يقول الأحبار في مقبرتي البراغية شيئاً يسهل فهمه، في متناول العامّة، وبصفة ما جديداً، لا مثل قتل الأطفال الطقوسي، الذي يتحدّث عنه الجميع منذ قرون والناس يؤمنون به مثلما يؤمنون بالسحرة، يكفي منع الأطفال من التجول بالقرب من حارة اليهود.

وهكذا عدت لكتابة تقريري حول مكائد تلك الليلة المحتومة. استهلّ الحديث الصوت الثالث عشر: - أورث أجدادُنا لنخبة إسرائيل عادةَ الاجتماع مرّة في القرن حول ضريح المقدس ربّي سيميون بن يهوذا. لقد مرّ ثمانية عشر قرناً منذ أن سَلَب مِنّا الصليبُ السلطة التي وعدنا بها إبراهيم. داسوه، وأذلّه الأعداء، دائماً تحت التهديد بالقتل والاغتصاب، ولكن شعب إسرائيل صمد: وإذ هو تشتّت في كلّ جهات الأرض، فذلك يعني أن الأرض جميعها يجب أن تكون ملكه. نحن منذ عهد هارون نملك العجل الذهبي.

- نعم، قال عندئذٍ ربّي عيساشر، عندما نصبح المالكين الوحيدين لكلّ ذهب الأرض، فإنّ القوّة الحقيقيّة ستصير بين أيدينا.

- واصل الصوت الثالث عشر: إنّها المرّة العاشرة، بعد ألف سنة من الكفاح المرير والمتواصل ضدّ أعدائنا التي تجتمع فيها، في هذه المقبرة وحول ضريح حبرنا سيميون بن يهوذا، نخبة كلّ جيل من شعب إسرائيل. ولكن لم يسبق في أيّ قرن مضى أن تمكّن أجدادنا من جمع كل هذا الذهب بين أيديهم، وبالتالي كلّ هذه القوّة. في باريس، في لندن، في فيينا، في برلين، في أمستردام، في هامبورغ، في روما، في نابولي، ولدى جميع آل روتشيلد، صار اليهود أسياد الوضع المالي... تكلّم أنت يا ربّي روبن، أنت الذي تعرف الوضع في باريس.

- وقال روبن الآن: كلّ الأباطرة والملوك والأمراء الحاكمين مثقلون بالديون التي اقترضوها منّا للحفاظ على جيوشهم، ولمساندة كراسيهم التي صارت متضعضعة. لذا ينبغي علينا أن نُيسِّر دائماً أكثر في القروض بغاية التحكّم، كصكّ ضمان لرؤوس الأموال التي نوفرها لتلك البلدان، في سككهم الحديديّة، ومناجمهم، وغاباتهم، ومعاملهم الكبرى ومصانعهم، وعقارات أخرى، إضافة إلى إدارة الضرائب.

- تدخّل سيميون من روما: ولا ننسَ الفلاحة التي تبقى دائماً الثروة الكبرى لكلّ بلد. الملكية العقاريّة الكبرى تبقى في الظاهر ممتنعة، ولكن لو أقنعنا الحكومات بتفتيت تلك الملكيّات الكبرى سيتيسَّر لنا أمر شرائها.

ثمّ قال ربّي جودا من أمستردام: - ولكن الكثيرين من إخواننا في إسرائيل يعتنقون المسيحيّة ويتقبّلون التعميد...

- لا يهمّ، قال الصوت الثالث عشر... المعمَّدون يصلحون تماماً لأهدافنا. بالرغم من تعميد أجسادهم، فإنّ نفوسهم وأرواحهم تبقى مخلصة لإسرائيل. منذ الآن وحتى قرن، لن يكون أبناء إسرائيل هم الذين يريدون اعتناق المسيحيّة بل سيريد العديد من المسيحيّين الانضمام إلى ديانتنا المقدسة. وعندئذٍ سيصدّهم إسرائيل بازدراء.

- ولكن قبل كلّ شيء، قال ربّي ليفي، يجب أن نعتبر الكنيسة المسيحيّة هي أخطر أعدائنا. يجب أن ننشر بين المسيحيّين مبادئ الفكر الحرّ، والشكوكيّة، ينبغي أن نذلّ كهنة تلك الديانة.

- لننشر فكرة التقدّم الذي ستكون نتيجته المساواة بين كلّ الأديان، تدخّل ربّي مَنَسّا، لنكافح من أجل أن تُحذف من البرامج المدرسيّة دروس الدين المسيحي. سيحصل اليهود، بما لديهم من حذق ودراية، دون صعوبة على الكراسي الأكاديمية وعلى مناصب الأساتذة في المدارس المسيحيّة. بهذا، ستبقى التربية الدينية مقصورة على العائلة، وبما أنّ جلّ العائلات لا تتوفّر على الوقت الكافي للاهتمام بهذا الجانب من التدريس، فإنّ الروح الدينيّة ستضعف شيئاً فشيئاً.

وجاء دور ربّي دان من القسطنطينية الذي قال: - أولاً وقبل كل شيء، لا

يجب للتجارة وللاحتكار أن يفلتا أبداً من أيدينا. يجب أن نستحوذ على تجارة الكحول، والزبدة، والخبز والخمر، بما أننا بهذا سنكون الأسياد المطلقين على كلّ الفلاحة، وبصفة عامّة على كلّ الاقتصاد الفلاحي.

فقال نفتالي من براغ: - لنحدّد القضاء والمحاماة هدفاً لنا. ولِمَ لا يكون اليهود وزراء التربية العموميّة، بينما تحصلوا في عديد المرات على وزارات المالية؟

وأخيرا تدخل ربّي بنيامين من طُلَيْطلة: - لا يجب أن نبقى خارج أيّ مهنة لها أهميّتها في المجتمع: الفلسفة، الطبّ، الحقوق، الموسيقى، الاقتصاد، باختصار، كلّ فروع العلوم والفنون والآداب هي مجال فسيح يُمكننا أن نُظهر فيه عبقريّتنا. وقبل كلّ شيء الطبّ. الطبيب ينفذ إلى أسرار العائلة الأكثر حميميّة، ويملك بين يديه حياة المسيحيّين وصحّتهم. ويجب أن نشجّع التزاوج بين اليهود والمسيحيّين؛ إنّ إقحام قدر ضئيل من الدم غير النقيّ في سلالتنا، التي اختارها الربّ، لا يُمكن أن تفسدها، بينما أبناؤنا وبناتنا سيحصلون على قرابة عائلات مسيحيّة من التي لها بعض السلطة.

- لنختم اجتماعنا، قال الصوت الثالث عشر. إذا كان الذهب هو القوّة الأولى في العالم، فإنّ القوّة الثانية هي الصحافة. يجب أن يكون إخواننا على رأس كلّ الصحف اليوميّة في كلّ بلد. وعندما نصبح الأسياد المطلقين على الصحافة، سيصير بإمكاننا تغيير الرأي العام حول الشرف، والفضيلة، والاستقامة، وتسديد الضربة الأولى إلى المؤسّسة العائليّة. لنتظاهر بالحماس للمسائل الاجتماعية موضع الاهتمام. يجب مراقبة الفئة العاملة، وإقحام مشوّشينا في التحركات الاجتماعية بطريقة تجعلنا ندفعها للتمرّد عندما نريد ذلك، ونحث العامل على إقامة المتاريس، وعلى الثورة، وكلّ كارثة من هذه الكوارث ستقرّبنا من غايتنا الوحيدة: أن نحكم الأرض، مثلما وعد الربّ بذلك أبانا الأول إبراهيم. عندئذٍ ستتنامى قوّتنا وتعظم مثل شجرة هائلة، تحمل غصونها غلالاً اسمها ثراء، متعة، سعادة، سلطان، تعويضاً لتلك الوضعيّة الممقوتة التي ظلّت لمدّة قرون المصير الوحيد لشعب إسرائيل.

هكذا ينتهي، حسب ما أتذكر، التقرير من مقبرة براغ.

أحسّ بنفسي منهكاً في ختام إعادة تركيبي للوثيقة - ربما لأني صاحبت هذه الساعات من الكتابة المتلهفة ببعض الكؤوس لكي تسعفني بالقوة الجسدية والحيويّة الذهنية. ومع ذلك فإنّني فقدت منذ الأمس كلّ شهيّة، والأكل يثير فيّ الحاجة إلى التقيّؤ. أستفيق وأتقيّأ. لعلّي أشتغل فوق اللزوم. أو لعلّ الحقد يلهب حلقي. وعندما أتذكر الصفحات التي كتبتها عن مقبرة براغ، - وبعد كل تلك السنوات التي انقضت - أدرك كيف أنّ تلك التجربة، إعادة التركيب المقنعة تماماً للمؤامرة اليهودية، ذلك التقزّز الذي لم يكن في عهد طفولتي وسنوات شبابي إلّا (كيف يُمكن القول؟) مثاليّاً، كلّه في الرأس، مثل أصوات تعليم مسيحيّ لقنني إيّاه جدّي، صار الآن من لحم ودم، وفقط منذ أن أحييتُ من جديد تلك الليلة الجهنميّة، تحوّل كلّ الكره والحقد الذي كنت أحسّ به نحو المكر اليهودي من فكرة مجرّدة إلى عاطفة جامحة وعميقة. آه، الحقّ يقال، كان ينبغي أن تكون حاضراً تلك الليلة في مقبرة براغ، وحق الرب، أو على الأقل أن تقرأ شهادتي عن ذلك الحدث، لكي تفهم أنّه لم يعد من الممكن تحمّل أن تسمّم تلك الملّة الملعونة حياتنا.

ولم أدرك قطّ كامل الإدراك أن مهمّتي هاته رسالة إلا عندما قرأت وأعدت قراءة تلك الوثيقة. يجب مهما كان الأمر أن أبيع تقريري لأحد، وبشرط وحيد أن يدفعوا لي وزنه ذهباً سيصدقونه وسيساهمون في جعله قابلاً للتصديق...

ولكن من الأفضل بالنسبة إلى هذه الليلة أن أكفّ عن الكتابة. الحقد (أو حتى ذكراه فقط) يقلب المخّ. يداي ترتعشان. يجب أن أذهب للنوم، آه النوم، النوم.

# 13

## دلّا بيكّولا يقول إنّه ليس دلّا بيكّولا

5 نيسان/أبريل 1897

أفقت هذا الصباح في فراشي، وارتديت ثيابي، مع أقل ما يُمكن من التطرية التي تتطلبها شخصيتي. ثمّ جئت لأقرأ مذكراتك، حيث تقول إنك لاقيت قسّاً يُدعى دلاّ بيكّولا وتصفه على أنّه، دون شكّ، أكبر سنّاً منّي وأحدب إضافة إلى كل ذلك. ذهبتُ لأنظر إلى صورتي في المرآة الموجودة في غرفتك - في غرفتي، مثلما يليق برجل دين، لا توجد مرآة - ومع أنني لا أريد إطراء نفسي فإنه لم يسعني إلاّ أن ألاحظ أنّ قسماتي منتظمة، ولست بتاتاً أحول وأسناني غير بارزة. ونبرتي فرنسيّة جيّدة، ربما برنّة إيطالية شيئاً ما.

إذن من هو القسّ الذي لاقيته ويحمل اسمي؟ ومن أكون أنا، عند هذا الحدّ الذي وصلنا إليه؟

# 14

## بيارّيتز

5 نيسان/أبريل 1897، آخر الصباح

استفقت متأخراً ووجدت فوق يوميّاتي ملاحظتك الوجيزة. أنت تنهض مبكّراً. تاالله، يا حضرة القسّ - إذا ما قرأتَ هذه السطور التي كتبتُها في يوم من الأيام (أو في ليلة من الليالي). ولكنك من تكون حقيقة؟ ولماذا أتذكّر الآن بالذات أنني قتلتك، وقبل الحرب. كيف يُمكن أن أتحدّث إلى شبح؟

هل قتلتك؟ لماذا أنا متأكّد الآن من ذلك؟ لنحاول إعادة تركيب الحادثة. ولكن يجب عليّ، في انتظار حصول ذلك، أن آكل شيئاً. غريب، بالأمس كنت لا أقدر على التفكير في الطعام دون الإحساس بالاشمئزاز، والآن أريد أن ألتهم كلّ ما أجد. لو كان بإمكاني أن أخرج بحريّة من البيت فسيَلْزمني الذهاب إلى الطبيب.

أصبحت، بعد أن أنهيت تقريري عن الاجتماع في مقبرة براغ، جاهزاً لملاقاة العقيد ديميتري. وبما أني تذكرتُ الحفاوة التي لاقى بها برافمان الطبخ الفرنسي دعوته هو الآخر إلى روشي دي كنكال، ولكن ديميتري كان لا يبدو مهتمّاً بالأكل ويتناول دون حماس الأطباق التي طلبتها. كانت عيناه مائلتيْن شيئاً ما بحدقتيْن صغيرتيْن وثاقبتيْن، كانتا تذكّراني بعينيْ نمس، حتى وإن لم أَرَ أبداً نمساً (أكره النمس مثلما أكره اليهود). كان ديميتري يملك، حسب ما بدا لي، تلك القدرة الفريدة على إحراج محدّثه.

قرأ بانتباه تقريري ثم قال: - هامّ جداً. كم؟

إنّه شيء يبعث على السرور أن تتعامل مع أشخاص من هذا القبيل،

وعرضتُ عليه مبلغاً ربّما مفرطاً، خمسين ألف فرنك، مبرّراً ذلك بما كلّفني مُخبريَّ.

- ثمن باهظ، قال ديميتري. أو بالأحرى باهظ بالنسبة لي. لنتقاسم المصاريف. لنا علاقات جيّدة مع المخابرات البروسيّة، وهم أيضاً لديهم مشكلة يهوديّة. أنا أدفع لك خمسة وعشرين ألف فرنك، ذهباً، وأرخّص لك في بيع نسخة من هذه الوثيقة إلى البروسيّين، الذين سيدفعون لك النصف الآخر من المبلغ. سأقوم أنا بإعلامهم. بطبيعة الحال سيطالبون بالوثيقة الأصليّة، مثل التي قدّمتها لي، ولكن ميزتك، حسب ما فسّر لي الصديق لاغرونج، هي القدرة على تعدّد الأصول. الشخص الذي سيتّصل بك يُدعى ستيبر.

لم يقل أكثر من هذا. رفض بلطف كأس كونياك، انحنى انحناءة رسميّة، على الطريقة الألمانية أكثر من أن تكون روسيّة، بحركة قوية من الرأس شكلت زاوية مستقيمة مع الجسم الذي بقي في استقامة متصلّبة، ثمّ انصرف. ودفعت أنا الحساب.

طلبتُ لقاء لاغرونج، وقد سبق أن حدّثني عن ذلك المدعوّ ستيبر، الرئيس الكبير للمخابرات البروسيّة. كان متخصّصاً في جمع معلومات خارج الحدود، ولكنه كان يتقن أيضاً كيف يخترق طوائف وحركات معادية لأمن الدولة. قدّم قبل ذلك بعشر سنوات عملاً نفيساً بجمع معلومات حول ذلك المسمّى ماركس، الذي كان يشغل بال الألمان والإنكليز على حدّ سواء. يبدو أنّه هو أو عميله كروس، الذي كان يعمل تحت اسم مزيّف، فلوري، تمكّن من الدخول إلى شقة ماركس اللندنية في زيّ طبيب واستحوذ على قائمة تضمّ كلّ أسماء المنتمين إلى الرابطة الشيوعيّة. كانت عمليّة رائعة ومكّنت من إيقاف أفراد كثيرين خطيرين، هكذا ختم لاغرونج كلامه. أما أنا فقد لاحظت حيطة غير مُجدية؛ لكي يسقط هؤلاء الشيوعيّون في الفخ بتلك السهولة يجب أن يكونوا ساذجين ولن يقطعوا شوطاً طويلاً. ولكن لاغرونج قال من يدري. الوقاية أفضل، والعقاب يجب أن يأتي قبل أن تُرتكَب الجرائم.



... طلبتُ لقاء لاغرونج... (ص232)

- العميل الكفء في المخابرات لا يصلح عندما يجب عليه أن يتدخل في شيء كان قد وقع. مهمّتنا هي في جعله يقع قبل ذلك. نحن بصدد دفع الكثير من الأموال لتنظيم اضطرابات في الشوارع الكبرى. لا يصعب ذلك، تكفي بضع عشرات من المساجين القدامى مع بعض أعوان البوليس بالزيّ المدني، ينهبون ثلاثة مطاعم وبعض المواخير منشدين "المارسيلييز"، ويحرقون بعض الأكشاك، ثم يصل أعواننا بالزيّ ويوقفونهم كلّهم بعد تصادم مُدَبَّر.

- وما الفائدة؟

- يصلح لكي يبقى البورجوازيّون الطيّبون دائماً منشغلين وليقتنع عامّة الناس بوجوب الحزم والصرامة. لو كان علينا أن نقمع اضطرابات حقيقيّة، لا ندري من ينظمها، فلن نتمكّن من ذلك بسهولة. ولكن لنعد إلى ستيبر. بدأ يتجوّل منذ أن أصبح رئيس الشرطة السريّة البروسيّة عبر قرى أوروبا الشرقية في زيّ مهرّج مسجّلاً ملاحظات عن كلّ شيء، ومكوّناً شبكة من المخبرين على طول الطريق التي سيقطعها يوماً الجيش البروسي من برلين إلى براغ. وشرع في خدمة مماثلة عبر فرنسا متوقّعاً أنّ الحرب يوماً ما واقعة لامحالة.

- أليس من المستحسن، إذن، أن لا أخالط هذا الشخص؟

- كلّا. تنبغي مراقبته. لذا من الأفضل أن يكون العاملون معه عملاءَنا. ومن جهة أخرى أنت ستخبره بشيء يخصّ اليهود، ولا يهمّنا نحن. وإذن بالتعامل معه أنت لا تضرّ بمصالح حكومتنا.

بعد ذلك بأسبوع وصلتني ورقة بإمضاء ستيبر. يسألني فيها إن كان لا يضايقني كثيراً أن أذهب إلى ميونيخ البافاريّة، للقاء شخص من ثِقاته يُدعى غودش، ولتسليمه التقرير. أكيد أنّ ذلك ضايقني، ولكن كان يهمّني كثيراً الحصول على النصف الآخر من المبلغ.

سألتُ لاغرونج إن كان يعرف غودش هذا. فقال لي إنّه كان موظفاً سابقاً في البريد يعمل بالفعل كمُثير شغب لصالح الشرطة السريّة البروسيّة. بعد اضطرابات 1848، ولإدانة زعيم الديمقراطيّين، انتحل رسائل مزيّفة يتّضح منها

أنّ هذا الأخير كان يعتزم اغتيال الملك. الحجّة على وجود قضاة ببرلين أنّ هناك من أثبت زيف تلك الرسائل، وجرفت الفضيحة غودش فاضطرّ إلى ترك وظيفته في البريد. ليس هذا فقط، ولكن الحادثة أضرّت بمصداقيّته حتى في أوساط المخابرات، حيث يغفرون لك لو زيّفت وثائق ولكن ليس عندما يفتضح أمرك علناً ويدك في الكيس. تحوّل بعد ذلك إلى مؤلف روايات تاريخية رديئة، كان يمضيها باسم سير جون راتكليف، ويكتب في Kreuzzeitung، وهي جريدة دعاية مناهضة لليهود. ولا تستعمله المخابرات إلا لنشر أخبار، سواء كانت مزيفة أو حقيقية، عن العالَم اليهودي.

ومع ذلك فقد كان الرجل الملائم لحالتي، هكذا قلتُ في نفسي، ولكن لاغرونج فسّر لي أنّه إذا تمَّ اللجوء إليه لهذا الأمر، فذلك يعود فقط إلى أنّ البروسيّين غير مهتمّين كثيرا بتقريري، وكلّفوا شخصاً تافهاً لمعاينته، لراحة الضمير فحسب، وبعد ذلك سيصرفونني.

- ليس صحيحاً، يتشبّث الألمان بتقريري، قلت محتجّاً. إلى حدّ أنّهم وعدوني بمبلغ كبير.

- من وعدك بذلك؟ سألني لاغرونج. وعندما أجبته أنّه ديميتري ابتسم: - إنّهم روس، يا سيمونيني، وبهذا قلت لك كلّ شيء. ماذا سيكلّف روسيّاً أن يعد بشيء باسم الألمان؟ ولكن اذهب مع ذلك إلى ميونيخ، يهمّنا نحن أيضاً أن نعرف ما يفعلون هناك. وتذكّر دائماً أنّ غودش وغد لئيم. وإلّا فلن يمارس هذه المهنة.

ليس ذاك لأن لاغرونج كان جنتلمان معي، إذ لا شكّ أنه من صنف الأشقياء حيث يضع حتى أصحاب الرتب العليا، وإن كان هو نفسه منهم. على كلّ، إذا كافأوني كما ينبغي، فلن يجرح ذلك شعوري.

أظنّ أنّني كنت قد كتبت في يومياتي هذه عن الانطباع الذي احتفظتُ به عن مشرب الجعة الكبير في ميونيخ، حيث يتزاحم الباڤاريّون حول الطاولات الطويلة tables d'hôtes، والمرفق على المرفق، يلتهمون مقانق تسيل دُهناً، ويشربون أكواباً ضخمة كأنها براميل، رجالاً ونساءً، والنساء أكثر مرحاً، وضجة

ودعارة من الرجال. إنّها بحقّ ملّة دنيئة، وكلّفني جهداً، بعد السفر، الذي كان هو نفسه متعباً جداً، البقاء يوميْن فقط في تلك الأرض الألمانية.

وبالفعل ضرب لي غودش موعداً في أحد تلك المشارب بالذات، وكان عليّ أن أعترف أنّ جاسوسي الألماني بدا مولوداً للفرفشة في تلك البيئة: ولا تفيد الأثواب الأنيقة في إخفاء المظهر الثعلبي لمن يعيش بالاحتيال.

ألقى عليّ في الحال، وبفرنسيّة رديئة، بعض الأسئلة حول مصادري، اعتراني الحرج، وحاولت أن أتحدث عن شيء آخر ملمّحاً إلى سوابقي الغاريبالديّة، فكانت مفاجأة سارّة له لأنّه، حسبما قال، بصدد كتابة رواية حول الأحداث الإيطالية لسنة 1860. كان على وشك إتمامه، وعنوانه Biarritz، سيستغرق عدّة مجلّدات ولكن لا تدور كلّ الأحداث في إيطاليا، بل يتنقل إلى سيبيريا، وفرصوفيا، وبيارّيتز طبعاً، وهكذا دواليك. كان يتحدّث عنه بطيب خاطر وببعض الرضى عن النفس، معتبراً أنّه بصدد وضع اللَّبِنَة الأخيرة في "سيستينا"* الرواية التاريخية. لم أفهم العلاقة بين مختلف الأحداث التي كان يهتمّ بها، ولكن يبدو أنّ لبّ المسألة هو الخطر المستمرّ الذي تمثّله قوى الشرّ الثلاث التي تهيمن بدهاء على العالم، أي الماسونيّون، والكاثوليكيّون (بالخصوص اليسوعيّون)، واليهود، الذين كانوا يتغلغلون حتى في القوتَيْن الأوليَيْن لنسف أسس نقاء العنصر البروتستانتي الألماني.

كان يتوسّع ويطنب في الحديث عن المكائد الإيطالية للماسونية المادزينية، ثمّ تتحوّل القصّة إلى فرصوفيا، حيث يتآمر الماسونيّون ضدّ روسيا، بالتعاون مع العدميّين، ملّة ملعونة مثلما أنشأت الشعوب السلافيّة دائماً وفي كل زمن، أولئك وهؤلاء في معظمهم يهود. . . جدير بالاهتمام نظام تجنيدهم الذي يذكّر بنظام تنويريّي باڤاريا وفحّامي البَيْعة العُليا: كلّ عضو يجنّد تسعة آخرين، لا يجب أن يعرف أحدهم الآخر. ثمّ يعود إلى إيطاليا متّبعاً تقدّم البيمونتيّين نحو مملكة

* مُصلّى سيستينا [Capella Sistina] التي رسم سقفها ميكائيل أنجلو والموجودة في الفاتيكان بروما والمقصود بها هنا "روعة الروائع". [المترجم].

الصقليّتيْن، وفي زوبعة من الجروح والخيانات واغتصاب نبيلات، ورحلات خياليّة، ومُناصِرات للملكيّة إيرلنديّات كلّهن شجاعةٌ وأهبةٌ لإعمال السيف، ورسائل سريّة مخبّأة تحت ذيول الخيول، وأمير كراتشيولو جبان وفحّام يغتصب فتاة (إيرلنديّة ومناصرة للملكيّة)، اكتشافات لخواتم سحريّة من الذهب المصدّأ الأخضر بثعابين متشابكة ومرجان أحمر في الوسط، ومحاولة اختطاف ابن نابوليون الثالث، ومأساة كستالفيداردو حيث سالت دماء الجيوش الألمانية الموالية للبابا، وكان يتهجّم على *welsche Feigheit* - قال غودش ذلك بالألمانية ربما لكي لا يجرح شعوري، ولكنني درست قليلاً الألمانية وفهمت أنّه يتحدّث عن الجبن المعروف لدى الشعوب اللاتينية. عند ذلك الحدّ أصبحت القصّة أكثر تعقيداً، ولم نصل بعد إلى نهاية المجلّد الأوّل.

كلما تقدّم غودش في الحديث لمعتْ عيناه الخنزيريّتان أكثر، ونفث رذاذاً من اللُّعاب، وضحك بينه وبين نفسه لبعض الأفكار الطريفة التي فتنته بروعتها، وكان يبدو راغباً في معرفة حكايات غير معروفة عن تشالديني، لامارمورا وجنرالات بيمونتيّين آخرين، وبطبيعة الحال عن الأوساط الغاريبالديّة. ولكن، بما أنّ الأخبار في بيئته تُباع وتُشترى، لم أرَ من المناسب أن أعطيه مجاناً أخباراً هامّة عن الأوضاع الإيطالية. ومن جهة أخرى ما أعرفه كان من الأفضل الصمت عنه.

قلتُ لنفسي إنّ هذا الرجل يتبع طريقاً خاطئاً: لا يُمكنك بتاتاً أن تخلق خطراً له ألف وجه، الخطر يجب أن يكون له وجه واحد، وإلّا فإنّ الناس يفقدون التركيز. إن كنت تريد فضح اليهود تحدّث عن اليهود، ولكن اترك جانباً الإيرلنديّين، والأمراء النابوليتانيّين، والجنرالات البيمونتيّين، والوطنيّين البولونيّين والعدميّين الرّوس. أشياء كثيرة في نفس الوقت. كيف يُمكن للمرء أن يتشتّت حتى هذا الحدّ؟ خصوصاً أنّه بقطع النظر عن روايته كان يبدو أن فكرة غودش المتسلّطة والحصريّة تهمّ بالذات اليهود، وهذا أفضل بالنسبة لي، لأنّني جئت لأعرض عليه وثيقة نفيسة عن اليهود.

وبالفعل، قال لي إنّه لا يكتب تلك الرواية من أجل المال أو بحثاً عن مجد دنيويّ بل لتحرير السلالة الألمانية من كيد اليهود.

- ينبغي الرجوع إلى كلمات لوثر، عندما كان يقول إنّ اليهود أشرار، سامّون وشياطين إلى النخاع، كانوا طيلة قرون قرحنا ووباءنا، واستمرّوا على تلك الحال حتى زمانه. تلك كانت كلماته، إنهم ثعابين، غدّارون، سامّون، ماكرون، شرّيرون، ومجرمون، أبناء الشيطان، يلسعون ويضرّون في الخفاء، لأنّهم لا يستطيعون فعل ذلك في وضح النهار. الدواء الوحيد الممكن علاجهم به هو schärfe Barmherzigkeit - لم يستطع ترجمة ذلك، وفهمت أنّه كان يعني "رحمة مريرة"؛ ولكن لوثر كان يريد قول غياب الرحمة. كان ينبغي إحراق كنائسهم وما لا يحترق يجب غمره بالتراب بحيث لا يُمكن لأحد أن يرى منها ولو حجرة، وهدم منازلهم وحشرهم في اصطبل مثل الغجر، والاستيلاء على كلّ تلك النصوص التلمودية التي لا يتعلّمون منها غير الأكاذيب، واللعنات والتجديف، ومنعهم من ممارسة الربا، ومصادرة كلّ أملاكهم من ذهب ونقود ومجوهرات، وأن تُعطى للشبّان المعاول والفؤوس، وللفتيات المغزل والإبرة لأنّه -كما علّق غودش بضحكة ساخرة - *Arbeit macht frei*، العمل هو الوسيلة الوحيدة للتحرّر. كان الحلّ النهائي بالنسبة للوثر هو طرد اليهود من ألمانيا، كما لو كانوا كِلاباً مسعورة.

- لم يُصغِ أحد للوثر، قال غودش مختتماً حديثه، على الأقلّ إلى حدّ الآن. الحال هو أنّه حتى وإن اعتُبرت الشعوب غير الأوروبيّة منذ القدم منحطّة -انظر الزنجي الذي يُعتبر حتى في أيامنا الحاضرة عن صواب حيواناً- فإنّه لم يُضبط إلى اليوم معيار مؤكد للتعرُّف على الأجناس السامية. اليوم نعرف أنّ الدرجة الأكثر تطوّراً للإنسانية تحقّقت مع الجنس الأبيض، وأن الأنموذج الأكثر تطوّراً من الجنس الأبيض هو العنصر الجرماني. ولكن تواجد اليهود يمثل خطراً مستمرّاً من تلاقح الأجناس. انظر التمثال الإغريقي، يا لصفاء قسماته، يا لحسن قوامه، وليس من قبيل الصدفة أن يتطابق ذلك الجمال مع الفضيلة، من كان جميلاً كان أيضاً مقداماً، كما يحدث مع كبار أبطال أساطيرنا التوتونيّة. الآن تصوّر ولاءك الأبولونييّن وقد فسدت ملامحَهم بقسمات ساميّة، وبشرة سمراء، وعينيْن قاتمتيْن، وأنف كاسر، وجسم متكمّش. بالنسبة لهوميروس كانت هذه خصوصيات تارسيت، وهي التجسيد نفسه للدناءة. إنّ الأسطورة المسيحيّة، التي

كانت لا تزال متشبّعة بالروح اليهودية (في نهاية الأمر كان قد بدأها بولس، وهو يهوديّ آسيويّ، نسمّيه اليوم تركيّا)، قد أقنعتنا أنّ كلّ الأجناس انحدرت من آدم. كلّا، سلك الجنس البشري منذ انفصاله عن الحيوان الأصلي طرقاً مختلفة. يجب أن نعود إلى تلك النقطة التي افترقت فيها الطرقات، وبالتالي إلى الأصول القوميّة الحقيقيّة لشعبنا، ولا مجال لهذيان التنويريّة الفرنسيّة بفكرة المواطنيّة العالميّة والمساواة والأخوّة الكونية. هذه روح الأزمنة الجديدة. ما صار يُسمّى الآن في أوروبا "قوميّة" الشعب هو الرجوع إلى صفاء الجنس الأصلي. إلّا أن اللفظ - والغاية - يصدقان فقط بالنسبة إلى الجنس الجرماني، ومن المضحك أن الرجوع في إيطاليا إلى الجمال القديم يتشخّص في صاحبكم غاريبالدي بساقيه المعوجّتيْن، وفي شخص ملككم بساقيه القصيرتيْن أو في ذلك القزم كافور. الحقيقة هي أنّ الرومان أيضاً كانوا من أصل ساميّ.

- الرومان؟

- ألم تقرأ فرجيل؟ إنهم يتحدَّرون من رجل جاء من طروادة، وإذن فهو آسيوي، وتلك الهجرة الساميّة هَدَمت روح الشعوب الإيطالية القديمة، انظر ما جرى للسلتيّين: عندما تروْمَنوا صاروا فرنسيّين، وإذن لاتينيّين هم أيضاً. الجرمانيّون فقط نجحوا في الحفاظ على نَقاوتهم وصفائهم وفي إضعاف قوّة روما. وأخيراً، فإنّ سموّ الجنس الآري ودناءة الجنس اليهودي، وبالضرورة أيضاً ذلك اللاتيني، يظهر من التميّز والبراعة في مختلف الفنون. لم ينشأ لا في إيطاليا ولا في فرنسا عباقرة مثل باخ أو موزارت، أو بيتهوفن أو فاغنر.

لم يكن غودش يبدو مجسّماً للبطل الآري، الذي كان يمجّد خِصاله، بل على العكس، إن كان عليّ أن أقول الحقيقة (ولكن لماذا يجب دائماً قول الحقيقة؟) فقد كان يبدو لي يهوديّاً نَهِماً وشَهْوانيّاً. ولكن عليّ في نهاية الأمر أن أُوليه ثقتي، بما أنّ المخابرات التي ستدفع لي الخمسة وعشرين ألف فرنك المتبقيّة كانت تثق به.

ومع ذلك لم أتمالك نفسي من إبداء ملاحظة ماكرة. سألته إن كان يحسّ بنفسه ممثّلاً لهذا الجنس السامي والأبولّوني. فنظر إليّ شَزَراً قائلاً إنّ الانتماء إلى

جنسٍ ما ليس فقط أمراً جسديّاً بل هو قبل كلّ شيء أمر روحاني. اليهودي يبقى يهوديّاً حتى وإن أدّى عَرَضٌ ما من أعراض الطبيعة - تماماً مثلما يولد طفل بستة أصابع ومثلما توجد نساء قادرات على القيام بعمليات الضرب - إلى أن يولد يهودي بشعر أشقر وعينيْن زرقاويْن. والآري هو آري عندما يعيش روح شعبه، حتى وإن كان شعره أسود.

إلّا أن سؤالي كبح جماح حماسه. فاسترجع هدوءه، وجفّف العرق على جبينه بمنديل كبير مزدان بمربّعات حمراء، وطلب مني الوثيقة التي التقينا من أجلها. قدّمتها له، وبعد كلّ أحاديثه ظننتُ أنّها ستثير إعجابه إلى أقصى حدّ. إذا كانت حكومته تريد تصفية اليهود، حسب توصيات لوثر، فإنّ قصّتي في مقبرة براغ كانت تبدو فعلاً موضوعة خصيصاً لتنذر بروسيا كافّة بخطر المؤامرة اليهودية. على عكس ذلك قرأ بأناة، بين جرعة وأخرى من الجعة، مقطّباً جبينه مرّات عديدة، ومضيّقاً عينيه حتى إنّه كان يبدو منغوليّاً، ثم اختتم قائلاً: - لست أدري إن كانت هذه الأخبار ذات فائدة بالنسبة إلينا. إنّها تقول ما كنّا نعرفه دائماً عن مكائد اليهود. تقول ذلك بصفة جيّدة، هذا صحيح، وإن كانت مختلقة فهي مختلقة بصفة جيّدة.

- أرجوك، هيرّ غودش، لست هنا لأبيع لك مادّة مختلقة.

- لست أشكّ في ذلك، ولكنني أنا أيضاً لدي واجبات إزاء من يؤجّرني. ينبغي إثبات صحّة الوثيقة. يجب أن أسلّم هذه الأوراق إلى هيرّ ستيبر في مكتبه. أُتركها لي، وإن شئت، عُد إلى باريس، سيصلك جوابي في غضون بضعة أسابيع.

- ولكن العقيد ديميتري قال لي إنّ الأمر محسوم. . .

- ليس محسوماً. ليس بعد. أقول لك، أُترك لي الوثيقة.

- سأكون صريحاً معك، هيرّ غودش. بين يديك وثيقة أصليّة: أصليّة، هل تفهم ذلك؟ قيمتها تكمن دون شك في الأخبار التي تُوردها ولكن أكثر من ذلك في كون هذه الأخبار تظهر في تقرير أصلي، حرّر في براغ بعد الاجتماع الذي

تتحدّث عنه. لا أستطيع أن أترك هذه الوثيقة تتجوّل خارج يديّ، على الأقلّ، ليس قبل أن يُدفع لي المقابل الذي وُعدتُ به.

- إنّك كثير الشكوك. حسناً، اطلُبْ كوباً أو كوبيْن آخريْن من الجعة وٱترك لي ساعة لأنسخ هذا النصّ. لقد قلت أنت نفسك إنّ الأخبار التي يحتويها تساوي ما تساوي، ولو كنت أريد خداعك يكفيني أن أحفظها عن ظهر قلب، لأنني، أؤكد لك ذلك، أتذكّر ما قرأته تقريباً حرفاً حرفاً. ولكنني أريد أن أعرض النصّ على هيرّ ستيبر. لذا اتركني أنسخه. الأصل دخل معك إلى هذا المكان، ومن هذا المكان سيخرج معك.

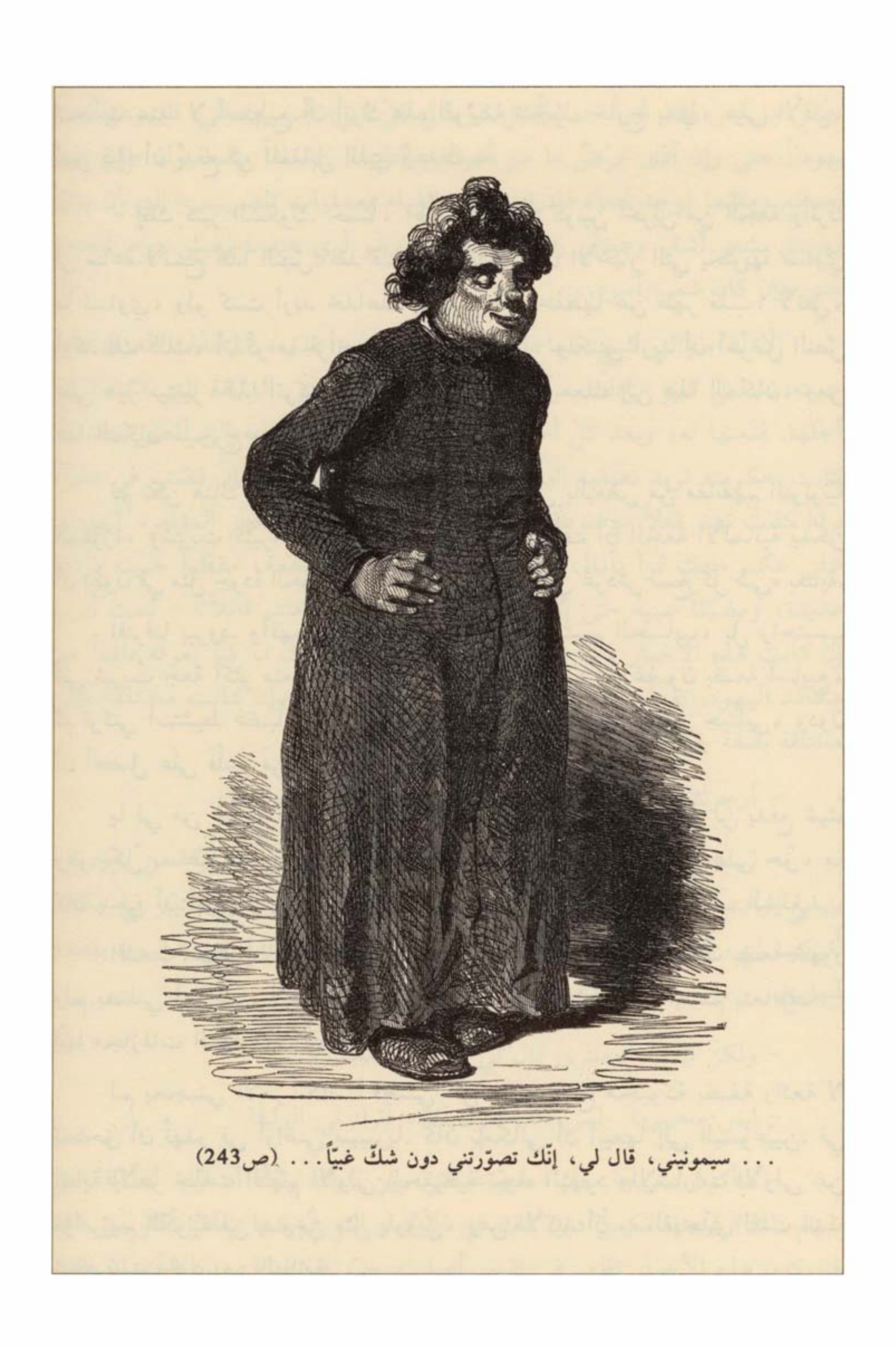
لم تكن هناك طريقة للاعتراض. أذللتُ مذاقي بالبعض من مقانقهم التوتونيّة المقزّزة، وشربت كثيراً من الجعة، ويجب أن أعترف أنّ الجعة الألمانية يُمكن أن تكون في مثل جودة الجعة الفرنسيّة. انتظرت أن ينهي غودش نسخ كلّ شيء بعناية.

افترقنا ببرود. وأفهمني غودش أنّه ينبغي أن نقتسم الحساب، بل واحتسب أنّي شربتُ جعة أكثر منه، ووعدني بأن يعطيني أخباره في غضون بضعة أسابيع، ثم تركني أستشيط غضباً لتلك الرحلة الطويلة دون جدوى، وعلى حسابي، ودون أن أحصل على فَلْس من المبلغ الذي اتفقت عليه مع ديميتري.

يا لي من غبيّ، قلت لنفسي، كان ديميتري يعرف أنّ ستيبر لن يدفع شيئاً وهو بكلّ بساطة ضَمنَ لنفسه النصّ بنصف السّعر. كان لاغرونج على حقّ، ما كان ينبغي أن أثق بروسيّ. لعلّي طلبتُ كثيراً وكان عليّ أن أقنع بنصف المبلغ.

اقتنعتُ منذئذٍ أنّ الألمان لن يتصلوا بي أبداً، وبالفعل قد مرّت بضعة شهور ولم يصلني أي خبر. لاغرونج، الذي أفضيت له بمشاغلي، ابتسم بتعاطف:- إنّها مجازفات المهنة، لا نتعامل مع قدّيسين.

لم يعجبني الأمر. كانت قصّتي عن مقبرة براغ محبوكة بصفة رائعة لا تستحقّ أن تُهدر في أراضي سيبيريا. كان بإمكاني أن أبيعها إلى اليسوعيّين. في نهاية الأمر جاءت التُّهَم الأولى الحقيقية تجاه اليهود والإشارات الأولى عن مؤامرتهم الكونيّة من يسوعيّ مثل باروّيل، ومن الأكيد أنّ رسالة جدّي لفتت انتباه شخصيّات أخرى من الطائفة.



. . . سيمونيني، قال لي، إنّك تصوّرتني دون شكّ غبيّاً. . . (ص243)

الرابط الوحيد مع الطائفة اليسوعيّة يُمكن أن يكون القسّ دلّا بيكّولا. ومن ربط لي الاتصال به كان لاغرونج، ولاغرونج هو من قصدتُ. قال لي لاغرونج إنّه سيعلمه بأني أبحث عنه. وبالفعل بعد فترة جاء دلّا بيكّولا إلى دكاني. قدّمتُ له، كما يُقال في عالم التجارة، بضاعتي، وبدا لي مهتمّاً بالأمر.

- بطبيعة الحال، قال لي، سأتثبّت من وثيقتك وبعد ذلك أخبر بها أحداً من الجمعيّة، لأنّهم ليسوا ممّن يشترون دون دراية. آمل أن تثق بي وأن تتركها لي بضعة أيام. لن تخرج من يديّ.

كان لا يسعني أمام رجل كنيسة مبجّل إلّا أن أثق به.

بعد أسبوع من ذلك عاد دلّا بيكّولا إلى الدكان. صعد معي إلى مكتبي، وحاولت أن أقدّم له شيئاً يشربه، ولكن لم تكن تظهر عليه أمارات الودّ.

- سيمونيني، قال لي، إنّك تصوّرتني، دون شكّ، غبيّاً وكنتَ على وشك أن تظهرني بمظهر المزوّر لدى آباء الجمعية اليسوعية، وأن تهدم شبكة من العلاقات الطيّبة نسجتها طيلة سنوات.

- حضرة القسّ، لست أدري عمّا تتحدّث...

- كفّ عن الاستهزاء بي. أعطيتني هذه الوثيقة، على أنّها سريّة (ورمى بتقريري حول مقبرة براغ على الطاولة)، كنتُ على وشك أن أطلب سعراً مرتفعاً جداً، وها إنّ اليسوعيّين يخبرونني، وهم ينظرون لي كما لو كنت نذلاً حقيراً، بلطف أنّ وثيقتي السريّة جداً كانت قد نُشرت على أنّها مادّة خياليّة في "بيارّيتز" Biarritz، رواية من تأليف شخص يُدعى جون راتكليف. هي نفسها، كلمة بكلمة (وعلى الطاولة رمى أيضاً بالكتاب). بطبيعة الحال أنت تعرف الألمانية، وقرأت الكتاب فور وصوله. وجدتَ قصّة ذلك الاجتماع الليلي في مقبرة براغ وأعجبتك، ولم تقاوم الرغبة في بيع ما هو خيالي على أنّه واقعي. وبوقاحة المنتحلين أطمأننتَ إلى أنّه في ما وراء نهر الرّاين لا أحد يقرأ الألمانية...

- اسمع، أظنني فهمت...

- كلّا، لم تفهم شيئاً. كان بإمكاني أن ألقي بهذه الأوراق المتّسخة في صندوق الفضلات وأن أتجاهل ما حدث. ولكنني عنيد وذو طبعٍ انتقاميّ. أنبّهك أنّني سأعلم أصحابك في المخابرات عن أيّ نوع من الناس أنتَ وإلى أيّ مدى يجب الوثوق في معلوماتك. لماذا جئت لأقول لك هذا قبل القيام به؟ ليس بدافع الأمانة - لأنّ شخصاً مثلك لا يستحقّها - بل لكي تعلم، ما إذا قرّرت المخابرات أنّك تستحقّ طعنة خنجر في الظهر، من أين جاءهم الإيحاء. من العبث أن تقتل أحداً بدافع الانتقام إذا كان المقتول لا يعرف أنّك أنت الذي قتلته، أليس كذلك؟

صار كلّ شيء واضحاً، ذلك الدنيء الملعون غودش (وكان لاغرونج قد نبّهني أنّه بصدد كتابة رواية في حلقات أو *feuilletons* تحت اسم مستعار، راتكليف) لم يسلّم أبداً وثيقتي إلى ستيبر: أدرك أنّ الموضوع يتماشى تماماً مع الرواية التي كان بصدد إتمام كتابتها ويرضي حماسه المناهض لليهود، فاستحوذ على قصّة حقيقيّة (أو على الأقلّ كان يظنّها حقيقيّة) لكي يجعل منها قطعة سرديّة - قطعته. ومع ذلك فإنّ لاغرونج كان قد نبّهني أنّ ذلك الماكر تميّز بتزييف الوثائق وكوني وقعت بسذاجة في فخّ مُزَيِّف كان يجعلني أستشيط غضباً.

ولكن إضافة إلى إحساسي بالغضب كنت أشعر بالخوف. عندما تحدّث دلّا بيكّولا عن طعنة خنجر في الظهر ربّما كان يستعمل استعارة، ولكن لاغرونج كان واضحاً: في عالم المخابرات عندما يصبح أحد مثيراً للقلق تتمّ تصفيته. فما بالك إذا تعلّق الأمر بعميل اتضح أنّه يبيع مادّة روائيّة وضيعة على أنها معلومات سريّة، زِدْ على ذلك أنّه كاد يتسبّب للمخابرات في وضعيّة حرجة وسخيفة مع جمعيّة اليسوعيّين، من يريد بعد ذلك أن يعمل معه؟ طعنة بخنجر، وها هو يطفو على مياه السّين.

هذا ما كان يعدني به دلّا بيكّولا، ولن ينفع أن أفسّر له الحقيقة، لأنّه لا يوجد أيّ موجب لكي يصدّقني، بما أنّه كان لا يعرف أنّني سلّمت الوثيقة إلى غودش قبل أن يُنهي ذلك اللعين كتابه، بينما كان يعرف أنّني سلّمتها إليه (أي إلى دلّا بيكّولا) بعد أن صدر كتاب غودش.

شعرتُ بنفسي في مأزق بلا حلّ.

إلّا إذا منعت دلّا بيكّولا من الكلام.

تصرّفت بطريقة تكاد تكون غريزيّة. كان عندي فوق المكتب شمعدان من الحديد المطروق، شديد الثقل، فأمسكت به ودفعت بدلّا بيكّولا على الحائط. زاغ بصر هذا الأخير وسألني بصوت مبحوح: - لا تريد أن تقتلني...

- بَلَى، للأسف، أجبته.

كان ذلك حقيقة يؤسفني، ولكن للضرورة أحكام. سدّدت له الضربة، وسقط القسّ على الفور والدم يسيل من أسنانه البارزة. نظرتُ إلى تلك الجثة ولم أحسّ ولو قليلاً بالذنب. لقد أراد ذلك.

كان عليّ فقط أن أتخلّص من هذه الجثة المزعجة.

عندما اشتريتُ الدكان والشقة في الطابق العلوي، أراني المَلّاك فتحة في أرضيّة القبو.

- ستجد بضع درجات، قال لي، وفي البداية لن تجد الشجاعة الكافية للنزول، لأنّك ستحسّ بالغثيان من فرط النُّتُونة. ولكن ذلك ضروري في بعض الأحيان. إنّك أجنبيّ ولا ريب في أنك لا تعرف كلّ الحكاية. في الماضي كانوا يلقون بالأوساخ في الشارع، بل وشرّعوا قانوناً يُلزم بصياح "حذارِ من الماء" قبل الإلقاء بالبَوْل والبِراز من النافذة، ولكن كان ذلك شاقّاً، وصاروا يلقون بها وكفى، لسوء حظ المارّ تحت النافذة. ثمّ حفروا قنوات مفتوحة في الشوارع وأخيراً تمَّ ردمها، وهكذا نشأت البالوعات. الآن هيّأ البارون هوسمان نظامَ مَجارٍ جيّد في باريس، ولكنه لا يصلح إلا لصرف مياه الأمطار، أما نُفايات الجسم فتذهبُ، عندما لا تنسدّ الأنابيب تحت مرحاضك، نحو حفرة يجري إفراغها ليلاً وحمل محتواها إلى المزابل الكبرى. ولكن النقاش قائم حول ما إذا كان يجب أن يُعتمَد نهائيّاً نظام المواصلة بالمجاري أو ما يُسمّى بـ"الكلّ إلى المجاري" *tout-à-l'égout*، أي وجوب أن تصبّ في المجاري الكبرى كل القاذورات

الأخرى وليس المياه المستعملة فقط. ولهذا السبب بالذات، صدر أمر منذ أكثر من عشر سنوات، يفرض على جميع المَلّاكين أن يربطوا منازلهم بالمجاري بواسطة نفق عرضه متر ونصف على الأقلّ. مثل النفق الذي ستجده تحت، إلّا أنّه ليس بذلك الاتساع وليس مرتفعاً مثلما يفرضه القانون. هذا تجده في الشوارع الكبرى وليس في زُقاق مُغلق لا يهتمّ به أحد. ولن يأتي أبداً أحد للتثبّت ممّا إذا كنت حقيقة تحمل نُفاياتك حيث يجب إيداعها. عندما تتقزّز نفسك من دوس كلّ تلك القاذورات، ستلقي بفضلاتك من أعلى السلم راجياً أن تتكفّل مياه الأمطار بحملها ذات يوم إلى المجاري الكبرى. ومن ناحية أخرى يُمكن أن يوفّر هذا الممرّ إلى المجاري بعض الفوائد. نحن نعيش أزمنة تقع فيها كلّ عشرٍ أو عشرين من السنين في باريس ثورات أو اضطرابات، وإيجاد مسلك للفرار يُمكن أن يكون نافعاً. ككلّ باريسي، يُمكن أن تكون قرأت تلك الرواية التي ظهرت منذ قريب "البؤساء" حيث يفرّ البطل عبر المجاري حاملاً صديقه الجريح على كتفيه، أظنك فهمت ماذا أريد أن أقول.

قصّة هيغو، كقارئ مواظب للروايات المسلسلة *feuilletons*، كنت أعرفها جيّداً. لم أكن أريد دون شكّ إعادة تجربته، وذلك أيضاً لأنّني لا أفهم حقيقة كيف فعل بطله لقطع كل تلك المسافة. ربما كانت الأنفاق في أنحاء أخرى من باريس أكثر اتساعاً، ولكن النفق الذي يسري تحت زقاق "موبير" المسدود يعود إلى ما قبل ذلك بقرون. لم يكن من السهل حتى إنزال جثة دلّا بيكّولا من الطابق العلوي إلى الدكان ومنه إلى القبو، لحسن الحظ أنّ ذلك القزم كان مقوّس الظهر شيئاً ما وهزيلاً ويسهل بالتالي تحريكه. ولكن كان عليّ لإنزاله من درجات السلم تحت الفتحة الأرضيّة أن أدحرجه. ثمّ نزلت أنا أيضاً، دائماً منحنياً، وجذبته بضعة أمتار، لكي لا يتعفّن تحت منزلي بالذات. كنت أجذبه بإحدى يديّ من عُرْقُوبه وباليد الأخرى كنت أرفع المصباح عالياً - للأسف لم تكن لديّ يد ثالثة لأسدّ بها أنفي.

كانت المرّة الأولى التي توجّب عليّ فيها إخفاء جُثمان شخص قتلته، لأنّه لم يكن من اللازم في حالتي نييفو ونينوتسو أن أنشغل بذلك (ولكن بخصوص

نينوتسو كان من الأفضل أن أنشغل بذلك، على الأقلّ المرّة الأولى في صقليّة). أصبحتُ أدرك الآن أنّ الجانب الأكثر إثارة للقلق في جريمة هو إخفاء الجثة، وربّما لهذا السبب ينصحنا الكهنة بعدم القتل، إلّا في المعارك بطبيعة الحال، حيث تترك الجثث للنسور.

جَرَرْتُ قَسّي الميّت بضعة عشر متراً، وأؤكد أن جذب كاهن وسط البِراز، وليس بِرازي أنا وحدي بل وأيضاً بِراز آخرين قبلي، ليس شيئاً رائقاً، لا سيما وجبَتْ رواية ذلك إلى الضحيّة - يا إلٰهي، ماذا أكتب هنا؟ ولكني أخيراً، وبعد أن رفست الكثير من البِراز، ظهر لي من بعيد بصيص من نور، علامة على أن بالوعة تُوجَد في نهاية الزقاق تطلّ على الشارع.

في البداية فكّرت أن أجرّ الجثة إلى المجرى الكبير لأودعه إلى رحمة مياه أوفر، ولكني قلت لنفسي إنّ هذه المياه ستحمل الجثة إلى مكان آخر، وربما إلى نهر السّين، وسيتعرّف أحد على صاحب الجثة العزيز. وكان تخميني في محلّه، لأنّني الآن وأنا أكتب علمت أنّه في المصبّات الكبرى للمجاري العمومية في وادي كليشي عُثر مؤخراً، وفي غضون ستة أشهر، على أربعة آلاف كلب، خمسة عجول، عشرين خروفاً، سبع مَعِيز وسبعة خنازير، ثمانين دجاجة، تسعة وستين قطّاً، تسعمائة وخمسين أرنبا، وقرد وثعبان بُوا. لا تتحدّث الإحصائيّات عن قساوسة ولكن كان بوسعي أن أساهم في جعلها خارقة للعادة. بينما لو تركتُ ميّتي هناك، فهناك أمل كبير أن لا يتحرّك من موضعه. بين الجدار والقناة الحقيقية - التي تعود دون شكّ إلى زمن أقدم من البارون هوسمان بكثير - كان يوجد رصيف ضيّق، وهناك تركت الجثة. قدّرت أنّها وسط ذلك التعفّن وتلك الرطوبة ستتحلّل في وقت أسرع، ولن يبقى بعد ذلك إلّا كُوَم من العظام غير قابلة للتعرّف. إضافة إلى ذلك، وبالنظر إلى طبيعة الزقاق، كنت واثقاً أنّه لن يحظى بأي ترميم وبالتالي لن يأتي أحد إلى هذا الموضع. وحتى لو وجدوا هناك بقايا آدميّة، يجب مع ذلك أن يثبتوا مأتاها: يُمكن لأيّ كان ينزل من مدخل البالوعة هذا أن يحمل الجثة إلى حيث هي الآن.

رجعت إلى مكتبي وفتحت رواية غودش حيث وضع دلّا بيكّولا علامة.

كانت ألمانيّتي متعثّرة ولكنني كنت قادراً على فهم الأحداث إن لم أقل دقائق الوصف. لا يوجد شكّ، كان خطابي الذي وضعته على فم الحَبْر اليهودي في مقبرة براغ، إلّا أنّ غودش (الذي كان يملك حِسّاً مسرحيّاً) كان أكثر ثراء في وصف المقبرة الليليّة، وفي البداية يصل إلى المقبرة مَصْرفيّ يُدعى روزنبيرغ صحبة حَبْر بولونيّ يحمل قبّعة فوق رأسه وتتأرجح ضفائر شعره على صدغَيْه، وللدخول يجب التلفُّظ لحارس الباب بكلمة سرّ قَبالية متكوّنة من سبعة مقاطع.

ثمّ يصل من هو في الصيغة الأصليّة مُخْبِري، يُدخله واحد يُدعى لاسالي، وعده بأن يجعله يحضر اجتماعاً يقع مرّة كلّ مائة عام. ويتنكّر الاثنان بلحى مصطنعة وقبّعات متّسعة الجوانب، وبعد ذلك تتواصل الأحداث مثلما قصصتها أنا، بما فيها خاتمتي، بالضوء الأزرق الذي يخرج من القبر وأشباح الأحبار وهم يبتعدون يبتلعهم الظلام.

لقد استغلّ ذلك الوغد تقريري الموجز ليصنع منه مشاهد مسرحيّة. كان مستعدّاً لكلّ شيء لربح بعض النقود. لقد انعدم حقيقة كل احترام للدين.

تماماً مثلما يريد اليهود.

الآن سأذهب للنوم، لقد خرجت عن عاداتي المعقولة في الأكل، ولم أشرب خمراً بل أفرطت من الكلفادوس (أشعر بدوار كبير أخشى أن أكون سقطت في التكرار). ولكن بما أنّني لا أستفيق في شخص القسّ دلّا بيكّولا، إلا بعد نوم عميق دون أحلام أريد أن أرى الآن كيف سأستفيق في ثوب ميّت كنتُ دون أدنى شكّ المسؤول والشاهد على موته.

# 15

## دلّا بيكّولا حيّ من جديد

6 نيسان/أبريل 1897، عند الفجر

لستُ أدري، أيّها النقيب سيمونيني، إن كنتُ قد استفقتُ أثناء نومك (المفرط من كثرة إفراطك) وقرأت صفحاتك. في أُولى ساعات الفجر.

بعد قراءة ما كتبتَ، قلت لنفسي إنّك ربما، لسبب غامض، تكذب (وقصّة حياتك، التي سردتها بكل صراحة، لا تمنع من الظنّ أنّك أحياناً تكذب). إذا كان هناك أحد يعرف بكلّ تأكيد أنّك لم تقتلني هو أنا. أردتُ التثبّت من ذلك، خلعتُ أثوابي الكهنوتيّة ونزلت وأنا شبه عارٍ، إلى القبو، رفعتُ غطاء الفتحة الأرضيّة، وعند حافة ذلك الممرّ النَّتِن والسامّ كما وصفته جيّداً، بقيتُ دائخاً من فرط النَّتانة. تساءلت فيم كنت أريد أن أتثبّت: إذا كانت لا تزال توجد بقايا عظام من جثة تقول إنك تركتها هناك منذ أكثر من خمس وعشرين سنة؟ ويجب عليّ أن أنزل وسط كلّ تلك القذارة للتأكد من أنّ تلك العظام ليست عظامي؟ اعذرني إن قلت لك إني أعرف ذلك مسبقاً. وإذن فإني أصدقك، لقد قتلتَ قَسّاً يُدعى دلاّ بيكّولا.

من أنا إذن؟ لستُ دلاّ بيكّولا الذي قتلتَه (والذي كان، علاوة على ذلك، لا يشبهني)، ولكن كيف يُمكن أن يُوجد قَسّان دلاّ بيكّولا؟

الحقيقة هي أنّني ربما مجنون. لا أجرؤ على الخروج من البيت. ومع ذلك يجب أن أخرج لشراء بعض الأشياء، إذ إنّ ثوبي الكهنوتي يمنعني من ارتياد الحانات. ليس لي مطبخ جميل مثل مطبخك - مع أني، إحقاقاً للحق، لست أقلّ نهماً منك.

تملكتْني رغبة جامحة في قتل نفسي، ولكنني أعرف أنّها نزوة شيطانية.

وبعد هذا، لماذا سأقتل نفسي إن كنت قد قتلتني؟ سيكون مضيعة للوقت.

7 نيسان/ أبريل

حضرة القَسّ، كفى الآن.

لا أذكر ماذا فعلتُ أمس ووجدتُ ملحوظتك هذا الصباح. كفّ عن تعذيب نفسك. أنت أيضاً لا تذكر؟ إذن، افعل مثلي، ركّز نظرك طويلاً على صرّتك وابدأ في الكتابة، واترك يدك تفكّر عوضاً عنك. لماذا يجب أن أكون أنا الذي يتذكّر كلّ شيء، وأنت لا تتذكّر إلّا تلك الأشياء القليلة التي كنت أريد نسيانها؟

إنّي في هذه الآونة فريسة لذكريات أخرى. لم أكد أنتهي من قتل دلّا بيكّولا حتى وصلتني رسالة من لاغرونج. كان يريد هذه المرّة ملاقاتي في ساحة فورستنبارغ، وعند منتصف الليل، عندما يكون ذلك المكان موحشاً. أحسستُ، مثلما يقول الناس الذين يخشون اللّه، بتوبيخ الضمير، لأنّني قتلتُ منذ قليل رجلاً، وكنت أخشى (بصفة لامعقولة) أنّ لاغرونج كان يعرف ذلك. ولكن من الواضح أنه كان يريد محادثتي في شيء آخر.

- أيّها النقيب سيمونيني، قال لي، نحتاجك لمراقبة شخص غريب، رجل كنيسة... كيف يُمكن القول... من عبدة الشيطان.

- أين أجده، في الجحيم؟

- كفى مزاحاً. إذن، صاحبنا يُدعى القَسّ بولّان، تعرّف منذ سنوات على أديل شيفاليه، راهبة تابعة لدير سان توما دي فيلنوف، في سواسّون. تدور حول هذه الأخيرة إشاعات روحانيّة، يبدو أنّها شُفيت من العمى وبدأت تمارس التنبّؤ، فأخذ الناس يتهافتون على الدير، ممّا أحرج رئيساتها، فأبعدها الأسقف إلى سواسّون، ولغرابة الصدف، اختارت أديل القسّ بولّان أباً روحيّاً لها، وهذا دليل على أنّ السماء تخلق المتشابهَيْن ثم تجمعهما. وهكذا يقرّران تأسيس جمعيّة للعمل التكفيري، أي ليس فقط تكريس الصلوات لسيّدنا المسيح بل ممارسة أشكال مختلفة من التكفير الجسدي، لتعويضه عن المساوئ التي يُلْحِقها به المذنبون.

- لا عيب في هذا، يبدو لي.

- ما عدا أنهما بدآ يبشّران بوجوب ارتكاب الخطيئة لأجل التحرّر من الخطيئة، وأن البشريّة انحطّت بسبب الزنا المزدوج لآدم مع ليليت ولحِوّاء مع سمائل (ولا تسألني من يكونان لأنّني تعلّمت من الكاهن أنه لا يوجد سوّى آدم وحواء) وباختصار يجب القيام بأشياء غير واضحة، ولكن يبدو أن القَسّ، والآنسة المذكورة، والعديد من أتباعهما يعقدون اجتماعات، كيف يُمكن القول، ساخنة، حيث يجامع بعضهم البعض. وتضيف الإشاعات أنّ قسّنا الطيّب عمل سرّاً على إزالة ثمرة علاقاته اللامشروعة مع أديل. كلها أشياء، ستقول لي، لا تهمّنا نحن، وإنما تهمّ مفوضية الشرطة، إلّا أنّه انحشرتْ، منذ مدّة، ضمن هذه الزمرة سيّدات من عائلات محترمة، زوجات موظفين كبار، وحتى زوجة وزير، وابتزّ بولّان من هؤلاء السيِّدات الطيّبات الكثير من المال. عند هذا الحدّ أصبحت المسألة شأناً حكومياً، وتعيَّن علينا حينذاك الاهتمام بها. أدانت المحكمة المسؤولَيْن الاثنيْن وحُكم عليهما بثلاث سنوات سجناً بتهمة الاحتيال والمسّ بالآداب العامّة، وخرجا من السجن في أواخر 1864. بعد ذلك فقدنا آثار ذلك القسّ بولّان واعتقدنا أنّه تعقّل. في هذه الفترات الأخيرة، وبعد أن برّأه البلاط البابوي نهائيّاً على إثر أعمال توبويّة كثيرة، ها هو رجع إلى باريس وعاد يؤكّد نظريّاته حول التكفير عن خطايا الآخرين من خلال ارتكاب خطاياهم، وإذا صار الجميع يفكّرون مثله فإن المسألة لن تبقى دينيّة بل ستصير سياسيّة، أنت تفهم قصدي. ومن ناحية أخرى فإنّ الكنيسة نفسها بدأت تنشغل بالمشكل ورئيس أساقفة باريس طرد مؤخراً بولّان من الوظائف الكنسيّة - وفي رأيي كان الأوان قد حان. وكردّ فعل، اتّصل بولّان بمشعوذٍ آخر تفوح منه رائحة الزندقة، يُدعى فنتراس. في هذا الملفّ ستجد كلّ ما يجب معرفته عنه، أو على الأقلّ ما نعرفه نحن. عليك أنت أن تراقبه وأن تعلمنا بما يفعل.

- لستُ سيّدة عفيفة تبحث عن كاهن اعتراف ليغتصبها، كيف سأقترب منه؟

- لستُ أدري، ربما بالتنكّر في زيّ كاهن. علمتُ أنّك قادر حتى على التنكّر في زيّ أحد جنرالات غاريبالدي، أو ما يشابه ذلك.

وهذا ما خطر فوراً ببالي. ولكن، يا حضرة القسّ، لا شأن لك بهذا.

# 16
# بـــولّان

8 نيسان/أبريل

أيّها النقيب سيمونيني، هذه الليلة، قرّرت وبعد أن قرأت ملحوظتك الساخطة، أن أحتذي بك وأن أشرع في الكتابة، حتى دون التحديق في صرّتي، بطريقة شبه آلية، تاركاً جسمي يتذكّر، بواسطة يدي، ما كانت نفسي قد نسيته. ذلك الدكتور فرويد لم يكن غبيّاً.

بولاّن... أرى نفسي من جديد وأنا أتجوّل معه أمام كنيسة، في أحواز باريس. أم كان ذلك في سيفر؟ أذكر أنه كان يقول لي: – التكفير عن الخطايا التي تُرتكب ضدّ سيّدنا المسيح يعني أيضاً أن نحملها على عاتقنا. يُمكن أن تكون الخطيئة عبئاً روحانيّاً، وأثقل ما يُمكن، لاستنفاد شحنة الشرّ التي يفرضها الشيطان على البشريّة، فنخفّف منها عن إخواننا الأكثر ضعفاً، وغير القادرين على انتزاع قوى الشرّ التي تستعبدنا. هل رأيت مرّة ذلك الورق المسمّى *papier tue-mouches*، أي قاتل الذباب الذي اخترعوه مؤخراً في ألمانيا؟ يستعمله صانعو المرطّبات، يغمسون الورق في ثُفْل قصب السكر ويعلّقونه فوق حلوياتهم المعروضة في الفترينة. الثُّفْل يجذب الذباب فيبقى ملتصقاً فوق ذلك الشريط اللزج، ويموت جوعاً، أو غرقاً عندما يُلقى بالشريط الذي صار مليئاً بالحشرات في القنال. هو ذا، يجب أن يصبح المكفّر المخلص مثل ذلك الورق القاتل للذباب: يجذب نحوه كل الأفعال المخزية ليجعل من نفسه مصهراً مطهّراً.

أراه في كنيسة، أمام المذبح، حيث يجب أن "يطهّر" مذنبة ورعة، صارت فريسة للشيطان، تتلوّى على الأرض وهي تقذف بأشنع التجديفات وأسماء الشياطين: أبيغور، أبراكاس، أدراملاك، هابوريم، ملخوم، ستولاس، زيبوس...

يرتدي بولاّن أثواباً بزخارف مقدسة وعلى رأسه قبعة حمراء، ينحني عليها

وينطق بجمل تبدو عبارات تعزيم، ولكنها (إن سمعتها جيداً) كانت العكس: – Crux sacra non sit mihi lux, sed draco sit mihi dux, veni Satana, veni!، ثمّ ينحني على التائبة ويبصق ثلاث مرّات في فمها، وبعد ذلك يرفع جبّته، ويبول في كأس القدّاس ثمّ يمدّه إلى التعيسة. الآن يأخذ من كوب (بيديه!) مادّة ذات طبيعة برازية واضحة، ويطلي بها نهديّ الممسوسة بعد الكشف عن صدرها.

تتخبط المرأة على الأرض، وهي تزفر، وتصدر أنيناً ينطفئ شيئاً فشيئاً، إلى أن تسقط في نوم يكاد يكون مغناطيسيّاً.

يذهب بولاّن إلى الخورنيّة ويغسل يديه ما أمكن، ثمّ يخرج معي إلى رحبة الكنيسة، ومتنهّداً مثل شخص قام بواجب ثقيل، قال: – Consummatum est.

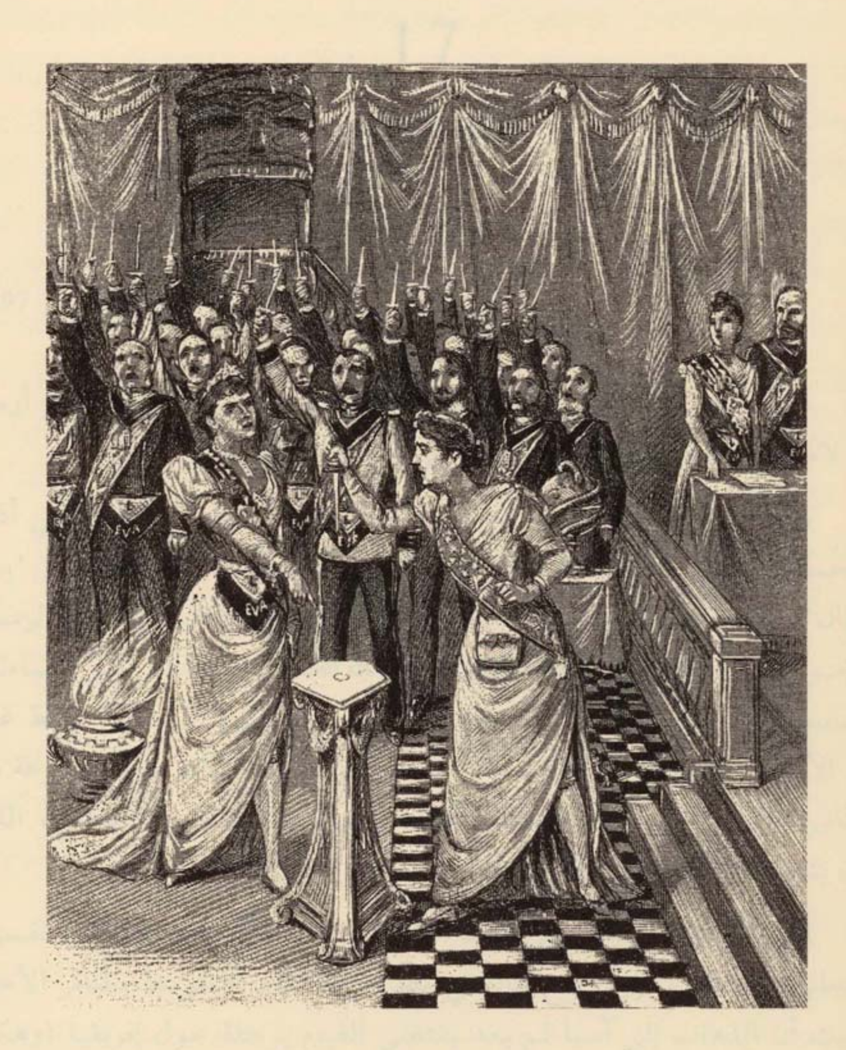
أذكر أني قلت له إنّي جئته مُرسَلاً من طرف شخص لا يريد أن يصرّح باسمه وينوي إقامة طقس يتطلّب استعمال خبز الذبيحة المقدّس.

فتضاحك بولاّن ساخراً: – قدّاس شيطاني؟ ولكن إذا شارك فيه كاهن فهو الذي سيقدّس بصفة مباشرة خبز الذبيحة، وسيصحّ الطقس حتى وإن نزعت عنه الكنيسة الكهنوتية.

فقلت مدقّقاً: – لا أظنّ أنّ الشخص الذي أتحدّث عنه يريد أن يقيم قدّاساً شيطانيّاً بواسطة كاهن. أنت تعرف أنّ التقليد في بعض الطوائف يقضي بطعن خبز الذبيحة لختم القسم.

– فهمتُ. سمعتُ أنّه يوجد شخص يملك دكّاناً لبيع المتاع القديم في جهة ساحة موبير، ويهتمّ أيضاً بتجارة قطع خبز الذبيحة. بإمكانك أن تتوجّه إليه.

هل تلاقينا للمرة الأولى في تلك المناسبة؟




... أنت تعرف أنّه في بعض الطوائف يقع طعن القربان لختم القسَم...
(ص254)

# 17

## أيّام الكومونة

9 نيسان/أبريل 1897

قتلتُ دَلّا بيكولا في أيلول/سبتمبر 1869. في تشرين الأول/أكتوبر أرسل لي لاغرونج دعوة لملاقاته هذه المرّة على رصيف، على طول السّين.

يا لمَكر الذاكرة. لعلّي بصدد نسيان أحداث ذات أهميّة بالغة ولكني أذكر الاحساس الذي شعرت به ذلك المساء عندما توقّفت، بالقرب من "بون رويال"، مبهوراً بضياء مفاجئ. كنتُ أمام أوراشي المقرّ الجديد للجريدة الرسميّة للإمبراطورية الفرنسيّة Journal Officiel de l'Empire Français، التي أضاءتها مصابيح التيار الكهربائي ذاك المساء، بهدف تسريع وتيرة الأشغال. وسط غابة من الألواح والصقالات، كان مصدرٌ مشعٌّ بالنور يركّز ضياءه على مجموعة من البنّائين. لا شيء يُمكن أن يصف بالكلمات سحر ذلك الضياء الكوكبي، الذي كان يشعّ وسط الظلمات المحيطة به.

النور الكهربائي. . . في تلك السنوات كان الأغبياء يحسّون بأنفسهم محاطين بالمستقبل. جرى فتح قنال في مصر تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر بحيث أن الذهاب إلى آسيا لم يعد يقتضي القيام برحلة حول إفريقيا (وهكذا سيلحق ضرر بالعديد من الشركات البحريّة النزيهة)، وتمّ تدشين معرض عالمي تُنبئ هندساته بأنّ ما فعله هوسمان لملء باريس بالأنفاق ليس إلّا البداية، والأمريكيّون بصدد إنهاء سكة حديديّة ستشقّ قارّتهم من شرقها إلى غربها، وبما أنّهم مَنَحُوا مؤخراً الحرية للعبيد السود فها إنّ تلك الحُثالة ستجتاح الأمة كلها جاعلة منها مستنقعاً من الدم المختلط، أتعس من اليهود. ظهرت أثناء الحرب الأمريكية بين الشمال والجنوب غواصات، حيث لا يموت البحارة غَرَقاً بل

مختنقين تحت الماء، والسيجار الجيّد الذي دخّنه أجدادنا سيُعوّض بخرطوشات مسلولة تحترق في دقيقة، حارمة المدخّن من كلّ متعة، وجنودنا يأكلون منذ زمن لحماً متعفناً محفوظاً في علب معدنيّة. في أميركا يقولون إنهم اخترعوا مقصورة مغلقة بإحكام تسمح للأشخاص بالصعود إلى الطوابق العليا من البنايات بفضل جهاز يعمل بمضخّة ماء - ونعرف أنّ البعض من هذه المضخّات تعطّبت مساء السبت وبقي الناس محبوسين ليلتين في ذلك الصندوق، دون هواء إن لم نقل دون ماء وطعام، بحيث وجدوهم يوم الإثنين موتى.

كان الجميع مبتهجين لأنّ الحياة ستتيسّر مشقّاتها يوماً بعد يوم، كانوا يدرسون إمكانية صنع آلات للتحادث عن بعد، وأخرى للكتابة آليّاً دون قلم. هل ستوجد مستقبلاً أصول لتزويرها؟

وكان الناس يستمتعون بمشاهدة واجهات بائعي العطور، حيث احتفلوا بمعجزات العامل المُقَوّي للجلد باستعمال حليب الخسّ، أو منمّي الشعر بمستخرج الكينا، ومرهم بومبادور بماء الموز، وحليب الكاكاو، ومسحوق الأرز ببنفسج بارما، كلها مخترعات لزيادة جاذبيّة الإناث الأكثر دعارة، ولكنها صارت الآن في متناول العاملات في الخياطة، المستعدّات دائماً لكي يصبحن خليلات الأثرياء، لأنّ العديد من معامل الخياطة كانت بصدد إدخال آلة تخيط عوضهنّ.

والاختراع الوحيد الجدير بالاهتمام في الأزمنة الأخيرة هو وعاء من الخزف يُمكنّك من التغوّط جالساً.

ولكن حتى أنا لم أدرك أنّ ذلك التهيّج الظاهري كان يؤذن بنهاية الإمبراطورية. في المعرض العالمي قدّم ألفريد كروب مدفعاً ذا أبعاد لم تسبق رؤيتها، يزن خمسين طناً، بشحنة من البارود بمائة ليبرة في كلّ قذيفة. افتتن الإمبراطور بذلك إلى حدّ أنّه منح كروب وسام جوقة الشرف، ولكن عندما أرسل له كروب قائمة بالأثامن والأسلحة التي كان مستعدّاً لبيعها إلى كلّ دولة أوروبيّة، أقنع أركانُ الجيش الفرنسي، الذين كان لهم مزوّدوهم المفضلون، نابوليون برفض العرض. وعلى عكس ذلك، بالطبع، اشتراها ملك بروسيا.

ولكن نابوليون لم يعد يفكّر مثلما كان في السابق: إنّ حَصاة الكُلْية تمنعه من النوم ومن الأكل، إن لم نقل من ركوب الخيل؛ كان يثق بالمحافظين وبزوجته، وهؤلاء كانوا مقتنعين أنّ الجيش الفرنسي لا يزال أقوى جيش في العالم، بينما كانوا على الأكثر (وعُرف ذلك من بعد) مائة ألف رجل مقابل الأربعمائة ألف بروسي؛ وكان ستيبر قد أرسل إلى برلين تقاريره حول الـ chassepots، التي كان الفرنسيّون يعتبرونها آخر اختراع في مجال البنادق، والتي كانت على العكس في طريقها لأن تصبح أشياء جديرة بمتحف. زد على ذلك، كان يضيف ستيبر معتزّاً، لم ينشئ الفرنسيّون مصالح إخباراتيّة في مستوى مصالحهم.

ولكن لنعد إلى أحداثنا. في النقطة المتفق عليها لاقيت لاغرونج.

قال لي دون مقدّمات: - كابيتان سيمونيني، ماذا تعرف عن القسّ دلّا بيكّولا؟

- لاشيء. لماذا؟

- لقد اختفى، وبالذات بينما كان يقوم بخدمة لصالحنا. حسب رأيي فإنّ آخر شخص رآه هو أنت: طلبتَ مني أن تقابله وبعثته إليك. وبعد ذلك؟

- بعد ذلك سلّمت إليه التقرير الذي كنت قد سلمته إلى الروس، لكي يريه إلى بعض الأوساط الإكليريكيّة.

- سيمونيني، وصلتني منذ شهر رسالة من القَسّ تقول لي تقريباً ما يلي: يجب أن أراك في أقرب وقت، عندي قصّة جديرة بالاهتمام بخصوص صاحبك سيمونيني. كانت نبرة الرسالة لا توحي بأنه يريد أن يقصّ عليّ شيئاً يمدح خصالك. إذن: ماذا حدث بينك وبين القَسّ؟

- لست أدري ماذا كان يريد أن يقول لك. ربما كان يعتبر من باب سوء الائتمان من طرفي أن أعرض عليه وثيقة (كان هو يظن) أنني صنعتها لكم. بكلّ وضوح لم يكن على علم باتفاقنا. لي أنا، لم يقل شيئاً. ولم أره بعد ذلك، بل تساءلتُ: ماذا كانت نتيجة العرض الذي قدمته له.

نظر إليّ لاغرونج لحظة دون أن يحوّل عني نظره ثم قال: - سنحكي عن هذا من بعد، ثمّ انصرف.

فِيمَ سنحكي؟ لا شيء، ومنذ هذه اللحظة لن يتركني لاغرونج أغيبُ عن ناظريه أبداً، وإذا توضّح عنده بعض الشكّ، فإنّ طعنة الخنجر الشهيرة في الظهر ستصيبني لا محالة، حتى وإن أغلقت نهائيّاً فم القَسّ.

اتخذت بعض الاحتياطات. التجأت إلى صانع أسلحة في شارع "دي لاب"، وطلبت منه أن يصنع لي عصا ـ سيفاً. كان عنده البعض منها ولكنها غير جيّدة بتاتاً. تذكّرت عندئذٍ أني رأيت واجهة بائع عِصِيّ في "بسّاج جوفروا" بالذات، وهناك وجدت أعجوبة، مقبضها في شكل ثعبان، من العاج، والعصا من الأبنوس، على غاية من الأناقة - ومن الصلابة. لم يكن المقبض مناسباً جدّاً لمن يريد أن يتكّئ عليها في حالة وجع الساق، لأنّها، رغم انحنائها قليلاً، فهي تكاد تكون عموديّة أكثر منها أفقيّة؛ ولكنّها أفضل ما تكون حين تستعمل سيفاً.

العصا-السيف سلاح عجيب حتى عندما تواجه شخصاً يحمل مسدّساً: تتظاهر بالخوف، وتتراجع إلى الوراء موجّهاً نحوه العصا، والأفضل أن يكون ذلك بيد مرتعشة. وها إنّه يضحك منك ويمسك بها لجذبها إليه، وبفعله ذاك يساعدك على إخراج الشفرة المسنونة، الرصيفة، المشرعة في وجهه، وبينما يُفاجأ هو ولا يفهم ماذا أمسك في يده، تضربه أنت بسرعة بالشفرة، ودون جهد تفتح له جرحاً من الوجنة إلى الذقن، فاتحاً خيشومه إن أمكن، وحتى إن لم تفقأ له عيناً، فإنّ الدم الذي سيسيل غزيراً من جبينه سيحجب عنه النظر. ثمّ فالمفاجأة هي الأساس، عند ذلك الحدّ يكون أمره قد قُضي.

إذا كان عدوّاً غير ذي شأن، مثل اللصّ، استرجعْ عصاك واتركه، سيبقى مشوّهاً طول حياته. أمّا إذا كان العدوّ ألدّ، بعد الضربة الأولى، وكأنك تتبع حركة الذراع، تعود إلى الوراء في اتجاه أفقي، وتقطع عنقه، بحيث لن يكون عليه أن يغتمّ للأثر الذي سيتركه الجرح.

هذا دون الحديث عن المظهر المتأنق والمحترم، الذي تضفيه عليك، وأنت

تتنزّه، عصا من هذا القبيل - التي تساوي الكثير من المال ولكنها تستحقّ ذلك، وفي بعض الأحيان لا يجب الانشغال بالمصاريف.

ذات مساء بينما كنت عائداً إلى البيت وجدت لاغرونج أمام الدكان.

حرّكت عصاي حركة خفيفة ثمّ فكّرت أنّ المخابرات لن تكلّف شخصيّة مثله بمهمّة اغتيال شخص مثلي، فتهيّأت للاستماع له.

- شيء جميل، قال لي.

- ماذا؟

- العصا المسلّحة. بمقبض مثل ذلك لا يُمكن أن تكون إلّا عصا مسلّحة. هل تخشى أحداً؟

- قل لي أنت، يا سيّد لاغرونج، إن كان عليّ أن أخشى أحداً.

- أنت تخشانا، أعرف ذلك، لأنك تعرف أنك صرت بالنسبة لنا شخصاً مشكوكاً فيه. الآن اسمح لي بأن أوجز. هناك حرب وشيكة بين فرنسا وبروسيا وصديقنا ستيبر ملأ باريس بجواسيسه.

- هل تعرفهم؟

- لا أعرفهم كلّهم، وهنا يأتي دورك. بما أنك عرضت على ستيبر تقريرك عن اليهود، فهو يعتبرك شخصاً، كيف يُمكن القول، قابلاً للشراء.. حسناً، جاء إلى باريس أحد رجاله، ذلك المدعوّ غودش الذي يبدو لي أنك لاقيته سابقاً. أظن أنه سيبحث عنك. ستصبح جاسوس البروسيّين في باريس.

- ضدّ بلدي؟

- لا تكن منافقاً، إنه ليس حتى بلدك. وإذا كان الأمر يقلقك، فأنت ستعمل بالذات لصالح فرنسا. ستبلغ البروسيّين أخباراً زائفة، سنمدّك نحن بها.

- لا يبدو لي أمراً صعباً...

- بل العكس، هو أمر على غاية من الخطر. لو اكتشفوك في باريس فسنتظاهر نحن بأننا لا نعرفك. وبالتالي ستُعدم رمياً بالرصاص. وإذا اكتشف البروسيّون أنّك تلعب على واجهتيْن، سيقتلونك، وإن كان بطريقة أقلّ شرعيّة. بحيث أنّ لديْك في هذه الوضعية، لنقل، خمسين احتمالاً على مائة بأن تفقد فيها الحياة.

- وإذا رفضت؟

- سيكون لك تسعة وتسعون احتمالاً.

- لِمَ ليس مائة بالمائة؟

- لأنك تملك العصا ـ السيف المتحركة. ولكن لا تعتمد عليها كثيراً.

- كنت أعرف أنّ لي أصدقاء مخلصين في المخابرات. أشكر لك اهتمامك. حسناً. اخترت بكامل الحريّة قبول العرض، وذلك حبّاً للوطن.

- أنت بطل، أيّها النقيب سيمونيني. انتظر الأوامر.

بعد أسبوع من ذلك جاء غودش إلى دكاني، أكثر وسخاً من العادة. كانت مقاومة الرغبة في خنقه شديدة، ولكنني قاومت.

- تعرف دون شكّ أنّني أعتبرك منتحلاً ومزيّفاً، بادرته بالقول.

- ليس أكثر، قال الألماني ذلك مبتسماً ابتسامة نفاق. هل تظنّ أني لم أكتشف أن قصتك في مقبرة براغ هي مستوحاة من نصّ ذلك المسمّى جولي الذي انتهى به المآل إلى السجن؟ كان بإمكاني معرفة ذلك حتى من دونك، أنت أوجزت لي فقط الطريق.

- هل تدرك، هيرّ غودش، أنك بعملك كمخبر أجنبي على التراب الفرنسي يكفي أن أذكر اسمك إلى من أعرف ولن تساوي حياتك فلساً؟

- وهل تدرك أنّ حياتك لن تساوي أكثر لو أوقفوني وذكرت أنا اسمك؟

إذن، لنتصالح. إنّني أحاول بيع ذلك الفصل من كتابي على أنّه شيء مؤكّد إلى مشترين أمناء. سنتقاسم الربح، بما أنّه يجب علينا العمل معاً.

قبل بضعة أيام من بداية الحرب حملني غودش معه فوق سطح منزل يقع بجانب نوتردام، حيث يوجد شيخ يربّي الكثير من الحمام.

- هذا مكان ملائم لإرسال الحمام في الهواء، لأنه بالقرب من الكاتدرائيّة يوجد المئات من طيور الحمام ولن يتفطّن أحد لذلك. كلّما توفّرتْ لديك أخبار مفيدة اكتبْ رسالة وسيتولّى الشيخ إطلاق الطائر. وبالأمثل، مُرَّ من هنا كلّ صباح لمعرفة إن وصلت تعليمات لك. بسيطة، أليس كذلك؟

- ولكن ما هي الأخبار التي تهمّك؟

- لا نعرف بعد ما الذي يهمّنا بالضبط معرفته عن باريس. في الوقت الحالي نراقب جهات الجبهة. ولكن، إذا ربحنا الحرب، سنهتمّ إن عاجلاً أم آجلاً بباريس. لذا ستهمّنا تحرّكات الجيوش، حضور أم غياب العائلة الإمبراطورية، مزاج المواطنين، باختصار كلّ شيء ولا شيء، عليك أنت أن تبرز حدّة ذكائك. يُمكن أن نحتاج إلى خرائط وستسألني كيف يُمكن إرسال خريطة جغرافية مربوطة إلى عنق طير حمام. هيّا معي إلى الطابق السفلي.

كان يوجد في الطابق التحتيّ شخص آخر في مختبر فوتوغرافي مجهّز بقاعة صغيرة ذات جدار مطليّ باللون الأبيض وواحد من تلك المصابيح، التي يسمّونها في المعارض فانوساً سحريّاً، تظهر صوراً على الجدران أو على ملاءة بيضاء كبيرة.

- هذا السيّد يأخذ منك رسالة، مهما كان حجمها، ومهما كان عدد صفحاتها، يصوّرها ويصغّرها فوق ورقة غِراء، يتمّ إرسالها مع الطائر. وحيث تصل الرسالة يجري تضخيم الصورة بإرسالها على جدار. والشيء نفسه يقع هنا، إذا وصلتك رسائل طويلة جدّاً. ولكن الجوّ هنا غير ملائم لبروسيّ، لذا أغادر باريس هذا المساء. سنبقى على اتصال بواسطة رسائل صغيرة تحملها أجنحة طير الحمام، مثل محبوبيْن.



... وحيث تصل الرسالة يجري تضخيم الصورة بإرسالها على جدار...
(ص263)

كانت الفكرة تثير فيّ الاشمئزاز، ولكنني التزمت بذلك، ملعونٌ أبوه، وذلك فقط لأنني قتلت قَسّاً. وكلّ أولئك الجنرالات الذين يقتلون آلاف الأشخاص؟

وهكذا وصلنا إلى الحرب. كان لاغرونج يمرّر لي من حين لآخر بعض الأخبار لإبلاغها إلى العدوّ ولكن، حسب قول غودش، لم تكن باريس تهمّ البروسيّين كثيراً، وفي الوقت الحالي كان يهمّهم أكثر معرفة كم تملك فرنسا من الجنود في جهة الألزاس، في سان بريفا، في بومون، في سيدون.

إلى حدود أيام الحصار، كانت باريس تعيش في غمرة البهجة. في أيلول/ سبتمبر تقرّر إغلاق كلّ قاعات الحفلات والعروض، إمَّا بهدف التضامن مع الجنود في مأساتهم على الجبهة، وإمّا لإرسال رجال المطافئ إلى نفس الجبهة أيضاً، ولكن بعد شهر من ذلك حصلت الكوميديا الفرنسية على ترخيص لتقديم عروض لمساعدة عائلات ضحايا الحرب، وإن كان بصفة مقتصدة، دون تدفئة وبالشموع عوضاً عن المصابيح الغازية، ثم أُقيمت بعض العروض في أمبيغو، في بورت سان مارتان، في شاتيلي وفي أتيني.

بدأت الأيام العسيرة في أيلول/ سبتمبر مع مأساة سيدون. سقط نابوليون أسيراً في يد العدوّ، وكانت الإمبراطورية تنهار، وفرنسا كلّها دخلت في حالة اضطراب، يكاد (يكاد، مرّة أخرى) يكون ثوريّاً. وقع إعلان الجمهورية، ولكن روحيْن كانتا تتصارعان في صفوف الجمهورية نفسها، حسب ما أمكنني فهمه: روح تريد أن تستمدّ من الهزيمة الفرصة لتحقيق الثورة الاجتماعية، والأخرى كانت مستعدّة لإمضاء السلام مع البروسيّين لو مَكَّنها ذلك من تفادي الإصلاحات التي - يقال - إنّها ستفضي إلى نوع من الشيوعيّة بأتم معنى الكلمة.

في منتصف أيلول/ سبتمبر وصل البروسيّون إلى أبواب باريس، احتلوا القلاع التي كانت مرصودة للدفاع عنها وشرعوا في قصف المدينة. خمسة أشهر من الحصار الشديد، سيصبح أثناءها الجوعُ ألدَّ عدوّ.

كانت التحرّكات السياسيّة والمظاهرات، التي تجوب المدينة في أنحاء

مختلفة، بعيدة عن فهمي وأكثر من ذلك عن اهتمامي، وكنت أعتبر أنّه في حالات مثل هذه من الأفضل أن لا يتسكّع المرء خارج البيت. أمّا القوت، فقد كان يهمّني، وكنت أستخبر كل يوم لدى تُجّار الحيّ لأعرف ماذا ينتظرنا. عندما يتجوّل المرء في الحدائق العموميّة، مثل حديقة اللكسمبورغ، تبدو له المدينة في البداية وكأنها تعيش وسط الماشية، لأنّه جرى تجميع الخرفان والبقر داخل أسوار المدينة. ولكن منذ تشرين الأول/أكتوبر قيل إنّه لم يبقَ إلا خمسة وعشرين ألفاً من البقر ومائة ألف من الخرفان، وهو لا شيء إذا تعلّق الأمر بتوفير الغذاء لمدينة كبرى.

وبالفعل، اُضطُرّ الناس شيئاً فشيئاً في بعض البيوت إلى قلي السُّمَيْكات الحمراء، وكان أكل لحم الخيل يوشك أن يأتي على كلّ الخيول التي لا يحميها الجيش، والصاع من البطاطس كان يساوي ثلاثين فرنكاً، وصانع المرطبات بواسيّي كان يبيع علبة من العدس بخمسة وعشرين. لم تعد ترى أرنباً واحدة ولم تعد حوانيت القَصّابين تخجل من عرض قطط سمينة وبعد ذلك الكلاب. ذبحوا كلّ حيوانات الأقطار البعيدة الموجودة في حديقة النبات، وقدّموا ليلة الميلاد، لمن يملك بعض المال، عند فوازان، قائمة مأكولات فخمة متكوّنة من حساء فيل، ولحم جَمَل مشوي على الطريقة الإنكليزية، ومرقة بلحم الكنغر، وأضلاع دبّ بصلصة فلفل، وبرنيّة من لحم الظبي بالكمأ، وقطّ تحيط به فئران حليب صغيرة - لم يكن السبّب في ذلك أن الطيور وحدها انعدمت من فوق السطوح ولكن لأن الفئران والجرذان ذاتها قد بدأت تندثر من المجاري.

لا بأس إذاً بلحم جمل، أما الجرذان فلا. حتى في وقت الحصار تجد دائماً مُهَرِّبين ومُحْتَكرين، وأتذكر عشاء لا يُنسى (باهظاً جداً) لا في أحد تلك المطاعم الفاخرة، بل في مطعم حقير، يكاد يقع في الضاحية، ومع بعض المحظوظين (ليسوا كلهم من المجتمع الباريسي الراقي، ولكن في تلك الظروف لا يبالي المرء بالفوارق الاجتماعية) أمكنني أن أتذوّق لحم تُدرجة وعصيدة من كبد الإوزّ طازج جدّاً.

في شهر كانون الثاني/يناير تمّ عقد هدْنة مع الألمان، الذين سُمح لهم

شكليّاً في شهر مارس باحتلال العاصمة - ويجب أن أقول إنّه كان مهيناً حتى بالنسبة إليّ رؤيتهم في استعراض بخوذاتهم المسمّرة في شارع الشانزليزيه. ثمّ تمركزوا في الشمال الشرقي من المدينة، تاركين للحكومة الفرنسيّة المنطقة الجنوبية الغربية، أي قلاع إيفري، ومونروج، وفونف، وإيسّي، ومن بينها أيضاً قلعة مون- فاليريان المحصّنة جيّداً والتي كان من اليسير انطلاقاً منها (وقد جرّب ذلك البروسيّون) قصف الجهة الغربية للعاصمة.

تخلّى البروسيّون عن باريس التي شرعت الحكومة الفرنسية برئاسة تيير في استعادتها: إلا أن الحرس الوطني، وقد صار التحكّم فيه صعباً، كان قد صادر وأخفى في مونمارتر المدافع التي تمّ شراؤها بواسطة اكتتاب عمومي، وأرسل تيير لاستعادتها الجنرال لوكونت الذي قام في البداية بإطلاق الرصاص على الحرس الوطني وعلى جموع الناس، ولكن جنوده في نهاية الأمر انضموا إلى المتمرّدين، وألقوا القبض على جنرالهم. وفي تلك الأثناء تعرّف أحدهم لا أدري أين على جنرال آخر، يُدعى توماس، لم يترك ذكرى طيّبة في عمليّات القمع سنة 1848. والأنكى من هذا أنه كان يرتدي زيّاً مدنيّاً، ربما لأنه كان يريد الفرار للنجاة بنفسه، ولكن قال الجميع إنّه كان يتجسّس على المتمرّدين. وهكذا حملوه حيث كان لوكونت ينتظر مصيره، وتمّ إعدامهما معاً.

تراجع تيير مع كل الحكومة إلى فرساي وفي نهاية شهر مارس وقع إعلان الكومونة في باريس. الآن أصبحت الحكومة الفرنسية (في فرساي) هي التي تحاصر وتقصف باريس انطلاقاً من قلعة مون-فاليريان، بينما كان البروسيّون يغمضون عيناً عمّا يحدث، بل كانوا يظهرون تسامحاً مع أولئك الذين يجتازون خطوطهم، بحيث أنّ باريس، في حصارها الثاني، كانت مموّنة بالقوت أفضل ممّا كانت عليه في الحصار الأول: مجوّعة من طرف مواطنيها أنفسهم، كانت بطريقة غير مباشرة مموّنة من طرف العدوّ. وكان البعض يتهامسون، في مقارنتهم للألمان بالحكام الفرنسيّين الذين يقودهم تيير، أنّ آكلي الكرنب في نهاية الأمر مسيحيّون طيّبون.

بينما أُعلِن عن انسحاب الحكومة الفرنسية إلى فرساي، وصلتني رسالة من



... في منتصف أيلول/سبتمبر وصل البروسيّون إلى أبواب باريس، احتلّوا القلاع التي كانت مجعولة للدفاع عنها وشرعوا في قصف المدينة... (ص265)

غودش يعلمني فيها أنّ البروسيّين لم يَعُدْ يهمّهم بعد الآن ماذا يحصل في باريس وبالتالي سيقع تفكيك مأوى الحمام والمختبر الفوتوغرافي. ولكن في اليوم نفسه زارني لاغرونج، الذي بدا عليه أنّه تكهّن بما كاتبني به غودش.

قال لي: - يا عزيزي سيمونيني، يجب أن تفعل لصالحنا ما كنت تفعله لصالح البروسيّين، أي إخبارنا. لقد أوقفتُ ذَيْنَيْك التعيسيْن اللذين كانا يتعاملان معك. عادت الطيور إلى حيث كانت معتادة الذهاب، ولكن أجهزة المختبر تصلح لنا. كنّا نملك خطّ اتصال للمعلومات العسكرية السريعة بين قلعة إيسّي وسقيفة لنا، لاتزال في ناحية نوتردام. من هناك سترسل لنا معلوماتك.

- "سترسل لنا"، إلى من؟ لقد كنتَ، كيف يُمكن القول، رجلاً ينتمي إلى الشرطة الإمبراطورية، يجب أن تزول مثلما زال إمبراطورك. يبدو لي على العكس أنك تتحدث الآن كمبعوث من طرف حكومة تيير...

- أيّها النقيب سيمونيني، إنني أنتمي إلى من يبقى حتى عندما تسقط الحكومات. أنا أتبع الآن حكومتي إلى فرساي، لأنني لو بقيت هنا فستكون نهايتي مثل نهاية لوكونت وتوماس. أولئك المجانين يرمون بالرصاص بكل سهولة. ولكننا سنردّ الصفعة بصفعتيْن. عندما نحتاج إلى معرفة شيء محدّد ستصلك أوامر مفصّلة.

"شيء محدّد"... ما أسهل قوله، بما أنه في كل طرف من المدينة كانت تقع أشياء مختلفة، مجموعات من الحرس الوطني تمشي في استعراض، والأزهار مرشوقة في قصبات البنادق والأعلام الحمراء ترفرف، وفي نفس الأحياء كان بورجوازيّون من الطبقة العليا ينتظرون مستترين في منازلهم عودة الحكومة الشرعيّة؛ أما بخصوص المنتخبين في الكومونة لم يكن بالإمكان، لا من خلال الصحف ولا من خلال لغو العامّة، معرفة من منهم يقف إلى جانب من، كان هناك عمّال وأطبّاء وصحافيّون وجمهوريّون معتدلون واشتراكيّون حانقون، وحتى يعقوبيّون بأتمّ معنى الكلمة يحلمون لا بعودة كومونة تسعٍ وثمانين بل تلك الرهيبة لسنة ثلاث وتسعين. ولكن الجوّ العام في الشوارع تميّز بالبهجة العارمة. فلو أنّ الرجال لم يرتدوا الزيّ العسكريّ لذهَبَ الظن بالبعض إلى أنها

حفلة شعبيّة كبرى. كان الجنود يلعبون ما يُسمّى في تورينو "بالسّوسي" وهنا يقولون "أوبوشون"(*)، وكان الضباط يتفسّحون متباهين أمام الفتيات.

خطر ببالي هذا الصباح أنّني أملك دون شكّ بين الأشياء القديمة التي احتفظ بها في صندوق كبير مقتطعات من صحف تلك الفترة، ستساعدني الآن على إعادة تركيب ما تعجز عنه ذاكرتي وحدها من أحداث. كانت صحفاً من مختلف الاتجاهات، "الرابيل" *Le Rappel*، "الريفاي دي بوبل" *Le Réveil du Peuple*، "المارسيّيز" *La Marseillaise*، "البوني روج" *Le Bonnet Rouge*، "الباريزليير" *Paris Libre*، "المونيتور دي بوبل" *Le Moniteur du Peuple*، وأخرى غيرها. من كان يقرأها، لا أعرف ذلك، ربما فقط أولئك الذين يكتبون فيها. أنا كنت أشتريها كلها للتثبت ما إذا كانت تحوي أخباراً أو آراء قد تصلح للاغرونج.

أما مدى ما بلغته الوضعيّة من غموض فهذا ما فهمته عندما التقيتُ يوماً، بين فوضى الجموع في مظاهرة فوضويّة هي الأخرى، موريس جولي. وجد مشقّة في التعرّف عليّ بسبب اللحية، ثمّ ظنّ، وهو يتذكّر سوابقي كفحّام أو شيء من هذا القبيل أنّني أساند الكومونة. اعتبرَ أنني كنت له رفيقاً في المحنة عطوفاً وسخيّاً، فأمسكني من ذراعي وقادني إلى منزله (شقّة متواضعة جدّاً في "كاي ڤولتير") وأفضى لي بشجونه أمام كأس من غران مارنيه.

قال لي: - سيمونيني، شاركتُ بعد سيدان في الحركات الجمهوريّة الأولى، تظاهرت من أجل مواصلة الحرب، ولكنني فهمتُ من بعد أنّ أولئك المهتاجين كانوا يطلبون الكثير. صحيح أنّ كومونة الثورة أنقذت فرنسا من الغزو، ولكن بعض المعجزات لا تتكرّر مرّتيْن في التاريخ. لا يقع إعلان الثورة بواسطة مرسوم، فهي تنشأ من صميم الشعب. البلاد تقاسي من الانحلال الأخلاقي منذ عشرين سنة، ولا يُمكن إعادة إحيائها في يوميْن. فرنسا قادرة فقط على خَصْي أفضل أبنائها. لقد عانيت سنتيْن سجناً بسبب معارضتي لبونابرت وعندما خرجت

(*) ورد بالفرنسية وباللهجة البيزنطية: *sussi*، *au bouchon* أي "لعبة السدادة" وهي لعبة قديمة [المترجم].

من السجن لم أجد ناشراً واحداً ينشر كتبي الجديدة. ستقول لي: كانت الإمبراطورية لا تزال قائمة. ولكن عند سقوط الإمبراطورية قدمتني هذه الحكومة الجمهورية إلى المحكمة بتهمة المشاركة السلمية في اجتياح قصر البلدية في نهاية تشرين الأول/أكتوبر. حسناً، حكموا لي بالبراءة لأنه لم يُمكنهم أن يؤاخذوني على أيّ عمل عنف، ولكن هذا جزاء أولئك الذين ناضلوا ضد الإمبراطورية وضدّ الهدنة المقيتة. الآن يبدو أنّ باريس كلّها متحمّسة لهذه اليوتوبيا الكومونية، ولكنك لا تتصوّر عدد الذين يحاولون الخروج من المدينة فراراً من الخدمة العسكرية. يُشاع أنه سيتمّ الإعلان عن إجباريّة الخدمة العسكرية على جميع من يتراوح سنهم من ثماني عشرة إلى أربعين، ولكن انظر كم من الشبّان الوقحين يتجوّلون في الشوارع، وفي الأحياء التي لا يجرؤ حتى الحرس الوطني على دخولها. ليسوا كثيرين أولئك الذين يقبلون الموت من أجل الثورة. يا للتعاسة.

بدا لي جولي مثالياً مريضاً بالأوهام لا يُرجى منه شفاء، لا يرضى أبداً بواقع الأحوال، ولكن يجب أن أقول مع ذلك إنّ الحظّ لا يسعفه أبداً في شيء. إلّا أنني انشغلتُ عندما أشار إلى الخدمة العسكريّة الإجباريّة فشيّبتُ شعري ولحيتي كما ينبغي. الآن أبدو شيخاً وقوراً في الستين.

خلافاً لجولي، كنت أجد في الساحات والأسواق أناساً موافقين على العديد من القوانين الجديدة، مثل التخفيض من الإيجارات التي كان أصحابها قد رفعوها أثناء الحصار، وإرجاع أدوات العمل للعمّال، الذين لجأوا إلى رهنها في نفس الفترة، والجراية لزوجات ولأبناء أعوان الحرس الوطني، الذين سقطوا أثناء أداء خدمتهم، وتأجيل دفع الكمبيالات. وكلّ تلك الأشياء الجميلة كانت تفقر الصناديق العموميّة وتخدم مصالح الرَّعاع.

أولئك الرَّعاع بالذات، بينما كانوا (ويكفي الاستماع إلى ما يُقال في ساحة موبير وفي حانات الحيّ) يصفقون لإلغاء استعمال المقصلة (وهذا طبيعي) كانوا يندّدون بالقانون الذي يمنع البغاء، الذي يحيل على البطالة العديد من مشتغلي الحيّ. وهكذا هاجرت كلّ بغايا باريس إلى فرساي، ولا أعرف إلى أين سيذهب الآن جنود الحرس الوطني لإطفاء نيران شهواتهم.

ولتِأجيج عداوة البورجوازيّة، ها قد سُنّت قوانين مناهضة للكنيسة، مثل الفصل بين الكنيسة والدولة ومصادرة الأملاك الكنسيّة - دون الحديث عن الإشاعات القائلة بإيقاف الكهنة والرُّهبان.

في أواسط نيسان/ أبريل توغلت طلائع جيش فرساي داخل المناطق الشمالية- الغربية، نحو نويّي، رامية بالرصاص المتحالفين الذين وقعوا في قبضتها. ومن مونت سان فاليريان قصفوا قوس النصر. بعد ذلك بأيام قليلة شاهدتُ أغرب حادثة في ذلك الحصار: استعراض الماسونيّين. لم أكن أتصوّر أنّ الماسونيّين كومونيّون، ولكن ها هم يسيرون في استعراض براياتهم وبأرديتهم مطالبين حكومة فرساي بمنح هُدْنة لإخراج الجرحى من القرى التي جرى قصفها. وصلوا إلى قوس النصر، وبالمناسبة لم تقع قذائف المدافع وذلك، كما هو معلوم، لأنّ أغلب إخوانهم كانوا خارج المدينة مع الموالين للملكيّة. ولكن، حتى وإن كان الذئب لا يفترس ذئباً، وحتى لو أنّ ماسونيّي فرساي عملوا ما في وسعهم للحصول على هدنة بيوم، فقد توقف الاتفاق عند ذلك الحدّ وانضمّ ماسونيّو باريس إلى صفوف الكومونة.

وإذا كنت فيما عدا ذلك لا أتذكّر إلّا القليل عمّا كان يحدث أيّام الكومونة على السطح، فلأنّي كنت أجوب باريس تحت الأرض. أبلغتني رسالة من لاغرونج عمّا كان أركان الجيش يريدون معرفته. يتصوّر أنّ باريس مثقوبة تحت الأرض بمجاري المياه المستعملة، وهذا الذي يحبّذ مؤلفو الروايات الحديث عنه، ولكن المدينة من تحت شبكة المجاري، إلى أطرافها وحتى أبعد من ذلك، كانت عبارة عن متاهة من الكهوف الكلسية والجبسيّة والمدافن القديمة. يُعرف الكثير عن بعضها ولا يُعرف إلا النزر القليل عن بعضها الآخر. كان العسكريّون على علم بالأنفاق التي تربط قلاع الدائرة الخارجية بوسط المدينة، وعند وصول البروسيّين سارعوا إلى سدّ العديد من المنافذ لمنع العدوّ من القيام بمفاجأة غير مرغوب فيها، ولكن البروسيّين لم يفكّروا البتّة، حتى عندما كان ذلك متاحاً، في ولوج تلك المتاهة من الأنفاق خوفاً من استحالة الخروج منها ومن التيهان في أراضٍ ملغومة.

الواقع أن الذين كانوا يعرفون شيئاً عن الأنفاق وسراديب الدفن هم قلّة قليلة من الناس، وأغلبهم ينتمون إلى أوساط المنحرفين، الذين كانوا يستعملون تلك المتاهات لتهريب البضاعة رغم أنف حواجزها الجمركية، وللنجاة من حملات الشرطة. كانت مهمّتي أن أسأل أكثر ما يُمكن من الصعاليك لإيجاد وجهتي في تلك المسالك.

وأذكر أنّني، عند تسلّمي الأوامر، لم أتمالك عن السؤال: "ولكن ألا يملك الجيش خرائط مفصّلة؟" فأجابني لاغرونج : "لا تُلقِ أسئلة غبيّة. في بداية الحرب كان أركان جيشنا واثقين من النصر إلى حدّ أنّهم وزّعوا خرائط ألمانيا فقط وليس خرائط فرنسا".

في الفترات التي ينقص فيها الغذاء والخمر الجيّدة من اليسير العثور على بعض قدماء المعارف في إحدى تلك الحانات الحقيرة وحملهم إلى حانة أكثر لياقة حيث يجدون دجاجة مشوية وخمرة من أجود الأصناف. وهؤلاء لم يكتفوا بمجرّد الحديث إليّ بل قادوني إلى جولات رائعة تحت الأرض. يكفي فقط أن تكون معنا مصابيح جيّدة، ولتذكّر أين يجب الانعراج يميناً أو يساراً، ينبغي أن نسجّل مجموعة من العلامات من كل نوع على طول المسار، مثل شكل جانبي لمقصلة، أو لوحة مكتوبة قديمة، أو رسم سريع بالفحم لشيطان، أو اسم، ربما تركها أحد لم يخرج أبداً من ذلك المكان. ولا يجب الخوف من المرور عبر المَعْظَمة، لأنّه إذا تتبّعنا السلسلة الصحيحة للجماجم، نصل دائماً إلى دَرَج صغير يفضي إلى قبو أحد المحلات المُرْضِيَة للنفس، ومنها يُمكن الخروج لرؤية النجوم من جديد.

لقد أصبح من المستطاع زيارة بعض هذه الأماكن خلال السنوات الموالية، إلّا أن بعضها الآخر بقي حتى ذاك الوقت معروفاً لدي مخبريّ فقط.

باختصار، صرت بين نهاية آذار/مارس ونهاية أيار/مايو عارفاً بهذا الشأن، وكنت أرسل إلى لاغرونج رسوما تشير إلى مسالك ممكنة. ثمّ تفطنت إلى أنّ رسائلي كانت لا تصلح لشيء، لأنّ الموالين للحكومة بدأوا يدخلون باريس دون

استعمال المسالك الجوفيّة. صارت فرساي تتوفّر الآن على خمسة فيالق من الجيوش، بجنود متمرّنين وموجّهين، بفكرة واحدة راسخة في رؤوسهم، مثلما اتضح ذلك سريعاً: لا يُحتفظ بالأسرى، كلّ متحالف يسقط في الأسر يُعدَم. بل اتُّخذت تراتيب، ورأيت ذلك بعيني، أنّه في كلّ مرّة يفوق فيها عدد الأسرى عشرة أَنْفار، تُعوّض كتيبة الجنود برشاش. وأضيفت إلى الجنود النظاميّين مجموعات من "البراسّاردي"(*)، من ذوي السوابق في السجون ومن شابههم، يحملون شارة ثلاثية الألوان، كانوا أكثر عُنْفاً من الفرق النظامية.

نهار الأحد 21 أيار/مايو على الساعة الثانية بعد الزوال كان ثمانية آلاف شخص يتابعون ببهجة الحفل الموسيقي المنظم في حدائق تويلري لفائدة أرامل وأيتام الحرس الوطني، ولا أحد كان يعرف آنذاك أنّ عدد التّعساء الذين يستفيدون منه سيتزايد بعد قليل بصفة مهولة. وبالفعل (لكن ذلك عُرف من بَعْد) بينما كان الحفل الموسيقي متواصلاً، على الساعة الرابعة والنصف، دخل الحكوميّون إلى باريس من باب سان كلو، محتلين أوتوي و باسّي، وأعدموا كل أعوان الحرس الوطني الذين سقطوا بين أيديهم. وقيل بعد ذلك إنّه في السابعة مساء وَصَل عدد جنود فرساي الذين دخلوا المدينة إلى عشرين ألفاً على الأقل، ولكن لا أحد علم بماذا كان يفعل قياديّو الكومونة. دليل على أنّه للقيام بثورة يجب أن تتوفّر للقادة تربية عسكريّة جيّدة، ولكنها إذا كانت موجودة فإنّك لن تقوم بالثورة وستنضمّ إلى جانب السلطة، ولهذا السبب لا أرى داعياً (وأقول داعياً معقولاً) في القيام بثورة.

صباح الإثنين ركّز رجال فرساي مدافعهم في قوس النصر وأعطى أحدهم الأوامر للكومونيّين بترك الدفاع المُنظَّم والتمترس كلّ في حيّه. إذا كان ذلك صحيحاً فإن غباوة الكومونيّين سطعت مرّة أخرى.

(*) ورد بالفرنسية *brassardiers*، أي حاملو الشارات على السّاعد كعلامة انتماء إلى تنظيم أو حركة [المترجم].

أُقِيمت المتاريس في كلّ مكان، وشارك الأهالي فيها ظاهريّاً بحماس، حتى في الأحياء التي ناهضت الكومونة، مثل أحياء الأوبرا أو فوبورغ سان جرمان، حيث كان أعوان الحرس الوطني يُخرجون سيّدات أنيقات من بيوتهنّ ويحثونهنّ على تكويم أثاثهنّ الفاخر في الشوارع. يُجذب حبل على عرض الشارع لرسم خطّ الحاجز المزمع إقامته وكلّ واحد يضع فيه حجراً اقتلعه من الرصيف أو كيساً من الرمل؛ ثم ألقوا من النوافذ بالكراسي، والخزانات والمقاعد والحشايا، أحياناً بموافقة المتساكنين، وأحياناً مع عويل المتساكنين المنطوين على أنفسهم في آخر قاعة من شقّة صارت الآن فارغة.

أراني ضابط رجاله وهم يعملون وقال لي:

- شارك معنا، أيها المواطن، إنّنا نذهب للموت من أجل حريّتك أيضاً.

تظاهرت بالمشاركة أنا أيضاً في إقامة المتراس وذهبت لجلب كرسيّ سقط في آخر الطريق، وانعرجت مع الزاوية.

الحال هو أنّ الباريسيّين أُغْرِموا منذ قرن على الأقلّ بإقامة المتاريس، وإن سقطت عند أول ضربة مدفع فذلك لا يعني شيئاً: المتاريس تُصنع لكي يحسّ المرء بنفسه بطلاً، ولكنني أريد أن أرى كم يبقى من بين الذين يقيمونها متمترساً فيها حتى اللحظة الحاسمة. سيفعلون مثلما فعلت أنا، وسيبقى للدفاع عنها فقط الأغبياء، الذين يُعدمون رمياً بالرصاص على عين المكان.

لا يُمكن فهم ما كان يقع حقيقة في باريس إلّا من منطاد. تقول بعض الإشاعات إنّه وقع احتلال المدرسة العسكريّة التي يُحتفظ فيها بمدافع الحرس الوطني، بينما تقول إشاعات أخرى إنّ المعارك جارية في ساحة كليشي، وأخرى أيضاً إنّ الألمان كانوا بصدد منح الحكوميّين حقّ المرور من الشمال. يوم الثلاثاء وقع احتلال مونمارتر، وأخذوا أربعين رجلاً، ثلاث نساء وأربعة أطفال إلى حيث أعدم الكومونيّون لوكونت وتوماس، وركّعوهم ثم رموهم بالرصاص.

يوم الأربعاء رأيت مباني عموميّة عديدة تحترق، مثل تويليري، التي يُقال إنّ الكومونيّين هم الذين أحرقوها لمنع تقدّم الحكوميّين بل وكانت هناك بعض

اليعقوبيّات الهائجات، *les pétroleuses* "النفطيّات" اللاتي كنّ يتجوّلن بسطل من البترول لإضرام النيران، وهناك من كان يُقسم إنّها قذائف الحكوميّين وأخيراً جاء من نسبها إلى بقايا البونابرتيين الذين اغتنموا الفرصة لإتلاف وثائق مثيرة للشبهة - وفي البداية قلت لنفسي إنّي لو كنت مكان لاغرونج لفعلت نفس الشيء، ثمّ فكّرت أنّ مُخْبراً كُفءاً يخفيها ولكنه لا يتلفها أبداً، لأنّها قد تصلح يوماً وسيلة للابتزاز.

ذهبتُ مرّة أخيرة، ببالغ الحيطة والحذر وبفعل الخوف العارم من أن أجد نفسي في معمعة معركة ما، إلى برج الحمام، حيث وجدت رسالة من لاغرونج. قال لي فيها إنّه لم تعد هناك حاجة لاستعمال الحمام، وأعطاني عنواناً قرب اللوفر، الذي كان قد صار في أيدي الحكوميّين، وكلمة سرّ لعبور مراكز المراقبة.

وفي تلك اللحظة بالذات علمت أنّ الحكوميّين وصلوا إلى مونبرناس وتذكّرت أنّني زرت قبو بائع خمر يُمكن المرور منه إلى نفق تحت الأرض يسري على طول شارع "داسّاس" ويصل إلى شارع "دي شيرش ميدي" ليؤدي إلى سرداب مخزن مهجور في بناية بمفترق "ديلاكروا روج"، وهو ملتقى طرق كان لا يزال بأيدي الكومونيّين. وبما أنّ أبحاثي الجوفية لم تصلح حتى ذلك الحين لشيء وكان عليّ أن أبرهن على أنّي أستحقّ أجري، فقد ذهبتُ إلى لاغرونج.

لم يكن الوصول من جزيرة "ديلا سيتي" إلى أحواز اللوفر شيئاً عسيراً، ولكن وراء سان جرمان لوكسيروا رأيت مشهداً، أعترف بأنّه أثّر فيّ بعض الشيء. كان رجل وامرأة يمرّان صحبة طفل صغير، ولم يكونا دون شكّ في حالة فرار من مدَاس وقع الاستيلاء عليه؛ ولكن ها إنّ مجموعة من البراسّارديّين السكارى، الذين كانوا بطبيعة الحال يحتفلون بغزو اللوفر، حاولت أن تبعد الرجل عن زوجته، وبما أنّ هذه الأخيرة تشبّثت به باكية، دفع هؤلاء البراسّارديّون ثلاثتهم نحو الحائط وأثخنوا أجسادهم بالرصاص.

حاولت أن أمرّ فقط وسط صفوف النظاميّين الذين كنتُ أذكر لهم كلمة السرّ، فقادوني إلى قاعة حيث كان بعض الأشخاص يغرسون مسامير صغيرة ملوّنة فوق خارطة كبيرة للمدينة. لم أرَ لاغرونج وسألت عنه. التفت إليّ سيّدٌ



... ألتفت إليّ سيّد متوسّط العمر ذو وجه عاديّ جدّاً [ ... ]
- الكابيتان سيمونيني، حسب ما أعتقد. اسمي إيبوترن... (ص278)

متوسّط العمر ذو وجه عادٍ جدّاً (أريد أن أقول إنّي لو حاولت وصفه، لما وجدت له صفة مميّزة)، وهذا الأخير حيّاني بأدب دون أن يمدّ لي يده.

- النقيب سيمونيني، حسب ما أعتقد. اسمي إيبوترن. من الآن فصاعداً كل ما كنت تفعله مع السيّد دي لاغرونج، ستفعله معي. كما تعلم، حتى مصالح الدولة يجب أن تتجدّد، خاصة عند نهاية حرب. السيّد دي لاغرونج يستحقّ تقاعداً مشرّفاً، ولعلّه الآن يصطاد بالقصبة في مكان ما، خارج هذه الفوضى المزعجة.

لم يكن الظرف مناسباً لإلقاء أسئلة. حدّثته عن النفق الذي يصل بين شارع "داسّاس" و "لاكروا روج"، فقال إيبوترن إنّه سيكون من الصالح جدّاً القيام بعمليّة في "لاكروا روج"، لأنّه وصله خبر أنّ الكومونيّين كانوا بصدد تجميع جيوش كثيرة هناك في انتظار وصول الحكوميّين من الجنوب. وأمرني إذن أن أعود لأنتظر عند الخمّار، الذي كنت قد أعطيته عنوانه، وصول مجموعة من البراسّارديّين.

كنت أفكّر في الذهاب دون تسرّع من "السّين" إلى "مونبارناس"، لأترك الوقت الكافي لمبعوث إيبوترن كي يصل قبلي، عندما أبصرت وأنا لا أزال على الضفة اليمنى قرابة العشرين جثّة مصففة بعناية على الرصيف بعد رميها بالرصاص. كان يبدو أنهم ماتوا للتوّ، ويظهر عليهم تباين في الانتماء الاجتماعي وفي السنّ. كان هناك شابّ عليه علامات البروليتاريّ، مفتوح الفم قليلاً، إلى جانب بورجوازي في سنّ النضج، بشعر مكوي وشاربيْن مهذّبيْن، وكانت يداه متقاطعتيْن فوق صدريّة غير مكمّشة إلّا قليلاً؛ وبجانبه رجل له وجه فنّان، وآخر يكاد يستحيل التعرّف على قسماته، بحفرة سوداء في موضع العين اليسرى، ومنديل مربوط حول رأسه، كما لو أنّ رحيماً، أو محبّاً قاسياً للنظام، أراد أن يشدّ أطراف ذلك الرأس الذي هشمته رصاصات لا يعرف أحد عددها. واستلقت هناك جثة امرأة، ربما كانت في السابق جميلة.

كانوا هناك، تحت شمس أواخر أيار/مايو، تحوم حولهم الذبابات الأولى من ذلك الفصل، قد جذبتها تلك الوليمة. كان يبدو أنهم أُخِذوا هكذا عن طريق الصدفة ربما ليَصْلُحوا مثالاً للآخرين، وصُفّفوا على الرصيف لإخلاء الطريق التي

كان يمرّ منها في تلك الآونة فريق من الحكوميّين يجرّون وراءهم مدفعاً. وما لفت انتباهي في تلك الوجوه كان، وأشعر بالحرج في كتابة ذلك، اللامبالاة: بدا لي أنّهم يقبلون نائمين المصير الذي جمعهم.

عندما وصلت إلى نهاية الصفّ لفتت انتباهي قسمات المُعْدَم الأخير، الذي كان بعيداً بعض الشيء عن الآخرين، كما لو أنّه أضيف من بعد إلى المجموعة. كان وجهه مغطّىً جزئيّاً بالدم المتجمّد، ولكنني تعرّفت جيّداً على لاغرونج. لقد بدأت المخابرات في عملية التجديد.

لا أملك روح امرأة حسّاسة، وقد كنت قادراً على جرّ جثّة قسّ إلى قاع البالوعة، ولكن ذلك المنظر أدخل عليّ بعض الاضطراب. ولم يكن ذلك بدافع الشفقة، بل لأنّني فكّرت أنّه كان يُمكن أن يحدث ذلك لي أنا. كان يكفي من هنا إلى "مونبارناس" أن يتعرّف عليّ أحد باعتباري رجل لاغرونج، والجدير بالملاحظة أنّه يُمكن أن يكون حكوميّاً أو كومونيّاً، وسيجد سبباً معقولاً في الشكّ بي والشكّ، في تلك الأيام، كان يعني الإعدام.

فكّرت في أنّه حيث توجد بنايات لا تزال تشتعل فيها النيران من الصعب أن يوجد فيها كومونيّون وأنّ الحكوميّين لم يبدأوا بعد في التمركز بالمنطقة، لذا جازفت باجتياز نهر السّين للمضيّ عبر شارع "دي باك" والوصول فوق سطح الأرض إلى مفترق "دي لاكروا روج". ومن هناك بإمكاني الدخول حالاً إلى المخزن المهجور ومواصلة باقي الطريق تحت الأرض.

كنت أخشى أن يمنعني جهاز الدفاع في "لاكروا روج" من الوصول إلى البناية التي أقصدها، ولكن ذلك لم يحدث. كانت هناك مجموعات من المسلّحين ينتظرون على عتبات بعض المنازل وصول الأوامر، وكانت تسري هنا وهناك أخبار متناقضة، لم يكن أحد يعرف من أين سيصل الحكوميّون، والبعض منهم كانوا يقيمونِ ويفكّكون، وقد أنهكهم التعب، متاريس صغيرة مغيّرين مدخل شارع أو آخر بحسب الإشاعات التي كانت تصلهم. كان على وشك الوصول في تلك الآونة فريق من الحرس الوطني بعدد معتبر، وكان العديد من سكان بيوت ذلك الحي البورجوازي يحاولون إقناع المسلّحين بعدم محاولة القيام بأعمال بطولية،

وكانوا يقولون لهم إنّ رجال فرساي هم في نهاية الأمر مواطنون، وهم إضافة إلى ذلك جمهوريّون، وأنّ تيير وعد بالعفو العامّ على كلّ الكومونيّين الذين سيستسلمون. . .

وجدت باب العمارة الكبير منفرجاً قليلاً، دخلتُ وأغلقته ورائي إغلاقاً مُحْكَماً، نزلت إلى المخزن ومنه إلى القبو، وبلغتُ "مونبارناس" متوجّهاً بصفة جيّدة. وهناك وجدت حوالى ثلاثين براسّارديّاً تبعوني في طريق العودة، وما إن وصلنا إلى المخزن حتى صعد الرجال إلى بعض الشقق في الطوابق العُليا، عازمين على ترهيب السكّان، ولكنهم وجدوا أناساً بلباس أنيق تلقّوهم بارتياح وأروهم النوافذ التي تشرف من فوق على المفترق. حيث كان يأتي، في تلك الآونة، من شارع "دي دراغون" ضابط على جواد يحمل أمراً بالتأهب. كان الأمر بطبيعة الحال هو التوقّي من هجوم قادم من شارع "دي سيفر" أو من شارع "دي شيرش ميدي"، وفي زوايا كلّ من الشارعيْن كان الكومونيّون الآن يقلعون أحجار التبليط لإقامة حواجز جديدة.

بينما كان البراسّارديّون يتَموْقعُون في مختلف نوافذ الشقق التي احتلّوها، لم أَرَ من المناسب البقاء في مكان ستصلك فيه إن آجلاً أم عاجلاً رصاصة من طرف الكومونيّين، فنزلت من جديد عندما كانت لا تزال توجد في الأسفل فوضى كبيرة. بما أني كنت أعرف اتجاه الطلقات من نوافذ العمارة، فقد لَبَدْتُ عند زاوية شارع "دي فيي كولومبيي"، للتسلّل بعيداً في حال الخطر.

كان معظم الكومونيّين، للتمكّن من العمل في إقامة المتاريس، قد كدّسوا أسلحتهم، بحيث أنّ الطلقات الأولى التي انطلقت من النوافذ فاجأتهم. ثمّ تحكّموا في أنفسهم، ولكنهم لم يفهموا بعد من أين كانت الطلقات آتية، وأخذوا يطلقون الرصاص على مستوى قامة إنسان نحو مداخل شارع "دي غرونال" وشارع "دي فور"، ممّا جعلني أتراجع خشية من أن تصل الطلقات أيضاً إلى شارع "دي فيي كولومبيي". ثم انتبه أحد إلى أن العدوّ كان يطلق الرصاص من فوق وبدأ تبادل لإطلاق النار من المفترق نحو نوافذ الشقق والعكس، ما عدا أنّ الحكوميّين كانوا يرون جيّداً على من يصوّبون ويطلقون الرصاص وسط المجموعة بينما كان الكومونيّون لا يفهمون بعد ما هي النوافذ التي ينبغي التصويب نحوها.

باختصار، كانت مجزرة متيسّرة، بينما من المفترق كان أحدهم ينادي بالخيانة. دائماً هكذا، عندما تفشل في شيء ما تبحث دائماً عن أحد تتهّمه بعدم كفاءتك. أيّ خيانة، كنت أقول في نفسي، الحال هو أنّكم لا تعرفون كيف تقاتلون، فما بالكم بالقيام بثورة. . .

أخيرا تفطّن أحدهم إلى العمارة التي يحتلها الحكوميّون وحاول من بقي على قيد الحياة خلع الباب. أتصوّر أن البراسّارديّين كانوا قد نزلوا حينئذ تحت الأرض وأنّ الكومونيّين وجدوا الدار فارغة، ولكنني قرّرت عدم البقاء هناك في انتظار الأحداث. وكما علمت من بعد، كان الحكوميّون قادمين بالفعل من شارع "دي شيرش ميدي"، وبأعداد غفيرة، بحيث أنّ المدافعين الأخيرين عن "الكروا روج" كانوا دون شكّ قد هُزموا.

وصلتُ إلى زقاقي متّبعاً مسالك ثانويّة ومتحاشياً الاتجاهات التي كان يصل منها صوت طلقات البنادق. على طول الجدران كنتُ أرى معلّقات أُلصِقَت لحينها، حيث تحثّ لجنة الانقاذ العمومي المواطنين على الدفاع المستميت إلى المتاريس، لا مجال للتردّد فقد اجتاح العدوّ بيوتنا! "*Aux barricades! L'ennemi est dans nos murs. Pas d'hésitation!*".

في إحدى حانات ساحة موبير وصلتني الأخبار الأخيرة: سبعمائة كومونيّين تمَّ إعدامهم رمياً بالرصاص في شارع "سان جاك"، وجرى تفجير مخزن البارود في اللكسومبورغ، وانتقاماً لذلك أخرج الكومونيّون من سجن لاروكيت بعض الرهائن من بينهم رئيس أساقفة باريس وأعدموهم. إعدام رئيس الأساقفة بالرصاص كان عبارة عن نقطة عدم الرجوع. لكي تعود الأمور إلى مسارها الطبيعي كان لا بدّ أن يكون حَمّام الدم كاملاً.

ولكن، بينما كانوا يقصّون عليّ هذه الوقائع، دخلتْ بعضُ النساء اللاتي قُوبلن بصيحات ترحاب من قِبل الزبائن الآخرين. هنّ "النساء" *les femmes* اللاتي رجعن إلى حانتهنّ. فقد جلب الحكوميّون معهم من فرساي البغايا اللاتي طردتهنّ الكومونة وبدأوا يوزّعونهنّ من جديد في المدينة، علامة على أنّ كلّ شيء كان يعود إلى حالته العادية.

لم يكن بإمكاني البقاء وسط هؤلاء الحثالة. لقد نسفوا الشيء الوحيد الجيّد الذي فعلته الكومونة.

انطفأت الكومونة في الأيام الموالية، بعد معركة أخيرة بالسلاح الأبيض في مقبرة بير-لاشيز. حسب ما قيل، فإن مائة وسبعة وأربعين ممن بقوا على قيد الحياة قد أُلقي عليهم القبض وأُعدِموا في عين المكان.

وهكذا تعلّموا أن لا يحشروا أنفسهم في أشياء لا تعنيهم.

# 18

## بروتوكولات

**من يوميّات 10 و11 نيسان/ أبريل 1897**

مع نهاية الحرب عاد سيموניني إلى نشاطه العادي. لحسن الحظ أنّ قضايا الإرث أصبحت، بفعل كلّ تلك الوفيات التي حصلت، يومية. كثيرون جدّاً أولئك اللذين سقطوا وهم في ريعان الشباب، على المتاريس أو أمامها ولم يفكّروا في ترك وصيّة، فصار سيمونيني مرهقاً بالعمل - ومُغْدَقاً بالمال. ما أجمل السِّلْم، خاصة إذا جاء بعد اغتسال قُرْباني.

لذا لم تذكر يوميّاته روتينيّة عمل الإشهاد في السنوات الموالية وتشير فقط إلى الرغبة، التي لم تبارحه أبداً، في استعادة الاتصالات لبيع الوثيقة حول مقبرة براغ. لم يكن يعرف ماذا كان يصنع غودش في الأثناء، ولكن ينبغي أن يسبقه. وذلك أيضاً، لأن الظاهر - وهذا أمر غريب جدّاً - أن اليهود قد اختفوا طوال فترة أحداث الكومونة تقريباً. وبما أنّهم اعتادوا على التآمر، هل كانوا يحرّكون سرّاً خيوط الكومونة أو العكس، وبتجميعهم للأموال، ربما اختفوا في فرساي للإعداد إلى ما بعد الحرب؟ ولكنهم كانوا وراء الماسونيّين، والماسونيّون في باريس انحازوا إلى الكومونة، والكومونيّون أعدموا بالرصاص رئيس أساقفة فلا بدّ أن يكون لليهود بطريقة ما ضلع في ذلك. كانوا يقتلون الرُّضّع، فما بالك برئيس أساقفة.

بينما كان يفكّر على هذا النحو، سمع ذات يوم من سنة 1876، شخصاً يضغط الجرس من تحت وعلى الباب وقف سيّد متقدّم في السنّ في ثوب كهنوتيّ. في البداية ظنّ سيمونيني أنّه قَسّ شيطانيّ جاء كالعادة لشراء خبز الذبيحة، ثمّ، بعد أن دقّق النظر تعرّف، بعدما يقارب الثلاثين سنة، تحت تلك الكومة من الشعر الذي صار أبيض ولكنه لا يزال أنيق التموّج، على الأب برغماسكي.

بالنسبة إلى اليسوعي كان أصعب عليه أن يتأكّد من أنّ الشخص الواقف أمامه هو ذلك السيمونينو(*) الذي كان قد عرفه مراهقاً، خاصّة بسبب اللحية (التي بعد السلم عادت سوداء، مع بعض الشيب، مثلما يجدر برجل في الأربعين). ثمّ سطعت عيناه وقال مبتسماً: - نعم، هو أنت، سيمونيني، أنت هو إذن يا بني؟ لماذا تتركني على الباب؟

كان يبتسم ولكن، إن لم نجرؤ على القول إنّ له ابتسامة نَمِر، فقد كانت ابتسامة قِطّ. قاده سيمونيني ليصعد إلى شقته ثمّ قال له: - كيف نجحت في العثور عليّ؟

- إيه يا بني، قال برغماسكي، ألا تعرف أنّنا نحن اليسوعيّين نعلم ما لا يعلمه الشيطان؟ حتى وإن طردنا البيمونتيّون من تورينو فقد واصلت علاقاتي الطيبة مع العديد من الأوساط التي مكنتني من معرفة، أنك، أوّلاً، اشتغلت عند كاتب عدل وكنت تزوّر الوصايا، وهذا لا يهمّ، وأنّك سلّمت إلى المخابرات البيمونتيّة تقريراً أظهر فيه أنا أيضاً على أني مستشار لنابوليون الثالث، وأني أتآمر ضدّ فرنسا وضدّ مملكة سردينيا في مقبرة براغ. بدعة جميلة، لا شكّ في ذلك، ولكنني تفطّنت بعد ذلك إلى أنّك نقلت كلّ شيء عن ذلك العدوّ اللدود للكهنة، سو. بحثت عنك، ولكنهم قالوا لي إنك في صقليّة مع غاريبالدي وإنك تركت بعد ذلك إيطاليا. الجنرال نيغري دي سان فرون له علاقات طيّبة مع الجمعيّة ووجّهني إلى باريس، حيث كان زملائي في الإخوانية يملكون معارف ذات وزن في مصالح المخابرات الإمبراطوريّة. وهكذا علمت أنّك كنت قد ربطت اتصالات بالرّوس وأنّ تقريرك عنّا في مقبرة براغ أصبح تقريراً يخصّ اليهود. ولكنني في الوقت نفسه علمت أنّك تجسّست على شخص يدعى جولي، وأمكنني أن أحصل سرّياً على نسخة من كتابه، بقيت في مكتب المُسمّى ديلاكروا، مات بطلاً في مواجهة مع فحّامين مختصّين في المتفجّرات، ورأيت أنّه، حتى وإن نقل جولي عن سو، فأنت نقلت شيئاً ما عن جولي. وأخيراً أعلمني زملائي الألمان أنّ شخصاً يُدعى غودش يتحدّث عن اجتماع طقوسي يقع دائماً في مقبرة براغ، حيث

(*) أي سيمون الصغير [المترجم].

يقول اليهود تقريباً نفس الأشياء الذي كتبتها في تقريرك الذي سلمته للرّوس. إلّا أنني كنت أعرف أنّ النصّ الأول، التي نظهر فيه نحن اليسوعيّين، هو نصّك، وهو سابق بسنوات عديدة عن رواية غودش الرديئة.

- أخيراً يعترف لي أحد ببعض الحقّ.

- اتركني أكمل. على إثر ذلك، بين الحرب، والحصار وبعد ذلك أيام الكومونة، صارت باريس غير مناسبة بالنسبة لرجل دين مثلي. قرّرت إذن أن أرجع وأن أبحث عنك؛ لأن قصة اليهود نفسها التي جرت فصولها بمقبرة براغ قد احتواها كرّاس نُشِر في بطرسبرغ. كان قد قُدّم على أنه فقرة من رواية تتأسّس على أحداث واقعيّة، وكان المصدر إذن غودش. الحال، هو أنّه في هذه السنة بالذات ظهر تقريباً نفس النصّ في كُتيّب بموسكو. باختصار، هناك أو هنالك، كيفما أردنا قول ذلك، كانت تتكوّن مسألة دولية حول اليهود، الذين أصبحوا يمثلون خطراً. ولكنهم يمثلون خطراً حتى بالنسبة إلينا نحن، لأنّه وراء هذه الرابطة الإسرائيليّة يختفي الماسونيّون، وقد اتّخذ قداسة البابا قراراً بإطلاق حملة شعواء ضدّ كلّ أعداء الكنيسة هؤلاء. وها أنك تصلح لنا، يا عزيزي سيمونينو، على الأقلّ تكفيراً عن اللعبة اللئيمة التي لعبتها لي مع البيمونتيّين. فبعد أن ثَلَبْتَ الجمعيّة بتلك الصفة، يجب عليك أن تعوّض لها.

يا للشيطان، هؤلاء اليسوعيّون أبرع من إيبوترن، ومن لاغرونج وسان فرون، فهم يعرفون كلّ شيء عن كلّ واحد، لا يحتاجون لمصلحة مخابرات لأنهم يمثلون هم أنفسهم مصلحة مخابرات؛ لديهم إخوان في كلّ أنحاء العالم ويتابعون كلّ ما يُقال في كلّ لغة نشأت بعد سقوط برج بابل.

بعد سقوط الكومونة صار الجميع في فرنسا، حتى المعادون للكنيسة، متديّنين جدّاً. بل كانوا يتحدّثون عن تشييد معبد في مونمارتر، تكفيراً عموميّاً للمأساة التي تسبّب فيها الكافرون. كنّا، إذن، كنّا في جوّ إعادة الاعتبار للكنيسة، فلِمَ لا أرجع أنا أيضاً لخدمتها، قلتُ له: - إني موافق يا أبتِ، قل لي ماذا يجب أن أفعل.

- نواصل على نفس النَّهْج الذي تسلكه. أولاً، بما أنّ ذلك المسمّى غودش بصدد بيع خطاب الحَبْر اليهودي لحسابه الخاص، ينبغي من ناحية أن تصنع منه صيغة أخرى أكثر ثراء وغرابة، ومن ناحية أخرى يجب أن نمنع غودش من مواصلة توزيع نسخته.

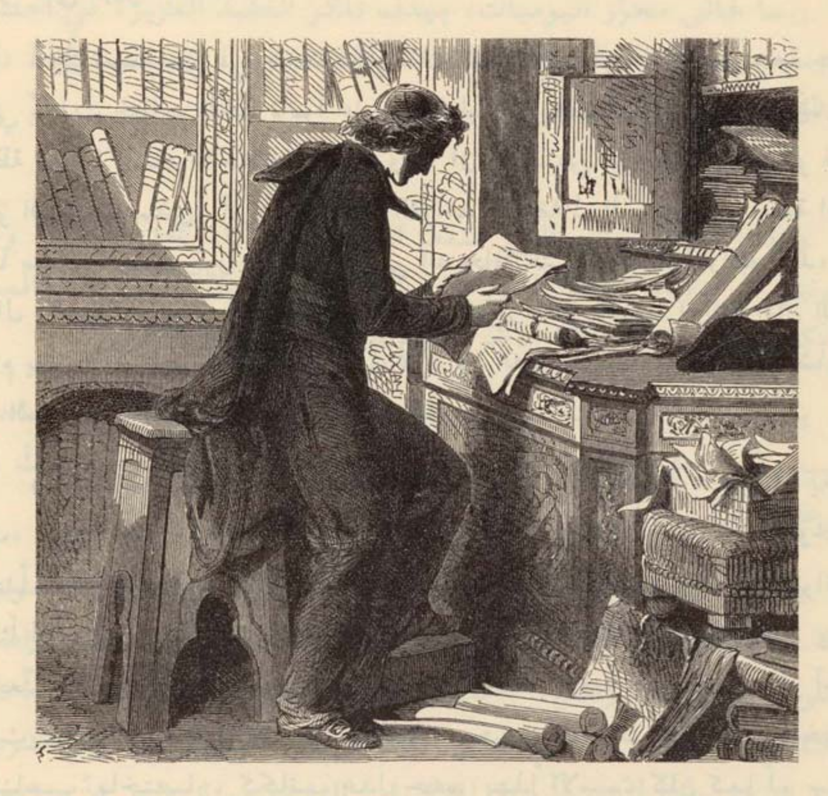
- وكيف سأفعل للتحكّم في ذلك المزوّر؟

- سأطلب من إخواني الألمان أن يراقبوه وإن اقتضى الأمر، أن يتخلّصوا منه. حسب ما نعرف عن حياته الخاصّة، فهو قابل للابتزاز من عدّة نواحٍ. يجب عليك أنت أن تشتغل لتجعل من خطاب الحَبْر اليهودي وثيقة أخرى، أكثر تماسكاً، وبإحالات أكثر على المسائل السياسيّة الراهنة. عد إلى كُتيّب جولي. يجب أن تظهر، كيف يُمكن القول، مكيافيليّة اليهود، وخططهم لإفساد الدُّوَل.

وأضاف برغماسكي أنّه يجدر، لإضفاء مصداقية أكبر على خطاب الحبر، الرجوعُ إلى ما سبق أن رواه القَسّ بارّويل وبالخصوص إلى الرسالة التي بعثها له جدّه. ربّما يحتفظ سيمونيني بنسخة منها، يُمكن فعلاً تقديمها على أنّها الأصل الذي وقع إرساله إلى بارّويل؟

أمّا النسخة فقد وجدها في قاع خزانة، داخل صندوق صغير قديم، واتفق مع الأب برغماسكي على مقابل لمثل تلك القطعة النفيسة. اليسوعيّون معروفون بالبخل، ولكنه كان مضطرّاً للعمل معهم. وها قد ظهر في شهر يوليو 1878 عدد من الـ "الكونطنبوران" *Contemporain* احتوى مذكرات للأب غريفال، الذي كان صديقاً حميماً لبارّويل، وأخبار أخرى كثيرة كان سيمونيني استقاها من مصادر أخرى، ورسالة جدّه. - قصّة مقبرة براغ ستأتي من بعد، قال الأب برغماسكي. بعض الأخبار المدويّة إذا أخرجتها دفعةً واحدة، بعد التأثير الأوّل ينساها الناس. ينبغي على العكس إخراجها قطرة قطرة، وكلّ خبر جديد سيذكي أيضاً ذاكرة الخبر السابق.

أبّدى سيمونيني، وهو يكتب، رضاه التامّ عن هذا الانتشال *repêchage* لرسالة جدّه، لقد بدا - يساعده في ذلك تأجّج مشاعره - أنه بإنجازه لعمله هذا قد برّأ ذمّته من وصيّة محدّدة.



... وأضاف برغماسكي أنّه لجعل خطاب الحَبْر قابلاً أكثر للتصديق، يجدر الرجوع إلى ما سبق أن رواه القسّ بارّويل وبالخصوص إلى الرّسالة التي بعثها له جدّه... (ص286)

أخذ يعمل بحماس لإثراء خطاب الحَبْر اليهودي. وعند إعادة قراءة جولي لاحظ أنّ هذا المُجادِل، الذي كان بكل وضوح أقلّ تبعيّة لسُو ممّا بدا له عند القراءة الأولى قد أسند لشخصيّته مكيافيلّي- نابوليون أعمالاً شريرة أخرى تبدو حكراً على اليهود بالذات.

أدرك سيمونيني في جمعه لكلّ تلك المادّة أنّها ثريّة جدّاً وشاسعة جدّاً: فلكي يُحْدِث خطاب الحَبْر تأثيراً على الكاثوليكيّين يجب أن يحتوي على إشارات لخطّة هدفها إفساد الأخلاق، وعليه ربما أن يأخذ من غوجينو دي موسّو فكرة سموّ اليهود الجسدي، أو من برافمان القواعد لاستغلال المسيحيّين بواسطة الربا. بينما سيتأثر الجمهوريّون بالإشارات إلى الصحافة التي ستخضع لمراقبة أشدّ، أمّا رجال الأعمال وصغار المدَّخرين، الذين يرتابون دائماً بالبنوك (والتي كان الرأي العام يعتبرها في حوزة اليهود)، فسيُلدغون في الصميم عندما سيقرأون الإشارات إلى المخطّطات الاقتصادية لليهوديّة الدوليّة.

وهكذا نشأت شيئاً فشيئاً في خاطر سيمونيني فكرة كانت، دون أن يعرف ذلك، يهوديّة جداً وقباليّة. لا ينبغي أن يهيّئ مشهداً واحداً من مقبرة براغ وخطاباً واحداً للحَبْر اليهودي، بل خطابات مختلفة، واحداً للكاهن، وآخر للاشتراكي، وثالثاً للرّوس، ورابعاً للفرنسيّين. ولا يجب أن يصنع مسبقاً كلّ الخطابات: ينبغي أن يعدّ مثل ورقات منفصلة وبمزجها بطرق مختلفة، يحصل لديه خطاب أو آخر - بحيث يُمكنه أن يبيع إلى مشترين مختلفين، وحسب حاجيات كلّ منهم، الخطاب المناسب. باختصار، ككاتب عدل جدير بهذا الاسم، كان كما لو سجّل شهادات، واعترافات ووصايا يقدّمها بعد ذلك إلى المحامين للدفاع عن قضايا تختلف باختلاف الأحوال - بحيث أنّه شرع في تسمية نصوصه بالبروتوكولات- وكان يتحاشى أن يُظهر كلَّ شيء للأب برغماسكي، لأنّه ينتقي له النصوص ذات الطابع الديني الخصوصي فقط.

ويختم سيمونيني هذا التلخيص لعمله في تلك السنوات بملاحظة استغراب: في أواخر 1878 وصَله ببالغ الارتياح خبر موت غودش، ربما مختنقاً بتلك

الجعة التي كان ينتفخ بها جسمه كلّ يوم أكثر، وأيضاً جولي المسكين، الذي أطلق - في يأسه المستمرّ - رصاصة على رأسه. لتنعم روحه بسلام الآخرة، لم يكن إنساناً شريراً.

ربما غالى محرّر اليوميات، بهدف تذكر الفقيد العزيز، في احتساء الكؤوس. بينما كان يكتب عنه، كانت كتابته تتشوّش، والصفحة تتوقّف. دليل على أنّ سيمونيني استسلم للنوم.

ولكنه في اليوم الموالي، عندما استفاق وقد كاد يحلّ المساء، وجد سيمونيني في يومياته تدخُّلاً للقسّ دلّا بيكّولا الذي قد يكون تسلّل ذلك المساء إلى مكتبه، وقرأ ما كتبه الأنا الآخر فسارع بدافع أخلاقي إلى التدقيق.

يدقّق ماذا؟ أنّ موت غودش وجولي ما كانا ينبغي أن يفاجئا صاحبنا النقيب، الذي حتى وإن لم يحاول بالفعل نسيان ذلك، فقد كان دون شكّ غير قادر على التذكّر جيّداً.

بعد نشر رسالة جدّه في صحيفة "الكونطنبران"، وصلت إلى سيمونيني رسالة من غودش، في لغة فرنسيّة غير جيّدة من الناحية النحويّة ولكنها واضحة المعنى. "عزيزي سيمونيني، - كان يقول في رسالته - أتصوّر أنّ المادّة التي ظهرت في "الكونطنبران" هي الطبق الأوّل من بين أطباق أخرى ننوي نشرها، ونحن نعرف جيّداً أنّ جزءاً من ملكيّة تلك الوثيقة هو لي، بل إنّ بمقدوري (وكتابي "بيارّيتز" بيدي) على أنّني مؤلف النصّ كلّه وأنت لا تملك منه شيئاً، وأنك لم تُشارك فيه ولو بوضع الفواصل. وبالتالي، آمرك أن تتوقّف وأن تتفق معي على لقاء، ربما بحضور شاهد عدل (ولكن ليس شاهد عدل من طينتك)، لتحديد ملكيّة التقرير حول مقبرة براغ. وإذا لم تفعل ذلك فإنّني سأشهّر باحتيالك. وبعد ذلك على الفور سأُخبِر شخصاً يُدعى جولي، لا يزال يجهل أنّك سرقت منه أحد إبداعاته الأدبية. وإذا لم تنسَ أنّ جولي يمتهن المحاماة، فإنك ستفهم كيف أنّ هذا الأمر سيعود عليك بالوبال".

تملّك سيمونيني الهلع فاتّصل حالّا بالأب برغماسكي، فقال له هذا الأخير: - عليك أنت بجولي وسنتولى نحن أمر غودش.

وبينما كان يتردّد، دون أن يعرف كيف سيتصرّف مع جولي، توصّل سيمونيني برسالة من الأب برغماسكي يعلمه فيها أنّ المسكين هيرّ غودش لفظ أنفاسه الأخيرة صافي السريرة في فراشه، ويحثّه على الدعاء له بالرحمة، حتى وإن كان بروتستانيّاً ملعوناً.

الآن فهم سيمونيني ماذا عنى الأب بـ"عليك أنت بجولي". كان لا يحبّ القيام بمثل تلك الأشياء، فقد كان هو في نهاية الأمر مديناً لجولي، ولكن لا ريب في أنه لا يستطيع أن يجازف بنجاح مخطّطه مع برغماسكي من أجل دقائق أخلاقيّة، وقد رأينا منذ قليل كيف أنّ سيمونيني كان يريد استعمال نصّ جولي استعمالاً مكثفاً، دون أن ينشغل باحتجاجات مؤلّفه القضائيّة.

لذا عاد مرّة أخرى إلى شارع "دي لاب" واشترى مسدّساً صغير الحجم بحيث يُمكنه الاحتفاظ به في البيت، ذا قوّة ضعيفة ولكنه في المقابل قليل الضجّة. كان يتذكّر عنوان جولي، ولاحظ أنّ الشقّة كانت، رغم صغرها، مفروشة بالسَّجّاد وجدرانها مغطاة بتعاليق، قادرة على تخفيض العديد من الأصوات. على كلّ حال من الأفضل العمل صباحاً، عندما يصعد من تحت ضجيجُ العربات والحافلات القادمة من "بون رويّال" ومن شارع "دي باك"، أو التي تذهب وتجيء على طول نهر السّين.

دقّ جرس باب المحامي فتلقّاه هذا وقد بانت عليه المفاجأة، ولكنه قدّم له فوراً فنجاناً من القهوة. وأسهب جولي في رواية مآسيه الأخيرة. بالنسبة لمعظم الأشخاص الذين يقرأون الصحف، الكاذبة كما هي دائماً (ويعني سواء القراء أو المحرّرين) فهو، الذي كان قد رفض سواء العنف أو النزعات الثوريّة، قد بقي كومونيّاً. كان قد بدا له من الصواب معارضة الطموحات السياسيّة لذلك المدعوّ غريفي الذي قدّم ترشحه لرئاسة الجمهوريّة، واتّهمه بواسطة بيان طبعه وعلّقه على حسابه الخاص. عندئذٍ اتّهموه هو بأنه بونابرتيّ يتآمر ضدّ الجمهوريّة، وتحدّث غامبيتّا باحتقار عن "ريشات مرتزقة ذات سوابق عدليّة"، وإدمون آبوت نعته

بالمزوّر. باختصار، نصف الصحافة الفرنسيّة قامت ضدّه، وجريدة "فيغارو" وحدها نشرت بيانه، بينما كلّ الصحف الأخرى رفضت رسائله الدفاعية.

لو فكّرنا جيّداً فقد ربح جولي معركته لأنّ غريفي عدل عن تقديم ترشحه، ولكنه كان من بين أولئك الذين لا يرضون أبداً ويريدون أن يُنصفوا بالكامل. بعد أن تحدّى بالمبارزة اثنيْن من متّهميه، قدّم قضيّة بعشر صحف بتهمة رفض النشر، والثّلْب والشتم العلني.

- تولّيت الدفاع عن نفسي بنفسي وأؤكّد لك يا سيمونيني أنّني أدنت كلّ الفضائح التي سكتت عنها الصحافة، إضافة إلى تلك التي جرى الحديث عنها. وهل تعرف ماذا قلت لكلّ أولئك اللئام (وأحشر فيهم أيضاً القضاة)؟ أيّها السادة، إنّني لم أخشَ الإمبراطوريّة، التي كانت على العكس تسكتكم عندما كانت في السلطة، والآن أسخر منكم، لأنكم تقلّدونها في أسوأ مظاهرها. وعندما كانوا يحاولون منعي من الكلام، قلت: أيها السادة، لقد حاكمتني الإمبراطورية بتهمة التحريض على الكراهية، واحتقار الحكومة، وشتم الإمبراطور - ولكن قضاة القيصر تركوني أتكلّم. الآن أطلب من قضاة الجمهورية أن يمنحوني نفس الحريّة التي كنت أحظى بها تحت الإمبراطورية.

- وكيف انتهت القصّة؟

- لقد انتصرتُ، كلّ الصحف تمَّتْ إدانتها إلّا اثنتين.

- وإذن، ماذا يكربك الآن؟

- كلّ شيء. أنّ المحامي المنافس، رغم ثنائه على عملي، قال لي إنّي أتلفت مستقبلي بسبب الإفراط العاطفي، وأنّ فشلاً ذريعاً سيلاحقني عقاباً لي على غروري. وأنني بعد أن هاجمت هذا وذاك لم أصبح لا نائباً ولا وزيراً. وأنني ربما أنجح كرجل أدب أكثر مني كرجل سياسة. ولكن حتى هذا ليس صحيحاً، لأنّ ما كتبته طواه النسيان، وبعد أن ربحت قضاياي أُغلقت في وجهي كلّ الصالونات التي تحظى بتقدير. لقد ربحت عدة معارك ومع ذلك فأنا فاشل. يأتي وقت تحسّ فيه بأن شيئاً داخلك قد تحطّم، ولم تعد لك طاقة ولا إرادة.

يقولون إنّه يجب أن نعيش، ولكن الحياة مسألة إذا طالت تقودك إلى الانتحار.

فكّر سيمونيني أنّ ما يوشك على القيام به عمل مقدّس. سيجنّب هذا التعيس حركة قاضية وفي نهاية الأمر مذلّة، هي فشله الأخير. كان بصدد القيام بعمل خير. وسيتخلّص من شاهدٍ خطير.

ترجّاه أن يلقي نظرة سريعة على وثيقة يريد أخذ رأيه فيها. وضع بين يديه حزمة كبيرة من الأوراق: كانت صحفاً قديمة، ولكن كانت تلزم عدّة ثواني لإدراك حقيقة الأمر. كان جولي قد جلس إلى كرسيّ، منهمكاً بتجميع كلّ تلك الأوراق التي كانت تفلت من يديه.

بهدوء، وبينما شرع هذا الأخير، وقد بدأت تتملكه الحيرة، في القراءة، مرّ سيمونيني وراءه وأسند فوّهة مسدّسه إلى رأسه وأطلق الرصاص.

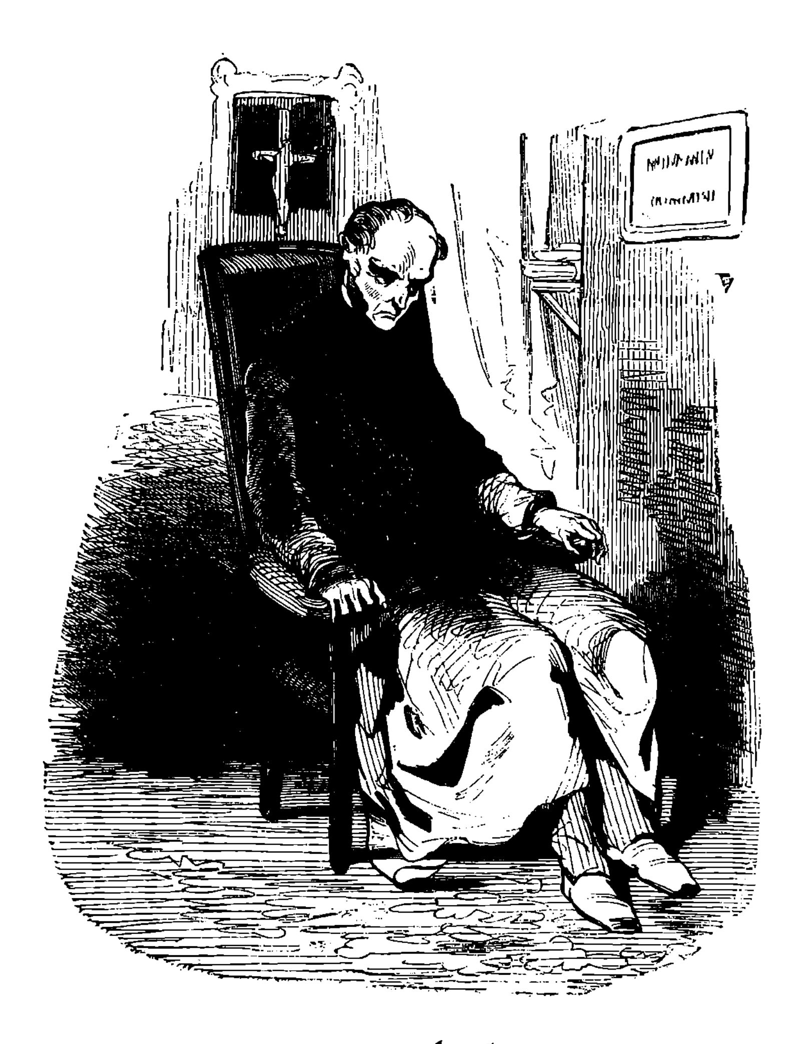
انهار جولي وسالَ خيط رقيق من الدم من ثقب في صدغه، ويداه متدلّيتان. لم يكن من الصعب وضع المسدّس في يده. لحسن الحظ أنّ ذلك وقع ستّ أو سبع سنوات قبل اكتشاف مسحوق معجز يمكّن من كشف بصمات اليد التي أمسكت بالسلاح دون أدنى شكّ في ذلك. في الفترة التي سوّى فيها سيمونيني حساباته مع جولي كانت لا تزال سائدة نظريّات شخص يُدعى بارتيّون، تعتمد على قياس الهيكل العظمي وعظام أخرى للمشبوه فيه. لن يتمكّن أحد من البرهنة على أنّ موت جولي ليس انتحاراً.

استحوذ سيمونيني على حزمة الصحف، وغسل الفنجانيْن اللذين شربا فيهما القهوة، وترك الشقة مرتّبة. ومثلما علم إثر ذلك، بعد يومين لم يَرَ فيهما بوّابُ العمارة صاحبَ الشقة، أعلم قسم شرطة حيّ 'سان توما داكان'. خلعوا الباب ووجدوا الجثة. ومن خبر وجيز على صحيفة يُقال إنّ المسدّس كان ملقى على الأرض. لا شكّ في أنّ سيمونيني لم يُثَبّتْه جيّداً في يده، ولكن ذلك لا يغيّر شيئاً. وكأن الحظ أراد أن يسعفه أكثر، وجدوا على الطاولة رسائل موجّهة إلى أمّه، وأخته، وأخيه... لا يشير في أيّ منها بوضوح إلى الانتحار، ولكنها كانت كلّها مشحونة بالتشاؤم. كانت تبدو محرّرة لذلك الهدف بالذات. ومن يدري أنّ

المسكين لم يكن ينوي الانتحار، وفي هذه الحالة فإنّ سيمونيني قد تكلّف هباء كل ذلك العناء.

لم تكن هذه المرّة الأولى التي يكشف فيها دلّا بيكّولا إلى مُساكنه أشياء ربما عرفها فقط في كنف سرّ الاعتراف، والتي لا يريد المُساكن تذكّرها. اغتاظ سيمونيني من ذلك، وتحت مذكرات دلّا بيكّولا، كتب جملتيْن أو ثلاثاً ساخطة.

لا شكّ في أنّ الوثيقة التي يختلس الرَّاوي النظر إليها مليئة بالمفاجآت، وربما تستحقّ ان تُستخرج منها يوماً رواية.



... يأتي وقت تحسّ فيه بأنّ شيئاً داخلك قد تحطّم، ولم تعد لك طاقة ولا إرادة. يقولون إنّه يجب أن نعيش، ولكنّ الحياة مسألة إذا طالت تقودك إلى الانتحار.. (ص292)

# 19

## عصمان باي

11 نيسان/أبريل 1897، مساء

حضرة القسّ، إني أعمل جاهداً لإعادة تركيب ماضيَّ، وأنت تقاطعني باستمرار مثل معلّم متحذلق ينبّهني عند كل خطوة إلى أخطائي الإملائية والشكليّة... إنّك تلهيني. وتشوّشني. حسناً، قد أكون قتلت جولي، ولكنني كنت بصدد تحقيق غاية تبرّر الوسائل الحقيرة التي اضطررت إلى استعمالها. عليك أن تقتدي بِبُعْد النظر السياسي وبالدم البارد اللذين يتحلّى بهما الأب برغماسكي وأن تتحكّم في غرورك المريض...

الآن وقد أصبحتُ لا أخشى تهديد جولي ولا غودش، صارَ بإمكاني أن أشتغل في صياغة بروتوكولاتي البراغِيّة الجديدة (هكذا على الأقلّ كنت أسمّيها). وكان عليّ أن أخلق شيئاً جديداً؛ لأنّ مشهدي القديم لمقبرة براغ صار شيئاً مبتذلاً يكاد يكون روائيّاً. بعد سنوات قليلة من نشر رسالة جَدِّي، نشرت "الكونطنبران" خطاب الحَبْر باعتباره تقريراً واقعيّاً قام به ديبلوماسيّ إنكليزي يُدعى سير جون ريدكليف [Readcliff]. وبما أنّ الاسم المستعار المستعمل من قِبل غودش لإمضاء روايته كان سير جون رتكليف [Retcliffe]، كان مأتى النصّ واضحاً. بعد ذلك توقّفت عن عدّ المرّات التي استعاد منها مؤلفون مختلفون مشهد المقبرة: في الوقت الذي أكتب فيه يبدو لي أنني أتذكّر أنّه ظهر أخيراً كتاب من تأليف واحد يُدعى بورنان عنوانه "اليهود المعاصرون لنا" *Les juifs nos contemporains*، حيث يظهر من جديد خطاب الحَبْر اليهودي، ما عدا أنّ جون ريدكليف أصبح اسم الحَبْر نفسه. يا إلٰهي، كيف يُمكن أن نعيش في عالم من المزيّفين؟

كنت أبحث إذن عن أخبار جديدة أُسجّلها في بروتوكولاتي، ولم أكن أزدري حتى استمدادها من أعمال مطبوعة، متفكّراً دائماً أنّه ـ ما عدا حادثة القسّ دلّا بيكّولا التعيسة ـ فإنّ زبائني المحتملين لا يبدون لي من بين أولئك الذين يقضون وقتهم في المكتبات.

قال لي الأب برغماسكي ذات يوم: - نُشر بالروسيّة كتاب حول التلمود واليهود، من تأليف شخص يُدعى لوتوستانسكي. سأحاول الحصول عليه وترجمته من طرف إخواني. ولكن، يوجد بالأحرى شخص آخر ينبغي عليك الاهتمام به. هل سمعت أبداً بشخص يدعى عصمان باي؟

- تركي ؟

- ربما هو صربيّ، ولكنه يكتب بالألمانية. له كُتيّب حول غزو اليهود للعالم تُرجم إلى العديد من اللغات، ولكنني أظنّ أنّه يحتاج إلى معلومات أكثر لأنّه يعيش من الحملات المعادية لليهود. يقولون إنّ الشرطة السياسيّة الروسيّة أعطته أربعمائة روبية للمجيء إلى باريس لكي يقوم بدراسة معمّقة حول الرابطة الإسرائيلية العالمية، وأنت كنت قد جمّعت بعض الأخبار حول هؤلاء عن طريق صديقك برافمان، حسب ما أذكر.

- قليلاً جداً في الواقع.

- إذن، اختلقْ، قدّمْ شيئاً لعصمان باي هذا، وهو سيعطيك شيئاً.

- كيف أعثر عليه؟

- سيعثر هو عليك.

لم أعد أعمل كثيراً مع إيبوترن، ولكنني كنت أتصل به من حين لآخر. التقينا أمام البوابة الرئيسيّة لنوتردام وسألته عن عصمان باي. يبدو أنّه كان معروفاً عند نصف شرطة العالم.

- لعلّه من أصل يهودي، مثل برافمان وآخرين أعداء لدودين لملّتهم. قصّته طويلة، لقّب نفسه بأسماء عديدة، ميلّينغر أو ملينغن، ثمّ كبريدلي- زاد، وقبل الآن بمدّة كان يقدّم نفسه على أنّه ألبانيّ. وقد طُرِدَ من عدّة بلدان لأمور

مشبوهة، هي في العادة حالات احتيال؛ وفي بلدان أخرى قضى بضعة شهور في السجن. وبدأ يهتمّ باليهود لأنّه تصوّر أنّ ذلك سيدرّ عليه مداخيل لابأس بها. في ميلانو، لا أذكر في أيّة مناسبة، تراجع علناً عن كلّ ما قاله عن اليهود، وبعد ذلك نشر في سويسرا كُتيّبات جديدة معادية لليهود وذهب لبيعها شخصيّاً في مصر. ولكن النجاح الحقيقي حازه في روسيا، حيث ألّف في البداية بعض القصص عن قتل الأطفال المسيحيّين. الآن يهتمّ بالرابطة الإسرائيلية، ولهذا السبب نريد بقاءه بعيداً عن فرنسا. لقد قلت لك مراراً أنّنا لا نريد فتح جدال مع أولئك الناس، ليس في صالحنا، على الأقلّ في الوقت الراهن.

- ولكنه بصدد المجيء إلى باريس، أو أنّه موجود بها.

- أرى أنك الآن أكثر علماً مني. حسناً، إن أردت فراقِبْه، سنعترف لك بهذا الجميل، كالعادة.

وهكذا صار لي دافعان جيّدان لملاقاة عصمان باي هذا، من ناحية لأبيع له ما أمكن لي بخصوص اليهود، ومن ناحية أخرى لأمدّ إيبوترن بمعلومات حول تحرّكاته. بعد أسبوع ظهر عصمان باي ومرّر بطاقة تحت باب الدكان تاركاً عليها عنوان إقامة في حيّ "ماراي".

كنتّ أتصوّر أنّه نهم، وأردت دعوته إلى الـ "الغران ڤيفور" *Grand Véfour*، لتذوّق "محمّر دَجاج مارنغو" *fricassée de poulet Marengo* و "مايونات الدجاج" *les mayonnaises de volaille*، ولكن جرى بيننا تبادل للرسائل، إذ رفض كل دعوة وحدّد لي موعداً ذلك المساء في زاوية ساحة موبير وشارع "ميتر ألبير"؛ حيث سأرى عربة تتوقف هناك وينبغي أن أقترب منها للتعريف بنفسي.

عندما توقفت العربة في زاوية الساحة، برز منها وجه شخص لا أريد أن يعترضني ليلاً في أحد شوارع حَيِّي: الشعر طويل وأشعث، والأنف معقوف، والعين كاسرة، والبشرة في لون التراب، نحيف مثل بهلوان لوّاء مع عرّة عصبية في العين اليسرى.

خاطبني على الفور: - مساء الخير، يا نقيب سيمونيني، ثم أضاف: - في باريس للجدران آذان، مثلما يقولون. لذا فإنّ الطريقة الوحيدة للتحادث بطمأنينة هي التجوّل عبر المدينة. سائق العربة لا يسمعنا من هنا، وحتى إن أراد ذلك فهو أصمّ كالحجر.

وهكذا تواصلت محادثتنا الأولى بينما كان المساء يغلّف المدينة، ومطر خفيف يتقاطر من غلاف الضباب الذي كان يتقدّم ببطء ويكاد يغطّي بلاط الشوارع. بدا لي أن الحوذي تلقى تعليمات بالتوغُّل مباشرةً داخل الحارات الأكثر خلاءً والشوارع الأقلّ ضِياءً. كان بإمكاننا أن نتحادث باطمئنان حتى في "بولفار دي كابوسين"، ولكن عصمان باي كان بكلّ وضوح مغرماً بالمشاهد المسرحيّة.

- باريس تبدو خالية، انظر المارّة، قال لي عصمان باي بابتسامة أضاءت وجهه مثلما يُمكن أن تضيء شمعةٌ جمجمةَ ميّت (ذلك الرجل بوجهه الدميم كان يملك أسناناً جميلة جداً). يتحرّكون مثل أشباح. لعلّهم مع أنوار الصباح سيسارعون للعودة إلى قبورهم.

نفد صبري فقلت ساخطاً: - أثمّن الأسلوب، يذكّرني بأحسن ما كتب بونسون دي تيرّاي، ولكن، ربّما من المستحسن أن نتحدّث في أشياء ملموسة أكثر. على سبيل المثال، ماذا تقول لي عن شخص يُدعى هيبّوليت لوتوستانسكي؟

- إنّه محتال وجاسوس. كان كاهناً كاثوليكيّاً، واضطرّ إلى الرجوع إلى الوضعيّة العلمانيّة لأنه فعل أشياء، كيف يُمكن القول، غير جميلة مع أطفال صغار - وهذا أمر قبيح جدّاً لا يُمكن إلا أن يسيء إلى سمعتك لأنّه، وحقّ الربّ، نعرف أنّ الإنسان ضعيف، ولكن إن كنت كاهناً عليك أن تحافظ على شيء من الهيبة. كحلّ وحيد صار راهباً أرثوذكسيّاً... إنني أعرف جيّداً روسيا المقدّسة لأؤكّد أنّ الشيوخ في تلك الأديرة، النائية كما هي عن الدنيا، يرتبطون بالمبتدئين بعاطفة متبادلة... كيف يُمكن القول؟ أخوية. ولكنني لست دسّاساً ولا أتدخّل في شؤون الغير. أعرف فقط أن ذلك اللوتوستانسكي قبض أموالاً طائلة من الحكومة الروسيّة ليتحدّث عن القرابين البشريّة التي يقوم بها اليهود، الحكاية

المعهودة بخصوص القتل الطقسي للأطفال المسيحيّين. كما لو أنّه كان يعامل الأطفال أفضل منهم. وأخيراً، يقولون إنّه اتصل ببعض الأوساط اليهودية مدّعياً أنّه مقابل مبلغ من المال سيرتدّ عن كلّ ما نشره. لا تتصوّر أنّ اليهود سيخرجون فلساً من جيوبهم. لا، ليس شخصاً جديراً بالثقة.

ثمّ أضاف: - آه، نسيت. إنه مريض بالزُهَري.

قالوا لي إنّ كبار الرواة يصفون أنفسهم دائماً من خلال شخصيّاتهم.

ثمّ استمع عصمان باي بصبر إلى ما كنت أحاول قصّه عليه، ثمّ ابتسم بتفهّم عند وصفي المثير لمقبرة براغ، وقاطعني: - أيها النقيب سيمونيني، هذا بحقّ يبدو أدباً، تماماً مثل الذي كنت تتهمني به. إنني أبحث فقط عن براهين دقيقة حول العلاقات بين الرابطة الإسرائيلية والماسونية، وإن أمكن تفادي نبش الماضي والتحسّب للمستقبل، حول العلاقات بين اليهود الفرنسيّين والبروسيّين. الرابطة قوّة ترمي شبكة من ذهب حول العالم لامتلاك كلّ شيء وكلّ الناس، وهذا الذي يجب التدليل عنه والجهر به. قوى مثل الرابطة وُجدت منذ قرون، حتى قبل الإمبراطورية الرومانية. لذا فهي تعمل، لها ثلاث ألفيّات من العمر. فكّر كيف أنّهم سيطروا على فرنسا بواسطة ذلك اليهودي تيير.

- هل كان تيير يهوديّاً؟

- وهل يوجد من هو ليس يهوديّاً؟ إنّهم حولنا، وراء ظهورنا، يتحكّمون في مُدَّخراتنا، يديرون جيوشنا، يؤثّرون في الكنيسة وفي الحكومات. رشوت موظفاً في الرابطة (الفرنسيّون كلهم فاسدون) وحصلت على نسخ من الرسائل التي أرسلت إلى مختلف اللجان اليهودية في البلدان التي تحدّ بروسيا. اللجان تمتدّ على طول الحدود، وبينما تراقب الشرطة الطرقات الكبرى، يشقّ حاملو أوامرهم الحقول والمستنقعات ومجاري المياه. إنها شبكة عنكبوتيّة واحدة. أبلغت قيصر الروس بهذه المؤامرة وأنقذت روسيا المقدسة. أنا وحدي. إني أحبّ السلام، أريد عالماً يسوده الحِلم حيث لا يفهم أحد معنى كلمة "عنف". لو اختفى من العالم كلّ اليهود، الذين يساندون بأموالهم المتاجرين بالمدافع، سيكون أمامنا قرن من السعادة.

- إذن؟

- إذن ينبغي أن نعتمد يوماً ما الحلّ الوحيد المعقول، الحلّ النهائي: إبادة كلّ اليهود. حتى الأطفال؟ حتى الأطفال. نعم، أعرف ذلك، يُمكن أن تبدو فكرة جديرة بهيرودس، ولكن عندما يتعلّق الأمر ببذر فاسد لا يكفي قطع النبتة، يجب اقتلاعها. إذا كنت لا تريد البعوض، اقتل اليرقان. التركيز على الرابطة الإسرائيليّة لا يُمكن أن يكون إلا فترة انتقال. حتى الرابطة لا يُمكن هدمها إلّا بالإبادة الكاملة للجنس كلّه.

في نهاية تلك الجولة عبر باريس الخالية، عرض عليّ عصمان باي مقترحاً.

- أيها النقيب، ما قدّمته لي قليل جداً. لا تنتظر أن أعطيك أخباراً مهمّة عن الرابطة، التي سأعرف عنها عمّا قريب كلّ شيء. ولكنني أعرض عليك اتفاقاً: بإمكاني أنا أن أراقب يهود الرابطة، ولكن ليس الماسونيّين. إنني قادم من روسيا الصوفية والأرثوذكسيّة، ودون معارف محدّدة في أوساط الاقتصاد والثقافة في هذه المدينة، أنا لا أستطيع اختراق الماسونيّين. هؤلاء يأخذون أشخاصاً مثلك، بالساعة في جيب الصدرية. لن يَصعُب عليك التسلّل داخل تلك الجماعة. يقولون لي إنك تتفاخر بالمشاركة في إنجاز غاريبالدي، وهو ماسونيّ كأفضل ما يكون. إذن: أنت تحدثني عن الماسونيّين وأنا أحدّثك عن الرابطة.

- اتفاق شفوي فقط؟

- بين الأشراف لا حاجة إلى تسجيل هذا كتابيّاً.

# 20
## رُوس؟

12 نيسان/أبريل 1897، الساعة 9 صباحاً

حضرة القَسّ، إنّنا شخصان مختلفان نهائيّاً. لدي الدليل على ذلك.

هذا الصباح - لعلّها الثامنة - استيقظت (في فراشي)، وفي قميص النوم، ذهبت إلى المكتب حينما تراءى لي شبح أسود يحاول الفرار من تحت. وبنظرة واحدة اكتشفت على الفور أنّ أحداً قد بَعْثَرَ أوراقي، فأمسكت بالعصا المسلّحة، التي كانت لحسن الحظ في متناول اليد، ونزلت إلى الدكان. رأيت شبحاً أسود مثل غراب طالع شؤم يخرج إلى الشارع، لاحقته، ولا أدري إن كان لسوء الحظ أو لأنّ الزائر غير المرغوب فيه مهّد تمهيداً جيّداً لفراره، تعثّرت في كرسيّ كان في غير مكانه.

وبعصاي الممدودة سارعت، أَعْرُجُ، إلى الزُّقاق: آه، لم أَرَ أحداً لا على اليمين ولا على اليسار. تمكّن الزائر الملعون من الفرار. ولكنك كنت أنت، بإمكاني أن أقسم على ذلك. والدليل أنني عدت إلى شقتك ووجدت فراشك خالياً.

12 نيسان/أبريل، منتصف النهار

أيها النقيب سيمونيني،

أجيب على رسالتك بعد أن استيقظت لحيني (في فراشي). أقسم لك أنه لا يُمكن أن أكون في بيتك هذا الصباح لأنني كنت نائماً. ولكن ما إن نهضت، وكانت تقريباً

الحادية عشرة، روّعَتني صورة رجل، أنت دون شكّ، يهرب عبر رواق لوازم التنكُّر. وفي قميص النوم لاحقتك إلى شقتك ورأيتك تنزل مثل شبح إلى دكّانك المقرِّز وتنفلت من الباب. تعثّرت أنا أيضاً في كرسيّ، وعندما خرجت إلى رَدْبِ "موبير"، لم أعثر على أحد، ولكنك كنت أنت دون شكّ. قل لي هل أصبتُ، بالله عليك...

12 نيسان/أبريل، أوّل العشيّة

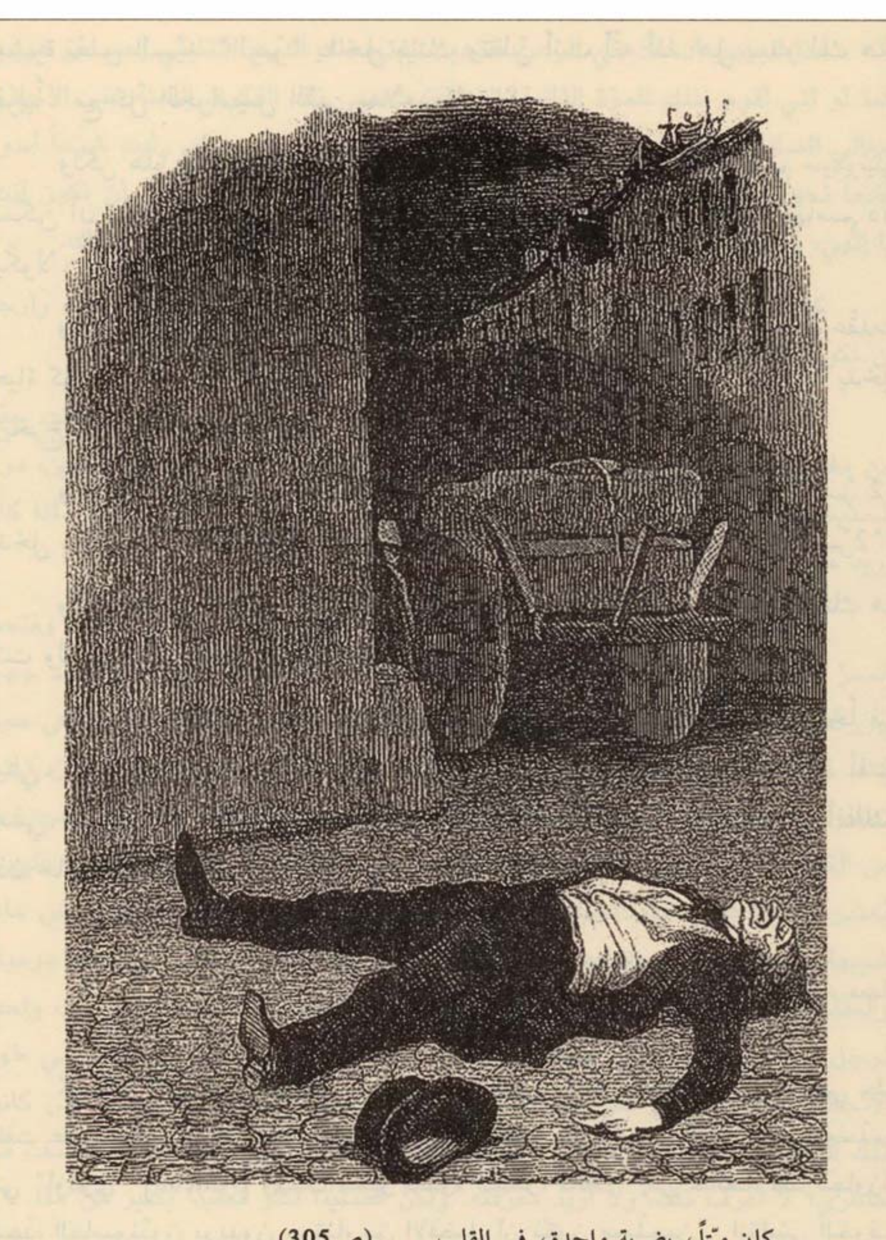
حضرة القَسّ،

ماذا يحدث لي؟ أنا بكلّ تأكيد مريض، فكما لو أنّه يغمى عليّ ثم أستفيق وأجد يوميّاتي تغيّرت بفعل تدخلك. هل إنّنا نفس الشخص؟ فكّر لحظة، باسم العقل السليم، إن لم يكن باسم المنطق: لو أنّنا تلاقينا في نفس الساعة، يكون من المعقول الظن أنّه من جهة تُوجَد أنت ومن جهة أُوجَد أنا. ولكننا عشنا تجربتَيْنا في أوقات مختلفة. لا شكّ في أنني لو دخلت إلى بيتك ورأيت أحداً يهرب لتأكّد لي أنّني لست ذلك الشخص؛ ولكن، أنّ ذلك الآخر هو أنت فذلك يستند إلى قناعة، غير ثابتة، بأنّه في هذا الصباح لم يكن في البيت إلّا نحن الإثنيْن.

وإذا لم يُوجَد هنا غيرنا برزت أمامنا مفارقة. تكون أنت قد جئت للتفتيش بين أمتعتي في الثامنة صباحاً وأنا لاحقتك. ثم أكون أنا ذهبت للتفتيش بين أمتعتك في الحادية عشرة وأنت لاحقتني. ولكن لماذا إذن كلّ منا يتذكّر الساعة واللحظة التي دخل فيها أحد بيته ولا يتذكّر الساعة واللحظة التي دخل فيها هو إلى بيت الآخر؟

يُمكن بطبيعة الحال، أن نكون نسينا ذلك، أو أننا أردنا نسيانه أو سكتنا عنه لسبب ما. ولكن على سبيل المثال، أنا أعرف بكلّ يقين أنني لم أُخْفِ شيئاً. ومن جهة أخرى ففكرة أنّ شخصين مختلفين رغبا في نفس الوقت وبصفة موازية في إخفاء كلّ واحد منهما شيئاً عن الآخر، لعمري فهي تبدو لي من قبيل الرواية الخيالية، وحتى مونتيبان لن يُمكنه أن يصنع حبكة من هذا القبيل.

الأقرب للمعقول هو افتراض أنّ الأشخاص المتدخِّلين ثلاثة. السيّد "السرّ الغامض *Mystère*" يدخل بيتي في أوّل الصباح، وظننت أنا أنّه أنت. وفي الحادية



... كان ميّتاً، بضربة واحدة، في القلب... (ص305)

عشرة نفس السيّد "السرّ" يدخل بيتك وتظنّ أنت أنّه أنا. هل يبدو لك هذا غريباً، مع كلّ الجواسيس الذين يملأون الدنيا؟

ولكن هذا لا يثبت لنا أنّنا شخصان مختلفان. نفس الشخص باسم سيمونيني يُمكن أن يتذكر زيارة "السيّد السرّ" في الثامنة، ثم ينسى ذلك، وباسم دلّا بيكّولا، يتذكّر زيارة "السيّد السرّ" في الحادية عشرة.

وبالتالي فإن القصة كلّها لم تَحُلَّ بتاتاً مسألة هويّتنا. إنها بكلّ بساطة عقّدت حياة كلّ منّا (أو حياة الشخص نفسه الذي هو أنت وأنا) بإقحام ثالث بيننا يدخل ويخرج كما لو أن البيت بيته.

وإذا كنّا أربعة عوض عن ثلاثة؟ "السرّ 1" يدخل بيتي في الثامنة و"السرّ 2" يدخل بيتك في الحادية عشرة. ما هي العلاقات الموجودة بين "السرّ 1" و"السرّ2"؟

ولكن قل لي أخيراً، هل أنت متأكّد تماماً أنّ الذي لاحق "السرّ" بيتك هو أنت ولست أنا؟ اعترف إنّ هذا سؤال وياله من سؤال.

على كلّ حال فأنا أنبّهك. عندي العصا المسلّحة. ما إن ألحظ شبحاً في بيتي، لن أنظر من هو، أسدّد له ضربة. من الصعب أن يكون أنا، وأن أقتل نفسي. بإمكاني أن أقتل "السيد السرّ" (1 أو 2). ولكن بإمكاني أيضاً أن أقتلك. إذن حاذر على نفسك.

12 نيسان/أبريل، مساء

كلماتك، التي قرأتها وكأني أستفيق من خمود طويل، شوّشتني. وكما في حلم طفت على سطح ذاكرتي صورة الدكتور بتّاي (ولكن من يكون؟) الذي أمَدَّني بمسدّس في "أوتوي" [Auteuil] وتحت تأثير نشوة الخمر، قائلاً: "إني خائف، لقد تجاوزنا الحدّ، الماسونيّون يريدون موتنا، من الأفضل أن نكون مسلّحين". انتابني الخوف، بسبب المسدّس أكثر من كونه بسبب التهديد، لأنني كنت أعرف (لماذا لست أدري لماذا؟) أنّه مع الماسونيّين بإمكاني التحاور. وفي اليوم الموالي ألقيت بالمسدّس في درج هنا في شقّة شارع "ميتر ألبير".

هذا العصر أدخلتَ فيّ الرعب، فذهبت لفتح ذلك الدرج. انتابني إحساس غريب، كما لو أني أقوم بذلك للمرّة الثانية، ثم نفضت عني تلك الفكرة. اللعنة على الأحلام. حوالى السادسة مساء قطعت بحذر رواق الأزياء واتجهت إلى بيتك. رأيت شبحاً أسود قادماً نحوي، رجلاً يتقدّم منحنياً، يحمل فقط شمعة صغيرة؛ كان يُمكن أن تكون أنت، يا إلٰهي، ولكنني فقدت الصواب؛ أطلقت الرصاص فسقط عند قدميّ دون حراك.

كان ميّتاً، بضربة واحدة، في القلب. أنا الذي أطلق الرصاص لأول مرّة، وأرجو أن تكون الأخيرة في حياتي. يا للفظاعة.

فتّشت جيوبه: كانت فيها فقط رسائل مكتوبة بالروسية. ثم عندما تحقّقت جيّداً من ملامحه، رأيت أن وجنتيه مرتفعتان وأنّ عينيه مائلتان قليلاً مثل الكلموكيّين، دون الحديث عن شعره الأشقر الذي يكاد يكون أبيض. كان دون شكّ سلافيّاً. ماذا كان يريد مني؟

لم أستطع أن أحتفظ بتلك الجثة في بيتي، فحملتها إلى أسفل في قبوك، وفتحت الممرّ الذي يفضي إلى البالوعة، وهذه المرّة وجدت الشجاعة للنزول، وبجهد جهيد جَرَرْتُ الجسم إلى أسفل عبر السلم، ومجازفاً بالاختناق من النُّتونة، حملته إلى حيث كنت أعتقد أني لن أعثر إلا على عظام ذلك القسّ الآخر دلاّ بيكّولا. ولكن كانت تنتظرني مفاجأتان. الأولى، أن تلك الأبخرة وتلك العفونة التحتيّة، ساهمت بمعجزة ما من الكيمياء، ملكة العلوم في عصرنا الحاضر، في الحفاظ منذ عشرات السنين على ما يُعتبر أنّه جثماني، وقد تحوّل صحيحاً إلى هيكل عظمي، ولكن مع قطع من مادّة شبيهة بالجِلْد، بحيث حافظت على مظهر لا يزال إنسانيّاً، وإن كان في شكل مومياء. والمفاجأة الثانية هي أنني وجدتُ إلى جانب المزعوم دلاّ بيكّولا جثتيْن أخريَيْن، واحدة لرجل في ثوب كهنوتي، والأخرى لامرأة نصف عارية. كانت الجثتان في طور الانحلال، ولكن بدا لي أنني تعرّفت فيهما على شخص سبقت لي معرفته. لمن كانت تلك الجثتان اللتان أحدثتا في فؤادي مثل زوبعة، وصوراً متعذّرة الوصف في خاطري؟ لا أعرف ذلك، ولا أريد معرفته. ولكنّ قصّتيْنا أكثر تعقيداً بكثير من هذا.

الآن لا تقل لي إنّك أنت أيضاً عشت شيئاً مماثلاً. لن أتحمّل هذه اللعبة من الصدف المتقاطعة.

12 نيسان/أبريل، ليلاً

حضرة القسّ، إنّني لا أمضي وقتي في قتل العباد - على الأقلّ، ليس دون داعٍ. ولكنني نزلت للتثبّت في البالوعة، حيث لم أنزل منذ سنين. يا إلٰهي، الجثث هي بالفعل أربعة. واحدة وضعتها أنا، منذ مدّة طويلة، والأخرى وضعتها أنت هذا المساء بالذات، ولكنْ الاثنتان الأخريان؟

من يرتاد بالوعتي ويملأها جُثثاً؟

الروس؟ ماذا يريد الروس مني - منك - منّا ؟

*Oh, quelle histoire!* "يا لها من حكاية!".

# 21

## تاكسيل

**من يوميّات 13 نيسان/ أبريل 1897**

كان سيمونيني يعصر رأسه لمعرفة من دخل بيته - وبيت دلّا بيكّولا. بدأ يتذكّر أنّه منذ بداية الثمانينيات صار يرتاد صالون جوليبت آدم (التي لاقاها في مكتبة شارع "دي بون" على أنّها مدام لامسّين)، وهناك تعرّف على جوليانا ديميتريفنا غلينكا وبواسطتها أمكنه الاتصال براكوفسكي. فإذا دخل أحد بيته (أو بيت دلّا بيكّولا)، فهو متأكّد أنه لحساب واحد من الاثنين، متذكراً الآن أنهما كانا يتسابقان للحصول على نفس الكنز. ولكن مرّت منذ ذلك الوقت قرابة خمس عشرة سنة، مشحونة بأحداث عديدة. منذ متى والرُّوس على أعقابه؟

أم أنهم الماسونيّون؟ ربما فعل شيئاً أثار حفيظتهم، أو لعلّهم كانوا يبحثون في بيته عن وثائق مشبوهة كانت في حوزته. في تلك السنوات حاوَل الاتصال بالأوساط الماسونيّة، سواء لإرضاء عصمان باي أو بسبب الأب برغماسكي الذي ظل يحاصره، لأنهم، في روما، كانوا بصدد شنّ هجوم جبهيّ على الماسونيّة (وعلى اليهود الذين يلهمونها) ويحتاجون إلى مادّة طازجة - وكان لهم منها الشيء القليل حتى إنّ "الحضارة الكاثوليكية" *Civiltà Cattolica*، صحيفة اليسوعيّين، اضطرّت إلى إعادة نشر رسالة جَدّ سيمونيني إلى بارّويل، والتي سبق أن نُشرت قبل ثلاث سنوات من ذلك على "الكونطنبران" *Contemporain*.

كان يعيد تركيب الأحداث: في تلك الفترة كان يتساءل إن كان من الصالح له أن يدخل فعلاً في غرفة ماسونيّة. سيضطرّ إلى الامتثال إلى بعض القواعد وإلى المشاركة في الاجتماعات، ولن يُمكنه الامتناع عن إسداء خدمات إلى الإخوان في الغرفة. كلّ هذا سيحدّ من حريّة عمله. ومن ناحية أخرى، وليس من المستبعد

أن تقوم بعض الغرف، لقبوله، بتحرّيات حول حياته الحالية وحول ماضيه، وهو شيء لا يُمكن أن يسمح به. من الأصلح ربما أن يستعمل التهديد ضدّ ماسونيّ، وأن يستعمله كمُخْبِر. فكاتب عدل حرّر العديد من الوصايا المزوّرة، ولحسن الحظ ذات قيمة كبيرة، لا بدّ وأنّه قد تعرّف على بعض العَلِيّة من القوم المنتمين إلى الماسونية.

وبعد هذا كله، ليس من الضروري حتى استعمال تهديدات واضحة. منذ بضع سنوات قرّر سيمونيني أنّ المرور من مُخْبِر إلى جاسوس دولي درّ له دون شكّ أرباحاً، ولكنها لا ترضي طموحه. العمل كجاسوس يضطرّه إلى عيشة تكاد تكون سريّة، بينما أصبح مع التقدّم في السنّ يحسّ دائماً بازدياد الحاجة إلى حياة اجتماعية ثريّة ومشرّفة. وهكذا تحدّدت له موهبته الحقيقيّة: لن يكون جاسوساً بل سيوهم الجميع بأنه جاسوس، وجاسوس يعمل على طاولات مختلفة، بحيث لا يعرف أحد أبداً لمن يجمع معلومات، وكم يملك من المعلومات.

أن يظنّ الآخرون أنّه جاسوس فقد كان ذلك مربحاً جداً لأنّ الجميع يحاولون الحصول منه عن أسرار يظنّونها فائقة القيمة، وكانوا مستعدّين لدفع أموال طائلة للاستحواذ على بعض أسراره. ولكن بما أنهم كانوا لا يريدون الكشف عن ذلك، فقد استعملوا ذريعة لذلك نشاطه ككاتب عدل، مكافئين خدمته دون تردّد، ما إن يقدّم لهم فاتورة باهظة، مع ملاحظة أنّهم لا يدفعون الكثير فقط لخدمة قانونية تافهة بل دون أن يحصلوا على أيّ معلومة. يظنّون بكل بساطة أنهم اشتروه ويبقون في انتظار صَبُور لبعض الأخبار.

يعتبر الرّاوي أن سيمونيني كان سابقاً للأزمنة الجديدة: في نهاية الأمر، مع انتشار الصحافة الحرّة وأجهزة الاتصال الجديدة، من التلغراف إلى الراديو التي صارت وشيكة، صارت الأخبار السريّة أكثر نُدْرة يوماً بعد يوم، وكان بإمكان هذا أن يحدث أزمة في مهنة المُخْبِر السرّي. الأفضل أن لا تملك أيّ سرّ وأن توهم أنّك تملكه. فهو كأن يعيش المرء من جراية أو من مداخيل براءة: أنت تعيش في راحة بمنزلك، والآخرون يتباهون بأنهم أخذوا منك كشوفات مثيرة، فتزداد شهرتك، وتأتيك النقود دون أن تحرّك إصبعاً.

من الشخص الذي سأتّصل به والذي يُمكن، حتى دون أن يكون قابلاً للابتزاز بصفة مباشرة، أن يخاف الابتزاز؟ الاسم الأوّل الذي خطر بباله كان اسم تاكسيل. تذكّر أنّه تعرّف عليه عندما أنتج له بعض الرسائل (مِن طرف مَن؟ إلى مَن؟) وحدّثه هو ببعض الاعتزاز عن انضمامه إلى غرفة "معبد أصدقاء الشرف الفرنسي" *Le Temple des amis de l'honneur français*. هل كان تاكسيل هو الشخص المناسب؟ لم يكن يريد القيام بخطوة خاطئة وذهب ليطلب معلومات من إيبوترن. كان مباشرُه الجديد، خلافاً للاغرونج، لا يغيّر أبداً مكان لقائه: دائماً في آخر الجناح الأوسط لنوتردام.

سأله سيمونيني ماذا تعرف المخابرات عن تاكسيل. أخذ إيبوترن يضحك قائلا: - في العادة نحن نطلب منك معلومات، لا العكس. هذه المرّة سأساعدك. الاسم ليس غريباً عني، ولكنه لا يعنينا، يعني بالأحرى الشرطة. سأعطيك أخباراً في غضون بضعة أيام.

جاءه التقرير في نهاية الأسبوع وكان دون شكّ هامّ المحتوى: يُقال فيه إنّ ماري جوزيف غابرييل أنطوان جوغان- باجاس، الملقب بليو تاكسيل، وُلد في مارسيليا سنة 1854، ارتاد مدرسة اليسوعيّين وكنتيجة واضحة لذلك بدأ وهو في الثامنة عشرة من عمره يكتب في صحف معادية للكنيسة. في مارسيليا كان يخالط نساء من أوساط فاسدة، من بينهنّ عاهرة حكم عليها باثنتي عشر سنة من الأشغال الشاقة لأنّها قتلت سيّدة البيت الذي كانت تشتغل فيه، وأخرى أوقفوها من بعد بتهمة محاولة اغتيال عشيقها. ولعلّ الشرطة كانت تنسب إليه بسخاء معارف أخرى عرضيّة، وهذا غريب لأنّه يظهر أنّ تاكسيل كان يعمل أيضاً لفائدة العدالة مقدّماً معلومات عن الأوساط الجمهوريّة التي كان يخالطها. ولكن ربما كان رجال الشرطة يجدونه مُحْرِجاً لهم لأنه بلغهم أنه قام بإشهار لحلوى (بون بون) السراي كانت في الحقيقة أقراصاً مثيرة للشهوة. وفي مارسيليا أيضاً سنة 1873 أرسل مجموعة من الرسائل إلى الجرائد اليومية، تحمل كلّها أسماء مزيفة لصيّادين، منبّهاً إلى أنّ الخليج يعجّ بسمك القرش، محدثاً خوفاً كبيراً. بعد ذلك، أُدين من أجل مقالات معادية للدِّين، فهرب إلى سويسرا. وهناك روّج

أخباراً حول وجود بقايا مدينة رومانية في قاع بحيرة ليمان، جالباً جموعاً من السيّاح. ولنشره أخباراً مزيفة ومغرضة تمَّ طرده من سويسرا، فاستقرّ في مونبيليه ثم في باريس حيث أسّس مكتبة معادية للكنيسة في شارع "ديزيكول". ودخل منذ مدّة قصيرة في غرفة ماسونيّة ولكنه طُرد منها لإتيانه بتصرُّف مُسيئ. ويبدو الآن أنّ نشاطه المعادي للكنيسة لا يدرّ عليه أرباحاً مثلما في السابق وأنه مثقل بالديون.

الآن بدأ سيمونيني يتذكّر كلّ شيء عن تاكسيل. كان قد ألّف مجموعة من الكتب كانت، علاوة على معاداتها للكنيسة، معادية تماماً للدين، مثل كتاب عن حياة عيسى ***Vita di Gesù***، مروية من خلال رسوم وقحة (مثلاً حول العلاقات بين مريم وحمامة الروح القدس). وكان قد ألَّف أيضاً رواية ذات ألوان قاتمة، ابن اليسوعي ***Il figlio del gesuita***، تدلّ على أنّ مؤلّفها وغد حقيقي؛ وبالفعل فهي تحمل في الصفحة الأولى إهداء إلى جوزيبي غاريبالدي ("الذي أحبّه كما لو كان أبي")، وإلى هنا لا شيء يؤاخذ عليه، ولكن العنوان يعلن عن "مقدّمة" لجوزيبي غاريبالدي. كان عنوان المقدّمة "أفكار معادية للكنيسة"، وهي عبارة عن قَدْح شَرِس ("عندما أرى أمامي كاهناً، خصوصاً إذا كان يسوعيّاً، فإنّ خُلاصة الكاهن، وكلّ قبح طبيعته تغمرني إلى حدّ أنها تجعلني أرتعد وتحدث فيّ رغبة في التقيّؤ") ولكنه لا يذكر البتّة العمل الذي كان في الظاهر يقدّمه. من الواضح، إذن، أنّ تاكسيل انتزع ذلك النصّ لغاريبالدي لا يدري أحد من أين، وقدّمه كما لو أنّه حُرّر خصّيصاً لكتابه.

مع شخص من هذا القبيل، لم يُرِدْ سيمونيني أن يعرّض نفسه لأيّة مجازفة. لذا قرّر أن يتقدّم إليه على أنه كاتب العدل فورنيي، ولبس شعراً مستعاراً جميلاً، ذا لون غير محدّد، يميل إلى الكستنائي، ممشَّطاً جيّداً مع الفِرْق على الجانب. وأضاف سَبَلَتَيْن من نفس اللون ترسم له وجهاً مستطيلاً، وزاد من شحوبه باستعمال مرهم مناسب. وحاول أمام المرآة أن يرسم على شفتيه ابتسامة ساذجة شيئاً ما، تكشف عن ثنيّتيْن ذهبيّتيْن - بفضل عمل رائع في جراحة الأسنان يمكّنه من تغطية أسنانه الطبيعيّة. وكانت الأسنان المصطنعة من ناحية أخرى تبدّل طريقة نُطْقه وبالتالي تغيّر صوته.



ésus, qui avait le gosier altéré comme les autres, éprouva alors le besoin de faire jouer les ficelles de sa toute-puissance. (Chap. XIX.)

... مثل كتاب في حياة عيسى، مروية من خلال رسوم وقحة (مثلاً حول العلاقات بين مريم وحمامة الروح القدس)... (ص310)

ثمّ أرسل إلى صاحبه في شارع "ديزيكول" رسالة مضغوطة، *petit bleu*، يدعوه فيها في اليوم التالي إلى مقهى ريش Riche. كانت طريقة جيّدة لتقديم نفسه، لأنّه مرّت بذلك المكان شخصيّات كثيرة ذائعة الصيت، وأمام سمك موسى أو حَجلة على طريقة ريش، فإنّ مُحْدَث نعمة *parvenu* يحبّ التبجّح لن يقدر على المقاومة.

كان وجه ليو ممتلئاً ذا جلدة دهنيّة، يعلوه شاربان عظيمان أما جبينه فواسع تعلوه صلعة عريضة كان ينشفها باستمرار من العرق، كان مُفرِطاً شيئاً ما في أناقته ويتكلّم بصوت مرتفع وبلهجة مارسيليّة لا تُطاق.

لم يفهم الأسباب التي من أجلها كان هذا العدل فورنيي يريد التحادث إليه، ولكنه بدأ شيئاً فشيئاً يمنّي نفسه بفكرة أنّه أمام ملاحظ يحدوه حبّ الاطلاع بخصوص الطبيعة البشريّة، مثل الكثيرين من أولئك الذين كان الرواة يسمّونهم "فلاسفة"، مهتمّ بمجادلاته المعادية للكنيسة وبتجاربه الفريدة. لذا تحمّس وهو يقصّ، ممتلئ الفم، إنجازاته الشبابيّة: - عندما أذعت خبر سمك القرش في مرسيليا، كلّ المحلّات الشاطئيّة، من تلك القشتليّة إلى شاطئ برادو هجرها المرتادون طيلة أسابيع عديدة، وقال رئيس البلديّة إن سمك القرش جاء دون شكّ من كورسيكا متّبعاً سفينة ألقت في البحر ببقايا متعفنة من اللحوم المدخّنة، وطلبت اللجنة البلدية جلب فريق من حاملي البنادق للقيام بحملة على متن سفينة جرّ، وجاء منهم فعلاً قرابة المائة تحت أوامر الجنرال إيسبيفان. وقصّة بحيرة جينيف؟ جاء مبعوثون صحفيّون من كلّ أنحاء أوروبا. وقال بعضهم إنّ المدينة المغمورة بالماء شُيّدت زمن حرب الغال، عندما كانت البحيرة من الضيق بحيث أنّ نهر رودان كان يجتازها دون أن تختلط مياههما. وقد جنى أصحاب القوارب أرباحاً مقابل حمل السيّاح إلى وسط البحيرة، وكانوا يلقون الزيت في الماء لتتوضّح الرؤية... وأرسل بولوني، وهو عالم في الآثار، ذائع الصيت إلى بلاده مقالاً يقول فيه إنّه شاهد في القاع شبكة من الطرقات مع تمثال خيّال. إنّ خاصيّة الناس الفريدة هي أنّهم مستعدّون لتصديق كلّ شيء. ومن جهة أخرى كيف كان بإمكان الكنيسة أن تثبت لمدّة تناهز ألفي سنة لولا قابليّة التصديق العامّة؟

طلب منه سيمونيني معلومات عن "معبد أصدقاء الشرف الفرنسي". وسأله:

- هل من الصعب الدخول في غرفة ماسونية؟

- يكفي أن تكون وضعيّتك الاقتصادية جيّدة وأن تستطيع دفع الاشتراكات السنوية، وهي باهظة. وأن تظهر نفسك متقبّلاً للتراتيب الخاصة بالحماية المتبادلة بين الإخوان. أما بخصوص الأخلاقيات، فالحديث عنها كثير، ولكن إلى حدود السنة الماضية كان خطيب المجلس الأكبر للطقوس لا يزال يملك ماخوراً في "شوسّي دونتان"، وأحد الثلاثة والثلاثين الأكبر سلطة في باريس هو جاسوس، أو بالأحرى رئيس مكتب جواسيس، وهو نفس الشيء، ويُدعى إيبوترن.

- ولكن كيف يقع القبول؟

- توجد طقوس. لا تتصوّر! لست أدري إن كانوا يصدقون حقيقة هذا "الصانع الكبير للكون" الذي يتحدّثون دائماً عنه ولكنهم يحملون دون شكّ محمل الجدّ شعائرهم. لا تتصوّر ماذا كان عليّ أن أفعل ليقبلوني مبتدئاً.

وهنا أخذ تاكسيل يروي جملة من الحكايات يقشعرّ لها البدن.

لم يكن سيموניني متأكّداً من أنّ تاكسيل، وهو المتعوّد على الكذب، لا يقصّ عليها خرافات. سأله إن لم يكن يبدو له أنّه كشف أشياء يجدر بتابع أن يُحافظ عنها بغيرة، وأنّه وصف بسخرية كلّ الشعائر. فأجاب تاكسيل بعدم اكتراث: - آه، اعلم أنّني لست مطالَباً بأيّ واجب نحوهم. أولئك الأغبياء طردوني.

يبدو أنّه شارك بطريقة ما في جريدة جديدة، "الميدي ريبوبليكان" *Le midi républicain*، التي صدرتْ في مونبولييه ونشرت في عددها الأوّل رسائل تشجيع ومساندة من طرف شخصيّات مرموقة، من بينها فيكتور هوغو ولويس بلان. ثم، فجأة، أرسل أصحاب تلك الإمضاءات المزعومة رسائل إلى صحف أخرى ذات نزعة ماسونيّة نافين تلك المساندة ومتشكّين من الاستعمال اللاشرعي لأسمائهم. وانجرّت عن ذلك محاكمات عديدة في الغرفة الماسونية، حيث تمثّلت مدافعة تاكسيل، أوّلاً، في إبراز أصول تلك الرسائل، ثانياً، في تفسير سلوك هوغو بأنه

ناتج عن تخريف الشيخ الجليل - وهكذا أفسد الحجّة الأولى بشتم غير مقبول في حقّ أحد أمجاد الوطن والماسونية.

ها هوذا. الآن تذكّر سيمونيني زمن أن صنع، وهو سيمونيني، الرسالتيْن باسم هوغو وبلان. بطبيعة الحال نسي تاكسيل هذه الحادثة: كان من تعوّده على الكذب، حتى على نفسه، يتحدّث عن تينك الرسالتيْن بعينيْن تسطع فيهما حسن النيّة، كما لو كانتا حقيقيّتيْن. وحتى إن تذكّر من بعيد موثّقاً باسم سيمونيني، فهو لم يربط بينه وبين الموثّق فورنيي.

ما يهمّ هو أنّ تاكسيل كان يُكِنّ حقداً عميقاً لزملائه السابقين في الغرفة.

أدرك سيمونيني على الفور أنّه بتشجيع مَيْل تاكسيل على الاختلاق، سيجمّع مادّة مثيرة لعصمان باي. ولكن انبثقت في فكره المتّقد جدّاً فكرة أخرى، كانت في البداية لا تعدو أن تكون انطباعاً، أو نواة تسكن خاطره، ثم صارت مخطّطاً يكاد يكون متكاملاً في كلّ تفاصيله.

بعد اللقاء الأوّل الذي بدا فيه تاكسيل محبّاً للأكل، دعاه الموثّق المزيّف إلى "بير لاتويل"، وهو مطعم صغير شعبيّ عند حاجز "كليشي"، حيث يقدّمون طبقاً مشهوراً من الدجاج المحمّر، والطبق المعروف أكثر من الكَرْش على طريقة أهل "كان" [Caen] ـ دون الحديث عن قبو الخمر ـ وبين لقمة وأخرى سأله إن كان يقبل، مقابل أجر محترم، أن يكتب لأحد الناشرين مذكّراته كعضو سابق في الماسونية. ما إن سمع كلمة أجر حتى تحمّس تاكسيل كثيراً للفكرة. حدّد له سيمونيني موعداً آخر، وذهب لفوره لمقابلة الأب برغماسكي.

- اصغ إليّ يا أبتِ، قال له. لدينا هنا، تحت أيدينا، مناهض للكنيسة لا يُرْجى منه شفاء، لم تعد كتبه المناهضة للكنيسة تدرّ عليه مداخيل مثلما في السابق. ولدينا أيضاً واحد يعرف عالم الماسونيّة وهو يحقد الآن على ذلك العالم. يكفي أن يعتنق تاكسيل الكاثوليكية، وأن يتنكّر لكلّ كتاباته المعادية للكنيسة، ويبدأ في فضح كلّ أسرار العالم الماسوني، وستربحون أنتم اليسوعيّين بروبغانديّاً لا يرحم في خدمتكم.

- ولكن لا يعتنق أحد ديانة بين يوم وآخر، فقط لأنك طلبت منه ذلك.

- حسب رأيي مع تاكسيل، المسألة كلها مسألة نقود. ويكفي تحريض نزعته إلى ترويج أخبار زائفة، لكي يغيّر جبّته دون أن ينتظر أحد ذلك، والتلميح إلى أنه سيكون على الصفحة الأولى في الصحف - ماذا كان يُدعى ذلك الإغريقي الذي أحرق معبد ديانا في إيفيزو كي يتحدّث عنه الجميع؟

- إيروستراتوس. دون شكّ، دون شكّ، أجاب برغماسكي وهو شارد الذهن. ثم أضاف: - وبعد هذا كله، فإنّ سبل الإله لامتناهية...

- بِكَم يُمكن مكافأته لاهتداء جليّ؟

- بعد القول: إنّ الهداية الصادقة يجب أن تكون خالصة لوجه الله، *ad majorem Dei gloriam*، لا يجب أن نكون مقتّرين. لا تعرض عليه مع ذلك أكثر من خمسين ألف فرنك. سيقول إنّ ذلك قليل، ولكن ٱلْفُت انتباهه إلى أنّه إضافة إلى نجاة الروح، التي لا يعلو عليها شيء، فإنّه سيتاح له إلى جانب ذلك عندما سيكتب أهاجي ضدّ الماسونية استعمال نظامنا التوزيعي، وهذا يعني مئات الآلاف من النسخ.

لم يكن سيمونيني متأكّداً من أنّ المشروع سيتحقّق، وهكذا ذهب توقّياً لكل مفاجأة إلى إيبوترن وقصّ عليه أنّه توجد مؤامرة يسوعيّة لإقناع تاكسيل كي يصبح معادياً للماسونية.

- ليت هذا كان صحيحاً، قال إيبوترن، لمرّة واحدة تتطابق آرائي مع آراء اليسوعيّين. انظر يا سيمونيني، إني أتحدّث إليك باعتباري صاحب مقام، وليس الأدنى، في "الشرق الأكبر"، الماسونية الوحيدة والحقيقيّة، اللائكيّة، والجمهوريّة، وحتى إن كانت معادية للكنيسة، فهي ليست معادية للدين، لأنها تعترف بـ"خالق أعلى للكون" - وكلّ واحد حرّ في التعرّف عليه على أنه الرَّبّ المسيحي أو على أنه قوّة كونية غير مشخّصة. ووجود ذلك البهلوان تاكسيل في صفوفنا لا يزال يخجلنا، حتى وإن تمَّ طرده. ومن ناحية أخرى لا يُسيئنا أن يشرع مرتدّ في قول أشياء عن الماسونيّة هي من الفظاعة بحيث لا يُمكن أن يصدقها أحد. نحن ننتظر مهاجمة من الفاتيكان، ونتصوّر أنّ البابا لن يتصرّف كرجل

شريف. العالم الماسوني مُلَوَّث بعقائد مختلفة، لقد أحصى مؤلّف مثل راغون قبل الآن بسنوات عديدة 75 ماسونيّة مختلفة، 52 طقساً، 34 نظاماً منها 26 خنثويّة و1400 درجة شعائريّة. وبإمكاني أن أحدّثك عن ماسونية فرسان الهيكل والماسونية الاسكتلنديّة، وطقس هيريدوم، وطقس سويدنبورغ، وطقس ممفيس ومصرايم، الذي أسّسه ذلك الوغد والمحتال كاليوسترو، وكذلك عن رؤساء وايشبوت المجهولين، وعن الشيطانيّين، والإبليسيّين أو البلاديّين كيفما أردنا تسميتهم، أنا أيضاً أتِيه وسطها. الطقوس الشيطانية المختلفة بالخصوص هي التي تشوّه سُمْعتنا، وساهم في تشويهها أيضاً بعض إخواننا المحترمين، ربما فقط بدوافع جماليّة بحتة، دون إدراك الضرر الذي يلحقنا. ربما كان برودون قد التحق بالماسونيّة لوقت قصير، ولكن منذ أربعين سنة مضت كتب صلاة إلى إبليس: "لبيك يا إبليس، لبيك أنت الذي افترى عليك الكهنة والملوك، اتركني أحضنك وأضمّك إلى صدري"؛ وذلك الإيطالي، رابيساردي، ألّف "لوتشيفيرو" *Lucifero*، والذي هو في نهاية الأمر أسطورة بروميثيوس المألوفة، ورابيساردي ليس حتى ماسونيّاً، ولكنَّ ماسونيّاً مثل غاريبالدي رفعه عالياً إلى السماء، وها إنّه صار الآن حقيقة مثل الإنجيل أنّ الماسونيّين يعبدون إبليس. البابا بيوس التاسع لم يكف مرّة عن العثور، عند كلّ خطوة على الشيطان وراء الماسونية، ومنذ زمن، كتَب ذلك الشاعر الإيطالي، كاردوتشي، نصف جمهوري ونصف ملكي، مغرور كبير وياللأسف ماسوني كبير، نشيداً للشيطان، ناسباً إليه حتى اختراع السكك الحديديّة. ثم قال كاردوتشي بعد ذلك إنّ الشيطان استعارة، ولكن ها إنّ عبادة الشيطان بدت من جديد التسلية الرئيسيّة للماسونيّين. باختصار، في بيئتنا لا يزعجنا أنّ شخصاً معروفاً لدى الجميع فقد منذ زمن مصداقيته، قد طُرد من الماسونية، وأن شخصاً مشهوراً بتقلّب الرأي، يبدأ كتابة سلسلة من النصوص الهجائيّة تثلبنا بكثير من العنف. ستكون طريقة لكسر شوكة الفاتيكان، بدفعه إلى الوقوف إلى جانب إباحي. اتّهم إنساناً بجريمة وسيصدّقك ربما الآخرون، اتهمه بأنه يأكل أطفالاً في الفطور وفي العشاء مثل جيل دي ري ولن يأخذك أحد محمل الجدّ. اجعل مناهضة الماسونية تنزل إلى مستوى رواية أو مسلسل روائي وستجعل منها موضوع إشاعات. حسناً، نحتاج إلى أشخاص يدفنوننا في الوحل.

من هذا نرى أنّ إيبوترن كان أقوى عقلاً، أقوى من حيث المكر حتى من سابقه لاغرونج ذاته. آنذاك لم يكن يعرف مقدار ما سيُمكن للـ"شرق الأكبر" أن يوظّف في تلك العمليّة، ولكنه خلال بضعة أيام عاد من جديد: - مائة ألف فرنك. ولكن على أن يتعلّق الأمر فعلاً بسيل من القاذورات.

وهكذا أصبح سيمونيني يتصرّف في مائة وخمسين ألف فرنك لشراء القذارة. لو أنه عرض على تاكسيل، خمسة وسبعين ألف فرنك فقط، إضافة إلى الوعد بطبع النسخ، في الوضعية المالية الحرجة التي يوجد فيها فإنّه سيقبل على الفور. خمسة وسبعون ألفاً ستبقى لسيمونيني. سمسرة بالخمسين في المائة شيء جميل حقّاً.

باسم من سيذهب لتقديم العرض لتاكسيل؟ باسم الفاتيكان؟ الموثق فورنيي لا يبدو عليه أنّه مفوّض بابويّ. بإمكانه على الأكثر أن يخبره بزيارة شخص مثل الأب برغماسكي، في نهاية الأمر الكهنة هم هناك لكي يلجأ لهم الشخص طلباً للهداية وللاعتراف بماضيه المشبوه.

ولكن هل يجب، بخصوص الماضي المشبوه، أن يثق سيمونيني بالأب برغماسكي؟ لا يجب ترك تاكسيل في أيدي اليسوعيّين. لقد سبق أن شُوهد مؤلّفون مُلْحِدون يبيعون مائة نسخة من كلّ كتاب، وعندما ركعوا أمام المذبح وقصّوا تجربة هدايتهم، مرّوا إلى ألفين أو ثلاث آلاف نسخة. في نهاية الأمر، كان المعادون للكنيسة يُحسبون من بين جمهوريّي المدن، أمّا السانفيديّين، أي المتديّنين الرجعيّين، الذين يحلمون بالزمن العزيز الماضي، بالملوك والكهنة، فإنهم يملأون الأرياف وحتى إن استثنينا أولئك الذين لا يعرفون القراءة (ولكن سيقرأ الكاهن لهم)، هم جيوش، مثل الشياطين. باستبعاد الأب برغماسكي، يصبح من المستطاع اقتراح مشاركة على تاكسيل بخصوص أهجياته الجديدة، وهو أن يوقع وثيقة خاصة يقرّ فيها لمن يشاركه بوجوب أداء عشرة أو عشرين بالمائة من نشر أعماله القادمة.

سنة 1884، سدّد تاكسيل الضربة القاضية لمشاعر الكاثوليكيّين الطيّبين

بنشر "المغامرات الغرامية لبيو التاسع"، ملقياً بالوحل على بابا كان قد مات. في العام نفسه نشر البابا الجالس على الكرسي ليوني الثالث عشر الرسالة البابويّة *Humanum Genus*، التي كانت "إدانة للنسبيّة الفلسفيّة والأخلاقية للماسونية". وكما أنّ البابا نفسه كان قد "أبرز بطريقة ساطعة" في الرسالة *Quod Apostolici Muneris*، أخطاء الاشتراكيّين والشيوعيّين، فها هو الآن يوجّه إدانته مباشرةً إلى المجتمع الماسونيّ في جملة مذاهبه، كاشفاً عن الأسرار التي تُخضع أتباعه وتجعلهم مستعدّين للقيام بكلّ الجرائم، لأنّ " هذا الخداع المستمرّ، وهذه الإرادة في البقاء في الخفاء، وهذ التقييد العنيد للناس، كما لو كانوا عبيداً أذلّاء، بإرادة الغير لغاية هم لا يعرفونها جيّداً، واستغلالهم كأداة عمياء لكلّ الأغراض، مهما كان شرّها، وتسليح يُمناهم القاتلة، ودفعهم إلى الجريمة دون خوف من العقاب، لهي إفراط تتقزّز له الطبيعة أيّما تقزّز". دون الحديث بطبيعة الحال عن طبيعيّة مذاهبهم ونسبيّتها، والتي تجعل من العقل الإنساني الحكَم الوحيد لكلّ شيء. وَلْنَرَ نتيجة هذا النوع من الادّعاءات: البابا مسلوب من سلطته الزمنيّة، ومشروع مَحْق الكنيسة، وجعل الزواج مجرّد عقد مدني، وانتزاع تربية الشباب من رجال الكنيسة لتصبح في يد معلّمين علمانيّين، وتعليم الناس أنّ "لكلّ البشر نفس الحقوق، وأنهم متساوون مساواة كاملة؛ وأنّ كل إنسان، هو بطبيعته، مستقلّ؛ وأنّ لا أحد له الحق أن يتحكّم في غيره؛ وأن جعل البشر خاضعين لسلطة أخرى، خارجة عن أنفسهم، يعتبر استبداداً". بحيث إن "مصدر كل الحقوق وكل الواجبات المدنية، في نظر الماسونيّين، هو الشعب، أي الدولة" والدولة لا يُمكن أن تكون إلّا ملحدة.

كان من الواضح أنّ "من دون خشية اللّه واحترام الشرائع الإلٰهية، وبدوس سلطة الأمراء، وبتحرير وتبرير شهوة التمرّد، وفكّ قيود الأهواء الشعبية، وبغياب كلّ احتراس لانعدام أيّ عقاب خارجي، لا يُمكن إلّا أن تتبع ثورة وتمرّد شاملان. . . وهو الهدف المضمر والنية المعلنة للجمعيات العديدة الشيوعيّة والاشتراكية: وهي أفكار لا يُمكن أن تكون غريبة عن الطائفة الماسونيّة".

الأخبار عن اهتداء تاكسيل يجب أن تظهر في أقرب وقت.

عند هذا الحدّ بدا على يوميّات سيمونيني علامات التشويش والاضطراب.

كما لو أنّ صاحبنا لم يعد يتذكّر كيف ومن قام بهداية تاكسيل. كما لو أنّ ذاكرته قامت بقفزة تسمح له بالّا يتذكّر سوى أنّ تاكسيل أصبح في ظرف بضع سنوات حامل الراية الكاثوليكيّة ضدّ الماسونية. بعد أن أعلن للعالم، *urbi et orbi*، عودته إلى أحضان الكنيسة، نشر المارسيلي في البداية "الإخوة ثلاث نقط" *Les frères trois points* (النقاط الثلاث تناسب الدرجة الماسونية الثالثة والثلاثين) ثمّ "أسرار الماسونية" *Les mystères de la Franc-Maçonnerie* (مع شهادات مأساويّة لاستحضارات شيطانيّة وطقوس مريعة) وبعد ذلك فوراً نشر "الأخوات الماسونيّات" *Les sœurs maçonnes*، يتحدّث فيه عن الغرف الماسونيّة النسائيّة (إلى ذلك الحين مجهولة) - وبعده بسنة "الماسونية بدون قناع" *La Franc-Maçonnerie dévoilée*، وكذلك أيضاً "فرنسا الماسونية" *La France Maçonnique*.

كان يكفي منذ هذه الكتب الأولى وصف شعائر التكريس ليقشعرَّ بدن القارئ. كان تاكسيل قد دُعي للساعة الثامنة مساء في البيت الماسوني، واستقبله أخ بَوّاب. في الثامنة والنصف وقع عزله في "مقصورة التأمّل"، وهي فضاء صغير جدرانه مطلية بالأسود، رُسمت فوقها جماجم مع ظُنْبوبيْن متقاطعيْن، وكتابة من نوع "إذا كان الفضول الباطل هو الذي جاء بك، ارحل". وفجأة تضاءل نور المصباح الغازي، وانزاح جدار مزيّف عبر شقوق مخفية في الحائط، كاشفاً للزائر عن فضاء تحت أرضيّ تضيئه مصابيح جنائزية. ورأس إنسان، قُطع منذ قليل، كان موضوعاً على جذع فوق أقمشة ملطخة بالدم، وبينما كان تاكسيل يتراجع مروّعاً، صاح به صوت كأنه خارج من الجدار: - ارتعد، أيها المبتدِئ. إنك ترى رأس أخ حَنَث بالوعد وأفشى أسرارنا...

لاحظ تاكسيل بطبيعة الحال، أن الأمر مجرّد خدعة، والرأس هو دون شكّ رأس أحد الرفاق كان مختفياً داخل الجذع الفارغ. وكانت المصابيح مجهّزة بفتيلة مشربة بالكحول المُكَوْفَر يحترق مع ملح غليظ خام، وهذا الخليط كان يُسمّيه مشعوذو المعارض "الخلطة الجهنميّة"، وعندما تشتعل تبعث بنور مخضرّ يضفي على رأس المقتول المزيّف لون جثّة. ولكن بخصوص شعائر تكريس أخرى عَلِم بوجود جُدْران مصنوعة من مرايا مضبّبة يرسل مصباح سحري على سطحها، في




... نشر المارسيلي في البداية Les frةres trois-points (النقاط الثلاث تناسب الدرجة الماسونية الثالثة والثلاثين) ثمّ Les mystةres de la Franc-Ma5onnerie (مع شهادات مأساوية لاستحضارات شيطانيّة وطقوس مريعة)... (ص319)

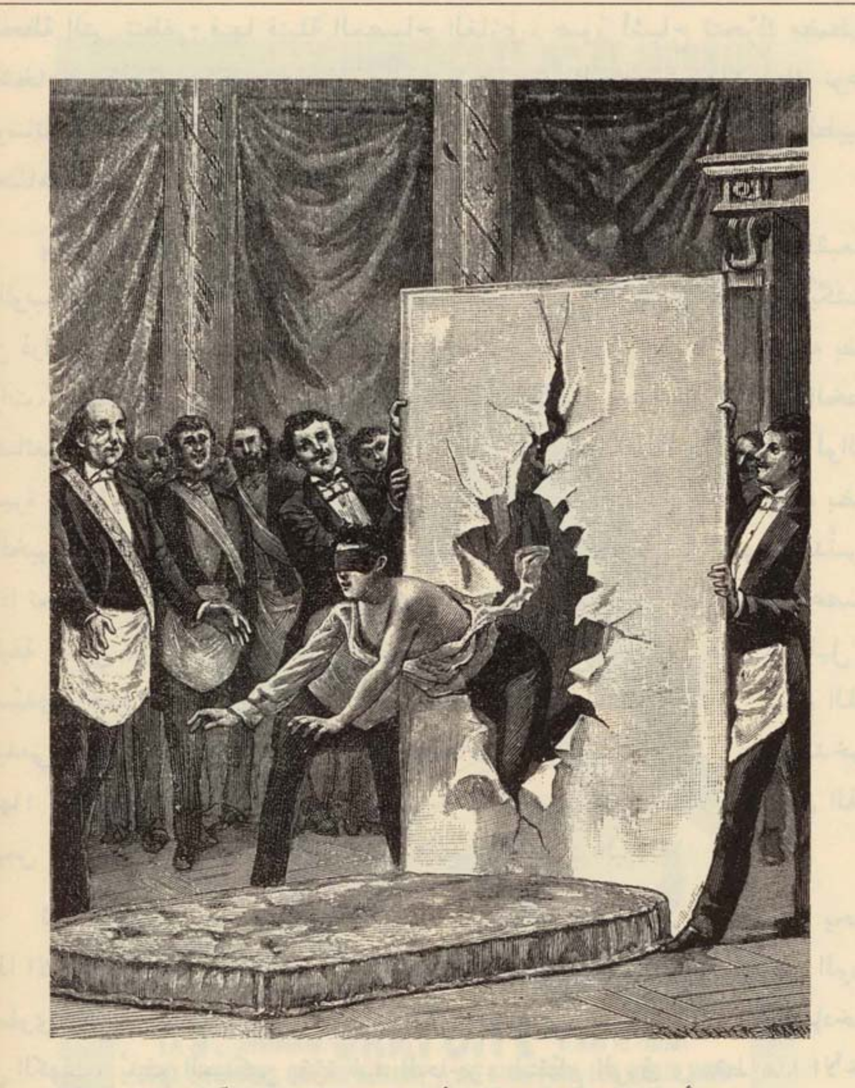
اللحظة التي تنطفئ فيها فتيلة المصباح الغازي، صورَ أشباح تتحرّك مضطربة وأشخاص مقنّعين يحيطون برجل مسلسَل ويطعنونه بالخناجر. وهذا يريك نوعية الوسائل الحقيرة التي تحاول الغرفة الماسونية مغالطة المبتدئين ذوي الطبيعة الحسّاسة.

بعد ذلك يهيِّئ من يُدعى بـ"الأخ الرهيب" المبتدِئ، فينزع عنه القبعة، والثوب والحذاء الأيمن، ويطوي سروال الساق اليمنى إلى فوق الركبة، ويكشف عن ذراعه وعن الصدر من جهة القلب، ويعصب عينيه، ثم يُديرُه على نفسه بضع مرّات، وبعد دفعه إلى الصعود والنزول سلالم مختلفة، يحمله إلى "قاعة الخطى الضائعة". وينفتح باب بينما يحاكي "أخ خبير"، بواسطة أداة متكوّنة من لوالب كبيرة صارّة، صوت أقفال ضخمة. ويُدخلون المبتدِئ إلى قاعة حيث يضع "الخبير" على صدره العاري طرف السيف ويسأله "الجليل": "أيها المدنَّس، ماذا تحسّ على صدرك؟ ماذا يوجد على عينيك؟" ويجيب المبتدئ: "عصابة كثيفة تغطي عينيّ، وأحسّ على صدري طرف سلاح". فيقول له "الجليل": "سيّدي، هذا الحديد المرفوع دائماً، لمعاقبة الحانث، إنّه رمز الندم الذي سيدمي قلبك، إذا ما صرت، لسوء حظك، خائن الجمعيّة التي تريد الدخول فيها؛ والعصابة التي تغطي عينيك هي رمز العمى الذي يعيشه الإنسان الذي تهيمن عليه الأهواء والغارق في الجهل وفي المعتقدات الباطلة".

ثمّ يمسك أحدهم بالمبتدئ، ويديره على نفسه مرّات أخرى، وعندما يحسّ هذا الأخير بالدوران، يدفعه أمام حاجز متكوّن من طبقات عديدة من الورق المقوى، شبيه بالدوائر التي تقفز وسطها الخيول في السيرك. عند الأمر بإدخاله في الكهف، يُدفع المسكين بقوّة ضدّ الحاجز، فيتقطّع الورق ويسقط هذا الأخير فوق حشيّة موضوعة في الجهة الأخرى.

دون الحديث عن "السُلَّم اللامتناهي" الذي هو في الواقع ناعورة، ومن يصعد فوقها معصب العينين يجد دائماً درجة جديدة يصعد فوقها، ولكن السُلَّم يدور دائماً نحو الأسفل ولذا فإن المعصّب يبقى دائماً على نفس المستوى.

باختصار، يذهبون إلى حدّ إيهام المبتدئ بأنهم سيخضعونه لعملية استنزاف



... عند الأمر بإدخاله في الكهف، يُدفع المسكين بقوّة ضدّ الحاجز، فيتقطّع الورق ويسقط هذا الأخير فوق حشيّة موضوعة في الجهة الأخرى...

(ص321)

دمه والوَشْم بالنار. بخصوص الدم يمسكه "الأخ الجرّاح" من ذراعه، ويخزّه بما يكفي من القوّة بطرف مسواك بينما يُسيل أخ آخر خيطاً رقيقاً جداً من الماء الدافئ على ذراع المبتدئ فيظنّ هذا الأخير أنّ ما يسيل هو دمه. وبخصوص الحديد الحامي، يحكّ أحد الإخوان "الخبراء" بقطعة قماش جاف جزءاً من الجسم ثم يضع فوقه قطعة من الجليد، أو الجزء الساخن من شمعة، أو قاع كأس كحول مسخّن بحرق الورق بداخله. أخيرا يُعلِّم "الجليل" المبتدئ العلامات السريّة والحركات الخصوصيّة التي يتعرّف بها الأخوان بعضهم على بعض.

الآن، تذكّر سيمونيني هذه الأعمال لتاكسيل كقارئ، وليس كمُلْهَم. ومع ذلك فقد كان يتذكّر أنّه، عند كلّ عمل جديد، وقبل أن يُنشر، كان هو (بما أنه يعرفه مسبقاً) يقصّ فحواه على عصمان باي، كما لو كانت كشوفات خارقة للعادة. صحيح أنّ عصمان باي يلفت في المرّة الموالية انتباهه إلى أنّ كلّ ما قصّه عليه في المرّة السابقة ظهر بعد ذلك في كتاب لتاكسيل، ولكن لم يكن يصعب على سيمونيني الجواب بالإيجاب، وأنّ تاكسيل كان مُخْبِره، وليست غلطته إن هو بعد إخباره بالأسرار الماسونية حاول استغلالها اقتصاديّاً بنشرها في كتاب. يجدر بالأحرى مكافأته كي لا يكشف أسرار تجاربه للعموم - وعند قول ذلك كان سيمونيني ينظر إلى عصمان باي نظرة ذات معنى. ولكن عصمان باي أجابه أنّ المال الذي سيُدفع لإسكات ثرثار سيُدفع عبثاً. لماذا سيسكت تاكسيل عن تلك الأسرار بالذات التي كشفها؟ وكان عصمان باي، لقلّة ثقته المبرّرة، لا يعطي في المقابل لسيمونيني أيّ معلومة عما كان يكتشفه بخصوص "الرابطة الإسرائيليّة".

لذا كفّ سيمونيني عن إعلامه. ولكن الإشكال، قال سيمونيني لنفسه أثناء تحرير يومياته، هو: لماذا أذكر أني أعطي إلى عصمان باي أخباراً حصلت عليها من تاكسيل ولكني لا أذكر شيئاً من اتصالاتي بتاكسيل؟

سؤال محيّر. لو أنّه تذكّر كل شيء لما جلس هنا يكتب ما كان يعيد تركيبه. "يا لها من حكاية!" *Quelle histoire!*

بعد هذا التعليق الحكيم ذهب سيمونيني للنوم، مستيقظاً إبَّان ما اعتقد أنه صبيحة اليوم الموالي، مبلَّلاً بالعرق كمن قضى ليلة يقاسي الكوابيس وأوجاع المعدة. ولكنه عندما ذهب إلى مكتبه تفطّن إلى أنّه لم يستيقظ في اليوم الموالي بل بعد يومين. وبينما كان نائماً لا ليلةً واحدة بل ليلتيْن مضطربتيْن، كان دلّا بيكّولا لا يكتفي بنثر الجثث في بالوعته الخاصّة، بل يتدخّل لرواية أحداث كان هو بطبيعة الحال لا يعرفها.

# 22

## الشيطان في القرن التاسع عشر

14 نيسان/أبريل 1897

حضرة النقيب سيمونيني،

مرّة أخرى: حيث تتشوّش أفكارك، تستيقظ عندي ذكريات حيّة.

إذن، يبدو لي أني أُلاقي اليوم للمرة الأولى السيد إيبوترن وبعده الأب برغماسكي. ذهبتُ باسمك لتسلّم المبلغ الذي يجب (أو من المفروض) أن أعطيه لـ ليو تاكسيل. ثمّ، وهذه المرّة باسم الموثِّق فورنيي، ذهبت لملاقاة ليو تاكسيل.

قلت له: – سيّدي، لا أريد استعمال ثوبي درعاً لدعوتك إلى الاعتراف بذلك المسيح الذي تسخر منه، وإن كان مآلك الجحيم فذلك لا يحرّك فيّ شعرة واحدة. لست هنا لأعدك بالحياة السرمديّة، أنا هنا لأقول لك إنّ مجموعة من المنشورات التي ستدين الجرائم الماسونية ستجد جمهوراً من العقلاء والمحافظين على التقاليد لا أتردّد في القول إنّه واسع جداً. ربما لا تتصوّر الفوائد التي تحصل لكتاب تسانده كلّ الأديرة، وكلّ الكنائس، والأسقفيات، لا الفرنسية فحسب، بل على المدى الطويل في العالم أجمع. ولكي تتحقّق أنّني لم أجئ هنا لهدايتك بل لأجعلك تربح أموالاً، سأقول لك على الفور ما هي طلباتي المتواضعة. يكفي أن تمضي وثيقة تضمن لي أنا (أي إلى الجمعية التقية التي أمثلها) عشرين بالمائة من حقوقك الآتية، وسأجعلك تلتقي بمن يعرف، من أسرار الماسونية، أكثر ممّا تعرف أنت.

أتصوّر، أيها النقيب سيمونيني، أنّنا اتفقنا على أنّ العشرين بالمائة المذكورة من حقوق تاكسيل سنتقاسمها بيننا نحن الاثنين. وكرأس مال دون استرجاع قدّمت له العرض الآخر: – هناك أيضاً خمسة وسبعون ألف فرنك لك، ولا تسألني من أين جاءت، لعلّ ثوبي يوحي لك بذلك. خمسة وسبعون ألف فرنك هي لك، قبل أن تبدأ، على أساس الثقة، يكفيك أن تعلن غداً هدايتك على الملأ. من هذه الخمسة وسبعين ألف

فرنك، أقول خمسة وسبعين ألفاً، لستَ ملزَماً بدفع أيّ نسبة، لأنك معي ومع من أرسلني تتعامل مع أشخاص يعتبرون المال وسخ الشيطان. عدّها: إنها خمسة وسبعون ألف فرنك.

أرى المشهد أمام عينيّ، كما لو أني أنظر إلى صورة فوتوغرافية داغرية.

خامرني فوراً الإحساس بأن تاكسيل لم يكن مهتمّاً فقط بالخمسة وسبعين ألف فرنك وبالوعد بالحقوق الآتية (حتى وإن لمعت عيناه عند رؤية النقود على الطاولة) بقدر ما راقت له فكرة القيام بتحوّل بثلاثمائة وستين درجة وأن يُصبح، هو المناهض العنيد للكنيسة، كاثوليكيّاً متحمّساً. كان يتذوّق مسبقاً مفاجأة الغير، والأخبار التي ستظهر عنه في الصحف. أفضل بكثير من اختلاق مدينة رومانية في قاع بحيرة ليمان.

كان يضحك بحبور، ويتصوّر مشاريع الكتب القادمة، بما فيها الأفكار المتعلّقة بالرسوم.

قال لي: - آه، تتراءى لي منذ الآن دراسة كاملة، أكثر روائيّة من رواية، حول أسرار الماسونية. أرى بافوميتّو مجنّحاً على الغلاف، ورأساً مقطوعاً، تُذَكِّر بطقوس الهيكليّين الشيطانية... وحقّ الربّ (اعذرني يا حضرة القَسّ)، سيكون خبر الساعة. على كلّ، رغم ما تقوله كتبي الرديئة، كوني سأصبح كاثوليكيّاً، ومؤمناً، في علاقات طيّبة مع الكهنة، لهو شيء جدير جدّاً بالاحترام، حتى بالنسبة إلى عائلتي وإلى الجيران، الذين غالباً ما ينظرون لي كما لو أني كنت أنا الذي صلبتُ سيّدنا يسوع المسيح. ولكن، مَن قلت إنّه قادر على مساعدتي؟

- سأجعلك تلتقي بعرّافة، مخلوقة تقصّ عندما تكون في حالة تنويم أشياء لا تُصدّق عن الطقوس البلاّديّة.

* * *

المنجمّة هي دون شكّ ديانا فوغن. بدوتُ كما لو كنت أعرف عنها كلّ شيء. أذكر أني ذهبت صباح يوم إلى فانسان، كما لو كنت أعرف عنوان مصحّة الدكتور دي موريي. كانت المصحّة عبارة عن دار غير كبيرة، بحديقة صغيرة ولكنها جميلة،

يجلس فيها بعض المرضى يبدو عليهم ظاهرياً الهدوء، مستمتعين بالشمس ومتجاهلين بخمول بعضَهم البعض.

قدّمت نفسي إلى دي موريي مذكّراً إيّاه أنّك حدّثته عني. أشرتُ في حديثي معه بغُموض إلى جمعيّة من النساء الورعات اللاتي يهتممن بفتيات مضطربات العقل وبدا لي أنه أحسّ ببعض الارتياح.

قال لي: – يجب أن أنبهك، إنّ ديانا تعيش اليوم في الحالة التي عرّفتها بأنها عادية. لعلّ النقيب سيمونيني قصّ عليك الحادثة، في هذه الحالة لدينا ديانا المنحرفة، ليكن هذا واضحاً بيننا، حيث تعتبر نفسها تابعة لطائفة ماسونيّة سريّة. وحتى لا نثير فيها الذعر سأقدّمك على أنّك أخ ماسونيّ ... أرجو أن لا يزعج ذلك رجل كنيسة مثلك...

أدخلني إلى قاعة مؤثّثة ببساطة فيها خزانة وفراش، وعلى أريكة مغلفة بقماش أبيض كانت تجلس امرأة لطيفة القسمات، ذات شعر أملس وأشقر مشدود إلى أعلى الرأس، ونظرة متعالية وفم صغير جيّد الرسم. تجعّدت الشفتان في تقزّز ساخر، وسألت: – يريد الدكتور دي موريي أن يرميني بين الأحضان الأمومية للكنيسة؟

– كلاّ يا ديانا، أجاب الدكتور دي موريي، رغم ثوبه فهو واحد من الإخوان.

– أيّ ولاء؟ سألت ديانا على الفور.

تفاديت المأزق بشيء من المهارة: – لا أستطيع كشف ذلك، قلت هامساً بحذر، لعلّك تعرفين لماذا...

كان ردّ الفعل مناسباً: – فهمتُ، قالت ديانا. أرسلك "المعلّم الأكبر لشارلستون". سأكون سعيدة لو أمكنك تبليغه روايتي للأحداث. كان الاجتماع في شارع "كروا نيفار" لدى جمعيّة "القلوب المتحدة غير المنفصلة" Les Cœurs Unis Indivisibles، أنت دون شكّ تعرفها. كان ينبغي أن ألقّن الأسرار لأصبح معلّمة هيكليّة، وتقدّمت بكل ما أمكنني من خضوع لأعبد الرَّبّ الطيب الوحيد، إبليس، وأمقت الرَّبّ الشرير أدوناي، الرَّبّ الأب للكاثوليكيّين. اقتربت وكلّي حماس، صدّقني، إلى مذبح بافوميتّو حيث كانت تنتظرني صوفيا صافو، التي أخذت تسألني عن العقيدة البلاّدية، ودائماً بخضوع أجبتها: ما هو واجب المعلّمة الهيكليّة؟ أن تمقت المسيح، وتلعن أدوناي، وتعبد إبليس. أليس هذا ما يريده المعلّم الأكبر؟ وعند طرح هذا السؤال أمسكت ديانا بيدي.

– أكيد، ذاك هو، أجبتها حذراً.

– ونطقت بالعبارات الطقسيّة، لبيك، لبيك يا إبليس العظيم، أنت الذي ظلمك الكهنة والملوك. وكنتُ أرتعد من الحماس وأنا أسمع كلّ الحاضرين، رافعين خناجرهم، يصيحون: " نيكام، أدوناي، نيكام". ولكن عند ذلك الحدّ، بينما كنت أصعد فوق المذبح، قدّمت لي صوفيا صافو طبقاً، شبيهاً بما نراه في واجهات بائعي الأشياء المقدسة، وبينما كنت أتساءل ماذا يفعل ذلك الشيء الفظيع الخاصّ بالعبادة الرومانية، فسّرت لي المعلّمة الكبرى أنّه، بما أنّ يسوع خان الربّ الحقيقي، أمضى على الطابور عهداً شريراً مع أدوناي، وقلب نظام الأشياء محوّلاً الخبز إلى جسده نفسه. من واجبنا أن نطعن ذلك الخبز المجدّف الذي يجدّد به الكهنة كلّ يوم خيانة يسوع. قل لي يا سيدي، هل يريد المعلّم الأكبر أن يكون هذا الفعل جزءاً من طقس؟

– لا يتعيّن عليّ أنا أن أقول ذلك. لعلّ من الأفضل أن تقولي لي ماذا فعلتِ أنت؟

– لقد رفضت، بطبيعة الحال. طعن خبز الذبيحة بخنجر يعني الإيمان بأنّه حقيقة جسد المسيح، بينما ينبغي على بَلّاديّ أن يرفض تصديق هذه الكذبة. طعن الخبز المقدّس هو طقس كاثوليكي لكاثوليكيّين مؤمنين.

– أظنّ أنكِ على حقّ، قلت لها. سأكون رسولك لأبلّغ تبريركِ إلى المعلّم الأكبر.

قالت ديانا: – شكراً يا أخي، وقبّلت يديّ. ثمّ، وبدون مبالاة، فكّت أزرار قميصها العُليا، مظهرة كتفا ناصع البياض، ونظرت إلي بنظرة إغواء. ولكنها انقلبت على الأريكة، كما لو كانت فريسة حركات متشنجة. نادى الدكتور دي موريي ممرّضة، ومعاً حملا الفتاة إلى الفراش. وقال الدكتور: – في العادة عندما تكون في أزمة مثل هذه فهي تمرّ من حالة إلى أخرى. لم تفقد بعد الوعي، هناك فقط تشنّج للفكّ وللسان. يكفي ضغط "مبيضيّ" خفيف...

بعد قليل انخفض الفكّ السفلي، وانحرف جانباً، وتحوّل الفم من موضعه وبقي مفتوحاً، مظهراً في قاعه اللسان وقد التوى في نصف دائرة، وطرفه لا يُرى كما لو أنّ المريضة كانت بصدد ابتلاعه. ثم ارتخى اللسان، واستطال فجأة خارجاً قليلاً من الفم، ثم دخل فيه مرة أخرى وخرج من جديد، مرّات عديدة بسرعة كبيرة، مثل فم ثعبان. وأخيراً عاد اللسان والفكّ إلى حالتهما الطبيعيّة، ونطقت المريضة ببضع كلمات:
– اللسان... إنّه يجرّح حنكي... هناك عنكبوت في أذني...

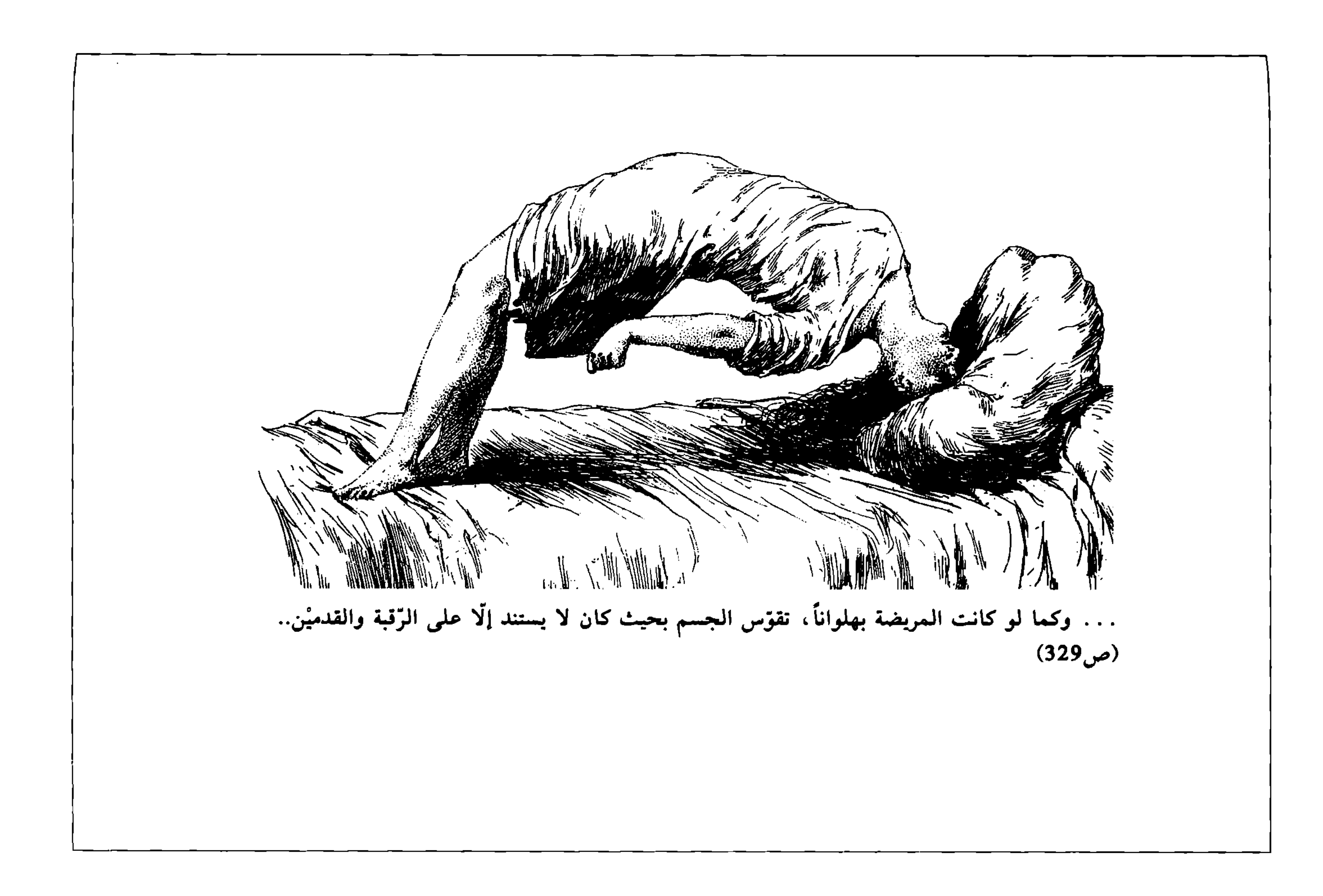
بعد راحة قصيرة، بدا على المريضة تشنُّج جديد للفكّ وللسان، وقعت تهدئته بضغط مَبيضِيّ جديد، ولكن التنفّس صار بعد قليل شاقّاً، ومن فمها بدأت تخرج جمل متقطعة، بينما أصبح نظرها جامداً، وتحوّلت الحدقتان إلى أعلى، وتصلّب الجسم كلّه؛ وقام الذراعان بدوران محوريّ، والمعصمان كانا يتلامسان من ظهريهما، وتمدّدت الساقان...

- قدمان ذاتا تقوُّس خَيليّ، علّق دي موريي. إنّها المرحلة الصرعيّة. شيء عاديّ. سترى أن المرحلة البهلوانيّة ستتبعها...

احتقن الوجه تدريجيّاً، وكان الفم ينفتح وينغلق بين الحين والآخر، يخرج منه لُعاب أبيض في شكل فقاعات كبيرة. الآن صارت المريضة تطلق صيحات وأنيناً مثل "أوه، أوه"، وتشنّجت عضلات الوجه. وكانت الأجفان تنخفض وترتفع بتواتر؛ وكما لو كانت المريضة بهلواناً، تقوّس الجسم بحيث أصبح لا يستند إلاّ على الرقبة والقدمين.

وقفنا لبضعة ثوانٍ أمام مشهد سيركيّ فظيع لدمية مفكّكة المفاصل تبدو أنّها فقدت ثقلها، ثم سقطت المريضة على الفراش، واتّخذت وضعيّة عرّفها دي موريي على أنّها "عاطفية"، تكاد تكون في البداية مهدّدة، كما لو كانت تريد صدّ مهاجم، ثم تكاد تكون صبيانيّة، كما لو تغمز بعينها لأحد. وحالاً بعد ذلك اتخذت مظهراً شبقيّاً مثل غاوية تدعو الزبون بحركات فاحشة من اللسان، ثمّ اتّخذت وضعية توسّل غراميّ، بنظرة دامعة، وذراعين ممتدّتيْن ويدين متشابكتَيْن، وبشفتَيْن ممتدّتَيْن كما لو تترجَّيان قبلة، وأخيراً أدارت عينيها إلى أعلى بحيث لم يعد يظهر إلاّ بياض القرنية، وانفجرت في هذيان شهوانيّ قائلة بصوتٍ متقطّعٍ: - آه يا سيدي الكريم، آه يا ثعباني العزيز، حيّتي المقدّسة... إنّي عزيزتك كيلوباترة، هيّا فوق صدري... سأرضعك... آه يا حبيبي انفذ داخلي كلّك تماماً...

- ترى ديانا ثعبانها المقدّس ينفذ داخلها، وترى أخرياتٌ قلب يسوع يجامعهنّ. إنّ رؤية رمزٍ قضيبي أو صورةٍ ذكورية مهيمنة ورؤية من اغتصبها في الطفولة، كان يقول لي دي موريي، هي أحياناً بالنسبة إلى هستيريّة نفس الشيء تقريباً. لعلّك رأيت نسخاً منقوشة لسانتا تيريزا من عمل بارنيني: لن ترى فارقاً بينها وبين هذه التعيسة. الصوفيّة هي هستيريّة لاقت معرّفها قبل ملاقاة طبيبها.



. . . وكما لو كانت المريضة بهلواناً، تقوّس الجسم بحيث كان لا يستند إلّا على الرّقبة والقدميْن..
(ص329)

اتّخذت ديانا حينذاك وضعيّة مصلوبة ودخلت في مرحلة جديدة، بدأت تتلفَّظ فيها بتهديدات غامضة تجاه شخص ما وتنذر بكشوفات فظيعة، بينما كانت تتقلّب بعنف على الفراش.

– لنتركها تستريح، قال دي موريي، عندما ستستفيق ستكون قد دخلت في المرحلة الثانية، وستأسف للأشياء الفظيعة التي تتذكّر أنّها قصّتها عليك. يجب أن تقول لسيّداتك الورعات أن لا ينزعجن إذا حدثت أزمات من هذا النوع. يكفي مسكها بثبات ووضع منديل في فمها كي لا تقضم لسانها، ولكن لن يضرّها لو ابتلعت بضع قطرات من السائل الذي سأعطيك إياه.

ثمّ أضاف: – الحال هو أنّه يجب الحفاظ على هذه المخلوقة معزولة. ولا يُمكنني أن أحتفظ بها هنا، هذا ليس سجناً بل هو مكان علاج، الناس فيه يتحرّكون، ومن النافع والضروري علاجيّاً أن يتبادلوا الحديث فيما بينهم، وأن يبدو لهم أنّهم يعيشون حياة عادية وهادئة. ضيوفي ليسوا مجانين، إنهم فقط أشخاص تعبت أعصابهم. قد تؤثِّر أزمات ديانا في المرضى الآخرين، والاعترافات التي تتلفظ بها في حالتها "الشريرة"، سواء كانت صادقة أم كاذبة، تزعج الجميع. أرجو أن تتمكّن السيدات الورعات من عزلها.

الانطباع الذي استنتجته من ذلك اللقاء هو أنّ الطبيب كان، بدون شكّ، يريد التخلّص من ديانا، ويطلب فعليّاً أن يُحتفظ بها سجينة، ويخاف أن تتّصل بآخرين. ليس هذا فقط، بل كان يخشى كثيراً أن يأخذ أحد على محمل الجدّ ما كانت تقصّه، ولذا فقد كان يحترس مسبقاً موضحاً على الفور أنّه هذيان معتوهة.

* * *

كنت قد اكتريتُ منذ بضعة أيام دار أوتوي. لا شيء فيها خارق للعادة، ولكنها على شيء من الحفاوة. يجد الداخل نفسه في قاعة جلوس مميّزة للعائلة البورجوازية، أريكة من خشب الماهاغوني مغلفة بمخمل أوترخت قديم، وستائر من الدِّمقس الأحمر، وبندول بأعمدة صغيرة فوق المدفأة على جانبيه مزهريتان بأزهار تحت جرس من الزجاج، ورفّ مثبّت تحت مرآة، أما الأرضية فمن البلاط الملمّع جيّداً. بجانبها توجد غرفة نوم، هيّأتُها لديانا: كانت جدرانها مغلّفة بقماش رمادي لؤلؤي اللون مموّج

وأرضيّة مغطّاة بزربيّة كثيفة ذات ورود كبيرة حمراء؛ وكانت أغطية الفراش وستائر النوافذ من نفس القماش، المنسوج بخطوط كبيرة بنفسجيّة، تكسر تماثله المملّ. فوق الفراش عُلّقت صورة بالطبع الحجري الملوّن تمثّل راعييْن عاشقيْن وعلى رفّ كانت توجد ساعة مرصّعة بحجيرات اصطناعيّة، على جانبيها ملاكان سمينان يحملان حزمة من الزنابق مركّبة في شكل شمعدان.

في الطابق العلوي توجد غرفتا نوم أُخريان. واحدة منهما خصّصتها لامرأة عجوز نصف صمّاء، وميّالة إلى الشرب، ميزتها أنّها ليست من تلك الجهات وأنها مستعدّة للقيام بأيّ شيء ما دام يدرّ عليها بعض الربح. لا أذكر من نصحني بها، ولكنها بدت لي الأمثل للاهتمام بديانا عندما لا يكون هناك أحد آخر في البيت، ولتهدئتها عندما تنتابها إحدى تلك الأزمات.

من ناحية أخرى، خطر ببالي وأنا أكتب أنّ تلك العجوز لم تأتِها مني أخبار منذ شهر. لعلّي تركت لها ما يكفي من النقود للبقاء على قيد الحياة، ولكن لِكَمْ من الوقت؟ يجب أن أذهب بسرعة إلى أوتوي، ولكني أتفطّن الآن أني لا أذكر العنوان: أوتوي، أين؟ بإمكاني أن أدور كلّ المنطقة وأن أدقّ على كلّ باب لأسأل هل تعيش هنا بلاّديّة هستيريّة تشكو من ازدواج في الشخصيّة؟

* * *

في شهر نيسان/أبريل أعلن تاكسيل للعموم اعتناقه للكاثوليكية، ولم يأتِ تشرين الثاني/نوفمبر حتى صدر كتابه الأوّل بكشوفات حارقة عن الماسونيّة، "الإخوة ثلاث نقط". في نفس تلك الفترة ذهبتُ به ليرى ديانا. لم أُخْفِ عليه حالتها الثنائيّة، وكان عليّ أن أفسّر له أنّها تفيدنا لا في حالتها كفتاة تخاف اللّه، ولكن كبلاّديّة لا تعرف التوبة.

في الأشهر الأخيرة درستُ الفتاة بصفة معمّقة، واعتبرتُ تغيّرات حالاتها، مهدّئاً إيّاها بالسائل الذي أمدّني به الدكتور دي موريي. ولكنني أدركتُ أنّ انتظار الأزمات، غير المتوقّعة، مثير للأعصاب، وكان ينبغي إيجاد طريقة لتغيير حالة ديانا حسب الطلب: في نهاية الأمر، يبدو أنّ الدكتور شاركو كان يفعل هكذا مع هستيريّاته.

لم يكن لدي التأثير المغناطيسي الذي كان لشاركو فذهبت إلى المكتبة أبحث عن بعض الدراسات الأكثر تقليديّة، مثل "عن سبب النوم الواضح" *De la cause du*

*sommeil lucide* للقَسّ الشيخ (والحقيقي) فاريا. وبالاستلهام من ذلك الكتاب ومن بعض القراءات الأخرى، قرّرت أنّ أضغط بركبتيَّ على ركبتَي الفتاة، وأمسك بإبهاميها بين إصبعيَّ وأحدّق في عينيها، ثمّ، بعد خمس دقائق على الأقلّ، أسحب يديّ، وأضعهما على كتفَيْها، وأجرّهما على ذراعيْها وصولاً إلى أطراف أصابعها خمس أو ستّ مرّات، وأضعهما بعد ذلك على رأسها، وأنزلهما أمام وجهها على بعد خمسة أو ستّة سنتيمترات وصولاً إلى تجويف المعدة، وبالأصابع الأخرى تحت الأضلاع، وأخيراً إنزالها على طول الجسم إلى الركبتيْن أو حتى إلى طرف القدميْن.

من وجهة نظر الحياء، كان ذلك بالنسبة إلى ديانا "الطيّبة" كثير التهجّم، وفي البداية كانت على وشك الصياح كما لو أني (ليسامحني الربّ) تجنّيت على عذريّتها، ولكن المفعول كان مؤكّداً بحيث أنّها كانت تهدأ بغتة، وتنام لبضع دقائق، ثم تستيقظ في الحالة الأولى. كان أيسر أن تعود إلى الحالة الثانية لأنّ ديانا "الشريرة" تُظهر استمتاعاً بتلك اللمسات، وتحاول إطالة معالجتي، مصاحبة إيّاها بحركات جسديّة لئيمة وبأنّات مختنقة؛ لحسن الحظ أنّها بعد فترة وجيزة لا تصمد أمام التأثير المغناطيسي، وهي أيضاً تستسلم للنوم، وإلاّ كنت سأجد صعوبة، سواء في تمديد ذلك الاتصال، الذي كان يربكني، أو في كبح جماح شهوانيّتها المقزّزة.

* * *

أظنّ أنّ كلّ شخص ذكر سيرى ديانا على أنها كائن ذو جاذبيّة فريدة من نوعها، على الأقلّ حسب حكمي أنا، الذي حفظتني وضعيتي وثوبي بعيدا عن ملذات الجنس الخسيسة؛ أما تاكسيل فقد كان بكل وضوح رجلاً ذا شهوات عارمة.

عندما تنازل لي الدكتور دي موريي عن مريضته، سلّمني أيضاً صندوقاً مليئاً بأثواب أنيقة كانت لديانا عندما وقع قبولها في المصحة - دليل على أنّ العائلة التي تنتمي إليها كانت على شيء من الثراء. وبدلال واضح، في اليوم الذي أعلمتها فيه بزيارة تاكسيل، استعدّت لها بكلّ عناية. في غيابها الظاهر، في كلتا الحالتيْن، كانت كثيرة الاهتمام بكلّ هذه التفاصيل الأنثويّة الصغيرة.

بقي تاكسيل من فوره مسحوراً ("يا لها من فتاة جميلة!"، همس لي متمطّقاً بشفتيه) وبعد ذلك، عندما حاول تقليدي في عمليّاتي المغناطيسيّة، كان يطيل من

لمساته حتى عندما كانت المريضة بكل وضوح نائمة، بحيث توجّب أن أتدخل بحذر قائلا: " أظنّ أنّه يكفي هكذا".

أظنّ أنّني لو تركته وحيداً مع ديانا عندما كانت في حالتها الأولى، فإنّه سيسمح لنفسه بحريّات أخرى، وهي لن ترفض له ذلك. لذا كنت أفعل ما في وسعي لتحصل لقاءاتنا مع الفتاة دائماً بمحضر ثلاثتنا. بل أحياناً بحضور أربعة. لأنّني رأيت من المناسب لتحريض ذكريات ديانا وطاقاتها الشيطانيّة والإبليسيّة (وأهواءها الإبليسيّة) أن أربط لها أيضاً اتّصالاً بالقسّ بولاّن.

* * *

بولاّن. منذ أن طرده رئيس أساقفة باريس، ذهب القسّ إلى ليون للانضمام إلى جمعيّة كارميلو، التي أسّسها فنتراس، وهو مدّعي رؤى يقيم الحفل في لباس طويل أبيض رُسِمَ عليه صليب أحمر مقلوب، وشعار عليه رمز قضيبي هندي. عندما يصلي كان يرتفع في الهواء، محدثاً الذهول في أتباعه. أثناء طقوسه كانت اسطوانات خبز الذبيحة تسيل دماً ولكن إشاعات كثيرة تتحدّث عن ممارسات جنس مثليّة، عن تكريس كاهنات الحبّ، وعن الخلاص بواسطة اللعب الحرّ بالأحاسيس، باختصار كلّها أشياء كان بولاّن دون شكّ يحبّذها، حتى إنّه عند موت فنتراس أعلن نفسه خليفته.

كان يأتي إلى باريس على الأقلّ مرّة في الشهر. لم يصدّق أنّ الحظّ مكّنه من دراسة مخلوق مثل ديانا من الناحية الشيطانيّة (لتخليصها بأفضل الطرق - كما كان يقول، ولكني كنت أعرف طرقه في طرد الشيطان). كان قد تجاوز الستين من العمر ولكنه لا يزال قويّاً، وكانت له نظرة لا أتردّد في التعريف بأنّها مغناطيسيّة.

كان بولاّن يستمع إلى ما تقصّه ديانا - والذي كان تاكسيل يسجّله بكلّ عناية - ولكنه كان يبدو أنّه يتوخّى غايات أخرى، وكان أحياناً يهمس للفتاة بتحريضات أو بنصائح لم نكن نسمع منها شيئاً. ومع ذلك فقد كان مفيداً، لأنّه من بين أسرار الماسونية التي ينبغي كشفها كان هناك دون شكّ طعن خبز الذبيحة ومختلف أشكال القدّاس الشيطاني، وفي هذا الخصوص كان بولاّن سلطة معترفاً بها. كان تاكسيل يسجّل ملاحظات عن مختلف الطقوس الشيطانية وعند كلّ مؤلَّف يصدره كان يسهب دائماً أكثر في وصف هذه الطقوس التي كان الماسونيّون يمارسونها دون تحفظ.

* * *

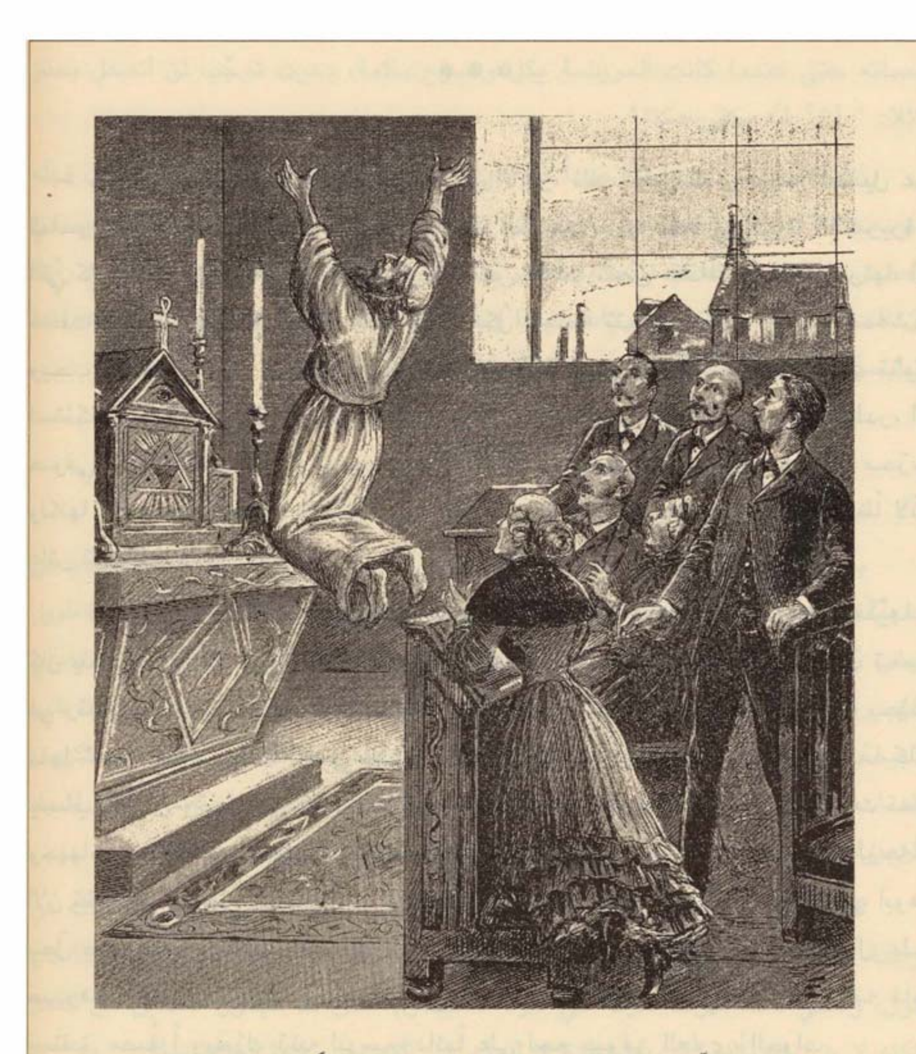
بعد أن أصدر بعض الكتب الواحد تلو الآخر، ذلك القليل الذي عرفه تاكسيل عن الماسونية كان بصدد النفاد. الأفكار الجديدة أصبحت تأتيه فقط من ديانا "الشريرة" التي كانت تبرز تحت التنويم، وبعينين زائغتيْن، كانت تقصّ مشاهد ربما حضرتها، أو سمعت عنها في أميركا، أو تلك التي كانت بكلّ بساطة تتخيّلها. كانت قصصاً مدهشة، ويجب أن أقول إنها، مع كوني رجلاً ذا تجربة (حسب ما أتصوّر)، كانت تثير استنكاري. على سبيل المثال، قصّت يوماً عن تكريس عدوّتها، صوفي والدر، أو صوفي صافو كيفما أردنا تسميتها، ولم نفهم إن أدركتْ ما في المشهد من محرّم، ولكنها كانت دون شكّ لا تقصّه بنبرة اللوم بل بتهيّج من يعتبر نفسه محظوظاً لأنّه عاش تلك التجربة.

قالت ديانا ببطء: - أبوها، هو الذي نوّمها ومرّر حديداً حارقاً على شفتَيْها... كان ينبغي أن يتأكّد أنّ الجسم معزول عن كلّ مكيدة متأتية من الخارج. كانت تحمل في رقبتها قلادة في شكل ثعبان ملتفّ... الآن، ها إنّ أباها يخلعها ويفتح سلّة يجذب منها ثعباناً حيّاً، ويضعه على بطنها... إنّه جميل جداً، ويبدو أنّه يرقص بينما كان ينساب إلى أن وصل إلى رقبة صوفي، ملتفّاً حولها مكان القلادة... الآن يصعد نحو وجهها، ويمدّ لسانه ليلمس شفتيها، وقبّلها باعثاً بصفير. كم كان رائعاً... في لزجه... الآن تستيقظ صوفي، فمها كلّه رغوة، تنهض وتبقى واقفة متصلّبة مثل تمثال، أبوها يحلّ صدريّتها ويكشف نهديْها. والآن بعصا في يده يتظاهر بكتابة سؤال على صدرها، والحروف تُنقش حمراء على لحمها، والثعبان، الذي كان يبدو أنه نام، يستفيق مصفِّراً ويحرّك ذنبه ليرسم، دائماً على لحم صوفي العاري، الجواب.

سألتها: - كيف تفعلين لمعرفة هذه الأشياء، يا ديانا؟

- عرفتها منذ كنت في أميركا... أطلعني أبي على أسرار البلاّديّة. ثمّ جئت إلى باريس، ربما أرادوا إبعادي... في باريس لاقيت صوفي صافو. لقد كانت دائماً عدوّتي. عندما رفضت أن افعل ما تريده سلّمتني إلى الدكتور دي موريي. قالت له إني مجنونة.

* * *



. . . عندما يصلّي كان فنتراس يرتفع في الهواء، محدثاً الذهول في أتباعه. . .
(ص334)

ذهبت إلى الدكتور دي موريي بحثاً عن آثار ديانا: - يجب أن تفهمني، يا دكتور، إنّ إخوانيّتي لا تقدر على مساعدة هذه الفتاة ما دامت لا تعرف من أين جاءت، من هما والداها.

نظر إليّ دي موريي كما لو كنت جداراً: - لا أعرف شيئاً، لقد قلت لك ذلك. عهدتْ بها إليّ قريبة لها توفّيت. عنوان قريبتها؟ سيبدو لك ذلك غريباً، ولكني فقدته. منذ سنة مضت شبّ حريق في مكتبي أتى على العديد من الوثائق. لا أعرف شيئاً عن ماضيها.

- ولكن، هل جاءتْ من أميركا.

- ربما، ولكنها تتكلّم الفرنسية دون أيّ لكنة. قل لأخواتك الورعات أن لا يشغلن بالهنّ كثيراً بهذه المسائل لأنّه من المستحيل أن تتخلّص من الحالة التي تُوجد عليها وأن تعود من جديد إلى الدنيا. وليعاملْنَها برقّة، ويتركْنَها تنهي هكذا بقية حياتها - لأنني أقول لك إنّه في مرحلة متقدّمة مثل هذه من الهيستيريا لا يعيش الإنسان طويلاً. في يوم من الأيام ستُصاب بالتهاب قويّ في الرّحم ولا يُمكن لعلم الطبّ أن يفعل شيئاً.

كنت مقتنعاً أنّه يكذب، ربما كان هو الآخر بلّاديّاً (وليس من الشرق الأكبر) وقَبِل أن يقبر حيّة عدوّة لطائفته. ولكنها خيالاتي. مواصلة الحوار مع دي موريي مضيعة للوقت.

استنطقت ديانا، سواء في الحالة الأولى أو في الحالة الثانية. لا تبدو أنّها تتذكّر شيئاً. تحمل في رقبتها سُلَيْسِلة ذهبيّة عُلّقت فيها رصيعة: رُسِمت عليها صورة امرأة تشبهها كثيراً. تفطّنت إلى أنّ الرصيعة يُمكن فتحها وسألتها طويلاً أن تريني ماذا يوجد بداخلها، ولكنها رفضت بحزم فيه كثير من المبالغة والخوف والوحشية، مكرّرة بعناد: - أعطتني إيّاها أمي.

* * *

لعلّها الآن أربعة أعوام منذ أن بدأ تاكسيل حملته المعادية للماسونية. وقد فاق ردُّ فعل العالَمِ الكاثوليكي كلَّ انتظاراتنا: سنة 1887 دُعي تاكسيل من طرف الكاردينال

رامبولاً إلى مقابلة خاصّة مع البابا ليوني الثالث عشر. وبهذا يضفي شرعيّة رسميّة لمعركته، ويمهّد لنجاح مطبعي كبير. وكذلك لربح مالي.

تعود إلى تلك الفترة إشارة تلقيتها، مقتضبة جداً، ولكنها معبّرة: "حضرة القسّ الجليل، يبدو أنّ المسألة فاقت ما كنا نريده: هل بإمكانك تلافي الأمر بطريقة من الطرق؟" إيبوترن.

لا يُمكن الرجوع إلى الوراء. وليس فقط بخصوص حقوق التأليف التي كانت تواصل تدفقها بصفة مثيرة، بل وأيضاً بسبب جملة الضغوطات والتحالفات التي نشأت مع العالم الكاثوليكي. لقد صار تاكسيل بطل مناهضة الشيطانيّة، ولا يريد بالتأكيد العُدُولَ عن ذلك الشعار.

في تلك الأثناء كانت تصلني أيضاً إشارات وجيزة من طرف الأب برغماسكي: " كلّ شيء جيّد. ولكن اليهود؟"

صحيح، كان الأب برغماسكي قد أكّد على ضرورة انتزاع كشوفات مثيرة من عند تاكسيل ليس عن الماسونية فقط، وإنما عن اليهود أيضاً. وعلى عكس ذلك سواء ديانا أو تاكسيل قد لزما الصمت بخصوص هذه النقطة. بالنسبة إلى ديانا لا أستغرب الأمر، ربما في أميركا التي جاءت منها كان اليهود أقلّ عدداً ممّا عندنا، والمشكلة تبدو لها غريبة عن اهتماماتها. ولكن الماسونية مليئة باليهود، وكنت ألفت نظر تاكسيل إلى ذلك.

– وما أدراني؟ كان يجيبني. لم ألتقِ أبداً ماسونيّين يهود، أو إنّني لم أكن أعرف أنّهم يهود. لم أرَ أبدا حَبْراً يهودياً في جمعيّة ماسونية.

– لن يذهبوا إليها بأثواب الحَبْر. ولكني أعرف من أب يسوعي مطّلع أنّ الكاردينال موران، وهو ليس مجرّد كاهن، بل رئيس أساقفة، سيبرهن في كتاب قادم أنّ كل الطقوس الماسونية من أصل قَبالي، وأنّ القَبالة اليهودية هي التي تقود الماسونيّين إلى عبادة الشيطان...

– إذن لنترك سيادة الكاردينال موران يتحدّث عن ذلك، نحن لدينا الكثير من العمل.

هذا التحفُّظ من طرف تاكسيل حيّرني مدّة طويلة (لعلّه يهوديّ؟ قلت لنفسي) إلى أن اكتشفت أنّه أثناء عمليّاته الصحفيّة والمطبعية المختلفة واجه عديداً من

المحاكمات إمّا بتهمة الثَّلْب أو الفُحْش، وكان عليه أن يدفع غرامات ثقيلة. وهكذا أضْطُرّ إلى الاقتراض من بعض المُرابين اليهود، ولم يستطع إلى الآن دفع ديونه (وذلك أيضاً لأنه كان يُنفق دون حساب تلك المداخيل المعتبرة المتأتية من نشاطه الجديد المناهض للماسونية). لذا كان يخشى أولئك اليهود، الذين بقوا إلى الآن هادئين، لكنهم إذا أحسّوا بأنفسهم مهدّدين فسيدفعون به إلى السجن لعدم خلاص الديون.

ولكن هل القضيّة قضيّة نقود فقط؟ كان تاكسيل دنيئاً، ولكنه غير خالٍ من المشاعر، وكان على سبيل المثال شديد التعلّق بالعائلة. وهكذا كان لسبب ما يشعر بشيء من الشفقة إزاء اليهود، الذين كانوا ضحيّة اضطهادات عديدة. طالما ردّد إنّ البابوات قد ضمنوا الحماية ليهود الغيتو، حتى وإن كانوا معتبرين مواطنين من درجة دُنيا.

في تلك السنوات انتابه الغرور: اعتقد أنّه صار الآن رمزاً للفكر الكاثوليكي الملكيّ المناهض للماسونية فقرّر الدخول في السياسة. لم أكن قادراً على اتّباعه في دسائسه تلك، ولكنه ترشّح إلى بعض المجالس البلدية في باريس ودخل في منافسة، وفي جدال، مع صحفيّ مشهور مثل درومون، الذي كان يقود حملة عنيفة ضدّ اليهود وضدّ الماسونيّة، وكانت كلمته مسموعة لدى رجال الكنيسة، والذي أخذ يلمّح أنّ تاكسيل "دجّال" - و "يلمّح" هي ربما عبارة ضعيفة.

سنة 1889 ألّف تاكسيل أُهجية ضدّ درومون، وإذ كان لا يعرف كيف يهاجمه (بما أنّ الاثنين كانا معاديَيْن للماسونية)، فقد تحدث عن خوفه من اليهود على أنّه شكل من الخبل العقلي. وأطلق العنان لبعض الاحتجاجات ضدّ "البروغروم" الروسيّة.

كان درومون مُجادلاً بطبعه وأجاب بأُهجية أخرى يسخر فيها من هذا السيّد الذي يعتبر نفسه المدافع عن الكنيسة، متلقّياً حفاوةً وتهانيَ من أساقفة وكرادلة، ولكنه قبل ذلك بسنوات قليلة كتب عن البابا وعن الكهنة والرهبان، بل وعن المسيح ومريم العذراء، أشياء مبتذلة ومقزّزة. ولكن هناك ما هو أسوأ.

حدث لي في عديد من المرات أن ذهبت للتحادث مع تاكسيل في بيته، حيث كان يوجد سابقاً في الطابق السفلي مقرّ المكتبة المناهضة للكنيسة، وغالباً ما كانت تقاطعنا زوجته التي تأتي وتهمس له بشيء ما في أذنه. وكما فهمت من بعد، كان

العديد من المناهضين للكنيسة المتعنّتين لا يزالوا يأتون إلى ذلك العنوان بحثاً عن الأعمال المعادية للكاثوليكيّة للمؤلف تاكسيل الذي أصبح الآن كاثوليكيّا جداً، والذي بقيت لديه نسخ عديدة في المخزن ولا يهون عليه إتلافها، لذا واصل استغلال ذلك المورد الرائع، وبكثير من الحذر، مرسلاً زوجته ودون أن يظهر أبداً. ولكنني لم أنخدع أبداً بخصوص صدق هداية تاكسيل: المبدأ الفلسفي الوحيد الذي كان يستلهم منه هو أن النقود لا رائحة لها.

ما عدا أنّ من تفطّن إلى ذلك أيضاً هو درومون، الذي هاجم المارسيليّ ليس فقط باعتباره مرتبطاً بصفة ما باليهود بل أيضاً على أنّه مناهض للكنيسة لا يعرف التوبة. وكان في هذا ما يكفي لإدخال ريبة كبيرة بين قرّاء صاحبنا الأكثر خشية من الله.

كان ينبغي القيام بهجوم معاكس.

– تاكسيل، قلت له، لا أريد أن أعرف لماذا تحجم عن التدخل شخصيّاً ضدّ اليهود، ولكن ألا يُمكن تكليف شخص آخر بالاهتمام بهذا الأمر؟

– يكفي أن لا أُحْشَر في هذا مباشرة، أجابني تاكسيل. ثم أضاف: فعلاً، كشوفاتي لم تعد تكفي، ولا حتى كلّ تلك الخرافات التي تقصّها علينا ديانا. لقد خلقنا جمهوراً يبغي المزيد، لعلّهم لم يعودوا يقرأوني لمعرفة دسائس أعداء الكنيسة بل لمجرّد وَلَعٍ سرديّ، مثلما يحدث في الروايات البوليسيّة حيث يميل القارئ إلى الوقوف بجانب القاتل.

* * *

وهكذا نشأ الدكتور بطاي.

اكتشف تاكسيل، أو أنه عثر من جديد على صديق قديم، طبيب في البحريّة سافر كثيراً إلى بلدان بعيدة، متطفلاً هنا وهناك على المعابد وعلى الطوائف الدينيّة المختلفة، والذي كان بالخصوص ذا ثقافة لامحدودة في مجال روايات المغامرات، مثل كتب بوسّونار أو التقارير الخيالية لجاكوليّو، مثل "الروحانية عبر العالم" *Le Spiritisme dans le monde* أو "الرحلة إلى البلد العجيب" *Voyage au pays*

*mystérieux*. كانت فكرة البحث عن مواضيع جديدة في عالم الخيال تعجبني تماماً (ومن يوميّاتك عرفت أيضاً أنك لم تفعل شيئاً ما عدا الاستلهام من دُومَا أو من سو): يلتهم الناس حكايات البرّ والبحر أو قصص الإجرام لمجرّد الاستمتاع، ثم ينسون بسهولة ما قرأوا، وعندما يقصّ عليهم أحد شيئاً قرأوه في رواية على أنّه واقعي، يبدو لهم وكأنهم سمعوا به، ويجدون تأكيداً لمعتقداتهم.

الرجل الذي عثر عليه تاكسيل كان الدكتور شارل هاكس: حصل على الإجازة في التوليد القيصريّ، ونشر أشياء عن البحريّة التجاريّة ولكنه لم يستغلّ بعد مواهبه السرديّة. بدا أنه فريسة تسمّم كحولي قويّ وكان واضحا أنّه لا يملك فلساً. ما فهمته من أقواله أنّه كان يعدّ لإصدار عمل أساسي ضدّ الأديان والمسيحيّة باعتبارها "هيستيريا الصليب"، ولكنه، أمام مقترحات تاكسيل، كان مستعدّاً لكتابة قُرابة الألف صفحة ضدّ عبدة الشيطان، تمجيداً ودفاعاً عن الكنيسة.

أذكر أنّه في سنة 1892 بدأنا، من خلال مجموعة من 240 سجلاً تتابعت على طول ثلاثين شهراً تقريباً، عملاً "ضخماً" عنوانه "الشيطان في القرن التاسع عشر" *Le diable au XIXᵉ siècle*، مع صورة كبيرة على الغلاف لإبليس وهو يضحك ساخراً، بجناحَيْ خُفاش وذيل تِنِّين، وعنوان ثانويّ يقول تقريباً "أسرار الروحانية والماسونية الإبليسيّة، كشوفات كاملة عن البلاّديّة والسحر الأبيض وتحضير الجان وكلّ الشيطانيّة، وقبَالة آخر القرن، وسحر روزاكروتشي، والمسّ في الحالة الكامنة، والمبشّرين بالمسيح الدجال". الكلّ مُسْنَد إلى مؤلّف غامض يحمل اسم الدكتور بطاي.

ومثلما كان مُبَرْمَجاً، لم يَحْتَوِ العمل على شيء لم يسبق أن كُتب في أعمال أخرى: تاكسيل أو بطاي عاثا في كلّ الأدب السابق، وصنعا خليطاً من عبادات تحت-أرضيّة، ورؤى شيطانيّة، وطقوس يتجمّد لها الدم، وعودة إلى شعائر هيكليّة مع بافوميتّو المألوف، إلى غير ذلك. حتى الرسوم نُقلت من كتب أخرى في العلوم السريّة، كانت بدورها نقلت بعضها عن البعض الآخر. والصور الوحيدة الجديدة كانت صور كبار معلّمي الماسونيّة، والتي أدّت نفس وظيفة المناشير التي كانت تبلّغ في الفيافي الأمريكيّة عن المجرمين المبحوث عنهم والواجب تسليمهم إلى العدالة، أحياءً أو أمواتاً.




. . . عملا "ضخماً" عنوانه Le Diable au XIXe siècle، مع صورة كبيرة على الغلاف لإبليس وهو يضحك ساخراً، بجناحيْ خُفاش وذيل تنّين. . . (ص341)

* * *

وتواصل العمل مسعوراً على أَشُدِّه: هاكس- بطاي يقصّ، بعد كؤوس عديدة من الأبسنت، على تاكسيل اختراعاته وتاكسيل يسجّلها، مع زخرفتها، أو يهتمّ بطاي بتفاصيل تخصّ العلوم الطبية، أو فنّ السموم، ووصف المدن والطقوس الغريبة التي رآها بأمّ عينيه، بينما تاكسيل يطرّزها حول هذيانات ديانا الأخيرة.

كان بطاي يبدأ مثلاً بالحديث عن قلعة جبل طارق على أنها جسم يشبه النشّاف تخترقه أنفاق، ومغاور، وكهوف سفليّة حيث تقام طقوس للطوائف الأكثر شرّاً، أو الخدع الماسونية لطوائف الهند، أو تجلّي أسموديو، وكان تاكسيل يشرع في رسم صورة لصوفي صافو. ولأنّه قرأ "المعجم الجهنمي" *Dictionnaire infernal*، لكولاّن دي بلانسي، كان يتصوّر صوفي وهي تكشف أنّ الجيوش الجهنميّة ستة آلاف وستمائة وستة وستين، وكل جيش يتكوّن من ستة آلاف وستمائة وستة وستين شيطاناً. ورغم أن بطاي يبلغ درجة السكر فإنه لا يفقد بتاتاً قدرته على القيام بالحساب وختم عادّاً أنه بين الشيطانات والشياطين نصل إلى رقم أربعة وأربعين مليوناً وأربعمائة وخمسة وثلاثين ألفاً وخمسمائة وستة وخمسين شيطاناً. كنا نتثبّت من العدّ ونقول متعجِّبين إنه على حقّ، وكان هو يضرب بيده على الطاولة ويصيح: "أرأيتم أنني لست سكرانَ" مكافئاً نفسه بالشرب إلى أن سقط تحت المائدة.

كان من المثير تصوّر مَخْبَر السُّموم الماسوني في نابولي، حيث كانت تُعدّ السمّوم لاغتيال أعداء الجمعيّات الماسونية. وأعظم عمل قام به بطاي هو اختراع تلك التي سمّاها دون أيّ سبب كيميائي مانّة "*manna*": وتتمثل في غلق ضفدع داخل قارورة مليئة بالحيّات وبالثعابين السامّة، ويقع تغذيته بالفُقاع السامّ فقط، وتُضاف إليه القمعيّة والشوكران، ثم تُترك الحيوانات تموت جوعاً وتُرشّ جِيفَهُا برغوة الزجاج والفربيون، ثم يوضع كلّ شيء في إنبيق، لتُمْتصّ رطوبته على نار هادئة وأخيراً يقع فصل رماد الجِيَف من المساحيق غير القابلة للاحتراق، متحصّلين بهذه الطريقة على سُمَّيْن وليس على سمّ واحد فقط، أحدهما سائل والآخر في شكل مسحوق، متماثلان في مفعولهما القاتل.

- أتصوّر منذ الآن الكثير من الأساقفة في حُبُور أمام هذه الصفحات، كان

تاكسيل يضحك ساخراً وهو يحكّ أسفل بطنه، مثلما يفعل عادة في لحظات الرضى عن نفسه. وكان يعرف ما يقول لأنّه عند ظهور كلّ جزء جديد من الشيطان كانت تصله رسالة من أحد الأحبار يشكره فيها على مكاشفاته الشجاعة التي فتحت عيون العديد من المؤمنين.

أحياناً، كنّا نلجأ إلى ديانا. هي وحدها كانت قادرة على ابتداع "العلبة الصوفية" *Arcula Mystica* لمعلّم شارلستون الأكبر، وهي صندوق صغير لا يوجد منه في العالم إلاّ سبع نسخ: عند رفع الغطاء ترى مضخِّم صوت من الفضة، مثل بوق قرن الصيد، ولكنه أصغر؛ على اليسار حبل من أسلاك فضيّة مركّب من جهة في الآلة ومن جهة أخرى في قطعة توضع في الأذن لسماع أصوات الأشخاص الذين يتكلّمون من أحد الصناديق الستة الأخرى. على اليمين ضفدع من الزنجفر يبعث بجُذْوات صغيرة من فمه المفتوح، كما لو أراد التأكيد على أنّ الاتصال موجود، وسبعة تماثيل صغيرة من الذهب تمثل الفضائل السبع الرئيسيّة للسلّم البلاّديّ، كما تمثل المديرين الماسونيّين السبعة الرئيسيّين. وهكذا عندما يضغط المعلّم الأكبر على قاعدة أحد التماثيل، يرسل إنذاراً إلى مراسله في برلين أو في نابولي؛ إذا لم يكن المراسل في تلك الآونة أمام العلبة الصوفية، يحسّ بهواء ساخن على وجهه، ويهمس مثلاً: "سأكون حاضراً في غضون ساعة"، وعلى طاولة المعلّم الأكبر يقول الضفدع بصوت مرتفع "في غضون ساعة".

في البداية تساءلنا إن لم تكن الحكاية مهزلة كبيرة، وذلك لأن رجلاً يُدعى مايوتشي حصل منذ سنوات على براءة لاختراعه "التلكروفون" أو التلفون (الهاتف) كما نسمّيه اليوم. ولكن تلك التّحف كانت لا تزال أشياء على ذمّة الأثرياء، ولا أظنّ أنّ قرّاءنا يعرفونها، واختراع خارق للعادة مثل "العلبة الصوفية" يظهر أنه دون شكّ من وحي الشيطان.

كنا نتلاقى أحياناً في بيت تاكسيل، وأحياناً في أوتوي؛ وفي بعض الأحيان جازفنا بالعمل في جُحْر بطاي، ولكن النُّتانة التي كانت تغمر المكان (مزيج من كحول رديء وأثواب لم تَرَ يوماً الغسيل وفضلات طعام تعود إلى أسابيع) نَصَحَتْنا بتفادي تلك الجلسات.

* * *

كانت إحدى المسائل التي طرحناها على أنفسنا هي كيف نصف الجنرال بايك، المعلّم الأكبر للماسونيّة الكونيّة الذي كان يقرّر من شارلستون مصير العالم. ولكن لم يكن هناك شيء أكثر جِدّة ممّا سبق نشره.

ما إن شرعنا في إصدار "**الشيطان...**"، حتى صدر الكتاب المُنتظر للسيّد موران، رئيس أساقفة بور- لويس (يعلم الشيطان أين يوجد؟)، "**الماسونية: بيعة الشيطان**" *La Franc-Maçonnerie Synagogue de Satan*، والدكتور بطاي، الذي كان يتكلّم الإنكليزيّة قليلاً، كان قد عثر خلال سفرياته على "المنظمات السرية" *The Secret Societies*، وهو كتاب صدر سنة 1873، للجنرال جون فيلبس، العدوّ اللدود للجمعيّات الماسونيّة. كان يكفينا أن ننقل ما هو موجودٌ في تلك الكتب لرسم ملامح هذا الشيخ الكبير، الكاهن الأعظم للبلّاديّة العالميّة، وربّما المؤسّس للكوكلوكس كلان والمشارك في المؤامرة التي أودت بحياة لنكولن. قرّرنا أن يباهي المعلّم الأكبر للمجلس الأعلى لشارلستون بألقاب الأخ العامّ، السيّد الآمر، المعلّم الخبير للجمعيّة الكبرى الرمزيّة، المعلّم السرّي، المعلّم الكامل، الأمين الحميم، الحاكم والقاضي، المعلّم المختار للتسعة، المختار الشهير للخمسة عشر، الفارس الجليل المختار، رئيس العشائر الاثنتي عشرة، المعلّم المهندس الأكبر، المختار الأكبر الإسكتلندي للقبّة المقدّسة، الكامل والجليل الماسوني، فارس المشرق أو فارس السيف، أمير أورشليم، فارس المشرق والمغرب، الأمير السيّد لروزاكروتشي، البطريرك الأكبر، المعلّم الجليل مدى الحياة لكلّ الجمعيّات الرمزيّة، الفارس البروسي النواكيدي، المعلّم الأكبر للمفتاح، أمير لبنان والخيمة-الهيكل، فارس الثعبان البرونزي، السيّد الآمر للهيكل، فارس الشمس، الأمير النصير، الإسكتلندي الكبير للقديس أندراوس من إسكتلندا، المختار الكبير الفارس كادوش، المسارّ الكامل، المفتّش الكبير الآمر، الأمير النَّيِّر والجليل للأمانة المَلَكيّة، الثلاثة والثلاثون، القدير والقادر السيّد الآمر الجنرال المعلّم الأكبر لمدرسة البلّاديّ المقدّس، الحَبْر السيّد للماسونيّة الكونيّة.

وأوردنا رسالة له تُدينُ إفراطَ بعض إخوان إيطاليا وإسبانيا الذين "بفعل الحقد المشروع إزاء ربّ الكهنة" كانوا يعظّمون عدوّه تحت اسم إبليس - كائن ابتدعته الخدعة الكهنوتية والذي لا يجب أبداً نطق اسمه في جمعية. وهكذا أُدينت ممارسات محفل جَنَوي رفعت في مظاهرة عمومية راية كتب عليها "المجد لإبليس"، ثمّ اكتُشف أنّ الإدانة كانت ضدّ الشيطانيّة (خُرافة مسيحيّة) بينما الدين الماسوني يجب أن يبقى

في نقاوة المذهب الإبليسي. إن الكهنة هم الذين خلقوا بإيمانهم بالشيطان، الشيطانَ والشيطانية، والساحرات، والسحرة، والمشعوذين والسحر الأسود، بينما الإبليسيّون كانوا أتباع السحر المنير، مثل الهيكليّين معلّميهم القدامى. السحر الأسود هو سحر أتباع أدوناي، الربّ الشرير معبود المسيحيّين، الذي جعل من النفاق قداسة، ومن الرذيلة فضيلة، ومن الكذب حقيقة، ومن الإيمان باللامعقول علماً لاهوتيّاً، والذي تشهد كلّ أفعاله بفظاعته، وبمكره، وبحقده على الإنسان، وبالهمجية، وبالنفور من العلم. أمّا إبليس فهو على العكس الربّ الطيّب الذي يقابل أدوناي، مثل النور الذي يقابل الظلمة.

حاول بولاّن أن يفسّر لنا الفوارق بين مختلف عبادات ذلك الذي يُسمّى بالنسبة إلينا ببساطة الشيطان: - بالنسبة للبعض إبليس هو الملاك المخلوع من ملائكيته ثمّ تاب الآن ويُمكن أن يصبح مسيح المستقبل. توجد طوائف متكوّنة من نساء فقط يعتبرن إبليس كائناً أنثويّاً، وإيجابيّاً، يقابل ربّاً ذكوريّاً وشرّيراً. ويرى آخرون أنّ إبليس هو بحقّ الشيطان الذي لعنه الربّ، ولكنهم يعتبرون أنّ المسيح لم يفعل ما يكفي للبشريّة، لذا فهم يكرّسون أنفسهم لعبادة عدوّ الربّ - وهؤلاء هم الشيطانيّون الحقيقيّون، الذين يقيمون القدّاس الأسود وغير ذلك. هناك عبدة شيطان يتبعون فقط رغبتهم في الممارسات السحريّة، والتعاويذ بالدُّمى والرّقى، وآخرون جعلوا من الشيطانيّة ديانة بأتمّ معنى الكلمة. من بينهم يوجد أشخاص يبدو أنهم ينظمون أندية ثقافية، مثل جوزفين بيلادان، وأتعس منها ستانيزلاس دي غواييتا، الذي يمارس فنّ السُّموم. ثمّ هناك البلاّديّون. وهو طقس لقلّة من المبتدئين، انتمى إليهم أيضاً فحّام مثل مادزيني؛ ويُقال أنّ غزو صقليّة من قِبل غاريبالدي هو من إنجاز البلاّديّين، أعداء الربّ والمَلَكيّة.

سألته لماذا يتّهم بالشيطانية وبالسحر الأسود منافسين له مثل غوايتا وبيلادان، بينما ما أعرفه من إشاعات باريسيّة، هو أنّ هؤلاء يتّهمونه هو بالذات بالشيطانيّة.

- إيه، - قال لي - الحدود في عالم علوم السحر والتنجيم بين الخير والشرّ دقيقة جدّاً، وما هو خير بالنسبة إلى البعض هو شرّ بالنسبة إلى البعض الآخر. أحياناً، في القصص القديمة، الفارق بين جنيّة وساحرة يكمن فقط في السنّ والحُسن.

- ولكن كيف يعمل هؤلاء السّحرة؟

- يقولون إنّ المعلّم الأكبر لشارلستون اتّصل بشخص يُدعى غورغاس، من بلتيمور، رئيس جمعيّة إسكتلنديّة معارضة. تمكّن إذن بارتشاء الغسّالة من الحصول على منديل له، ثمّ جعله ينتقع في الماء المالح، وكلّما أضاف إليها ملحاً همسَ "صَغْرابيم مِيلنشيتيبُو رُوسترومُوك إلياس فِيتْغ". ثمّ جعل المنديل يجفّ فوق نار تغذّيها أعواد مغنولية، بعد ذلك، كان يرتل صبيحة كل سبْت، وطوال ثلاثة أسابيع، لمولوخ، مادّاً ذراعيه والمنديل مبسوط بين يديه المفتوحتيْن، كمن يقدّم هبة للشيطان. وفي مساء السبت الثالث أحرق المنديل فوق شعلة تغذّيها الكحول، ثمّ وضع الرماد فوق طبق من البرونز، وتركه كامل الليل، وفي الصباح الموالي عجن الرماد مع الشمع وصنع منه تمثالاً أو دمية صغيرة. هذه الابتداعات الشيطانية تُسمّى داغيد. وضع الداغيد تحت كُرةٍ من البلّور بها مضخّة هوائيّة أفرغ بواسطتها الكُرةَ من الهواء. حينئذ بالذات بدأ خصمه يحسّ بآلام فظيعة لم يعرف مصدرها.

- وهل مات على إثرها؟

- هذه مجرّد تفاصيل، ربما لم يكن يريد الوصول إلى هذا. ما يهمّ هو أنّه بواسطة السحر يُمكن العمل عن بعد، وهو ما يفعله الآن غوابيتا وأصحابه معي.

لم يرد البَوْح لي بأكثر من هذا، ولكن ديانا، التي كانت تستمع إليه، تابَعتْهُ بنظرة شغف.

* * *

في الوقت المناسب، وتحت ضغوطاتي، كرّس بطاي باباً كاملاً لتواجد اليهود في الجمعيّات الماسونية، راجعاً في الزمن إلى الإخفائيّين في القرن الثامن عشر، معلناً وجود خمسمائة ألف ماسونيّ يهوديّ متّحدين بصفة سريّة إلى جانب الجمعيّات الرسميّة، بحيث أنّ جمعيّاتهم لم تكن تحمل اسماً بل فقط شفرة.

تصرّفنا بعجالة. يبدو لي إنّه في تلك السنوات بالذات بدأت بعض الصحف باستعمال عبارة جميلة، *antisemitismo*، أو مُناهضة الساميّة. انحشرنا في تيّار "رسميّ" صارت فيه الريبة إزاء اليهود مذهباً، مثل المسيحيّة أو المثاليّة.

كانت ديانا حاضرة هي الأخرى في تلك الجلسات، وعندما سمعتنا نتحدّث عن

الجمعيّات الماسونية اليهودية، كرّرت مرّات عديدة قول "ملكيصادق، ملكيصادق". ماذا كانت تتذكّر؟ فتابعت: - أثناء المجلس البطريركي، رمز اليهود الماسونيّين... سلسلة من الفضة في العنق تحمل لوحة ذهبيّة... تمثّل لوحة الشريعة... شريعة موسى...

كانت الفكرة طيّبة، وها أنّ يهوديّينا مجتمعون في هيكل ملكيصادق، يتبادلون حركات التعرّف، وكلمات السرّ وأقساماً كانت بطبيعة الحال ذات طابع يهودي مثل أدوناي بيغو غالكول، بُهَاشِق، بَمِيزاخ، جفان، عبّادون، غراسين غايزيم. بطبيعة الحال كانوا في المحفل لا يفعلون غير تهديد الكنيسة الرومانية المقدسة وأدوناي المعهود.

وهكذا كان تاكسيل (تحت تغطية بطاي) يرضي من ناحية مفوّضيه الكنسيِّين ومن ناحية أخرى كان لا يُغضب مُقْرضيه اليهود. حتى وإن كان بإمكانه الآن أن يدفع لهم ما بذمّته من دين: في نهاية الأمر، حقّق تاكسيل في الخمس سنوات الأولى أرباحاً تقدّر بثلاثمائة ألف فرنك من الحقوق (صافية)، والتي يعود لي منها ستّون ألفاً.

* * *

حوالى سنة 1894، حسب ما يبدو لي، لم تتحدّث الصحف إلاّ عن حادثة ذلك النقيب في الجيش، درايفوس، الذي باع معلومات عسكريّة إلى السفارة البروسيّة. وكأن ذلك لم يكن كافياً، كان ذلك الخائن يهوديّاً. وقد وثب درومون فوراً على قضيّة درايفوس، وبدا لي أيضاً أنّ كُرّاسات "الشيطان..." ستساهم بكشوفات رائعة. ولكن تاكسيل قال إنّه من الأفضل عدم التدخّل في أمور المخابرات العسكريّة.

فهمت من بعد فقط ما حدس به: أنّ الحديث عن المساهمة اليهوديّة في الماسونيّة شيء، أمّا الحديث عن درايفوس فهو يعني التلميح (أو الكشف) بأنّ درايفوس علاوة على كونه يهوديّاً فهو أيضاً ماسونيّ، وستكون عمليّة متهوّرة، بما أنّ الماسونية ترعرعتْ بصفة خاصّة في الجيش ولعلّ الكثيرين من الضباط السامين الذين كانوا حاكموا درايفوس كانوا ماسونيِّين.

* * *

ومن ناحية أخرى لم تنقصنا مسالك أخرى يُمكن استغلالها - ومن ناحية

الجمهور الذي كونّاه، كانت أوراقنا أفضل من أوراق درومون.

حوالى عام بعد صدور «**الشيطان**»، قال لنا تاكسيل: - في نهاية الأمر، كلّ ما ظهر في «الشيطان» هو من عمل الدكتور بطاي، ما الداعي لأن نثق به؟ تلزمنا بلّاديّة تائبة تكشف الأسرار الأكثر خفاء للطائفة. ومن ناحية أخرى، هل رأينا أبداً رواية جميلة لا توجد فيها امرأة؟ صوفيا صافو قدّمناها تحت أضواء قاتمة، لا يُمكن أن تحوز على تعاطف القرّاء الكاثوليكيّين، حتى وإن اعتنقت المسيحية. يلزمنا شخص يبدو على الفور محبوباً، حتى وإن كان لا يزال شيطانيّاً، كما لو أضاء وجَهه نورُ الهدى الوشيك، بلّاديّة ساذجة ضلّلتها طائفة الماسونيّين، والتي تتحرّر شيئاً فشيئاً من نير أغلالهم وتعود إلى أحضان ديانة أجدادها.

- ديانا، قلت عندئذٍ. ديانا تكاد تمثّل الصورة الحيّة لما يُمكن أن تظهر بها الضالّة التي عرفت طريق الهدى، بما أنّها كانت هذه وتلك حسب الطلب.

وها هي ذي ديانا تصعد إلى الركح في الكُرّاس 89 من كتاب «**الشيطان...**».

كان قد جرى إقحام ديانا من طرف بطاي، ولكن لجعل ظهورها أكثر قابلية للتصديق، كتبتْ إليه على الفور رسالة تعبّر له فيها عن عدم رضاها عن الطريقة التي قُدّمت بها بل ومنتقدة الصورة، التي نُشِرت لها، حسب أسلوب كُرّاسات «**الشيطان..**». وينبغي أن أقول إنّ البورتريه كان شيئاً ما ذكوريّاً وعرضنا فوراً على ديانا صورة أكثر أنوثة، مؤكدين أنّها من إنجاز رسّام ذهب لملاقاتها في منزلها بباريس.

بدأت ديانا مشاركتها مع مجلّة "البلاديوم المتجدّد والحرّ" *Le Palladium régéneré et libre*، وتُقَدِّمُ نفسها على أنّها لسان البلّاديّين المُنشقّين، الذين كانت لهم الشجاعة لوصف عبادة إبليس في أدقّ تفاصيلها وعبارات التجديف المستعملة أثناء تلك الطقوس. كان التشنيع بالبلّاديّة التي كانت لا تزال مرتبطة بها واضحاً جدّاً إلى حدّ أنّ كاهناً يُدعى موستال، في مجلّته "المجلّة الكاثوليكية" *Revue Catholique*، تحدّث عن المعارضة البلّاديّة لديانا على أنّها العتبة المؤدية إلى الهداية. وعبّرت ديانا عن وجودها بإرسال ورقتيْن بقيمة مائة فرنك إلى موستال لفقراء خورنيّته. فكان أن دعا موستال قرّاءه للدعاء من أجل هداية ديانا للمسيحية.

أقسم أنّنا لم نختلق موستال ولم نؤجِّره، ولكنه كان يبدو أنّه يتبع سيناريو كتبناه نحن. وإلى جانب مجلّته وقفت أيضاً مجلّة "الأسبوع الديني" *La Semaine*

*Religieuse*، المستلهَمة من نيافة الأسقف فافا، أسقف غرونوبل.

في يونيو 1895، حسب ما يبدو لي، اعتنقت ديانا المسيحيّة، وفي ظرف ستّة أشهر نشرت، دائماً في شكل كُرّاسات، "مذكّرات بلادية سابقة" *Mémoires d'une ex-palladiste*. ومن كان مشاركاً في كُرّاسات "البلّاديون المتجدّد الحرّ" *Le Palladium Régéneré* (الذي أوقف بطبيعة الحال صدوره) بإمكانه أن يحوّل اشتراكه إلى "المذكّرات" أو أن يسترجع نقوده. والظاهر أنّه ما عدا بعض المتشدّدين، قَبِل القرّاء تغيير الاشتراك. في نهاية الأمر قصّت ديانا المهتدية حكايات لها نفس غرابة الحكايات التي كانت تقصّها ديانا المذنبة، وهذا ما كان ينتظره جمهور القرّاء- تلك كانت فكرة تاكسيل الأساسية، وهي أنه لا يوجد فرق بين رواية علاقات بيو التاسع النسائيّة أو طقوس الجنس المِثْلي لبعض الإبليسيّين الماسونيّين. الناس يريدون المحظُور، وكفى.

وكانت ديانا تعِدُهم بأشياء محظُورة: "سأكتب لأعرّف بكلّ ما حدث في المثلّثات وقد حاولت بكلّ جهدي منعها، وما تقزّزت منه دائماً وما كنت أظنّ أنّه شيء حسن. وعلى القرّاء أن يحكموا..."

برافو ديانا. لقد خلقنا أسطورة. أما هي فلم تُحط علماً بشيء من ذلك، وكانت تعيش في نشوة الانخطاف الناجم عن المخدّرات التي كنّا نناولها إيّاها لتبقى هادئة، وكانت تتجاوب فقط مع ملامساتنا (يا إلٰهي، كلّا، ملامساتهم).

* * *

أعيش من جديد لحظات الهيجان الكبير. تركّز على ديانا الملائكيّة المهتدية كُلُّ حماس ووَلَه كهنة وأساقفة، أمّهات ومذنبين تائبين. تقصّ صحيفة "الحاج" *Le Pélerin* أنّ امرأة اسمها لويز تشكو من مرض عُضال قامت بزيارة إلى لُورد تحت رعاية ديانا وشُفيت من مرضها بمعجزة. وكتبت "الصليب" *La Croix*، أكبرُ صحيفة يومية كاثوليكية: "قرأنا التجارب المطبعيّة من الباب الأوّل من "مذكّرات بلّاديّة سابقة"، التي بدأت في نشرها الآنسة فوغن، ولا نزال تحت تأثير عاطفة لا توصف. يا لروعة النعمة الإلٰهية عندما تغمر النفوس التي تستسلم لها...". وسيادة الأسقف لادزارسكي، مفوّض الفاتيكان لدى اللجنة المركزيّة للاتحاد المناهض للماسونية، أقام



. . . وعرضنا فوراً على ديانا صورة أكثر أنوثة. . . (ص352)

احتفالاً بهداية ديانا وحفل شكر دينيّ في كنيسة قلب يسوع بروما، كما أنّ نشيداً مكرّساً لجان دارك، منسوباً تأليفه لديانا (ولكنّه كان في الواقع لحن أوبريت موسيقيّة ألّفها صديق لتاكسيل لست أدري لأيّ سلطان أو خليفة مسلم) أُنْجِز غِناؤه في الاحتفالات المناهضة للماسونيّة المنظمة من قِبل اللجنة الرومانية وجرى إنشاده أيضاً في بعض الكنائس.

وهنا أيضاً، كما لو ابتدعنا الأمْرَ نحن، تدخلتْ لصالح ديانا كارميليتانيّة من ليزيو اتّسمَتْ بنفحة قداسة رغم صغر سنّها. هذه الراهبة تيريزا التابعة لنظام يسوع الطفل والوجه المقدّس، بعد أن وصلتها مذكّرات ديانا المهتدية تأثّرت بهذه المَخْلُوقة إلى حدّ أنّها أقحمتها كشخصيّة في عمل مسرحيّ ألّفته لأخواتها الراهبات بعنوان *Il trionfo dell'umiltà* (انتصار التواضع)، حيث توجد أيضاً شخصيّة جان دارك. وأرسلت إلى ديانا صورتها لابسة زيّ جان دارك.

وبينما كانت مذكرات ديانا تُترجم إلى عدّة لغات، هنّأها الكاردينال النائب باروكي بتلك الهداية التي يعتبرها "النصر الرائع للفضيلة"، وسيادة النائب الرسولي فينتشانسو ساردي كتب أنّ النعمة الإلٰهية جعلت ديانا تدخل ضمن تلك الطائفة الشرّيرة لكي تتمكّن، بعد ذلك، من دحضها كأفضل ما يكون، وأكّدت صحيفة "الحضارة الكاثوليكيّة" *Civiltà Cattolica* أنّ الآنسة ديانا فوغن، "التي دُعيت من الظلمات إلى النور الإلٰهي، تستعمل الآن تجربتها لخدمة الكنيسة بمنشورات لا يوجد مثيلها في الدقّة والفائدة".

* * *

أصبحتُ أرى بولاّن كثير التردّد على أوتوي. ماذا كانت طبيعة علاقاته بديانا؟ باغتُّهما مراراً، على إثر عودة مفاجئة إلى أوتوي، وهما متعانقان، وديانا تنظر إلى السقف بنشوة انخطاف. ولكن لعلّها كانت قد دخلت في الحالة الثانية، واعترفت لتوّها، وكانت تتمتّع بتطهيرها. علاقات المرأة بتاكسيل كانت تبدو لي أكثر إثارة للريبة. دائماً عند عودة مفاجئة وجدتها على الأريكة شبه عارية بين أحضان تاكسيل محتقن الوجه. حسناً، قلت في نفسي، ينبغي أن يرضي شخصٌ ما النزوات الجنسيّة لديانا "الشريرة"، ولا أريد أن أكون أنا. العلاقة الجنسية مع امرأة شيء مقزّز فما بالك مع مجنونة.

عندما أجد نفسي مع ديانا "الطيّبة" فهي تسند بعذريّة رأسها على كتفيّ وتبكي متوسّلة أن أمنحها الغفران. كان دفء ذلك الرأس على خدّي وأنفاسها العابقة توبة تثير فيّ رعدة- بحيث كنت أتراجع على الفور داعياً ديانا إلى الذهاب للركوع أمام بعض اللوحات المقدّسة وطلب المغفرة.

* * *

في المحافل البلاّديّة (هل تُوجَد فعلاً؟ يبدو أنّ رسائل مجهولة الاسم كانت تدلّ على وجودها، ثم إنّه يكفي أن يتحدّث المرءُ عن شيء ما لكي يصبح موجوداً) كانوا يهمسون بتهديدات غامضة ضدّ ديانا الخائنة. أثناء ذلك وقع شيء لا أتذكره جيّداً. يخطر ببالي أن أقول: موت القسّ بولاّن. ومع ذلك فقد كنت أتذكّره بصفة غائمة إلى جانب ديانا حتى في السنوات الأقرب.

لقد أجهدتُ ذاكرتي فوق اللزوم. يجب أن أرتاح.

# 23

## اثنتا عشرة سنة موفَّقة

**من يوميّات 15 و16 نيسان/ أبريل 1897**

عند هذا الحدّ لا تتقاطع صفحات يوميّات دلّا بيكّولا فقط بصفة شبه مهتاجة، إن جاز القول، مع صفحات سيمونيني، متحدّثَيْن أحياناً عن نفس الواقعة، لكن من وجهات نظر متعاكسة، بل إنّ صفحات سيمونيني نفسها تصبح مضطربة كما لو كان يصعب عليه تذكُّر أحداث مختلفة في الوقت نفسه، وشخصيّات وأوساط وجد نفسه فيها خلال نفس السنوات. الفترة الزمنيّة التي يعيد سيمونيني تركيبها (ويخلط في الغالب الأوقات، واضعاً حدثاً قبل الآخر، كان حسب كلّ ظنّ قد وقع بعده) تمتدّ تقريباً من هداية تاكسيل المزعومة، إلى سنة 1896 أو 97. اثنتا عشرة سنة على الأقلّ، في سلسلة من الملحوظات السريعة، تكاد تكون أحياناً مختزلة، كما لو كان يخشى أن تفلت منه أشياء طفت فجأة على سطح ذاكرته، تتخلّلها تقارير أكثر إسهاباً عن محادثات، وتأمّلات وأحداث مأساوية.

لذا فإنّ الراوي سيقتصر، إذ وجد نفسه محروماً من تلك القوّة السرديّة المتوازنة التي يبدو أنها غابت أيضاً عن محرّر اليوميّات، على فصل الذكريات إلى أبواب مختلفة، كما لو أنّ الأحداث وقعت الواحدة تِلْوَ الأخرى، بينما وقعت في أغلب الظنّ بصفة متزامنة - كمن يقول إنّ سيمونيني كان يخرج من محادثة مع راكوفسكي ليلتقي في العشية نفسها مع غافيالي. لا أكثر، كما يقولون.

## صالون آدم

يذكر سيموניني كيف أنه، بعد أن دفع تاكسيل على درب الهداية (أمّا لماذا اختطفه منه دلّا بيكّولا بعد ذلك، فهو لا يدري) قرّر - إن لم نقل الدخول فعلاً في الماسونية - أن يخالط الأوساط الجمهوريّة أو القريبة منها حيث تصوّر أنّه سيجد عدداً وفيراً من الماسونيّين. وبفضل العلاقات الطيبة التي عرفها في مكتبة شارع دي بون، وبالخصوص توسّنيل، قبلوه ليرتاد صالون تلك المسمّاة جولييت لامسّين، والتي صارت مدام آدم، وهي، إذن، زوجة نائب من اليسار الجمهوري، مؤسّس "القرض العقاري" Crédit Foncier ثم سيناتوراً مدى الحياة. وإذن ثراء وسياسة عُليا وثقافة كانت تزين ذلك البيت في بولفار بواسّونيير أوّلاً، ثمّ في بولفار مالزارب، حيث صاحبة البيت ليست فقط هي نفسها مؤلّفة ذات شهرة (فقد أصدرت حتى سيرة لغاريبالدي)، بل كان يرتاده رجال دولة مثل غامبيتّا، تيار أو كليمنصو، وكتّاب من قبيل برودوم، فلوبير، موباسّان، تورغينييف. والتقى فيه سيمونيني فيكتور هيغو، قبل وفاته وقد صار نَفْسُه مَعْلَماً حيّاً، حجّرته السنون والصدريّة وبقايا التهاب في المخّ.

لم يكن سيمونيني معتاداً على مخالطة ذلك الوسط. قد يكون التقى في تلك السنوات بالذات الدكتور فرويد عند مانيي (كما يتذكّر في يوميّات 25 مارس) وابتسم حينما قصّ عليه الطبيب أنّه عند الذهاب للعشاء عند شاركو، كان عليه أن يقتني بذلة "فراك" وربطة عنق، وليس هذا فقط، بل وأيضاً لحية جميلة جديدة من عند أفضل (وأكتم) صانع شعر اصطناعي في باريس. إلّا أنّه، حتى وإن مكّنته دراساته الشبابيّة من بعض الثقافة، وفي السنوات الباريسيّة لم يهمل قراءة بعض الكتب، فقد وجَد نفسه مُحْرَجاً في خضمّ مجادلة لامعة، مطّلعة وأحياناً عميقة، يظهر فيها مشاركوها دائماً دقيقي الاطّلاع. لذا كان يلازم الصمت، ويستمع إلى كلّ شيء بانتباه مقتصراً فقط على الإشارة أحياناً إلى بعض الوقائع الحربيّة البعيدة أثناء حملة صقليّة، والحديث عن غاريبالدي في فرنسا كان دائماً شيئاً محبّذاً.

كان مذهولاً. أعدّ نفسه للاستماع ليس إلى الخطابات ذات الطابع

الجمهوري فقط، وهو أقلّ ما يُمكن انتظاره في تلك الفترة، وإنما إلى سماع خطابات ثوريّة بأتمّ معنى الكلمة أيضاً، وعلى عكس ذلك، كانت جولييت آدم تحبّ مخالطة شخصيات روسيّة لها ارتباط واضح بالأوساط القيصريّة، وكانت تتكلّم الإنكليزية، مثل صديقها توسّنيل، وتنشر في مجلّتها "المجلّة الجديدة" *Nouvelle Revue* لشخصيّة من قبيل ليون دودي، المعتبر بحقّ رجعيّاً، بقدر ما كان أبوه ألفونس معتبراً ديمقراطيّاً صادقاً - ولكن، لنقل الحقيقة، ثناءً على مدام آدم، كان الاثنان مقبولَيْن في ناديها.

ولم يكن واضحاً قَطُّ من أين جاءت المجادلة المناهضة لليهوديّة التي كانت غالباً ما تحتدّ أثناء النقاشات في الصالون. من الحقد الاشتراكي ضدّ الرأسمالية اليهودية، وكان يمثلها توسّنيل الشهير، أو من المناهضة الصوفية لليهود، وكانت تروّجها جوليانا غلينكا، الوثيقة الارتباط بالأوساط السحرية الروسيّة، المحتوية لطقوس ديانة الكونذُومبلي البرازيليّة التي تعلّمتها وهي فتاة عندما كان أبوها يعمل ديبلوماسيّاً هناك، والتي كانت صديقة حميمة (كما يُتهامس به) لكبيرة عَرّافات السحرية الباريسيّة في تلك الأيام، مدام بلافاتسكي؟

لم يكن احتراز جولييت آدم تجاه العالم اليهوديّ مقنّعاً، وقد حضر سيمونيني سهرة استمع فيها إلى قراءات علنيّة لبعض الفقرات من الكاتب الروسي دوستويفسكي، وقد كان مديناً بكلّ وضوح لمكاشفات ذلك المسمّى برافمان، وقد سبق لسيمونيني أن التقى به، بخصوص الكَحَل الكبير.

- يقول لنا دوستويفسكي إنّه نظراً لفقدانهم لأرضهم واستقلالهم السياسي أكثر من مرّة، وشريعتهم وحتى ديانتهم، ومع ذلك بقوا على قيد الوجود، متّحدين أكثر من ذي قبل، فإنّ هؤلاء اليهود بما لديهم من حيويّة، ومن قوّة وطاقة خارقة للعادة، ما كان يُمكنهم أن يقاوموا لولا وجود دولة فوق الدول الموجودة، دولة داخل الدولة *status in statu*، حافظوا عليها دائماً وفي كلّ مكان حتى في فترات اضطهاداتهم المريعة، منعزلين ومتميّزين عن الشعوب التي يعيشون بينها، دون الانصهار فيها، ومتمسّكين بمبدأ أساسي: "حتى عندما تكون مشتّتاً على وجه الأرض، لا يهمّ، كن واثقاً أنّ كلّ ما وُعدت به سيتحقّق،

وبالتالي عِشْ، ازدرِ، اتَّحِدْ، استغلَّ، وانتظرْ، انتظرْ..."

- دوستويفسكي هذا معلّم كبير في الخطابة، علّق توسّنيل. هل رأيتم كيف يستهلّ معبّراً عن تفهّمه، وتعاطفه، وأجرؤ على قول احترامه لليهود: "هل إنّني أنا أيضاً عدوّ اليهود؟ هل من الممكن أن أكون عدوّاً لهذا العرق التعيس؟ على العكس، أقول وأكتب أنّ كلّ ما يتطلّبه الحسّ الإنساني والعدالة، وكلّ ما هو ضرورة بشريّة وشريعة مسيحيّة، كلّ هذا يجب أن يعمل لفائدة اليهود...". إنه وعد جميل. ولكنه بعد ذلك يبيّن كيف أنّ هذا العرق التعيس يهدف إلى هدم العالم المسيحي. مناورة جميلة. ليست جديدة، ولعلّكم لم تقرأوا البيان الشيوعي لماركس. فهو يبدأ بانقلاب فجائي رائع: " هناك شبح يحوم حول أوروبا"، ثمّ يقدّم لنا على جناح السرعة تاريخ الصراعات الاجتماعيّة من روما القديمة إلى يومنا الحاضر، والصفحات المكرّسة للبورجوازيّة باعتبارها طبقة ثورية تثير الإعجاب. يظهر لنا ماركس هذه القوّة الجديدة الجامحة التي تعبر كامل الكرة الأرضية، كما لو كانت قوّة الخلق الإلٰهيّة في بداية سِفْر التكوين. وفي نهاية هذا الإطراء (وأقسم لكم أنه كلّه مليء إعجاباً) ها هي القوى التحتيّة التي أحدثها انتصار البورجوازية تتدخل في المشهد: تخلق الرأسمالية من أحشائها براعم قابريها، البروليتاريّين. وهؤلاء أعلنوا على الفور: "الآن نحن نريد تحطيمكم والاستيلاء على كلّ ما هو لكم". رائع. وهكذا يفعل دوستويفسكي مع اليهود، فهو يبرّر المؤامرة التي تؤسّس لبقائِهم في الوجود على مرّ التاريخ، ويدينهم باعتبارهم العدوّ الذي ينبغي محوه. دوستويفسكي اشتراكي حقيقي.

- ليس اشتراكيّاً، - قاطعته جوليانا غلينكا مبتسمة. إنّه ذو رؤيا، ولذا يقول الحقيقة. انظروا كيف يذهب إلى حدّ توقّع الاعتراض الذي يبدو في الظاهر أكثر معقولية، أي إنّه حتى وإن وُجدت على مرّ القرون دولة في الدولة فقد كانت الاضطهادات هي التي وَلَّدتها، وهي ستضمحلّ لو حصل اليهوديّ على المساواة في الحقوق مع الشعوب الأصليّة. خطأ، يحذّرنا دوستويفسكي. فحتى لو حصل اليهود على نفس حقوق المواطنين الآخرين فهم لن يتخلوا أبداً عن الفكرة المغرورة بأنّ المسيح المنتظر سيأتي وبسيفه سيُخضع كلّ الشعوب. لذا فإنّ اليهود

يحبّذون نشاطاً واحداً، وهو التجارة بالذهب والجواهر؛ وهكذا عند مجيء المخلّص لن يحسّوا بأنفسهم مرتبطين بالأرض التي آوتهم، ويُمكنهم أن يحملوا معهم بسهولة كلّ أملاكهم، عندما يسطع شعاع الفجر - كما يقول دوستويفسكي بشاعريّة - ويحمل الشعب المختار الصُّنُوج والمزامير والفضة والأمتعة المقدّسة إلى الدار القديمة.

- في فرنسا تَسامَحْنا معهم كثيراً، ختم توسّنيل، والآن هاهم يسيطرون على البورصة وهم أسياد البنوك. لهذا السبب لا يُمكن للاشتراكيّة إلّا أن تكون معادية لليهود... وليس من قبيل الصدفة أن انتصر اليهود في فرنسا في الفترة بالذات التي انتصرت فيها المبادئ الجديدة للرأسمالية الواردة من وراء بحر المانش.

- أنت تبسّط الأمور كثيراً يا سيّد توسّنيل، ردّت غلينكا. في روسيا من بين مَنْ سمّمتهم الأفكار الثوريّة لذلك المدعوّ ماركس الذي أثنيت عليه بتلك الصفة يوجد الكثير من اليهود. إنهم في كلّ مكان.

ثمّ نظرت إلى نوافذ الصالون كما لو كانوا ينتظرونها بخناجرهم عند المنعطف. وكان سيمونيني يفكّر، وقد عاودته مخاوف طفولته، في موردخاي الذي كان يصعد السلّم في عمق الليل.

## في خدمة أوكرانا

رأى سيمونيني حالاً في غلينكا زبوناً محتملاً. أخذ يجلس بجانبها، ويغازلها بحذر - مع بعض الجهد. لم يكن صاحبنا قاضياً كُفْءاً بخصوص السحر الأنثوي، ولكنه لاحظ مع ذلك أنّ لِتلك المرأة وجهاً مثل خرطوم نِمْس وعينان قريبتان جدّاً من جذر الأنف، بينما جولييت آدم، حتى وإن لم تعد تلك التي عرفها قبل ذلك بعشرين سنة، لا تزال سيّدة ذات مظهر جميل ومهابة جذّابة.

ومع ذلك لم يجازف سيمونيني كثيراً مع غلينكا، كان بالأحرى يستمع إلى خيالاتها، متظاهراً بالاهتمام بما ترويه عن رؤيا عاشتها في ورزبورغ لشيخ روحيّ

1re Année. — N° 25 | Paris et Départements, le Numéro : 10 Centimes. | Samedi 30 Décembre 1893

# LA LIBRE PAROLE

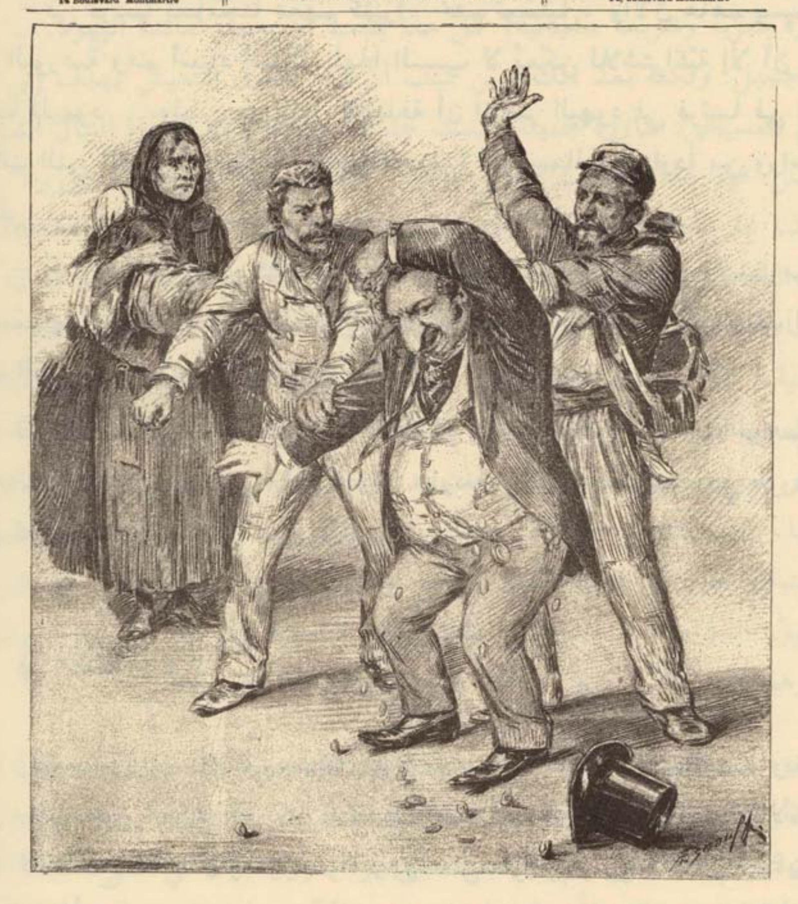
ILLUSTRÉE

*La France aux Français !*

RÉDACTION
14 Boulevard Montmartre

Directeur : EDOUARD DRUMONT

ADMINISTRATION
14, boulevard Montmartre



. . . والآن ها هم يسيطرون على البورصة وهم أسياد البنوك. لهذا السبب لا يمكن للاشتراكية إلّا أن تكون معادية لليهودية. . . (ص359)

من الهملايا سارّها، لا أدري عن أيّ مكاشفة. كانت إذن شخصاً مناسباً لتقبّل مادّة معادية لليهود مكيّفة حسب ميولاتها السريّة. خصوصاً أنّه كان شائعاً أنّ جوليانا غلينكا ابنة أخ الجنرال أورزيفسكي، وهو شخصيّة ذات مقام في الشرطة السريّة الروسيّة وأنها بواسطته دخلت بطريقة ما في الأوكرانا، المخابرات السريّة الإمبراطورية - وبتلك الصفة ارتبطت (ولا يُفهم إن كانت موظفة، أو شريكة أو منافسة مباشرة) بالمسؤول الجديد عن كلّ الأبحاث في الخارج، بيوتر راشكوفسكي. وقد عبّرت صحيفة "الراديكالي *Le Radical*"، وهي جريدة يساريّة، عن شكوكها بأنّ غلينكا تستمدّ أسباب عيشها من التبليغ المنهجي عن الإرهابيّين الرّوس في المنفى - وهذا يعني أنها لم تكن ترتاد فقط صالون آدم بل أماكن أخرى أيضاً كان سيمونيني يجهلها.

يجب تكييف مشهد مقبرة براغ حسب ذوق غلينكا، بحذف الإسهابات في المشاريع الاقتصاديّة وبالإلحاح أكثر على الجوانب المتعلّقة بقدوم المسيح المنتظر في خطابات الأحبار.

أطلق سيمونيني، وهو يستقي بعض العناصر من غوجنو وبعض العناصر الأخرى من مؤلَّفات تلك الفترة، العِنانَ كلّه لخيال أحباره اليهود يحلمون بقدوم السيّد المختار من طرف الربّ ليكون ملك إسرائيل، وليخلّص الأرض من شرّ المسيحيّين. وفي هذا السياق أقحم في قصّة المقبرة صفحتيْن على الأقلّ من الخيالات المسيحيّة، من قبيل: "بكلّ قوّة إبليس ورهبته، مُلْكُ مَلِك إسرائيل الظافر يقترب من عالمنا غير المتجدّد؛ الملك الذي نشأ من دم صهيون، المسيح الدجّال، يقترب من عرش القوّة الكونيّة". ولكن، باعتبار أنّ ما يحدث الهلع في الأوساط القيصريّة هو كلّ فكرة جمهوريّة، أضاف أنّ النظام الجمهوري القائم على الانتخاب الشعبي هو الوحيد الذي سيُمكّن اليهود، بشراء الأغلبيّة، من إدخال القوانين الصالحة لتحقيق أهدافهم. أولئك المسيحيُّون الأغبياء فقط، كان يقول الأحبار في المقبرة، يعتقدون أنّ تحت الجمهوريّة توجد أكثر حريّة ممّا هي عليه تحت حكم استبدادي؛ على العكس، في دولة استبداديّة يحكم الحكماء، بينما في النظام الليبرالي يحكم الرَّعاع، التي يسهل على الأعوان اليهود

تحريضهم. أما كيف أمكن للجمهورية أن تعيش مع مَلِك العالم فقد كان شيئاً لا يقلقه كثيراً: ومثال نابوليون الثالث لا يزال هناك ليذكّر أنّ الجمهوريّات يُمكن أن تولّد الأباطرة.

ولكن خطرت ببال سيمونيني، وهو يتذكّر حكايات جَدّه، فكرة إثراء خطابات الأحبار بتأليف مطوّل يشرح كيف عملت وكيف يجب أن تعمل حكومة العالم الخفيّة. من الغريب أنّ غلينكا لم تتفطّن إلى أنّ الحُجَج هي نفس حُجَج دوستويفسكي - أو لعلّها تفطّنت لذلك، ولهذا السبب بالذات كانت تتهلّل لكون نصّ قديم جدّاً يوافق ما قاله دوستويفسكي، وبهذا يشهد عن أصالته.

إذن، في مقبرة براغ ينكشف أنّ القباليّين اليهود كانوا ملهمي الحروب الصليبيّة بغاية إضفاء عظمة على أورشليم باعتبارها مركز العالم، وذلك أيضاً (وهنا كان سيمونيني يعرف أن بإمكانه أن يغرف من ذخيرة على غاية من الثراء) بفضل الهيكليّين الحاضرين دائماً. وإنه لمؤسف أن ألقى العرب بالصليبيّين في البحر، وأن عرف فرسانُ الهيكل النهايةَ المشؤومة التي عرفوها، وإلّا لنجح المخطّط قبل بضعة قرون من الآن.

من هذا المنظار، كان أحبار براغ يتذكَّرون كيف أنّ المذهب الإنساني، والثورة الفرنسيّة وحرب الاستقلال الأميركيّة ساهمت في هدم المبادئ المسيحيّة واحترام الملوك، مهيّئة لغزو اليهود للعالم. بطبيعة الحال لتحقيق هذا المشروع كان على اليهود أن يصنعوا لأنفسهم واجهة محترمة، أي الماسونيّة.

أعاد سيمونيني استغلال بارّويل القديم بمهارة، وهو الذي لم تكن غلينكا ومفوَّضوها الرّوس بكلّ وضوح يعرفونه، وبالفعل فإنّ الجنرال أورزيفسكي، الذي أمدّته غلينكا بالتقرير، رأى من المناسب أن يستخرج منه نصّيْن: أحدهما أقصر ويقابل تقريباً المشهد الأصلي لمقبرة براغ، والذي وقع نشره على صفحات بعض المجلّات هناك - ناسياً (أو مستنتجاً أن جمهور القرّاء نَسِيَه، أو حتى دون أن يعرف) أنّ خطاباً للحَبْر، مستخرجاً من كتاب غودش، كان قد راج قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات في بطرسبرغ، وفي السنوات الموالية ظهر في كتاب 'معاداة الساميّة' *Antisemiten-Katechismus* لتيودور فريتش؛ أما النصّ الآخر فقد

ظهر في شكل أُهجية بعنوان *Tajna Evrejstva* (أسرار اليهود)، شرّفها أورزيفسكي نفسه بمقدّمة تحمل إمضاءه يقول فيها إنّه لأوّل مرّة تظهر في ذلك النصّ، الذي أُخرج من جديد للنور، العلاقات المتينة بين الماسونيّة واليهوديّة، وكلتاهما نذيرة العدميّة (وهي تهمة كانت في ذلك الزمن في روسيا خطيرة جداً).

قبض سيمونيني بطبيعة الحال مقابلاً عادلاً من طرف أورزيفسكي بينما وصلت غلينكا إلى النقطة (المخيفة والتي كان يخشاها) وهي أن تهب له جسدها مكافأة له على ذلك الإنجاز الرائع -وهي فظاعة نجا منها سيمونيني موحياً إليها، وسط ارتعاشات مفصليّة لليدين وكثير من التنهّدات العذريّة، أنّ مصيره لا يختلف عن مصير أوكتاف دي ماليفار الذي كان يتقوّل حوله منذ عشرات السنين جميع قرّاء ستاندال.

منذ تلك اللحظة أهملت غلينكا سيمونيني، وأهملها هو. إلّا أنّ سيمونيني دخل ذات يوم "مقهى السلام" **Café de la Paix** لتناول وجبة سريعة أو ***déjeuner à la fourchette*** (أضلاع وكُلَى مشوية) فوجدها جالسة إلى طاولة مع بورجوازيّ بدين وذي مظهر سوقيّ، كانت تتحادث معه في حالة تشنّج واضحة. فتوقّف لتحيّتها ولم تَرَ غلينكا بدّا من تقديمه إلى ذلك السيّد راشكوفسكي، الذي نظر إليه بكثير من الاهتمام.

في تلك الآونة لم يفهم سيمونيني أسباب ذلك الاهتمام، ولكنه عرفها بعد مرور زمن معيّن، عندما سمع أحداً يدقّ جرس دكّانه، وكان راشكوفسكي بنفسه. بابتسامة عريضة وبسلطة لامبالية عَبَر الدكان، ولاحظ السلم فصعد إلى الطابق العلوي، ودخل إلى المكتب ثمّ جلس مرتاحاً فوق أريكة صغيرة بجانب المكتب.

استهلّ حديث: - من فضلك، لنتكلّم في الأعمال.

كان أشقر مِثْلَ روسيّ، مع بعض الشيب مثل رجل جاوز الثلاثين، وكانت شفتاه لحيمتيْن وشهوانيّتيْن، وأنفه بارزاً، وحاجباه مثل شيطان سلافي، وكانت ابتسامته في مودّتها فظّة قاسية وكلماته معسولة، لاحظ سيمونيني أنه أشبه بنمر منه بأسد، وتساءل ما إذا كان الأخطر عليه أن يطلبه عصمان باي ليلاً على ضفاف نهر السّين أو أن يدعوه راشكوفسكي في الصباح الباكر إلى مكتبه بالسفارة

الروسيّة في شارع "دي غرونال". وحسم لصالح عصمان باي.

بدأ راشكوفسكي حديثه: - إذن، أيها النقيب سيموينيني، لعلّك لا تعرف جيّداً ما هو ذلك الشيء الذي تسمّونه خطأً في الغرب "أوكرانا"، والمهاجرون الرّوس يسمّونها بتحقير "أوكرانكا".

- سمعت من يهمس بذلك.

- ليس همساً، كلّ شيء في وَضَح النهار. هي *Ochrannye otdelenija*، وتعني قسم الأمن، مخابرات سريّة تابعة لوزارة الداخليّة. وقد أُحدثت بعد محاولة اغتيال القيصر الكسندر الثاني، سنة 1881، لحماية العائلة الإمبراطوريّة. ولكنّها بدأت شيئاً فشيئاً تهتمّ بتهديد الإرهاب العدميّ، ووجب عليها أن تحدث أقساماً مختلفة للمراقبة حتى في الخارج، حيث يعيش منفيّون ومهاجرون. ولهذا أنا هنا، في خدمة بلادي. في وضح النهار. من يختفي هم الإرهابيّون. هل فهمت؟

- فهمت، ولكن ما دخلي أنا؟

- لنتقدّم بنظام. لا ينبغي لك أن تخشى مصارحتي، إذا ما صادف أن وصلتك أخبار عن مجموعات إرهابيّة. بلغني أنّك في زمانك بلّغت المخابرات الفرنسيّة أخباراً عن مناهضين خطيرين لبونابرت، ولا يُمكن التبليغ إلّا عن الأصدقاء، أو على الأقلّ الأشخاص الذين نخالطهم. لست ساذجاً. أنا أيضاً في زماني كانت لي اتّصالات بإرهابيّين روس، إنها قصّة قديمة، ولكن لهذا السّبب كرّستُ مستقبلي المهني لصالح مقاومة الإرهاب، حيث لا يعمل بصفة فعّالة إلّا من عاش وأكل وشرب مع المجموعات المتمرّدة. لكي تخدم القانون بكفاءة يجب أن تكون قد انتهكته. هنا في فرنسا عندكم مثال صاحبكم فيدوك، الذي لم يتولَّ رئاسة الشرطة إلّا بعد أن قضى زمناً في السجن. لا يجب أن تثق برجال الشرطة الذين يتّسمون، كيف يُمكن القول، بنزاهة مفرطة. إنهم أغبياء. ولكن لِنَعُد إلى شأننا. في الفترة الأخيرة انتبهنا إلى أنّ في صفوف الإرهابيّين ينشط بعض المثقفين اليهود. بتفويض من بعض الأشخاص في بلاط الإمبراطور أحاول أن أبيّن أنّ اليهود هم من يهدم البنيان الأخلاقي للشعب الروسي ويهدّد حتى

وجوده. ربما ستسمع من يقول إنّي من محاسيب الوزير ويتّ، المعروف أنّه ليبراليّ، لن يستمع بتاتاً إليّ بخصوص هذه المواضيع. ولكن لا يجب أبداً أن تخدم رئيسك الحالي، تعلّم هذا، بل ينبغي أن تستعدّ لمن سيخلفه. باختصار، لا أريد إضاعة الوقت. رأيت ما سلّمته إلى السيّدة غلينكا، وقراري هو في قسم كبير منه زبالة. طبيعي، أنت اخترت كواجهة تختفي وراءها بائعَ روبابيكا، أي واحداً يبيع أشياء مستعملة بثمن أعلى من الجديدة. ولكنك قبل الآن بسنوات نشرت في "الكونطنبوران" وثائق حارقة تحصّلت عليها من جدّك، وأستغرب أن لا تكون لديك أخرى. يقولون إنّك تعرف الكثير عن أشياء كثيرة (وهنا حصَد سيمونيني فوائد مشروعه، وهو أن يظهر أكثر من كونه مجرّد جاسوس). إذن، أريدك أن تمدّني بمادّة ذات مصداقيّة. أعرف كيف أميّز الحَبّ من الحُثالة. سأدفع الأجر. ولكن، إذا كانت البضاعة غير جيّدة، فإنّني سأغضب. واضح؟

- ولكن ماذا تريد بالضبط؟

- لو كنت أعرف ذلك لما التجأت إليك. في خدمتي أشخاص يعرفون كيف يصنعون جيّداً وثيقة، ولكن يجب أن أعطيهم أنا محتواها. ولا يُمكنني أن أقصّ على الرعايا الروس الطيّبين أنّ اليهود ينتظرون المسيح، فهو شيء لا يهمّ لا الموجيك (الفلّاحين) ولا المُلّاك. إذا كانوا ينتظرون المسيح، فينبغي أن يُفسّر لَهُم ذلك في علاقة بجيوبهم.

- ولكن لماذا تستهدفُ اليهود بالذات؟

- لأنّ روسيا يُوجَد فيها يهود. لو كنتُ في تركيا لاستهدفت الأرمن.

- إذن تريد إبادة اليهود، مثل عصمان باي - لعلّك تعرفه؟

- عصمان باي متعصّب، إضافة إلى أنّه هو أيضاً يهوديّ. من الأفضل الابتعاد عنه. أنا لا أريد إبادة اليهود، بل أجرؤ على القول إنّ اليهود أفضل حُلفائي. إنّني مهتمّ بحماية أخلاق الشعب الروسي ولا أريد (أو لا يريده الأشخاص الذين آمل في نيل رضاهم) أن يوجّه هذا الشعبُ غضبه نحو القيصر. لذا يجب أن نجد له عدوّاً. ولا جدوى من البحث عن هذا العدوّ، مثلاً، وسط المغول أو التتر، مثلما فعل مستبدّو الأزمنة الغابرة. فالعدوّ لكي يُمكن التعرّف

عليه وخلق الخِشْية منه يجب أن يكون داخل البيت، أو على عتبة المنزل. هنا يكمن اختيار اليهود. لقد وهَبْتنا إيّاهم العناية الإلٰهية، فلنستعملهم، يا إلٰهي، ولنتوسّل إليها أن يبقى دائماً على الأرض بعض اليهود لكي نخشاهم ونمقتهم. يجب أن يكون هناك عدوّ لنعطي إلى الشعب أملاً. قال أحدهم إنّ الوطنيّة هي آخر ملجأ للأوغاد: من ليست له مبادئ أخلاقيّة يغلّف نفسه عادة براية، وأبناء الزّنا يتحدَّثون دائماً عن نقاوة عنصرهم. والهويّة القوميّة هي آخر حجّة للمجرومين. الحال هو أنّ معنى الهويّة يقوم على الكُرْه، كُرْه من هو غير مماثل. ينبغي تنمية الكره كعاطفة مدنيّة. العدوّ هو صديق الشعوب. يجب أن يوجد دائماً هناك أحد نكرهه لكي نجد لأنفسنا ما نبرّر به بؤسنا الخاص. الكُرْه هو العاطفة الأوّليّة الحقيقيّة. الحبّ هو الذي يمثّل وضعيّة غير عادية. لهذا السبب قُتل المسيح: كان يتكلّم ضدّ الطبيعة. لا نحبّ أحداً طيلة الحياة، من هذا الأمل المستحيل ينشأ الزّنا، وقتل الأمّ، وخيانة الصديق... على عكس ذلك بالإمكان كُرْه أحد طيلة الحياة. يكفي أن يكون حاضراً دائماً لتغذية نار كُرْهنا. الكُرْه يدفئ القلب.

## درومون

بقي سيمونيني منشغلاً على إثر ذلك الحوار. راشكوفسكي كان يبدو عليه أنه يتكلّم بجديّة، وإذا لم يُعْطِهِ مادّة جديدة فسوف "يغضب". الآن، الأمر ليس أنّه استنفد كلّ مصادره، بل العكس فقد جمع وثائق عديدة لبروتوكولاته المختلفة، ولكنّه أحسّ بأنّه يجب أن يضيف شيئاً آخر، وليس فقط تلك القصص بخصوص المسيح الدجّال التي قد تصلح لأشخاص من طراز غلينكا، بل شيئاً يمسّ من قريب الوضعية الحالية. باختصار، لم يكن يريد بيع مقبرته البراغيّة المحيّنة بالتخفيض، بل الرفع من قيمتها. ولذا كان ينتظر.

أفضى بمشاغله إلى الأب برغماسكي، الذي كان هو أيضاً يلحّ عليه للحصول على نصوص معادية للماسونية.

قال له اليسوعي: - انظر هذا الكتاب، عنوانه "فرنسا اليهودية" *La France juive* لإدوار درومون. مئات الصفحات. هو ذا شخص يبدو، بكلّ وضوح، أعلَمَ منك بالموضوع.

ما إن تصفّح سيمونيني الكتاب حتى هتف: - ولكنّها نفس الأشياء التي كتبها العجوز غوجنو، منذ ما يزيد عن خمس عشرة سنة.

- وأين المشكل؟ هذا الكتاب تخاطفه الناس، من الواضح أنّ قرّاءه لا يعرفون غوجنو. وأنت تريد أن يكون زبونك الروسي قد قرأ درومون؟ ألست أنت سيّد إعادة التدوير؟ اذهبْ لتتشمَّم ما يُقال وما يُفعل في تلك الأوساط.

كان من السهل الاتصال بدرومون. في صالون آدم، حاز سيمونيني على صداقة ألفونس دودي الذي دعاه إلى سهرات كان ينظمها، عندما لا يكون دور صالون آدم، في منزله بشامبروزاي، حيث حظِيَتْ بحفاوةِ استقبال جوليا دودي الجميلة شخصيّاتٌ مثل دي غونكور، بيارّ لوتي، إميل زولا، فريدريك ميسترال ودرومون بالذات، الذي بدأ صيته يذيع بعد نشر كتابه "فرنسا اليهودية". وفي السنوات التالية بدأ سيمونيني يخالطه، أولاً، في الرابطة المُناهضة للساميّة *La Ligue Antisémitique* التي كان قد أسّسها، وبعد ذلك في إدارة تحرير جريدته، "الكلمة الحرّة" *La Libre Parole*.

كان شَعْر درومون مثل لُبْدة أسد، مع لحية كبيرة سوداء، وأنف معقوف وعينين وقّادتيْن، إذ يُمكنك القول إنه يبدو (إذا صدّقنا الرسوم الأيقونية الدارجة) نبيّاً يهوديّاً؛ وبالفعل، كان في معاداته لليهودية شيء يشبه النُّبُوءَة والرسالة، كما لو أنّ الربّ أوكل إليه المهمّة الخصوصيّة المتمثلة في القضاء على الشعب المختار. وما كان يجذب سيمونيني إليه هو حقد درومون المعادي لليهودية. كان هو يكره اليهود، إن جاز القول، بدافع حبّ، أواختيار، أو غرام - بنزوة كانت تعوِّض النزوة الجنسية. ولكن درومون لم يكن مناهضاً للساميّة بصفة فلسفيّة أو سياسيّة مثل توسُّنيل، أو بصفة لاهوتيّة مثل غوجنو، كانت مناهضته للساميّة شهوانيّة.

كان يكفي أن تسمعه يتحدّث، في الاجتماعات الطويلة خلال أوقات الفراغ في مقرّ تحرير الجريدة.

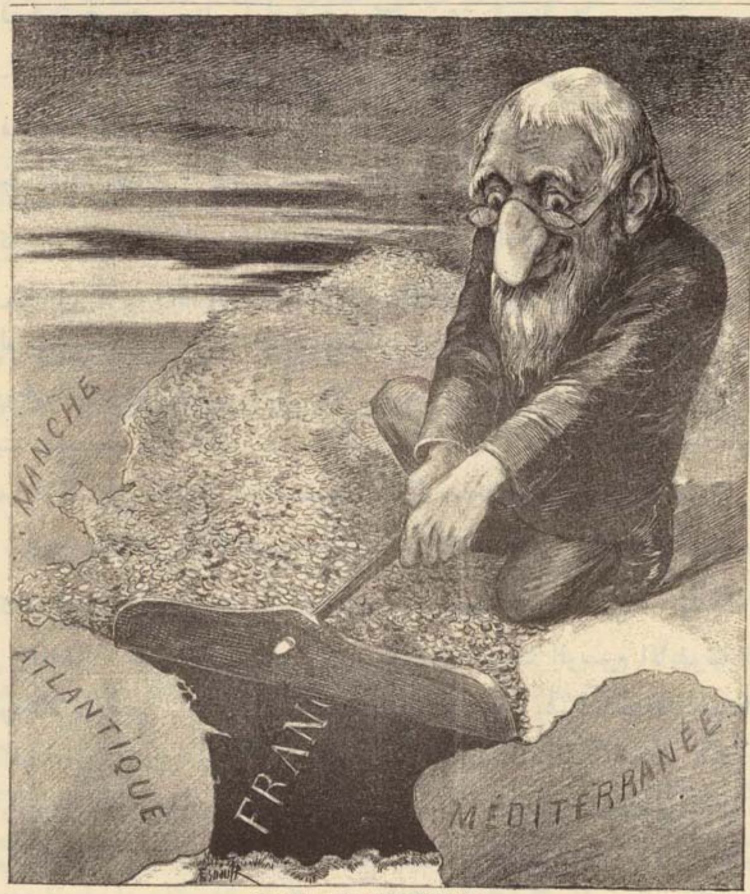
1re Année. — N° 23 | Paris et Départements, le Numéro : 10 Centimes. | Samedi 16 Décembre 1893

# LA LIBRE PAROLE

**ILLUSTRÉE**

*La France aux Français !*

RÉDACTION
14 Boulevard Montmartre | Directeur : EDOUARD DRUMONT | ADMINISTRATION
14, boulevard Montmartre




SI NOUS LES LAISSONS FAIRE ....

... وفي السنوات التالية بدأ سيمونيني يخالطه، في البداية في الرابطة المناهضة للسامية La Ligue Antisإmitique التي كان قد أسّسها، وبعد ذلك في إدارة تحرير جريدته، ...La Libre Parole (ص367)

- لقد كتبتُ عن طيب خاطر مقدّمة ذلك الكتاب للقسّ ديبورت، حول سرّ الدم عند اليهود. ولا يتعلّق الأمر بممارسات القرون الوسطى فقط. حتى الآن لا زالت البارونات الربانيّات اليهوديّات اللاتي يعقدن صالونات في بيوتهنّ يضعن دم أطفال مسيحيّين في المرطّبات اللاتي يقدّمنها إلى ضيوفهنّ.

ويضيف:

- الساميّ متاجر، شحّيح، دسّاس، خبيث، ماكر، بينما نحن الآريّين متحمّسون، بطوليّون، فروسيّون، نُزَهاء، صريحون، نثق بالآخرين حتى البلاهة. الساميّ أرضي، لا يرى أبعد من حياته الراهنة، هل رأيتم أبداً في العهد القديم إشارة إلى ما بعد الموت؟ أمّا الآري فيستحوذ عليه دائماً الشوق إلى السموّ، إنه ابن المثالية. الرب المسيحي موجود في أعلى السماوات، أما الربّ اليهودي فهو يتجلّى أحياناً فوق جبل، وأحياناً في عَوْسَج، وليس أبداً في مكان سامٍ. الساميّ تاجر، أمّا الآري فهو فلّاح، شاعر، راهب، وهو بالخصوص جنديّ، لأنه يتحدّى الموت. الساميّ لا يملك قدرة على الإبداع، هل رأيتم أبداً موسيقيّين، رسّامين، شعراء يهوداً، هل رأيتم أبداً يهوديّاً حقّق اكتشافات علميّة؟ الآري مخترع، أمّا الساميّ فهو يستغلّ اختراعاته.

كان يذكر فقرة لفاغنر تقول:

"لا يُمكن تصوّر شخصيّة من العصور القديمة أو من الأزمنة الحديثة، بطلاً أو عاشقاً، يمثّلها من طرف يهوديٌّ دون أن تحسّ بصفة لاإراديّة بمقدار سخافة تمثيل من ذلك النوع. والشيء الذي يقزّزنا منه أكثر هو اللكنة الخصوصيّة التي تميّز لهجة اليهود. تصدم آذاننا بالخصوص نبرات هذه اللغة الحادة، كلّها صفير وصرير. من الطبيعي أن عقم طبيعة اليهوديّ الوراثي والسمج بالنسبة إلينا يجد تعبيره الأسمى في الغناء، الذي هو أكثر التعابير عن العاطفة الإنسانية حيويّة وأصالة. يُمكن أن نعترف لليهوديّ ببعض الكفاءة الفنيّة بخصوص أيّ فنّ ما عدا الغناء، الذي يبدو أنّ الطبيعة نفسها حرمته منه".

تساءل أحدهم: - وإذن، كيف نفسّر أنّهم اجتاحوا المسرح الموسيقي؟ روسّيني، مايربيير، مندلسون، أو جيوديتا باستا، كلّهم يهود...

ولاحظ آخر: - ربما لأنه ليس صحيحاً أنّ الموسيقى فنّ راقٍ، ألم يقل ذلك الفيلسوف الألماني أنّها أدنى من الرّسم ومن الأدب، لأنّها تضايق أيضاً من لا يريد سماعها؟ إذا عزف أحدهم حذوك لحناً لا يعجبك، فأنت مجبر على سماعه، مثلما يأخذ أحد من جيبه منديلاً معطّراً بعطر يقرّزك. الفخر الآري هو الأدب، وهو الآن في أزمة. أما الموسيقى، التي هي فنّ حسيّ صالح للمخنّثين وللمرضى، فهي على العكس منتصِرة. بعد التمساح، اليهودي هو أكثر المحبّين للموسيقى من بين كلّ الحيوانات، كلّ اليهود موسيقيّون. العازفون على البيانو، والكمان، والفيولونسيل، كلهم يهود.

- نعم، عقّب درومون، ولكن فقط باعتبارهم مُنجزِين، متطفّلين يعيشون عالة على كبار المؤلفين. لقد ذكرتم مايربيير و مندلسون، وهما موسيقيّان من درجة ثانية، أمّا فيليب وأوفنباخ فليسا يهوديّيْن.

تبعت ذلك مناقشة طويلة بخصوص ما إذا كان اليهود غرباء عن الموسيقى أو أن الموسيقى فنّ يهودي بامتياز، ولكن الآراء كانت متضاربة.

بلغ الغضب لدى الرابطة المناهضة للسامية أشدّه عندما كان برج إيفل لا يزال مجرّد مشروع وتفاقم أكثر حينما تمّ إنجازه: كان إنجازَ يهوديّ ألماني، وكان الردّ اليهودي على كنيسة القلب المقدّس أو Sacré-Coeur. ودي بياز، الذي كان ربّما أشدّ الجماعة عداء لليهود، والذي بنى حجّته بخصوص وضعية اليهود الدُّنيا على كونهم يكتبون من الجهة المعاكسة التي يكتب بها الناس العاديّون، كان يقول:

- إنّ شكل هذا الإنجاز البابليّ نفسه يبيّن أنّ عقلهم ليس مصنوعاً مثل عقلنا. . .

ثم مَرُّوا بعد ذلك إلى الحديث عن الإدمان على الكحول، الذي كان مصيبة فرنسا في ذلك الوقت. يقولون إنّ استهلاك الكحول في باريس بلغ 141,000 هكتوليتر في السنة.

قال أحدهم: - الكحول، نشره اليهود والماسونيّون الذين طوّروا سُمّهم التقليديّ، ماء توفانا. الآن يصنعون سُمّاً يبدو ماءً إلّا أنه يحتوي على الأفيون

والذرّوح. يحدث ذُهولاً وغباء، ويؤدي إلى الموت. يوضع في المشروبات الكحولية، ويدفع إلى الانتحار.

- والإباحية؟ كتب توسّونيل (أحياناً حتى الاشتراكيّون يقولون الحقيقة) يقول إنّ الخنزير هو شعار اليهودي الذي لا يستحي من التمرّغ في الحقارة والخزي. ومن ناحية أخرى يقول التلمود إنّ حلم أحدٍ ما بالبِراز طالع خير. كلّ المنشورات الفاحشة يطبعها اليهود. اذهبوا إلى شارع دي كرواسّون، هذا السّوق للصحف الإباحيّة. إنّها دكاكين حقيرة (يهوديّة) الواحد تلو الآخر، مشاهد فجور، رهبان يضاجعون فتيات، كهنة يجلدون نساء عاريات، يغطّيهنّ فقط شعرهنّ، مشاهد عبادة القضيب، شتل من رهبان سكارى. الناس يمرّون ويتضاحكون، حتى عائلات يصحبها أطفال! إنّه، واعذروا قولي، انتصار الدُّبُر. كهنة لوطيّون، أرداف راهبات يجلدهنّ كهنة فاسقون...

وكان الموضوع الأخر المألوف هو ترحّل اليهود.

وذكّر درومون: - اليهوديّ مترحّل، ولكن هرباً من شيء ما، وليس لاكتشاف أراضٍ جديدة. الآري يسافر، ويكتشف أميركا، والأراضي المجهولة، أمّا الساميّ فهو ينتظر أن يكتشف الآري أراضيَ جديدة ثم يذهب لاستغلالها. وانتبهوا إلى فنّ الحكاية. بقطع النظر على أنّ اليهود لم يكن لديهم أبداً خيال كافٍ لابتداع حكاية جميلة، فإنّ إخوانهم الساميّين، العرب، قصّوا حكايات "ألف ليلة وليلة"، حيث يجد أحدهم قربة مليئة بالذهب، أو مغارة مليئة بجواهر اللصوص، أو قُمْقُماً يسكن فيه جنيّ طيّب - وكلّ شيء يأتيه هديّة من السماء. بينما في الحكايات الآرية مثل امتلاك الغرال (الكأس المقدَّسة)، يجب الظفر بكلّ شيء من خلال الكفاح والتضحية.

وقال أحد أصدقاء درومون: - ومع هذا كلّه، تمكّن اليهود من البقاء على قيد الحياة رغم كلّ الظروف المناوئة...

- بكلّ تأكيد، أجابه درومون وهو يفور من الحقد، يستحيل تدميرهم. كلّ الشعوب الأخرى، عندما تهاجر إلى بيئة مختلفة، لا تتحمّل تغييرات المناخ،

والغذاء الجديد، وتضعف. هم على العكس، مع التنقّل يتقوّون، مثلما يحدث مع الحشرات.

- إنهم مثل الغجر، لا يمرضون أبداً حتى عندما يأكلون جيف الحيوانات. ربما يعينهم في ذلك أكل لحم البشر، ولذا يختطفون الأطفال...

- ولكن ليس من المؤكّد أن أكل لحم البشر يطيل العمر، انظر مثلاً سود إفريقيا: يأكلون لحم البشر ومع ذلك فهم يموتون مثل الذباب في قراهم.

- كيف تفسّر إذن مناعة اليهودي؟ متوسّط العمر عند اليهودي هو ثلاثة وخمسون سنة بينما المسيحيّ سبعة وثلاثون. والظاهرة التي لوحظت منذ القرون الوسطى هي أنهم أكثر مقاومة للأوبئة من المسيحيّين. يبدو أنّهم مصابون بطاعون دائم يحميهم من الوباء العادي.

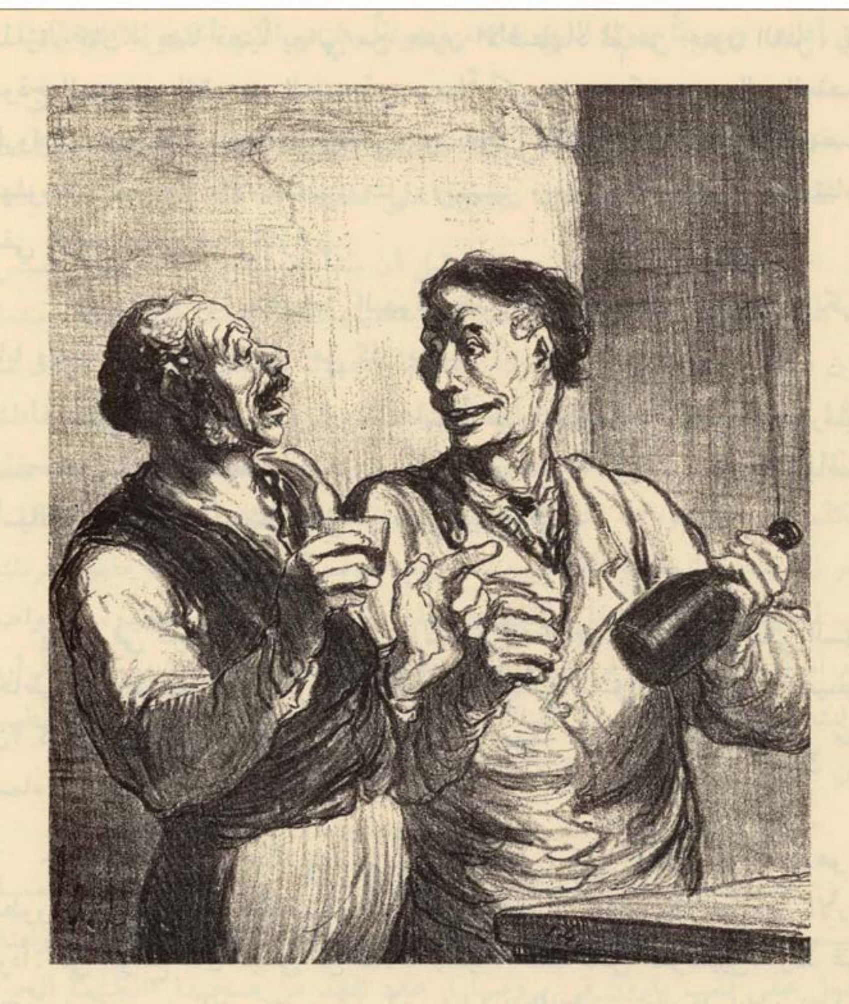
لاحظ سيمونيني أنّ هذه المواضيع سبق أن درسها غوجنو، ولكن في نادي درومون كانوا لا يهتمّون كثيراً بجدّة الأفكار بقدر ما يهتمّون بحقيقتها.

قال درومون: - حسناً، إنهم أكثر مقاومة منّا للأمراض الجسديّة، ولكنهم أكثر عرضة للأمراض الذهنيّة. فالعيش دائماً وسط الصفقات، والمُضاربات والمُؤامرات يُصيب جهازهم العصبي بالاختلال. في إيطاليا يوجد مخبول بين ثلاثمائة وثمانية وأربعين يهوديّاً وواحد بين سبعمائة وثمانية وسبعين كاثوليكيّاً. قام شاركو بدراسات قيّمة حول اليهود الروس، الذين نعرف أخبارهم لأنهم فقراء، بينما في فرنسا هم أثرياء ويسترون أمراضهم في مصحّة الدكتور بلانش بأسعار باهظة. هل تعرفون أن ساره برنارد تحتفظ بتابوت في غرفة نومها؟

- إنهم ينجبون بسرعة مضاعفة بالمقارنة معنا. لقد تجاوز الآن عددهم في العالم الأربعة ملايين.

- كان ذلك أيضاً في سِفْر الخروج، بنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جدّاً وامتلأت الأرض منهم.

- ها هم هنا الآن. وكانوا هنا حتى عندما كنا لا نظن وجودهم. من كان Marat؟ اسمه الحقيقي هو Mara. عائلته من أصل سَفَرْديّ طُردت من إسبانيا، ولإخفاء أصلها اليهودي أصبحت بروتستانيّة. مارا: نهشه الجُذام، ومات في



... الكحول، كان يقول أحدهم، نشره اليهود والماسونيّة الذين طوّروا سمّهم التقليدي، ماء توفانا... (ص370)

القذارة، كان مريضا ذهنيّاً يعاني من جنون الاضطهاد ثمّ من جنون القتل، كان أنموذج اليهودي، انتقم من المسيحيّين مرسلاً أكبر عدد ممكن منهم إلى المقصلة. انظروا إلى صورته في متحف كرنفالي، وسيتجلّى لكم في الحال الرجُلُ المصاب بالهلوسة، المريض بالأعصاب، مثل روبيسبير ويعقوبيّين آخرين، عدم تناسق نصفي الوجه يوحي بعدم التوازن.

- الثورة قام بها بالأساس اليهود، هذا معروف. ولكن نابوليون، بكرهه للبابا وبتحالفه مع الماسونيّة، هل كان ساميّاً؟

- على ما يبدو، لقد قال ذلك أيضاً ديزرائيلي. جزر البليار وكورسيكا كانت ملجأ لليهود المطرودين من إسبانيا: ثمّ صاروا مرّانيين، وتسمّوا بأسماء الأسياد الذين خدموا لديهم، مثل أورسيني وبونابرتي.

يوجد في كلّ جماعة ما يُسمّى بالأخرق *gaffeur*، ذلك الذي يلقي السؤال الخاطئ في اللحظة الخاطئة. وها إنّ أحدهم يلقي السؤال المحرج: وعيسى، إذن؟ كان يهوديّاً، ومع ذلك مات شابّاً، ولا يهمّه المال، يفكّر فقط في مُلك السماء. . .

جاءه الجواب من جاك دي بييز: - يا سادتي، كون عيسى يهوديّاً ما هو إلّا أسطورة أشاعها اليهود أنفسهم، مثلما كان القديسُ بولس والإنجيليّون الأربعة يهوداً. في الواقع كان عيسى من سُلالة سِلتيّة، مثلنا نحن الفرنسيّين، وقد غزانا اللاتينيّون فقط بعد ذلك بكثير. وقبل أن يختلطوا باللاتينيّين كان السلتيّون قوماً من الغُزاة، ألم تسمعوا أبدا بالغلاتيّين، الذين جاؤوا من اليونان؟ والجليل سمّيت هكذا من قِبل الغال الذين عَمَروها. ومن جهة أخرى فإنّ أسطورة العذراء التي تلد طفلاً هي أسطورة سِلتيّة ودرويديّة. وعيسى، يكفي أن تنظر إلى كل الصور التي نمتلكها، كان أشقر وأزرق العينيْن. وكان يتحدّث ضدّ عادات اليهود، ومعتقداتهم، ورذائلهم، وخلافاً لما كانوا ينتظرون من المسيح، كان عيسى يقول إنّ مملكته ليست من هذا العالم. وإذا كان اليهود توحيديّين، فإنّ يسوع جاء بفكرة الثالوث، مستلهماً ذلك من شِرْك السلتيّين. لهذا السبب قتلوه. ويهوديّاً كان قيافا

الذي أدانه، ويهودياً يهوذا الذي خانه، ويهودياً بطرس الذي أنكره ثلاث مرّات...

في السنة نفسها التي أسّس فيها صحيفة "الكلمة الحرّة" *La Libre Parole*، شاء الحظّ أو الحدس أن يركب درومون على فضيحة باناما.

- بسيطة، كان يفسّر لسيمونيني قبل أن يبدأ حملته. فرديناند دي ليسيبس، ذلك الذي فتح قنال السويس، كُلِّف بفتح مضيق باناما. بلغت المصاريف ستمائة مليون فرنك وأحدث ليسيبس شركة مساهمة مجهولة الاسم. بدأت الأشغال سنة 1881 وسط صعوبات جمّة، واحتاج ليسيبس إلى مزيد من الأموال، فأطلق عمليّة اكتتاب عموميّ. ولكنه استعمل جزءاً من المال المجمّع لرشوة الصحفيّين والتكتّم على الصعوبات التي كانت تنشأ شيئاً فشيئاً، مثل أنّه في سنة 1887 لم يُحفر إلّا نصف المضيق أو أقلّ بينما وقع صرف ألف وأربعمائة مليون فرنك. طلب ليسيبس مساعدة إيفل، اليهودي الذي شيّد ذلك البرج الفظيع، ثمّ واصل جمع أموال واستعمالها في شراء الصحافة ورشوة بعض الوزراء. وهكذا منذ أربع سنوات خلت أفلست شركة القنال، وخمسة وثمانون ألفاً من الفرنسيّين الطيبين الذين شاركوا في الاكتتاب فقدوا أموالهم.

- إنها قصة معروفة.

- صحيح، ولكن ما يُمكنني أن أفعله الآن تبيان أنّ من كان يمسك ليسيبس في قبضته هم المموّلون اليهود، ومن بينهم البارون جاك دي رايناخ (حصل على لقب بارون في بروسيا.). عدد الغد من صحيفة «الكلمة الحرّة» سيحدث ضجّة.

وأحدث بالفعل ضجّة مورِّطاً في الفضيحة صحفيّين وموظفين حكوميّين، وزراء سابقين، رايناخ انتحر، وبعض الشخصيّات الهامّة دخلت السجن، ليسيبس خرج منها بتقادم جنائي، وإيفل نجا بأعجوبة، ودرومون ظهر بمظهر الظافر الذي يعاقب الفساد، ولكنه كان بالخصوص يعضد ببراهين ملموسة حملته المعادية لليهود.

بعض القنابل

ولكن سيمونيني قبل اتصاله بدرومون يبدو أنه دُعي إلى لقاء مع إيبوترن في الجناح المعتاد لنوتردام.

قال له: - يا نقيب سيمونيني، قبل الآن بسنوات كلّفتك بدفع ذلك المدعوّ تاكسيل للقيام بحملة معادية للماسونيّة هي من البهلوانيّة بحيث تعود بالأذى على المناهضين للماسونيّة الأكثر سوقيّة. والرجل الذي ضمن لي باسمك أنّه سيراقب العمليّة كان القسّ دلّا بيكّولا، الذي عهدت إليه بمبلغ لا بأس به من المال. ولكن يبدو لي الآن أن تاكسيل هذا أصبح يغالي. وبما أنّ دلّا بيكّولا أرسلته لي أنت، حاول أن تقنعه، وأن تقنع تاكسيل.

هنا يعترف سيمونيني لنفسه أنّه يشكو من فراغ في الذاكرة: بدا له أنّه يعرف أنّ دلّا بيكّولا يراقب تاكسيل، ولكنه لا يتذكّر أنه كلّفه بأيّ شيء. يتذكّر فقط أنّه قال لإيبوترن إنّه سيهتمّ بالأمر. ثمّ قال له إنّه في تلك الآونة كان يواصل اهتمامه باليهود، وإنه بصدد الدخول في اتصال مع أوساط درومون. وقد استغرب عندما رأى أنّ إيبوترن كان ينظر بعين الرضى إلى تلك المجموعة. سأله سيمونيني: ألم يقل له مراراً، إنّ الحكومة لا تريد التدخل في الحملات المعادية لليهودية؟

- تغيّرت الظروف أيها النقيب، أجابه إيبوترن. انظر، حتى وقت غير بعيد كان اليهود إمّا بؤساء يعيشون في الغيتو، مثلما لا يزال عليه حالهم في روسيا وفي روما، أو أصحاب بنوك، مثلما هو الحال عندنا. كان اليهود الفقراء يقرضون بالرّبا أو يمارسون التطبيب، ولكن من كوّن ثروة يموّل البلاط وينمّي ثروته بإقراض الملك، موفّراً له المال للقيام بحروبه. وفي هذا المعنى وقف دائماً إلى جانب السلطة ولم يهتمّ بالسياسة. وبما أنّه يهتمّ بالمالية فهو لا يُعْنَى بالصناعة. ثمّ حدث شيء تفطّنّا إليه نحن أيضاً ببعض التأخير. بعد الثورة احتاجت الدول إلى حجم تمويل يفوق ما يُمكن أن يوفّره اليهود، وهكذا فقد اليهوديّ تدريجيّاً وضعيّة احتكار القروض. خلال تلك الأثناء، أدّت الثورة شيئاً فشيئاً، على الأقلّ عندنا، وقد انتبهنا إلى ذلك الآن فقط، إلى المساواة بين كلّ

المواطنين. وباستثناء فقراء الغيتو كما هو الحال دائماً، فقد أصبح اليهود من البورجوازيين، وليس فقط من البورجوازية العُليا من أصحاب رؤوس الأموال، بل وحتى البورجوازية الصغرى، من أصحاب المِهَن، وموظفي الدولة، وعناصر الجيش. هل تدري كم عدد ضباط الجيش اليهود اليوم؟ أكثر ممّا تتخيّل. وليته كان الجيش وحده: فقد تسرّب اليهود تدريجيّاً إلى عالم التمرّد الفوضوي والشيوعيّ. وإذا كان المتبجّحون الثوريّون قبل الآن مناهضين لليهود باعتبارهم مناهضين للرأسمالية، وكان اليهود في نهاية الأمر موالين دائماً للحكومة، فالموضة اليوم هي اليهودي المعارض. ومن يكون ذلك المدعوّ ماركس الذي يتحدّث عنه كثيراً ثوريّونا؟ بورجوازيّ خاوي الجيب يعيش عالة على زوجة أرستقراطيّة. ولا ينبغي أن ننسى مثلاً أنّ التعليم العالي كلّه بين أيديهم، من "الكولّيج" إلى مدرسة الدراسات العُليا، وبين أيديهم أيضاً جميع مسارح باريس، ومعظم الصحف، انظر "صحيفة النقاشات" *Journal des débats*، الناطق الرسمي بلسان المؤسّسة البنكية.

لم يفهم سيمونيني بعد، الآن وقد صار حضور اليهود مثيراً للقلق، عمّا يبحث إيبوترن بخصوصهم. وعندما سأله أجاب إيبوترن بحركة غامضة.

- لست أدري. يجب فقط أن ننتبه. المشكلة هي هل يجب أن نثق كثيراً بهذه الفئة الجديدة من اليهود. انتبه، لست بصدد التفكير في الخرافات الرائجة والمتعلّقة بمؤامرة يهودية لغزو العالم. هؤلاء اليهود البورجوازيّون لا يجدون موقعهم داخل مجموعتهم الأصلية، وغالباً ما يخجلون منها، ولكنهم في الآن نفسه مواطنون دسّاسون، لأنهم لم يصبحوا فرنسيّين بالكامل إلّا منذ وقت قريب، وبإمكانهم غداً أن يخونوا، ربما بالتواطؤ مع يهود بورجوازيّين بروسيّين. زمن الغزو البروسي كان معظم الجواسيس يهوداً ألزاسيّين.

كانا على وشك التفارق عندما أضاف إيبوترن: - باختصار. زمن لاغرونج كنت اهتممتَ بشخص يُدعى غافيالي. أظنّك أنت الذي عملت على إيقافه.

- نعم. كان على رأس إرهابييّ زقاق دي لاهوشيت. أظنّ أنهم يوجدون كلّهم في جزر كايّين أو قريباً من هناك.

- إلّا غافيالي. فقد فرّ مؤخراً من السجن وجاءتنا معلومة بأنه في باريس.
- أيُمكن الهروب من جزيرة الشيطان؟
- يُمكن الهروب من أيّ مكان، يكفي أن يكون المرء مستعدّاً لكلّ شيء.
- ولماذا لا توقفونه؟
- لأنّ شخصاً ماهراً في صنع القنابل يُمكن، في هذه الآونة، أن يصلح لنا. عرفنا مكانه: يبيع المتلاشيات أو الفريب في كلينيونكور. لمَ لا تنتشله من جديد؟

ليس من الصعب العثور على بائعي المتلاشيات في باريس. ورغم أنّهم منتشرون في كلّ أرجاء المدينة، فقد كان حيّهم يقع سابقاً بين شارع موفتار وشارع سان- ميدار. الآن، على الأقلّ أولئك الذين أشار إليهم إيبوترن، يوجدون في كلينيونكور ويعيشون في مجموعة من الأكواخ سطوحها من القشّ، ولا ندري لماذا ينبت حولها في الفصول الجميلة عبّاد الشمس وينع وسط تلك البيئة المتعفّنة.

في السابق كان يوجد هناك مطعم يُسمّى "مطعم الأقدام الرطبة" لأنّ الزبائن مضطرّون إلى انتظار دورهم في الشارع، وعندما يدخلون ويحقّ لهم بعد دفع فلس أن يغمسوا فرشاة ضخمة في قدر كبيرة ويتصيّدوا ما أمكنهم أن يتصيّدوا، إذا شاء الحظ قطعة من اللحم أو عكس ذلك قطعة من الجزر - ويخرجون.

كان لبائعي المتلاشيات فنادقهم المؤثثة **hôtels garnis**. ليس بالكثير: فراش وطاولة وكرسيّان متنافران. على الجدار بعض الصور المقدسة، أو بعض الرسوم من روايات قديمة عُثر عليها وسط الفضلات. قطعة مرآة، وما يلزم للاغتسال يوم الأحد. هنا ينتقي بائع المتلاشيات الأشياء التي عثر عليها: العظام، الخزف، الزجاج، شرائط بالية، أمزاق من حرير. يبدأ العمل في السادسة صباحاً، وبعد السابعة مساءً لو وجد أعوان الشرطة (أو ***flics*** مثلما صار الجميع يدعونهم) واحداً منهم مستمرّاً بالعمل فإنهم يغرّمونه.

ذهب سيمونيني للبحث عن غافيالي حيث كان ينبغي أن يجده. وفي نهاية بحثه، عثر عليه داخل مشرب حقير أو *bibine* حيث لا يُباع الخمر فقط بل والأبسنت أيضاً، كانوا يقولون إنّها مسمومة (كما لو لم تكن تلك العادية مسمومة)، وهناك وجّهوه إلى شخص. تذكّر سيمونيني أنّه حينما عرف غافيالي، كان لا يزال دون لحية، وبهذه المناسبة كان قد حلقها. لقد انقضت عشرون سنة تقريباً ولكنه ظنّ أنّ التعرّف عليه كان لا يزال ممكناً. من كان يصعب التعرّف عليه هو غافيالي.

كان وجهه ممتقعاً، متجعّداً، ولحيته طويلة. وكانت ربطة عنق مصفرّة وأشبه بحبل تتدلّى من ياقة قذرة يبرز منها عنق هزيل. ويَعْتَمِر فوق رأسه قبّعة بالية، ويرتدي رودنغوت مخضرّة فوق سترة متكمّشة، وكان نعلاه ملطّخيْن كما لو أنّه أهمل تنظيفهما منذ سنين وكانت الخيوط ملتصقة بالوحل إلى الجلد. ولكن وسط بائعي المتلاشيات لم يكن أحد ينتبه إلى غافيالي، لأن لا أحد منهم كان يلبس أفضل منه.

عرّف سيمونيني بنفسه، منتظراً منه بعض الحفاوة. ولكن غافيالي حدّق فيه بنظرة قاسية.

خاطبه: - لديك الشجاعة لأن تمثل أمامي يا نقيب سيمونيني. وأمام حيرة سيمونيني تابع قائلاً: - تظنّني حقيقة غبيّاً؟ لقد رأيتك جيّداً، ذلك اليوم الذي جاء فيه أعوان الشرطة وأطلقوا علينا الرصاص، وأنت أطلقت الرصاصة القاضية على ذلك التعيس الذي أرسلته إلينا على أنّه عونك. وبعد ذلك وجدنا نحن المتبقين على قيد الحياة أنفسنا على متن سفينة شراعيّة متّجهة نحو كايّين، وأنت لم تكن معنا. كان الاستنتاج بديهيّاً. خلال خمس عشرة سنة من الفراغ في كايّين يصبح المرء ذكيّاً: لقد دبّرت مؤامرتنا لكي تشي بنا من بعد. إنها دون شكّ مهنة مربحة.

- وماذا بعد؟ هل تريد الانتقام؟ لقد صرت حثالةَ رجلٍ، إذا صَحّت فرضيّتك فإنّ الشرطة ستصغي إليّ، ويكفي إذن أن أعلم من يهمّه الأمر وستعود في الحال إلى جزر كايّين.

- الرحمة، يا حضرة النقيب. لقد علّمتني سنوات كايّين الرشد. عندما

يمتهن المرء تدبير المؤامرات يجب أن يقرأ حساباً لوجود واشٍ أو حنش. إنّها مثل لعبة اللصوص والحرّاس. وبعد هذا كله، يقولون إنّ كلّ الثوريّين يصبحون، مع مرّ السنين، المدافعين عن العرش والمذبح. أنا لا يهمّني لا العرش ولا المذبح، ولكنني أظنّ أن زمن المُثُل العُليا قد ولّى. لقد صرنا في عهد هذه التي يسمّونها الجمهورية الثالثة لا ندري من هو المستبدّ الذي يجب قتله. شيء وحيد لا زلت أعرف صنعه: القنابل. وكونك جئت تبحث عنّي يعني أنك تريد قنابل. حسناً، يكفي أن تدفع الثمن. أرأيتَ أين أسكن؟ يكفيني أن أغيّر المسكن والمطعم. من تريد أن أقتل؟ مثل كلّ ثوّار الزمن الغابر صرتُ مرتزقاً. إنها مهنة تعرفها دون شكّ جيّداً.

- أريد منك قنابل، يا غافيالي، ولكنني لا أعرف بعد من أيّ نوع، وأين. سنتحدّث عن ذلك في أوانه. بإمكاني أن أعدك بالمال، بمحو سوابقك، وبوثائق جديدة.

أعلن غافيالي أنّه في خدمة أيّ كان يدفع له أجراً مُعْتَبَراً وفي الأثناء قدّم له سيمونيني ما يكفي من النقود ليعيش دون اللجوء إلى بيع الخِرَق لمدّة شهر على الأقل. لا شيء أفضل من الأشغال الشاقة ليصبح المرء مطيعاً لذوي الأمر.

بعد ذلك بمدّة صرّح إيبوترن لسيمونيني بما يجب على غافيالي فعله. في ديسمبر من سنة 1893 ألقى فوضويّ يُدعى أوغست فايّون قنبلة صغيرة (مليئة بالمسامير) في مجلس النواب، صائحاً "الموت للبورجوازيّة! تحيا الفوضويّة!".

كانت حركة رمزيّة: - لو أنني نويت القتل لملأت القنبلة بالرصاص، قال فايّون أثناء المحاكمة؛ ليس بإمكاني دون شكّ أن أكذب لكي أعطيكم فرصة لقطع رقبتي. وحتى يصلح مثالاً، قطعوا رغم ذلك رقبته. ولكن المسألة ليست هذه: ما يشغل المخابرات هو أنّ أفعالاً من هذا النوع يُمكن أن تظهر بطوليّة، وبالتالي يقلّدها آخرون.

بدأ إيبوترن يفسّر لسيمونيني: - هناك معلّمون أشرار، يبرّرون ويشجّعون الإرهاب والاضطراب الاجتماعي، بينما هم يقبعون مطمئنّين في نواديهم وفي

مطاعمهم يتناقشون في الشعر ويشربون الشامبانيا. أرأيت ذلك الصحفي الحقير، لوران تايلاد (والذي يؤثر، بصفته نائباً أيضاً تأثيراً مضاعفاً على الرأي العام). كتب عن فايّون قائلاً: "ما أهميّة الضحايا إذا كان الفعل رائعاً؟". بالنسبة للدولة أمثال تايلاد أخطر ممّن هم مثل فايّون، لأنّ قطع رؤوسهم أصعب. يجب أن نلقّن درساً عموميّاً لهؤلاء المثقفين الذين لا يدفعون الضرائب أبداً.

وينبغي على سيمونيني أن يعدّ هذا الدرس، مع غافيالي. بعد بضعة أسابيع، في مطعم فويّو، وبالذات في الركن الذي كان تايلاد معتاداً على تناول فطوره الباهض فيه، انفجرت قنبلة وفقد تايلاد إحدى عينيه (كان غافيالي عبقريّاً حقيقة، فقد صنع القنبلة بحيث لا تقتل الضحيّة بل تحدث له جرحاً غائراً). وتفنّنت الصحف الحكوميّة في التعليقات الساخرة من قبيل: "إذن، يا سيّد تايلاد، هل كان الفعل جميلاً؟". كان انتصاراً باهراً بالنسبة إلى الحكومة، وغافيالي وسيمونيني. أمّا تايلاد، فعلاوة على فقدان عينه، فقد خسر في الميدان سُمْعته.

لكن من غمره الرضى أكثر من غيره هو غافيالي، وكان سيمونيني يعتبر أنه من الجميل أن يُعيد إلى أحدٍ حياةً ومصداقيّةً كان قد خسرهما لسوء حظه بسبب أحوال الحياة التعيسة.

في تلك السنوات نفسها كلّف إيبوترن سيمونيني بمهامّ أخرى. لم تعد فضيحة باناما تثير اهتمام الرأي العام كثيراً، لأنّ الأخبار، عندما لا تتجدّد، بعد مدّة تصبح مضجرة، ودرومون هو الآخر لم يعد مهتمّاً بالأمر، ولكن آخرين كانوا لا يزالون ينفخون في النار وبطبيعة الحال كانت الحكومة منشغلة بهذه (كيف يُمكن القول؟) الجذوة المتجدّدة. يجب تحويل اهتمام الرأي العامّ عن تداعيات تلك القصّة التي صارت قديمة، ولذا طلب إيبوترن من سيمونيني أن ينظم بعض حركات التمرّد الجميلة، الكافية لأن تحتلّ الصفحات الأولى من الجرائد.

ليس تنظيم حركة تمرّد بالأمر السهل، قال سيمونيني، فأوحى إيبوترن أنّ من يميل أكثر للاحتجاج والجَلبة هم الطلبة. الأفضل أن يبدأ شيئاً مع الطلبة ثمّ يقحم بينهم بعض المختصين في زرع الفوضى.

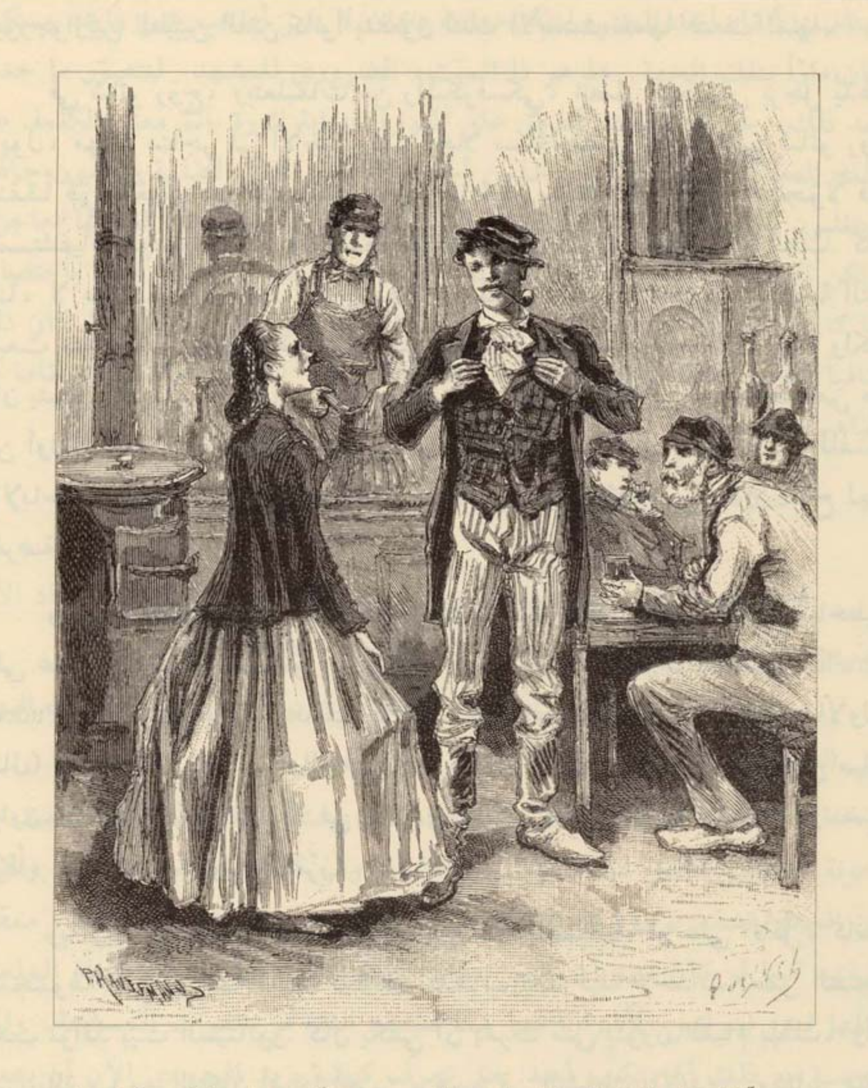
لم يكن سيمونيني على اتصال مع الوسط الطلابي، ولكنه فكّر على الفور أنّه من يهمّه بين الطلاب هم بالخصوص أولئك الذين لديهم نزعة ثوريّة، والأفضل أن يكونوا فوضويّين. من كان يعرف أحسن من أيّ كان أوساط الفوضويّين؟ هو من كان بحكم المهنة يخترقهم ويبلّغ عنهم، وإذن راشكوفسكي. وهكذا اتّصل براشكوفسكي، وسأله هذا الأخير، كاشفاً عن كلّ أسنانه الذئبيّة في ابتسامة تريد أن تكون صديقة، كيف ولماذا.

- أريد فقط بعض الطلبة المستعدّين لإحداث ضجّة عند الطلب.

- بسيطة، قال الروسيّ، اذهب إلى شاتو روج.

كان الشاتو روج، في الظاهر، ملتقًى لبؤساء الحيّ اللاتيني، بشارع غالوند. ينفتح في قاع فناء بناية واجهته مطلية بلون أحمر مثل الدم، وما إن تدخل حتى تختنق بنُتونة شحوم زَنِخة، وعُفُونة، وثَرائد طُهيت وأعيد طَهْيها تَركت على مدى سنوات مثل آثار ملموسة على تلك الجدران المغطّاة بقاذورات الشحوم. ولا يُفهم كيف ولماذا، بما أنّ كلّ زبون في ذلك المكان يحمل طعامه لأنّ المحلّ يوفّر فقط الخمر والأطباق. وكانت العتمة الطاعونيّة لِدُخان السجائر وغازات القناديل، تبدو أنّها خدّرت العشرات من المتسكّعين أو المشرّدين *clochards* جالسين ثلاثة أو أربعة معاً إلى جانب من الطاولة، نائمين بعضهم على كتف البعض.

إلّا أنّ المتسكّعين لا يوجدون في القاعتين الداخليتين بل بغايا متقدّمات في السنّ متبرّجات بحُلِيّ رديئة، وبغايا في سنّ الرابعة عشرة بدت عليهنّ الوقاحة، عيونهنّ محوّقة وعليهنّ شحوب المسلولات، ومحتالون محليّون يحملون خواتم تلمح العين عن بعد أحجارها المزيفة ورودنغوت أفضل من خِرَق القاعة الأولى. وسط ذلك الجمع الموبوء كانت تتجوّل سيّدات في أثواب جميلة ورجال ببزّات مسائيّة، لأنّ زيارة الشاتو روج صارت مغامرة مثيرة لا ينبغي العدول عنها: في آخر الليل، بعد المسرح، تصل هناك عربات فخمة، والجميع أو *le tout Paris* كما يقولون يأتون هناك لتذوّق نشوة حياة الصعاليك - الذي كان معظمهم ربما مؤجراً من طرف صاحب المحلّ، موزّعاً عليهم الأبسنت مجاناً، لجلب



... إلّا أنه في القاعتيْن الداخليتين لا يوجد متسكّعون بل بغايا متقدّمات في السنّ متبرّجات بحليّ رديئة، وبغايا في سنّ الرابعة عشرة بدت عليهنّ الوقاحة، عيونهنّ محوّقة وعليهنّ شحوب المسلولات، ومحتالون محليّون يحملون خواتم تراها العين عن بعد بأحجار مزيّفة ورودنغوت أفضل من خِرق القاعة الأولى... (ص382)

البورجوازيّين الطيّبين الذين كانوا يدفعون لتلك الأبسنت نفسها ضعف ثمنها.

في شاتو روج، وبتعليمات من راشكوفسكي، اتّصل سيمونيني برجل يُدعى فايول، مهنته متاجر في الأجنّة. كان رجلاً مسنّاً يقضي سهراته في شاتو روج منفقاً في العَرَق ذي الثمانين درجة ما كان يربحه في اليوم متجوّلاً في المستشفيات يجمع الأجنّة والمُضَغ، ليبيعها بعد ذلك إلى طلبة كليّة الطبّ. كان نَتِناً، لا من الكحول فقط، بل وأيضاً من لحم متحلّل، وجعلته الرائحة التي تنبعث منه يجلس بمعزل عن غيره حتى وسط روائح شاتو روج الكريهة؛ ولكنه كان يتمتّع، حسب ما يُقال، بمعارف كثيرة في الوسط الطلابي، وبالخصوص من بين أولئك الذين يمارسون منذ سنين مهنة الطلّاب، والذين يميلون أكثر للفسق والإباحية منهم إلى دراسة الأجنّة، مستعدّون لبثّ الفوضى ما إن تتاح لهم الفرصة.

ولحسن الصدف، في تلك الأيام بالذات كان أولاد الحيّ اللاتيني ساخطين على عجوز متزمّت، السيناتور بيرونجي، الذي لقّبوه بـ "الأب الحشمة" Père la Pudeur لأنه اقترح قانوناً يعاقب الإخلال بالآداب العامّة، كان ضحيّته الأولى (قال) هم الطلبة بالذات. والباعث على ذلك كانت عروض امرأة تُدعى سارا براون، كانت تعرض نفسها في بال دي كاتزار نصف عارية ولحيمة (وتنضح عَرَقاً، كان يفكّر سيمونيني بتقزّز).

ويا ويل من يحرم الطلبة الشرفاء من متعة البصبصة. أو على الأقلّ، كانت المجموعة التي يراقبها فايول تخطّط للذهاب ذات ليلة لإحداث بعض الضجة تحت نوافذ بيت السيناتور. كان يكفي أن يعرف متى ينوون القيام بذلك، وأن يهيّئ بالقرب من المكان أفراداً آخرين يرغبون في التشابك بالأيدي. ومقابل مبلغ متواضع قبل فايول أن ينظّم كلّ شيء. لم يبقَ على سيمونيني إلّا إبلاغ إيبوترن باليوم وبالساعة.

وهكذا ما إن شرع الطلبة في بثّ الفوضى حتى وصل فريق من الجنود أو من رجال الشرطة، لا يهمّ. وكما هو معروف، ليس أفضل من الشرطة لإثارة نزعة العداء لدى الطلبة، فتطايرت الأحجار، وتصاعدت الصيحات، إلّا أنّ عود

ديناميت ألقاه أحد الجنود بنيّة إحداث دخان لا غير أصاب عين واحد مسكين كان مارّاً بتلك الجهة. ها هو ذا الميّت، الضروري للمشهد. لنتصوّر ما حدث بعد ذلك، حواجز قطعت الطريق على الفور، وبداية لثورة بأتمّ معنى الكلمة. عند ذلك الحدّ، تدخل الأشرار الذين أجّرهم فايول. كان الطلبة يوقفون حافلة ويطلبون بلطف من راكبيها النزول، ثم يفكّون خيولها ويقلبونها لجعلها حاجزاً، ولكن الهائجين الآخرين كانوا يتدخلون في الحال ويضرمون فيها النّار. باختصار، ما كان احتجاجاً صاخباً تحوّل إلى تمرّد والتمرّد تحوّل إلى بداية ثورة. كان ذلك كافياً ليحتل الصفحات الأولى من الجرائد بعض الوقت، واندثرت باناما في غياهب النسيان.

إرساليّة أو *bordereau*

كانت السنة التي ربح فيها سيمونيني مالاً أكثر هي سنة 1894. وكاد الأمر أن يحدث صدفة، حتى وإن وجب دائماً أن نُعين الصدفة قليلاً.

في ذلك الوقت تأجّجت عاطفة الحقد عند درومون لتزايد انخراط اليهود في الجيش.

– لا أحد يتحدّث أحد عن ذلك، كان يشتكّى بقهر، لأنّ الحديث عن خونة محتملين داخل هذه المؤسّسة بالذات، وهي الأكثر جدارة بالفخر، والقول إنّ الجيش تسمّم بوجود كلّ أولئك اليهود (ويردّد "ces Juëfs, ces Juëfs"، ممطّطاً شفتيه كما لو كان يريد أن يقيم اتصالاً ناريّاً مباشراً وشرساً مع المِلّة الملعونة كلّها لبني إسرائيل الأشرار) فهو ممّا سيُفقد الثقة في القوات المسلحة، ولكن يجب مع ذلك أن يتكلّم أحد. هل تعرف كيف يريد اليهودي الآن أن يصبح جديراً بالاحترام؟ بالدخول ضابطاً في الجيش، أو بارتياد صالونات الأرستقراطيّين كفنّانين ولوطيّين. آه، أولاءِ الدوقات سئمن الزّنا مع نبلاء من النمط القديم، أو مع كهنة محترمين، ولا يشبعن أبداً ممّا هو شاذ، أو غريب، أو فظيع، ويغريهنّ رجال يتجمّلون ويتعطّرون مثل الإناث. ولكن لا بأس لو فسدت الأرستقراطيّة، لم تكن أفضل منهنّ المركيزات اللاتي كنّ يَزْنِين مع

مختلف ملوك فرنسا، بينما لو فسد الجيش فذلك يعني أننا وصلنا إلى نهاية الحضارة الفرنسيّة. إنني مقتنع أنّ أغلب الضباط اليهود يمثلون شبكة من الجواسيس البروسيّين، ولكنني لا أملك الأدلّة على ذلك، الأدلّة.

- اعثروا عليها. كان يصيح بمحرّري جريدته.

في إدارة تحرير جريدة "الكلمة الحرّة" تعرّف سيمونيني على القائد إستيرازي: متأنّق جدّاً، يتحدّث دائماً بخيلاء عن أصوله النبيلة وتربيته الفينيسيّة، مشيراً إلى نِزالات ماضية ومستقبلة، والمعروف عنه أنّه كان مثقلاً بالديون، وكان محرّرو الجريدة يتفادونه عندما يقترب منهم بحركات محتشمة، لأنهم يتوقّعون الضربة، والمال المُقْرَض لإستيرازي، كما يعرف الجميع، لا يُسترجع أبداً. كان متخنّثاً شيئاً ما، ويحمل دائماً إلى فمه منديلاً مطرّزاً، وكان البعض يظنّه مسلولاً. كانت مسيرته العسكريّة غريبة، بدأ ضابطاً في الفروسيّة أثناء الحملة العسكريّة في إيطاليا سنة 1886، ثمّ في زُواوِيّي البلاط البابوي، وقبل ذلك شارك ضمن الفرقة الأجنبيّة في حرب 1870. ويتهامسون بكونه يتعامل مع مقاومة الجاسوسيّة العسكريّة، ولكنها بطبيعة الحال كانت معلومات لا يحملها المرء مرشوقة على بزّته. كان درومون يُوليه الكثير من الاعتبار، ربما ليضمن لنفسه علاقة بالأوساط العسكريّة.

ذات يوم، دعا إستيرازي سيمونيني للعشاء في مطعم "لوبوف ألامود" **Le Bœuf à la Mode**. وبعد أن طلب قطع خروف صغير بالخسّ ***mignon d'agneau aux laitues*** وتحاور في قائمة الشراب، دخل إستيرازي في صميم الموضوع: - أيها النقيب سيمونيني، إن صاحبنا درومون يبحث عن أدلّة لن يعثر عنها أبداً. المسألة ليست اكتشاف إن كان يوجد جواسيس بروسيّون من أصل يهودي في الجيش. أمرنا للّه، في هذا العالم يوجد جواسيس في كلّ مكان ولن ننزعج لجاسوس أو لجاسوسَيْن إضافيَّيْن. المسألة السياسيّة هي أن نثبت وجودهم. توافقني لو قلت ليس من الضروري لإدانة جاسوس إيجاد الأدلّة، الأيسر والأقلّ تكلفة هو خلقها، وإن أمكن خلق الجاسوس نفسه. ولذا يجب علينا نحن، خدمةً

لمصلحة البلاد، أن نختار ضابطاً يهودياً، قابلاً للشبهة بسبب هفوة ما، وأن نقيم الدليل على أنّه سرّب معلومات هامّة إلى سفارة بروسيا في باريس.

- ماذا تعني عندما تقول نحن؟

- إنّي أخاطبك باسم دائرة الإحصائيات في مصلحة المخابرات الفرنسيّة، التي يديرها المقدّم ساندهيرّ. لعلّك تعرف أنّ هذه الدائرة، تحت اسم محايد، تهتمّ أساساً، بالألمان: في البداية كانت تهتمّ بما يفعلونه في بلادهم، معلومات من كلّ نوع، من الصحافة ومن الاتصالات الرسميّة المتبادلة، من مصالح الشرطة، من أعواننا الموجودين على جانِبيَ الحدود، بهدف معرفة أكثر ما يُمكن عن تنظيم جيشهم، كم لديهم من فيالق فرسان، قيمة الأجر الذي يستلمه الجُنْد، باختصار، كلّ شيء. ولكن في المدّة الأخيرة قرّرت المخابرات أن تهتمّ أيضاً بما يفعله الألمان في بلادنا. يتشكّى البعض من هذا الدمج بين الجاسوسية ومقاومة الجاسوسية، ولكن النشاطيْن مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بينهما. يجب أن نعرف ماذا يحدث في السفارة الألمانية، لأنّها تراب أجنبيّ، وهذه هي الجاسوسية الفعلية، ولكنهم هناك يجمعون أيضاً معلومات عنّا، ومعرفة ذلك هي مقاومة الجاسوسية. الآن، في تلك السفارة تشتغل لصالحنا امرأة تُدعى مدام باستيان تعمل في مصلحة التنظيف، وتتظاهر بأنّها أُمّيّة، بينما تعرف قراءة وفهم اللغة الألمانيّة. من ضمن أشغال عملها أن تفرغ سلّات الأوراق المرمية في كل مكاتب السفارة، ومدّنا، إذن، بملحوظات ووثائق يظنّ البروسيّون (وأنت تعرف مقدار بلاهتهم) أنها أُتلِفت. لذا يجب صنع وثيقة يبلّغ فيها أحد ضبّاطنا أخباراً سريّة جداً عن الأسلحة الفرنسيّة. حينئذ سنفترض أنّ صاحب الوثيقة شخص يُمكنه الاطلاع على معلومات سريّة، وسيتمّ اكتشافه. تلزمنا إذن ملحوظة، أو قائمة قصيرة، لنسمِّها bordereau. ولهذا إذن التجأنا إليك لأنّه قيل لنا إنّك في هذا الميدان فنّان.

لم يتساءل سيمونيني كيف عرف أعوان المخابرات مهاراته. لعلّهم عرفوا ذلك من إيبوترن. شكره على الثناء وقال له: - أتصوّر أنّه يجب عليّ أن أحاكي خطّ شخص معيّن.

- لقد حدّدنا الشخص الملائم. واحد يُدعى النقيب درايفوس، وهو

ألزاسي، بطبيعة الحال، كان يؤدي الخدمة في الفصيلة كمتدرّب. تزوّج امرأة ثريّة وله مظهر زير نساء أو *tombeur de femmes*، بحيث أنّ كلّ زملائه كانوا لا يتحمّلونه، ولن يتحمَّلوه حتى لو كان مسيحيّاً لن يجد أيّ مساندة. إنّه الضحيّة القُرْبانيّة المثالية. بعد الحصول على الوثيقة، نقوم ببعض التحريّات ونتعرّف على أنّ الخطّ هو خط درايفوس. بعد ذلك على أشخاص مثل درومون أن يفجروا الفضيحة، وأن ينبّهوا بالخطر اليهودي وفي الوقت نفسه أن ينقذوا شرف القوات المسلحة التي عرفت بطريقة رائعة كيف تكشفه وتقضي عليه. واضح؟

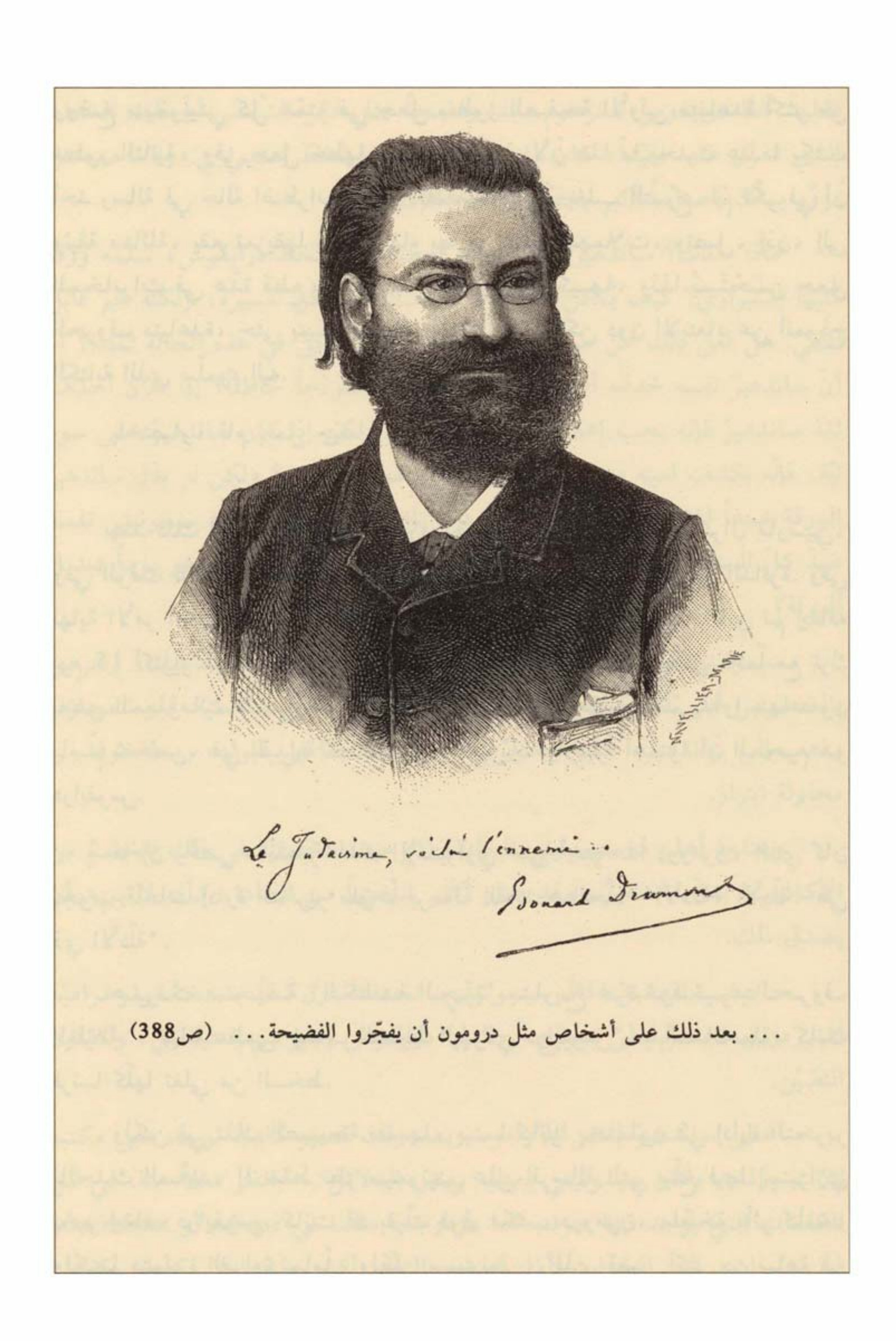
واضح جداً. في أوائل أكتوبر وجد سيمونيني نفسه أمام المقدّم ساندهيرّ. كان وجهه تافهاً، في لون التراب. التقاسيم المثاليّة لرئيس مصلحة التجسُّس ومقاومة التجسُّس.

قال ساندهيّر مقدّماً له ورقتْين: - هذا مثال من خط درايفوس، وهذا النصّ الذي يجب نسخه. كما ترى يجب أن تكون الإرسالية موجَّهة إلى الملحق العسكري بالسفارة، فون شفارتسكوتّن، وتعلن عن وصول وثائق عسكريّة عن الفرامل المائيّة للمدفع عيار 120، وتفاصيل أخرى من هذا النوع. هذه الأشياء تثير نهم الألمان.

سأله سيمونيني: - أليس يكون من المستحسن أن نضيف بعض التفاصيل التقنية؟ سيزيد من قوّة التوريط.

أجابه ساندهيّر: - أرجوك أن تدرك، إنه بعد انفجار الفضيحة، سيُصبح هذا البوردورو معروفاً لدى العامّة. ولا يُمكن أن نسلّم للصحافة معلومات تقنية. الإيجاز، يا نقيب سيمونيني. ولكي تعمل في هدوء أعددنا لك قاعة فيها ما يلزم للكتابة. الورق والقلم والحبر هي تلك المستعملة في هذه الإدارة. أريد عملاً مُتْقَناً، وخذ كلّ وقتك، قم بعدّة تجارب، لكي يكون الخطّ مماثلاً تماماً.

وهذا ما فعله سيمونيني. كان البوردورو وثيقة على ورق نسيجي تحتوي على ثلاثين سطراً تقريباً، ثمانية عشر على وجه، واثني عشر على الوجه الآخر.




... بعد ذلك على أشخاص مثل درومون أن يفجّروا الفضيحة. . . (ص388)

ووضع سيمونيني كلّ همّته في جعل سطور الصفحة الأولى متباعدة أكثر من سطور الثانية، وفي جعل خطها متسارعاً أكثر، لأنّ هذا ما يحدث عندما يكتب أحد رسالة في حالة اضطراب، فيبدأ بصفة هادئة ثمّ يغلب التسرّع. ثمّ فكّر في أنّ وثيقة مماثلة، يقع تمزيقها قبل الإلقاء بها في سلّة المهملات، وتصل، إذن، إلى المخابرات في عدّة قطع، يقع بعد ذلك إعادة تركيبها، ولذا يُستَحْسَن جعل الحروف متباعدة، حتى يتيسّر تلصيق الممزقات؛ ولكن دون الابتعاد عن أنموذج الكتابة الذي سلّموه إليه.

باختصار، قام بعمل جيّد.

بعد ذلك أوصل ساندهيرّ البوردورو إلى وزير الحرب، الجنرال مارسيي، وفي الوقت نفسه أمر بمراقبة وثائق كلّ الضبّاط الذين يشتغلون في الدائرة. وفي نهاية الأمر أخبره أعوانه الموثوقون أنّ الخطّ هو خطّ درايفوس، الذي تمّ إيقافه يوم 15 أكتوبر. عملوا طيلة أسبوعيْن على إبقاء الخبر سرّيّاً، ولكن دائماً مع ترك بعض المعلومات تتسلّل خارجاً، لإثارة فضول الصحفيّين، ثمّ بدأوا يتهامسون باسم شخص، في البداية تحت غطاء السريّة، وأخيراً أعلنوا أنّ المجرم هو درايفوس.

ما إن رخّص ساندهيرّ بذلك الإستيرازي حتى أخبر هذا درومون، الذي كان يجوب قاعات إدارة التحرير ملوّحاً برسالة القائد صائحاً: "الأدلّة، الأدلّة، هي ذي الأدلّة".

عنونت صحيفة "الكلمة الحرّة" بتاريخ غرّة نوفمبر بالحروف الغليظة: "خيانة عظمى. إيقاف الضابط اليهودي درايفوس". بدأت الحملة، كانت فرنسا كلّها تغلي من السخط.

ولكن في تلك الصبيحة نفسها، بينما كانوا يحتفلون في إدارة التحرير بالحدث السعيد، إذ سقط نظر سيمونيني على الرسالة التي يبلّغ فيها إستيرازي بخبر إيقاف درايفوس. كانت قد بقيت فوق مكتب درومون، ملطّخة بأثر كأسه، ولكنها متيسّرة القراءة تماماً. ولِعَيْن سيمونيني، الذي قضى أكثر من ساعة في

تقليد خطّ درايفوس المزعوم، بدا واضحاً مثل عَيْن الشمس أنّ ذلك الخط، الذي تمرّن عليه جيّداً، كان مشابهاً تمام الشبه لخطّ إستيرازي. ولا أحد مثل مزوِّر يملك إحساساً أكبر بخصوص هذه الأشياء.

ماذا حدث؟ ساندهيرّ، عوض أن يعطيه ورقة بخطّ درايفوس، سلّمه ورقة كتبها إستيرازي؟ كيف يُمكن هذا؟ أمر غريب! لا يُمكن تفسيره، ولكنه غير قابل للنفي. هل فعل ذلك عن طريق الخطأ؟ عن قصد؟ ولكن في هذه الحالة لماذا؟ أم أنّ ساندهيرّ نفسه خدعَه أحد موظفيه، فقدّم له أنموذجاً خاطئاً؟ إذا خان أحدهم ثقة ساندهيرّ فإنه يجب إعلامه بتبديل الوثيقة. ولكن إذا كان ساندهيرّ على سوء نيّة، فإنّه بكشف لعبته سيجازف بنفسه. هل يُعلم إستيرازي؟ ولكن لو بدّل ساندهيرّ الورقة عمداً للإساءة إلى إستيرازي، فإنّه بإعلام الضحيّة سيجد سيمونيني نفسه ضدّ كلّ المخابرات. هل يصمت؟ وإذا نسبت المخابرات إليه هو يوماً تبديل الورقة؟

سيمونيني لم يكن مسؤولاً عن الخطأ، وحرص على تأكيد ذلك، وحرص بالخصوص على أن تكون وثائقه المزوّرة، إن جاز القول، أصلية. قرّر المجازفة وذهب إلى ساندهيرّ، الذي أبدى في البداية تحفّظاً في قبوله، ربما خوفاً من محاولة ابتزاز.

وعندما أعلن له سيمونيني الحقيقة (الوحيدة الحقيقيّة في ذلك الخضمّ من الأكاذيب) بدا ساندهيرّ، وقد صار أكثر شحوباً من العادة، كأنه لا يريد أن يصدق ذلك.

- حضرة العقيد، قال سيمونيني، تحتفظ دون شكّ بنسخة فوتوغرافيّة للبوردورو. احصل على نموذج من كتابة درايفوس وآخر من إستيرازي، ولنقارن النصّيْن.

أعطى ساندهيرّ بعض الأوامر، وبعد وقت قصير كانت توجد على مكتبه ثلاث ورقات وكان سيمونيني يعطيه بعض الدلائل: - انظر مثلاً هنا. في كلّ الكلمات التي يوجد فيها حرف "s" مزدوجاً، مثلما في ***adresse*** أو ***intéressant***، في نصّ إستيرازي الحرف الأوّل أصغر والثاني أكبر، وهما لا يكادان يكونان

أبداً مربوطيْن. وهو ما لاحظته هذا الصباح، لأنّ هذه الطريقة تطلّبت مني جهداً خاصّاً عند نقلي للوثيقة. انظر الآن خط درايفوس، الذي أراه للمرّة الأولى: شيء مذهل، الحرف الأوّل هو الأكبر بينما الثاني أصغر، وهما دائماً مربوطان. هل تريد أن أتمادى في المقارنة؟

- كلا، يكفيني هذا. لست أدري كيف وقع الخلط، سأقوم بتحقيق. المشكلة الآن هي أنّ الوثيقة بين يدي الجنرال مارسيي، وقد يريد مقارنتها بأنموذج من خط درايفوس، ولكنه ليس خبيراً في فنّ الخط، وتوجد دائماً أوجه شبه بين هذيْن الخطَّيْن. يجب فقط أن لا يوعز له أحد بأن يطلب أنموذجاً من خط إستيرازي. ولكنني لا أرى لماذا سيفكّر في إستيرازي بالذات - إذا لازمت أنت الصمت. حاول أن تنسى كلّ المسألة ومن فضلك لا تعد بعد الآن إلى هذا المكتب. سنعدّل أجرك بطريقة مناسبة.

بعد ذلك لم يحتج سيمونيني للجوء إلى أخبار سريّة لمعرفة ماذا كان يحدث، لأنّ الصحف كانت كلها تتحدّث عن قضيّة درايفوس. وحتى في قيادات الجيش كان هناك من يريد توخي الحذر، وطالب بأدلّة ثابتة لنسبة البوردورو إلى درايفوس. فلجأ ساندهيرّ إلى خبير في فنّ الخط ذائع الصيت، بارتيّون، الذي أعلن أنّ خطّ البوردورو كان بحقّ غير مطابق تماماً لخط درايفوس، ولكن يتعلّق الأمر بكلّ وضوح بحالة تزوير ذاتي: غيّر درايفوس (وإن كان جزئيّاً فقط) خطّه ليوهم أنّ من كتب الرسالة شخص آخر. بالرغم من هذه الدقائق التافهة جداً فإنّ الوثيقة هي دون شكّ مكتوبة بيد درايفوس.

من سيجرؤ على الشكّ في ذلك، في حين كانت صحيفة "الكلمة الحرّة" تقرع كلّ يوم الرأي العامّ متكهّنة حتى بأنّ القضية لن تتضخّم لأنّ درايفوس يهوديّ وسيحميه اليهود؟ وكتبَ درومون: يوجد أربعون ألف ضابط في الجيش، كيف حدث أنّ مارسيي عهد بأسرار الدفاع الوطني إلى متغرّب يهودي ألزاسي؟ كان مارسيي ليبيراليّاً، وتعرّض، منذ مدّة، لضغوطات من طرف درومون والصحافة ذات النزعة القومية، الذين كانوا يتهمونه بمحاباة اليهود. لم يقبل أن

يُعتبر مدافعاً عن يهودي خائن. ولذا لم يكن في صالحه أن يعرقل التحقيق، بل العكس أظهر في ذلك نشاطاً كبيراً.

وتابع درومون القرع بالمطرقة: «على طول الأزمنة بقي اليهود غرباء عن الجيش الذي حافظ على نقاوته الفرنسيّة. الآن وقد اخترقوا أيضاً القوات الوطنيّة فسيصيرون أسياد فرنسا، وسيعلمون روتشيلد بمخطّطات التعبئة... وبالإمكان أن تتصوّروا لأيّة غاية».

وصل الاحتقان إلى أشدّه. كتب قائد الخيّالة كريميو- فوا إلى درومون قائلاً له إنّه أهان كلّ الضباط اليهود، وتحدّاه للمبارزة. تبارز الاثنان وزيادة في الاحتقان تصوّروا من كان كفيله؟ إستيرازي... وتحدّى المركيز دي موراس، من إدارة تحرير "الكلمة الحرّة"، بدوره كريميو فوا ولكن رؤساء الضابط منعوه من المشاركة في المبارزة، بحيث بارَزَ عوضه عقيدٌ اسمه ماير، مات بضربة في الرئة. نقاشات ملتهبة، واحتجاجات ضدّ هذا الاشتعال الجديد لفتيل حرب الديانات... وكان سيمونيني يشاهد نشوانَ كلّ تلك النتائج الصاخبة التي أحدثتها ساعة واحدة من عمله كناسخ.

في كانون الأول/ ديسمبر اجتمع مجلس الحرب، وفي الوقت نفسه وقع الإدلاء بوثيقة أخرى، رسالة إلى الألمان من طرف الملحق العسكري الإيطالي بانيزاردي، حيث يُذكر "ذلك الوغد "د".." الذي يُحتَمل أنه باع له رسوم بعض القلاع. هل كان حرف "د" يشير إلى درايفوس؟ لم يكن أحد يجرؤ على وضع ذلك موضع الشك، وفي وقت لاحق فقط اكتُشف أنّ المعنيّ هو دوبوا، موظف في الوزارة كان يبيع معلومات بعشرة فرنكات للواحدة. ولكن فات الأوان، في 22 كانون الأول/ ديسمبر أُدين درايفوس، وفي أوائل يناير جُرّد من رتبته في "المدرسة العسكرية". وفي فبراير كان من المفروض أن يرحَّل إلى جزيرة الشيطان.

ذهب سيمونيني لحضور مراسيم حفل التجريد من الرتبة، ويصفها في يوميّاته بأنها مراسيم ذات دلالات مثيرة: الفيالق مجمّعة على الجهات الأربعة من

الساحة، ثم وصل درايفوس وكان عليه أن يقطع قرابة الكيلومتر بين تلك الأجنحة من الجنود البواسل الذين كان يبدو أنهم، بوقفتهم الجامدة، يعبّرون له عن ازدرائهم، ثمّ استلّ الجنرال دارّاس سيفه، بينما كانت الجوقة تعزف، وتقدّم درايفوس في زيّه الرسميّ نحو الجنرال يخفره أربعة مدفعيّين تحت أوامر رقيب، ونطق دارّاس بحكم التجريد من الرتبة، فتقدّم ضابط عملاق من فرقة الدرك، بخوذته التي يعلوها الريش، واقترب من النقيب فنزع شرائطه وأزراره ورقم الفيلق، وخلع عنه سيفه وكسره إلى اثنيْن على ركبته رامياً بالقطعتَيْن عند قدمَي الخائن.

كان درايفوس يبدو منعدم التأثر، وممّا جاء في عديد الصحف اعتُبر ذلك منه علامة على الخيانة. بدا لسيمونيني أنّه سمعه يصيح أثناء تجريده من الرتبة: "إني بريء"، ولكن بتحكّم في النفس، ودون أن يتخلّى عن وقفة الاستعداد. ذلك لأنّ اليهودي الحقير، كما لاحظ سيمونيني ساخراً، تقمّص تماماً الشرف (المسلوب) للضابط الفرنسي، بحيث لم يحاول وضع قرارات رؤسائه موضع الشك - كما لو يتوجّب عليه - ما داموا قد قضوا بأنه خائن - فعليه أن يقبل الأمر دون أن يراوده الشك. لعلّه في تلك اللحظة كان يحسّ حقيقة أنّه خان، وصيحة البراءة هي، بالنسبة إليه، فقط جزء ضروريّ من الطقس.

هذا ما اعتقد سيمونيني أنه يتذكّره، ولكن وجد في أحد صناديقه مقالاً لشخص يُدعى بريسّون على صفحات "الجمهوريّة الفرنسية" ***République Française***، نُشر في اليوم الموالي، يقول العكس تماماً:

"في اللحظة التي ألقى الجنرال في وجهه ذلك النعت المذلّ، رفع ذراعه وصاح: "تحيا فرنسا، إنّي بريء".

أنجز ضابط الصفّ عمله. الذهب الذي كان يغطي الزيّ ملقى على الأرض. لم يتركوا له حتى الشرائط الحمراء، التي تميّز سلاحه. في بزّته التي صارت كلها سوداء، مع الكبيّة التي اسودّت فجأة، بدا أن درايفوس قد لبس ثوب المساجين... وواصل صياحه "إنّي بريء". من الناحية الأخرى من القضبان

# Le Petit Journal

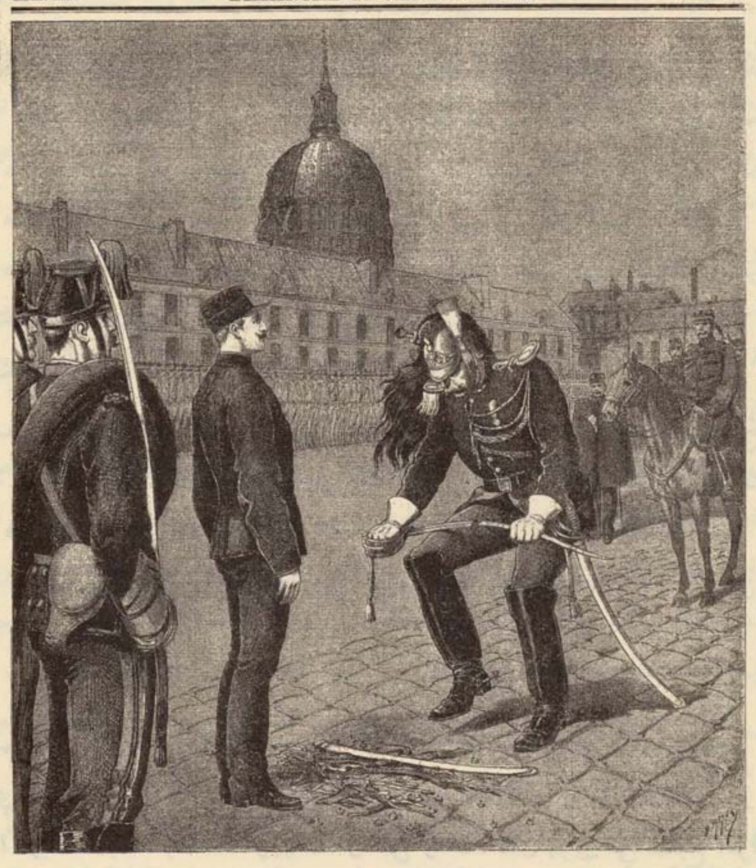
Le Petit Journal
CHAQUE JOUR 5 CENTIMES
Le Supplément illustré
CHAQUE SEMAINE 5 CENTIMES

SUPPLÉMENT ILLUSTRÉ
Huit pages : CINQ centimes

ABONNEMENTS

| | | | |
|---|---|---|---|
| PARIS | 1 fr. | 2 fr. | 2 fr 50 |
| DÉPARTEMENTS | 1 fr. | 2 fr. | 4 fr. |
| ÉTRANGER | 1 50 | 2 50 | 5 fr. |

Sixième année — DIMANCHE 13 JANVIER 1895 — Numéro 217



... فتقدّم ضابط عملاق من فرقة الدرك، بخوذته التي يعلوها الرّيش، واقترب من النقيب فنزع شرائطه وأزراره ورقم الفيلق، وخلع عنه سيفه وكسره إلى اثنيْن على ركبته رامياً بالقطعتيْن عند قدمَي الخائن...

(ص394)

الحديديّة كانت الجموع التي لا ترى منه إلّا شبحه تنفجر بالشتائم والتصفير الحادّ. ودرايفوس يسمع تلك اللعنات ويتفاقم سخطه أكثر.

وبينما هو مارّ أمام صفّ من الضباط، وصلت إلى سمعه هذه الكلمات: "اذهب يا يهوذا" فالتفت درايفوس حانقاً مكرّراً مرّة أخرى: "أنا بريء، أنا بريء".

الآن بإمكاننا أن نميّز قسمات وجهه. نحدّق فيه لحظة، آملين أن نقرأ فيها اعترافاً أخيراً، انعكاساً لتلك النفس التي لم يقترب منها حتى ذلك الحين إلا القضاة، متفحّصين في أعمق ثناياها. ولكن ما يهيمن على هيئته هو الغضب، غضب محتدّ إلى أقصى حدّ. كانت شفتاه متوتّرتيْن ترسمان تكشيرة فظيعة، وكانت عينه محتقنة بالدم. ونحن نفهم أنه إذا بدا المحكوم عليه بهذا الثبات ويسير بمثل تلك الخطوة العسكريّة، فذلك لأنه كان كما لو جَلَده الغضب الذي يشدّ أعصابه ويكاد يحطّمها...

ماذايخفي فؤاد ذلك الرجل؟ ما هي الأسباب التي تجعله يحتجّ بتلك الطريقة معلنا براءته، بطاقة تصل إلى حدّ اليأس؟ هل يأمل حقّاً في إرباك الرأي العامّ، في حملنا على الشكّ، في إلقاء الشكوك على نزاهة القُضاة الذين حكموا بإدانته؟ تخطر ببالنا فكرة، ساطعة مثل البرق: إذا لم يكن مذنباً، يا له من عذاب فظيع!"

لم يظهر أيّ ندم على سيمونيني لأنه كان واثقاً من جرم درايفوس، بما أنّه هو الذي قرّره. ولكن لا شكّ في أنّ الفارق بين ذكرياته وذلك المقال يُبرز كم أنّ *l'affaire* أربكت بلداً بأكمله وكيف أنّ كلّ واحد كان يرى في تتابع الوقائع ما كان يريد أن يرى.

ولكن، ليذهب درايفوس إلى الشيطان، أو إلى جزيرة الشيطان. لم يعد ذلك شيئاً يهمّه.

فاقت المكافأة، التي سُلّمت إليه في الوقت الموعود بصفة سريّة، حقيقة كلّ توقعاته.

## مع مراقبة تاكسيل

خلال وقوع كلّ تلك الأحداث، تذكّر سيمونيني جيّداً أنه لم يغب عن باله ما كان يفعل تاكسيل. خصوصاً وأنّ الحديث عن تاكسيل كثر في أوساط درومون، حيث إنّ مسألة تاكسيل قُوبلت في البداية بشكوكيّة متسلّيّة، وبعد ذلك باستنكار ساخط. كان درومون يعتبر نفسه معادياً للماسونية، معادياً للساميّة وكاثوليكيّاً جادّاً - وكان كذلك على طريقته الخاصة - وكان لا يتحمّل أن يساند قضيّته نذل. وكان درومون، منذ زمن، يعتبر تاكسيل نذلاً، وكان قد هاجمه على صفحات "فرنسا اليهودية" مؤكّداً أنّ كلّ كتبه المناهضة للكنيسة طبعها ناشرون يهود. ولكن في هذه السنوات زادت علاقاتهما توتُّراً لأسباب سياسيّة.

نحن عرفنا ذلك من القس دلّا بيكّولا، كان الاثنان مرشَّحَيْن في دورة انتخابيّة للمستشارين البلديّين في باريس وتنافَسا على نفس الفئة الناخبة. بحيث إنّ المعركة صارت معلنة.

نشر تاكسيل مقالاً بعنوان "السيّد درومون، دراسة نفسية" *Monsieur Drumont, étude psychologique* ينتقد فيه ببعض السخريّة إفراط منافسه في المعاداة للساميّة، ملاحظاً أنّ مناهضة الساميّة، أكثر من كونها ميزة الكاثوليكيّين، فهي ميزة الصحافة الاشتراكية والثوريّة. فأجابه درومون بمقال عنوانه "وصيّة معادٍ للساميّة" *Testament d'un antisémite*، مثيراً الشكّ في هداية تاكسيل، مذكّراً بالوحل الذي لطّخ به ما هو مقدّس، وملوّحاً بتساؤلات مثيرة للقلق حول عدم إعلانه محاربة العالَم اليهودي.

وإذا ما اعتبرنا أنّ في نفس تلك السنة 1892 صدرت صحيفة جديدة "الكلمة الحرّة"، وهي جريدة كفاح سياسي، قادرة على إدانة فضيحة باناما، و"الشيطان في القرن التاسع عشر"، الذي يصعب اعتباره نصّاً ذا مصداقية، فإنّنا نفهم لماذا كانت الملاحظات الساخرة إزاء تاكسيل شيئاً عاديّاً في إدراة تحرير جريدة درومون، وكانوا يتابعون بابتسامة خبيثة نكباته المتوالية.

ولاحظ درومون أن ما يُسيئ أكثر إلى تاكسيل ليس الانتقادات وإنما

الأضرار التي ألحقها به الدعم غير المرغوب فيه، فبخصوص مسألة تلك المرأة الغامضة ديانا كان يتدخّل العشرات من المغامرين غير الجديرين بالثقة، متفاخرين بعلاقات حميمة مع امرأة ربما لم يَرَوْها أبداً.

من بينهم شخص يُدعى دومينيكو مارجيوتّا نشر نصّاً بعنوان "ذكريات عضو في الثلاثة والثلاثين: أدريانو تيمّي، الرئيس الأعلى للماسونية" *Souvenirs d'un trente-troisième: Adriano Lemmi Chef Suprème des Francs-Maçons* وأرسله إلى ديانا معلناً مساندته لثورتها. في الرسالة ادّعى مارجيوتّا أنّه كاتب الجمعيّة السافوناروليّة في فلورنسا، جليل جمعيّة جيوردانو برونو دي بالمي، السيّد المفتش الأوّل العامّ، الدرجة 33 من الطقس الإسكتلندي القديم والمقبول، الأمير السيّد لطقس ممفيس مصرايم (الدرجة 95)، مفتّش جمعيّتي مصرايم في كلابريا وصقليّة، عضو شرفي للمشرق الأكبر القومي في هاييتي، عضو ناشط في المجلس الأعلى الفدرالي بنابولي، مفتش عامّ للجمعيات الماسونية للكلابريات الثلاث، المعلّم الأكبر مدى الحياة للنظام الماسوني الشرقي لمصرايم أو مصر بباريس (الدرجة 90)، قائد طائفة الفرسان الحامين للماسونية الكونية، عضو شرفي مدى الحياة للمجلس الأعلى والعام للفدرالية الإيطالية ببالرمو، المفتش الدائم والمفوّض السيّد لمجلس الإدارة الأعلى المركزي لنابولي، وعضو البلّاديّة الجديدة المُصلَحة. كان بإمكانه أن يصبح أحد كبار الماسونية، ولكنه قال إنّه ترك منذ قليل الماسونية. وقال درومون إنه اعتنق الديانة الكاثوليكية لأنّ الإدارة العُليا والسريّة للطائفة لم تكن من نصيبه، مثلما كان يأمل، بل عادت إلى شخص يُدعى أدريانو ليمّي.

وفيما يتعلّق بأدريانو ليمّي الغامض، قال مارجيوتا إنه بدأ مسيرته ممتهناً حرفة اللصوصيّة، عندما زوّر في مارسيليا خطاب اعتماد لشركة "فالكوني وشركاؤه" بنابولي وسلب كيساً من اللؤلؤ و300 فرنك ذهبيّ لزوجة طبيب صديقه، بينما كانت تعدّ له شراباً مَغْليّاً في المطبخ. وبعد مدّة قضاها في السجن نزل في القسطنطينية، حيث دخل في خدمة شيخ يهودي يبيع الخضر، قائلاً إنه مستعدّ لنبذ التعميد وللاختتان. وبمساعدة اليهود بدأ مسيرته التي نعرفها داخل الماسونية.

وهذا يدلّ، كما قال مارجيوتّا، إنّ "مِلّة يهوذا الملعونة مصدر كلّ بلايا البشريّة، استعملتْ تأثيرها لتعهد بالحكومة العُليا والكونية لنظام الماسونية إلى واحد منهم، والأكثر شرّاً".

كانت هذه التُّهَم تعجب كثيراً الأوساط الكنسيّة، والكتاب الذي نشره مارجيوتّا في سنة 1895، "البلادية: عبادة الشيطان-إبليس في المثلّثات الماسونية" *Le Palladisme, Culte de Satan-Lucifer dans les triangles maçonniques*، يبدأ برسائل استحسان من أساقفة غرونوبل، مونتوبون، إيكس، ليموج، ميند، تارونتاز، باميي، وهران، أنيسي، ولودفيك بيافي بطريرك أورشليم.

المشكلة هي أنّ معلومات مارجيوتّا كانت تورّط نصف العالم السياسي الإيطالي، وبالخصوص شخصيّة كريسبي، الذي كان سابقاً قائمقام غاريبالدي وتقلّد في هذه السنوات منصب الوزير الأول للمملكة. ما دام الأمر يتعلق بنشر وبيع معلومات وهميّة عن الطقوس الماسونيّة فذلك في نهاية الأمر مُطَمْئِن، ولكن إذا مسّ الخطابُ صميمَ العلاقات بين الماسونية والسلطة السياسيّة فإن من شأنه أن يستفزّ أحقاد البعض الانتقامية.

كان ينبغي أن يعرف تاكسيل ذلك، ولكنه حاول بكلّ وضوح أن يستردّ هذا المجال الذي انتزعه منه مارجيوتّا وها إنه ظهر، تحت اسم ديانا، كتاب يكاد يبلغ أربعمائة صفحة، "كريسبي الثالث والثلاثين" *Le 33ème Crispi*، حيث تختلط وقائع مشهورة، مثل فضيحة البنك الروماني الذي تورّط فيها كريسبي، وأخبار عن ميثاق مع الشيطان هابوريم ومشاركته في جلسة بلّاديّة، أعلنت فيها صوفي والدر أنها حامل بأنثى ستلد بدورها المسيح الدجّال.

صاح دورمون حانقاً: - "تفاهات جديرة بملهاة". "ليس بهذه الطريقة تُخاض معركة سياسيّة".

ومع ذلك فإنّ العمل لاقى استحسان الفاتيكان، ممّا زاد من تأجيج سخط درومون. كان الفاتيكان لم يصفِّ بعدُ حسابه مع كريسبي، الذي شيّد في إحدى ساحات روما نصباً تذكاريّاً لجيوردانو برونو، الذي أُعدِم ضحيّة لِعدم تسامح

الكنيسة، وقضى ليوني الثالث عشر ذلك اليوم في صلاة التوبة تحت أقدام نُصُب القديس بطرس. لنتصوّر إذن بهجة البابا وهو يقرأ تلك الوثائق المعادية لكريسبي: فقد كلّف كاتبه، مونسينيور ساردي، بأن يرسل إلى ديانا، إضافة إلى "بركته الرسوليّة"، شكره الجزيل وتشجيعه على المواصلة قدما في عملها القيّم من أجل فضح "طائفة الشرّ". وكون الطائفة شرّيرة فذلك ما يبيّنه كتاب ديانا، حيث يظهر هابوريم بثلاثة رؤوس، رأس بشريّ بشعر من لهب، رأس قط ورأس ثعبان - مع أنّ ديانا دقّقت بصرامة علميّة أنها لم تَرَه أبدا بذلك الشكل (ظهر لها عند دعائها له فقط في صورة شيخ جميل المظهر بلحية فضيّة متموّجة).

قال دورمون ساخطاً: - إنهم لا يعملون بمجرّد احترام مشابهة الحقّ. كيف يُمكن لأمريكيّة وصلت منذ قريب إلى فرنسا، أن تعرف كلّ أسرار السياسة الإيطالية؟ أكيد أنّ الناس لا يُولون أهميّة لهذه الأشياء وديانا تبيع، ولكن الحَبْر الأكبر سيُتّهم بأنه شخص يصدّق كلّ الخُرافات. يجب الدفاع عن الكنيسة ضدّ خَوَرِها نفسه.

ظهرت الشكوك الأولى حول وجود ديانا نفسه بجلاء في جريدة "الكلمة الحرّة" بالذات. وعلى الفور دخلت في المجادلة صحف ذات طابع ديني واضح مثل *L'Avenir* [المستقبل] أو *L'Univers* [الكون]. بينما كانوا يعملون المستحيل في أوساط كاثوليكيّة أخرى للبرهنة على وجود ديانا: على صفحات *Le Rosier de Marie* [ورديه مريم] نُشرت شهادة رئيس جمعيّة محامِي القديس بطرس، لوتيي، الذي أكّد أنّه شاهد ديانا صحبة تاكسيل، بطاي والرسام الذي صوّرها، غير أن ذلك حصل منذ زمن طويل، عندما كانت ديانا لا تزال بلّاديّة. ولكن أنوار الهداية الوشيكة كانت تضيء وجهها لأنّ صاحب المقال هكذا وصفها: "هي شابّة في التاسعة والعشرين من عمرها، جميلة، أنيقة، متميّزة، ذات طول يفوق المتوسط، متفتّحة، صريحة ونزيهة، تشعّ نظراتها بذكاء ينمّ عن العزم وعن التعوّد على الإمرة. وتلبس بأناقة وبذوق، دون تكلّف ودون ذلك الإفراط في الحُلِيّ الذي يميّز بصفة سخيفة أغلب الثريّات الأجنبيّات... وعيناها تختلفان عن المعتاد،

أحياناً في زُرْقة البحر، وأحيانا في صُفْرة الذهب". وعندما قدّموا لها كأس "شارترروز" *chartreuse* رفضته، كرهاً منها لكلّ ما يذكّر بالكنيسة. ولم تشرب سوى الكونياك.

لعب تاكسيل دوراً هامّاً في تنظيم مؤتمر كبير مناهض للماسونيّة في ترانتو، في سبتمبر 1896. ولكن هناك بالذات تكثّفت الشكوك والانتقادات من طرف الكاثوليكيّين الألمان. من ذلك أنّ الأب باومغارتن طلب شهادة ولادة ديانا وشهادة الكاهن الذي نطقت لديه بارتدادها عن البلّاديّة. وأعلن تاكسيل إنه يملك البراهين في جيبه، ولكنه لم يقدّمها أبداً.

وبلغ الأمر بالقَسّ غارنيي، على صفحات "الشعب الفرنسي" ***Le Peuple Français***، في الشهر الموالي لمؤتمر ترانتو، إلى حدّ أن أعلن شكّه في أن ديانا ليست إلّا خداعاً ماسونيّاً، والأب بايي على صفحات "لاكروا" ذات الصوت المسموع، عبّر هو الآخر عن احترازه، وكانت جريدة "كولنيشيه فولكستايتونغ" ***Kölnische Volkszeitung*** تذكّر أنّ بطاي-هاكس، كان لا يزال في السنة نفسها التي بدأت تصدر فيها كرّاسات "الشيطان..." يجدّف اسم الرَّبّ وكلّ قدّيسيه. نزل إلى الميدان للدفاع عن ديانا الخَوْرني المعتاد موستيل، وجريدة "الحضارة الكاثوليكية" *Civiltà Cattolica* وكاتب الكاردينال باروكّي الذي كتب إليها "لشدّ أزرها ضدّ عاصفة الافتراء التي لا تخشى أن تضع موضع الشكّ حتى وجودها".

لم تكن تنقص درومون معارف ذات وزن في أوساط مختلفة، ولا الحسّ الصحفي الحاذق، لم يفهم سيمونيني كيف فعل، حتّى تمكّن من العثور على بطاي-هاكس، ربما فاجأه أثناء إحدى أزماته الكحولية، التي يميل فيها دائماً إلى الكآبة وإلى الرغبة في التوبة، ثمّ ها هو الانقلاب المفاجئ: هاكس، على صفحات "كولنيشيه فولكستايتونغ" أولاً ثم في "الكلمة الحرّة"، اعترف بالتزوير الذي قام به. كتب بسذاجة: "عندما صدرت الرسالة البابويّة ***Humanum Genus*** فكّرت أنّ بالإمكان ربح كثير من المال باستغلال سذاجة وغباء الكاثوليكيّين اللامحدود. يكفي أن يوجد شخص مثل جول ڤيرن ليعطي مظهراً رهيباً لحكايات

اللصوص. كنت أنا ذلك الفيرن، هذا كلّ ما في الأمر.. كنت أقصّ مشاهد سحر أجعلها تقع في أماكن عجائبية بعيدة، وأنا واثق أنّه لن يذهب أحد للتثبّت من صحّتها... وقد صدّق الكاثوليكيّون كل شيء. هؤلاء الناس هم من الغباء بحيث لو قلت لهم اليوم إني خدعتهم، فلن يصدّقوني".

وكتب لوتيي على صفحات "ورديّة مريم" أنه ربما انخدع وأنّ التي رآها ليست ديانا فوغن، وأخيراً ظهرت أوّل مهاجمة يسوعيّة على يد شخص يُدعى الأب بورتاليي على صفحات مجلّة جادّة جداً مثل "دراسات" (*Etudes*). وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، كتبت بعض الصحف أنّ مونسينيور نروثتروب، أُسقف شارلستون (حيث يقال إنه يقيم بايك، المعلّم الأكبر لكبار المعلّمين)، ذهب إلى روما ليطمِئن شخصيّاً البابا ليون الثالث عشر بأنّ ماسونيّي مدينته أناس طيّبون ولا يوجد في معابدهم أيّ صنم للشيطان.

انتصر درومون، وقُضي على تاكسيل نهائياً، وعادت المعركة ضدّ الماسونية وضدّ اليهود إلى أيدٍ أكثر جديّة.

# 24

## ليلة في القدّاس

17 نيسان/أبريل 1897

حضرة النقيب،

إنّ صفحاتك الأخيرة تجمّع قدراً كبيراً من الأحداث، ومن الواضح أنّه بينما كنت أنت تعيش تلك الأحداث كنت أنا أعيش أخرى. من البديهي أنك كنت مطّلعاً (بالضرورة، نظراً لِكلّ تلك الضجة التي أحدثها تاكسيل وبطاي) عما كان يحدث حولي، ولعلّك تذكر أكثر ممّا يُمكنني أنا إعادة تركيبه.

إذا كنّا الآن في سنة 1897، فإنّ قصّتي مع تاكسيل وديانا دامت حوالى اثنتي عشرة سنة، حدثت فيها أشياء كثيرة. مثلاً، متى قضينا على بولاّن؟

ربما وقع ذلك عندما بدأنا، منذ أقلّ من سنة، في نشر أعداد "الشيطان" . جاء بولاّن ذات مساء إلى أوتوي، مضطرباً، ينشّف باستمرار بمنديله شفتيْه التي كانت تتكاثف حولهما رغوة مبيضّة.

قال: – لقد حكموا عليّ بالموت، إنهم بصدد قتلي.

رأى الدكتور بطاي أن كأساً من الكحول القوي سيهدّئه، ولم يرفض بولاّن ذلك، ثمّ بصوت متقطّع روى لنا قصّة من أعمال السحر وأفعال الشرّ.

وكان قد حَدَّثَنا سابقاً عن علاقاته الرديئة بستانيسلاس دي غوابيتا وجمعيَّته القبالية المدعوّة روزا كروتشي، وبذلك المسمّى جوزفان بيلادون الذي أسّس مدفوعاً بعقليّته الانشقاقية - روزا كروتشي الكاثوليكية - وهما شخصيّتان سبق بطبيعة الحال لِكتاب "الشيطان" أن اهتمّ بهما. حسب تقديري لا توجد فوارق كبيرة بين روزا كروتشي بيلادون وطائفة فنتراس التي صار بولاّن حَبْرها الأكبر، كلهم أشخاص يتجوّلون بأغطية مطرّزة بعلامات قباليّة ولا يُفهم جيّداً إن كانوا موالين للربّ أو للشيطان، ولكن

ربما لهذا السبب تأجّج الصراع بين بولاّن وأوساط بيلادون. كانا يرتعان في نفس الأماكن ويحاولان إغراء نفس الأرواح التائهة.

كان أصدقاء غواييتا الأوفياء يقدّمونه على أنّه نبيل مهذّب (كان ماركيزاً) يجمع كتب طلاسم مرصّعة بالنجوم، وأعمال لولّ وبراشلس، ومخطوطات معلّمه في السحر الأبيض والأسود إيليفاس ليفي وأعمالاً أخرى مبهمة نادرة. كان يقضي أيامه، حسب ما يقولون، في شقّة صغيرة بالطابق الأرضي من شارع ترودان حيث كان لا يستقبل إلاّ السحرة الإخفائيّين وقد يمكث طوال أسابيع عديدة دون أن يخرج. ولكن في تلك القاعات بالذات، حسب البعض، كان يكافح ضدّ شبح يحتفظ به سجيناً في خزانة، وبعد أن يطفح بدنه بالكحول والمورفين، يطلق العنان للأشباح التي يولّدها هذيانه.

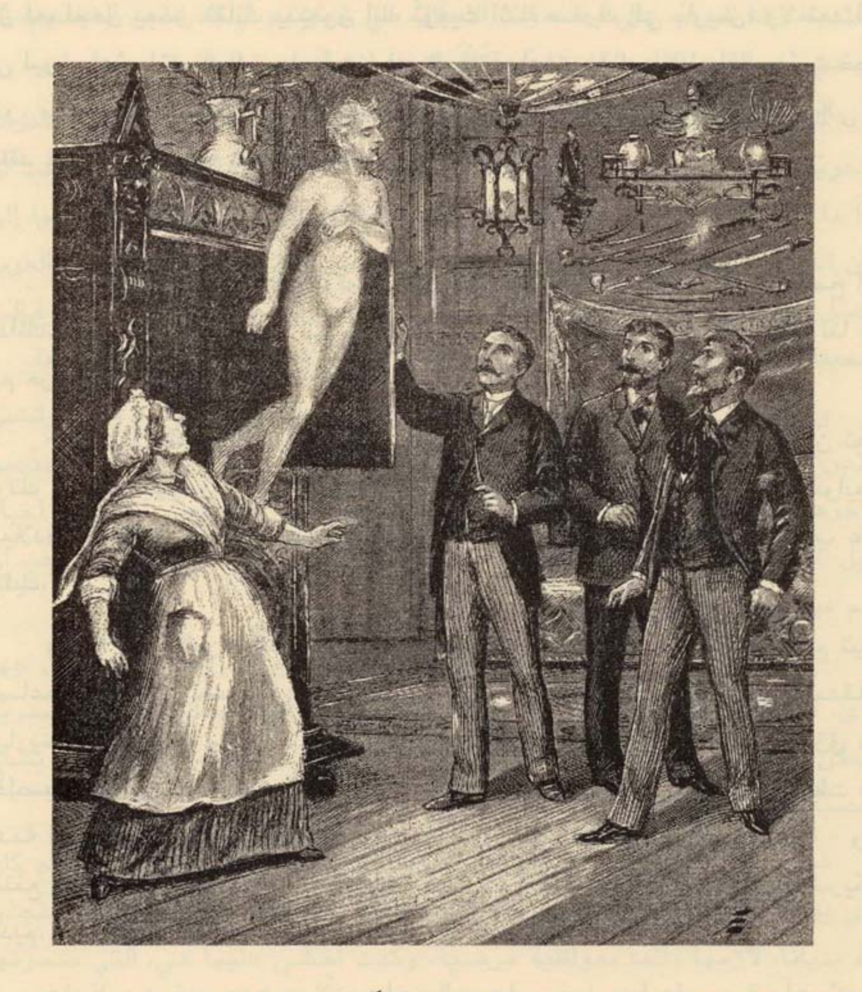
وما يدلّ على أنّه كان يعيش في خضمّ علوم تثير الرعب عناوينُ مؤلّفاته "دراسات في العلوم الملعونة"، حيث كان يكشف الدسائس الإبليسيّة أو الشيطانيّة أو العفريتية أو المنسوبة للجان التي كان يقوم بها بولاّن، المصوَّر على أنّه منحرف "جعل من الفسوق ممارسة شعائريّة دينيّة".

كانت القصّة قديمة، فمنذ 1887 دعا غواييتا والمُحيطون به إلى "محكمة مساريّة" أدانت بولاّن. هل كانت إدانة أخلاقيّة؟ كان بولاّن يؤكد منذ زمن أنها إدانة جسديّة، وأنه كان يحسّ باعتداء مستمرّ، بضرب، وبجروح تحدثها له تيّارات سريّة، ورماح ذات طبيعة لاملموسة كان غواييتا والآخرون يرمونه بها حتى على مسافات بعيدة.

والآن يحسّ بولاّن بنفسه على حافة الموت.

– كلّ مساء، في اللحظة التي أنام فيها، أحسّ بضربات ولكمات وصَفَعات - وليست أوهاماً تخدعني بها حواسي المريضة، صدقوني، لأنه في تلك اللحظة نفسها كان قِطّي يضطرب كما لو مرّ به تيّار كهربائي. أعرف أنّ غواييتا صنع دمية من الشمع كان يرشقها بإبرة، فأحسّ أنا بأوجاع فظيعة. حاولت أن أرميه بسحر مضادّ ليصير أعمى، ولكن غواييتا تفطّن للخطر، إنه أقوى منّي في هذه الفنون، وأرجع لي السحر. عيناي تظلمان، وأنفاسي تثقل، لست أدري كم بقي لي من ساعة أعيشها.

لم نكن متأكّدين من أنه يقول الحقيقة، ولكن ليس هذا المشكل. كان المسكين بحقّ في حالة يُرثى لها. وعندئذٍ خَطَرتْ لتاكسيل فكرة عبقريّة: – أعْلِن خبر موتك،



. . . كان يكافح ضدّ شبح يحتفظ به سجيناً في خزانة، وبعد أن يطفح بدنه بالكحول والمورفين، كان يطلق العنان للأشباح التي يولّدها هذيانه. . .
(ص404)

قال له، اجعل بعض ثقاتك يذيعون أنك تُوفِّيت أثناء سفرك إلى باريس، ولا تعد أبداً إلى ليون، اعثر لنفسك عن ملجأ هنا في المدينة، احلق ذقنك وشاربك، صِرْ شخصاً آخر. مثل ديانا، استفق في جلد شخص آخر، ولكن خلافاً لديانا، ابقَ فيه. إلى أن يعتقد غوابيتا وأصحابه أنك متّ فيكفّون عن تعذيبك.

– وكيف سأعيش إن لم أسكُنْ في ليون؟

– ستعيش بيننا هنا في أوتوي، على الأقلّ إلى أن تهدأ العاصفة، ويفتضح أمر أعدائك. في نهاية الأمر ديانا في حاجة إلى عناية دائمة، وستكون أكثر نفعاً لنا كلّ يوم من كونك زائراً عابراً.

– ولكن، أضاف تاكسيل، إذا كان لك أصدقاء تثق بهم، اكتب إليهم قبل أن تعلن موتك رسائل يهيمن عليها الإحساس بالموت الوشيك، واتهم بوضوح غوابيتا وبيلادون، بحيث يكون أصحابك الملوَّعُون لفقدانك هم الذين سيشنّون الحرب على قاتليك.

وهكذا كان الأمر. والشخص الوحيد الذي كان على علم بالخدعة هي مدام تيبو، مساعدة وكاهنة وحميمة (وربما شيء آخر) بولاّن، والتي قدّمت إلى أصدقائه الباريسيّين وصفاً مؤثراً لاحتضاره، ولست أدري كيف خرجت من المأزق مع مُخْلِصيه الليونيّين، قد تكون دَفَنَتْ تابوتاً فارغاً. بعد وقت قصير من ذلك انخرطت في خدمة أحد أصدقاء بولاّن والمدافعين عنه، هويسمان، كاتب في أوج الشهرة - وأنا مقتنع أنها جاءت في بعض الأمسيات، عندما كنتُ غائباً عن أوتوي، لتزور شريكها القديم.

عند ذيوع خبر موت بولاّن، هاجم الصحفي جول بوا على صفحات "جيل بْلاس" (*Gil Blas*)، غوابيتا، متهماً إيّاه بممارسات سحريّة وبقتل بولاّن، ونشرت صحيفة "فيغارو" حوارا لهويسمان، الذي فسّر نقطة بنقطة كيف أثّرت أعمال سحر غوابيتا. ودائماً على صفحات "جيل بلاس"، عاد بوا للاتهام مطالبا بتشريح الجثمان لمعرفة إن كان القلب والكبد قد أُصيبا حقيقةً بالسهام السحريّة التي رماها غوابيتا، ونادى بضرورة القيام بتحقيق قضائي.

وردّ غوابيتا من ناحيته دائماً على صفحات "جيل بلاس" متهكّما بخصوص قدراته السحريّة القاتلة (" إيه، نعم، إنّي أستعمل السُّموم القاتلة بفن جهنّمي، وأبخّرها

لأنفث بخارها السامّ، على بعد مئات الأميال، في خياشيم أولئك الذين أبغضهم، أنا جيل دي ري القرن القادم")، وتحدّى كُلّاً من هويسمان وبوا للمبارزة.

كان بطاي يتضاحك ساخراً ملاحظاً أن لا أحد استطاع، رغم كلّ تلك القدرات السحريّة، ومن كلتا الجهتيْن، حتى خدش الآخر، ولكن صحيفة من تولوز لمّحت أنّ أحداً ما لجأ حقيقة إلى استعمال السحر: فأحد الخيول التي كانت تحمل عربة بوا إلى مكان المبارزة سقط دون سبب، فغيّروا الجواد وحتى الثاني سقط، وانقلبت العربة ووصل بوا إلى ميدان الشرف كلّه رضوض وخدوش. وإضافة إلى ذلك، قالت الصحيفة إنّ إحدى رصاصاته تعطّلت في قصبة مسدّسه بفعل قوّة خارقة للطبيعة.

وأوعز أصدقاء بولان، بدورهم، إلى الصحف، أنّ منتسبي روزا كروتشي بيلادون أقاموا حفلاً في نوتردام، ولكن عند رفع كأس القربان استلّوا مهدّدين خناجرهم ووجّهوها نحو المذبح. من يدري. بالنسبة إلى "الشيطان..." فهذه أخبار تسيل اللعاب، وأقلّ غرابة من أخرى كان القُرّاء قد تعوّدوا عليها. ما عدا أنه يجب أن يقحم فيها أيضاً بولاّن، ودون الكثير من المراعاة.

– أنت مَيّتٌ، قال له بطاي، وما يقولون عن هذا الميّت لم يعد يهمّك. ومن جهة أخرى، في حالة ظهورك يوما من جديد، نكون قد خلقنا حولك هالة من السريّة لا يُمكن إلا أن تعود عليك بالنفع. لذا لا تهتمّ بما سنكتب، لن يكون بشأنك بل بشأن شخصيّة بولاّن، التي لم تعد موجودة.

قبل بولاّن ذلك وربما كان في هذيانه النرجسي يحسّ بمتعة وهو يقرأ كم كان بطاي يواصل خيالاته حول ممارساته الإخفائيّة. ولكنه كان يبدو في الواقع منجذباً فقط بديانا، لازمها دائماً بمواظبة مَرَضيّة، وكدت أخشى عليها هي، التي سَحَرتها خيالاتُه، كما لو أنها لم تكن تعيش خارج الواقع بما فيه الكفاية.

* * *

لقد رويتَ جيّداً ما حدث لنا بعد ذلك. انقسم العالم الكاثوليكي إلى جزءَيْن، وجزء منه وضع موضع الشكّ وجود ديانا فوغن نفسه. هاكس خان، وكلّ القصر الذي شيّده تاكسيل بدأ ينهار. لقد صرنا مغتمّين من نباح أعدائنا وفي الآن نفسه من المقلّدين العديدين لديانا، مثل ذلك المدعوّ مارجيوتا الذي ذكرتَه. كنا ندرك أنّنا

تجاوزنا الحدّ، فكرة ذلك الشيطان ذي الرؤوس الثلاثة الذي يتناول الطعام برفقة رئيس الحكومة الإيطالية كانت شيئاً يصعب هضمه.

إنّ بضعة لقاءات مع الأب برغماسكي كانت كافية لكي أقتنع بأنه إذا كان اليسوعيّون الرومانيّون التابعون لصحيفة "الحضارة الكاثوليكية" (*Civiltà Cattolica*) لا يزالون يساندون قضية ديانا، فإنّ اليسوعيّين الفرنسيّين (انظر مقال الأب بورتاليي الذي تذكره) كانوا عازمين على دفن كلّ القصّة. وحوار قصير آخر مع إيبوترن أقنعني أنّ الماسونيّين يودّون لو تنتهي تلك المهزلة في أسرع وقت. بالنسبة إلى الكاثوليكيّين كان ينبغي أن تنتهي دون ضجّة، بحيث لا تلقي مزيداً من الفضائح على رؤساء الكنيسة، بينما طالب الماسونيّون، على عكس ذلك، باعتراف علني، إذ إنّ كلّ سنوات البروبغاندا المعادية للماسونيّة التي قادها تاكسيل اعتُبرت مجرّد تحايل.

وهكذا بلغتني يوماً رسالتان بصفة متزامنة. واحدة من الأب برغماسكي، يقول لي فيها: "أرخّص لك في دفع خمسين ألف فرنك إلى تاكسيل ليغلق كلّ الملفّ. مع تحياتي الأخويّة، برغماسكي". والأخرى، من عند إيبوترن، يقول فيها: "فلتتوقّفْ هذه المهزلة. اعرض على تاكسيل مائة ألف فرنك لكي يعترف أنّه اختلق كلّ شيء".

كنتُ مُؤمّناً من كلا الجانبيْن، ولم يبق لي إلاّ أن أتصرّف - بطبيعة الحال بعد أن تسلّمت المبلغيْن الموعوديْن.

سهّل موت هاكس المزعوم مهمّتي. لم يبقَ لي إلاّ أن أدفع تاكسيل إلى الارتداد أو إعادة الإرتداد كيفما أردنا تسميته. وكما في بداية هذه العمليّة كان لديّ مائة وخمسون ألف فرنك وتكفي خمسة وسبعون لتاكسيل لأنّني أملك حُجَجاً أقدر إقناعاً له من المال.

– تاكسيل، لقد فقدنا هاكس، وسيصعب علينا جداً أن نعرّض ديانا إلى مواجهة علنية. سأفكّر أنا في كيفيّة إخفائها. ولكنني مهموم من ناحيتك: بلغتني إشاعات بأنّ الماسونيّين يريدون الانتقام منك، وأنت نفسك كتبت عن مدى دمويّة انتقامهم. قبل الآن كان بالإمكان أن يدافع عنك الرأي العامّ الكاثوليكي، ولكنك رأيت أنّ اليسوعيّين أنفسهم بدأوا يتراجعون. وها هي ذي فرصة خارقة للعادة تُتاح لك: يعرضُ عليك محفل ماسونيّ لا تسألني عن هويّته، لأنّه شيء في غاية من السريّة، خمسة وسبعين ألف فرنك، إذا أعلنت للعموم أنّك خدعت الجميع. هل تدرك الفائدة التي ستجنيها

الماسونية: فهي ستغتسل من كلّ القاذورات التي رميتها بها وستغطي بها الكاثوليكيّين، الذين سيظهرون بمظهر الأغبياء. أما أنت، فإنّ هذا الانقلاب المفاجئ سيلعب لصالحك دور الإشهار وسيرتفع رقم مبيعات أعمالك القادمة ارتفاعاً أعلى من السابق، إذ هي الآن في نقصان لدى الكاثوليكيّين. ستغزو من جديد الجمهور المعادي للكنيسة والماسوني. ذلك أصلح لك.

لم أكن بحاجة للإلحاح أكثر: تاكسيل مهرّج، وفكرة تقديم عرض جديد كانت تحدث بريقاً في عينيه.

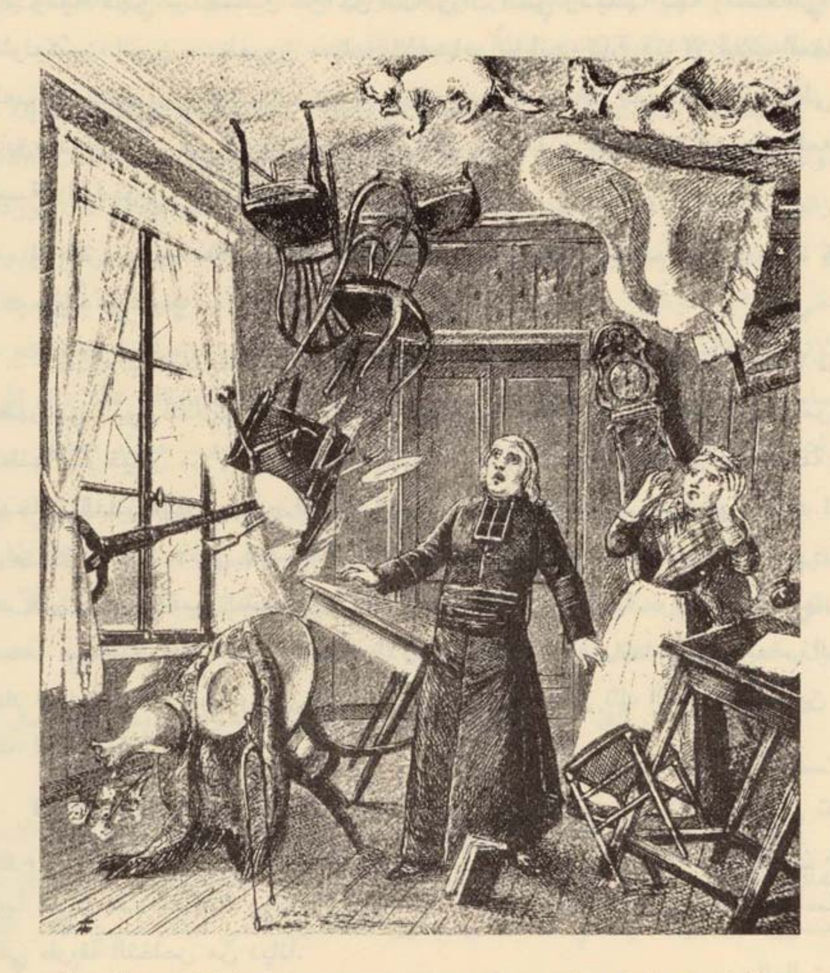
– اسمع يا حضرة القسّ، سأستأجر أنا قاعة، وسأبلغ الصحافة أن ديانا فوغن ستظهر في اليوم الفلاني. وأنها ستقدّم للجمهور أيضاً صورة للشيطان أسموديو، التقطتها بترخيص من إبليس نفسه. إنني سأعدُ بواسطة ملصق بإجراء قرعة بين المتدخلين الفائز فيها سيربح آلة كتابة قيمتها أربعمائة فرنك ولن يكون هناك لزوم للقيام بأيّ سحب، لأنني بطبيعة الحال سأتقدّم لأقول إنّ ديانا غير موجودة - وإذا كانت غير موجودة فمن الطبيعي أنه لا توجد أيضاً أيّة آلة كتابة. وأتصوّر المشهد: كلّ الصحف ستتحدّث عني، وفي الصفحة الأولى. سيكون ذلك رائعاً. أعطني بعض الوقت لإعداد الحدث إعدادا جيّداً و (إن سمحت) اطلب تسليفة على تلك الخمسة وسبعين ألف فرنك، للمصاريف...

في اليوم التالي وجد تاكسيل القاعة: قاعة "جمعيّة الجغرافيا"، ولكنها لن تشغر إلاّ يوم الإثنيْن من عيد الفصح. أذكر أني قلت له: – إذن، سيتمّ ذلك في غضون شهر تقريباً. طوال هذه المدّة لا يجب أن يراك أحد، لتفادي أقاويل أخرى. في الأثناء سأفكّر أنا في طريقة التخلّص من ديانا.

بقي تاكسيل لحظة متردّداً، بينما كانت شفته ترتعش، ومعها كان يرتعش شاربه ثم قال: – لا تريد... قتل ديانا.

أجبته: – يا للحماقة، لا تنسَ أنّني رجل دين. سأرجعها إلى حيث أخذتها.

بدا لي تائهاً عند فكرة أنه سيخسر ديانا، ولكن خوفه من الماسونيّين تغلّب على ولعه بديانا. أكثر من كونه نذلاً، كان جباناً. كيف سيكون ردّ فعله لو قلت له، صحيح، إني كنت أنوي قتل ديانا؟ لعلّه، من خوفه من الماسونيّين، سيقبل الفكرة. بشرط أن لا يقوم هو بفعل ذلك.



... كان يحسّ باعتداء مستمرّ، بضرب، وبجروح تحدثها له سوائل سريّة، ورماح ذات طبيعة لاملموسة كان غوايبيتاً والآخرون يرمون بها به حتى من مسافات بعيدة.. (ص404)

صادف الإثنيْن من عيد الفصح 19 من نيسان/أبريل. إذن، إذا كنتُ أتحدثُ في الوقت الذي استأذنتُ فيه تاكسيل بالانصراف عن شهر من الانتظار، فإنّ الأمر يصادف وقوعه ما بين 19 أو 20 مارس. اليوم هو 16 أبريل. إذن، في إعادة التركيب التدريجي لأحداث السنوات العشر الأخيرة وصلتُ إلى أقلّ من شهر مضى. وإذا كانت هذه اليوميات تصلح لي، مثلما تصلح لك، لمعرفة مصدر تَيَهاني الحالي، لم يحدث شيء. أو لعلّ الحدث الأساسي وقع في الأسابيع الأربعة الأخيرة.

الآن أشعر وكأني خائف من تذكّر شيء آخر.

17 نيسان/أبريل، عند الفجر

بينما كان تاكسيل يجوب البيت طولاً وعرضاً وهو فريسة للحيرة، كانت ديانا لا تدرك ما الذي كان يحدث. كانت تتابع، في تناوب حالتيْها، مسارّاتنا بعينيْن زائغتيْن، وكان يبدو أنها تستفيق فقط عند سماع اسم شخص أو مكان يوقظ في ذهنها نوراً باهتاً.

كانت تتحوّل تدريجياً إلى شيء نباتيّ، مع مظهر حيوانيّ واحد، شهوانيّة دائمة الهيجان، كانت تلقي بها بصفة غير محدّدة، تارة على تاكسيل، أو على بطاي عندما كان لا يزال بيننا، أو على بولاّن، وبطبيعة الحال - ومهما حاولت تفادي أيّ إغراء - عليّ أنا.

اندمجت ديانا في رفقتنا وهي لا تتجاوز العشرين إلاّ قليلاً، والآن تجاوزت خمساً وثلاثين سنة. إلاّ أنّ تاكسيل كان يقول بابتسامات دائماً أكثر فجوراً، أنّها بتقدّم السنين كانت تزيد فتنة، كما لو أنّه يُمكن لامرأة فاتت الثلاثين أن تثير الرغبة. لعلّ حيويّتها التي تكاد تكون نباتيّة كانت تضفي على نظراتها غموضاً يبدو سرّاً.

ولكنها انحرافات لست خبيراً بها. يا إلٰهي، لماذا أتوقف على مظهر تلك المرأة الجسدي، والذي لا يعدو أن يكون بالنسبة إلينا أداة تعيسة؟

* * *

قلت إنّ ديانا لم تكن تدرك ماذا كان يقع حولها. لعلي أخطئ: في آذار/مارس، ربما لأنها لم تعد ترى لا تاكسيل ولا بطاي، زاد هيجانها. كانت فريسة لأزمة هيستيريّة، الشيطان (كانت تقول) كان يتملّكها بصفة قاسية، يجرحها، ويعضّها، ويلوي ساقيها، ويصفعها على وجهها - وكانت تظهر لي علامة على ذلك عينيها المحوّقتيْن بالزُّرْقة. وعلى كفّيها بدأت تظهر آثار جروح تشبه علامات جروح المسيح. كانت تتساءل لماذا تتعامل قوى الجحيم بتلك القساوة معها بالذات هي البلاّدية الموالية لإبليس، وكانت تشدّني من ثوبي، كأنما تستغيث.

فكّرت في بولاّن، الذي كان خبيراً أكثر منّي بالشعوذة. وبالفعل، ما إن رأته حتى شدّته ديانا من ذراعه وهي ترتعش. فشدّها هو من رقبتها، محادثاً إيّاها بلطف حتى هدأت، ثمّ بصق في فمها.

خاطبها: – ومن قال لك يا ابنتي إنّ من سلّط عليك هذا العذاب هو سيّدك إبليس؟ ألا تعتقدين، عقاباً ومذلّة لعقيدتك البلاّديّة، أنّ عدوّك هو العدوّ بامتياز، أي ذلك الإله الذي يسميه المسيحيّون يسوع المسيح، أو أحد قدّيسيه المزعومين.

أجابته ديانا محتارة: – ولكن يا حضرة القسّ، إن كنت بلاّديّة فلأنّي لا أعترف بأيّ سلطة للمسيح المخلّ، إلى حدّ أني رفضت يوماً أن أطعن خبز الذبيحة لأنني أعتبر من الجنون الاعتراف بوجود واقعي لمجرّد قطعة من الحنطة.

– وهنا تخطئين، يا ابنتي. انظري ماذا يفعل المسيحيّون، الذين يعترفون بسيادة مسيحهم ولكنهم لا ينفون مع ذلك وجود الشيطان، بل يخافون دسائسه، وعداءه، وإغراءه. وهذا ما يجب أن نفعل: إن كنا نؤمن بسلطان سيّدنا إبليس، فذلك لأنّنا نعتبر أنّ عدوّه أدوناي، ربما في صورة المسيح، موجود روحيّاً ويظهر من خلال شروره. لذا يجب أن تكوني مستعدّة لدوس صورة عدوّك بالطريقة الوحيدة الممكنة لمن يؤمن بإبليس.

– وما هي؟

– القدّاس الشيطاني. لن يُمكنك أبداً أن تحصلي على رضى سيّدنا إبليس إلا بإقامة القداس الشيطاني للتعبير عن رفضك للربّ المسيحي.

بدت لي ديانا مقتنعة، وطلب مني بولاّن أن أقودها إلى اجتماع المؤمنين بإبليس، في محاولة لإقناعها بأنّ الشيطانيّة والإبليسيّة أو البلاّديّة لها نفس الغايات ونفس الوظيفة التطهيريّة.

لم يَرُقْ لي السماح لديانا بالخروج من البيت، ولكن كان ينبغي أن أتركها تتنفس قليلاً.

* * *

أجدُ القَسّ بولاّن في حوار حميم مع ديانا. يقول لها: - أعجبكِ يوم أمس؟

ماذا حدث يوم أمس؟

يواصل القسّ: - حسناً، مساء غد سأقيم قداساً شيطانياً آخر باهراً في كنيسة بطلت قداستها في باسّي. ليلة رائعة، يوم 21 مارس، اعتدال الربيع، تاريخ ثريّ بالمعاني السريّة. ولكن إن قبلت المجيء يجب أن أهيّئك روحيّاً الآن، وحدك لا غير. في سرّ الاعتراف.

خرجت، وبقي بولاّن معها أكثر من ساعة. وعندما دعاني أخيراً، قال لي إنّ ديانا ستأتي في اليوم التالي إلى كنيسة باسّي، ولكنها ترغب في أن أرافقها.

- نعم يا حضرة القسّ، قالت لي ديانا بعينيْن تشعّان أكثر من العادة، وبوجنتيْن ملتهبتيْن، نعم، أرجوك.

كان يجب علي أن أرفض، ولكن غلبني الفضول، ولم أُرِدْ الظهور بمظهر المتزمّت في نظر بولاّن.

* * *

أكتب وأرتعد، وتكاد يدي تجري من تلقاء ذاتها على الورقة، لم أعد أتذكّر، بل أعيش من جديد، فكما لو أني أقصّ شيئاً يقع في هذه اللحظة...

كان ذلك مساء يوم 21 مارس وأنت، يا حضرة النقيب، بدأتَ يوميّاتك يوم 24 مارس، قائلاً إني أنا فقدت الذاكرة يوم 22 صباحاً. وإذن إن كان وقع شيء رهيب فقد حدث مساء 21.

أحاول إعادة التركيب ولكن الأمر مُضْنٍ، أخشى أن أكون مصاباً بالحُمّى، جبيني يحرقني.

بعد أخذ ديانا من أوتوي، أُسلّم لسائق العربة عنواناً. يَنظر الحوذي إليّ شزراً، كمن لا يثق بزبون مثلي، وهذا بالرغم من ثوبي الكهنوتي، ولكني عندما أعرضُ عليه إمكانية الحصول على مكافأة ذات قيمة يشرع في السير دون أن يضيف شيئاً. يبتعِدُ أكثر فأكثر عن وسط المدينة ويتوغّلُ في الضاحية عبر طرقات تزداد حلكةً، إلى حين ينعطِفُ في زقاق توجد على جانبيه بيوت حقيرة مهجورة يؤدي إلى درب تسدّه واجهة كنيسة قديمة متداعية.

نزلنا، وبدا الحوذي مستعجلاً للذهاب في حال سبيله حتى إنه عندما قاضيته أجره وبدأت أبحث في جيوبي عن بعض الفرنكات قال لي "لا يهمّ، يا حضرة القسّ، شكراً على كلّ حال" ومن عجلته عدل حتى عن قبض المكافأة.

– الطقس بارد، وأنا خائفة، قالت ديانا، ملتصقة بي. أتراجع، ولكن في الآن نفسه، بما أنها لا تظهر ذراعها، بل أحسّ به تحت الثوب الذي تلبسه، أتفطّن إلى أنها ترتدي لباساً غريباً: تحمل معطفاً بغطاء للرأس، يكسوها كلّها من رأسها إلى قدميها، بحيث يُمكن في هذه الظلمة اعتبارها راهباً، من أولئك الذين يظهرون فجأة في أقبية الأديرة حسب تلك الروايات القوطية التي كانت دارجة في بداية هذا القرن. لم أَرَه عليها أبداً ولكن ينبغي أن أقول إنه لم يمرّ ببالي يوماً أن أفتّش في الصندوق الذي يحوي كلّ الأمتعة التي جلبتها معها من منزل الدكتور دي موريي.

بُوَيْبُ الكنيسة الصغير منفرجٌ. ندخلُ جناحاً واحداً تضيئه مجموعة من الشموع التي تشتعل فوق المذبح وشمعدانات عديدة ثلاثية القوائم تحيط مثل إكليل بالمذبح على جوانب محراب صغير. المذبح مغطّى بقماش داكن مثل ذلك المستعمل في المآتم. يوجد فوقه، عوضاً عن الصليب أو أيقونة أخرى، تمثال للشيطان في شكل تيس، قضيبه منتصب، ضخم بالمقارنة مع الجسم، يبلغ طوله على الأقلّ ثلاثين سنتميتراً. ليست الشموع بيضاء أو عاجية بل سوداء. وفي الوسط، في بيت قربان، تلوح ثلاثة جماجم.

تهمس لي ديانا: – حدّثني عنها القسّ بولاّن، هي رِمَمُ الملوك المَجُوس الثلاثة، الحقيقيين، ثيوبانس، مانسر وسايير. نبّههم انطفاء نجمة سيّارة فابتعدوا عن فلسطين حتى لا يكونوا شاهدين على ولادة المسيح.

قُبَالة المذبح، تقف في شكل نصف دائرة، مجموعةٌ من الشباب، الذكور على اليمين والإناث على الشمال. غضاضة سنّهم تبلغ حدّاً لا يلاحظ المرء معه إلا فارقاً ضئيلاً بين الجنسيْن، ويبدو هذا المسرح الجميل مسكوناً بمخلوقات خنثوية فاتنة، يزيد في طمس الفوارق بين كل واحد وواحدة منها أنهم جميعهم يزينون رؤوسهم بأكاليل من الورود الذابلة، إلاّ أنّ الذكور كانوا عرايا ويظهرون من خلال القضيب الذي كان كلّ واحد يُباهي به الآخر، بينما تلبس الفتيات غطايات قصيرة من قماش يكاد يكون شفافاً، تبرز النهديْن الصغيريْن وتقوّس الردفيْن الناشئيْن، دون أن تخفي شيئاً. كلهم على غاية من الجمال، حتى وإن عبّرت الوجوه عن الخُبْث أكثر منها عن البراءة، ولكن هذا يضفي دون شكّ مزيداً من الفتنة - وينبغي أن أعترف (يا للوضعيّة الغريبة، أنا، القسّ، أعترف لك يا أيها النقيب) إنّني بينما أشعر، لا أقول بالرهبة، فعلى الأقلّ بالخوف، أمام امرأة ناضجة، فإنه يصعب عليّ الافلات من إغراء مراهق.

وتمرّ صبايا المذبح أُولاءِ وراء المذبح للإتيان بمباخر صغيرة وزّعوها على الحاضرين، ويُقرّب البعض منهم فروعاً صمغيّة من الشمعدانات الثلاثية الأقدام، يشعلونها ثم يذهبون لإشعال المباخر بها، فينبعثُ منها دخان كثيف وعطر مهيّج لنباتات مخدّرة قادمة من أماكن عجائبية بعيدة. ثمّ يوزّع البعض من أولئك المراهقين العراة أكواباً صغيرة ويقدِّم إليّ أنا أيضاً فتًى منهم كأساً، وهو يقول لي بنظرة وقحة:
– «اشرب، يا حضرة القَسّ»، "إنه يساعدك على الدخول في روح الطَّقس".

شربت وإذا بي الآن أرى وأسمع كلّ شيء كما لو كان وسط ضباب.

وها إنّ بولاّن يدخل. يلبسُ جلباباً أبيض فوقه حلّة بدون كُمَّيْن رُسِم عليها صليب مقلوب. في نقطة التقاء ذراعَي الصليب توجد صورة لتيس أسود واقف على قائمتيْه الخلفيّتيْن ومادّاً قرنيْه... إلاّ أن جلباب القس ينفتح منذ أول حركة قام بها هذا الأخير، كما لو كان ذلك عن طريق الصدفة أو التهاون، ولكن في الواقع كان بنوع من الدلع الانحرافي، ويُظهِر قضيباً ضخماً لم أكن أتصوّره عند كائن رخو مثل بولاّن، وهو منتصبٌ، بفعل بعض المخدّرات التي بكلّ وضوح تناولها قبل ذلك. كانت ساقاه ملفوفتيْن في جوربيْن داكنين ولكنهما شفّافان جدّاً مثل الجوارب (المُستنسخة، الآن ويالّلأسف! على صفحات الشاريفاري *Charivari* ومجلات أسبوعية أخرى يطالعها حتى القساوسة والكهنة ولو على الرغم من أنوفهم) التي تلبسها سيليست موغادور عندما ترقص الكانكان في باليه مابيّى.

يُديرُ مقيم القُدّاس ظهره للحاضرين ويبدأ قُدّاسه باللاتينيّة بينما الخنثويّون يردّدون.

- *In nomine Astaroth et Asmodei et Beelzébuth. Introibo ad altarem Satanae.*
- *Qui laetificat cupiditatem nostram.*
- *Lucifer omnipotens, emitte tenebram tuam et afflige inimicos nostros.*
- *Ostende nobis, Domine Satana, potentiam tuam, et exaudi luxuriam meam.*
- *Et blasphemia mea ad te veniat.*

– باسم عشتروت، أسموديو وبلزيبوت. سألِجُ مذبح إبليس.

– فليُرضِ جشعنا.

– إبليس القادر القدير، أسدل ظلماتك واقهر أعداءنا.

– أظهر لنا، يا سيدنا إبليس، عظمتنك واستجب لشهوانيتي.

– ليبلغك تجديفي.

ثمّ أخرج بولاّن من ثوبه صليباً وضعه تحت قدميه وداسه مرّات عديدة: – أيها الصليب، إني أسحقك وفاء لذكرى معلّمي الهيكل القدامى وثأراً لهم. أدوسك لأنك كنت أداة تقديس زائفة للربّ الزائف يسوع المسيح.

وفي هذه اللحظة، تعبُر ديانا دون إعلامي وكأنها تحت تأثير إشراقة مفاجئة (ولكن دون شكّ تنفيذاً لتعليمات أوصاها بها بولاّن يوم الأمس في سرّ الاعتراف) تعبُر ديانا الجناح بين صفّي المؤمنين وتقفُ عند أسفل المذبح. ثمّ تستديرُ نحو المؤمنين (أو الكافرين، لا يهمّ)، وبحركة كهنوتية تسحبُ غطاء الرأس والمعطف وتسطعُ عارية. تنقصني الكلمات، يا نقيب سيمونيني، ولكن كأني أراها الآن، مكشوفة مثل إيزيس، لا يغطي وجهها إلاّ قناع رقيق أسود اللون.

انتابني مثل النحيب وأنا أرى لأوّل مرّة امرأة في كلّ العنف اللامحتمل لعراء جسمها الفاحش. وشعرها الذهبيّ الأصهب، والذي تشده في العادة معقوصاً باحتشام، يسترسل متحرّراً وينزل إلى أن يلامس ردفين في كمال استدارتهما الشيطانية. وتبرز من ذلك التمثال الوثني روعة العنق النحيف الذي يرتفع مثل عمود دقيق فوق كتفيْن ناصعيْن نصاعة المرمر، بينما كان نهداها (أشاهد لأوّل مرّة ثديَي امرأة) قاعدين بثبات رائع وبكبرياء شيطانيّ. وبينهما تتدلّى، وهي الشيء الوحيد غير الجسدي، القلادة التي لا تنزعها ديانا، أبداً.

تستديرُ ديانا وتشرعُ في الصعود بميوعة شبقيّة الدرجات الثلاث التي تؤدي إلى المذبح، وبمساعدة مقيم القداس، اضطجعت فوقه، مُلقية رأسها على وسادة من المخمل الأسود بحواش فضيّة؛ وشعرها يتموّج على أطراف المذبح، وبطنها متقوّس قليلاً، وساقاها منفرجتان بطريقة يظهر بها الشعر النحاسي الذي يخفي فتحة كهفها الأنثويّ، بينما الجسم كلّه يسطع بلمعان رهيب تحت الانعكاس المحمرّ للشموع. يا إلٰهي، لست أدري بأيّ عبارات أصف ما كنت أراه، فكما لو أنّ رهبتي الطبيعيّة من الجسد الأنثويّ والخشية التي يحدثها فيّ تلاشت لتترك المجال فقط لإحساس جديد، كأن شراباً لم أذقه أبداً سرى في شراييني...

وضع بولاّن على صدر ديانا قضيباً صغيراً من العاج وعلى بطنها قطعة قماش مطرّزة وضع فوقها كوباً مصنوعاً من حجر أسود.

وأخرج من الكوب قرص قربان، ليس دون شكّ ذلك القرص المقدّس الذي تتاجر به أنت، يا نقيب سيمونيني، بل هو قربان يتهيّأ الآن بولاّن، الذي لا يزال كاهناً من الكنيسة الرومانية المقدسة كامل الشروط، حتى وإن صار الآن ربما ممنوعاً من ذلك، لتقديسه فوق بطن ديانا.

كان يقول:

- *Suspice, Domine Satana, hanc hostiam, quam ego indignus famulus tuus offero tibi. Amen.*

– انظر يا سيدنا إبليس هذا القرص من خبز الذبيحة الذي، أنا عبدك الحقير، أقدّمه لك. آمين.

ثمّ تناول قرص القربان، وبعد أن أنزله مرّتيْن نحو الأرض ورفعه مرّتيْن نحو السماء وأداره مرّة نحو اليمين ثمّ نحو اليسار، أظهره للمؤمنين قائلاً: – من الجنوب أطلب بركة الشيطان، من الشرق أطلب بركة إبليس، من الشمال أطلب بركة بَلِيعال، من الغرب أطلب بركة الليفياتان، فلتُفتح على مصراعيها أبواب الجحيم، وليأتوا إليّ، وقد دُعوا بهذه الأسماء، حرّاس بئر الهاوية. سيّدنا أنت المقيم في الجحيم، ليُلعن اسمك، وليُهدم ملكك، ولتُزدرى إرادتك، في الأرض كما في الجحيم. ليتبارك اسم الوحش.

وأجابته جوقة الشبّان بصوت مرتفع: – ستّة، ستّة، ستّة.

رقم الوحش.

الآن صاح بولاّن: - ليُجَلَّ إبليسُ، المُسمَّى بالداهية. يا سيِّد الخطيئة، والجنس المنافي للطبيعة، والمحارم الطيِّبة، واللّواط المقدّس، أيّها الشيطان، أنت الذي نعبدك. وأنت، يا يسوع، إنّي أجبرك على التجسّد في قرص القربان هذا، بحيث يُمكن لنا أن نجدّد آلامك وأن نعذبك مرة أخرى بالمسامير التي صلبتك وأن نطعنك برمح لونجينو.

- ستّة ستّة ستّة، أعاد وراءه المراهقون.

ورفع بولاّن قرص القربان قائلاً: - في البداية كان الجسد، والجسد كان لدى إبليس والجسد كان إبليس. في البداية كان لدى إبليس: هو صنع كلّ شيء، وبدونه لم يكن شيء ممّا هو موجود. والجسد صار كلمة وجاءت لتسكن بيننا، في الظلمات، ونحن شاهدنا روعتها القاتمة كإبنة إبليس الوحيدة، ملؤها الصيحة والغضب العارم، والرغبة.

ثمّ مرّر قرص القربان فوق بطن ديانا وغمسها في فرجها. ثمّ أخرجها ورفعها نحو الجناح صائحا بصوت مرتفع: - خذوا وكلوا.

فركع أمامه مراهقان، ثمّ رفعا جُبَّته ومعاً قبّلا قضيبه المنتصب. ثمّ هرعت كامل مجموعة المراهقين عند قدميه، وبينما بدأ الذكور يستمنون، تنزعُ الإناث عن أنفسهن الأحجبة الواحدة تلو الاخرى، ويرتمين على بعضهنّ البعض بصيحات شهوانيّة. الجوّ مُفْعَمٌ بعطور أخرى يصبح عنفها شيئاً فشيئاً مستحيل التحمّل وشيئاً فشيئاً شرع الحاضرون، الذين كانت تصدر عنهم في البداية تنهيدات رغبة ثمّ أنّات شهوة، يتعرّون ويضاجعون بعضهم البعض، دون تمييز في الجنس أو في السنّ، وأرى في غمرة الأبخرة شمطاء فاتت السبعين، كلّها تجاعيد وقد صار نهداها مثل ورقتي خسّ، وساقاها كساقي هيكل عظمي، وهي تتلوى على الأرض بينما مراهق يقبّل بنهم ذلك الذي كان فرجاً لها..

أرتعدُ بكلّ مفاصلي، وأنظر حولي لأرى كيف أستطيع الخروج من هذا الماخور، والفضاء الذي أتقَرفص فيه انشحَن بأنفاس سامّة جدّاً إلى حدّ أني كنتُ وكأني أعيش وسط سحابة كثيفة، ما شربته في البداية خدّرني دون شكّ، ولم أعد أستطيع ربط أفكاري وأصبحت أرى كلّ شيء كما لو كان من خلال ضبابة محمرّة. وفي خضمّ هذه الضبابة لمحتُ ديانا وهي لا تزال عارية، بدون قناعها، وهي تنزل من المذبح

بينما كان ذلك الجمع من المجانين، وهم يواصلون فوضاهم الجنسيّة، يعملون ما في وسعهم لفسح المجال لمرورها. كانت قادمة نحوي.

ينتابني الرعب من أن أصير مثل هذه الزمرة المجنونة أتراجع، ولكنني أجد نفسي لصق أحد الأعمدة، بينما تصل ديانا خلفي لاهثة، يا إلٰهي، قلمي يرتعش، وفكري يتيه، ودموعي تنهمر من الاشمئزاز (الآن وفي تلك اللحظة)، وقد صرت عاجزاً حتى عن الصياح لأنّها ملأت فمي بشيء ليس منّي، وأحسست بنفسي أهوي على الأرض، وقد دوّختني العطور، بينما ذلك الجسد الذي يحاول الامتزاج بجسدي كان يحدث فيّ تهيّجاً احتضارياً، وتملّكني الشيطان وكأنّني صرت مجنونة سالبيتريير فلمستُ (بيديّ، كما لو كنت أريد ذلك) هذا الجسد الغريب، ونفذتُ داخل جرحها بفضول الجرّاح المجنون، وكنتُ أتوسّل تلك الساحرة الشريرة أن تتركني، وأعضّها دفاعاً عن نفسي بينما هي تصيح بي أن أعيد الكرّة وأعضّها مرّة أخرى وأخرى، فأسلمتُ رأسي إلى الوراء وأنا أتأمّل قول الدكتور تيسّو، وأعرف أنّ من هذا الدواخ سينتج هزال جسمي، وشحوب وجهي ليصبح داكناً كمن يموت، والبصر المتضبّب والنوم المشوّش، وبحّة الحلق، وأوجاع الحدقتيْن، واجتياح بقع حمراء نتنة للوجه، وتقيّؤ موادّ كلسيّة، واضطراب دقات القلب - وأخيراً، مع الزّهري، العمى.

وبينما صرت لا أرى شيئاً، شعرتُ فجأة بإحساس لم يُلِمَّ بي أبداً، عذابه لا يُوصَف وقوّته لا تُطاق، كما لو أنّ دماء عروقي كلّها تتفجّر من جروح أعضائي جميعها المتهيّجة إلى حدّ التشنّج، من الأنف والأذنيْن وأطراف الأصابع، وحتى من الشرج، النجدة النجدة، أظنّ أنني أدركتُ ما هو الموت، الذي يهرب منه كلّ حيّ، حتى وإن بحث عنه بالغريزة غير الطبيعيّة التي تدفعه إلى مضاعفة نسله...

لم أعد أقدر على الكتابة، لم أعد أتذكّر بل صرت أعيش الآن من جديد تلك التجربة، وهي غير محتملة، أودّ أن أفقد من جديد كل ذكرى...

* * *

وكما لو أنّني استفقت من غيبوبة، وجدت بولاّن إلى جانبي، ممسكاً ديانا بيده وقد تغطّت من جديد بمعطفها. قال لي بولاّن إنه توجد عربة أمام الباب: من الأفضل أن أحمل ديانا إلى البيت، لأنها منهكة. ترتعد، وتهمس بكلمات غير مفهومة.

يبدو بولاّن خدوماً بصفة استثنائيّة، وفي البداية ظننتُ أنه يريد أن يُغفر له شيء ما - في نهاية الأمر هو الذي جرّني إلى هذه المغامرة المقزّزة. ولكن عندما أقول له إنّه بإمكانه الذهاب وإني سأتكفل بديانا، يُلحُّ لكي يصاحبنا، مذكّراً إيّاي أنّه هو أيضاً يسكن في أوتوي. كما لو كان فريسة للغيرة. ولاستفزازه قلت له إنني لن أذهب إلى أوتوي، بل إلى مكان آخر، وإنّني سأعهد بديانا إلى أحد أصدقائي الموثوقين.

شحب وجهه، كما لو أنني سلبته فريسة كانت ملكه.

– لا يهمّ، قال لي، سآتي معك أنا أيضاً، ديانا تحتاج إلى مساعدة.

بعد الصعود في العربة أعطيتُ إلى الحوذي دون سابق تفكير عنوان شارع ميتر ألبير، كما لو كنتُ قرّرت أن على ديانا أن تختفي منذ ذلك المساء من أوتوي. ينظر إليّ بولاّن دون أن يفهم، ولكنه يصمتُ، ويركبُ، شادّاً على يد ديانا.

ولاَ كلمة طيلة الرحلة، وأدخلهما إلى شقتي. أُضِجع ديانا على الفراش، شادّاً بقوّة على معصمها ومحدّثاً إيّاها لأوّل مرّة بعد كلّ ما حدث بيننا، في صمت. أصرخ في وجهها: – لماذا، لماذا؟

يُحاول بولاّن التدخل، ولكني أدفعه بعنف على الحائط، فيتزحلقُ إلى الأرض - عندئذ فقط أدركُ كم هو ضعيفٌ ومعتلٌّ هذا الشيطان، بالمقارنة أنا مثل هرقل.

تُحاول ديانا التملّص من قبضتي وينفتحُ المعطف مظهراً نهديها، فلا أتحمّل رؤية ذلك الجسد من جديد وأُحاولُ أن أغطيها، ولكن يدي تتخبّلُ في القلادة التي تحمل رصيعة، وفي الصراع الوجيز بيننا تتقطّع الرصيعة وتبقى في يدي، تحاول ديانا أن تفتكّها فأتراجعُ إلى قاع الغرفة وأفتحُ ذلك الصندوق الصغير.

ويظهرُ فيه شكل مصنوع من الذهب يمثل دون شكّ لوحة وصايا موسى، وكتابة عبريّة.

– ماذا يعني؟ أسألُ وأنا أقترب من ديانا المُلْقاة على الفراش زائغة العينيْن. ماذا تعني هذه العلامات وراء صورة أمّك؟

– أمّي، همست ديانا بصوت غائب، كانت أمي يهودية... كانت تؤمن بأدوناي...

هو الأمر هكذا، إذن. لم أجامع أمرأة فقط، من سلالة الشيطان، بل ويهوديّة



... أمّي، همست ديانا بصوت غائب، كانت أمّي يهودية... (ص421)

أيضاً - لأنّ الخَلَف بين هؤلاء، أعرف ذلك، يمرّ عن طريق الأُم. وإذن، لو أنّ بِذْري خلال ذلك الجماع أفضى لا قدّر الله إلى تخصيب ذلك الرحم غير الطاهر، فسأمنح الحياة إلى يهودي.

– لا يُمكن أن تفعلي بي هذا، أصيحُ بها، وأرتمي على الفاجرة وأضغط بيديّ على رقبتها، تتخبّط، فأضغط عليها أكثر، وبولاّن الذي يستفيقُ من وقعته يرتمي عليّ، ومن جديد أبْعده بركلة في أسفل البطن، فيسقطُ مغشيّاً عليه في ركن من الغرفة، وأعودُ إلى خنق ديانا (آه، لقد فقدت حقيقة كل صواب) وشيئاً فشيئاً تبدو عيناها وكأنهما تريدان الخروج من محجريهما، ويخرجُ لسانها منتفخا من فمها، ثمّ أسمعُ نفساً أخيراً ويسقطُ جسدها فاقداً الحياة.

أستعيدُ الحالة العادية، وأتأمّلُ في فداحة صنعي. في إحدى الزوايا بولاّن يئنّ، وقد كاد بطنه أن يُبقر. أحاولُ أن أسترجع هدوئي وأضحكُ: مهما كان الأمر فلن أكون أبداً أباً ليهودي.

أستعيدُ هدوئي. أقولُ لنفسي إنه ينبغي إخفاء جثّة المرأة في بالوعة الطابق الأرضي - والتي صارت الآن أكثر حفاوة من مقبرتك البراغية يا حضرة النقيب. ولكن الوقت ليلٌ، ويجب أن أحافظ على المصباح مشتعلاً، وأن أقطع كلّ الرواق المؤدي إلى منزلك، وأنزل إلى الدكان ومنه إلى البالوعة. تلزمني مساعدة بولاّن الذي كان حينئذٍ ينهض من الأرض محدّقاً فيّ بنظرة من تملّكه شيطان.

وفي هذه اللحظة أدركُ أيضاً أنّه لا يُمكن لي أن أترك هذا الشاهد على جرمي يخرج من البيت. تذكّرت المسدّس الذي أعطاني إيّاه بطاي، فأفتحُ الدرج الذي خبّأته فيه، وأسدّده نحو بولاّن الذي يواصل النظر إليّ مذهولاً.

– آسف، يا حضرة القسّ، أقول له، إذا كنت تريد النجاة بنفسك، فساعدني على التخلّص من هذا الجسم الرقيق.

– نعم، نعم، أجابني، كأنه تحت تأثير شطح شبقي. في حيرته، ديانا الميّتة، بلسانها الخارج من فمها وعينيها الزائغتيْن، تبدو له جذّابة بقدر ما كانت جذّابة ديانا العارية التي أغوتني إرضاء لرغبتها.

ومن ناحية أخرى أنا أيضاً لستُ واضح الرؤيا. وكما في حلم ألفُّ ديانا في

معطفها، وأعطي السراج المشتعل إلى بولاّن، ثمّ أمسكُ الميّتة من قدميها وأجرّها طول الرواق إلى أن أصل إلى شقتك، ومن هناك أنزل إلى الدكان عبر الدرج الحلزوني، ومنه إلى البالوعة، وعند كلّ درجة رأس الجثة يضربُ الحافة بصوت مخيف، وأخيراً أمدّها إلى جانب بقايا دلاّ بيكّولا (الآخر).

بولاّن يبدو لي الآن وقد جُنّ. يضحك.

يخاطبني: – يا للموتى، لعلّ البقاء هنا أفضل من الخارج، حيث ينتظرني غوابيتا... هل يُمكن أن أبقى مع ديانا؟

– بطبيعة الحال، يا حضرة القسّ، لا شيء يسعدني أكثر من ذلك.

أخرجُ المسدّس وأطلقُ النار مصيباً إيّاه وسط الجبين.

يسقطُ بولاّن جانبيّاً، يكاد يكون على ساقي ديانا. أنحني وأرفعُه، ثمّ أضعه إلى جانبها. الآن يضطجعان جنباً إلى جنب مثل عشيقيْن.

* * *

ها إني الآن، وفي هذه اللحظة بالذات التي أقصّ فيها ما حدث، أكتشف، بذاكرة قلقة، ما جرى لي قبل لحظة من فقدانها.

انغلقت الدائرة. الآن أعرف. الآن، في فجر يوم 18 نيسان/أبريل، الأحد من عيد الفصح، كتبتُ ما وقع في 21 آذار/مارس في ساعة متأخرة من الليل، إلى من كنتُ أظنه القسّ دلاّ بيكّولا...

# 25
## توضيح الأفكار

**من يوميات 18 و19 نيسان/ أبريل 1897**

**عند هذا الحدّ، إن من ينظر من وراء كتفَيْ سيمونيني، ويقرأ ما كتبه دلّا بيكّولا، لا بدّ وأن يلاحظ أنّ النصّ انقطع، كما لو أنّ القلم، الذي لم تعد اليد قادرة على تحمّله، رسم بصفة تلقائيّة، بينما كان جسم الكاتب يهوي على الأرض، خربشة طويلة دون معنى تنتهي خارج الورقة مُلطّخةً بالحبر لَبْدة المكتب الخضراء. وبعد ذلك، يبدو أنّ من عاد للكتابة على الورقة التالية، هو النقيب سيمونيني.**

**كان قد استفاق مرتدياً ثوب الكاهن، بشعر دلّا بيكّولا المستعار، ولكنه صار يعرف الآن أنّه دون أيّ مجال للشكّ النقيب سيمونيني. ورأى على الفور الصفحات الأخيرة التي خطّها دلّا بيكّولا المزعوم، مفتوحةً على الطاولة ومكتوبة بخطّ مُهَلْوس يتفاقم اضطرابه شيئاً فشيئاً وغموضُه أكثر فأكثر، وكلما تابع القراءة تصبّب عرقاً، وارتفعت دقات قلبه، وبرفقته يتذكّر حتى اللحظة التي انقطع فيها خطّ القسّ وهو (القسّ) أو هو (سيمونيني) سقطا، لا... سقط مغشيّاً عليه.**

**ما إن عاد إلى وعيه وانقشع شيئاً فشيئاً الضباب الذي كان يغشى ذهنه، حتى صار كلّ شيء واضحاً. أصبح، وهو يتشافى، يفهم، ويعرف أنه هو ودلّا بيكّولا شخص واحد، وما تذكّره في المساء المنقضي دلّا بيكّولا صار هو أيضاً يتذكّره، أي يتذكّر أنّه في أثواب دلّا بيكّولا (وليس دلّا بيكّولا ذا الأسنان البارزة الذي قتله هو، بل الآخر الذي خلقه هو من جديد وتقمّص شخصيّته طيلة سنوات) عاش تجربة القدّاس الشيطاني الرهيبة.**

**ثمّ ماذا حدث بعد ذلك؟ لعلّ ديانا أثناء الصراع انتزعت شعره المستعار،**

ولعلّه اضطرّ لجرّ جثمان تلك البائسة إلى البالوعة إلى خلع جبّته، وبعد ذلك، وقد فقد صوابه، عاد بالغريزة إلى غرفته في شارع ميتر ألبير، حيث استيقظ صباح يوم 22 آذار/مارس، وهو عاجز عن فهم أين اختفت أثوابه.

لقد فاق كلٌّ من الوصال الجسدي مع ديانا، واكتشاف أصلها الدنيء جداً، والجرم الذي اقترفه والذي يكاد يكون طقسيّاً، كلّ قدرات التحمّل لديه، لذلك فقدَ الذاكرة في تلك الليلة بالذات، أو بالأحرى فقداها معاً دلّا بيكّولا وسيمونيني، وتناوبت الشخصيّتان أثناء ذلك الشهر. من المحتمل أنه كان يمرّ، مثلما كان يحدث لديانا، من حالة إلى أخرى على إثر أزمة، أو غيبوبة صَرَعيّة، أو غشيان، من يدري، ولكنه كان لا يدرك ذلك وفي كلّ مرّة كان يستفيق مختلفاً عمّا كان عليه وهو يظن أنّه نام فحسب.

كان علاج الدكتور فرويد ناجعاً (حتى وإن لن يعرف هو أبداً نجاعته). من خلال الرواية التي قصّها مرّة بعد مرّة على ذاته الأخرى مستحضراً الذكريات التي يستخرجها بصعوبة، كأنه في المنام، من خمود ذاكرته، وصل سيمونيني إلى النقطة الحاسمة، إلى الحدث الصدمة الذي ألقى به في فقدان الذاكرة وجعل منه شخصيّتيْن متميّزتيْن، تتذكّر كلّ واحدة منهما جزءاً من ماضيه، دون أن يقدر هو، ولا الآخر الذي كان مع ذلك هو نفسه، على إعادة تركيب وحدتهما، وقد حاول كلّ منهما أن يخفي عن الآخر السبب الرهيب، والمتعذّر تذكّره، المؤدي إلى ذلك المحو.

أحسّ سيمونيني، وهو يستعيد ذاكرته، بنفسه منهكاً، ولكي يؤكّد لنفسه أنّه بحقّ وُلد من جديد لحياة جديدة، أغلق اليوميّات وقرّر الخروج ومواجهة أيّ لقاء، بما أنه صار يعرف من هو. أحسّ بحاجة إلى غذاء دسم، ولكنه في ذلك اليوم كان لا يزال مُحْجِماً عن إمتاع نفسه بأيّة لذائذ، لأنّ حواسّه مرّت بامتحان عسير. ومثل ناسك أحسّ بالحاجة إلى التوبة، ذهب إلى فليكوتو، وبثلاثة عشر فلساً أمكن له أن يتناول فطورا سيّئاً في حدود المعقول.

بعد العودة إلى البيت خطّ على الورقة بعض التفاصيل التي أنهى إعادة

تركيبها. لم تعد هناك أيّ حاجة لمواصلة هذه اليوميات التي شرع في تدوينها لتذكّر ما أصبح الآن يعرفه، ولكن اليوميات صارت عنده منذئذٍ عادة. بافتراضه وجود دلّا بيكّولا مختلفٍ عنه، غذّى طيلة ما يزيد عن الشهر الوهم في وجود أحد يُمكنه أن يتحاور معه، وبالتحاور معه أدرك كم كان دائماً وحيداً، منذ الطفولة. ولعلّه (يجازفُ الراوي) فَصَمَ شخصيّته فعلاً لكي يخلق محاوراً.

الآن حان الوقت لإدراك أنّ الآخر غير موجود واليوميات أيضاً هي لعبة منفردة. ولكنه تعوّد على هذه الأغنية المنفردة، وقرّر المواصلة على هذا النحو. وليس بسبب حبّه لنفسه بصفة خاصّة، ولكن ضيقه بالآخرين كان يدفعه إلى تحمّل نفسه.

لقد أدخلَ في المشهد دلّا بيكّولا - ذلك الذي خلقه، بعد أن قتل دلّا بيكّولا الحقيقي - عندما طلب منه لاغرونج أن يهتمّ ببولّان. ارتأى من عدّة نواحٍ أنّ رجل كنيسة سيثير شكوكاً أقلّ من علمانيّ. ولم يكن يزعجه أن يعيد إلى الحياة شخصاً كان قد محاه.

عندما اشترى، بثمن بخس، البيت والدكان في زنقة موبير، لم يستعمل فوراً الغرفة والمدخل في شارع ميتر ألبير، وفضّل جعل عنوانه في الزنقة، حتى يستطيع استعمال الدكان. وعندما دخل في المشهد دلّا بيكّولا، جهّز الغرفة بأثاث عديم القيمة وجعل منها إقامةً شبحاً لقسّه الشبح.

صَلُحَ دلّا بيكّولا، إضافة إلى التطفّل على الأوساط الشيطانيّة والسحريّة، أيضاً للحضور عند فراش مُحْتَضر، بدعوة من أحد أقربائه المقرّبين (أو البعيدين) والذي سيكون من بعد المستفيد من الوصيّة التي سيصنعها سيمونيني - بحيث أنّه، لو شكّ أحد في تلك الوثيقة غير المنتظرة، سيدفعُ بشهادة رجل كنيسة، سيقسم أنّ الوصيّة تتوافق مع الإرادة الأخيرة التي همس بها له المُحْتَضَر. إلى أن صار دلّا بيكّولا، مع قصّة تاكسيل، أساسيّاً وأخذ على عاتقه كامل المهمّة لأكثر من عشر سنوات.

أمكن لسيمونيني في ثوب دلّا بيكّولا، أن يتقرّب أيضاً من الأب برغماسكي ومن إيبوترن لأنّ تنكّره ناجحٌ جداً. كان دلّا بيكّولا أمرد، يكاد يكون

أشقر، ذا حاجبيْن كثيفيْن وكان يحمل بالخصوص نظارات زجاجها أزرق تحجب نظرته. وكأنّ ذلك كان غير كافٍ، بَذَل ما في وسعه ليبتدع لنفسه خطّاً آخر، نحيفاً يكاد يكون أنثوياً، وغيّر أيضاً من صوته. وإحقاقاً للحقّ، كان سيمونيني عندما يلعب دور دلّا بيكّولا لا يتكلّم ويكتب بطريقة مختلفة بل كان يفكّر بطريقة مختلفة، متقمّصاً بصفة كاملة ذلك الدور.

للأسف أن دلّا بيكّولا يجب الآن أن يختفي (وهو مصير كلّ القساوسة الذين يحملون هذا الاسم)، ولكن وَجَبَ على سيمونيني أن يتخلّص من المسألة برمّتها: إمّا لمحو ذكرى الأحداث المخجلة التي أدّت به إلى الصدمة، وإمّا لأن تاكسيل سيعلن يوم الإثنين من عيد الفصح، حسب وعده، عن ارتداده، وأخيراً لأن من الأفضل، الآن وقد ماتت ديانا، محو كلّ أثر للمؤامرة برمّتها، في حال بدأ بعضهم يلقي تساؤلات مثيرة للقلق.

لم يبقَ أمامه من متّسع سوى يوم الأحد وصبيحة اليوم التالي. ارتدى من جديد أثواب دلّا بيكّولا لملاقاة تاكسيل، الذي ظلّ يذهبُ طيلة شهر تقريباً كلّ يومين أو ثلاثة إلى أوتوي دون أن يجده هناك، لا هو ولا ديانا، مع العجوز التي كانت تقول إنها لا تعرف شيئاً، وخاف أن تكون عملية اختطاف قام بها الماسونيّون. قال له إنّ دي موريي مدّه أخيراً بعنوان عائلة ديانا الحقيقيّة، في شارلستون، وأنه وجد طريقة لإرسالها بحراً إلى أميركا. في الوقت المناسب لكي يُمكن لتاكسيل أن يعلن على الملأ خدعته. كان قد سلّمه خمسة آلاف فرنك سلفة على الخمسة وسبعين ألف فرنك الموعودة وضرب له موعداً في العشيّة التالية في جمعية الجغرافيا.

ثمّ ذهب، ودائماً في زيّ دلّا بيكّولا، إلى أوتوي. وكانت مفاجأة كبيرة للعجوز التي لم تَرَه هي الأخرى لا هو ولا ديانا طيلة شهر تقريباً، ولم تكن تعرف ماذا تقول للسيّد تاكسيل المسكين الذي تردّد عليها مرّات عديدة. وحكى لها نفس القصّة، عثرت أخيراً ديانا على عائلتها، وعادت إلى أميركا. ومكافأة مالية جيّدة أغلقت فم تلك الشمطاء التي جمعت أسمالها البالية وذهبت في العشية نفسها إلى سبيل حالها.

في المساء، أحرق سيمونيني كلّ الوثائق وآثار علاقات تلك السنين، وفي ساعة متأخرة من الليل حمل هِبةً إلى غافيالي، صندوقاً فيه كلّ أثواب ديانا وحُلِيّها. لا يتساءل أبداً بائع خرق عن مأتى الأشياء التي يضع عليها يده. وفي الصباح التالي ذهب إلى صاحب البيت، وألغى عقد الكراء، مختلقاً بعض المهامّ المفاجئة في بلاد بعيدة، دافعاً أجر الشهور الستّة المقبلة، دون نقاش. وذهب معه صاحب المحلّ إلى البيت للتثبّت من أنّ الأثاث والجدران في حالة طيّبة، ثم استرجع المفاتيح وأغلق الأبواب.

لم يبقَ إلّا "قتل" دلّا بيكّولا (للمرّة الثانية). وليس بالأمر الصعب. نزع سيمونيني عنه تنكّر القَسّ، وعلّق الجبّة في الرواق، وها هو دلّا بيكّولا قد اختفى من على وجه الأرض. ومن باب الحيطة أخذ المَرْكَع والكتب الدينية من الشقة وحوّلها إلى الدكّان لتصبح بضاعة لبعض الهواة غير المحتملين، وها هو يتوفّر على مكان يُمكن أن يستعمله لتقمّص بعض الشخصيّات الأخرى.

لم يبقَ شيء من كلّ هذه القصّة، ما عدا ما هو موجود في ذاكرة بطاي وتاكسيل. ولكن بطاي، بعد خيانته، لن يتجرّأ أبداً على الظهور من جديد، أما تاكسيل فإنّ أمره سيُقضى في تلك العشية.

في عشية يوم 19 نيسان/أبريل، وفي أثوابه العادية، ذهب سيمونيني للتمتّع بمشهد ارتداد تاكسيل. كان تاكسيل قد تعرّف، علاوة على دلّا بيكّولا، فقط على عدل مزيّف يُدعى فورنيي، أمرد، كستنائي وله سِنّان من ذهب، ورأى سيمونيني الملتحي مرّة واحدة فقط، عندما ذهب إليه ليزوّر له رسائل هوغو وبلان، ولكن كان ذلك قبل خمسة عشر عاماً، ومن المحتمل أنه نسي وجه ذلك المزيّف. لذا فقد كان بإمكان سيمونيني، الذي وضع بدافع الاحتياط لحية بيضاء ونظارات خضراء كانت تضفي عليه هيئة عضوٍ من المعهد، أن يجلس بكلّ طمأنينة للتمتع بالمشهد.

كان حدثاً تناولته كلّ الصحف. وغصّت القاعة بالحاضرين، من فضوليين، ومخلصين لديانا فوغن، وماسونيّين، وصحف وحتى نُواب رئيس الأساقفة والقاصد الرسولي.

تكلّم تاكسيل بجسارةٍ وإسهابِ أُناسِ الجنوب. وفاجأ المستمعين، الذين كانوا ينتظرون أن يقدّم لهم ديانا وإثبات كلّ ما نشره في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، عندما أخذ يُساجل الصحفيّين الكاثوليكيّين ومهّد للبّ كشوفاته بقوله "الضحك أفضل من البكاء، تقول حكمة الأمم". وأشار إلى ولعه بالمخادعة (ولا يُستغرب ذلك من وليد مارسيليا، قال وسط ضحكات الجمهور). ولإقناع الحاضرين بأنه خدّاع، قصّ بمتعة كبيرة حكاية أسماك القرش في مارسيليا والمدينة المغمورة في بحيرة ليمان. ولكن لا شيء يعادل أكبر خدعة قام بها في حياته. وأسهب في رواية هدايته الظاهرة وكيف أنه خدع كهنة الاعتراف والآباء الروحانيّين الذين كان عليهم أن يتثبّتوا، أوّلاً، من صدق توبته.

وقد قاطعت هذا التمهيد في البداية ضحكاتٌ ثمّ تلتها احتجاجاتٌ عنيفة من طرف عدد من الكهنة كان سخطهم يتزايد. والبعض منهم نهض وخرج من القاعة، وآخرون أمسكوا بالكراسي وكأنهم يريدون رميها عليه. باختصار كانت فوضى كبيرة لا يزال صوت تاكسيل يتغلّب عليها ليقصّ كيف أنه، لإرضاء الكنيسة قرّر، بعد مرسوم "الجنس البشري" (*Humanum Genus*)، أن يسيئ الكلام للماسونيّين. ولكن في الواقع، حتى الماسونيون يجب أن يعترفوا لي بالفضل، لأنّ كتابتي حول الطقوس ساهمت في قرارهم بالتخلّي عن بعض الممارسات العتيقة، والتي صارت سخيفة بالنسبة لكل ماسونيّ صديق للتقدّم. أما الكاثوليكيّون، فقد تحقّقت منذ الأيام الأولى من هدايتي أنّ الكثيرين منهم مقتنعون أنّ صانع الكون الأكبر - الكائن الأسمى عند الماسونيّين - هو الشيطان. لم يبقَ لي إلّا أن أطرّز حول هذه القناعة.

تواصلت الفوضى عارمة. عندما ذكر تاكسيل محادثته مع ليون الثالث عشر (سأله البابا "يا ابني، ماذا تريد؟" أجابه تاكسيل: "يا قداسة البابا، أن أموت عند قدميْك، في هذه اللحظة، لهي أكبر سعادة بالنسبة لي")، عَمّ الصياح، فمن يصيح به: "احترم ليون الثالث عشر؛ ليس لك الحقّ في نطق اسمه"، ومن يهتف: "هل يجب علينا أن نسمع هذا؟ إنه مقرّز"، ومن يقول "آه... يا للمخادع. آه... للعربدة الدنيئة"، بينما كانت الأغلبية تضحك ساخرة.

روى تاكسيل: - وهكذا، نمّيتُ شجرة الشيطانيّة المعاصرة، وأدمجتُ فيها طقساً بلّاديّاً، من صنعي أنا وحدي، من أوّل سطر إلى آخره.

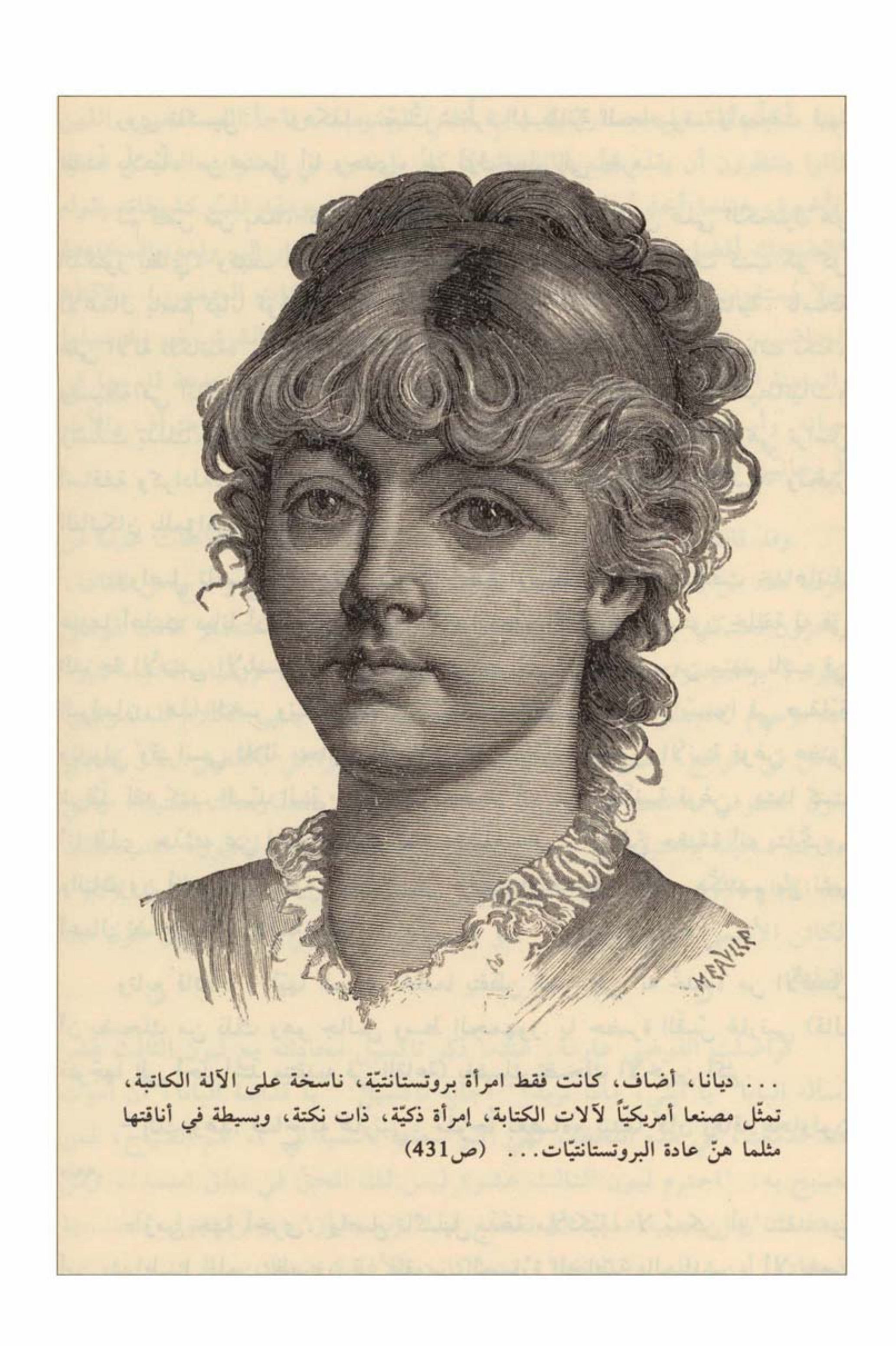
ثمّ قصّ من بعد، كيف جعل من صديق قديم مدمن على الكحول هو الدكتور بطاي، وكيف اختلق صوفي والدر أو صافو، وأخيراً كيف كتب هو كلّ الأعمال باسم ديانا فوغن. وديانا، أضاف، كانت فقط امرأة بروتستانتيّة، ناسخة على الآلة الكاتبة، تمثّل مصنعاً أمريكيّاً لآلات الكتابة، إمرأة ذكيّة، ذات نكتة، وبسيطة في أناقتها مثلما هنّ عادة البروتستانيّات. جعلها تهتمّ بالشيطانيّات، وتسلّت بذلك، وصارت شريكته. كانت تجد لذّة في تلك الخدعة، وهي تراسل أساقفة وكرادلة، وتستقبل رسائل من الكاتب الخاصّ للحَبْر الأكبر، وتخبر الفاتيكان بالمؤامرات الإبليسيّة...

وواصل تاكسيل: - ولكن، رأينا أيضاً أوساطاً ماسونيّة صدّقت خداعاتنا. عندما أعلنت ديانا أنّ أدريانو ليمّي سمّاه المعلّم الأكبر لشارلستون خليفة له في الدرجة الأسمى الإبليسيّة، صدّق بعض الماسونيّين الإيطاليّين، من بينهم نائب في البرلمان، هذا الخبر وتشكّوا بأنّ ليمّي لم يعلمهم بذلك، وأسّسوا في صقليّة ونابولي وفيرانسي ثلاثة مجالس بلّادية سامية مستقلّة، وسمّوا الآنسة فوغن عضواً شرفيّاً. لقد كتب السيّد السيّئ السمعة مارجيوتا أنّه عرف الآنسة فوغن، بينما كنت أنا الذي حدّثته عن لقاء لم يقع أبداً وتظاهر هو، أو ظنّ حقيقة أنه يتذكّره. والناشرون أنفسهم خُدعوا، ولكن ليس عليهم أن يشتكوا لأنّني مكّنتهم من نشر أعمال تضاهي "ألف ليلة وليلة".

وتابع قائلاً: - أيّها السادّة، عندما يتفطّن المرء إلى أنّه خُدع، من الأفضل أن يضحك من ذلك وهو جالس وسط الجمهور. يا حضرة القَسّ غارنيي (قال متوجّهاً إلى أحد أشدّ منتقديه في القاعة) بغضبك تضحك الآخرين أكثر.

- إنك وغد. صاح به غارنيي، مُلَوِّحاً بعصاه، بينما كان رفاقه يحاولون منعه.

- ومن جهة أخرى، واصل تاكسيل بِدَعَة ملائكيّة، لا يُمكن أن ننتقد من آمن بشياطيننا الذين يظهرون في طقوس المسارّة الخاصّة بالمبتدئين. ألا يؤمن



... ديانا، أضاف، كانت فقط امرأة بروتستانتيّة، ناسخة على الآلة الكاتبة، تمثّل مصنعا أمريكيّاً لآلات الكتابة، إمرأة ذكيّة، ذات نكتة، وبسيطة في أناقتها مثلما هنّ عادة البروتستانتيّات... (ص431)

المسيحيون بأن إبليس حمل يسوع المسيح نفسه فوق قمّة جبل، ومنها أراه كلّ ممالك الأرض؟ وكيف أمكنه ذلك مادامت الأرض كرويّة؟

- برافو. صاحَ البعض.

- على الأقلّ، كُفَّ عن التجديف، صاح البعض الآخر.

ختم تاكسيل حديثه قائلاً: - يا سادة، أعترف أنّني ارتكبت جريمة قتل ابنةٍ لي: الآن ماتت البلّادية لأنّ والدها قتلها.

بلغت الآن الفوضى أشدّها. فقد صعد القَسّ غارنيي فوق كرسيّ محاولاً مخاطبة الحاضرين؛ ولكن صوته ضاع بين ضحكات البعض وتهديدات البعض الآخر. وبقي تاكسيل على المنصّة التي ألقى منها خطابه متأمّلاً باعتزاز في هيجان ذلك الجمهور. كانت لحظة نصر له. إن كان يريد التتويج ملكاً للخداع فقد بلغ غايته.

كان يحدّق بكبرياء في أولئك الذين يمرّون أمامه ملوّحين بقبضة اليد أو بالعصيّ صائحين "ألا تستحي؟"، وعلى وجهه سيماء من لا يفهم. لماذا كان عليه أن يستحي؟ لأنّ الجميع كانوا يتحدّثون عنه؟

من كان يتسلّى أكثر من الكلّ هو سيمونيني، الذي كان يفكّر في ما ينتظر تاكسيل خلال الأيام المقبلة.

سيبحث المارسيليّ عن دلّا بيكّولا ليتقاضى بقيّة أمواله. ولكنه لن يعرف أين سيعثر عليه. وإن ذهب إلى أوتوي فسيجد منزلاً خالياً، أو ربما آهلاً بأناس آخرين. لم يعرف أبداً أنّ دلّا بيكّولا له عنوان في شارع ميتر ألبير. لن يعرف أين يُمكنه أن يعثر على العدل فورنيي، ولن يمرّ بخاطره أبداً أن يربط بينه وبين الشخص الذي زوّر له قبل ذلك بعدّة سنوات رسالة هوغو. وسيستحيل العثور على بولّان. كما أنه لم يعرف أبداً أنّ إيبوترن، الذي كان يعرفه من بعيد كأحد أعيان الماسونية، له علاقة بما حدث له وكان على جهل تماماً بوجود الأب برغماسكي. باختصار، لن يعرف تاكسيل إلى من يُمكنه أن يطلب بقيّة مكافأته، والتي لن يقبض منها سيمونيني النصف فحسب، بل كلّها (ما عدا للأسف الخمسة آلاف فرنك التي أعطاه إيّاها مقدَّماً).

كنتُ أتسلّى وأنا أفكّر في ذلك المسكين وهو يطوف بباريس بحثاً عن قَسّ وكاتب عدل لم يوجدا أبداً، وعن شيطانيّ وبلّاديّة يرقد جثمانهما في بالوعة مجهولة، وعن شخص اسمه بطاي، حتى وإن وجده حاضر الذهن فلن يستطيع قول أيّ شيء، وعن حزمة من الفرنكات انتهت في جيب غير جيبه. الآن وقد لفظه الكاثوليكيّون، وصار الماسونيّون ينظرون إليه بريبة ولهم الحقّ في ذلك إذ صاروا يخافون انقلاباً جديداً في موقفه، وربّما مع ديون كثيرة يجب أن يسدّدها للناشرين، فلن يعرف أين سيحشر رأسه المتفصّد عرقاً.

ولكن، كان يفكّر سيمونيني، لقد نال ذلك المارسيليّ المُشَعْوِذ ما يستحقه.

# 26

## الحلّ النهائي

10 تشرين الثاني/نوفمبر 1898

مرّ الآن عام ونصف منذ أن تخلّصت من تاكسيل، من ديانا، وما يهمّ أكثر، من دَلّا بيكولا. إن كنت مريضاً، فقد شُفيتُ. بفضل التنويم الذاتي، أو بفضل الدكتور فرويد. ومع ذلك فقد قضّيتُ هذه السنوات فريسة لمخاوف مختلفة. لو كنت مؤمناً لقلت إني شعرت بالندم وإن شيئاً ما يعذّبني. ولكن الندم على ماذا وما الذي يعذبني؟

في ذات المساء الذي هنّأتُ فيه نفسي على خداع تاكسيل، احتفلت بذلك في حُبُور صافٍ. كان يؤسفني فقط أن لا أقاسم أحداً نشوة انتصاري، ولكني تعوّدت على إرضاء نفسي وحدي. ذهبت، إذن، مثلما فعل النازحون من مانيي، إلى بريبان فاشيت. أصبح بإمكاني بما ربحته من إفلاس عمليّة تاكسيل أن أُنْعِمَ نفسي بكلّ شيء. عرفني الميتر (نادل المطعم)، ولكن ما يهمّ هو أنني أنا الذي تعرّفت عليه. أسهب في وصف سلاطة فرنسييون التي ابتدعوها بعد نجاحات مسرحيّة ألكسندر دُومَا - الابن، يا إلٰهي لقد هرمت. تُطبخ البطاطا في مرق، وتقطع إلى شرائح، ثمّ تُتبّل وهي لا تزال دافئة بالملح والبهار وزيت الزيتون وخلّ أورليون، إضافة إلى نصف كأس من الخمر الأبيض، شاتو ديكام إن أمكن، وتضاف إليها أعشاب فائحة مقطّعة قطعاً صغيرة. وتُطهى في الوقت نفسه بلح بحر من الحجم الكبير في مرق متبّل أو *court- bouillon* مع ضلع كَرَفْس. ويُمزج بعد ذلك كلّ شيء ويُغطى بشرائح رقيقة من الترفاس المطهوّ في الشمبانيا. كلّ هذا قبل ساعتَيْن من تقديمه، بحيث يصل الطبق إلى المائدة بارداً بالدرجة المناسبة.

ومع ذلك لستُ صافي البال، وأحسّ بالحاجة إلى توضيح حالتي النفسية بالعودة إلى هذه اليوميّات، كما لو أني لا أزال في حالة علاج عند الدكتور فرويد.

الحال هو أنّه تواصل حدوث أشياء مقلقة وبتّ أعيش في عدم طمأنينة متواصلة. قبل كلّ شيء، لا يزال يشغل بالي معرفة مَنْ ذلك الروسيّ الذي يرقد في البالوعة. هو، وربما هما اثنان، كانا هنا، في هذه القاعات يوم 12 أبريل. هل عاد واحد منهما؟ حدث لي مرّات عديدة أن لا أجد شيئاً ما - شيئاً عديم القيمة، قَلَماً، أو حُزْمة من الورق - ثمّ أجده بعد ذلك في موضع أقسم أني لم أضعه فيه أبداً. هل جاء أحد إلى هنا، فتّش، وحوّل وعَثَر؟ على ماذا؟

الروّس يعني راشكوفسكي، ولكن الرجل كان غامضاً مثل السفنكس. جاءني مرّتيْن، دائماً ليطلب مني المادة التي كان يعتبرها لا تزال غير معروفة والموروثة عن جدي، ولكني راوغت، من ناحية، لأني لم أُعدّ بَعدُ ملّفاً متكاملاً يرضيني، ومن ناحية أخرى لإثارة رغبته.

قال لي في المرّة الأخيرة إنّه غير مستعدّ للصبر أكثر. ألحّ لمعرفة إن كانت المسألة متعلّقة فقط بالثمن. لستُ جشعاً، قلت له، ترك لي جدّي بالفعل وثائق سجّل فيها بالكامل ما وقع قوله تلك الليلة في مقبرة براغ، ولكنها ليست معي، ويجب أن أغادر باريس للإتيان بها من الموضع الذي توجد فيه. اذهب إذن، قال لي راشكوفسكي. ثمّ لمّح، بغموض شديد، إلى ما قد يلحق بي من مضايقة في حالِ تطوّرٍ ما لقضية درايفوس. ماذا كان يعرف عن ذلك؟

في الحقيقة، إن إرسال درايفوس إلى جزيرة الشيطان، لم يُسكت الأصوات التي تناولت المسألة. بل على العكس من هذا، بدأت تتعالى أصوات من اعتبروه بريئاً أو، من أصبحوا يُسمّون درايفوساردّيين، وتجنّد عدد من الخبراء في الخط لمناقشة تقرير بارتيّون.

بدأ كلّ شيء منذ نهاية 1895، عندما ترك ساندهيرّ الخدمة (يبدو أنه كان قد أُصيب بشلل تدريجي، أو شيء من هذا القبيل) وعوّضه شخص يُدعى بيكار.

وبيكار هذا أظهر منذ البداية تطفّله، بطبيعة الحال كان لا يتخلّى لحظة عن التفكير في قضيّة درايفوس، حتى وإن انتهت منذ شهور، وها هو في آذار/مارس من العام الماضي عثر في سِلال المُهْمَلات المعتادة في السفارة مسودّة برقية كان الملحق العسكري الألماني يستعدّ لإرسالها إلى إستيرازي. لا شيء يُعرّض للشبهة، ولكن لِمَ وجود هذه العلاقات بين الملحق العسكري وضابط فرنسي؟ راقب بيكار عن قرب إستيرازي، وبحث عن نماذج من خطّه، فتفطّن إلى أنّ خط المقدّم مشابه لإرسالية، أو بوردورو، درايفوس.

عرفت ذلك لأن الخبر نشر في صحيفة "الكلمة الحرّة" وهاجم درومون هذا المتطفّل الذي كان يريد إثارة قضيّة تمّ الحسم فيها بطريقة جيّدة.

- أعرف أنه ذهب ليُخبر بالأمر الجنراليْن بواديفّر و غونس، اللذين لم يولياه لحسن الحظ اهتماماً ما. جنرالاتنا ليسوا مرضى بالأعصاب.

حوالى شهر نوفمبر اعترضني في إدارة التحرير إستيرازي، وقد اشتدّ تشنّج أعصابه وطلب أن يراني على انفراد. جاء إلى بيتي صحبة مقدّم يُدعى هنري.

- سيمونيني، يتهامسون بأنّ خط البوردورو هو خطّي. أنت نسختَ عن رسالة أو عن مذكّرة لدرايفوس، أليس كذلك؟

- بطبيعة الحال. أعطاني ساندهيرّ المثال.

- أعرف ذلك، ولكن لماذا لم يستدعني أنا أيضاً ذلك اليوم؟ لكي لا أتثبّت من مثال خط درايفوس؟

- أنا فعلتُ ما طُلب مني.

- أعرف، أعرف ذلك. ولكن يحسن بك أن تساعدني على حلّ هذا اللغز. لأنه، إذا وقع استعمالك لبعض الأغراض الخفيّة لا أدرك أسبابها، قد يكون من صالح بعضهم أن يتخلّص من شاهد خطير مثلك. لذا فإنّ الأمر يخصّك من قريب.

ما كان عليّ أبداً أن أتورّط مع العسكريّين. لم أكن أحسُّ بنفسي مطمئناً. ثمّ فسّر لي إستيرازي ما ينتظره مني. سلّمني مثالاً من رسالة الملحق الإيطالي

بانيدزاردي، ونصّ رسالة كان عليّ أن أكتبها، يتحدّث فيها بانيدزاردي إلى الملحق الألماني عن مساهمة درايفوس. وختم حديثه قائلاً:

- سيتكفّل المقدّم هنري بالعثور على هذه الوثيقة وإبلاغها إلى الجنرال غونس.

قمتُ بما وجَب عليّ، وسلّم لي إستيرازي قرابة الألف فرنك ثم لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، ولكن في نهاية سنة 1896 وقع إلحاق بيكار بالفيلق الرابع من الرماة بالبندقيّة، الموجود في تونس.

ولكن، يبدو في الوقت ذاته الذي انشغلتُ فيه بالتخلّص من تاكسيل، أنّ بيكار حرّك البعض من أصدقائه، وتعقّدت الأمور. بطبيعة الحال، تعلّق الأمر بأخبار غير رسميّة كانت بطريقة ما تصل إلى الصحف، وقدّمتها الصحافة الموالية لدرايفوس (وهي أقليّة) على أنها مؤكّدة، بينما تحدّثت عنها الصحافة المعادية لدرايفوس على أنها أكاذيب. فقد ظهرت برقيات موجهة إلى بيكار يُستنتج منها أنّه هو صاحب البرقية الملعونة الشهيرة التي أرسلها الألمان إلى إستيرازي. وممّا أمكنني فهمه أن ذلك الأمر دبّره من إستيرازي وهنري. كان ذلك مثل لعبة كرة المضرب، لا حاجة فيها لابتداع التهم بل يكفي إرجاع التهم نفسها إلى من وجَّهَها إليك. ربّاه، الجاسوسية (والجاسوسية المضادة) أمر من الجديّة بحيث لا يجب تركه بين أيدي العسكريّين؛ مهنيّون مثل إيبوترن ولاغرونج لم يحدثوا أبداً مثل تلك الفوضى، ولكن ماذا تنتظر من أناس يصلحون يوماً لمصلحة المخابرات وفي اليوم التالي للفيلق الرابع رماة البندقية في تونس، أو مرّوا من زواويّ البابا إلى الفرقة الأجنبيّة؟

وبعد هذا كلّه لم تصلح العمليّة الأخيرة كثيراً، وفُتح تحقيق بخصوص إستيرازي. وإذا قصّ هذا الأخير، للتخلّص من كلّ شبهة، أنّ الإرسالية كتبتها أنا؟؟

* * *

لم أذق طعم النوم طيلة سنة. كنت أسمع كلّ ليلة أصواتاً في البيت،

وتستحوذ عليّ الرغبة في النهوض والنزول إلى الدكان، ولكني كنت أخشى أن يعترضني الروسيّ.

* * *

جرت في كانون الثاني/يناير من هذه السنة محاكمة في جلسات سريّة خرج منها إستيرازي مبرّأً من كلّ تهمة ومن كل شكّ. وعُوقِب بيكار بستين يوماً سجناً في القلعة. ولكن الموالين لدرايفوس لم يكفّوا، وكاتب سوقيّ مثل زولا نشر مقالاً ناريّاً (أنا أتّهم! *J'accuse!*)، بينما نزلت إلى الميدان مجموعة من الكتّاب التافهين والعلماء المزعومين تطالب بإعادة المحاكمة. من هم هؤلاء المدعوُّون بروست، فرانس، سوريل، مونيه، رينارد، دوركهايم؟ لم أرهم أبداً في صالون السيدة آدم. وقالوا لي إنّ بروست هذا لوطيّ في الخامسة والعشرين من عمره مؤلف لأعمال لحسن الحظ لم تُنشر، وإنّ مونيه مُلطِّخ لوحات شاهدت واحدة أو اثنتيْن منها، يبدو فيها هذا الأخير وكأنه يرى العالم بعينيْن رميصتيْن. ما دَخْلُ أديب ورسّام بقرارات المحكمة العسكريّة؟ يا لفرنسا المسكينة، كما كان يتشكّى درومون. الأفضل أن يهتمّ هؤلاء "المثقفون" مثلما يسمّيهم ذلك المحامي عن القضايا الخاسرة كليمنصو، بالأشياء القليلة التي لديهم فيها بعض الكفاءة...

سُجِّلت قضيّة ضدّ زولا وانتهت لحسن الحظ بإدانته وسجنه لمدّة عام. لا تزال توجد عدالة في فرنسا، قال درومون، الذي انتُخِب في شهر أيار/مايو نائباً في الجزائر، بحيث ستوجد هناك مجموعة هامّة من المعادين للساميّة في المجلس، وهذا يصلح للدفاع عن المواقف المعادية لدرايفوس.

بدَا أنّ كلّ شيء على أحسن ما يرام، في تموز/يوليو، تمّ الحكم على بيكار بثمانية أشهر سجناً، وفرّ زولا إلى لندن، وبينما كنت أظنّ أنّ لا أحد سيُمكنه بعد الآن فتح القضية من جديد، ها إنّ نقيباً يُدعى كويني أثبت أنّ الرسالة التي يتّهم فيها بانيدزاردي درايفوس مزيّفة. لست أدري كيف فعل لإثبات ذلك، بما أنّ عملي كان خالياً من كلّ عيب. على كلّ حال وجد أذناً صاغية له في القيادات العسكريّة العُليا، وبما أنّ من اكتشف الرسالة وروّجها هو المقدّم



. . . لا يزال يوجد يهود كثيرون في أركان الجيش. . .   (ص441)

هنري، فقد صاروا يتحدّثون عن "زيف هنري". عند موفى أغسطس، وتحت الضغط، اعترف هنري بكلّ شيء، وتمّ سجنه في مون فاليريان، وفي اليوم التالي قطع رقبته بموسى الحلاقة. مثلما قلتُ، لا يجب أبدا ترك بعض الأشياء في أيدي العسكريّين. كيف؟ تسجن أحداً يشتبه في خيانته وتترك له موسى الحلاقة؟

- هنري لم ينتحر. ألزموه على الانتحار. كان يؤكّد درومون، ساخطاً. لا يزال يوجد يهود كثيرون في أركان الجيش. سنفتح اكتتاباً عمومياً لتمويل قضيّة لإعادة الاعتبار لهنري.

ولكن بعد أربعة أو خمسة أيام فرّ إستيرازي إلى بلجيكا ومن هناك إلى إنكلترا. كان مثل اعتراف بالجرم. والسؤال هو لماذا لم يدافع عن نفسه بإلقاء التهمة عليّ.

* * *

بينما كنت أجهد نفسي بالتفكير في ذلك، سمعت من جديد أصواتاً في البيت. وفي الصباح التالي لم أجد فقط الدكان بل القبو أيضاً رأساً على عقب، وباب السلّم الذي يؤدي إلى البالوعة، مفتوحاً.

وبينما كنت أتساءل إن لم يجب عليّ أنا أيضاً أن أفرّ مثل إستيرازي، دقّ راشكوفسكي جرس باب الدكان. ودون حتى أن يصعد إلى فوق، جلس على كرسيّ للبيع، إن أراد أحد شراءه، واستهلّ على الفور قائلاً: - ما قولك لو أبلغتُ الأمن أنّ تحت قبوك تُوجد أربع جثث، إضافة إلى أنّ إحداها هي لأحد أعواني بحثتُ عنه في كلّ مكان؟ لقد ضجرتُ من الانتظار. أمهلك يومين لتذهب وتجلب معك البروتوكولات التي تحدّثت عنها وسأنسى ما رأيته في البالوعة. يبدو لي اتفاقاً نزيهاً.

لم أكن أستغرب أن يعرف راشكوفسكي ما يوجد في بالوعتي. بالأحرى، وبما أنه كان عليّ إن آجلاً أم عاجلاً أن أعطيه شيئاً ما، فقد حاولت أن أستمدّ بعض الفائدة من الاتفاق الذي عرضه عليّ. تجاسرتُ وقلت له: - بإمكانك أيضاً

أن تساعدني لحلّ مشكلة طرأت لي مع مصالح القوّات المسلّحة. . .

انفجر ضاحكاً: - تخاف أن يكتشفوا أنّك أنت صاحب الإرسالية؟

لا فائدة. كان ذلك الرجل يعرف كلّ شيء. شبّك أصابع يديه كمن يجمع أفكاره ثم حاول أن يفسّر لي.

- لعلّك لم تفهم شيئاً من هذه المسألة وتخاف أن يقحمك أحد فيها. كُنْ مطمئنّاً. تحتاج فرنسا، لأسباب تتعلّق بالأمن الوطني، أن يعتقد الجميع في صحّة الإرسالية.

- لماذا؟

- لأنّ المدفعيّة الفرنسيّة بصدد صنع سلاحها الأكثر تجديداً، المدفع عيار 75، واللازم أن يبقى الألمان مقتنعين بأنها لا تزال تشتغل على المدفع عيار 120. يجب أن يعرف الألمان أنّ جاسوساً يعمل لأجل بيعهم أسرار المدفع 120، ليظنّوا أن تلك هي النقطة الحسّاسة. وبإمكانك أن تخمّن، كإنسان سليم العقل، بأن الألمان سيقولون لأنفسهم: "تا الله، ولكن إذا كان هذا الإرسال أو "بوردورو" صحيحاً، لزم أن نعرف عنه بعض الشيء، قبل الإلقاء به في سلّة المهملات" وبالتالي فإنهم سيصدّقون الخدعة. ورغم ذلك فقد سقطوا في الفخّ، لأن لا أحد أبداً في أوساط المخابرات السريّة يقول كلّ شيء إلى الآخرين، يشتبهون دائماً في أنّ موظف المكتب المجاور جاسوس مزدوج، ومن المحتمل أنهم اتهّموا بعضهم البعض: "كيف؟ وصل خبر بهذه الأهميّة ولا يعرف ذلك حتى الملحق العسكري الذي يبدو أنه هو المرسَل إليه، أم أنه كان يعرف ذلك وصمت؟" تصوّر العاصفة من الشكوك المتبادلة، لا شكّ في أنّ بعض الرؤوس سقطت. كان ينبغي وينبغي دائماً أن يؤمن الجميع بصحّة "البوردورو". ولذا كان من أشدّ الأمور استعجالاً أن يُرسَل درايفوس في أقرب وقت إلى جزيرة الشيطان، لتفادي أن يقول، دفاعاً عن نفسه، إن من المستحيل أن يتجسّس على المدفع 120، لأنه لو أراد أن يفعل ذلك لتجسّس على المدفع 75. بل ويبدو أنّ أحدهم وضع أمامه مسدّساً قائلاً له إنه بإمكانه النجاة من العار الذي ينتظره بالانتحار. وهكذا يقع أيضاً تفادي محاكمة علنيّة. ولكن درايفوس عنيدٌ وألحّ في

الدفاع عن نفسه، لأنه يفكّر في أنه بريء. لا يجب أبداً لضابط أن يفكّر. ومن ناحية أخرى، أظنّ أنّ البائس كان لا يعرف شيئاً عن المدفع 75، هل تظنّ أن شيئاً مثل هذا يُمكن أن يصل إلى مكتب متدرّب؟ ولكن من الأفضل الاحتراس. هل هذا واضح؟ لو عرف الجميع أنّ البوردورو من صنعك أنت فالبنيان كله سينهار وسيفهم الألمان أنّ المدفع 120 ليس إلا مغالطة - صحيح أنّ أولئك الألبوش *alboches*(*) بليدو الذهن، ولكنهم ليسوا أغبياء تماماً. ستقول لي إنّه في الواقع ليست المخابرات الألمانية وحدها التي يسيطر عليها مجموعة من المفسدين وإنما حتى الفرنسية أيضاً. هذا بديهي، وإلّا فإنّ هؤلاء سيخدمون لصالح الأوكرانا، التي تعمل بصفة أفضل، وكما ترى، لديها معلومات من هذا الطرف ومن ذاك.

- ولكن إستيرازي؟

- صاحبنا المتأنق جاسوس مزدوج، كان يتظاهر بالتجسّس على ساندهيرّ لصالح ألمان السفارة ولكنه في الوقت نفسه كان يتجسّس على ألمان السفارة لصالح ساندهيرّ. وعمل جاهداً لتركيب عمليّة درايفوس، ولكن ساندهيرّ أدرك أنّه خسر أوراقه وبدأ الألمان يشكّون فيه. كان ساندهيرّ يعرف جيّدا أنّه سلّم إليك أُنموذجاً من خطّ إستيرازي. كان المراد هو تجريم درايفوس، ولكن إذا لم تجرِ الأمور في الطريق الصحيح، سيبقى بالإمكان دائماً إلقاء مسؤوليّة الإرسالية (البوردورو) على إستيرازي. تفطّن إستيرازي بطبيعة الحال بتأخّر كبير إلى الفخّ الذي سقط فيه.

- ولكن لماذا لم يذكر اسمي؟

- لأنهم سيفضحونه وسينتهي به الأمر في إحدى القلاع، إن لم نقل في بعض القنوات. بينما بإمكانه هكذا أن يبقى هانئاً في لندن، مع دَخْلٍ معتبر، على حساب المخابرات. سواء نسبوه إلى درايفوس، أو قَرَّرُوا نسبه إلى إستيرازي،

(*) عبارة شعبية محقِّرة للإشارة إلى الألمان. [المترجم].

يجب أن يبقى "البوردورو" صحيحاً. لن يُلقي أحد أبداً التهمة على مزوّر مثلك. أنت في حصن حصين. أمّا أنا فسأجلب لك الكثير من المصائب بسبب تلك الجثث في البالوعة. لذا سارع بإعطائي الوثائق التي تلزمني. سيأتيك بعد غد شاب يعمل معي، اسمه غولوفينسكي. ليس من شغلك صنع الوثائق الأصليّة النهائية لأنها يجب أن تُحرَّر بالروسيّة، وسيقوم هو بذلك. يجب أن تمدّه أنت بمادّة جديدة، أصليّة ومقنعة، لإثراء ملفّك حول مقبرة براغ الذي صار الآن يعرفه الغادي والرائح. بعبارة أخرى، كون مصدر الكشوفات والإفشاءات هو اجتماع في تلك المقبرة فهو أمر يلائمني جيّداً، ولكن ما يجب أن يبقى دون تحديد هو متى وقع ذلك الاجتماع، وينبغي أن يتناول مواضيع راهنة، وليس تخريفات من القرون الوسطى.

يجب عليّ أن أعمل بجدّ.

* * *

أمامي يومان وليلتان لجمع المئات من الملاحظات والقُصاصات التي جمّعتها خلال علاقة مع درومون دامت أكثر من عشرة أعوام. لم أظنّ يوماً أنني سألجأ إلى استعمالها لأنها كلّها أشياء وقع نشرها على صفحات "الكلمة الحرّة"، ولكنها قد تبدو للرّوس مادّة غير معروفة. كان عليّ أن أفرز. ذلك المسمّى غولونوفسكي وراشكوفسكي لا يهمّهما دون شكّ أن يكون اليهود مَهَرة في الموسيقى أم لا، أو في اكتشاف القارّات. ما يهمّهما بالأحرى هو الشك في أنهم يعدّون لتدمير اقتصاد الناس الطيّبين.

تفحّصتُ ما سبق أن استعملته في خطابات الحاخام: كون اليهود يخطّطون للاستحواذ على السكك الحديديّة، والمناجم، والغابات، وإدارة الجباية، والملكيات العقارية الكبرى، ويطمحون إلى سلك القضاء، والمحاماة، والتربية العمومية، ويريدون اختراق الفلسفة، والسياسة، والعلوم، والفنون، وبالخصوص الطبّ، لأنّ الطبيب يدخل إلى البيوت، أكثر من الكاهن. وينبغي تخريب الدِين،

ونشر الفكر الحرّ، وحذف دروس الديانة المسيحيّة من البرامج المدرسيّة، واحتكار تجارة الكحول، ومراقبة الصحافة. ربّاه، ماذا بقي أن يطلبوا؟

ولا يعني هذا أنّه لم يعد بإمكاني إعادة توظيف هذه المادة. كان راشكوفسكي لا يعرف من خطاب الحاخام سوى النصّ الذي سلّمته إلى غلينكا، حيث يتناول الحديث مواضيع بالأخصّ دينيّة ومشاهد القيامة. ولكن يجب دون شك أن أضيف إلى نصوصي السابقة شيئاً جديداً.

صنّفت بعناية كلّ المواضيع التي يُمكن أن تمسّ من قريب مصالح القارئ المتوسّط. نسختُ ذلك بخط جميل يعود إلى ما قبل نصف قرن، على ورق مصفرّ بفعل التقادم: وها هي ذي، في حوزتي، الوثائق التي تركها لي جدي كما وقع تحريرها حقيقة في اجتماعات اليهود، داخل تلك الحارة أو الغيتو الذي عاش فيه جدّي، وهو شاب، مترجماً إياها عن البروتوكولات التي سجّلها الأحبار بعد اجتماعهم في مقبرة براغ.

عندما جاء غولوفينسكي في اليوم التالي إلى الدكان، استغربت أن يعهد راشكوفسكي بمهمّة خطيرة مثل هذه إلى موجيك حديث السنّ أرمص ومرتخٍ، سيّئ الهندام، عليه هيئة الأخير ترتيباً في القسم. ثمّ اكتشفتُ، أثناء الحديث، أنّه أذكى ممّا يبدو. كان يتكلّم فرنسيّة رديئة بنبرة روسيّة قويّة، ولكنّه سأل على الفور كيف أمكن أن يكتب أحبار غيتو تورينو بالفرنسيّة. فقلت له إنه في جهة بيمونتي، في تلك الفترة، كان جميع الأشخاص المتعلّمين يتكلّمون الفرنسيّة، وأقنعه ذلك. تساءلتُ بعدئذٍ إن كان أحباري في المقبرة يتكلّمون بالعبريّة أو باليِيديّة، ولكن بما أنّ الوثائق هي الآن بالفرنسيّة فإن ذلك عديم الأهميّة.

قلت له: - انظر، في هذه الورقة مثلاً يقع الإلحاح على أهميّة نشر أفكار الفلاسفة الملحدين لإرباك المسيحيّين. واسمع هذا: "يجب أن نمحو مفهوم الربّ من أذهان المسيحيّين، وأن نعوّضه بالحسابات الرياضيّة والحاجيات المادية".

كنت قد أخذتُ بعين الاعتبار أنّ الرياضيّات شيء يضجر الجميع. ثم تذكّرت تشكيّات درومون ضدّ الصحافة الفاحشة، فقلتُ إنّه ستظهر، على الأقلّ بالنسبة إلى المحافظين، فكرة انتشار الملاهي البخسة والعديمة الذوق للجماهير الواسعة جيّدة لأهداف المؤامرة. قلتُ لغولوفينسكي: اسمع هذا: "لمنع أن يجد الشعب بنفسه خطّ عمل سياسي جديد مهما كان نوعه، سنشغله بأنواع مختلفة من الملاهي: ألعاب رياضية، تسلية وأهواء مختلفة، حانات، وسندعوه للتنافس في مباريات فنيّة ورياضيّة... وسنشجّع على حبّ الترف المفرط وسنرفع في الأجور، ولكن ذلك لن ينفع العامل، لأنّنا في الوقت نفسه سنرفع في أسعار الموادّ الضروريّة، بذريعة ضعف المحاصيل الفلاحية. وسنخرّب أسس الإنتاج، بزرع بذور الفوضى وسط العمّال، وبتشجيعهم على الإدمان في المشروبات الكحوليّة. سنعمل على توجيه الرأي العامّ نحو أيّ نوع من النظريّات الخياليّة التي يُمكن أن تبدو تقدّميّة، أو ليبيراليّة".

قال غولوفينسكي: - حسناً، حسناً، ولكن هل يوجد شيء صالح للطلبة، ما عدا مسألة الرياضيّات؟ الطلبة في روسيا شيء هامّ، هم عقول ساخنة يجب وضعها تحت المراقبة.

- هو ذا: "عندما سنستولي على السلطة، سنحذف من برامج التعليم كلّ المواد التي يُمكن أن تربك عقول الشباب، وسنجعل منهم أطفالاً مطيعين، يحبّون ملكهم. عوضاً عن تدريس الآداب الكلاسيكيّة والتاريخ القديم، التي تحتوي على أمثلة سيّئة أكثر منها على أمثلة جيّدة، سندرّس مسائل تتعلّق بالمستقبل. سنمحو من ذاكرة البشر ذكرى القرون الماضية، التي يُمكن أن تكون مضرّة بالنسبة إلينا. وبتربية ممنهجة سنعرف كيف نمحو بقايا ذلك الاستقلال الفكري الذي استعملناه زمناً طويلاً لبلوغ غاياتنا... وستخضع الكتب التي لها أقلّ من ثلاثمائة صفحة إلى ضريبة مضاعفة، ممّا سيجبر المؤلفين على نشر كتب من الطول بحيث لا يقرأها إلّا القليلون. بينما سننشر نحن أعمالاً زهيدة الثمن لتربية الشعب وتأطير فكره. وستحتّم الضريبة تراجعاً في أدب التسلية، ولن يجد من يريد مهاجمتنا بقلمه أيَّ ناشر". أمّا بخصوص الصحف فإنّ المخطّط اليهودي

ينصّ على حريّة صحافة وهميّة، تصلح لمراقبة أكبر للآراء. يقول أحبارنا: يتعيّن احتكار أكبر عدد ممكن من الدوريات، بحيث يقع فيها التعبير عن آراء مختلفة في الظاهر، ممّا يوهم بتداول حُرّ للأفكار، بينما تعكس كلها في الواقع أفكار الهَيْمَنة اليهودية. ويلفتون الانتباه إلى أن شراء الصحفّين لن يكون من العسير لأنهم يمثلون ماسونيّة معيّنة ولن يتجرّأ أيّ ناشر على كشف الشبكة التي تشدّهم جميعاً إلى نفس العربة، لأنّ لا أحد يُقبَل في عالم الصحافة إن لم يكن في حياته الخاصة شيء مثير للشبهة. "بطبيعة الحال يجب أن يُحَظَّر على الصحافة أن تنشر أخبار جرائم بحيث يظنّ الشعب أنّ النظام الحاكم قطع دابر الانحراف. ولكن لا يجب الانشغال أكثر من اللزوم بالقيود التي ستُفرَض على الصحافة لأنّ الشعب، سواء كانت الصحافة حرّة أم لا، لن يتفطّن إلى ذلك، ما دام مكبّلاً كما هو بأغلال العمل والفقر. ما حاجة العامل الكادح بالمثرثرين الذين يطالبون بالحق في الثرثرة؟"

- هذا شيء جيّد، لاحظ غولوفينسكي، لأنّ العقول الساخنة تشتكي دائماً عندنا من الرقابة الحكومية المزعومة. يجب أن يفهموا أن الامر في ظلّ حكومة يهوديّة سيزداد سوءاً.

- عندي، بهذا الصدد، ما هو أفضل: "يجب أن نأخذ بعين الاعتبار دناءة العامّة، وتقلّبها وفقدانها للتوازن الأخلاقي. قوّة العامّة عمياء وعديمة الذكاء، لا تميّز وتصغي تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار. ترى هل يُمكن لعامّة الناس أن يديروا شؤون الدولة دون خلطها بمصالحهم الشخصيّة؟ هل بإمكانهم أن ينظموا الدفاع ضدّ عدوّ خارجي؟ هذا مستحيل بالمرّة، لأنّ خطّة موزّعة على أجزاء مختلفة بقدر اختلاف آراء العامّة تفقد قيمتها وتصبح إذن غير قابلة لا للقراءة ولا للتنفيذ. صاحب السلطة المطلقة وحده بإمكانه تصوّر خُطط واسعة، مُسْنِداً دوراً إلى كلّ مؤسّسة من آلية جهاز الدولة... دون السلطة المطلقة لا يُمكن للحضارة أن توجد، لأنّ الحضارة لا يُمكن أن تزدهر إلّا تحت حماية المالك، مهما كان، وليس من طرف العامّة". انظر، إذن، إلى هذه الوثيقة الأخرى: "بما أنّنا لَمْ نَرَ أبداً دستورا نشأ من إرادة الشعب، فإن مخطط الحكم يجب أن ينشأ من دماغ

واحد". واقرأ هذا: "ومثل فيزنو متعدّد الأذرع سنراقب كلّ شيء. لن نحتاج حتى إلى الشرطة: ثلث رعايانا سيراقب الثلثيْن الآخريْن".

- رائع جداً.

- وهذا أيضاً: "العامّة هَمَج، ويعملون بهمجيّة في كلّ مناسبة. انظروا إلى أولئك الرعاع المدمنين على الكحول الذين أصابهم البله من فرط الشرب المسموح به دون حدّ، بدعوى الحريّة. هل يجب أن نسمح لأنفسنا ولأمثالنا أن يتصرّفوا هكذا؟ شعوب المسيحيّة خرجت عن الطريق المستقيم وتبلّدت بفعل الكحول؛ وشبابها فقد الصواب بفعل الفسق والعربدة السابقة لأوانها التي حرّضهم عليها أعواننا... في السياسة الغلبة دائماً للقوة الصرف، والعنف يجب أن يكون هو المبدأ؛ والخبث والنفاق هما القاعدة. الشرّ هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ الخير. لا يجب نتردّد في توظيف الفساد، والخداع والخيانة، فالغاية تبرّر الوسيلة".

- يكثر الحديث عندنا عن الشيوعيّة، ماذا يقول عن ذلك أحبار براغ؟

- اقرأ هذا: "في السياسة ينبغي أن نعرف كيف نصادر الأملاك دون أيّ تردّد، إذا كان ذلك يمكّننا من إخضاع الآخرين ومن جعل السلطة مُلكنا. سنتقمّص صفة محرّري العامل، متظاهرين بحبّه حسب مبادئ الإخاء التي تعلنها ماسونيّتنا. سنقول إننا جئنا لتحريره ممّا يكبّله، وسنشير عليه بالالتحاق بصفوف جيوشنا الاشتراكيّة، والفوضويّة والشيوعيّة. ولكن الأرستقراطيّة، التي تستغلّ الطبقات الكادحة، يهمّها مع ذلك أن تتغذى هذه الطبقات جيّداً، وأن تكون سليمة الجسم وقويّة. أمّا غايتنا فهي عكس ذلك، ما يهمّنا نحن هو انحلال المسيحيّين. قوّتنا تتمثّل في جعل العامل دائماً في حالة خصاصة وضعف، فبهذا الفعل، يبقى خاضعاً لإرادتنا، ولن يجد في وسطه الاجتماعي أبداً القوّة والطاقة للتمرّد علينا". وأضف هذا: "سنتسبّب في أزمة اقتصادية عالميّة بكلّ الوسائل السريّة الملتوية الممكنة، وبمساهمة الذهب، الذي يوجد كلّه بين أيدينا. سنلقي على الأرصفة بجموع غفيرة من العمّال، في كامل أوروبا. وعندئذٍ سترتمي تلك الجموع على أولئك الذين، كانوا بسبب جهلهم يحسدونهم منذ الطفولة،

وسينهبون أملاكهم ويهرقون دماءهم. لن يلحقنا نحن أيّ ضرر، لأنّ ساعة الهجوم ستكون معروفة عندنا، وسنتّخذ كل الاحتياطات الضروريّة لحماية مصالحنا".

- هل عندك شيء بخصوص اليهود والماسونيةّ؟

- أكثر ممّا تتصوّر. هو ذا نصّ واضح جداً: "إلى حين تصبح السلطة في أيدينا، سنعمل على تأسيس وعلى مضاعفة عدد المحافل الماسونيّة في كلّ أنحاء العالم. وسنجعل من هذه الجمعيّات مصادرنا الرئيسيّة للحصول على المعلومات التي تهمّنا؛ وستؤدي أيضاً دور مراكزنا للبروباغاندا. سنربط في هذه الجمعيّات بين كلّ فئات المجتمع الاشتراكيّة والثوريّة. وسنستقطبُ تقريباً كلّ أعوان الشرطة السريّة العالميّة إلى صفوف محافلنا. جُلّ الذين يدخلون في الجمعيّات السريّة هم من المغامرين، يطمحون إلى تحقيق مآربهم في الحياة بطريقة أو بأخرى، وليست لديهم نيّات جديّة. سيتيّسر لنا، بفضل أمثال هؤلاء الناس، أن نبلغ غايتنا. من الطبيعي أن نكون نحن فقط الوحيدين في إدارة المؤسّسات الماسونيّة".

- رائع.

- تذكّر أيضاً أنّ اليهود الأثرياء ينظرون باهتمام إلى معاداة الساميّة التي تضرب اليهود الفقراء، لأن معاداة السامية تدفع بالمسيحيّين ذوي القلوب الرحيمة إلى التعاطف مع ملّتهم جمعاء. اقرأ هذا: "كانت التظاهرات المعادية للساميّة بدورها نافعة جداً للزعماء اليهود، لأنّها بثّت الرأفة في قلوب بعض المسيحيّين نحو شعب أُسِيئت، في الظاهر، معاملته. وكنتيجة حتميّة صَلُح هذا للحصول على الكثير من التعاطف بين المسيحيّين مع قضيّة صهيون. وساعدت مناهضة الساميَّة، التي تجلّت في اضطهاد اليهود من الفئات الضعيفة، الزعماء على مراقبتهم وعلى إخضاعهم. كانوا يقبلون هذه الاضطهادات، لأنهم في الوقت المناسب يتدخلون وينقذون إخوانهم في الدين. لاحظوا أنّ زعماء اليهود لم يتضرّروا أبداً، لا في تقدّمهم، ولا في مراتبهم الرسميّة كموظفين، أثناء الاضطرابات المعادية للساميّة. هؤلاء الزعماء أنفسهم هم الذين هيّجوا "الكلاب المسيحيّين" ضدّ اليهود الأكثر ضعفاً. الكلاب تحافظ على نظام قطعانها ولذا تساهم في صلابة استقرار صهيون".



. . . أريد أن أنهي ببعض التأكيدات القويّة جدّاً، بشيء يبقى راسخاً في الذهن، رمزاً للشرّ اليهودي. مثلاً "عندنا طموح لامتناه، وجشع يلتهم كلّ شيء، ورغبة في الانتقام لا تعرف الرحمة وحقد عميق" . . . (ص452)

استعدتُ أيضاً صفحات عديدة، تقنية جداً، كان جولي قد خصّصها لآليات القروض ونسبة الفوائد. لم أكن أفهم منها الكثير، ولم أكن متأكّداً أنّه منذ الزمن الذي كتب فيه جولي لم تتغيّر تلك النِّسَب، ولكني كنت أثق بمصدري ومرّرت إلى غولوفينسكي صفحات وصفحات قد تجد قارئاً منتبهاً في التاجر أو في الحِرَفي المثقل بالديون أو الذي سقط في مهاوي الرِّبا.

وأخيراً، لا أزال أتذكّر الأحاديث التي كانت تجري في صحيفة "الكلمة الحرّة" حول شبكة الخطوط الحديدية الحضريّة التي يجب شقّها عبر باريس. حكاية قديمة، تَحدّثوا بها منذ عشرات السنين، ولكن في تموز/يوليو 1897 فقط تمّت المصادقة على مشروع رسميّ. وفي هذه الفترة الأخيرة بدأت أشغال الحفر الأولى للخطّ باب دي فانسان - باب دي مايّو *Porte de Vincennen - porte de Maillot*. شيء قليل إلى حدّ الآن، ولكن شركة الميترو كانت قد تأسّست، ومنذ أكثر من سنة بدأت جريدة "الكلمة الحرّة" حملة ضدّ العدد الكبير من المساهمين اليهود الذين تظهر أسماؤهم فيها. كان يبدو لي من المفيد، إذن، أن أربط المؤامرة اليهودية بخطوط الميترو، ولذا أضفتُ: "في ذلك الزمان ستكون لكلّ المدن خطوط ميترو وممرّات تحت الأرض: منها سنفجّر كلّ مدن العالم، بما في ذلك مؤسّساتها ووثائقها".

- ولكن، سأل غولوفينسكي، إذا وقع اجتماع براغ منذ زمن بعيد، كيف أمكن للأحبار أن يعرفوا شيئاً عن خطوط الميترو؟

- قبل كلّ شيء، لو اطّلعت على النصّ الأخير من خطاب الحاخام الذي ظهر قبل الآن بعشر سنوات تقريباً على صفحات **المعاصر** الكونطنبوران (*Le Contemporain*)، فإن اجتماع مقبرة براغ التأم سنة 1880، في وقت يبدو لي فيه أن الميترو كان قد وُجِد في لندن. وبعد هذا كلّه يكفي أن تكون للمخطّط نبرة النّبوءة.

ثمّن غولوفينسكي كثيراً هذه الفقرة، التي بدت له واعدة جدّاً. ثم لاحظ: - ألا يظهر لك أنّ الكثير من الأفكار الواردة في هذه الوثائق تتناقض فيما بينها؟ مثلا،

يُراد من ناحية تحجير الترف والمتع الزائدة ومعاقبة السكر ومن ناحية أخرى انتشار الرياضة والملاهي، وحثّ العمّال على الإدمان في الشرب...

- اليهود يقولون دائماً شيئاً وعكسه، أنهم كذّابون بطبيعتهم. ولكن إذا صنعت وثيقة فيها عديد الصفحات، لن يقرأها الناس دفعة واحدة. يجب توخّي إحداث النفور في أنفسهم مرّة بعد أخرى، وعندما يستنكر أحد شيئاً قرأه اليوم لن يتذكّر الفكرة التي أثارت استنكاره في اليوم السابق. ثمّ، لو قرأت بانتباه، فسترى أنّ أحبار براغ يريدون استعمال الترف، والملاهي والكحول لاستعباد العامّة الآن ، ولكن عندما سيحصلون على السلطة فإنهم سيجبرونهم على الاعتدال.

- صحيح، اعذرني.

ختمتُ باعتزاز مشروع: - إيه، لقد تأملت في هذه الوثائق طيلة سنوات وسنوات، منذ أن كنت طفلاً، وإذن فأنا أعرف كلّ دقائقها .

- عندك حقّ. ولكني أريد أن أُنهي ببعض التأكيدات القويّة جدّاً، بشيء يبقى راسخاً في الذهن، رمزاً للشرّ اليهودي. مثلاً: "عندنا طموح لامُتناهٍ، وجشع يلتهم كلّ شيء، ورغبة في الانتقام لا تعرف الرحمة وحقد عميق".

- شيء جيّد لرواية في حلقات. ولكن هل تظنّ أنّ اليهود، الذين ليسوا أغبياء، سيقولون أشياء من هذا القبيل، تكون سبباً في إدانتهم؟

- إنّني، من جهتي، لن أنشغل كثيراً بهذا الجانب. الأحبار يتحدّثون في مقبرتهم، وهم متأكّدون من أنّ لا أحد يسمعهم. لا حياء لهم. وينبغي لعامّة الناس أن يستنكروا.

كان غولوفينسكي معاوناً جيّداً. كان يعتبر أو يتظاهر باعتبار وثائقي أصليّة ولكنه مع ذلك كان لا يتردّد في تحويرها عندما يرى في ذلك فائدة له. لقد اختار راشكوفسكي الرجل المناسب.

قال غولوفينسكي مختتماً: - أظنّ، أنّ عندنا ما يكفي من المادّة لصياغة ما سنسمّيها بروتوكولات اجتماع الأحبار في مقبرة براغ.

أفلتَتْ مقبرة براغ من يديّ، ولكني كنت ربّما بصدد المساهمة في نجاحها. دعوت غولوفينسكي وأنا أتنفّس الصعداء إلى عشاء عند بايّار، في زاوية شارع دي لاشوسي دونتان وبولفار الإيطاليين. باهض الثمن ولكنه لذيذ. وأبدى غولوفينسكي إعجابه بـ "دجاج الدوق الأعظم" *poulet archiduc* والـ "البط المكبوس" *canard à la presse*. ولكن ربما كانت تكفي، لمن هو قادم من الفيافي الروسيّة شوكروت ليملأ بها بطنه، وبنفسة الإحساس بالمتعة. وكان بإمكاني أن أقتصد وأن أتفادى نظرات الريبة التي نظر بها النادلون إلى زبون يمضغ بكلّ تلك الضجة.

ولكنه أكل بشغف، وربما بسبب الخمور أو لعاطفة دينية أو سياسية حقيقيّة، لا أحد يدري، كانت عيناه تلمعان من التهيّج.

قال: - سيخرج منه نصّ مثالي، منه ينفجرُ حقدهم العميق، حقد الملّة وحقد الدين. الحقد يفور من هذه الصفحات، ويبدو أنه يطفح من وعاء مليء بالسمّ... سيفهم الكثيرون أنّنا وصلنا إلى فترة الحلّ النهائي.

- لقد سبق لي أن سمعت هذه العبارة من عصمان باي، هل تعرفه؟

- سمعت عنه. ولكن هذا طبيعي، هذه الملّة الملعونة يجب اقتلاعها مهما كان الثمن.

- لا يبدو أنّ راشكوفسكي يشاطر هذا الرأي، فهو يقول إن اليهود يصلحون له أحياء لكي يكون لديه عدوّ كفء يقاومه.

- هراءات. العدوّ يوجد دائماً. ولا تظن أنه لكوني أشتغل مع راشكوفسكي فأنا أشاطره كلّ أفكاره. هو نفسه علّمني أنه يجب في الوقت الذي تشتغل فيه لسيّد اليوم، أن تستعدّ لخدمة سيّد الغد. راشكوفسكي ليس سرمدياً. وفي روسيا المقدّسة يوجد أشخاص أكثر تطرّفاً منه. حكومات أوروبا الغربيّة يمنعها جبنها من اتخاذ قرار الحلّ النهائي. أما روسيا فهي بلد كلّه طاقات، وآمال متوهّمة، يفكّر

دائماً في الثورة الكاملة. من هناك يجب أن ننتظر الحركة الحاسمة، لا من هؤلاء الفرنسيّين الذين ما زالوا يكرعون من "المساواة" *égalité* و"الأخوّة" *fraternité*، أو من أولئك الألمان المتهمّجين العاجزين عن الإنجازات العظمى...

كنت قد حدستُ بذلك عند حديثي الليلي مع عصمان باي. بعد رسالة جدي وما فيها من اتهامات، لم يتّخذ القسّ بارّويل أيّ إجراء خوفاً من حدوث مجزرة شاملة، ولكن ما توخّاه جدّي هو ربما ما نادى عصمان وغولوفينسكي. لعلّ جدّي حكم عليّ بأن أنجز حلمه. يا إلٰهي، لن يتحتّم عليّ أنا شخصيّاً، لحسن الحظ، أن أُبيد شعباً كاملاً، ولكن مساهمتي، وإن كانت متواضعة، قد قمتُ بها.

ليس عليّ أنا أن أمحقهم، أنا الذي (بصفة عامّة) أنفر من العنف المادي، ولكنني كنت أعرف دون شكّ كيف يجب إنجاز ذلك، لأني عشتُ أيام الكومونة. خُذْ كتائب متدربّة وموجّهة مذهبيّاً جيّداً، وكلّ من له أنف معقوف وشعر مجعّد، إلى الحائط. سيموت أيضاً بعض المسيحيّين ولكن مثلما قال ذلك الأسقف لمن كان يستعدّ لمهاجمة بيزيّي التي احتلّها الألبيجيّون: من باب الاحتياط اقتلوهم كلّهم. وسيتعرّف الربّ، بعد ذلك، على مؤمنيه.

ذلك مكتوبٌ في "بروتوكولاتهم"، الغاية تبرّر الوسيلة.

# 27

## يوميّات مبتورة

20 كانون الأول/ ديسمبر 1898

بعد أن سلّمت إلى غولوفينسكي كلّ الموادّ التي كانت لا تزال في حوزتي حول بروتوكولات المقبرة، أحسستُ بأنني مُفْرَغ؛ مثل شابّ انتهى من رسالة الإجازة. تساءلتُ: "والآن؟". وبما أني شفيت من شخصيّتي المنشطرة، لم يعد لي أحد أقصّ عليه حياتي.

أنهيت عمل حياة كاملة، بَدَأَ بقراءة كتاب "بالسَمُو" لدُومَا، في سقيفة بيت جدّي بتورينو. وأتذكّر جدّي، وعينيه المفتوحتيْن على الفراغ بينما كان يعود بالذاكرة إلى شبح مُردخاي. وبفضل عملي أيضاً، فإنّ كلّ مُردخاييّ العالم مقبلون على محرقة هائلة ورهيبة. أمّا أنا؟ إني أشعر بكآبة من قام بالواجب-كآبة أشسع وأدقّ من تلك التي يشعر بها المرء فوق سفينة.

أواصل إنتاج وصايا بخط المُوصي، وبِيع بضعة عشر قرصاً من خبز الذبيحة في الأسبوع، ولكن إيبوترن لم يعد يبحث عني، لعلّه يعتبرني هرمت، ولا أتحدث عن رجال القوات المسلحة، حيث اسمي ربما مُحِيَ محواً من رؤوس أولئك الذين لا يزالون يتذكرونه - إن ظلوا على قيد الحياة، منذ أن رقد ساندهيرّ مشلولاً في أحد المستشفيات وصار إستيرازي يلعب البكّارا في أحد مواخير لندن.

ولكنني أحسّ بالضجر، وليس لأني أحتاج إلى المال. فقد جمّعت منه ما يكفي، أصبحت معدتي توجعني ولم يعد بإمكاني حتى أن أتأسّى بأطايب المأكولات. أطبخ لنفسي بعض الأمراق في البيت، وعندما أذهب إلى المطعم لا أنام بعد ذلك طول الليل. أحيانا أتقيّأ. وأتبوّل أكثر من العادة.

واصلت ارتياد صحيفة "الكلمة الحرّة"، ولكن هيجان درومون المعادي للساميّة لم يعد يؤثّر فيّ. الروس هم الذين يشتغلون الآن حول ما وقع في مقبرة براغ.

أما قضية درايفوس تواصل سيرها على نار هادئة، الآن أحدثت ضجة مداخلة مفاجئة لكاثوليكي مُوالٍ لدرايفوس على صفحات جريدة كانت دائماً معادية ضارية لدرايفوس مثل "لاكروا" (راحت الأزمنة الجميلة عندما كانت فيها "لاكروا" تناضل من أجل ديانا). بالأمس غطّت الصفحات الأولى أخبار مظاهرة عنيفة معادية للسامية في ساحة لاكونكورد. وعلى جريدة ساخرة نشر كاران داش رسمَيْن: في الرسم الأول عائلة كثيرة العدد جالسة بانسجام إلى المائدة بينما يحذّر رئيس العائلة بأن لا يتحدّث أحد عن قضيّة درايفوس، وتحت الرسم الثاني كتابة تقول إنهم تحدّثوا عنها، وفي الرسم خصومة هائجة.

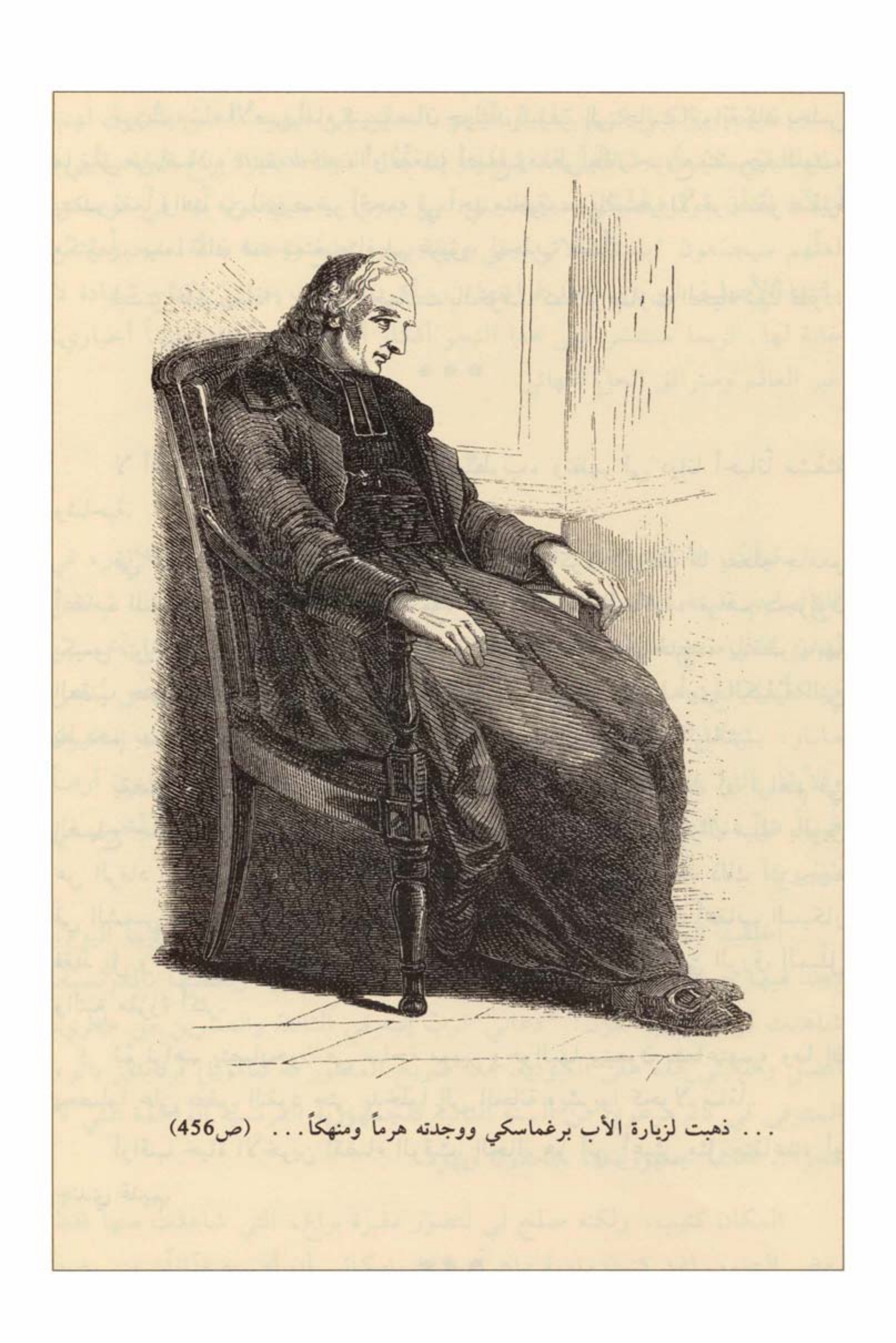
قسّمت القضية الفرنسيّين، وحسب ما يُقرأ هنا وهناك، قسّمت بقيّة العالم. هل سيُعاد فتح المحاكمة؟ في تلك الأثناء كان درايفوس لا يزال في كايّان. لينعم بذلك.

ذهبتُ لزيارة الأب برغماسكي ووجدته هرماً ومنهكاً. طبيعي، فإن كنتُ أنا في الثامنة والستّين من عمري، فهو يبلغ الآن تقريباً خمسة وثمانين.

قال لي: - كنت أريد فعلاً توديعك، يا سيمونيني. سأعود إلى إيطاليا، لقضاء بقيّة أيامي في ديارنا. لقد عملت ما يكفي وزيادة لنصرة سيّدنا المسيح. أنت، بالأحرى، ألا زلت تعيش دائماً وسط كلّ تلك الدسائس؟ الآن صرتُ أبغض الدسائس. كم كان الأمر واضحاً زمن جدّك، الفحّامون من جهة ونحن من جهة أخرى، كنّا نعرف من هو العدوّ وأين يوجد. لم أعد الرجل الذي عرفته سابقاً.

لقد خَبِلَ. ضممته بأخوّة إلى صدري وانصرفت.

* * *



... ذهبت لزيارة الأب برغماسكي ووجدته هرماً ومنهكاً... (ص456)

مررتُ مساء الأمس أمام كنيسة سان جوليان ليبوفر. إلى جانب البوابّة كان يجلس ما تبقّى من إنسان، *cul-de-jatte*، أو مُقْعَد، أصلع ومغطّى بآثار جروح بنفسجيّة اللون، يصدر نغماً واهناً من ناي صغير أقحمه في أحد مِنخريْه، وبالمِنْخَر الآخر يصفّر صفيراً مكتوماً، بينما كان فمه ينفتح مثل فم غريق، ليجذب نَفَساً.

لست أدري لماذا، ولكني أحسست بالخوف. كما لو صارت الحياة شيئاً قذراً.

* * *

لا أقدر على النوم جيّداً، نومي مضطرب، وتظهر لي ديانا أحياناً مشعَّثة وشاحبة.

في كثير من الأحيان، أذهب في الصباح الباكر، لأراقب ما يفعله جامعو أعقاب السيكار. كان شيئاً جذبني دائماً. في الساعات المبكرة، تراهم يتجوّلون بكيس نَتِن معلّق إلى الحزام بحبل، وعصا تنتهي بشوكة من حديد، يلتقطون بها العقب حتى عندما يختبئ تحت الطاولة. ما يسلّيني هو عندما أرى الكيفيّة التي يطردهم بها النادلون من المقاهي بالركلات، أو يرشونهم بثجّاج السالتز.

يقضي العديد منهم ليلتهم على ضفاف السّين، وبإمكانك أن تراهم في الصباح جالسين على أرصفة الضفّتين، ليعزلوا الحشيشة التي لا تزال مبلّلة بالريق عن الرماد أو لغسل القميص المتشرّب بعصارات التبغ لينتظروا بعد ذلك أن يجفّ في الشمس بينما يواصلون العمل. والأكثر جرأة مَنْ لا يجمعون أعقاب السيكار فقط بل وحتى أعقاب السيجارة، حيث تصبح عملية الفصل بين الورق المبلّل والتبغ مقزّزة أكثر.

ثمّ تراهم يتصايحون في ساحة موبير وحواليها يبيعون بضاعتهم، وما إن يحصلوا على بعض النقود حتى يدخلوا إلى الحانة ويشربوا كحولاً سامّاً.

أراقب حياة الآخرين لقضاء الوقت. الحال هو أني أعيش مثل متقاعد، أو جندي قديم.

* * *

غريب، ولكني كنت كما لو أشعر بالحنين إلى اليهود. أحسّ بالشوق لهم. منذ شبابي شيّدتُ، شاهداً بعد شاهدٍ، إن جاز القول، مقبرة براغ الخاصة بي، والآن فكأنّ غولوفينسكي سرقها مني. من يدري ما سيفعلون بها في موسكو. لعلّهم سيجمّعون "بروتوكولاتي" في وثيقة بيروقراطية واحدة جافّة، محرومة من بيئتها الأصلية. لن يريد أحد قراءتها، وسأكون ضيّعت حياتي لإنتاج شهادة لا غاية لها. لربما ستنتشر على هذا النحو أفكار أحباري (سيبقون دائماً أحباري) عبر العالم وسترافق الحلّ النهائي.

* * *

قرأتُ، لا أدري أين، أن مقبرة يهود برتغاليّين توجد في شارع فلاندر، في قاع ساحة قديمة. منذ أواخر القرن السابع عشر كان هناك فندق في ملك شخص يُدعى كامو سمح لليهود، أغلبهم ألمان، أن يدفنوا فيها أمواتهم، مقابل خمسين فرنكاً للبالغ وعشرين للطفل. بعد ذلك مرّت ملكيّة الفندق لشخص يُدعى ماتار، يشتغل سلّاخ حيوانات، وبدأ يدفن إلى جانب اليهود جِيَف الخيول والأبقار التي كان يسلخها، ممّا أثار احتجاج اليهود، فاشترى البرتغاليون أرضاً قريبةً من هناك لدفن أمواتهم، بينما وجد يهود بلدان الشمال أرضاً أخرى في مونروج.

أُغلِقت المقبرة في بداية هذا القرن، ولكن بالإمكان الدخول إليها اليوم. نجد فيها حوالى عشرين شاهداً بعضها مكتوب بالعبريّة وبعضها بالفرنسيّة. شاهدت لوحة غريبة تقول: "دعاني الربّ إليه في الثالثة والعشرين من عمري. أفضل وضعيتي هذه على العبودية. هذا ضريح المغفور له ساموبل فرنانديز باتُّو، المتوفى في 28 مرعويّ من السنة الثانية للجمهورية الفرنسيّة الواحدة التي لا تتجزّأ". فعلاً، جمهوريّون، ملحدون ويهود.

المكان كئيب، ولكنه صلح لي لتصوّر مقبرة براغ، التي شاهدت منها فقط بعض الصور. لقد كنت راوية ماهراً، كان بإمكاني أن أصبح فنّاناً: من بضع

إشارات بنيتُ مكاناً ساحراً، مركزاً غامضاً وقمريّاً للمؤامرة الكونيّة. لماذا تركتُ ابتكاري يفلت مني؟ كان بإمكاني أن أجعلها مسرحاً لكثير من الأحداث. . .

* * *

عاد إليّ راشكوفسكي. قال لي إنّه لا يزال يحتاج إليّ. نفد صبري وقلت له: - إنك لم تحترم اتفاقنا. كنتُ أظنّ أنّنا سوّينا المسألة. أنا أعطيتك وثائق لم يطّلع عليها أحد، وأنت صَمَتَّ عمّا يوجد في بالوعتي. بل أنا ما زلت أنتظر مقابلاً من عندك. هل تظنّ أنّ مادّة نفيسة مثل تلك مجانيّة.

- أنت الذي لا تحترم العهود. الوثائق هي المقابل لصمتي. الآن تحبّ أيضاً المال. حسناً، لا أناقش، إذن سنؤدي المال مقابل الوثائق. وبالتالي لا زلت مديناً لي بشيء مقابل صمتي عن البالوعة. وبعد هذا كله، يا سيمونيني، لا ينبغي لنا أن نتساوم، ليس في صالحك أن يتغيّر مزاجي. لقد قلت لك إنّ من الجوهريّ بالنسبة إلى فرنسا أن يُعتبر "البوردورو" أصليّاً، ولكن ليس كذلك الأمر بالنسبة إلى روسيا. لن يكلفني شيئاً بيعك إلى الصحافة. ستقضي بقيّة حياتك في قاعات المحاكم. آه، نسيت. لمعرفة ماضيك تحدّثت مع ذلك الأب برغماسكي، ومع السيد إيبوترن، وقالا لي إنّك قدّمت لهما قسّاً يُدعى دلّا بيكّولا كان قد ركّب عمليّة تاكسيل. حاولت أن أعثر على ذلك القَسّ، ولكن يبدو أنّه تبخّر في الهواء، مع كلّ الذين ساهموا في عمليّة تاكسيل في منزل بأوتوي، إلّا تاكسيل نفسه، الذي يجوب شوارع باريس باحثاً هو أيضاً عن ذلك القَسّ المختفي. بإمكاني أن أتهمك بقتله.

- لا وجود لأيّ جثّة.

- توجد أربع جثث أخرى تحتنا. من وضع في البالوعة أربع جثث بإمكانه جيّداً أن يُخفي خامسة في موضع آخر.

كنت بين يدي نذل، ورضخت. - حسناً، ماذا تريد؟

- توجد في النصوص التي سلّمتَها إلى غولوفينسكي فقرةٌ أثارت انتباهي، وهي خطّة استعمال الميترو لتفجير المدن الكبرى. ولكن لكي يصبح الموضوع قابلاً للتصديق ينبغي حقيقة أن تُفجّر فيه قنبلة.

- وأين، أفي لندن؟ هنا لا يوجد ميترو.

- لكن الحفريات بدأت، توجد أنفاق على طول نهر السين: أنا لا أحتاج إلى أن تتفجّر باريس. يكفيني انهيار عمودين أو ثلاثة من بين الأعمدة الساندة، والأفضل أن ينهار أيضاً جزء من الطريق المعبّدة. انفجار صغير، ولكن يُفهَم بمثابة التهديد وإثبات المخطّط.

- فهمت. ولكن ما دخلي أنا في هذا؟

- لقد سبق أن اشتغلت بالمتفجرات وتعرف من هو خبير بها، حسب علمي. انظر إلى الأمر من الزاوية الصحيحة. حسب رأيي سيحدث كلّ شيء دون عقبات، لأنّ هذه الحفريات الأولى لا يحرسها أحد أثناء الليل. ولكن لنفترض أنّ القائم بالتفجير تمَّ، لسوء الحظ، اكتشافه. إن كان فرنسيّاً فإنه سيجازف ببضع سنوات سجنا، وإذا كان روسيّاً فستندلع حرب فرنسيّة-روسيّة. لذا لا يُمكن أن يكون واحداً من رجالي.

أوشك ردّ فعلي أن يكون عنيفاً، لا يُمكن أن يدفعني إلى عمل جنونيّ مثل هذا، أنا رجل عاقل، متقدّم في السنّ. ثمّ تمالكت نفسي. ماذا كان مردّ الإحساس بالفراغ الذي أشعر به منذ أسابيع إن لم يكن لأني لم أعد فاعلاً؟

بقبول تلك المهمّة أعود إلى الصفّ الأوّل. وسأساهم في إضفاء مصداقيّة على مقبرتي البراغيّة، وأن أجعلها أكثر قُرباً من الواقع وبالتالي حقيقيّة أكثر ممّا كانت أبداً قبل ذلك. ومرّة أخرى، وحدي، سأهزم ملّة بأكملها.

- يجب أن أتحدّث في هذا مع الشخص المناسب، أجبته، وسأعلمك بالأمر خلال بضعة أيّام.

* * *

ذهبت للبحث عن غافيالي، كان لا يزال يبيع الخِرَق، ولكن بفضل مساعدتي، صارت له وثائق نظيفة وبعض المال المدّخر. للأسف، في أقلّ من خمس سنوات شاخ بصفة مَهُولة - جزيرة كايّان تترك آثارها. كانت يداه ترتعشان وكان يقدر بصعوبة على رفع الكوب الذي ملأته له بسخاء مرّات عديدة. وكان يتحرّك بصعوبة، ويكاد لا يقدر على الانحناء، وأتساءل كيف يفعل لجمع الخِرَق.

تفاعل بحماس مع العرض الذي قدّمته له: - لم يعد الحال مثلما كان في الماضي، حيث لم يكن بإمكانك استعمال بعض المتفجّرات لأنها لا تترك لك الوقت للابتعاد. الآن يُمكن إنجاز كلّ شيء بواسطة قنبلة توقيتيّة.

- كيف تعمل؟

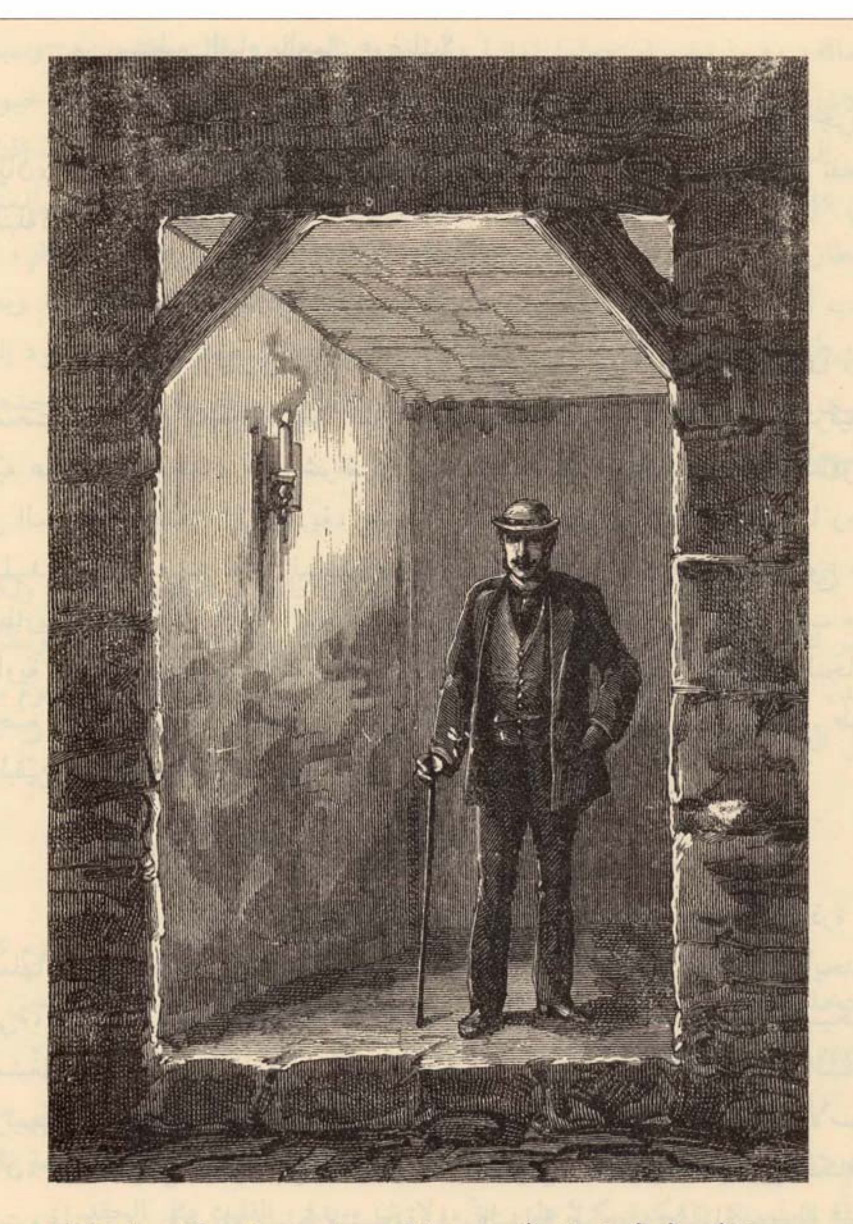
- بسيطة. تُستعمل ساعة منبّهة عاديّة وتُعدّل على الساعة المحدّدة. عندما يصلّ المنبّه إلى تلك الساعة تتحرّك شارة في المنبّه، ولكن عوض أن تنشّط الناقوس، إذا ربطتها بالطريقة الصحيحة، تنشّط المفجّر. وهذا الأخير يفجّر الشحنة، و..بُمْ. عندما تكون أنت بعيداً عشرات الأميال.

في اليوم الموالي جاء عندي حاملاً آلة مخيفة في بساطتها: كيف يُمكن تصوّر أنّ تلك الشبكة من الخيوط النحيفة وتلك الساعة الضخمة قادرة على إحداث انفجار؟ ومع ذلك فهو يحدث، قال غافيالي باعتزاز.

بعد ذلك بيوميْن ذهبتُ لاكتشاف الحفريّات التي كانت جارية متظاهراً بحبّ الاطّلاع، ومُلقياً بعض الأسئلة على العمّال. ووجدت حفرة يسهل النزول إليها من مستوى الشارع مباشرة إلى المستوى السفلي، في مدخل نفق تسنده الأعمدة. لا أريد أن أعرف أين يَقودُ النفق وهل يؤدي إلى مكان ما: يكفي وضع القنبلة في مدخله وإذا بالمهّمة أُنجزت.

واجهت غافيالي بحدّة: - إني أثمّن معرفتك، ولكنَّ يديك ترتعشان وساقاك لا تقدران على حملك، ولن تعرف كيف ستنزل في الحفرة ومن يدري ماذا ستصنع بكلّ نقاط التّماسّ التي حدّثتني عنها.

اغرورقت عيناه بالدموع وقال لي: - صحيح، لم أعد أصلح لشيء.



... لا أريد أن أعرف إلى أين يقود النفق وهل يؤدي إلى مكان ما: يكفي وضع القنبلة في مدخله وإذا بالمهمّة أُنجِزت... (ص462)

- من يستطيع القيام بالعمل عوضك؟

- لم أعد أعرف أحداً، لا تنسَ أنّ أفضل رفاقي لا يزالون في جزيرة كايّان، وأنت الذي أرسلتهم هناك. لذا عليك أن تتحمّل مسؤوليّاتك. تريد تفجير القنبلة؟ اذهب وضعها أنت.

- هراء. لست خبيراً بهذا.

- لا لزوم لأن تكون خبيراً، عندما يكون خبير قد لقّنك. انظر جيّداً ماذا وضعت على هذه الطاولة، إنها اللوازم الأساسيّة لتشغيل قنبلة تعمل بالتوقيت. منبّه عاديّ، مثل هذا، على شرط أن تعرف الآلية الداخلية التي تحرّك الناقوس في الساعة المحدّدة. ثمّ بطارية، عندما ينشّطها المنبّه تشغّل المفجّر. أنا رجل تقليدي، وأستعمل هذه البطاريّة المسمّاة دانيال سال. في هذا النوع من البطاريات، خلافاً للبطارية الفلطيّة، تُستعمل بالخصوص عناصر سائلة. يجب ملء حاوية صغيرة نصفها بسلفات النحاس ونصفها بسلفات الزنك. في طبقة النحاس يوضع طبق صغير من النحاس، وفي طبقة الزنك طبق صغير من الزنك. طرفا الطبقيْن هما بطبيعة الحال قُطْبا البطاريّة. واضح؟

- إلى حدّ الآن واضح.

- حسناً. المشكل الوحيد هو أنّه مع بطاريّة دانيال سال يجب المحاذرة في حملها، ولكن طالما ليست مربوطة بالمفجّر وبالشحنة، مهما حدث فلن يحدث شيء، وعندما يقع ربطها يجب أن توضع على سطح مستو، وإلا فسيكون المشغِّل غبيّاً. بالنسبة للمفجِّر أيّ شحنة صغيرة كافية. وأخيرا لنأتِ إلى الشحنة الرئيسيّة. فيما مضى من الزمن، قد تذكر ذلك، كنتُ أثني على البارود الأسود. الآن، منذ حوالى عشر سنوات اكتُشِف الفاعوس، عشرة بالمائة من الكافور ونيتروغليسيرين وغريّاء بنسبة متساوية. في البداية طُرِحت مشكلة سهولة تبخّر الكافور وما يتبعها من عدم استقرار المنتوج. ولكن منذ أن صنّعها الإيطاليّون في أفيليانا، أصبحت موثوقة أكثر. لا زلتُ متردّداً بينها وبين استعمال مادّة أخرى اكتشفها الإنكليز وهي الكُرديت، حيث عوّضوا الكافور بالفازلين بنسبة خمسة

بالمائة، وفيما تبقى استعملوا ثمانية وخمسين بالمائة من النيتروغليسيرين وسبعة وثلاثين بالمائة من قطن البارود محلول في الأسيتون، والكلّ في شكل خيوط مثل السباغيتي الخشنة. الآن سأرى ماذا سأختار، ولكن الفوارق ضئيلة. إذن، قبل كلّ شيء يجب وضع عقارب المنبّه على الساعة المحدّدة، ثمّ يُربط المنبّه بالبطارية وهذه الأخيرة بالمفجِّر، والمفجّر بالشحنة، ثمّ يُشغَّل المنبّه. حذارِ، لا يجب أبداً قلب ترتيب العمليّات، من البديهي أنك إذا ربطت ثمّ شغّلت، وبعد ذلك أدرت عقارب الساعة. .. بُمْ. فهمت؟ بعد ذلك بإمكانك أن تعود إلى البيت، أو أن تذهب إلى المسرح، أو إلى المطعم: القنبلة تشتغل وحدها. واضح؟

- واضح.

- يا حضرة النقيب، لا أجرؤ على قول إنّ ذلك في متناول طفل، ولكن يقدر على ذلك دون شكّ نقيب قديم في جيش غاريبالدي. يدك ثابتة، ونظرك جيّد، يكفيك أن تقوم بالعمليّات الصغيرة التي وصفتها لك. يكفي أن تقوم بها وفق الترتيب الصحيح.

* * *

قبلتُ المهمّة. إن نجحتُ، فسأعود فجأة شابّاً، قادراً على هزم كلّ مُردخاييِّي هذا العالم. وتلك العاهرة الصغيرة في غيتو تورينو. أنا صبيّ أو *gagnu*؟ سأريكِ ذلك.

أنا بحاجة إلى أن أنزع عني رائحة ديانا العابقة شهوانيّة، التي تُعذّبني منذ عام ونصف في ليالي الصيف. تفطّنتُ إلى أنّني لم أخلق للوجود إلّا لهزيمة تلك الملّة الملعونة. راشكوفسكي على حقّ، لا شيء يدفئ القلب مثل الحقد.

يجب أن أذهب لأداء مهمّتي في أبهى مظهر. ارتديتُ اللباس الرسمي الأسود *frac* واللحية الذين كنت ألبسهما في سهريات صالون جولييت آدم. واكتشفتُ عن طريق الصدفة في إحدى خزائني كميّة صغيرة من الكوكايين من نوع

"بارك ودايفس"، التي موّنتُ بها الدكتور فرويد. من يدري كيف بقيت هناك. لم أجرّبها أبداً، ولكن إن كان على حقّ، فهي ستعينني. وأضفت إليها ثلاثة أكواب من الكونياك. الآن أحسّ بنفسي لَيْثاً.

سيريد غافيالي المجِيء معي، ولكني لن أسمح له بذلك، سيعرقلني بتحرّكاته التي صارت بطيئة جداً.

فهمتُ جيّداً كيف تتمّ العمليّة. سأضع قنبلة يسجّلها التاريخ.

زوّدني غافيالي بالتحذيرات الأخيرة: - حاذر هنا وحاذر هناك.

يا للشيطان، لم أَصِرْ بعدُ عجوزاً عاجزاً.

* تاريخي

الشخصيّة الوحيدة المُخْتَلَقة في هذه الرواية هي البطل، سيموني سيمونيني - بينما جدّه النقيب سيمونيني ليس مُخْتَلَقاً، حتى وإن عرفه التاريخ فقط باعتباره المؤلف الغامض للرسالة الموجهة إلى القسّ بارّويل.

كلّ الشخصيّات الأخرى (ما عدا بعض الشخصيّات الثانويّة مثل العدل ريبودانغو أو نينوتسو) وُجدوا حقيقة وفعلوا وقالوا الأشياء التي فعلوها وقالوها في هذه الرواية. ولا يصحّ هذا فقط على االشخصيات التي تظهر تحت أسمائها الحقيقية (وحتى إن بدا للبعض غير مطابق للواقع، فقد وُجد حقيقة شخص مثل ليو تاكسيل) بل وحتى بالنسبة إلى شخصيّات تظهر تحت اسم خياليّ وذلك فقط لأني، اقتصاداً في السرد، جعلت شخصاً واحداً (مبتدعاً) يقول ويفعل ما قاله وفعله في الواقع شخصان (موجودان تاريخيّاً).

ولكن، بعد تفكير وتمعّن، فإنّ سيموني سيمونيني أيضاً، رغم أنه نتيجة لعملية إلصاق، بحيث أُسنِدت إليه أشياء قام بها في الواقع أشخاص مختلفون، قد وُجِد بصورة ما. بل أقول أكثر من ذلك، إنّه لا يزال موجوداً بيننا.

الحكاية والحبكة

يدرك الراوي جيّداً أن القارئ قد لا يقدر عبر الحبكة الفوضويّة شيئاً ما لليوميات المنسوخة هنا (مع العديد من التقديم والتأخير، أو ما يعبّر عنه

السينيمائيّون بالـ" فلاش باك")، على الرجوع إلى التسلسل الواقعي للأحداث، منذ ولادة سيمونينو إلى نهاية يوميّاته. إنه الاختلال المحتوم بين *story* و *plot*، مثلما يقول الأنغلوساكسونيُّون، أو الأتعس، مثلما يقول الشكلانيّون الرّوس (كلّهم يهود) بين *fabula* (حكاية) و *sjužet* أو حبكة. وإحقاقاً للحق، فقد وجد الراوي في كثير من الأحيان صعوبة في إيجاد طريقه، ولكنه يعتبر أنّ قارئاً منتبهاً بإمكانه أن يستغني عن هذه الدقائق ويستمتع مع ذلك بالرواية. مع ذلك وفي حالة قارئ صارم جداً، أو بطيء الفهم، فهذا جدول يوضّح العلاقات بين المستويَيْن (والتي هي في الواقع عادية في كلّ رواية - مثلما كانوا يقولون في السابق -جيّدة الصنعة).

في عمود "الحبكة" سُجِّلَ تتابع صفحات اليوميّة، الموافقة لفصول الرواية، كما قرأها القارئ. في عمود "الحكاية" يُعاد تركيب التتابع الواقعي للأحداث، التي تذكّرها أو أعاد تركيبها في أوقات مختلفة كلّ من سيمونيني أو دلّا بيكّولا.

| الفصل | الحبكة | الحكاية |
|---|---|---|
| 1. إنّ المارّ في تلك الصبيحة الضبابية | يبدأ الراوي تتبّع يوميّة سيموніني | |
| 2. من أنا؟ | يوميّة 24 آذار/مارس 1897 | |
| 3. عند مانيي | يوميّة 25 آذار/مارس 1897 (ذكرى الأكلات عند مانيي سنة 1885- 1886) | |
| 4. أزمنة جدّي | يوميّة 26 آذار/مارس 1897 | 1830- 1855 الطفولة والمراهقة حتى موت الجدّ |
| 5. سيمونيني فَحّاماً | يوميّة 27 آذار/مارس 1897 | 1855 - 1859 العمل عند الكاتب العدل ريبودانغو وأولى الاتصالات بالمخابرات |
| 6. في خدمة المخابرات | يوميّة 28 آذار/مارس 1897 | 1860 حوار مع رؤساء المخابرات البيمونتيّة |
| 7. مع الألف | يوميّة 29 آذار/مارس 1897 | 1860 على متن "إيمّا" مع دُومَا الوصول إلى بالرمو اللقاء مع نييفو، أوّل عودة إلى تورينو |
| 8. هرقل | يوميّة 30 آذار/مارس-1 نيسان/أبريل 1897 | 1861 موت نييفو، العودة الثانية إلى تورينو، الهجرة إلى باريس |
| 9. باريس | يوميّة 2 نيسان/أبريل 1897 | 1861... السنوات الأولى في باريس |
| 10. دلّا بيكّولا في حيرة | يوميّة 3 نيسان/أبريل 1897 | |
| 11. جولي | يوميّة 3 نيسان/أبريل 1897، ليلا | 1865 في السجن للتجسّس على جولي الفخ المنصوب للفحّامين |

| الفصل | الحبكة | الحكاية |
|---|---|---|
| 12. ليلة في براغ | يوميّة 4 نيسان/ أبريل 1897 | 1865 -1866<br>الصيغة الأولى من مشهد مقبرة براغ<br>اللقاء مع برافمان وغوجنو |
| 13. دلّا بيكّولا يقول إنه ليس دلّا بيكّولا | يوميّة 5 نيسان/ أبريل 1897 | |
| 14. بياريتز يوميّة 5 نيسان/ أبريل 1897 | آخر الصباح اللقاء في ميونيخ مع غودش 1867 -1868 | قتل دلّا بيكّولا |
| 15. دلّا بيكّولا يعود إلى الحياة | يوميّة 6 - 7 نيسان/أبريل 1897 | 1869<br>لاغرونج يتحدّث عن بولّان |
| 16. بولّان | يوميّة 8 نيسان/ أبريل 1897 | 1869<br>دلّا بيكّولا عند بولّان |
| 17. أيّام الكومونة | يوميّة 9 نيسان/ أبريل 1897 | 1870<br>أيّام الكومونة |
| 18. البروتوكولات | يوميّة 10 و11 نيسان/أبريل 1897 | 1871-1879<br>عودة الأب برغماسكي<br>إثراء مشهد مقبرة براغ<br>قتل جولي |
| 19. عصمان باي | يوميّة 11 نيسان/أبريل 1897 | 1881<br>اللقاء مع عصمان باي |
| 20. الروس؟ | يوميّة 12 نيسان/ أبريل 1897 | |
| 21. تاكسيل | يوميّة 13 نيسان/ أبريل 1897 | 1884<br>سيمونيني يلتقي تاكسيل |
| 22. الشيطان في القرن التاسع عشر | يوميّة 14 نيسان/ أبريل 1897 | 1884-1896<br>قصّة تاكسيل المعادي للماسونيّة |
| 23. اثنتا عشر سنة موفقة | يوميّة 15 و 16 نيسان/ أبريل 1897 | 1884 -1896<br>السنوات نفسها كما يراها سيمونيني (في هذه السنوات التقى سيمونيني بأطبّاء النفس عند مانيي مثلما وقع ذكره في الفصل 3) |

| الفصل | الحبكة | الحكاية |
|---|---|---|
| 24. قُدّاس ليليّ | يوميّة 17 نيسان/أبريل 1897 انتهت في فجر 18 نيسان/أبريل | 1896-1897 انهيار عمليّة تاكسيل 21 آذار/مارس 1897 قدّاس شيطاني |
| 25. توضيح الأفكار | يوميّة 18 و 19 نيسان/أبريل 1897 | 1897 سيمونيني يفهم كلّ شيء ويتخلّص من دلّا بيكّولا |
| 26. الحلّ النهائي | يوميّة 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1898 | 1898 الحلّ النهائي |
| 27. يوميّات مبتورة | يوميّة 20 كانون الأول/ديسمبر 1898 | 1898 إعداد المؤامرة |

Сергѣй Нилусъ.

# Великое въ маломъ и Антихристъ,

## какъ близкая политическая возможность.

ЗАПИСКИ ПРАВОСЛАВНАГО.

(ИЗДАНІЕ ВТОРОЕ, ИСПРАВЛЕННОЕ И ДОПОЛНЕННОЕ).

ЦАРСКОЕ СЕЛО.
Типографія Царскосельскаго Комитета Краснаго Креста.
1905.

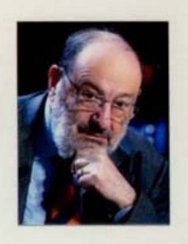
الطبعة الأولى من بروتوكولات حكماء صهيون، التي نشرت في كتاب العظيم في الحقير لسرغاي نيلوس.

| التاريخ | الأحداث الموالية |
|---|---|
| 1905 | صدر في روسيا كتاب **العظيم في الحقير**، لسرغاي نيلوس حيث نُشر نصّ قُدِّم له بمايلي : "سلّم لي صديق شخصي، توفّي الآن، مخطوطاً يصف، بدقّة ووضوح خارقيْن للعادة، مخطّطَ المؤامرة الكونيّة الرهيبة وتطوّرها. . . حصلت هذه الوثيقة بين يديّ منذ أربع سنوات تقريباً مع ضمان مطلق بأنها الترجمة الوفيّة لوثائق (أصليّة)، اختلستها امرأة من أحد كبار الزعماء، وأرفعهم درجة في الماسونيّة. . . تمّت سرقتها في أعقاب اجتماع سريّ للـ"مسارّين" (للمكرَّسين) في فرنسا- بلد يُعتبر وكر "المؤامرة الماسونيّة اليهودية". إلى من يريد أن يرى وأن يسمع أجرؤ على كشف هذا المخطوط بعنوان **بروتوكولات حكماء صهيون**. تُرجمت **البروتوكولات** فوراً إلى العديد من اللغات. |
| 1921 | اكتشفت صحيفة *London Times* الروابط بكتاب جولي وأعلنت **البروتوكولات** على أنها زَيْف ومنذ ذلك الوقت تواصل نشر البروتوكولات على أنها أصليّة. |
| 1925 | هتلر في كتابه *Mein Kamph* (I, 11) : "وما يدلّ على أنّ وجود هذا الشعب يقوم على أكذوبة مستمرّة واضح في بروتوكولات حكماء صهيون الشهيرة. إنها تتأسّس على زيف، كما تتشكّى كلّ أسبوع الـ *Frankfurter Zeitung* : وهنا يكمن أثبت دليل على أنّها حقيقيّة. . . عندما يصبح هذا الكتاب تراثاً مشتركاً لكلّ الشعب، يُمكن اعتبار أن الخطر اليهودي انتهى" |
| 1939 | هنري رولّان في *L'Apocalypse de notre temps* : "يُمكن اعتبارها العمل الأكثر رواجاً في العالم بعد الكتاب المقدّس". |

| إحالات أيقونية | الصفحة |
| --- | --- |
| انتصار كلاطافيمي، 1860، الحقوق محفوظة لمكتبة ماري إيفانز للـصُّـوَر (Mary Evans Picture Library) / وأرشـيـفـات ألـيـنـاري (Archivi Alinari). | ص145 |
| هونوري دوميي، نهار لا نُنفِق فيه... (الجمهور في الصالون، 10، للشاريفاري [Charivari]، 1852، الحقوق محفوظة للمكتبة الوطنية الفرنسية. | ص177 |
| هونوري دوميي، والغريب أن هناك أشخاصاً يشربون الأفسنت في بلد يُنتجُ خمراً جيّدة كهذه! (رسوم باريسيّة للجريدة الهزلية)، 1864، الحقوق محفوظة للمكتبة الوطنية الفرنسية. | ص336 |
| البوتي جورنال [Le Petit Journal]، 13 يناير 1895، الحقوق محفوظة لأرشيفات أليناري [Archivi Alinari]. | ص395 |

كل الصور الأخرى مستمدّة من الأرشيف الأيقوني للمؤلف.

# المحتويات



## أُمبَرْتو إيكو

وُلد أمبَرْتو إيكو في أليسّاندريا بإيطاليا سنة 1932. وهو فيلسوف وسيميائي وناقد وروائي وقدم إسهامات مهمة في هذه المجالات، ورئيس المدرسة العُليا للدراسات الإنسانية في جامعة بولونيا.

### من بين مؤلفاته الروائية نذكر:

**اسم الوردة** (1980). **بندول فوكو** (1988). **جزيرة اليوم السابق** (1994). **باودولينو** (2000). **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** (2004).

### من بين أعماله العلمية والأكادمية نذكر:

**العمل المفتوح** (1962). **البنية الغائبة** (1968). **القارئ في الحكاية** (1979). **السيميائية وفلسفة اللغة** (1984). **حدود التأويل** (1990). **البحث عن اللغة الكاملة** (1993). **ستّ رحلات في غاب السرديّة** (1994). **كانط وخلد الماء** (1997). **حول الأدب** (2002). **ان تقول الشيئ نفسه تقريباً** (2003). **من الشجرة الى المتاهة** (2007). **كتابات في الفكر الوسيط** (2012). **تاريخ البقاع والأماكن الأسطورية** (2013).

### من بين مجموعاته:

**دفاتر صغرى** (1963). **الدفاتر الصغرى الثانية** (1990). **خمس دراسات أخلاقية** (1997). **رسائل مينارفا** (2000).

### من بين مؤلفاته الأخيرة:

**مشية السرطان؛ حروب ساخنة وشعبويّة إعلامية** (2006). ولقد أشرف على الكتابيْن المصوّريْن **تاريخ الجمال** (2004). **تاريخ القبح** (2007).



## أحمد الصمعي

أُستاذ اللغة والأدب الإيطالي المعاصر في الجامعة التونسيّة. إلى جانب إسهاماته في مجال اللغة الإيطالية (4 مؤلّفات في تدريس اللغة الإيطالية بين 1995 و2000)، وفي تاريخ العلاقات التونسية الإيطالية (بيبليوغرافيا إيطالية حول تونس، 1998). إضافة إلى العديد من المقالات في الأدب والحضارة الإيطالية.

### ترجم من الأدب الإيطالي:

- إيطلو كلفينو، **خرافات إيطالية**، فنزي، تونس، 1988.
- جيوزيبي بونافيري، **خياط الشارع الطويل**، فنزي، تونس، 1998.
- أُمبرْتو إيكو، **جزيرة اليوم السابق**، أويا، طرابلس، 2000.
- نيكولو أمّانيتي، **أنا لا أخاف**، المركز الوطني للترجمة، تونس، كانون الأول/ ديسمبر 2008.
- أُمبرْتو إيكو، **اسم الوردة**، دار التركي، 1991؛ دار أويا، طرابلس، ليبيا، 2003؛ دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013.

### كما ترجم مؤلفات عديدة من الإيطالية إلى العربية ذات طابع علمي و تاريخي منها:

- سارجيو دونادوني، **مصر في الألفية الأولى ق.م**، أليف، تونس، 2004.
- برونو داغوستينو، **الأترسكيّون**، أليف، تونس، 2004.
- باولو سكارنيكيا، **الموسيقى الشعبيّة والموسيقى الراقية**، أليف، 2004.
- كرمال كسّار، **في معنى الشرف**، أليف، 2004.
- **ان نقول الشئ نفسه تقريباً** (م.ع.ت، بيروت، 2012)
- أُمبرْتو إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.

وهو الآن بصدد الانتهاء من ترجمة أحد أعمال إيكو الأخيرة والمسمى **من الشجرة الى المتاهة - دراسة في تاريخ العلاقة والتأويل**، الصادر في دار بومبياني لصالح دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

# مقبرة براغ

## Il Cimitero Di Praga

تدور أحداث هذه الرواية في القرن التاسع عشر، بين تورينو، باليرمو وباريس، وفيها نجد إبليسيّة تملّكتها الهستيريا، وقسًّا يموت مرّتَين، وبعض الجثث في بالوعة باريسيّة، وغاريبالديًّا يُدعى إيبّوليتو نييفو، اختفى في عرض البحر بالقرب من جزيرة سترومبولي، والبوردورو المزيّف لدرايفوس الموجّه إلى السفارة الألمانية، والتطوّر التدريجي لذلك الزيف المعروف ببروتوكولات حكماء صهيون، التي ستوحي فيما بعد لهتلر بمعتقلات الإبادة، ويسوعيّين يتآمرون ضدّ الماسونيّين، وماسونيّين وفحّامين ومادزينيّين يخنقون كهنة بأمعائهم نفسها، كما نجد غاريبالدي مصاباً بداء المفاصل معوجّ الساقَين، ومخطّطات المخابرات البيمونتيّة، والفرنسيّة، والبروسيّة، والروسيّة، والمجازر أثناء كومونة باريس حيث صار الناس يأكلون الفئران، وطعنات بالخنجر، وأماكن موحشة آهلة بالمجرمين وسط أبخرة الأفسنت يخطّطون لتفجيرات وثورات في الساحات، ولُحىً مستعارة، وعدول إشهاد زائفين، ووصايا كاذبة، وطوائف شيطانيّة ومحافل شعوذة. وهذه مادّة ممتازة لرواية في حلقات بأسلوب القرن التاسع عشر، تصاحبها هنا وهناك صُوَر كما هو الحال في الروايات المسلسلة لتلك الفترة. رواية فيها ما يكفي لإرضاء أشنع القرّاء، مع اعتبار شيء واحد، وهو أنّه ما عدا البطل، فكلّ الشخصيّات الأخرى في هذه الرواية عاشت وقامت حقيقة بتلك الأفعال. وحتى البطل قام بأشياء وقعت بحقّ، ما عدا أنّه قام بالكثير منها بينما قد قام بها في الواقع أشخاص مختلفون. ولكن من يدري، عندما نتحرّك وسط مخابرات وجواسيس مزدوجين وضبّاط خونة وكنسيّين مذنبين، كلّ شيء ممكن. حتى أن تكون الشخصيّة الوحيدة المُبتدَعة في هذه القصّة هي الأكثر واقعيّة من بين جميع الشخصيّات، وتشبه كثيراً شخصيّات أخرى لا تزال تعيش بيننا.



موضوع الكتاب رواية

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com

ISBN 978-9959-29-630-6

